المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بلاد شنقيط

المنارة.. و الرباط

عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني
من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)

تأليف:
الخليل النحوي

تونس ١٩٨٧

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بلاد شنقيط

المنارة.. و الرباط

٥٢٨ر٠ الح

الثمن : 6 دولارات او ما يعادلها

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بلاد شنقيط

المنارة.. و الرباط

عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني
من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)

تأليف:
الخليل النحوي

تونس ١٩٨٧

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بلاد شنقيط

المنارة.. و الرباط

ز٨٢٥١ح

الثمن : 6 دولارات او ما يعادلها

م د / ١٩٨٧ / ١٢ / ٠٠٢

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
مكتبة
المنتدى الإسلامي
١٤١٧ هـ

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بـلاد شنقيـط

المنارة ... والرباط

عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني
من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)

تأليف
الخليل النحوي

تونس ١٩٨٧

مكتبة المنتدى الاسلامي
بلاد شنقيط المنارة ..والرباط
الخليل النحوي
928.2

٥٢٢٤
مكتبة ... الإسلامي
المصدر: ... تراجم ، بلدان
رقم ...: ٩٢٨٫٢
...: خ
رقم التسجيل:

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الآراء والأفكار التي تنشر باسماء كتّابها،
لا تحمل بالضرورة وجهة نظر المنظمة.

النحوي، الخليل

بلاد شنقيط المنارة والرّباط : عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة / تأليف الخليل النحوي ـ تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧ ـ ٦٤٧ ص.

م د / ١٩٨٧ / ١٢ / ٠٠٢

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة للمنظمة

شهـــادات

«كانت صورة الشناقطة، وما تزال في البلاد العربية، أنهم الممثلون الأوفياء للثقافة العربية الاسلامية في نقائها وأصالتها، وأنهم سدنتها في قاصية ديار الاسلام، المرابطون في ثغورها حفاظا عليها ونشرا لها واشعاعا بها».

د. محي الدين صابر

ونحن ركب من الاشراف منتظم ... أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بهـا نبيـن ديـن الله تبيانـا

المختار بن بونه الشنقيطي

«ان من الشناقطة علماء قد لا نغالي اذا قلنا عنهم أنهم لا يقلون أهمية عن أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وأبي الثناء الالوسي وعثمان بن سند وأضرابهم».

عبد اللطيف الدليشي الخالدي

«ان الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين (١٢ و١٣ هـ) جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخو الأدب العربي على اطلاقه».

طـه الحاجري

«لا يوجد أي مجتمع بدوي يبلغ مبلغ البيضان (الشناقطة) في العلم بالعقيدة والتاريخ والأدب والفقه وعلوم العربية».

ج. بيري
(مفتش في عهد الاستعمار)

«لقد شكلت المحاضر في عهد الاستعمار قلعة حصينة للصمود والمناعة الثقافية».

أ. لكرتوا

تقديـم

ان اهتمامي بالحياة البدوية؛ وبالمجتمع الصحراوي، قديم؛ ولقد أسلفت في ذلك دراسات؛ ولي، لو اتسع لي الوقت؛ وامتدت الحياة؛ خطة دراسة انتربولوجية، في خصائص البداوة الفكرية في التاريخ. وقد كنت أعدّ موريتانيا، مثلا من أمثلة المجتمعات البدوية العربية القليلة، التي استطاعت أن تقيم حياة متميزة، في اتصالها الانساني المتنوع، مع المجتمعات الافريقية، وفي العلاقات الفريدة التي نسجتها معها من خلال الصلات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، مما أعطاها صورة فريدة، وخصوصية في بناء حياتها التي أبدعت مثلها؛ وصنعت تقاليدها، في مواجهة المستجدات والمستحدثات، وألوان الحضارات المختلفة التي تعرضت لها. وتظل الصحراء، في كل مكان، مستودعا أمينا للافكار ولنظم الحياة التقليدية ولهذا فهي تحتفظ بالأصالة، وبالنقاء، إلى جانب الابداع، في ما تحتاج إليه من صور الحياة الجديدة التي تقتحم عليها وحدتها، ذلك أن تلك الصور لا تكاد تصلح للبيئة الصحراوية دون تطويع لها، والتطويع باب من أبواب الابداع.

ومن هنا، فقد كان اعجابي بالحياة الموريتانية، يزداد يوما بعد يوم، وفي اطار سعيي، في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، حتى من قبل أن تصبح موريتانيا عضوا في المنظمة، أعدّ معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة أول دراسة ميدانية باللغة العربية، عن موريتانيا، كانت مدخلا للقارئ العربي للتعرف على هذا القطر العربي الرائع؛ وقد تهيأ لي من خلال عملي، أن أزور موريتانيا في أكثر من مناسبة علمية وثقافية، وأن أشهد مدينة شنقيط التاريخية، التي أصدر الأخ الأستاذ مختار أمبو، المدير العام لليونسكو، منها نداء عالميا لانقاذها؛ وقد أصدرت في المناسبة نفسها نداء مساندا، ثم كان للمنظمة العربية شرف الاسهام في تنظيم نشاط المخطوطات العربية فيها، والعون الفني بتدريب العاملين؛ وتوفير الأجهزة، واستمر التعاون بين المنظمة وبين الأوساط التربوية والثقافية الموريتانية في مستوى نافع، وفي هذا السياق، كان لقائي مع الأخ الأستاذ الخليل النحوي الذي كان عضوا في المجلس التنفيذي للمنظمة عن موريتانيا؛ وقد كانت له مشاركة مسؤولة، في أعمال المجلس؛ والأخ الأستاذ النحوي، شاعر وأديب؛ وهو من أهل القدرة والعطاء، وله سعي قومي، وغيرة على ثقافة أمته، واعتزاز بها، وكان الحديث بيننا موصولا، حول ضرورة العناية بالحياة الثقافية الموريتانية؛ وذلك التقليد الرصين الذي استمر في المجتمع الصحراوي؛ لصناعة العلم والمعرفة، ولحماية العقيدة والدين، فيما سمي «المحاضر» وهو أمر تنفرد به موريتانيا... وهو مشروع جليل؛ ومرهق، يتطلب احاطة واستيعابا لتاريخ المنطقة سياسيا واجتماعيا

وثقافيا، في علاقاتها المختلفة، ويستدعي معايشة لظاهرة «المحاضر»؛ وفوق ذلك، لا يصلح هذا الأمر، ولا يستقيم الا بايمان به، عظيم، و كان الأخ الأستاذ النحوي، وقد تجمع له كل ذلك، يتفق معي في ان هذه رسالة ثقافية قومية، تتعدى موريتانيا؛ لتكشف للأمة العربية واقعا جديدا في تاريخ ثقافتها، وفي مسيرة فكرها؛ واقعا لم يسبق أن تعرض له، في مثل هذا الشمول وفي هذا الاتساع، وفي هذا العمق، باحث أو دارس من قبل، وخاصة فيما يتصل بالمنهج الدراسي، وبما استعين فيه من أدوات بحثية من دراسات ميدانية، ومقابلات ولقاءات، مع المعنيين بالظاهرة، إلى جانب أسلوب الملاحظة المشاركة.

لقد بذل الأستاذ الخليل النحوي الجهد الطويل الذي تسنده معرفة وثيقة، ونظرة بصيرة، ويعينه انتماء عميق؛ إلى هذا التراث الجليل، وتفاؤل مشروع بالمستقبل الواعد... ولقد يسر له دراسته، الأسلوب العربي الرصين، والتعبير العلمي العريق، مما جعل هذا الكتاب، مع تنوع موضوعاته الغنية ومعلوماته الغزيرة، نموذجا من البيان العربي الناصع، وهكذا جمع الأستاذ النحوي في دراسته هذه؛ بين دقة المنهج الموثق المصادر لمادته، وبين السعة الموضوعية لها؛ وبين الأداء المبين عنها، فالتقى في هذا العمل الذي نقدمه في اعتزاز، للمجتمع الثقافي العربي؛ التعبير الأدبي الرفيع؛ والحقيقة التاريخية الصلبة.

وهكذا تعرض صفحة من تاريخ الفكر العربي؛ والابداع العربي، كانت مطوية، تعرض على الأمة العربية، التي قدرت، في كل حين، دور العلماء الشناقطة الأفذاذ في النهضة الأدبية والفكرية العربية، بما أسهموا في تحقيق الموسوعات العربية الكبرى، والقواميس الأمهات في اللغة، حين طبعت مخطوطاتها للمرة الأولى في مطلع النهضة الحديثة، في عواصم البلاد العربية، وبخاصة في القاهرة؛ ولأول مرة يوضع ذلك الدور في اطاره التاريخي والفكري والتربوي، من خلال عرض ظاهرة فكرية فريدة؛ هي ظاهرة «المحاضر» أو الجامعات البدوية، التي أبدعتها التجربة الشنقيطية؛ كمؤسسة متكاملة للمجتمع العربي الاسلام في قاصية الوطن العربي، فكانت، كما يقول الأستاذ النحوي «مدارس علم، ورباط جهاد ومنارة اشعاع» يلتقي حولها الالتزام الفكري والديني، ويتلاحم الانتماء العربي الاسلامي؛ ويكون السعي في المجالين، رباطا ونضالا وجهادا؛ وهذا، هو قمة العطاء القادر.

واني اذ أثني على هذه الدراسة الجليلة؛ فاني أعتز بأن تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، قد أعانت على تحقيقها لتكمل حلقة كانت مفقودة، في تجربة الفكر العربي، ولتقدم نموذجا فريدا، لمؤسسة اجتماعية بدوية متكاملة، مؤسسة أبدعها الفكر العربي ابداعا على غير مثال، تتعانق فيها المعرفة والعقيدة، وكانت وعاء للتواصل الفكري والديني على مدى قرون في الصحراء، وهي اليوم قائمة؛ تؤدي دورها؛ ولكنها في ظل المعطيات السياسية والاجتماعية والتنظيمية الجديدة، ينبغي لها أن تتكيف مع

الواقع الجديد؛ والا تهمل هذه التجربة أو تلغى؛ فان لها ذمة ترعى، وحرمة تصان... وهذا هو دور الحكومة الموريتانية ودور المؤسسات الثقافية والتربوية، ولقد كان حرص المنظمة على هذه الدراسة، اسهاما في هذا السبيل للتعريف بابداعاتنا المؤسسية والسعي إلى تطويرها وتكييفها، والانتفاع بها.

ان هذا الكتاب، يقدم نفسه، للقارئ؛ وهو محيط؛ لا تغنى في الحديث عنه، الاشارة؛ ولا التنويه، ولابد من ركوب عبابه؛ في رحلة المغامرة الممتعة، في الافاق الجديدة التي يقود إليها، الأستاذ النحوي، الذي لا كفاء لعمله هذا، الا عند أمته، وفي تاريخ ثقافتها، فاني وقد عايشت هذه الفترة الناصبة في اعداد هذه الدراسة، أدرك مدى ما بذل الأستاذ النحوي، راضيا، من جهد، وما لقي من عناء؛ ومن يطلب الحسناء فليغلها المهر، وأشهد أن الأستاذ النحوي قد فعل والله من وراء القصد، وهو المسؤول ان ينفع بهذا العمل.

د. محيي الدين صابر
المدير العام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يكاد الجيل العربى المعاصر لا يعرف شيئا عن **بلاد شنقيط**، فمنذ عقود من الزمن، أصبحت شنقيط نكرة في محيطها العربي ـ الاسلامي، بعد أن كانت معرفة في قرون خلت.

كان الشناقطة يجوبون ديار العروبة والاسلام، سفراء لبلدانهم، مفصحين عن عبقريتها، حاملين منها العلم والأدب رسالة حياة وشهادة انتماء، فيُلَقَّون بالاكرام والتجلة أينما حلوا، تحل بهم شنقيط في القلوب قريبة مكينة وان بعدت الشقة.

كان المسلمون في افريقيا السوداء وفي الحجاز ومصر والسودان وغيرها من ديار العروبة والاسلام يرون صورة العلامة الأديب الحافظة في كل قادم من تلك الصحاري النائية التي تعانق رمالها شطآن المحيط الاطلسي وضفاف نهر السنغال.

ما كانت مدينة شنقيط دار خلافة أو حكم، وما انتظمت فيها وما حولها، بعد المرابطين (ق ٥ هـ) دولة تجمع شتات سكان الصحراء فينسبون اليها، وانما كانت شنقيط مركز اشعاع علمي، تحمل النسبة إليه، تلقائيا، جملة المعاني التي تتناثر في التراجم : عالم، فقيه، محدث، حافظة، شاعر، رواية لأيام العرب وأشعارها... الخ.

ولذلك كانت هذه الكلمة (شنقيط) بحروفها الخمسة ـ وليس الأرض والسكان فحسب ـ هدفا لغارات المستعمرين الذين اقتحموا البلاد، مطلع القرن العشرين، بعد جهد جهيد.

لقد بهرهم هؤلاء «البيضان» «الذين كان ـ ومازال ـ لهم علماء وفقهاء وأدباء معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية»* ووجدوا أنفسهم في بلد «**تمثل الثقافة فيه قمة المجد**»، ولاحظوا أنه «لا يوجد أي مجتمع بدوي يبلغ مبلغ البيضان (الشناقطة) في العلم (...) انهم يتحدثون العربية الفصحى بطلاقة ويسر أحسن مما يتحدث بها سكان تونس والقاهرة. ولا يندر أن تجد فيهم راعي ابل من أبسط الرعاة يترنم بالشعر الجاهلي».

وخلص رجال الاستعمار من مشاهداتهم فقالوا ان هؤلاء القوم «**لا يمكن أن ينظروا الى حضارتنا بعين الاعجاب**».

★ الاستطرادات بين مزدوجين من تقارير استعمارية نعود إليها في غضون الكتاب.

وكان لا بد من مواجهة حادة على الساحة الثقافية لتغيير هذه الصورة.. فكان البدء بالكلمة.. كانت كلمة «شنقيط» ـ بدلالاتها المعرفية ـ أول ضحايا العدوان الاستعماري، فقد ابتعث الفرنسيون كلمة «موريتانيا» من مرقد روماني عتيق لتكون علما على بلاد شنقيط، وان كان الرومان لم يحكموها. وكان في دلالة العلم الجديد (موريتانيا : بلاد العرب أو السمر) ما يضمن لها حظا من القبول.

لكن من الحق أن «موريتانيا» هذه قد نهضت على أنقاض «شنقيط» أو على ركن منها متصدع؛ فقد أعمل المستعمر معول الهدم في البنيان الحضاري والميراث الثقافي الذي لم تكن شنقيط إلّا عنوانا له وعلما عليه.

ولئن نجح الشناقطة في افشال مخططات المسخ والاستلاب الثقافي، فلقد كان للمستعمر قسط من النجاح تجسد في اضعاف المناعة الحضارية للمجتمع واحكام عزلته وتوهين قدراته العلمية، فتقلص الاشعاع الشنقيطي منذ دخول الاستعمار، وكادت الصلة بالبلاد العربية، خاصة، تؤول الى انقطاع، فلا عجب أن تجد اليوم على مقربة من الأزهر أو الزيتونة وغيرهما من اذا حدثته عن شنقيط استخشن الكلمة واستعادها، كأن لم يسمعها، ليتبين تركيبها... بل لا عجب أن يقدم «موريتاني» (شنقيطي في السابق) نفسه في ملأ من الأقربين ، فيسأله أحدهم بحسن نية : بريطاني؟..!

لقد تحول شنقيط، في عمر الاعلام السيّار الى نكرة. وما ذاك إلّا أنها والأمة من حولها، وقعت في وهدة تاريخية اختلت فيها الموازين وتقطعت العرى، فاذا العرب يسترخصون من تاريخهم ويبخسون من عطائهم الثقافي ما يتخذونه وراءهم ظهريا.

فعلى الغيارى لأمتهم وثقافتها تقع اليوم مسؤولية تقويم المسار بشيء من السعي الحميد لاستكناه مجاهل تاريخ الامة وتتبع مراحل عطائها ومواطن اشعاعها، أمانة للتاريخ وتنويرا للأجيال وترسيخا للثقة بالامة، وإحقاقا لما هو حق من وحدتها واتساع دائرة عطائها العلمي وجهادها الديني.

وفي هذا الاطار بالذات يندرج العمل الذي نحن بصدده، فقد كانت شنقيط رباطا من ربط الجهاد، أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا، ومركزا من مراكز الاشعاع العلمي لحمت فيه الثقافة العربية شتات الأعراق والأجناس.

لم يقدر مجتمع الثقافة، في ظل الدولة وفي غيابها، كما كان الشناقطة يقدرونها، فلقد كان العلم لهم وطنا ونسبا وحسبا، وبالعلم - لا بالعرق ولا السلالة - تبلورت بنية المجتمع الشنقيطي، وانتسجت خيوطه، فشعر الهاشميون والامويون والصنهاجيون والفوتيون ـ وقد أخذوا الكتاب بقوة، وآووا من المعرفة الى ركن شديد ـ أنهم، وان كانوا أولاد أخياف، ذرية بعضها من بعض، تؤلف بينها أم حنون.

لقد حسمت الثقافة العربية الاسلامية في بلاد شنقيط خلاف المؤرخين والنسابة في أصول صنهاجة، فأعلن القوم، وهم يحتضنون اللغة العربية : تعليما وتعلما وتأليفا وشعرا، منسلخين مما عداها، أنهم عرب أقحاح... وقطعت جهيزة قول كل خطيب.

ولقد حملت البادية بهؤلاء القوم لواء الحركة العلمية العربية، فتبين في مضارب البدو الشناقطة، أن العلم عند العرب ليس ربيب الحضارة، بل هو توأم الانسان يلازمة ملازمة الظل في الحل والترحال.

وبالعلم والمعرفة، كانت للشناقطة فتوحات في أعماق افريقيا ونفحات في البلاد العربية وآسيا. وكان القلم والسيف لديهم رضيعي لبان وفرسي رهان، على أن للقلم عندهم صولة لم تكن للسيف.

لقد شهدت بلاد شنقيط منذ القرن العاشر الهجري خاصة، نهضة ثقافية شاملة، فانتشرت المحاضر (الجامعات الاهلية) في أرجاء البلاد، وأقبل الناس عليها بشغف فكان لهم في رحابها رهبانية علم وجهاد ثقافي كبير وعطاء ثر : شعرا ونثرا. لكن القوم، وقد انصرفوا الى ما هو عندهم أجدى وأنفع من ضروب النشاط المعرفي لم يعنوا بتدوين حركتهم العلمية والتأريخ لها وتوثيق أحداثها، إلا شذرات قليلة متفرقة كادت الأيام تلوي بها.

ولعل أهم ما نشر أو كتب عن الحياة الثقافية من المراجع التي استفدنا منها في عملنا هذا :

- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد ابن الأمين. وقد طبع في القاهرة ثلاث مرات أولاها سنة ١٩١١، وثالثتها سنة ١٩٦١. وقد نفد من الأسواق.
- فتح الشكور في تراجم أعيان علماء التكرور للطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي. وقد طبع في بيروت سنة ١٩٨١.
- دراسات في تاريخ التشريع الاسلامي في موريتانيا للدكتور محمد المختار ابن أباه. وقد طبع بالفرنسية مع ملاحق عربية في تونس سنة ١٩٨٠.
- دراسة باللغة الفرنسية للمجتمع الموريتاني من خلال كتاب الوسيط أنجزها الأستاذ أحمد بابا مسكه. وطبعت في باريس سنة ١٩٧٠.
- حياة موريتانيا للمختار بن حامد، وهو موسوعة ضخمة بالغة الأهمية، تناول فيها المؤلف جوانب الحياة السياسية والثقافية للبلاد، وفصل في شأن قبائلها ومنها جزءان تحت الطبع في تونس.
- الشعر والشعراء في موريتانيا للدكتور محمد المختار ابن أباه. وقد طبع في تونس سنة ١٩٨٧.

ـ الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، للأستاذ أحمد ابن الحسن، وهو أطروحة وضعها سنة ١٩٨٦ لنيل شهادة الدكتورا في تونس.

وقد نشط طلاب المدرسة العليا لتكوين الاساتذة والمعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية والجامعة في نواكشواط، فانصرفوا خلال السنوات الاخيرة الى دراسة جوانب من الحياة العلمية للبلاد في رسائلهم الجامعية. ولعل من ألصق هذه الرسائل بموضوعنا رسالة الأستاذ محمد المصطفى الندى حول «دور المحاضر في موريتانيا».

ورغم أهمية هذه المصنفات وغيرها مما كتب عن البلاد، فإن الفراغ أكبر من أن تملأه. وما زال الضباب يلف جوانب كثيرة من تاريخ الحياة العلمية الثقافية الشنقيطة. ويد البلى تلاحق ذخائر التراث هناك، والصدور التي تكنز العلم وتحفظ ذكريات «المحضرة»، لا تفتأ تتناقص يوما بعد يوم.. وفي ذلك خسارة قومية أكيدة، تشكل مواجهتها عبئا كبيرا لا بد أن يكون قوميا هو الآخر.

لقد أدرك الدكتور محيى الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم هذه الحقيقة، وخبر من أخبار الشناقطة وعاين من آثارهم، فشهد أنهم «الممثلون الأوفياء للثقافة العربية الاسلامية في نقائها وأصالتها، وأنهم سدنتها في قاصية ديار الاسلام المرابطون في ثغورها حفاظا عليها ونشرا لها وإشعاعا بها».

وكانت شنقيط ـ وهذه صورتها ـ حاضرة دوما في هم ثقافي قومي كبير، يتنامى بين جنبيه ويتسع اليوم تلو اليوم، كنت أشعر، كلما لقيته، أنه ينظر الى التراث العربي ـ الاسلامي الشنقيطي بحس قومي حضاري مرهف وبروح من المسؤولية التاريخية العالية، واعيا أن هذا التراث مأثرة لكل العرب ومفخرة للمسلمين أجمعين.

فلا جرم أن يكون الدكتور محيى الدين صابر، حامل الهم الثقافي القومي، صاحب المبادرة في الدعوة الى انجاز كتاب يكون قبسا جديدا في مجاهل تاريخ الثقافة العربية الاسلامية، في مراكزها الغربية القصوى.

لقد شرفني، اذ كلفني بانجاز هذا العمل، واذ رافقني الساعات في مراحل تصوره واعداده، فأنارت توجيهاته أمامي سبل العمل، وكان لعنايته الجادة ومتابعته الشخصية الأثر البالغ في الافضاء بهذا الجهد الى غايته.

وقد أردناه كتابا يعرض، بشيء من التبسط للحياة العلمية والثقافية والجهاد الديني في بلاد شنقيط، ويعنى في هذا السياق عناية خاصة بالمحضرة، تلك المؤسسة الفريدة، التي قامت في البادية، فكانت بها مدرسة علم ورباط جهاد ومنارة اشعاع.

وهكذا، عمدنا الى تناول الموضوع من خلال المحاور التالية :

١ ـ مدخل يعرض الاطار التاريخي والجغرافي والبشري الذي قامت فيه المحضرة، وتبلورت الدلالة لمعرفية لكلمة «شنقيط».

٢ ـ ستة أبواب، منقسمة الى فصول تتناول :

- نشأة المحاضر وتطورها وما لذلك من عوامل وأسباب.
- خصائص المحضرة وطبيعة الحياة فيها ومواردها وآداب الدراسة وتقاليدها ومناهج الدرس المحضري.
- الحصاد العلمي الشنقيطي في مجالات التأليف والشعر، واشعاع الشناقطة في افريقيا والبلاد العربية.
- جهاد الشناقطة في سبيل نشر الاسلام واقامة الدولة الراشدة ومواجهة الغزو الاستعماري، ونماذج من أبهم المجاهد.
- واقع المحضرة اليوم، ومزاياها ومميزاتها مقارنة بالنظام التربوي المعاصر، وآفاق مستقبلها.

٣ ـ ملاحق تتضمن تراجم لجملة من الاعلام الذين ورد ذكرهم في غضون الكتاب، وفهرسا للمؤلفين الشناقطة وقوائم بأسماء بعض شيوخ المحاضر وخريجها .

وقد أضفنا الى ذلك من الفهارس ما نرجو أن يكون عونا للباحثين في الاستفادة من هذا العمل.

وبعد،

فقد صرف في هذا العمل المتواضع جهد غير هين، وتطلب انجازه حمل عصا التسيار والعودة الى مئات المراجع المخطوطة والمطبوعة والملفات الوثائقية، والاصغاء الى كثير من الشيوخ المحنكين وأهل العلم الذين يحملون في صدورهم بقية مما ترك الأولون.

وما كان لي أن أنجز هذا العمل إلّا بعون من الله ثم بمساعدة قوم آزروني فيه وشدوا عضدي، سواء من داخل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أو من خارجها. فقد لقيت من معاوني المدير العام للمنظمة، ومن الكتبة فيها التعاون الطيب.

وكان الأستاذ أحمد بن الطلبة الخبير بالجهاز الدولي لتنمية اللغة العربية والثقافة الاسلامية نعم العون والسند لي في مراحل العمل المختلفة، فقد أفادني بآرائه وتوجيهاته ومعلوماته ومراجعه، ولم يأل أي جهد في هذا السبيل.

وللشيخ عبد الرحمن بن عبد الله آل محمود وكيل رئاسة المحاكم الشرعية في قطر ذمة في عنقي، فقد دعاني من قبل للمحاضرة في الدوحة حول «المحاضر» فحفزني على البحث ومهد السبيل تمهيدا لهذا العمل...

وكنت، وأنا أعد هذا العمل تلميذا في مدرسة عدد من مشايخ بلدي الأجلاء، خاصة : الوالد الشيخ محمد النحوي، والشيخ محمد سالم ابن عبد الودود والشيخ أباه (محمد فال) بن عبد الله، والشيخ محمد سالم ابن المحبوبي فقد تعلمت منهم الشيء الكثير.

كما لقيت عون عدد كبير من أهل المودة ورجال الثقافة الموريتانيين وانه ليؤسفني أن لا أتمكن من حصرهم في هذا السياق، على أن لهم وللذين ذكرت فضل عليَّ أذكره فأشكره خالص الشكر المستحق.

وللدكتور محي الدين صابر خاصة، وللمنظمة العربيةُ للتربية والثقافة والعلوم من خلاله، ذمة في عنقي وعنق الشناقطة وكل الذين يحملون الهم العربي الاسلامي في صدورهم، وشكر موفورمستحق، كان أحق به وأهله.

وعلى الله قصد السبيل.

بارينا ـ المحرم ١٤٠٧ هـ
سبتمبر ١٩٨٦ م

الخليل النحوي

مفردات تتكرر في الكتاب

١/مصطلحات تربوية :

- المحضرة : جامعة اسلامية شنقيطية أكثر ما توجد في البادية
- المرابط : شيخ المحضرة، والعالم عموما
- الطلبه : علم على بيوتات العلم والتصوف الكبيرة
- الطالب : المرابط (اختلاف في الاصطلاح حسب المناطق)
- المؤيّد : التلميذ أو الطالب الذي يدرس في المحضرة، ولا زاد له
- الدولة : طالبان - فأكثر - يشتركان في دراسة متن واحد في المحضرة.

٢ / اعلام بشرية (مجموعات)

- الزوايا : القبائل المختصة أو المهتمة بالعلم، تعلما وتعليما
- حسان : القبائل العربية ذات الشوكة
- البيضان : علم على العرب الشناقطة، بما فيهم العرب السمر (السود)

٣/اعلام جغرافية (يظهر جلها على الخريطة) :

- آدرار
- اينشيري
- البراكنة (علم على مجموعة قبلية حسانية أيضا)
- الترارزة (علم على مجموعة قبلية حسانية كذلك)
- تكانت
- تيرس
- الحوض
- الرقيبة
- القبله : علم قديم على المناطق الجنوبية الغربية من البلاد.

مكتبة
١٤١٧ هـ

٤/ شربيه

حرب أهلية بين الزوايا وبني حسان في القرن الحادي عشر الهجري.

مدخل تاريخي

الأرض ... والسكـان

١ ـ من صحراء الملثمين.. إلى موريتانيا

عرفت بلاد شنقيط بأسماء متعددة تحيل على حقب وعهود تاريخية مختلفة وتقع على مناطق غير متطابقة، ما فتئت تتسع وتضيق عبر العصور. ولعل أشهر هذه الأسماء : صحراء الملثمين، بلاد التكرور، بلاد شنقيط، موريتانيا.

وهناك أسماء، أو نعوت أخرى أقل انتشارا، فقد أطلق العلماء الشناقطة : الشيخ محمد المامي (١٢٩٢ هـ/١٨٧٥ م) وميلود بن المختارخي وسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم (١٢٣٣ هـ/١٨١٨ م) على بلادهم اسم «البلاد السائبة» وهي صفة تبين ما كانت عليه البلاد على عهدهم من «سيبة» أي فوضى وانفلات من قبضة السلطان. وإلى هذا المعنى تشير تسميات أخرى، مثل «المنكب البرزخي» و«بلاد على فترة من الأحكام».

وقد استعصى على بابا ابن الشيخ سيديا (١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م) اسم جامع مانع فتحدث عن هذه «البلاد المغربية الصحراوية البيضانية»(١).

وسنقف عند الأسماء ذات الاحالات التاريخية والجغرافية الهامة، وهي في عمومها أسماء مرتبطة بدول وإمارات حكمت البلاد أو أجزاء منها، أو بعهود اشعاع ثقافي شهدتها البلاد.

غانـة ومـالـي

تعتبر غانة ومالي من أقدم الدول الافريقية، فقد حكمت غانة منطقة وسط النيجر منذ القرن الثالث للميلاد وامتد نفوذها الى بلاد شنقيط، فشملت مناطق آوكار والحوض وشمال نهر السنغال(٢).

وازدهرت مملكة مالي الاسلامية في العصور الوسطى وعاشت حتى سنة ١٥٠٠ م. وامتد سلطانها في عهودها الأولى الى شواطىء المحيط الأطلسي غربا وبعض مناطق الصحراء شمالا(٣).

صحراء الملثمين

كان الصنهاجيون المقيمون بالصحراء أهل لثام في قديم عهودهم. ولذلك غلب عليهم اسم «الملثمين» ونسبت اليهم الارض فسميت «صحراء الملثمين».

وقد مدحهم الشاعر أبو محمد بن حامد الكاتب باللثام وعين المقصود بالملثمين، فنمى لمتونة وهي من صنهاجة الى حمير حيث قال :

قوم لهم شرف العلى من حمير — وإذا انتموا لمتونـة فهـم هم
لما حووا احـراز كل فضيلـة — غلب الحيـاء عليهـم فتلثمـوا

وما نسبت بلاد شنقيط الى هؤلاء الملثمين إلّا لأنهم كانوا في قرون الاسلام الأولى سكانها الغالبين عددا ونفوذا، فكانت قبائل صنهاجة الثلاث : لمتونة ومسوفة وكداله تنتشر في أركان البلاد، وفيها أقاموا دولة أنجبت بعد قرنين وزيادة دولة المرابطين.

فقد اجتمعت لمتونة وكدالة ومسوفة على إقامة دولة إسلامية يتناوبون قيادتها، واتخذوا من اوداغست عاصمة لهم. فتعاقب على الملك ثلاثون ملكا من لمتونة قبل أن يصل الأمر الى أبي بكر بن عمر. ومن أشهر هؤلاء الملوك تيلوكاكين، وكانت له فتوحات وابنه تيلوتان المتوفي سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧م وكان معاصرا لعبد الرحمن الداخل(٤). وقد مرت بالدولة الصنهاجية مرحلة وهن نتيجة للخلافات القبلية استمرت الى أن وصل الامر الى «ترسين» فتحالفت القبائل الصنهاجية تحت قيادته لمواجهة دولة غانة التي كانت تهدد التجارة الصحراوية ولكن الحافز الديني كان حاضرا في هذه الحركة، فقد حج الامير ترسين على ما يذكر، واعتنق عند عودته فكرة الجهاد ضد الوثنيين وتوفى وهو يحاربهم سنة ٤١٤ هـ/١٠٢٣ م(٥).

وخلفه في مركزه يحي بن ابراهيم الذي جدد الدولة اللمتونية باقامة دولة المرابطين(٦).

وقد ذكر البكري صاحب أوداغست في خمسينات القرن الهجري الرابع وقال أنه أخضع أكثر من ٢٠ ملكا من ملوك السودان وهم يدفعون اليه الجزية(٧).

بلاد التكرور

عرفت بلاد شنقيط باسم «بلاد التكرور» في مرحلة سابقة واعتمد أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي المتوفي (١٢١٩ هـ/١٨٠٤ م) هذه التسمية في تأليفه عن أعيان المنطقة (فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور). وقال في تعيين المنطقة : «التكرور اقليم واسع ممتد شرقا الى ادغاغ ومغربا الى بحر بني الزناقية وجنوبا الى بيط وشمالا الى آدرار»(٨).

ورسم بابا بن الشيخ سيديا حدود البلاد بتعيين مناطقها فقال إن بلاد آدرار وتكانت والقبلة والساحل والحوض الى بلاد السودان هي بلاد التكرور(٩).

وقد أطلقت «التكرور» على أول مملكة اسلامية في السودان الافريقي، فقد أسلم زعيم هذه المملكة وارجيبي WARADIABLE (ت ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ م) وسعى لنشر علوم الدين في مملكته.

و«التكرور» في الأصل علم على مدينة ذكرها البكري وقال انها كانت على ضفة النهر.

وقد تحالفت دولة التكرور الاسلامية مع المرابطين في الصحراء (بلاد شنقيط) وكان «لبى» أمير التكرور وابن الامير «وارجبى» مع الامير اللمتوني يحيى بن عمر سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦/١٠٥٧)[١٠].

واختلف المؤرخون في تحديد موقع هذه الدولة أو المنطقة التي تعرف باسم «التكرور»، بين حوض نهر السنغال ونهر النيجر ومنطقة ولاته[١١].

بلاد شنقيط

كانت شنقيط علما لهذه البلاد عند أهل الامصار على حد قول سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، وما عرف هذا الاسم إلّا بعد بروز مدينة شنقيط كعاصمة للعلم ومنطلق للحجيج، وقد كان ذلك بعد تأسيسها بقرون، وخصوصا مع بداية الالف الهجرية الثانية. وقد استخدم أحمد بن الأمين (ت ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م) الاسم في كتابه «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط». وقال : «ان الكلمة تكتب بالقاف والجيم» وانها كانت في العصر الأول تكتب بالجيم فقط.

ومصدر الاختلاف أن الكلمة تنطق في العامية بكاف معقودة وهي تساوي الجيم المصرية. وغالب شأن الشناقطة أن يقلبوا القاف كافا معقودة في اللهجة العامية. يقولون : قام، قال، قرأ، قبلة، قلب، قدم، قدح، قعد، قلادة، فينطقون القاف في جميع هذه الكلمات واضرابها كافا معقودة (جيما مصرية) وان كانوا يبقون القاف أحيانا على أصلها فينطقونها فصيحة كما في قلم، قمر، قبر ومستثنيات أخرى نادرة.

أما الجيم فليس من شأنهم ابدالها كافا معقودة أو نطقها جيما مصرية بل ينطقونها جيما متفشية (وان أخذ كثير منهم بالجيم الشديدة، خصوصا في قراءة القرآن).

وعليه تكون كتابة شنقيط هكذا (شنجيط) مجرد تأثر من الحجاج باللهجة المصرية، وكانت مصر مدرجهم في رحلة الحج ذهابا وإيابا.

وحدود بلاد شنقيط كما عينها ابن الامين : الساقية الحمراء شمالا، قال : «وهي تابعة له (أي القطر) وقاع ابن هيب جنوبا وهو تابع له أيضا وشرقا ولاته والنعمة وهما تابعان له أيضا وغربا بلاد السنغال وهي خارجة عنه. قال «وقد أخذنا خريطتها من أحدث الخرائط الفرنساوية وزدنا فيها بعض ما اطلعنا عليه»[١٢].

والظاهر أن ابن الامين يعني بولاته والنعمة مناطقهما وليس المدينتين فحسب. وانما اقتصر عليهما لأنهما أبرز المراكز الحضرية في المنطقة الشرقية التي تشمل أجزاء تابعة اليوم لدولة مالي.

فقد تحدث ابن الأمين في جغرافية بلاد شنقيط عن «أروان» وهي قرية شهيرة تبعد عن تيمكتو مسافة عشرة أيام. وتحدث عن «ازواد» وهو أرض كبيرة كان يقيم بها العلامة الشنقيطي الشيخ سيد المختار الكنتي. وتقع هذه المنطقة بعد أروان[١٣].

وتدخل الساقية الحمراء أيضا في مفهوم بلاد شنقيط عند أحمد بن عبد المولى اليملاحي حيث يقول معلقا على كتاب «نعت البدايات» للشيخ ماء العينين بن محمد فاضل (وكان قد اتخذ السمارة مقرا له) :

«لقد دار فلك السعارة من شنقيط بانتشار كواكب مؤلفات جوهر بحرها المحيط ماء العينين... الخ[١٤].

وربما روعيت مكانة «ولاته» كقاعدة ثقافية حضارية عريقة فعطفت على شنقيط ونسبت اليها البلاد.

قال صاحب الدار الخالد (محمد محمود ابن الحاج ابراهيم) أن المولى سيدي محمد بن عبد الله سلطان المغرب أهدى والده سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم ٤٠٠ كتاب «لا توجد في بلاد شنقيط وولاته»[١٥].

وقد رسم الشيخ محمد المامي حدود البلاد من الجنوب الى الشمال فقال أنها تمتد من نهر شمامة ازاء السنغال جنوبا الى الحمادة (جنوبي سجلماسة) والساقية الحمراء، حد بلاد السوس، شمالا[١٦].

بلاد المغافرة

لم تشتهر البلاد بهذا الاسم، وانما نعتها به بعض مؤلفيها مثل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم ومحمد فال بن بابا[١٧].

وتحيل هذه التسمية الى عهد تاريخي متأخر، فمعلوم أن المغافرة، هم بطون من بني حسان نزحت الى بلاد شنقيط ضمن الموجات العربية التي دخلت البلاد بين القرنين ٧ و٩ للهجرة. وقد ملأت هذه القبائل المهاجرة جزءا من الفراغ السياسي الكبير الذي تركته دولة المرابطين.

فبعد وفاة الامير ابي بكر بن عمر (٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م)، ضعف شأن المرابطين في الصحراء واقتسمت مجموعات قبلية السيطرة على البلاد :

- انيرزيك (تغرجنت الآن) في منطقة «القبلة»
- الانباط (ادوعيش) في تكانت والرقيبة
- اديشللي في ادرار وبعض تكانت
- ابدوكل (قبيلة زوايا) في الشمال[١٨].

وبدأت الخريطة السياسية تتغير مع وصول موجات العرب النازحين، وخصوصا في القرن الثامن الهجري.

وما إن حلت بداية القرن التاسع الهجري حتى كان العرب الوافدون يسيطرون على مجموع البلاد.

وسنرى، فيما بعد، أن النازحين الى البلاد لم يكونوا من المغافرة فقط، وإنما سبقهم وشاركهم الهجرة أبناء عمومتهم من بني حسان، وحكم بعضهم مناطق البلاد، مثل أبناء رزق في القبلة، وأولاد شبل في آدرار. وكانت لهم رئاسات قبلية (أو مشيخات) مثل مشيخات لبرابيش في أزواد وأولاد داود في ولاتة، وأولاد يونس بن عروق في الحوض، وكانت ولاته حاضرة لهم أيضا، وحولها تسع حلل (جمع حلة : عاصمة بدوية للامارة أو المشيخة). وقد خلفتها امارة أولاد زيد ثم أولاد علوش وكانت لأولاد بوفائدة امارة معاصرة لامارة أولاد زيد. وكان لأولاد عقبة امارة بالحوض الغربي أطاح بها أولاد امبارك في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي[١٩].

لكن المغافرة كانوا أقوى المجموعات العربية شوكة وانفذها سلطة، مما يبرر تغليب النسبة اليهم على النسبة الى غيرهم. كما أن قوة امارة الترارزة، والدور البارز الذي لعبه فيها الامير علي شنظوره (١١١٤ هـ/١٧٠٣ ـ ١١٣٩ هـ/١٧٢٦ م) أوحى للشيخ محمد المامي باستخدام عبارة «القطر الشنظوري» دالة على بلاد شنقيط أو جزء منها كبير[٢٠].

وقد بدأ المغافرة يبسطون سيطرتهم على البلاد عندما انتصروا على أبناء عمومتهم أولاد رزق في معركة انتتام (٢٠ كم شرقي الركيز) سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م. وبعد ذلك بسنتين (١٠٤٢ هـ/١٦٣٤ م) تأسست امارتا الترارزة ولبراكنه.

وبسط المغافرة سيطرتهم على آدرار سنة ١٠٧٩ هـ ١٦٦٨ م وفي هذه المنقطة أسس عثمان بن لفضيل امارة أولاد يحي بن عثمان سنة ١١٥٨ هـ/١٧٤٥ م.

وقد وصل أولاد امبارك الى الحوض وحكموا تكانت سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م[٢١].

المغرب ـ الغرب

كثيرا ما انتسب الشناقطة أو نسبوا الى «المغرب». ومن ذلك أن صاحب فتح الشكور الحق هذه النسبة بالعلامة حرمة بن عبد الجليل وهو من أقصى جنوب البلاد مما يلي السنغال. وبلّغ محققا الكتاب من الطرافة أن حسباه من جملة «المترجمين في الكتاب من المغاربة» دون اخوانه وأبناء عمومته من المنطقة، وما ذاك إلّا أن النسبة وردت في الكتاب هكذا «حرمة بن عبد الجليل بن القاضي العلوي المغربي» وكذلك وردت نسبة عبد الله بن محمد بن أحمد بن عيسى البوحسني إلى المغرب وهو من المنطقة نفسها[٢٢].

وقد كثرت نسبة الشناقطة أنفسهم الى «المغرب» باثبات الميم. ومن ذلك قول التيجاني بن بابا بن أحمد بييه في «منية المريد» :

قال ابن باب العلوي نسبه   المغربي المالكي مذهبه

وقال مولود بن اغشممت في نظم له قاصدا أهل بلده :

هذا وقد شاع بأقصى المغرب   هجر الوضوء لا لخوف العطب

وقال الشيخ سيدي محمد يخاطب والده الشيخ سيديا :

ألفيتم الدين بقطر المغرب   طارت به في الجو عنقا مغرب

وفي منظومة الدرة الفريدة فيما تزكو به العقيدة ينسب الناظم (أحمد بن محمدي ابن النجيب الحاجي) نفسه الى المغرب :

يقول أحمد النجيبي المغربي   الاشعري المالكي المذهب[٢٣]

وقال القاضي (محمد بن محمد فال بن أحمد فال) :

وأهل «مغرب» عليهم يمنع   غير الامام مالك أن يتبعوا

وللنابغة الغلاوي :

والاجتهاد في بلاد المغرب   طارت به في الجو عنقا مغرب

ويقول محمد بن محمد سالم في كتابه «الريان في تفسير القرآن» :

«أعلم أن أهل «المغرب» يلحنون حروفا في كتاب الله غير الجيم مثل اللام اذا كانت ساكنة ووليها نون»[٢٤].

وقال محمد الصغير التيشيتي متحدثا عن بعض مشايخ التصوف في بلاده :

«ولا نعلم أحدا أعدل من هؤلاء النفر الثلاثة في **المغرب الأقصى**[٢٥]». والظاهر أنهم حين ينسبون أنفسهم الى المغرب أو المغرب الأقصى، انما يعنون جهة من الأرض، غربية هم ساكنوها، لا علما جغرافيا. وذلك واضح في منطق صاحب «فتح الشكور» وهو من المنطقة الشرقية(ولاته) في ترجمته لسيدي عبد الله البوحسني وحرمة بن عبد الجليل، وهما من المنطقة الغربية (القبلة).

أما منطقة المغرب اليوم فكانوا يعينونها، شأن الاقدمين بتعيين حواضرها أو مناطقها (مراكش ومكناسة، وفاس ـ والسوس الخ...) واذا أجملوا أطلقوا عليها اسم «الغرب» بحذف/

الميم، وما زال الشيوخ اليوم يسمون المغرب كذلك. وفي قصيدة ابن محمدي الشنقيطي التي يخاطب بها السلطان مولاي عبد الرحمن كلمة الغرب بهذا المعنى :

آه لمغترب بالغرب ليس له   جنس وان كان محفوفا بأجناس

ويقول سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم ان سلطان «الغرب» سأله عن نسبه(٢٦).

ومع ذلك فقد وردت نسبة شنقيطي الى الغرب في مديحية الشويعر الحسني لحامد بن أحمد :

فتى عمري يشهد الغرب أنه   فتاه ومفتيه المصيب وشاعره(٢٧)

وقد استخدم بابا بن أحمد بيبه «الغرب» علما لكل من بلاد مراكش وبلاد شنقيط عندما هنأ الشيخ سيديا بعودته من المغرب ومعه مكتبة كبيرة :

أضاءت بلاد الغرب لما اتيتها   واصبح يبكي عند ترحالك الغرب(٢٨)

تراب البيضان ـ موريتانيا

يعرف العرب الشناقطة، في اللهجة الحسانية بـ «البيضان». وبهذا الاسم عنْون محمد يوسف مقلد كتابه «موريتانيا أو العرب البيضان في افريقيا السوداء».

وقد استخدم بابا بن الشيخ سيديا مصطلح «تراب البيضان» دالا على بلاد شنقيط(٢٩).

وفي البداية أطلق المستطلعون الاستعماريون على المنطقة هذا الاسم (تراب البيضان) فوردت في تقارير كابولاني (١٩٠٥) أول حاكم فرنسي لبلاد شنقيط، واحتفظ بها بعضهم الى جانب كلمة موريتانيا لتوضيح المقصود بالاسم الجديد(٣٠).

وكانت الشكليات الادارية الفرنسية تحمل في أوائل القرن الاسمين : «موريتانيا» بالفرنسية و«تراب البيضان» بالعربية.

لكن المستعمر لم يلبث أن أشاع موريتانيا اسما وحيدا للبلاد التي استعمرها وابتعث لها هذا الاسم من مرقده الروماني.

فقد اقترح كابولاني بعد نجاح مهمته الاستطلاعية في السودان والحوض، اطلاق اسم موريتانيا على «تراب البيضان» فصدرت الموافقة، بل الامر باطلاق اسم «موريتانيا الغربية» على الرقعة الممتدة بين خاي وتمبكتو شرقا والمحيط الاطلسي غربا ونهر السنغال جنوبا، وجنوب المغرب والجزائر شمالا(٣١).

ولكنهم عادوا فحوروا في الخريطة فبتروا من أطرافها، ثم أعادوا بعض ما بتروا لضرورات أمنية وادارية.

وتبلغ مساحة موريتانيا اليوم (١٠٣٠٥٧٠٠ كم٢) تمتد بين عرضي ٣٠، ١٤،, ٢٤ ١٧, شمالا وبين خطي طول ٤٥، ٤،, ٨ ١٧, غربا(٣٢). وموريتانيا اسم مركب من كلمتين : Mauros اليونانية ومعناها اسمر وTania اللاتينية ومعناها أرض أو بلاد. فهي اذا بلاد السمر.

وهي الاسم القديم لمملكة رومانية قامت في شمال غرب افريقيا، فامتدت جنوبا الى سلسلة جبال أطلس وامتدت بمحاذاة الساحل الأطلسي الى نقطة على دائرة عرض ٣٠ شمالا فكانت تغطي المنطقة التي تشغلها المغرب حاليا والجزء الغربي من الجزائر موزعة الى قسمين : موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية.. ثم اتسع مدلول الكلمة ليشمل مجموع سكان شمال غرب القارة الذين هم ثمرة اختلاط العرب والبربر(٣٣).

وكان الاسبان يستخدمون عبارة «مورو» نسبة الى المنطقة الجغرافية الرومانية القديمة ولكنهم توسعوا في استعمالها للعرب والمسلمين فكل من جاء عبر مضيق جبل طارق فهو «مورو» وكثيرا «ما تقال الكلمة بمعنى محقر محملة ما تحمل من الازدراء ومعاني الجهل والتأخر»(٣٤) ولما احتلت اسبانيا جزر الفليبين في المحيط الهادي وجدت نصف أهلها مسلمين سمر الوجود فسمتهم «موروس»(٣٥)، كما كانت تسمي العرب الذي فتحوا اسبانيا وأقاموا فيها دولة الاندلس الزاهرة.

ويعتمد المختار بن حامد المعطيات البشرية الاجتماعية في تحديد البعد الجغرافي للبلاد منطلقا من مفهوم «بلاد البيضان» متحدثا عن اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ فيعين المناطق التالية :

ـ في الشمال منطقة الصحراء التي كانت خاضعة للاستعمار الاسباني «ومنطقة تقع في جنوب غربي الجمهورية الجزائرية حيث مضارب بعض قبيلتي الرقيبات وتجكانت.

ـ في الشرق : منطقة غرب وشمال جمهورية مالي حيث مضارب بعض قبائل كنتة وليرابيش والعناصر العربية الأخرى»(٣٦).

وتقارب هذه الخريطة ما وصل اليه الاستاذ أحمد جمال بن الحسن من اعتماد اللهجة الحسانية أساسا لتعيين المجال الجغرافي لبلاد شنقيط(٣٧)، وهو اعتماد وجيه، خصوصا لمن يتنكب السياسة موليا وجهه شطر الثقافة.

واذا كانت كل الأسماء التي عرضنا لها وثيقة الصلة بتاريخ البلاد مع تفاوت في ذلك، ورغم أن «موريتانيا» قد أصبحت اليوم أوسع هذه الاعلام انتشارا وألصقها بأذهان المعاصرين فلقد اخترنا بوعي تسمية «بلاد شنقيط» والنسبة إليها في عنوان الكتاب وفي فقرات كثيرة منه وما ذلك إلا أن «شنقيط» هي بدون نزاع أعلق تلك الأسماء بتاريخ البلاد وأكثرها افصاحا عن عبقريتها الثقافية وعطائها العلمي.

فقد سارت شنقيط عند المشارقة علما على البلاد في فترة ازدهار ثقافي كبير، وارتبطت النسبة اليها في المشرق والمغرب بالنسبة الى العلم والمعرفة.

لذلك لا جرم أن نبتعث «شنقيط» من مرقدها ونحن نستكنه بعض مجاهل تاريخها العلمي والثقافي من خلال هذه السطور.

الجمهورية الاسلامية الموريتانية

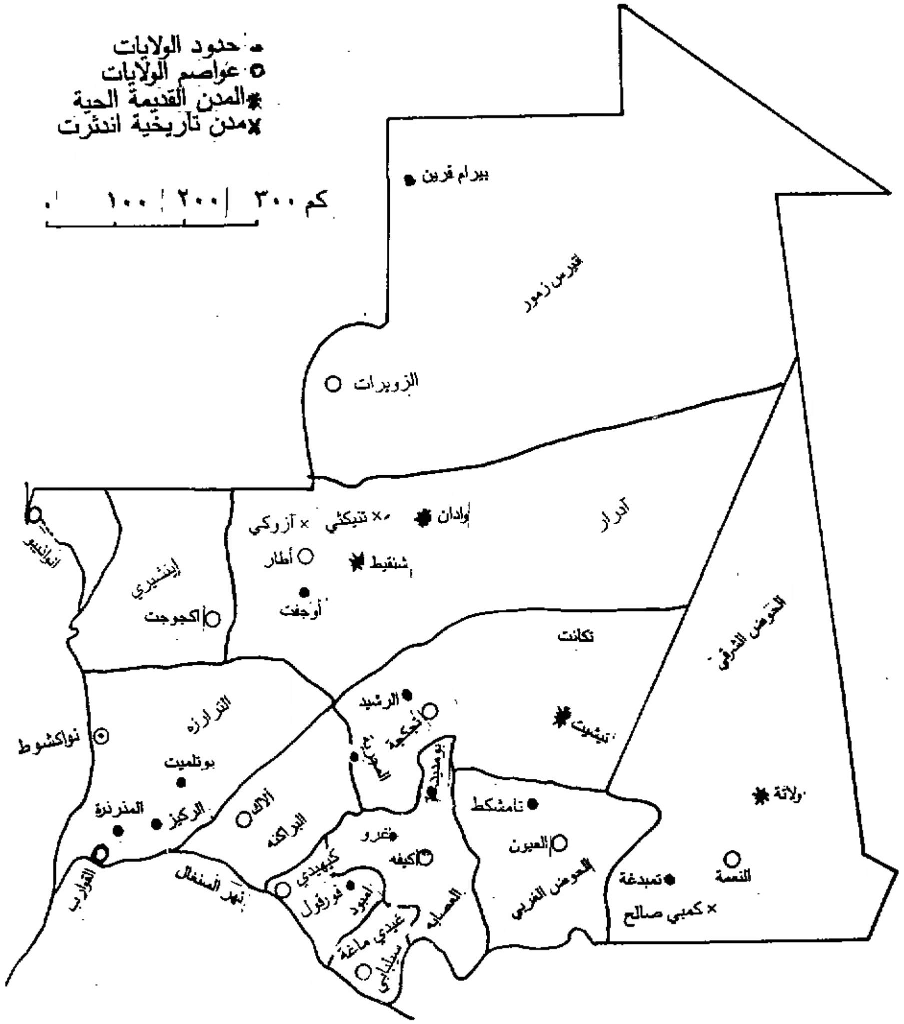

٢ ـ المجتمع الشنقيطي

كانت تعيش في شنقيط منذ القدم مجموعات بشرية مختلفة، بيضاء وسوداء، هي قبائل زنجية وقبائل صنهاجية وقبائل بافور ذات الأصول البربرية، على خلاف في ذلك.

وقد نزحت القبائل السوداء في اتجاه الجنوب، عبر القرون مع توسع المنطقة الصحراوية من البلاد وتلاشت قبائل بافور في الحروب وبالتزاوج والانصهار في القبائل الصنهاجية.

أما صنهاجة فقد ظلت سيطرتهم تتسع في البلاد، الى أن بدأت القبائل العربية المهاجرة من الجزيرة تنتشر في الصحراء ومنها الى ضفاف نهر السنغال.

ويرى بعض النسابة والمؤرخين أن صنهاجة عرب قحطانيون حميريون وقد جزم بعروبتها ابن سلام وابن الكلبي والزبير ابن بكار والطبري والهمداني والجرجاني والسمعاني وابن الاثير والسلطان الاشرف عمر بن يوسف بن رسول وابن خلكان وابن جزي الكلبي وابن الخطيب والفيروز آبادي واليعقوبي وصاحب الحلل الموشية والرشاطي وعبد الغني الاشبيلي وعبد الحق المالكي(٣٨).

ويرى الزيني دحلان في كتابه «الفتوحات الاسلامية» ان صنهاجة خرجت من اليمن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه اذ سيرهم للجهاد بالشام ثم انتقلوا الى مصر ثم الى افريقية ثم دخلوا الاندلس مع طارق بن زياد ثم أحبوا الانفراد بأنفسهم فدخلوا الصحراء(٣٩).

وقد نازع ابن حزم وابن خلدون في عروبة صنهاجة، فقالوا أنها من البربر(٤٠). ولكن من النسابة من يجزم بعروبة البربر، فقد قال المسعودي انهم من غسان تفرقوا في الأرض بعد سيل العرم. وقيل أنهم من لخم وجذام، كانت منازلهم بفلسطين، فاخرجوا منها ثم من مصر فعبروا النيل. وذكر الطبري انهم أخلاط من كنعان والعماليق، تفرقوا في البلاد بعد قتل الملك البابلي جالوت، وان افريقش بن صيفي، وهو أحد ملوك التبابعة، سميت به افريقيا، غزا بهم المغرب فنقلهم من سواحل الشام وأسكنهم افريقيا، وبها وجد ناسا من الاعاجم سمع رطانتهم فعجب منها، وقال «ما أكثر بربرتكم» فسارت البربر علما على المستوطنين الجدد.

وأورد الطبري حكاية عن بربر بن قيس بن عيلان، الذي ينسب اليه بعض المؤرخين البربر. قال أنه خرج ينشد ضالة باحياء البربر فهوي جارية وتزوجها فولدت له. وقيل أنه خرج فارا من أخيه عمر بن قيس، فكانت تماضر تبكيه فتقول :

لتبكي كل باكية أخاها   كما أبكي على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى   ودون لقائه إنضاء عيس

وإليها تنسب أبيات تأسف فيها على غربة أخيها ولكنته العجمية الجديدة :

وشطت ببر داره عن بلادنا   وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببرلكنة عجمية   وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأنا وبر لم نقف بجيادنا   بنجد ولم نقسم نهابا ومغنما(٤١)

وفي الأبيات، خاصة الاخير منها ذكورة، بل فحولة رجال يعجب المرء أن تصدر عن امرأة.

والواقع أننا اليوم في غنى عن هذا المبحث السلالي التاريخي، فمن المسلم به أن صنهاجة قد تعربت أيا كانت أصولها. وكانت وسكان بلاد شنقيط القدماء على ملة من اليهودية والمجوسية مع اثار توحي بأن النصرانية منهم غير بعيد (الصلبان في الصناعة التقليدية)، فلما جاء الاسلام أذعنت له بشيء من التدرج فخطا بها خطوة كبيرة على طريق التعريب الذي أصبح اليوم حقيقة تكاد تعصف بكل معطيات التاريخ خصوصا اذا أعرنا السكان اذنا صاغية وصدقناهم في أنسابهم.

* * *

ولعل أبرز الأحداث التي ساهمت في تكوين ملامح المجتمع الشنقيطي هي : دخول الاسلام ونزوح القبائل العربية الى البلاد.

لقد اعتنق أهل الصحراء جميعهم الاسلام، وتحدثوا العربية أصيلهم ودخيلهم، وتبوأوا مواقعهم في السلم الاجتماعي على أساس من تمثلهم لروح الاسلام وعنايتهم به أو تجسيدهم لقيم البطولة العربية ما قبل الاسلام، دون أن يكون للأواصر السلالية كبير دخل في بلورة البنية الاجتماعية للسكان.

لقد انقسم المجتمع ثلاث فئات :

ـ فئتين تتبوءان مراكز عليا في المجتمع هما :
* العرب أو بنو حسان حملة السلاح
* الزوايا سدنة العلم

ـ فئة غارمة تضم المجموعات التي لم تحتم بسيف ولا قلم وسنرى كيف دخل الاسلام، ونزح العرب الى البلاد فتبلورت هذه البنية الاجتماعية.

أ ـ الاسلام في الصحراء

سلك الاسلام طريقه الى الصحراء، ولم يصلها، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقد وصل عمرو بن العاص الذي كان واليا للخليفة الفاروق في فتوحاته الى طرابلس سنة ٢٢ هـ/٦٤٢م فكتب الى الخليفة يخبره ويستأذنه في مواصلة فتوحه: «ان الله قد فتح علينا طرابلس... وليس بينها وبين افريقيا إلّا تسعة أيام، فان رأى أمير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل». فكتب إليه عمر : «لا، انها ليست بافريقيا ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت»(٤٢).

ثم جاء الخليفة عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص عن مصر وأمر عليها عبد الله بن أبي سرح وأذن له في فتح افريقيا ففتح قاعدتها قرطاجة سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م وتبعه معاوية بن حديج فغزا افريقية سنة ٤٠ هـ/٦٦٠ م ثم تبعه عقبة بن نافع الفهري (ت ٦٣ هـ/٦٨٣ م) سنة ٤٦ هـ/٦٦٦ م، فاختط مدينة القيروان وواصل الفتوح حتى وصل بلاد السوس الاقصى، ففتح قاعدتها تارودانت(٤٣).

وذكر ابن عذاري ان عقبة نزل من درعة الى بلاد صنهاجة ثم الى بلاد هسكورة. ثم نزل اغمات وريكه ثم نزل منها على وادي نفيس وسار حتى نزل إيجلي بالسوس وبنى فيه مسجدا وقال ابن عذارى : «أخبرني الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح أنه لم يصح عنده أن عقبة حضر بنيان شيء من المساجد بالمغرب إلا مسجد القيروان ومسجدا بالسوس الاقصى»(٤٤).

وتقول بعض الروايات أن عقبة بن نافع واصل سيره من السوس حتى وصل ولاته . قال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار (١٢٤٤ هـ/١٨٢٨ م) وخلف عقبة ابنه العاقب بسير (أوبيرو) المدعوة الآن ولاته، وقبره بصحن مسجدها الذي هو بانيه(٤٥).

ويعتقد أن قبيلة أولاد تدرارين الصحراوية منتسبة الى صحبي أنصاري قدم مع عقبة(٤٦).

وفي سنة ١١٦ هـ/ ٧٣٤ م قاد حفيد عقبة حبيب بن أبي عبيدة حملة الى الصحراء بتكليف من عبد الله بن الحبحاب السلولي الموصلي، والى هشام بن عبد الملك على المغرب فنشر الاسلام بالسوس الاقصى ومسوفة الى تخوم السودان.

وبقي الاسلام حيا في قبائل الصحراء على وهن منهم في شأنه وضيق اطلاع. وفي القرن الثالث الهجري بدأت قبائل صنهاجة تنظم شأنها وتحكم أمرها، فاجتمعت حول الامير تميم

اللمتوني وتحت راية الاسلام، داعية الى تثبيت أركانه فيما بينها والى نشره فيمن حولها، فاستطاعت أن تزعزع أركان امبراطورية غانة الكبيرة، واحتلت مدينة أودغست، واستطاعت كدالة في الجنوب الغربي من البلاد أن تسيطر على مناطق كانت تحتلها قبائل البافور(٤٧).

وبعد قرن من حملة تميم حج الامير يحي بن ابراهيم فكان عاقبة حجه رشدا وخيرا لأهل الصحراء. فقد عاد ومعه أول معلم حفظ لنا التاريخ ذكره، منتدب للمقام بين القبائل الصنهاجية لتعليمهم أمر دينهم.

وكان الرباط الذي أسسه الفقيه المجاهد عبد الله بن ياسين (ت ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م) منطلق دولة المرابطين التي نشرت الاسلام وأرست قواعده في النفوس، حتى تعقله أهل الصحراء وتعلقوا به صادقين.

وقد ترك اختفاء دولة المرابطين فراغا سياسيا ودينيا، حاول العرب «والزوايا» كل من جانب أن يسدوه.

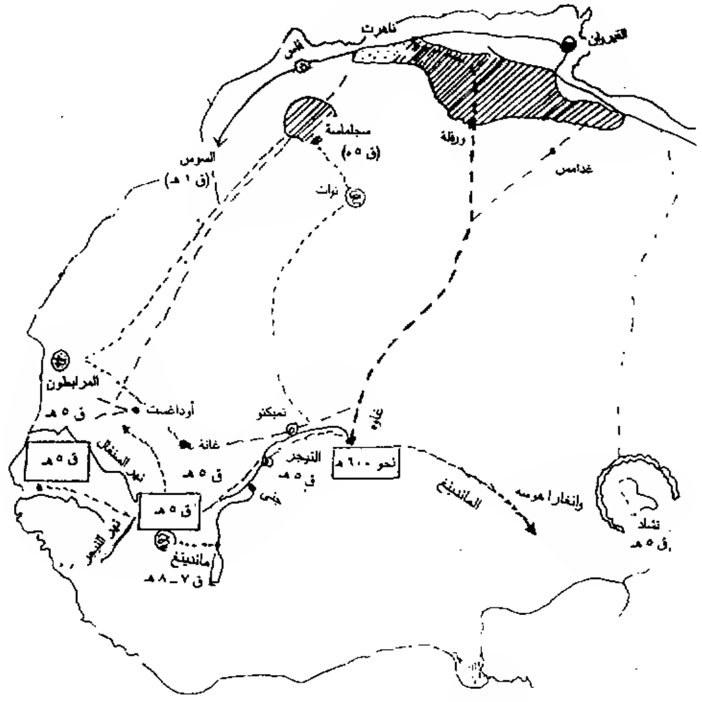

٥٠٠ هـ انتشار الاسلام في افريقيا الغربية

طريق الفتح العربي ـ الاسلامي — مراكز وروابط نشر الاسلام

ـ ـ ـ خطوط التجارة العربية

ب ـ العرب أهل الشوكة

بدأت موجات عربية تدخل بلاد شنقيط منذ القرن السابع الهجري ولم يصل ذوو حسان والهلاليون الى الصحراء فاتحين همهم نشر الاسلام أو بث الفقه والعلم بين الناس فما كان ذلك شأن النازحين الى البلاد إلّا قليلا منهم. ولكن دخول العرب في حد ذاته، ورغم بعض الظواهر غير الاسلامية التي رافقته (حروب قبلية، نهب..) كان دعما للاسلام الذي «يبقى ببقاء العرب» ويقوى بانتشار لغتهم.. وهكذا صار الصعاليك الذين طاردتهم الدول الاسلامية فاتحين من حيث لا يدرون ولا يريدون. وكان طريق الموجات العربية الى بلاد شنقيط طويلا مليئا بالمغامرات.

لقد كان بنو هلال وبنو سليم يعترضون سبيل الحجيج في الجزيرة العربية وينهبون أموالهم في موسم الحج. وكانوا مع القراطمة في ثورتهم على العباسيين. فلما انتصر الخليفة الفاطمي عبد العزيز بن المعز على هؤلاء الشيعة الغلاة سنة ٣٦٨ هـ/٩٨٧ م، نفى بني هلال وبني سليم الى مصر والزمهم أن لا يتجاوزوا النيل. ولكن هؤلاء الرعايا كانوا مصدر قلق وإزعاج للدولة الفاطمية هناك، فتحينت بهم الفرص حتى اذا قامت ثورة البربر في منطقة المغرب بقيادة المعز بن باديس الزيري، بادر المستنصر الفاطمي (٤٣٩ هـ/١٠٤٧ م) الى تنفيذ خطة ذكية للتخلص من الطرفين المزعجين (بنو هلال وبنو سليم بمصر ـ الزيريون بالمغرب) فأعلن لبني هلال وبني سليم أنه أنحلهم ملك المغرب وأعطى كل فرد منهم جملا ومائة دينار حسب رواية ابن خلدون[٤٨].

وفي الطريق الى المغرب استقر بنو سليم ببرقة وعاثوا فيها فسادا (٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م) وواصل بنو هلال رحلتهم الى القيروان فدمروها (٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م). ولكن الموحدين غلبوهم فانقادوا لهم ووقفوا معهم[٤٩].

وفي القرن السابع الهجري (١٣ م) دخل بنو معقل (من بني هلال؟) في طاعة الدولة المرينية البربرية بفاس فكانوا لها جندا يذودون عنها ويجبون لها الضرائب في جنوب البلاد. لكن السلطان يوسف بن يعقوب ضاق بهم ذرعا فضايقهم، فاتجهت مجموعاتهم الأولى نحو الصحراء طلبا للحرية والنفوذ ولقمة العيش[٥٠].

وفي عهد السعديين سار بنو معقل تحت امرة جودر باشا في الحملة التي عهد إليه بها السلطان أحمد المنصور الذهبي لفتح بلاد سنغاي سنة ١٠٠٠ هـ/١٥٩١ م[٥١].

وقد اتجه بنو حسان من بني معقل الى بلاد شنقيط فاتخذوها لهم وطنا.. وكان لحسان ثلاثة أبناء دليم وودي وحم. فانتشر دليم وأبناؤه وأتباعه وذراريهم في منطقة وادي الذهب وعلى ساحل الأطلسي. وانتشر ودي وقومه في بلاد شنقيط الى أطراف السودان. وكان حم وقومه في قلب الصحراء من إكيدي الى نهر النيجر.

وكان أولاد شبل بن حم بن حسان يسيطرون على منطقة آدرار من بلاد شنقيط الى أن غلبهم عليها أبناء عمومتهم «أولاد رزق بن ودي» الذين أقاموا امارة قوية في البلاد واضطروا «أولاد شبل» للنزوح بعيدا، فهم الآن منتشرون ما بين النيجر وتوات. وبقي في آدرار من ذراريهم أولاد غيلان[٥٢].

ويرتفع نسب القبائل الحسانية الى جعفر بن أبي طالب، فهم بنو حسان بن المختار بن محمد بن عقيل بن معقل بن موسى الهداج بن جعفر الامير بن ابراهيم الاعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٥٣].

وأبرز هذه القبائل التي استوطنت بلاد شنقيط وحكمتها أولاد داود عروق وأولاد يونس ولبرابيش وأولاد ادليم واجمان وأولاد امبارك وأولاد الناصر ولبراكنة والترارزة وأولاد يحي بن عثمان وأولاد داود محمد وأولاد رزق وأولاد عقبة[٥٤].

شجرة بني حسان

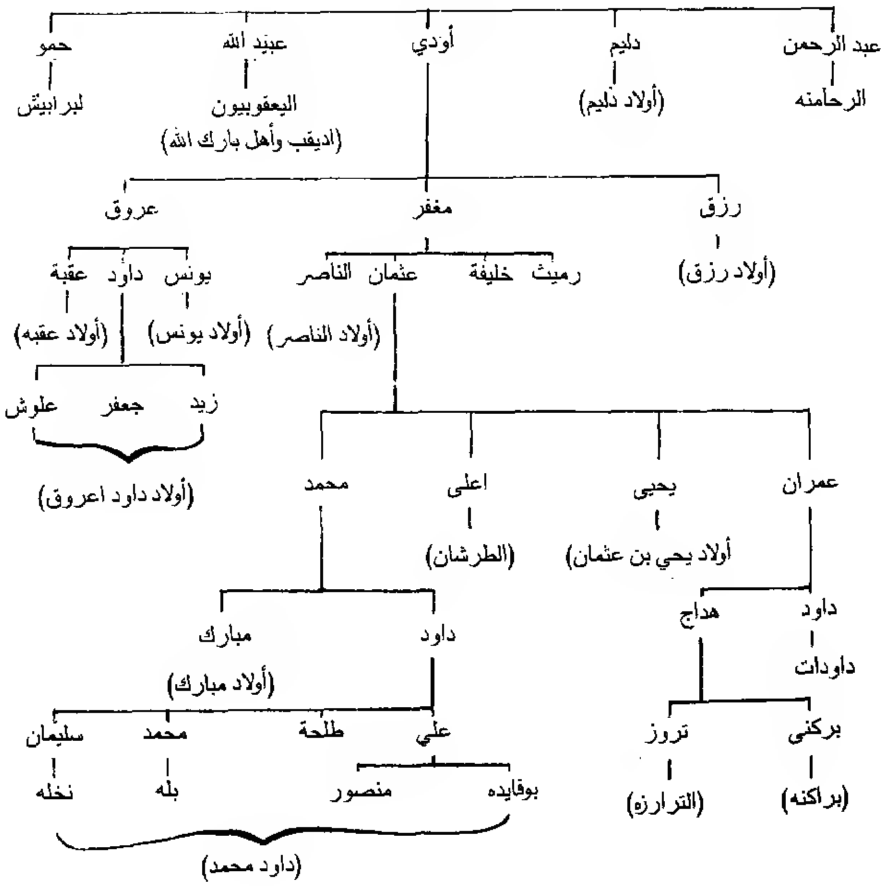

كان ذوو حسان هؤلاء يحتكرون لفظة «العرب» لأنفسهم ولا يسمحون بهذه اللفظة لغيرهم كالزوايا مثلا وكالطبقة الوسطى منهم أنفسهم ولا يدعون أن من نكرناه عجمي الأصل، بل لأنه عندهم لا يستحق ذلك الاسم لضعفه». وقد يرقى طرف من العشيرة منهم على طرف فيدعى الأعلون «عرب» ويدعى بنو عمومتهم المستضعفون «عريب» بالتصغير، في الاصطلاح اللغوي السائد(٥٥).

وهكذا أصبحت «العروبة» مفهوما غير سلالي، مستندا الى قيم البطولة والتضحية والاقدام والنخوة والشهامة. فصارت «حسان» تطلق على كل مجموعة حملت السلاح فتخلقت بأخلاق عرب المعقل وسارت على نهجهم في الحياة حتى وإن كانت هذه القبيلة صنهاجية الأصل، مثل إدوعيش وإديشلي.

وحيث أن العروبة أو النسبة «الحسانية» قد أصبحت على هذا النحو مفهوما اجتماعيا ـ سلوكيا، ينطبق على طبقة أو فئة من فئات المجتمع ذات موقع سام، فان الانسلاخ (أو السلخ) منها بات أمرا مقبولا، بمجرد ما تنسلخ مجموعة بشرية من القيم والسمات التي ترمز اليها هذه الكلمة (عرب أو حسان). وبعبارة أخرى فان وهن أي قبيلة «حسانية» وانكسار شوكتها يكفي لتجريدها من نسبتها وانزالها الى درجة دنيا في السلم الطبقي الاجتماعي وقد تحول لكدادرة وآغزازير واديشلي من قبائل محاربة «حسانية» (بالاصطلاح) الى قبائل غارمة(٥٦).

وسنرى كيف تحول بعض «العرب» الى «زوايا»، دون أن يفقدوا من وزنهم الاجتماعي، فقد كان «الزوايا» مجموعة بشرية، عربية ـ صنهاجية تتسنم مع «العرب» ذروة المجد في البلاد.

ج ـ الزوايا أهل العلم

تطلق كلمة «الزوايا» اصطلاحا على مجموع القبائل المهتمة بالعلم ونشره في بلاد شنقيط فهم «حملة العلم والدين في هذه البلاد قاطبة قديما وحديثا، لا ينازعهم في ذلك طائفة من طوائفها ولا تقاربهم»(٥٧).

قال بابا بن الشيخ سيديا أنهم «سموا بالزوايا لملازمتهم للزوايا جمع زاوية. وهي أيضا موضع العبادة أي أهل الزوايا» ونقل عن محمد بن محمد سالم المجلسي (١٢٩٥ هـ/١٨٧٨ م) ان ابراهيم الأموي قاضي مجلس الامير اللمتوني أبي بكر بن عمر، وجد قبيلة مدلش «كانت له زاوية يأوى اليه فيها التائبون الذين يريدون الانقطاع للعلم والعبادة وترك أمر الحرب وحمل السلاح وأنه كان منهم أجداد قبائل من الزوايا فصار يقال لهم الزواية أي أهل الزاوية ونحو هذا، وإن هذا هو معنى ما اشتهر أن المجلس أصل الزوايا»(٥٨).

ولا تتميز هذه القبائل بانتساب عرقي أو سلالي خاص يجمعها، بل أن المرجع في تحديد مفهوم الزوايا الى سلم القيم الاجتماعية والوظيفية كما هو الشأن في «العرب» فكل قبيلة أو مجموعة بشرية تعنى بالعلم، تعلما وتعليما، وتتسم بالتدين هي فئة من «الزوايا». ومن شأنها عادة أن تتميز بالكرم وحسن الضيافة وأن يتأتى لها في أحيانها أداء الوظائف الاقتصادية الضرورية في الحياة البدوية : حفر الآبار وصيانتها، ورعاية المواشي والطبابة والصناعة التقليدية الخفيفة.

وقد حدد المختار بن حامد الدعائم التي يقوم عليها حي الزوايا فقال انها : مسجد وامامه، ومحضرة وبير وحفار مصلح للآبار وراع وطبيب (تقليدي) وصانع.

وحصر محمد بن بياه قواعد «التزاويت» (الانتساب الى الزوايا) في أربعة أركان وقال رجزا :

ركن «التـزاويت» بدال علما ... ميـر، قرى، تعلـم حفـر لما
وكل من تسقـط بعض الأربـع ... منهـم اذا تطلعـه إن تظلـع
وكل من تتـم فيـه الاربـع ... فهو على النهج القويم يربع(٥٩)

وأعاد محمد بن سعيد اليدالي (١١٦٦ هـ/١٧٥١ م) في كتابه «شيم الزوايا» جميع خصالهم المميزة الى الدين :

«أما شيم الزوايا فهي حقيقة التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعض عليها بالنواجذ، فهذا ما تعاقدوا عليه فقد أسسوا سيرتهم وأحكموها بالشرع وتمسكوا به حتى صارت لهم طبعا وديدنا».

وعلى ما كان من جهادهم وشدة بأسهم وقوة شكيمتهم في الحروب التي خاضوا مع غيرهم أو فيما بينهم، فان شهرة «الزوايا» تقوم حقا على العلم والحلم والصبر والتؤدة في الأمور، وخصوصا زوايا «القبلة» الذين يبدو أنهم أفرغوا جذوة حدتهم في معارك «شربب» ومعارك أخرى دارت بينهم، فكانوا بعدئذ مضرب مثل في برودة الأعصاب والصبر والاناة.. وكانت حروبهم «جدالا أو مناظرة» كما يقول المأمون اليعقوبي، واصطراعا بالكلام المعمي المرموز، والاجابات المفحمة... لقد حلت الكلمة عندهم محل الفعل العنيف، فأجادوا استخدامها سلاحا في حروبهم الباردة. ولم يكن من شأنهم أن يقذعوا في الهجاء ولا أن يفصحوا بمكنون ما في ضمائرهم إلّا أن يكون في كلام معمى مرموز يكون فهمه والرد عليه بمثله ضربا من التحدي والمبارزة(٦٠).

د ـ تقسيم وظيفي.. لا سلالي

شكلت قبائل «الزوايا» ونبو حسان (العرب) قيادة ثنائية للمجتمع الشنقيطي، مارست المجموعة الأولى القيادة الروحية والعلمية وادارة الشؤون الاقتصادية، ومارست المجموعة الثانية القيادة العسكرية، واشتركتا معا في السيطرة السياسية..

وقد كرس المجتمع هذه القيادة المزدوجة بتمجيد شأن العلم والسلاح واعتبارهما رمز المجد والكرامة فلا مكان إلّا لمن يدلي بشهادة علمية أو شهادة «عسكرية»، لا مكان لمن لا يحمل مهندا طريرا أو كتابا مطررا.

ويلخص مثل شعبي هذا الموقف : «العيش إلا تحت الركاب والل تحت كتاب»، ومعناه أن قوام الحياة (الكريمة) لا يكون إلّا في الركاب (ركاب المقاتلين) أو بالكتاب.

وكان ناصر الدين، وهو صاحب قلم وسيف (ق ١١ هـ) يقول : «من ركب منكم فرسه فليجعل لوحه بينه وبين سرجه، فان الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء الآخرة».

وحين كتب الشيخ سيديا الكبير الى السلطان المغربي مولاي محمد بن مولاي عبد الرحمن لم يطلب منه إلّا أمرين : «الكتب والسلاح» كما يتضح من هذه الرسالة الجوابية :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

محبنا في الله البركة الاجل الخير سيدي بن المختار بن الهيب وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه وجعلنا من المتحابين في الله سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فقد وصلنا كتابكم وعرفنا ما فيه وعلمنا ما أنتم عليه من المحبة لجانبنا ومواظبة الدعاء الصالح لنا فذلك الظن بكم والمعهود منكم جزاكم الله خيرا فلا تنسونا من ذلك. وقد وصلت ببعتكم المباركة تطلب الله الاعانة على ما حملنا من أمور المسلمين والتوفيق لما فيه رضاه وخير الدنيا والآخرة آمين. وعلمنا ما ذكرت في شأن ما طلبتم من توجيه ما تيسر من الكتب لزاويتكم السعيدة وما تيسر من العدة والمدافع وغيرها من آلة الجهاد، فاعلم أنا اليوم لا زلنا في شغل شاغل ولا زلنا لم نلتفت الى أمر خزانة الكتب وحين نتفرغ لها وننظر فيها نوجه لكم ما يناسب من ذلك. وأما العدة والمدافع فحتى في هذه الجهة ذلك قليل عندنا. وها نحن جادون بحول الله في اتخاذه وتعليم أناس لتلك الصناعة. وحين يحصل المراد من ذلك يصل تلك الجهة حظها منه ان شاء الله تعالى والسلام.

في ٣ ربيع الثاني ١٢٧٧ هـ(٦١).

لقد كان ذلك شأن العرب قديما فما اختلفوا في المفاضلة بين السيف والقلم إلّا وهم يقدرون الاثنين ويجلون شأنهما.

وقد أوصى الوزير المهلبي أبناءه فقال : اذا وقفتم تتطلعون الى حوانيت السوق فلا تتطلعوا إلّا على حيث تباع الأسلحة والكتب(٦٢).

وصاغ المتنبي هذه الموازنة في شطرين :

أعز مكان في الدنى سرج سابح   وخير جليس في الزمان كتاب

وفي أسفل السلم الاجتماعي تأتي «اللحمة»(٦٣) أو «الأتباع» وهي القبائل الغارمة التي لم تحتم بالعلم ولا بالسلاح فبسط عليها الطرفان الأعليان نفوذهما وسخروها للرعاية وتنمية الماشية، فلم تكن أحسن حظا بكثير من مجموعات أخرى تابعة تتوارث المهنة (الصناع التقليديون، المطربون، الموالي العتقاء، الأرقاء).

والواقع أن هذه البنية الاجتماعية ليست وليدة تمايز عرقي أكيد بل هي في بدء أمرها ثمرة تقسيم وظيفي لم يفتأ يتطور مع الأيام جزرا ومدا، فكانت القبيلة تغير موقعها في الهرم الاجتماعي من فترة الى أخرى، وان بقيت مجموعات كثيرة ترعى تراث الأجداد وعهدهم في التزام موقعها، أيا كان، في السلم الاجتماعي.

وتعزو بعض الروايات الشعبية الى الامير الصنهاجي أبي بكر بن عمر مبادرة تقسيم العمل في المجتمع على هذا النحو، فقد روي عنه أنه قسم رجاله ثلاث فئات : فئة تحمل السلاح وتجاهد في سبيل الله، فهي أصل «العرب» أو «حسان». وفئة تفرغ لدراسة العلم وتدريسه فهي أصل «الزوايا». وفئة ترعى مواشي المسلمين وتعنى بخدمتهم الاقتصادية فهي أصل «اللحمة».

ولكننا نجد نفس التقسيم في مجموعات بشرية أخرى، مثل التكارير المجاورين للعرب في بلاد شنقيط. وما نحسب إلّا أن هذا التقسيم كان ضرورة أو نتيجة لا مفر منها للصراع الاجتماعي ولمطامح السكان الذين أخذ حب الاسلام و حب الغلبة بشغاف قلب كثير منهم.

ولقد أصبحت البنية أوضح وأميل الى الاستقرار بعد دخول موجات العرب النازحين الى البلاد منذ ستة قرون أو سبعة. وقد نالت المسطرة الاجتماعية من وحدة القبائل، لم تسلم من ذلك صنهاجة وبنو حسان ولا غيرهم من العرب الوافدين.

فقد توزعت صنهاجة فسلكت قبائلها طرائق قددا، فكان منها زوايا كتندغة وتجكانت، واجيجبة ولمتونة التي احتفظت باسم أولى القبائل القديمة، حسب رأي بابا بن الشيخ سيديا، ومسومة وتاكاط وتاشدبيت وادكجمله حسب رأي الشيخ سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان(٦٤).

وكان فيها قبائل محاربة كادوعيش ومشظوف، وأصل الكلمة «مسوفة» اسم ثانية القبائل القديمة. وكان فيها قبائل غارمة (لحمة) مثل آرويجات وكدالة التي تحمل اسم ثالثة القبائل

الصنهاجية القديمة(٦٥). وقد تفرع من قبيلة ادوعيش الصنهاجية بطنان أخذ كل منهما حجم القبيلة ووزنها وسمي أحدهما «أبكاك» وهو العلك أو الصمغ العربي الأسود ويسمى الثاني «شراتيت» وهي كلمة عامية تعنى الدبة (جمع دب). وتعود هاتان التسميتان على ما تناقلته الروايات الشعبية الى أن أبناء العمومة انقسموا فريقين في حرب ضارية للسيطرة على الامارة بعد وفاة الأمير القوي محمد بن محمد شين (ق ١٣هـ) فكان كل منهما يعير الثاني بما يزعم أن الحرب الجأته اليه. ويصرح أحد شعراء تندغه، وهي قبيلة زوايا مجلية في الحياة المحضرية، بأنهم وهذه القبيلة التي تفرغت لحمل السلاح أبناء عمومة :

أبنـــاء أعمامنـــا فرسان ملحمـــة   يدعـون بالكنـدر المسود والدبـــة

وكما سلكت قبائل صنهاجة طرائق قددا فكذلك تشعبت القبائل العربية، فكان من بني حسان مقاتلون، أهل فروسية، مثل الترارزة ولبراكنة وأهل يحي بن عثمان. وكان من العرب زوايا معلمون متعلمون مثل كنتة. ومدلش من بني أمية واديبسات من الأنصار ومجموعات من الشرفاء والجعفريين، منهم اليعقوبيون من بني حسان.

وربما انشطرت القبيلة العربية شطرين، مثل أولاد الناصر الذين حمل بعضهم السلاح «فتعرب» وفرغ بعضهم للعلم فعدمن «الزوايا».

وقد تكون القبيلة تجمعا بشريا من سلالات مختلفة لا تجمعها شجرة نسب واحدة وانما جمعتها ظروف معينة فتعايشت وانصهرت فيما بينها وحملت نفس الاسم.

يروى أن القائد المرابطي أبا بكر بن عمر (٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م) مر بودان في طريقه الى المغرب، فوجد ولدا صغيرا لأخيه يحى، وكان يحي قد استشهد في معركة بمدينة تفرله، القريبة من وادان، فطلب من يتطوع برعاية الولد وحضانته فتقدم لذلك رجال سميت ذريتهم من بعدهم «الرعيان» فصاروا اليوم قبيلة كبيرة(٦٦). وتقول الروايات الشعبية أن قبيلة «ادولحاج» تنتسب الى رجال من قبائل شتى جمع بينهم الحج وجاءوا فأسسوا مدينة ودان، وهم الحاج عثمان (أنصاري) والحاج يعقوب (قرشي) والحاج علي (صنهاج) والتحق بهم بعد فترة عبد الرحمن الصائم فأصبحت ذريتهم قبيلة واحدة تدعى أدولحاج أي أبناء الحجاج(٦٧).

أما قبيلة آمكاريج فانما حملت هذا الاسم بمقتضى مهنة الاجداد، فقد أوكل أبو بكر بن عامر الى عدد من رجال جيشه مهنة تلقيح النخل وتأبيره، فسموا باللغة الصنهاجية «آمكاريج» (الذين يؤبرون النخل). وسرى الاسم على ذريتهم من بعدهم، فلا عجب اذا إختلف الناس في نسبتهم فنسبوهم أحيانا الى قبيلة «بافور» القديمة التي كانت تستوطن البلد ونسبوهم أحيانا الى النمادى(٦٨) وغيرهم.

والنمادى في واقع الأمر، ليسوا بني عمومة، فهم خليط من العناصر والسلالات جمعتهم حرفة الصيد البري.

وتطلق تشمشة على تجمع قبلي كبير يضم قبائل أولاد ديمان وادالفغ وادكبهني وادوداي واديقب وأبناء عمومتهم أهل بارك الله(٦٩).

والرباط الجامع بين هذه القبائل هو الانتساب الى خمسة رجال لا تربطهم علاقة قربى أكيدة وانما جمعتهم الهجرة من جنوب المغرب الى جنوب موريتانيا فرعت السلالات الخمس عهد الآباء، وانتسبت نسبة واحدة لا الى جد جامع، بل ولا الى قرية، وإنما الى رقم يرمز الى الحلف بين الرجال الخمسة (تشمشة باللهجة البربرية : خمسة).

ومع أن هذا التفسير الرقمي هو المعتمد عند المؤرخ الشنقيطي الكبير المختار بن حامد وبعض علماء البلد، فمن الوارد التساؤل عن علاقة الافراد الخمسة بمدينة «تشمش» Lixus القديمة التي تقع بين مدينتي البصرة وباب أقلام المغربيتين وعلى مقربة من المحيط الأطلسي(٧٠).

* * *

اذا كانت القبيلة وهي وحدة بشرية صغيرة، لا تقوم على أساس عرقي في كل الأحوال، ولا يضمن لها انتسابها السلالي موقعا معينا في السلم الاجتماعي، فان ذلك منعكس لا محالة على المجموعات الائتلافية الكبرى (الزوايا - حسان - اللحمة). فالزوايا وحسان (مثل اللحمة) خليط من الاعراق والسلالات، وان طغت النسبة العربية على بني حسان.

ولم تفتأ المجموعتان تتبادلان «العطاء»، قوم من الزوايا يحملون السلاح ثم لا يلبث أن يستهويهم دون غيره فيصبحون بحكم الوظيفة الاجتماعية «حسانا» أو «عربا»، وقوم من حسان يضعون أسلحتهم وينيبون الى الله ويحملون الالواح فتغلب عليهم النسبة الى «الزوايا» بحكم وظيفتهم الاجتماعية الجديدة.

ومعلوم أن الرقيبات، كبرى قبائل الصحراء الغربية، قبيلة زوايا في الأصل لكن غلب عليها حمل السلاح، وان بقيت فيها بيوت قضاء وعلم. وهي منتشرة في بلاد شنقيط ومنها الى جنوب المغرب وجنوب الجزائر.

وقد التحقت بالزوايا بعض طوائف حسان والقبائل المحاربة فسموا أحيانا «المهاجرة» وأحيانا «التياب» لأنهم هاجروا من مواطنهم ومواطن قومهم فالتأموا حول أحد أعيان الزوايا، وتابوا الى الله مما فرط منهم من حمل السلاح والفتك بالناس ونهب أملاكهم. وتشكل هذه الفئة كما تقول حتوت بنت عبد الله «همزة وصل» بين بني حسان والزوايا(٧١). ومن هؤلاء مهاجرة سيدي محمود، وهم طوائف من حمر آرتاك ومشظوف وأولاد الناصر وغيرهم(٧٢).

وقد عرف صالح بن عبد الوهاب (١٢٧٢ هـ/١٨٥٥ م) التائب بأنه «هو من هجر السلاح وحزب الشيطان ورجع الى الله منيبا» أما المحارب «فهو الذي يريد أن ينشىء مجدا بشجاعته وإقدامه»(٧٣).

ومن التوبة ما يكون اختياريا. ومنها ما يكون اجباريا بضغط أو اكراه، كما فعل سيد أحمد بن عثمان بأهل أحمد بن لفظيل حيث أقصاهم عن المسرح السياسي، لوقوفهم مع الاقرع ضده[٧٤].

وهكذا لم تكن الزوايا ولا بنو حسان فئات اجتماعية مغلقة محصورة العضوية. لم يكن الزوايا في كل الأحوال قبائل منزوعة السلاح، معرضة عن حمله، فبعض قبائل العلم لم تضع أسلحتها، وظلت تزاوج بين القلم والبندقية، محققة بذلك بعض الاستقلال. ومن هذه الفئة المستقلة عن حسان: كنتة تكانت، واغلال الحوض وادو لحاج العصابة وأولاد أبي السباع في إنشيري[٧٥]. ولم يكن العلم حكرا على «الزوايا» فقد أخذ بنو حسان منه بنصيب وحسبنا هنا أن نشير الى أن صالح بن عبد الوهاب الناصري وعددا من العلماء المذكورين في كتابه «الحسوة البيسانية» ينحدرون من قبائل حسانية.

وكانت السيدة خناثة بنت الامير المغفري الشنقيطي بكار، من العالمات وهي زوج سلطان المغرب مولاي اسماعيل. ذكرها صاحب الاستقصاء في تاريخ المغرب الاقصى وذكر أن لها حواشي على هامش نسخة من كتاب الاصابة لأبن حجر بخطها[٧٦]. وورد أن لها مناظرات مع علماء المشرق وغيرهم كانت بها محل تقدير العلماء.

هـ ـ من الاسلام الى التعرب

كان الاسلام فتحا ثقافيا. وقبل أن يصل العرب البلاد ويحكموها كان هذا الفتح الثقافي فتحا عربيا هيأ المسلمين الصنهاجيين ومهد لهم تمهيدا ليكونوا ـ أو يعودوا ـ عربا، يحرصون على انتمائهم العربي كما يحرصون على عقيدتهم الاسلامية.

ثم جاء بنو حسان، فأكملوا ما كان الصنهاجيون بدأوه من تعريب المجتمع وانطلق في البلاد تياران قويان يتبادلان التأثير يسند كل منهما الآخر: تيار التعلم، وله في الزوايا قوة ومدد، وتيار التعرب وله في بني حسان عدة وعدد. ولم تلبث صحراء الملثمين أن تعربت تعربا شاملا، لم تشهد بلاد المغرب العربي مثله.

لقد سبق العرب الى افريقية وبلاد المغرب وحكموها أكثر مما حكمها أهلها الأقدمون، وأكثر مما حكم العرب بلاد شنقيط. ورغم ذلك فان الصراع الثقافي دام فترة أطول ولم يحدث انصهار عرقي وثقافي مثل الذي حدث في بلاد شنقيط... وما تزال اللغات البربرية، مستعملة إلى اليوم في بلاد المغرب الثلاث (المغرب ـ الجزائر ـ تونس) بينما اندثرت تقريبا في بلاد شنقيط، كما اندثرت فيها لغة «ازير».

أما الصنهاجية (كلام أزناقة فلم يعد يتحدث بها إلّا نحو عشرة آلاف شخص[٧٧] يتكلمونها كلهجة ثانية بعد اللهجة العربية الحسانية. وأما «آزير» فمنها مفردات ما زال أهل ودان يعرفونها وانقرض معظمها، وقد نظم بعضهم مفردات من هذه اللغة المندثرة في الأبيات التالية:[٧٨].

قال محمد الشريف ابن الامام المرتجي من ربه محـــو الآثام
الحمـــــد لله وأكـــــمل السلام علي الذي حوى جوا مع الكلام
وبعــد قد سألنـــي «حميتـــي» نظم كلام «ازيـــر» في مبـــيت
عند ابن ايحياو ساعة الـــعشا وقاه ربـــي كل داء في الـــحشا
يا سائـــلا وقـــيت كل ضيـــر عن معنى الفاظ كلام «زيـــر»
فهـــاك نظمـــا قد حواه أجمعـــا مفردها انصبه وجمعهـــا ارفعـــا
ككت لليـــد وللجمـــع كتـــو شجـــرة يت وللجمـــع يتـــو
فهـــذه قاعــــدة الكـــــلام فاصغ لهـــا أخـــي وع نظامـــي
العيـــن ياغ ثم الــــرأس يم والسن كنب الاصبـــع الـــدرم
الانـــف في ازيرنـــا نفنـــا والفـــم رق ثم «الـــركب» غنـــا
الطـــن الاذن والـــذراع ييـــر والكرش كوش والعـــريس ايـــرا
اسم السماكـــم والابـــن رمـــا ورجل يدعونـــــه ييمـــــا
يكـــم البعيـــر ثم البقـــر نانـــو والنبـــق عندهـــم يا صاح افانـــو
درمـــيل للقمـــح وللنـــخل يتـــا طمـــزن للشعيـــر الـــزغب ينتـــا

ويتحدث جميع الشناقطة اليوم اللهجة الحسانية ـ العربية، التي جاءت بها قبائل بني حسان قبل نحو ٦ قرون فانتشرت انتشارا مذهلا حتى اكتسحت اللغات القدمة (ازير، كلام ازناكة: بربرية). وتولت القبائل الصنهاجية التي انسخلت من لغتها القديمة تعميم العامية الحسانية ونشرها وتطوير آدابها وفنونها. ولعلها بذلت في ذلك من الجهد وأنجزت من العمل ما لم ينجزه بنو حسان أنفسهم.

وتعتبر الحسانية أقرب لهجات المغرب العربي الى الفصحى، ولعلها من أنقى اللهجات العربية عموما، اذا استثنينا بعض الاعلام الجغرافية وأسماء النباتات. وقد أدركتها سنة التطور، فتهذبت عبر السنين ولعبت الاذاعة خاصة دورا هاما في عملية التهذيب هذه، فاندثرت مفردات بربرية مع مفردات أخرى أصبحت شاذة ينبو عنها السمع وإن كانت فصيحة أصيلة في اللغة العربية شأنها في ذلك شأن لغة امرىء القيس والشنفري وغيلان. ويتناقل الناس أن امرىء قيس الشعر العامي الحساني سدوم بن انجرتو كان يغرب في عاميته، فاذا استشكل الناس بعض كلماته فتحوا لها القاموس المحيط للفيروز ابادي.

ويستدل الدكتور محمد المختار بن أباه في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء في موريتانيا» على فصاحة اللهجة الحسانية بالدلائل التالية[٧٩].

١) اثبات التثنية كما يثبتها النحاة ولو كانوا يلزمون الياء في المثنى، فيقولون مثلا: (كالوا راجلين) بمعنى قال رجلان على لغة «اكلوني البراغيث» كما يقول النحاة. وأنت تجد اللهجات العربية الأخرى تستخدم كلمة زائدة للتعبير عن المثنى (اثنين، زوج) كما هو الشأن في اللغتين الانجليزية والفرنسية.

٢) اثبات الاضافة دون استعمال كلمة زائدة فهم يقولون : «أجمل الراجل» بمعنى «جمل الرجل» بينما نقول في لهجات أخرى «أجمل متاع الراجل» أو «ديال» أو «حك» أو «مالت»..

٣) وجود بعض أوزان الفعل المزيد التي لم تعد موجودة في جل اللهجات العربية مثل «انفعل» و«افتعل» فنقول «انفتح الباب»، «اشتمل»... الخ.

٤) الاحتفاظ بجميع الحروف المعروفة في الفصحى حسب النطق البدوى فلا تلتبس الحروف وان تقاربت (الثاء والسين، الذال والزاي) ولو كانوا يقبلون الضاد ظاء مشالة في الغالب.

٥) سهولة فهمها في جميع الأقطار العربية.

هوامش وتعليقات المدخل

(١) أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري. مساهمة في وصف الأساليب (أطروحة دكتوراه) ص ٢٣.

(٢) مملكة غانة هي أقدم الممالك الافريقية، أسسها في القرن الثاني الميلادي قوم من شمال افريقيا هاجروا في اتجاه الجنوب فحكموا بطريقة سلمية منطقة واسعة يقطنها خاصة «الصوننكية» وقد ثار السكان «الصوننكية» في القرن الثاني الهجري (سنة ٧٧٠ م) على حكامهم البيض وحلوا محلهم في السلطة واستمرت دولتهم الى سنة ١٢٤٠ م.

وكانت مدينة أودغست من مدن غانة الكبرى الى أن استولى عليها اللمتونيون سنة ٩٩٩ م.

راجع لمزيد من التفاصيل حول تاريخ غانة ومنطقة نفوذها :

د. حسن ابراهيم حسن انتشار الاسلام في افريقيا (ص ٩٤ وما بعدها) وكذلك في الأعمال الجامعية الموريتانية المعاصرة :

- أحمد بن محمدن : مدخل لدراسة العمود الغربي للتجارة الصحراوية من القرن ١١ الى القرن ١٦ م، (ص ٩).

(٣) تعتبر مملكة مالي من أعظم ممالك افريقيا الغربية الاسلامية ومن أقواها وأغناها وتعود جذورها الى اسلام ملوك المانديغ في كانغابا Kangaba وتعاظم أمرها ابتداء من سنة ١٢٣٠ م في عهد الملك سانديانا، الذي ورث سنة ١٢٤٠ م مملكة غانا وبلغت هذه الدولة أوج قوتها في عهد الملك منساموسى (١٣٠٧ هـ/١٣٣٢ م) الذي بسط سلطانه على مدينة ولاتة، وأفاض ابن بطوطة (الرحلة : ١٩٤ وما بعدها) في وصف أحوال هذه الدولة وملكها، وقد بلغ ضعف دولة مالي غايته في القرن الخامس عشر للميلاد، راجع : حسن ابراهيم حسن (ص ١٠٢ وما بعدها) وكذلك أحمد بن محمدن (ص ١٣).

(٤) المختار بن حامد : حياة موريتانيا (موسوعة منها جزءان تحت الطبع).

(٥) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد البحوث والدراسات العربية) الجمهورية الاسلامية الموريتانية : دراسة مسحية شاملة (ص ١٢)، وقد تناول ابن خلدون بتوسع أكثر تاريخ الدولة الصنهاجية وأسماء ملوكها وأعمالهم، فليرجع اليه.

(٦) محمد بن الطلبة : مدخل الى دراسة تاريخ موريتانيا تحت ظل الاستعمار (ص ١٣، ١٤).

(٧) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (ص ١٥٩).

(٨) البرتلى : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (ص ٢٦).

(٩) بابا ابن الشيخ سيديا : تاريخ ادوعيش ومشظوف (مخطوط).

(١٠) Jean Triand : Islam et Sociétés Soudanaises au moyen âge, p. 16

(١١) Vincent Monteil : Islam Noir, p. 62.

(١٢) أحمد بن الأمين الشنقيطي : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص ٤٢٢). والصحيح كما نبه الى ذلك الأستاذ أحمد بن الحسن في «الشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ » أن السنغال تحد البلاد من الجنوب بينما يحدها الاطلسي من الغرب.. فهناك سبق قلم.

(١٣) المصدر السابق، ص ٤٥٨.

(١٤) الشيخ ماء العينين : نعت البدايات، ص ٣٢٢.

(١٥) انظر :

– محمد محمود بن الحاج ابراهيم : الدر الخالد (مخطوط)

— Mohamed El Moktar O. Bah : La Litterature Juridique et l'Evolution du Malikisme en Mauritanie, p. 181.

(١٦) أحمد بن سيدي : القبائل الدول في المجتمع الموريتاني (صحيفة الشعب الموريتانية ١١٣١ بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ/ ١٣ مارس ١٩٧٩ م) عزوا الى :
ـ الشيخ محمد المامي : الجأش الربيط في الكلام على شنقيط (مخطوط)
(١٧) أحمد بن سيدي : المصدر السابق، وكذلك :
ـ محمد فال بن بابا : التكملة في تاريخ الترارزه والبراكنة (تحقيق الأستاذ أحمد ابن الحسن)، وقد ذكر «هذه البلاد الصحراوية التي تسمى عند من أدركنا من الكبار في عرفهم بلاد المغافرة» (ص ٨١).
(١٨) المختار بن حامد، مصدر سابق، وكذلك
ـ محمد المصطفى الندى : دور المحاضر في موريتانيا (رسالة تخرج مرقونة) ص ٣٢.
(١٩) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم (رسالة تخرج مرقونة) ص ٩، انظر أيضا :
ـ محمد الأغظف بن الداه : الأوضاع البشرية في الحوض (رسالة مرقونة)
(٢٠) الشيخ محمد المامي : كتاب البادية (مخطوط)، راجع : أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي.
(٢١) راجع دراسة مسحية شاملة، مصدر سابق، وكذلك حياة موريتانيا.
(٢٢) البرتلي ـ ص ١٥ و١٦٠.
(٢٣) خديجة بنت لوداعه (تحقيق) : المفيد للتمييز لأحمد بن محمد العبدلي الحاجي (رسالة مرقونة) ـ ص ١١.
(٢٤) محمد الأمين بن داداه، مصدر سابق ـ ص ٤٥.
(٢٥) الحاج أحمد سكيرج العياشي : كشف الحجاب، ص ٣٦٤.
(٢٦) سيدي عبد الله : صحيحة النقل في علوية ادو على وبكرية محمد غلى (مخطوطة).
(٢٧) عبد الله السالم بن الشيخ أحمد : دراسة شخصية الشيخ محمد حامد بن عبد الله بن آلا (رسالة مرقونة) ـ ص ١١.
(٢٨) محمدي بن خيري : بابا بن أحمد بيبه، حياته وديوانه (مرقونة) ـ ص ٥٧.
(٢٩) بابا بن الشيخ سيديا ـ مصدر سابق، هذا وقد اعتمدنا في عملنا مصطلح «البيضان» أو «البياضين» معادلا لمصطلح «Maure, s»، حيث ورد في النصوص الأجنبية التي رجعنا اليها، ذلك أن «Maure» التي وردت في الكتابات الغربية قبل اطلاق «Mauritanie» على بلاد شنقيط لم تكن إلّا ترجمة لـ «بيضاني» و«بيضان» فالعودة الى الاصل أصح، والمصطلح أدق وأنقى من «موريتاني»، التي صارت نسبة جغرافية لا تحدد الجنس البشري ضرورة، ومن «مورى» غير المسموعة. ويؤيد اعتماد هذا المصطلح أنه سائر الى اليوم في اللهجة العامية علما على سكان البلاد العرب، بل أنه ورد قديما في كتابات البكري في حديثه عن أوداغست دالا على الصنهاجيين. (راجع حديثنا عن أوداغست في الباب الأول).
(٣٠) انظر : Robert Randeau : Xavier Coppolani, p. 34, P. Lafogue : Les Ghoudhf, p.1.
(٣١) مصدر سابق : Randeau, p. 75
(٣٢) دراسة مسحية شاملة، مصدر سابق، ص ١٦٦.
(٣٣) المصدر السابق، ص ٤١٩.
(٣٤) العرب اللندنية، عدد ١٦/٥/١٩٨٦.
(٣٥) يونس بحري : هذه جمهورية موريتانيا الاسلامية، ص ٣٨.
(٣٦) المختار بن حامد، جزء الجغرافيا، وكذلك : محمد المصطفى الندى، ص ٢٤.
(٣٧) أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي، ص ٢٤.
(٣٨) عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل.
(٣٩) سفارة موريتانيا بتونس : أضواء على موريتانيا، ص ٣١.

(٤٠) المختار بن حامد، وكذلك : دراسة مسحية، ص ٨.
(٤١) محمد يوسف مقلد، شعراء موريتانيا، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٤٢) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والاندلس.
(٤٣) المصدر السابق.
(٤٤) عباس الجراري : ثقافة الصحراء، ص ١٠، عزوا الى البيان المغرب لأبن عذارى المراكشي.
(٤٥) الشيخ سيدي محمد الكنتي : الرسالة الغلاوية (مخطوط).
(٤٦) عباس الجراري، مصدر سابق، ص ١٠ عزوا الى : محمد الغربي : الساقية الحمراء ووداي الذهب، ص ١٢٨.
(٤٧) محمد المختار ابن أياه : مقدمة «الشعر والشعراء في موريتانيا» (تحت الطبع) عزوا الى مقدمة ابن خلدون، ص ٩١.
(٤٨) ابن خلدون : التاريخ، ٢ ـ ١٤.
(٤٩) عبد العزيز بن عبد الله، مصدر سابق.
(٥٠) أحمد بن سيدي، مصدر سابق.
(٥١) دراسة مسحية، ص ١٧.
(٥٢) محمد محمود ابن ودادي (تعريب وتعليق) : لبرابيش ـ بنو حسان، لبول مارتي ص ١٦.
(٥٣) هذا هو المعتمد عند جل علماء البلد، وقد وردت هذه السلسلة في الحسوة البيسانية لصالح بن عبد الوهاب الانصاري، تحقيق أحمد بن محفوظ (رسالة مرقونة ص ٤) وأكد الشيخ محمد اليدالي النسبة الجغرفية لبني حسان في مديحيته لامراء البراكنة (قصيدة رائية سنعود لذكرها) ووردت النسبة نفسها هامشا في نهاية طبعة فرنسية لكتاب شيم الزوايا لمحمد اليدالي.

أما ابن خلدون فينازع في أصول المعقل، ومنهم بنو حسان، فيقول :

«أما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة، ونسابة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال، وهو غير صحيح، وهم يزعمون أن نسبهم في أهل البيت الى جعفر بن أبي طالب، وليس ذلك أيضا بصحيح، لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة، والصحيح ـ والله أعلم ـ من أمرهم أنهم من عرب اليمن، فان فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بالمعقل (...) والأنسب أنهم من البطن الذي من مذحج» ص ٦ ـ ١٢١.

(٥٤) أحمد بن محفوظ (تحقيق) : الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية لصالح بن عبد الوهاب الناصري، ص ١٢.
(٥٥) أحمد بن الأمين : الوسيط، ص ٤٨٠.
(٥٦) المصطفى بن احمدان : مساهمة في كتابة تاريخ وادان (رسالة مرقونة) ص ٥٦.
(٥٧) قدر كابولاني خلال رحلته الى الترارزه سنة ١٩٠٢ م عدد الزوايا في هذه المنطقة بـ ٦٠,٠٠٠ نسمة من أصل ١٠٠°٠٠٠، أي ما نسبته ٦٠٪ من السكان (راجع تقرير الحاكم العام لغرب افريقيا الى وزير المستعمرات ـ الملف ١/٨ E في الوثائق الوطنية بنواكشواط).

وفي السبعينات، قدر دشاسي عددهم الاجمالي في موريتانيا بـ ٤٩٠°١٨٠ نسمة وهو ما يساوي نسبة ٣٦٪ من مجموع السكان : Francis de Chassey : d'etrier, la houe et le livre, p. 90

وتتفق جميع المصادر على أنهم يشكلون الأغلبية النسبية من سكان البلاد، فهم أكثر الفئات التي يتكون منها المجتمع عددا، يليهم العرب السمر (الحراطين : الموالى المعتقون) ويمكن اعتبارهم من الزوايا لأن أغلبهم ينتسب إليهم تقليديا بلحمة الولاء... ثم بنو حسان، ثم الفئات الاجتماعية الأخرى.

(٥٨) بابا بن الشيخ سيديا : تاريخ...
(٥٩) محمد المصطفى الندى : أساليب وطرق التدريس المحضري في الكحلاء (بحث لم ينشر).

(٦٠) تجد نموذجا من ذلك في قصيدتي محنض بابه، وحرمة بن عبد الجليل في الوسيط.

(٦١) Bulletin Ifan, Tome XIV, Juillet 1952

(٦٢) مقلد : مصدر سابق، ص ١٦٥.

(٦٣) تطلق الكلمة عند الشناقطة على الوبر غير الجيد، وقد استعاروها علما على فئة تابعة، وفي اللغة: اللحمة القرابة، ولحمه : قرب منه حتى لزق به، ولا يبعد هذا من معنى «الاتباع» و«الاصحاب» وكلاهما تطلق في الاصطلاح العامي على هذه الفئة من المجتمع.

(٦٤) بابا بن الشيخ سيدي، تاريخ.. انظر أيضا : رسالة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان في أنساب القبائل.

(٦٥) بابا، مصدر سابق.

(٦٦) المصطفى بن أحمدان : مصدر سابق، ص ١٥، ويجب أن ننبه الى أن المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا تفيد أن وادان تأسست سنة ٥٣٦ هـ بعد وفاة أبي بكر بن عامر بنحو ٥٦ سنة فما المقصود بمروره بها وما وجه وجوده طفلا بها..؟

(٦٧) المصدر السابق، ص ٢٣.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٦٩) أحمد بن الحسن (تحقيق) : التكملة، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٧٠) عبد العزيز بن عبد الله : مصدر سابق، وتقع أطلال تشمش على مقربة من مدينة العرائش (نقلا عن المؤرخ عبد الوهاب بن منصور).

(٧١) حتوت بنت عبد الله : امارة أولاد يحي بن عثمان من ١٧٤٥ الى ١٩٠٠ م (رسالة مرقونة) ص ٤١.

(٧٢) الشيخ سيدي محمد الكنتي : الرسالة الغلاوية.

(٧٣) أحمد بن محفوظ، مصدر سابق، ص ١٨.

(٧٤) حتوت، مصدر سابق، ص ٤٠.

(٧٥) محنض بابه بن المختار : مدخل الى تاريخ الطرق الصوفية في موريتانيا، ص ١٣.

(٧٦) أحمد بن الأمين، ص ٧٤، انظر أيضا الناصري في الاستقصا ١٣٨/٧.

(٧٧) المختار بن حامد، وكذلك دراسة مسحية، ص ١١.

(٧٨) في هذه «المنظومة» اختلالات عروضية ولغوية، فالناظم يفسر لغة «آزير» أحيانا بمفردات حرفتها العامية، وهو لا يراعي دقة الوزن، وربما تعمد الشخص ذلك اذا كان الموضوع غير جدي عنده، وانما أوردنا القطعة لقيمتها كنص يوثق بعض مفردات لغة منقرضة، ويثبت في الوقت ذاته أنها تركت مكانها للغة العربية. وقد وردت مفردة من لغة «أزير هذه» في شعر سيدي عبد الله بن محمد (ابن رازقة) حيث يقول في بيتين :

لقد شمخت أنفا علينا خديجة ... وقالت بآزير لهـا «إدوارن»
ونحن الأنوف الشامخات على الورى ... تقاصر عنا كل أنـف ومـارن

ويذكر محمد سعيد بن دهاه في تحقيقه ديوانه عزوا الى الشيخ محمد فال بن عبد الله أن «ادوارن» هي اسم قبيلة العلويين باللغة الازيرية.. وكانت خديجة قالت ما قالت في سياق استخفاف.. راجع ترجمة الشاعر في الوسيط.

(٧٩) محمد المختار بن أباه : الشعر والشعراء في موريتانيا، ص ١١.

الباب الأول

المحاضر.. نشأتها وعوامل انتشارها

نشأة المحاضر وتطورها

عوامل انتشار التعليم المحضري

الفصل الأول

نشأة المحاضر وتطورها

يقتضي الحديث عن نشأة المحاضر وتطورها في بلاد شنقيط الالمام بدءا بأصول التعليم الاسلامي، ومبادئه الأولى، منذ أن بعث محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وخوطب أول ما خوطب بقوله تعالى : «اقرأ».

لقد تدرجت الحركة العلمية العربية، وسارت صعدا منذ ذلك التاريخ، ترتفع من مستوى الى مستوى وتتوسع من بلد إلى بلد، فكان لها، بعد الحرم النبوي في المدينة المنورة مراكز في الشام والعراق ومصر أيام الفتوحات. ثم فاض المدد الى بلاد افريقية والمغرب، فنشأت فيها جوامع وجامعات قامت على بث العلم ونشره خير ما قيام. وكانت دولة العرب المسلمين في الأندلس دولة علم وتدوين وتأليف. ثم ولد التعليم العربي الاسلامي ولادة عسيرة في صحراء الملثمين، فاضطر الفقيه الأول في البلاد، وقد لقي إعراضا وعنتا من القوم البداة أن ينتبذ مكانا، يتخذه رباطا له ولثلة من الذين يرغبون في دراسة احكام دينهم. كانت المحضرة والرباط توأمين في حركة عبد الله ابن ياسين، فلم يلبث العلم أن أذكى روح الحماس للجهاد والحمية للدين في نفوس الملمثين، فخرجوا من رباطهم يجددون عهد الفتوحات الأولى.

وانشغل القوم بالجهاد عن التعليم حينا، ثم عادوا اليه بلهفة فكان لهم علماء في حواضر مثل آزوكي وشنقيط القديمة. وكان للأمير فقيه قاض في حيه المتنقل. وتأسست على العلم حواضر جديدة مثل تشيت وودان. واحتضنت ولاتة وشنقيط اللوح والكتاب أيما احتضان، ثم لم تبدأ الألف الهجرية الثانية حتى كانت البادية تتلقف لواء التعليم المحضري فتصل به الى ذروة مجده وأوج انتشاره.

١ ـ أصول التعليم العربي ـ الاسلامي

قامت الحركة العلمية العربية في ظل الاسلام على التلقي من أفواه الرجال، واستندت هذه الحركة الى أساس صلب من اخلاقيات الاسلام الذي ربى الناس منذ نزول الوحي على طلب العلم من أهله والاستكثار منه والاخلاص في ابتغائه والصدق في الرواية وإسناد الخبر اسنادا

كاملا الى مصدره. وهكذا صارت الرواية أساس الحركة العلمية العربية، خاصة ووسائل التدوين قليلة نادرة. وكان الناس يحفظون الأسانيد كما يحفظون المتون ليزكو علمهم وليبرأوا بالعزو من تهمة الكذب. واستن العرب المسلمون قواعد وضوابط التزموها في نقل المعارف وتلقيها، تربت عليها الأجيال ورعتها حق الرعاية.

فكان طالب العلم يتلقى العلم عن شيخه بوجوه ثمانية :

١ ـ السماع، املاء أو تحديثا، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملي القرآن على كتبة الوحي ويحدث أصحابه.

وقد ألزموا الطالب اذا تلقى بهذه الطريقة أن يقول «سمعت» فلانا. وترخص بعضهم في استعمال صيغة «أنبأنا» أو «أخبرنا» أو «حدثنا» مع ترجيح الصيغة الأولى، لأن علماء الحديث والأصول اصطلحوا لكل صيغة على دلالة خاصة هي بها ألصق، وتحروا في اعتماد الصيغ دقة المشرع، احتياطا منهم في نقل العلوم.

٢ ـ القراءة، وهي أن يقرأ التلميذ النص على الشيخ. فاذا روى عنه، قال (قرأت على فلان)، أو (أخبرني فلان قراءة عليه).

٣ ـ المناولة، وهي أن يناول الشيخ تلميذه كتابا من سماعه. وقد تقترن المناولة بالاجازة فيقول الشيخ : هذا سماعي فاروه عني أو نحو ذلك.

٤ ـ الكتابة، وهي أن يكتب الشيخ للتلميذ شيئا من حديثه بخطه أو يأمر غيره بذلك. ولا ينبغي للمتلقي في هذه الحال اطلاق لفظ «حدثنا» أو «أخبرنا»، بل يقول «كتب اليّ فلان».

٥ ـ الاجازة، وهي أن يقول (أو يكتب) الشيخ لتلميذه أجزت لك أن تروي عني كذا. وقد تكون اجازة في معين لمعين كأن يجيز لزيد رواية الكتاب الفلاني. وقال ابن عبد البر «الاجازة لا تجوز إلّا لماهر بالصناعة حاذق بها».

٦ ـ الاعلام، وهو أن يعلم الشيخ تلميذه أنه سمع هذا الكتاب أو الحديث من فلان دون أن يأذن له في روايته.

٧ ـ الوصية، وهي أن يوصي عالم قبل موته بكتاب من مروياته لشخص ويأذن له في روايته عنه، وهي صيغة نادرة.

٨ ـ الوجادة، وهي أن يجد حديثا أو كتابا بخط شخص عرف خطه أو استوثق من أصله. وله في هذه الحالة أن يقول «وجدت» أو «قرأت بخط فلان»[1].

وقد نشأت أصول الرواية وقواعدها وتطورت بتطور الحركة العلمية العربية وكانت هذه الحركة تنمو في مجالس العلم وحلقاته التي انتظمت في المساجد، قبل نشوء المدارس. وقد بدأ

المسجد يؤدي دوره التعليمي منذ وقت مبكر، فقد كان أهل الصفة(٢) مقيمين بمسجد النبي عليه الصلاة والسلام، يتلقون الوحي والمعارف الغضة منه صلى الله عليه وسلم في رحاب المسجد.

وتعزز هذا الدور مع انتشار الاسلام، فحين فتحت الشام كتب يزيد بن أبي سفيان والي جند دمشق للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب معلمين يلقنون أهل الشام القرآن ويفقهونهم في شؤون الدين فأرسل إليه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء، رضوان الله عليهم، وكلهم حفظوا القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم.

وكان هؤلاء الثلاثة أساطين حركة التعليم في الجامع الأموي بدمشق. وفيه سن أبو الدرداء نظام الحلق، فكان اذا صلى الغداة (الصبح) بالجامع اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وينصب على كل عشرة عريفا...

وصار الجامع على مر القرون مثابة لطلبة العلم.. قال أحد شيوخ القرن الأول «عهدت المسجد الجامع بدمشق وان عند كل عمود شيخا وعليه الناس يكتبون العلم».

وأخذ هذا التعليم ضروبا وأشكالا، فكان منه تعليم زمري، وتعليم فردي وتعليم جماعي، ومنه الحلقات أو المجالس، أو الزوايا كما سميت في عهد متأخر.

أما التعليم الفردي فكان الناس في شغل عنه في البداية ثم فرغوا اليه، فاتبعه فضالة بن عبيد الأنصاري الذي أقرأ في خلافة معاوية. كان يقرىء طلابه كلا على حدة، يقول للطالب : «خذ المصحف فامسك علي ولا تزد عليّ ألفا ولا واوا».

وأما التعليم الزمري فهو ما استنه أبو الدرداء، فكان لكل زمرة من التلاميذ معلم أو عريف.

وأما التعليم الجماعي، فقد استخدم في القصص والوعظ والحديث والفقه، وفي القرآن أحيانا. وأكثر ما يكون حين يكثر الناس بعد صلاة العصر أو يوم الجمعة، فهو بمثابة المحاضرة اليوم.

وكانت الحلقات والمجالس مختصة. وكان منها في العهد الأول بالجامع الأموي : مجلس قبيصة بن ذؤيب، أيام عبد الملك بن مروان، للحديث والفقه، وحلقة سعيد بن عبد العزيز التنوخي التي استمرت أكثر من نصف قرن وكانت للحديث والفقه أيضا.

ومن المجالس ذات الموضوع الواحد : مجلس القارىء عبد الله بن عامر اليحصبي الذي تنسب إليه قراءة ابن عامر المشهورة، وحلقة كنيز بن عبد الله الفقيه الشافعي. وقد حبسه أحمد بن طولون ٧ سنوات لتحمسه لهذا المذهب فلما مات خرج كنيز السجن وزاد في نشاطه. ومنها حلقة القاسم بن عثمان الجوعي في الزهد والتصوف وحلقة علي بن طاهر بن جعفر في النحو(٣).

وفي العراق، كان عبد الله بن مسعود، أول مدرس بمدينة الكوفة، بعثة اليها عمر بن الخطاب. ومنذ ذلك العهد، صار مسجد الكوفة، مدرسة حافلة بحلق العلم. وكان فيه حلقات للاقراء وعلوم القرآن التأمت حول عاصم بن أبي النجود (١٢٨ هـ/٧٤٥ م) وحمزة بن حبيب الزيات (١٥٦ هـ/٧٧٢ م) وعلي بن حمزة الكسائي (١٨٣ هـ/٧٩٩ م) وهم من القراء السبعة.

وشهد مسجد الكوفة حلقات فقه أبي حنيفة النعمان (١٥٠ هـ/٧٦٧ م).

أما البصرة، فقد شهدت نشاطا علميا حثيثا منذ أواخر القرن الهجري الأول، فكان فيها مجلس الحسن البصري (١٠٠ هـ/٧١٨ م) لسماع القرآن الكريم وتفسير آياته ومجلس حماد بن سلمة (١٦٥ هـ/٧٨١م) لرواية الحديث، وحلقات للقراءة واللغة والنحو كحلقة أبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ/٧٧٠ م) أحد القراء السبعة ومجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ/٧٩١ م) وحلقته التي خلفه فيها معاصره يونس بن حبيب البصري (١٨٢ هـ/٧٩٨ م)(٤).

وفي القرن الخامس الهجري، ظهرت المدارس في العراق، وانتشرت في بغداد والبصرة وواسط والموصل واربيل. وكانت أولى المدارس مدرسة مشهد أبي حنيفة ببغداد تأسست سنة ٤٥٩ هـ، وتبعتها في نفس السنة المدرسة النظامية، وتأسست المدرسة المستنصرية سنة ٦٣١ هـ. وبلغ عدد المدارس في بغداد وحدها أكثر من ٣٠ مدرسة.

وكانت المدارس توفر السكن لطلبة العلم وتقدم لهم الاعانات وتضمن لهم استمرارية التعليم وفق منهج محدد، قائم على وحدة النص المدروس. وكان يقوم على هذه المدارس رجال موسرون ينفقون عليها ويقفون، فيفرون رواتب للمدرس والناظر.

أما من حيث مادة الدرس، فكانت المدارس مختصة بالفقه لا تدرس غيره ولا تدرس إلّا مذهبا وحيدا، باستثناء المستنصرية التي قامت بتدريس المذاهب الأربعة.

وفي مصر، قامت الحركة العلمية في جامع عمرو بالفسطاط على أيدي الصحابة الفاتحين، فقد حل بمصر أكثر من مائة وأربعين صحبيا بينهم الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وأبو ذر، فكانوا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان سليم بن عتر التجيبي من التابعين، أول من قص بمصر سنة ٣٩ هـ. وقد حل بمصر نافع مولى ابن عمر وشيخ مالك بن أنس، أرسله عمر بن عبد العزيز يعلم الناس السنن.

وكان من علماء مصر الأجلاء الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) كان له مجلس لأصحاب الحديث ومجلس لأصحاب المسائل (الفتوى في الحلال والحرام)(٥).

وتأسس الجامع الازهر بالقاهرة سنة (٣٥٨ هـ/٩٦٧ م) فنشطت في رحابه الحركة العلمية.

وقد عرض طه حسين في «الأيام» نظام الدراسة في الازهر أيام شبابه، حيث كانت الحلقات تلتئم حول شيوخ يدرسون في وقت معين مادة معينة. فكان درس التوحيد يلقى بعد صلاة الصبح. فاذا أشرقت الشمس ألقي درس الفقه، ثم ألقي درس في النحو، اذا ارتفع الضحى، ودرس ثان منه بعد صلاة الظهر، بين الدرسين وبعدهما استراحة، حتى اذا صليت المغرب تنادوا الى درس المنطق.

وقوام الدراسة في هذه الحلقات على متون محددة، تقرأ والشيخ يفسر.

وفي المغرب الاسلامي، كانت قرطبة حاضرة الفكر والعلم في الأندلس والمغرب كله، واشتهرت بعلمائها ومجالسهم وبمكتباتها. وكان من ضريباتها تونس التي احتضنت جامع الزيتونة منذ سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م فكان جامعة لتلقين مختلف المعارف. وكانت تنفق على الطلبة في هذه الجامعات جرايات وترصد لهم أوقاف. وكان للناظر والاساتذة مرتبات ثابتة، تحدث عنها الاستاذ الطاهر الحداد في كتابه «جامع الزيتونة وحركة الاصلاح».

وكانت فاس من الحواضر العلمية الكبرى في المغرب، فقد احتضنت جامع القرويين، الذي أسسته أم البنين فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٨ م. وصار هذا الجامع جامعة مورودة يفد إليها الطلاب، فيحضرون حلقات الشيوخ بها. وكان للشيخ حلقتان أو أكثر في الأسبوع، يجلس على كرسي ويتحلق الطلبة بين يديه. وفيهم السارد، الذي يمسك متنا معينا (الفية ابن مالك أو المختصر أو غير ذلك) فيقرأ منه والشيخ يفسر والطلبة مصغون.

وكان للعلماء زي خاص، فالبرنس الأبيض هو شعارهم، ولهم رواتب وللطلبة أوقاف وموارد زاحمت موارد الدولة، كما يذكر الأستاذ عبد الهادي التازي في كتابه عن جامع القرويين.

وقد تميز التعليم التقليدي الاسلامي في هذه المراكز وغيرها بظاهرتين بارزتين شخصهما الدكتور محي الدين صابر في كراس «المواجهة الشاملة جذورها الفكرية وتطورها التاريخي» :

«الظاهرة الأولى شعبيته وديمقراطيته كمؤسسة فقد كانت مراكز التعليم جزءا من مؤسسة المجتمع، ووظيفة جماعية من وظائفه، ينتدب لها في كل مجتمع، معلم ذو وظائف أساسية، اجتماعية ودينية، فكان هو القائد الديني، يصلي بالأحياء ويصلي على الأموات، ويعقد لهم النكاح ويقسم المواريث ويفصل فيما اشتجر بينهم من خلاف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية على أساس من حكم الشرع، ثم هو يلقن صغارهم القرآن ويعلم كبارهم أمور الدين، وفي أحيان كثيرة علوم اللغة العربية، وبلغ من اهتمام المجتمع الاسلامي بهذه الوظيفة، أن البدو الرحل كانوا يصطحبون معهم شيخهم في تنقلهم ليتولى شؤونهم الدينية والثقافية، وكانوا هم يتولون أمره فيما يحتاج اليه من شؤون الحياة، ينفقون عليه وعلى أسرته بما يكفل له حياة مستقرة على

أساس من نظام دقيق يقدمون به مما ينتجون وما يكسبون من سعي، حقا كريما له من المجتمع. ومثل ذلك كان يفعله المقيمون من أهل الزرع والضرع، وقد وفر هذا الوضع كثيرا من الاستقرار للنظام التعليمي، وحقق مجانية التعليم ورفع العبء الاقتصادي عنه.

أما الظاهرة الثانية فهي الزاميته، بمعنى أن تعليم القراءة والكتابة كان مدخلا، بل هو المدخل الوحيد، الى تعليم الدين، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي للتمكن من القيام بالواجبات العينية المفروضة على كل مسلم، وتبعت هذا الالزام مرونة اقتصادية وادارية واجتماعية في فرص التعليم فلم تكن هناك عوائق اجتماعية أو ادارية أو دينية تحول دون تلقي التعليم في أي سن، أو في مواصلته في أي وقت ودون مقابل مادي مفروض ودون أي قيد يفضي الى حرمان طالب العلم، فطلب العلم، في حد ذاته قيمة اجتماعية يمجدها المجتمع.

ومن هنا فان القارئين والكاتبين في ظل التعليم التقليدي، كانوا أكثر عددا، ولعله من المفارقات في هذا المقام ان كان نصيب المجتمع القروي والبدوي في ذلك أكثر من نصيب أهل المدن، وذلك للتضامن الميكانيكي بين أعضاء المجتمعات القروية المحدودة والتي ترتبط بعلاقات المواجهة المباشرة فيما بين أعضائها وتشدد في الحفاظ على ممارسة المواصفات الاجتماعية من خلال الرقابة الاجتماعية الصارمة».

٢ ـ سمات المحضرة وخصائصها

المحضرة مؤسسة من مؤسسات التربية العربية الاسلامية الاصيلة تحمل بعض خصائص وسمات النظام التربوي الذي نشأ وازدهر في أحضان مدن الثغور وحواضر الخلافة والثقافة ولكنها تتميز بسمات هي فيها أبين وأبرز، أو هي خالصة لها دون غيرها من المؤسسات التربوية العتيقة.

فالمحضرة جامعة شعبية، بدوية متنقلة، تلقينية، فردية التعليم، طوعية الممارسة من خلال هذا التعريف سنبرز ستا من سمات المحضرة وخصائصها.

١ ـ فهي **جامعة** تقدم للطالب معارف موسوعية في مختلف فنون المعرفة الموروثة وهي :

- القرآن : حفظه ورسمه، وتجويده وتفسيره وبقية علومه،
- الحديث : متنه ومصطلحه ورجاله،
- العقيدة وعلم الكلام والتصوف،
- الفقه : أصوله وقواعده وفروعه،
- السير والتاريخ والانساب،
- الاخلاق وآداب السلوك،
- اللغة والادب : دواوين الشعر، المتون النثرية (مثل المقامات)،
- النحو،

ـ الصرف،
ـ العروض والقوافي،
ـ البلاغة : المعاني والبديع والبيان
ـ المنطق،
ـ أسرار الحروف،
ـ الحساب والهندسة،
ـ الجغرافيا،
ـ الفلك،
ـ الطب.

يتدرج الطالب في دراسة هذه المعارف من مستوى ابتدائي أو متوسط إلى أعلى مستويات التخصص.

٢ ـ والمحضرة ـ كما وصفها لكرتوا[٦] جامعة **شعبية** تستقبل كل من يرد عليها، من جميع المستويات الثقافية، والفئات العمرية والجنسية والاجتماعية، تستقبل المبتدىء كما تستقبل العالم فتجدد له معارفه وتوسعها وتعمقها، ويرتادها الطفل والشيخ والمرأة (وإن بنظام) والفقير والموسر، تبذل لكل طالب ما يريد من ضروب المعرفة حسب مستواه الثقافي وهوايته وطاقة استيعابه. وهي لا تسد أبوابها، وإن عطلت الدراسة أياما معدودات، بل تستمر في العطاء على مدار السنين، وهي لا ترد طالبا لعدم وجود «مقاعد شاغرة» ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب المنتسبين، فلا حد أدنى ولا حد أعلى للعدد الذي يقوم به نظام المحضرة، بل ينقص العدد أو يزيد تبعا لصيت الشيخ ومدى تفرغه، ويختلف باختلاف الفترات. وليس للطلبة سجل جامع يضبط أسماءهم ويحصر أعدادهم، لكن هناك مؤشرات دالة تستنتج منها أعداد الطلبة ولو على نحو تقريبي. من هذه المؤشرات جدول استعمال الزمن عند شيخ المحضرة، فكلما كثر عدد الطلبة، اضطر عميد الجامعة البدوية لصرف وقت أطول في تعليمهم.

ومنها عدد الأبقار والمواشي ونوبات رعاية الماشية، وعدد المؤيدين الذين تعولهم الأسرة الواحدة.

لقد اكتظت الصفراء(*) بالطلبة حتى بلغ عدد أبقارهم ٤٠٠، بينما كانت كل أسرة تعول ما بين طالب واحد و ٥ طلاب مؤيدين، وفي ذلك إشارة الى أن المحضرة كانت تضم مئات الطلاب.

وقد أقام الشيخ محمد حامد بن عبد الله الحسني ٧٠ يوما في محضرة يحظيه بن عبد الودود، ولم يرع النوق خلال هذه المدة إلّا مرة واحدة، وجل الماشية البقر.

(*) محضرة سنتحدث عنها لاحقا.

وكان في محضرة الشيخ محمد حامد ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ طالبا[٧]. وحين جاء محمد مولود بن أحمد فال محضرة محمد عالي بن سعيد (معي) وجد الالفية واحمرارها مفرقة في الألواح، تدرس جميعها في يوم واحد لكثرة التلاميذ[٨].

وكان مختصر خليل يدرس كله موزعا في الألواح، في محضرة «الكحلاء» خلال يوم واحد، فاذا اعتبرنا أن كل طالب يدرس «قفا»[٩]، وجدنا عدد الطلبة الاجمالي ٣٣٣ طالبا فاذا وضعنا في الحسبان أن بعض الطلبة أكثرهم يكتب أقل من «قف» وأن بعضهم يدرس حسب نظام الزمرة (الدولة) تعين أن يزيد العدد ربما الى الضعف أو أكثر خصوصا وان المحضرة تدرس متونا أخرى غير مختصر خليل، كما أن حصص الطلبة من المختصر تتداخل وتتطابق أحيانا.

٣ ـ المحضرة جامعة **بدوية متنقلة** : ولعل تلك أبرز سماتها المميزة. وحين نقول بدوية فاننا لا ننكر ما كان للحواضر من اشعاع ثقافي، فقد احتضنت المحاضر أول أمرها ومنها انطلقت. وفيها تعيش إلى اليوم وان شاخت ولكننا نرمي الى ابراز حقيقة تاريخية، هي أن المحاضر ازدهرت وانتشرت وتبلورت شخصيتها في رحاب البادية، لا في المدن.. وليس لمؤسسة هذا شأنها أن تكون قارة ثابتة، بل هي حالة مترحلة متقلبة تقلب البدو في منتجعاتهم ومسارح ابلهم وأبقارهم.

وإلى هذه الميزة يشير الدكتور محي الدين صابر حيث يقول أن نظام المحضرة «نظام يكاد يكون دون نظير، استنبط من واقع الحياة البدوية»[١٠].

يقول محمد المختار بن أباه في مقدمة «الشعر والشعراء في موريتانيا» : «من الصعب على من لم ير المحاضر أن يتصورها، ذلك أن البداوة تقترن في الذهن بالغباوة والجهل فالثقافة جزء من الحضارة، ومراكز العلم والتدريس تقترن غالبا بالمعاهد والجامعات المشيدة التي اتصلت شهرتها بشهرة المدن التي تحتضنها غير أن المحاضر فريدة في نوعها، ففي بعض أحياء البدو الذين ينتجعون المراعي متنقلين من ضفاف نهر السنغال الى الساقية الحمراء تصادف شيخا كسائر البداة متقشفا في ملبسه ومظهره، لا يمتاز بشيء عن سكان الحي سوى مجموعة من الشبان تلتف حوله، يقل عددها ويكثر حسب الأزمنة تقيم تحت الشجر وفي أعرشة من خشب وثمام وحشائش، تقوضها وتعيد بناءها كلما ارتحل الشيخ».

حقا، لقد انطبع في ذهن الناس أن العلم ربيب الحضارة، فحسبوا الاستقرار في المناطق الحضرية واستيطان المدن شرطا في نمو المعارف وازدهار الحياة الثقافية، ولكن هؤلاء البدو استطاعوا أن يحققوا نهضة ثقافية نموذجية تحت الخيام وعلى ظهور العيس وفي مجاهل الصحراء. والواقع أن أغلب محاضر بلاد شنقيط هي جامعات متنقلة، تشتي في أرض وتصيف في أرض، تتنسم عبر تجوالها عبير الحرية في رحاب

الصحراء الفيحاء، دون أن يكون ترحالها عقبة في وجه انتظام الدراسة. بل أن الطلبة وشيوخهم يجمعون الى متعة العلم متعة السياحة، فلا تشغلهم الدراسة عن انتجاع الكلا وتتبع مساقط الغيث لتوفير أسباب الحياة في بيئة شحيحة الموارد.

وقد افتخر المختار بن بونه (١٢٢٠ هـ/١٨٠٤ م) بهذه المزية فقال :

ونحن ركب من الاشراف منتظم ... أجل ذا العصر قدرا دون ادنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بها نبين دين الله تبيانا

وكان المختار يجوب خلال السنة الواحدة مئات الاميال من شرق البلاد الى غربها الى شمالها، مع طلبته، كل ذلك وعقد الدراسة متصل غير منفصم.

وقد سجل أحد طلبته هذه الظاهرة فيما يشبه الشكوى :

لك الله من شيخ اذا ما تبوأت ... تلاميذه مأوى لنصب المدارس
تيمم ميمون الخصاصة فاترا ... على ظهر مفتول الذراعين عانس
يفزع نون البحر طورا وتارة ... يهدم جحر الضب في «رأس مادس»(١١)

وكان الشيخ سيدي محمد بن حبت (١٢٨٨ هـ/١٨٧١ م) مجوالا، فكانت محضرته (تلامذته وكتبه) تنتقل معه حيث سار، من شنقيط الى السودان بل الى مكة المكرمة، مرورا بالمغرب والجزائر وتونس ومصر.

وكما تتجول المحضرة بكامل هيئتها («المرابط»، الطلبة، الحي) فقد يتجول شيخ المحضرة وحده، بيث العالم حيث أناخ جمله وحط رحله. وهذا شأن أغلب علماء البلد. وربما بعث حي من الأحياء الى شيخ محضرة فاستقدمه فأقام فترة وواصل الى حي آخر، كأنما هو أستاذ زائر يتنقل من جامعة الى جامعة ليكفي الطلبة مشقة التنقل الجماعي.

وقد بعث اليعقوبيون الى المختار بن بونه فأقام معهم يدرسهم علم الكلام وغيره، ويبدو أنه حل أيضا بمناطق من «القبلة» فمكث يدرس زمنا ثم لم يلبث أن غادرها، وتلامذته، بعد ، مشدودون اليه فساءهم أن يغادرهم الى المناطق الشرقية وكتبوا اليه قصيدة عتب وملاطفة تبدأ هكذا :

انما البونى غول ... وبه الريح تجول

وكان ابن بونه دائم الترحل من فوتة الى تيرس ومن تكانت الى القبلة. وكان الفقيه مولاي ابراهيم بن مولاي عمار يتنقل بين اكليميم في جنوب المغرب اليوم وآدرار وسط بلاد شنقيط والقبلة على ضفاف نهر السنغال. وسافر العلامة بابا بن أحمد بن بابا بن محمد الحاجي، فاغترب لبذل العلم كما يغترب الشباب لطلبه وأنشأ يعلل نفسه :

ما كان من فعل من شطت به الدار ... يدرس العلم ممن قبلنا عار
اني - وان كان ذاك اليوم في زمني ... عارا - لتدريسه شطت بي الدار
قبلي قد اختار أهل العلم قاطبة ... فعلي واني لما اختاروا لمختار

٤ - تشترك المحضرة مع مؤسسات التعليم الاسلامي الاهلية القديمة في الصبغة **التلقينية**، فقد قامت الحياة العلمية العربية، منذ فجر الاسلام على التلقي من أفواه الرجال، واستمرت على ذلك حتى بعد أن انتشرت المخطوطات وكثرت دور الوراقة.

لقد أكد الشناقطة كثيرا على هذا الجانب، فكانوا يدعون الى «تلقي العلم من أفواه الرجال»، ولا يثقون في الكتب وإن اقتنوها لاحتمال الخطأ من المصنف ومن الناسخ.

ورغم أنهم تتلمذوا على ابن مالك(١٢) وأحلوه مكانا مكينا في قلوبهم وتلقوا كل مصنفاته بالقبول والاقبال الصادق، فقد ظلوا يرددون أبيات أبي حيان فيه، يدعمون بها نظريتهم في ضرورة تلقي العلم من أفواه الرجال لا من بطون الكتب :

يظن الغمر أن الكتب تهدي ... أخافهم لادراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها ... غوامض حيرت عقل الفهيم
اذا رمت العلوم بغير شيخ ... ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الامور عليك حتى ... تصير أضل من «توما» الحكيم(١٣)

وهكذا كانوا يطلبون الاجازة حتى في بعض الكتب المعدة للمطالعة لا للدرس، فيأخذون عن الشيخ اجازة في رواية مؤلفاته أو في رواية «الشفاء» للقاضي عياض مثلا.

ويروى أن محمد بن محمد سالم كان مقبلا على مطالعة الكتب مكتفيا بها الى أن وقف في أحد الكتب على قولة مأثورة عند الشناقطة : «من أخذ الفقه من بطون الكتب غير الاحكام. ومن أخذ النحو من بطون الكتب لحن في الكلام، ومن أخذ التوحيد من بطون الكتب خرج من الاسلام. ومن أخذ الطب من بطون الكتب قتل الانام».. ما ان قرأ هذه الجمل حتى نفض يديه من الكتب وشد رحله يطلب المشايخ للأخذ عنهم.

وخلاصة القول أن الرواية هي أم الدراية في المحضرة الشنقيطية.

٥ - تعتمد المحضرة نظام التعليم الفردي، في طرفي العملية التربوية : الاستاذ والطالب.

- من الطرف الأول يدير حلقات الدراسة ومجالسها في العادة شخص واحد هو «المرابط» شيخ المحضرة وهو عادة رجل ذو بسطة في العلم مختص في بعض المعارف (الدينية واللغوية خاصة) أو موسوعي متبحر، شهد الناس علمه وعاينوا فضله فاقبلوا عليه يتعلمون منه. والى هذا الشيخ تنسب المحضرة عادة فتعرف به أو بأسرته(١٤).

نعم، قد يكون للمحضرة عدة أساتذة. وذلك شأن محاضر بيوتات العلم الكبيرة، اذا أقام رجالها في حي واحد. وهو الشأن في مدينة ولاتة حيث يصطف الشيوخ «المحنكون» وهم رجال العلم ممن «لا يردون لوحا» فيقبل عليهم الطلبة، يدرس الطالب على أيهم شاء ان لم يجده مشغولا بتدريس طالب آخر. وهذه الطريقة شبيهة بنظام الكراسي والحلقات في التعليم العربي الاسلامي العتيق. وهي تسمح باقراء عدد أكبر من الطلبة في مهلة أقصر، ولكنها تخل بجماعية حلقة الدراسة التي تقوم عليها المحضرة البدوية فتمكن الطلاب من التطفل على دروس زملائهم قبل الانتهاء من دروسهم ومن بعد.

ورغم ما يكون من تعدد الاساتذة في بعض المحاضر، فان أحادية الشيخ هي السمة العامة للنظام المحضري، إلّا أن المحضرة تمثل في واقع الامر مركزا لتبادل المعارف ومنبر حوار وأخذ وعطاء، فكثيرا ما يحضر علماء الحي والقوم الأفقه حلقات الدراسة فيدلون بدلائهم، يعقبون ويكملون ويستوضحون فلا يكلون الأمر الى الشيخ وحده، ولا هو يستبد به دونهم.. وللطلبة أنفسهم دور في نقل المعرفة، يفيد بعضهم به بعضا، فمن تقاليدهم أن ينثروا ما في جعبهم من المعارف المتصلة بالمنهج وغيرها، فيتلقى كل منهم عن زملائه فوائد كثيرة، يحفظ منها ويقيد، مما لا يتأتى اقتناؤه في حلقة الدرس.

وتشرع هذه الأدوار وتنظم أحيانا من قبل الشيخ الذي يملك ويمارس صلاحية الاستعانة بطلبته المتقدمين أو ببعض علماء الحي، كمساعدين – أشبه شيء بالمعيدين في النظم التربوية الحديثة – يعينونه في تدريس الطلبة، يصرف اليهم فئة منهم ويختص بفئة غالبا ما تكون من المتقدمين. ومثل هذا النظام ضروري في المحاضر التي تؤوي عددا كبيرا من الطلبة، فليس باستطاعة الشيخ ان انفق وقته كله أن يقدم ٢٠٠ أو ٣٠٠ درس في اليوم. وبانتداب مدرسين مساعدين تنحل أيضا مشكلة غياب الشيخ لمرض أو لسبب ما من الأسباب العارضة.

وعلى هؤلاء المعيدين ترتكز عملية تكرار الدروس ومراجعتها، بعد أن يتلقاها الطلبة من الشيخ مباشرة.

وكان الشيخ ماء العينين (١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م)، وقد تكاثر رواد محضرته وحضرته يتولى بنفسه تعليم المعلمين، فهو يحاضر أمام الاساتذة، ويباشر هؤلاء تدريس الطلبة. ويحضر الشيخ بنفسه مجلس الحديث بعد العصر فيقوم بتفسيره(١٥).

في مثل هذه الحالة، يصبح شيخ المحضرة بمثابة رئيس جامعة أو عميد كلية، له أساتذة معاونون أو معيدون يعملون تحت امرته فلا ينقص ذلك من مرجعيته شيئا.

– من الطرف الثاني، تؤدي المحضرة رسالتها وفق نظام التعليم الفردي. فالقاعدة العامة أن يكون لكل طالب درس خاص به، يختاره لنفسه في ضوء رصيده العلمي السابق

وهوايته ومؤهلاته وطبيعة المحضرة التي ينتمي اليها وغير ذلك من الاعتبارات، فينصرف اليه الشيخ ساعة التدريس يعلمه ويرد على استفساراته ويطمئن الى أنه استوعب درسه. وبهذا النظام يتحرر الطالب أيضا من كل القيود التي تعوقه عن انجاز دراسته في الأجل الذي تؤهله له طاقته الذهنية، فهو غير مرتبط بفصل دراسي أو مجموعة تسير سير ضعفائها.

ومع ذلك، فالمحضرة توفر مزايا التعليم الجماعي في حالتين :

الحالة الأولى جماعية الحلقة الدراسية، فالدروس تقدم في حلقة مفتوحة يحضرها من شاء من الطلبة وغيرهم. وكثيرا ما يتابع الطلبة في هذه الحلقة دروس زملائهم أو بعضها فتكون تكرارا لهم بالنسبة لما درسوه وإعدادا وتمهيدا لهم فيما ينوون دراسته من بعد.

أما الحالة الثانية، فهي التعليم الزمري أو نظام «الدولة» – بلغة المحضرة – وهو دراسة جماعية، يشترك فيها مجموعة من الطلبة متقاربي المستويات يقع اختيارهم على متن واحد يدرسونه معا، حصة حصة، ويتعاونون على تكراره واستظهار معانيه.

٦ – تقوم المحضرة على أساس من **التطوع والمبادرة الحرة** في الدراسة والتدريس معا.

أما الشيخ فيبذل جهده العلمي بدون مقابل. قد يتلقى الهدايا والهبات ولكنه يأنف أن يطلب عوضا عن عمله، فهو يبذل علمه بسخاء، يستفيد منه الطالب الموسر والمعسر على حد سواء. وهو في ذلك يختلف عن مدرس «الكتاب» الذي يتلقى هدايا رمزية بمناسبة يوم الاربعاء، وبمناسبة حفظ حزب جديد أو استكمال حفظ القرآن أو بالمناسبتين معا. وكلا التقليدين عقدان اجتماعيان رسختهما تقاليد المجتمع وسوغتهما، وكان لهما أساس في أحكام الشرع.

وتختلف طوعية الشيخ في المحضرة عن طوعية الطالب، فطوعية مدرس المحضرة جهد إيجابي يكلفه مشقة وعناء، فهو ملزم بحكم اختياره أن يقف عند رغبة الدارس يعلمه ما شاء في أي وقت شاء إلّا لضرورة نوم أو لمانع مرض ونحوه.

أما طوعية الدارس فمبناها أن لا إكراه في العلم، فالمدرس لا يتدخل للدارس في اختيار المادة لا كما ولا نوعا. وقلما يتدخل له في تحديد وقت الدراسة. وهو لا يراقب غيابه إلّا أن يتفقده ليطمئن على صحته مثلا، بل الطالب في المحضرة رقيب على نفسه، مسؤول عن اختياره مفوض في شأنه، يأتي المحضرة متى شاء، يدرس أي متن شاء، ويغيب متى شاء، ولا ضير عليه اذا لم ترضه دروس شيخه أن يتركه فورا الى غيره. وهكذا، يكون الشيخ، بمعنى ما، بمثابة التلميذ أمام تلميذه، فهو في تدريسه اياه يخوض اختبارا إن نجح فيه كان محل الثقة وأهلها وإن فشل انصرف عنه التلميذ متى شاء الى

حيث شاء. وكان القاضي مم بن احلون (ت بعد ١٢٠٨ هـ) يدرس أحد طلبته تحفة ابن عاصم فتعمد الخطأ والتجاهل اختبارا للطالب، فظن الطالب ذلك جهلا من شيخه فتركه دون توديع وسافر(١٦).

والغريب أن هذه المرونة الفائقة كانت في المحضرة أجدى وأنفع من نظم المراقبة والمحاسبة في المدارس الحديثة. فالطالب في هذه متهم منذ البداية، يربيه المدرس والمراقب ومجلس التأديب على الاحساس بأنه قاصر محجور عليه لا يستأهل الثقة. وهو يعتبر الدراسة، لما يحكمها من ضوابط، عملية اجبارية فيتوهم أن المصلحة فيها لغيره لا له، ولذلك يتقاعس ويتلكأ فيها. أما الطالب في المحضرة، فقد كان يمارس على نفسه رقابة ذاتية صارمة، ترفدها رقابة اجتماعية تلقائية، فالمجتمع يربيه على الاحساس بأنه حر مسؤول لا وصيّ عليه في حياته الثقافية ويغرس في ذهنه أن جهده الدراسي هو رمز رجولته وبيان رشده وبرهان نضجه. ولأن جل أقرانه يقبلون على العلم بنهم وصبر فان لروح المنافسة وتأنيب الضمير، اذا هو قصر، ضعف ما للرقابة من أثر في ضبط سلوك الطالب.

علاقة الشيخ والطالب

ومن النتائج الايجابية لقيام المحضرة على روح التطوع وحرية المبادرة، ان نشأت في رحابها علاقة حميمة أثيرة بين الشيخ وطلبته. فهو يخاطبهم بتواضع ويعاملهم باحترام واكبار، ولا يكلفهم من العمل إلّا ما ينتدبون اليه طواعية. وكان العلامة يحيى بن أحمد فال يقول «تلامذتنا أساتذتنا».

ومن عادة شيخ المحضرة أن يتعهد طلبته بالرعاية، يسأل عن الغائب منهم ويعود المريض ويعنى به ويجعل الغريب، حديث العهد محل نظر خاص. ثم هو يمازحهم ويساجلهم، ويعتذر اليهم عند الاقتضاء.

وقد عرض لمحمد بن لحظانه ما شغله عن اثنين من طلبته منهما الشيخ محمد بن حنبل (١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م) فكتب اليهما معتذرا :

خليليّ كيف الحال؟ والحال تنبيء	عن السر مهما السر في الصدر يخبأ
لئن نسئت عنكم ظواهر ودنا	لفي الصدر ود باطن ليس ينسأ

فرد عليه الطالبان :

أيسأل عن أحوال قوم تبوأوا	جداول عِدّ جاره ليس يظمأ
يرويهم من بحر علم وحكمة	تلاشى لمبهاها نضار ولؤلؤ،

وكذلك، كان شأن الطلبة مع أساتذتهم في المحضرة، يجلونهم أيما إجلال وينظرون إليهم بعين المحبة والمهابة ويخدمونهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

٣ ـ محضرة.. أو محظرة

رأينا أن المحضرة مؤسسة ثقافية اسلامية نشأت في بلاد شنقيط، لتكون أداة لنقل المعرفة وإرساء أسس الدين وتعهده بالرعاية في بلاد لم تعرف من الحواضر، إلّا ما ندر وإنما كان جل أهلها بداة متنقلين. وقد تعرفنا على بعض سمات المحضرة، وبقي ـ قبل الانصراف الى تاريخها وعوامل انتشارها ـ أن نتعرف على اسمها، ما وجه اشتقاقه؟

لم يسم الشناقطة مؤسستهم التربويه هذه «كتّابا» لأنها تختلف عنه ولم يسموها «خلوة» ولا «زاوية» ولا «مدرسة» أو غير ذلك من التسميات المتداولة لمراكز نقل المعرفة ونشرها في ديار العروبة والاسلام، وانما اشتقوا لها اسما خاصا، كان مظهرا من مظاهر فرادتها وتميزها في بناها ومناهجها ونمط حياتها عن مؤسسات التربية العربية الاسلامية الآخر، فمن أين أتى هذا الاسم الذي ينطق ويكتب في العامية الشنقيطية (الحسانية) بالظاء المعجمة المشالة (محظرة)، ويميل البعض الى تفصيحه فيكتبه بالضاد المعجمة «محضرة» وربما نطقوه كذلك؟

كان القوم أهل بادية **يحتظرون**، فيحيطون منازلهم ومرابض أغنامهم ومراح أبقارهم ومعاطن ابلهم بأسيجة من جذوع الشجر وأغصانه الشائكة.. وكان الطلبة ينسلون من كل حدب وصوب الى شيوخ العلم فيحضرون دروسهم ومجالسهم أو **محاضراتهم**.

إلى أحد هذين المعنيين تشير الكلمة التي سارت علما على الجامعة البدوية المتنقلة فهي **محظرة من الاحتظار** أو **محضرة من الحضور** أو **المحاضرة**، وقد ذهب أهل الشأن في الترجيح بين الاشتقاقين مذهبين :

يقول أحمد بن حميد في المحظرة «من الناحية اللغوية» لا يستبعد أن يكون اسمها مأخوذا من الحظيرة وما هو يحرز به على المال».

ويرى محمد سالم بن عبد الودود انها ضادية فهي مكان للحضور.

ويشهد لذلك ورود الكلمة بالضاد دالة على المعنى نفسه أو معنى قريب منه في نصوص قديمة.

يقول لبيد :

أقوى وأقفر واسط فيرام	من أهله فصوائف فحزام
فالواديان وكل مغنى منهم	وعلى المياه محاضر وخيام

والمقصود بالمحاضر هنا المناهل يحضرها الناس ويجتمعون حولها. ولكن الكلمة وردت بمعنى المدرسة في مراجع تاريخية وفقهية، ففي رحلة ابن جبير المتوفي سنة ٦١٤ هـ يقول عند استعراضه لمعالم مدينة القاهرة ومآثر صلاح الدين الأيوبي فيها :

«ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين أنه أمر بعمارة **محاضر** الزمها معلمين لكتاب الله العزيز يعلمون أبناء الفقراء والأيتام وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم»[١٧].

وجاء في الجامع المعرب عن فتاوي افريقية والأندلس والمغرب المعروف عند الشناقطة بالمعيار لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفي سنة ٩١٤ : «لمعلم الصبان بالكتاب أن يأخذ حبسه وان قل الأولاد. وسئل القاضي أبو عمرو بن منظور عن امام مسجد، وأضيف لذلك المسجد المذكور **محضرة** يقرىء فيها الاولاد وصدر أمر مولانا السلطان بدرهمين ليتقوى راتب ذلك المسجد فانفتحت فوقها **محضرة** ثانية، فتفرقت الأولاد ونفرت أفيجوز له أن يؤاجر على ولدين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل أو يتركها؟

«فأجاب : يجوز للمؤذن أن يبقى في محضرة يقرىء كتاب الله وإن لم يبق من الأولاد إلا واحد أو اثنان ويأخذ ما عين له السلطان»[١٨].

وهكذا نرجح أن يكون أصل الكلمة بالضاد لا بالظاء، استنادا الى المسوغات التالية :

١ ـ ورود كلمة «المحضرة» و«المحاضر» دالة على المدرسة في بعض المراجع القديمة كما رأينا.

٢ ـ كون «الحضور» ومشتقاته أعلق بالجامعة البدوية من «الاحتظار» ومشتقاته. ففي كل مجلس علم حضور ومحاضرة وليس الاحتظار كذلك، فقد يحتظر البدو لمواشيهم وربما سيجوا أعرشتهم وخيامهم بحظائر لكن ذلك ليس قاعدة عامة ولا هو تقليد من تقاليد المحضرة يرجح صبغة الحضور التي بها تكون وعليها تقوم.

٣ ـ اهمال مادة «الاحتظار» في اللهجة الحسانية، فهم يقولون بدل الحظيرة : «الزريبة» أو «التحويشة»... الخ.

٤ ـ اضطراد قلب الضاد ظاء، في اللهجة الحسانية، الامر الذي يتضح بيسر من استقراء مفرداتها، بدءا بمادة الحضور، فهم ينطقون حضر وفروعها (أو فروع المصدر) بالظاء : حظر، حاظر، وكذلك ينطقون المفردات التالية : ضب، ضر، خض، عض، الضحى، ضاف، ضيق، ضالة، ضوء، عرض، فرض، ضمر، قرض، ضمين، أخضر، أبيض، بيض، قبض، فاض، القاضي، ضفر، نفض... الخ.

الظاهر أن الأمر كان هكذا قديما. وقد صارت بعض هذه الكلمات تنطق بالضاد، ولكن ذلك، فيما يبدو، حدث متأخرا مع تهذيب الحسانية، بتأثير الجدل الذي دار منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري حول مخارج الحروف، ثم وخاصة بتأثير الاعلام في العصر الحديث فهم اليوم ينطقون القاضي، المريض، الضمانة، بالضاد. ولكن كلمة «المحظرة» بقيت من الموروث القديم الذين ينطقون الضاد فيه ظاء الى اليوم، فهل يدركها ما أدرك بعض اخواتها؟

٤ ـ المعلم الأول. المحضرة الأولى

كانت لصناهجة دولة اسلامية قائمة في الصحراء منذ القرن الثاني أو الثالث الهجري، وكان يتعاقب على رئاستها زعماء من القبائل الثلاث : لمتونة، كداله، مسوفه، منهم من جاهد لنشر الاسلام وشيد المساجد والمدارس لتعليم الدين كما سنرى، في مبحث لاحق. وكان بعض ملوك الدولة الصنهاجية يحجون كما أثر عن الامير ترسين اللمتوني ثم عن الامير يحي بن ابراهيم الكدالي.

لكن الاسلام ظل غريبا، في غياب اللغة العربية والثقافة الدينية الرصينة. ورغم أن الوضع تغير مع ظهور دولة المرابطين فان بعض المؤرخين ظل ينظر الى هذه الدولة نظرة ازدراء وتبخيس لعطائها الثقافي، واستغلوا في ذلك أقاصيص وحكايات نقلوها ـ والعهدة عليهم ـ عن رجل الدولة اللمتونية القوى يوسف بن تاشفين.

فقد ذكروا أن يوسفا الذي أنقذ الأندلس وبسط عليها ظل دولته مدحه شعراء «الفردوس المفقود»، فقال له المعتمد بن عباد : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟

قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز!

ولما انصرف يوسف عائدا الى مراكش كتب له المعتمد في رسالة :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغـدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه البيتان، قال للقارىء : يطلب منا جواري سودا وبيضا؟

قال : لا يا مولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالي السرور بيض فعاد نهاره ببعده ليلا لأن أيام الحزن ليال سود، فقال : والله جيدا. اكتب له في جوابه : ان دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده!

وقد صارت هذه القصة الطريفة مادة تندر لمن لم يقنعوا من الامير اللمتوني المرابطي بانتصاراته وقوة شوكته وعظمة دولته. لقد ساق أبو الويد اسماعيل بن محمد الشقندي هذه الحكاية برهانا على صدق رأيه في تفضيل الأندلس على بر العدوة[١٩].

ولقد أكثر المستشرقون العزف على هذا الوتر وبالغوا في الاساءة الى المرابطين فاتهموهم بانهم «كانوا أجلافا قوما من الصحراء خلوا من كل علم وثقافة، وانهم خربوا الاندلس، كما قضوا على كل مظاهر الحياة العقلية والعلمية فيه، وانهم كانوا سذجا جفاة غلاظا، أخذوا بنوع من السلفية الساذجة فخلا عصرهم من حركة الخلق والتجديد الفكري» وكل هذه تهم بطالة «لقد كره

عامة المستشرقين، وهم مسيحيون متعصبون، المرابطين لأنهم خاصة في الزلاقة حطموا المقاومة الاسبانية وحفظوا الاندلس للمسلمين أربعة قرون أخرى»(٢٠). ويومئذ والاندلس تواجه الخطر، كان الابداع العسكري أولى وأهم من الابداع الثقافي.

والواقع أن المرابطين كانوا فاتحين من الرعيل الأول، فكان لهم في الجهاد شغل شاغل ولهم في أولويته عذر بين واضح، في عدم التركيز على نشر العلم.

ففي غرة عهد الاسلام كاد المؤمنون أن ينفروا كافة للجهاد، فلقد انشغلوا به عن التوسع في بث العلم. وما دون القرآن في المصاحف إلّا على عهد عثمان. وما جمع الحديث إلّا على عهد عمر بن عبد العزيز. وما انتشرت المدارس إلا بعد أن وجد المسلمون في وقتهم وفي عددهم وفي أرضهم سعة لذلك... فكانوا يفرغون أو يفرغ بعضهم من حمل السلاح ليجاهد بالقلم والمحبرة، فأبدعوا في الجهادين، وكانوا فيهما من المظفرين. ومع ذلك فمن الانصاف أن نذكر لدولة المرابطين أنها ورغم مشاغلها الجهادية، كانت من الدول القلائل التي أسست على العلم من أول يوم، فما كان مولدها ولا جهادها إلّا ثمرة لنشاط علمي جاد.

فقد حج الامير اللمتوني يحيى بن ابراهيم الكدالي. وفي طريق العودة مرّ بالقيروان سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٣ م، فلقي بها لفقيه أبا عمران الفاسي وشكا اليه حال قومه في عبارات تناقلها المؤرخون :

«اننا في الصحراء منقطعون لا يصل إلينا إلا بعض التجار حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا الى ذلك سبيلا».

فكتب له أبو عمران إلى أحد تلامذته بالسوس وهو وكاك بن زلو اللمطي، وكان عالما فوافاه بمقره في «ملكوس»، فانتدب له عبد الله بن ياسين الجزولي وهو فقيه صنهاجي، فرافقه الى قومه.

جاء عبد الله بن ياسين وفي نيته أن يقوم سلوك القوم ويحملهم على الوقوف عند حدود الله أمرا ونهيا، فاستخدم لذلك ما شاء الله من الأساليب. فكان يضرب المتخلف عن صلاة الجماعة ٢٠ سوطا ومن فاتته ركعته قنعه ٥ أسواط، حسب رواية البكري.

وطلب من لمطة أن تنفق ثلث مالها ليطيب لها الثلثان الباقيان. ويبدو أن عمل الفقيه قد شق على القوم فنقموا منه ذلك. وذكر البكري أن فقيها من الملثمين اسمه الجوهر بن سكم قام، ومعه رجلان من أعيانهم (اياروايتكو) على عبد الله بن ياسين فعزلوه وأخذوا منه بيت المال وطردوه وهدموا بيته، فخرج الى شيخه وكاك بن زلو، فوافاه بملكوس يشكو إليه صنيع القوم به. وكان وكاك ذا كلمة مسموعة فيهم فعاتبهم وأمر عبد الله بالرجوع إليهم، فرجع وقتل من خرج عليه منهم(٢١).

وتتفق الروايات على أن عبد الله لقي أعراضا من القوم، ولم يستطع أميرهم أن يحملهم على ما أراد، فانتبذ الفقيه والأمير ونخبة من المؤمنين مكانا قصيا، (جزيرة في المحيط الأطلسي على بعد نحو ٦٠ كم شمال غربي نواكشوط على ما يذكر)(٢٢) فأنشأوا هناك رباطا وأخذ خيار القوم يفدون عليه ويلتفون حوله يربيهم ويعلمهم ويرشدهم الى أن اكتمل عنده ألف من «المرابطين» عندئذ انطلق عبد الله بن ياسين من رباطه يجاهد الكفرة والمنحرفين.

ولعل هذا الرباط كان المحضرة الأولى في بلاد شنقيط، محضرة وفقت في جعل الفقه بأمور الدين زادا ووقودا وسلاحا للمجاهد. وكان عبد الله قد استشهد في الجهاد سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م دون أن يتاح له كبير وقت لأداء رسالته كفقيه، كمعلم أول في بلاد شنقيط. لقد تحول الفقيه الى مجاهد أدى رسالته بكفاءة.

ورغم انشغال المرابطين بالجهاد واستشهاد معلمهم الأول، فان راية العلم لم تسقط من أيديهم، فقد اغتنم الزعيم اللمتوني الذي جمع بين الامارة والامامة، أبو بكر بن عمر فرصة سفره من المغرب عائدا الى الصحراء، بعد استتباب الامر في مراكش لابن عمه يوسف بن تاشفين، فمر باغمات وريكه فاصطحب منها أربعة علماء هم : الامام أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي دفين آزوكي، وابراهيم الأموي، وعبد الرحمن بن أبي بكر الركاز جد تركز وعبد الله جد الزينبيين، على ما يرويه المختار بن حامد.

ولا نعلم شيئا عن سيرة العالمين الاخيرين. أما الامام الحضرمي فقد كان قاضيا في مدينة أزوكي (١٢٥ كم من شنقيط). وأما ابراهيم الاموي، فكان يقضي ويعلم الناس في مجلس الامير، يرحل معه كلما ارتحل. ومن «مجلس» اشتقت «مدلش» التي سارت علما على قبيلة من أطول القبائل الشنقيطية يدا في العلوم، لأن هذه القبيلة كما تقول الروايات الشعبية تنحدر من سلالة الفقيه ابراهيم صاحب «مجلس العلم». وقد عين المرابطون قاضيا لمدينة آبير (شنقيط القديمة) يعرف بقاضي «تنيكه»(٢٣) وهي كلمة مجهولة المعنى، فهل المقصود بها مدينة (تنيكي) على افتراض أنها كانت موجودة آنذاك (قبل ق ٦ هـ)؟ قد يكون ذلك، خاصة وأن «تنيكي»، قريبة من شنقيط فربما كان قاضيا لهما معا. وضريح هذا القاضي معروف مزور، يقع على مسافة ميلين تقريبا غربي شنقيط الحالية.

وهكذا نستطيع أن نؤرخ بداية النشاط المحضري (التعليمي) في بلاد شنقيط بتأسيس رباط عبد الله بن ياسين حوالي سنة ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م، وأن نقرر أن دولة المرابطين في الصحراء كانت دولة علم وجهاد في آن، وما ان أفل نجمها، حتى بدأ علماء من البلاد ومن خارجها يؤسسون المحاضر لنشر العلم في رحاب حواضر مزدهرة كانت مراكز اشعاع للثقافة قبل أن تستلم البادية الراية.

٥ ـ الحواضر .. مهد المحاضر

طبعت البداوة حياة الملثمين، فكانوا قليلا ما يستقرون في الحواضر. ولم تكن البادية، أول عهد الصحراء بالاسلام دار علم، إلا ما كان من شأن عبد الله وقومه ومن خلفهم في رباطهم وفتوحاتهم. فقد مر بنا أن لدولة المرابطين مجلس علم وقضاء وفتيا شأنه شأن قيادتها من الحل والترحال. لكن هذا الترحال لم يكن ظاهرة بدوية، فقد كان القوم فاتحين يضربون في سبيل الله، لا منتجعين يتتبعون مساقط الغيث.

لقد كان العلم حضريا في عهد المرابطين وقرونا من بعدهم. ففي أيام أبي بكر بن عامر كان اثنان من علماء الدولة يقيمان في حاضرتي آزوكي وآبير (شنقيط القديمة) ومن قبلهما، وجدت للعلم آثار في بعض الحواضر العتيقة مثل أوداغست وغانه (كومبى صالح) ثم وجدنا حاضرتين تقومان، منذ نشأتهما على دعائم العلم (تيشيت ووادان)، وربما كانت شنقيط ثالثتهما. وكان العلم مكينا في حواضر أخرى بعضها ما زال حيا كمدينة ولاته،وبعضها اندثر كمدينة تنيكي.

وسنلم على عجل ببعض هذه الحواضر التي نشأت أو ترعرعت فيها حركة العلم قبل أن تتلقفها البادية.

أود اغست

تقع أطلال أود اغست المندثرة في الحوض الغربي، على مسافة ٤٠ كم شمال شرقي تامشكط. وهي عاصمة قديمة للصنهاجيين، وصل اليها حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع في حملته سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م وفتحها المرابطون سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م.

تحدث البكري عن أود اغست في كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب» وقال : «انها مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موت لا ينبت شيئا، بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، في جميعها المعلمون للقرآن وحولها بساتين النخيل، ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء، يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة. والمقاثي تجود عندهم (...) وعسلها أيضا كثير يأتيها من بلاد السودان (...) وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله. وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة (...) وهي بلد ألوان أهلها مصفرة (...) ويجلب اليها القمح، والتمر والزبيب من بلاد الاسلام على بعد (...) وسكانها أهل افريقية وبرفجانه ونفوسه ولواته وزناته ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار (...) وذهب أهل أود اغست أجود ذهب أهل الأرض وأصحه».

و«كان صاحب أود اغست في عشر الخمسين وثلاثمائة تين يروتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة. وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي اليه

الجزية». وذكر البكري حروب صاحب أود غست مع بعض ملوك السودان وان نساء البلد قتلن أنفسهن أسفا على ملكهن» وأنفة من أن يملكهن البيضان»[٢٤].

يتضح من وصف البكري هذا أن أودغست كان حاضرة اقتصادية مزدهرة يحكمها الصنهاجيون وترتبط بحركة مبادلات تجارية مع «بلاد السودان» ومع «بلاد الاسلام» بما فيها البلاد البعيدة. لقد كانت التجارة وظيفتها الاساسية، ولكنها كانت تؤدي أيضا وظيفة ثقافية بحكم وجود الاسلام وكثرة المساجد الآهلة بها حيث «يوجد معلمون للقرآن» وبحكم ارتباطها التجاري «ببلاد الاسلام»ووجود نبذ من سائر الأقطار بها... وقد قتل عبد الله بن ياسين رجلا، من العرب المولدين قيروانيا معلوما بالورع والصلاح وتلاوة القرآن وحج البيت يسمى زبافرة[٢٥]. ومع ذلك فان الوظيفة الثقافية تبدو وظيفة ثانوية، رغم احتضان المدينة لدولة اسلامية عزيزة الجانب[٢٦].

غـانـة

ترجح الأبحاث التي جرت في شرق «موريتانيا» أن تكون مدينة كومبى صالح المندثرة (١٠٠ ميل جنوب غربي ولاتة / ٦٠ جنوبي تمبدغه) عاصمة دولة غانا القديمة التي تأسست في القرن الثاني الميلادي.

وقد تحدث البكري عن غانة، فقال أن هذه الكلمة «سمة لملوكهم واسم البلد آوكار». أما مدينة غانة فهي «مدينتان سهليتان احداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهذ مدينة كبيرة فيها ١٢ مسجدا أحدها يجمعون فيه. ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم (...) ومدينة الملك على ستة أميال من هذه (...) وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد من المسلمين (...) وتراجمة الملك، من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله واكثر وزرائه (...) وهم أجمع يحلقون لحاهم. ونساؤهم يحلقن رؤوسهن»[٢٧].

ووافق صاحب «الروض المعطار» البكري في وصف غانه بأنها مدينتان وقال انهما «تقعان على ضفتي البحر الحلو، وانها أكبر بلاد السودان قطرا، وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا، وإليها يقصد المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى. وأهلها مسلمون فيما يذكر من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وملكها يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة الخليفة العباسي. والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى، علما يقينيا أن في قصره لبنة ذهب وزنها ثلاثون رطلا، نقرة واحدة خلقها الله تعالى خلقة تامة من غير أن تسبك في نار وقد نقب فيها نقب. وهي مربض لفرس الملك»!!

وقد تحدث اليعقوبي والحلبي والادريسي وياقوت الحموي وابن فضل الله العمري عن غانة.

وقال أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية أن التجار

ينتهون اليها من بلاد المغرب. والمدخل اليها من سجلماسة. وهي منها مسيرة ثلاثة أشهر ذهابا[٢٨].

وقد دخل الاسلام غانة في وقت مبكر. وذكر المؤرخون أن اللغة العربية كانت لغة المراسلات والدواوين بها منذ القرن الرابع الهجري. وكان بالمدينة ١٢ مسجدا (رقم يفوق عدد مساجد شنقيط القديمة) ومع كل مسجد مدرسة لتعليم اللغة العربية والدين[٢٩].

ولاتـــه

ولاته مدينة عريقة قديمة ما تزال حية، يحتمل أن تكون قد تأسست في القرن الهجري الأول. وقد زارها الرحالة ابن بطوطة سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م وكتب عنها في رحلته فقال انها «تبدو عليها مظاهر الشيخوخة والقدم»، ووصف رجالها بأنهم «محافظون على الصلوات وعلم الفقه وحفظ القرآن»[٣٠].

وذكر ابن خلدون ولاته فسماها «ولاتن»[٣١] وزاد أحمد بن محمد المقري حرفا فسماها «ايولاتن»[٣٢] وتحدث عنها السعدي في «تاريخ السودان» فسماها «بيرو»[٣٣] وذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي أيضا أنها كانت تسمى «بيرو»، قال : أو «سير»[٣٤].

وكانت ولاته محطة من محطات القوافل تمر بها طريق قلم ـ السوس ـ مراكش وطريق قلم ـ تيشيت ـ تمبكتو ـ توات ـ فزان ـ الاسكندرية[٣٥].

وكانت مزدهرة قبل تمبكتو إلى أن تحولت طرق القوافل المارة بها من الغرب الى الشرق. قال السعدي : «أخذ الناس يسكنون في تمبكتو وعمارته تزداد الى أن صار سوقا للتجارة. وكان التسوق قبل ذلك يتم في بيرو (ولاته) الذي يرد اليه الرفاق من كل الآفاق، وسكن فيه الأخيار من الصالحين من ذوي الأموال، من كل القبائل والبلاد»[٣٦] وقد تعرضت تمبكتو لنكبات أوهنت من قواها الثقافية.. ففي القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد استولى عليها المرينيون ونقلوا خزانتها الى المغرب، لكن المدينة استطاعت أن تنهض من هذه الكبوة وتواصل عطاءها، حتى اذا جاء حكامها من السونغاي وبدأ السلطان سنى عالي يعيث فيها فسادا سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م، كان ذلك هزة كبيرة أسفرت عن ضمور ظرفي في عطاء تمبكتو الثقافي وفي سنة ١٠٠٠ هـ/١٥٩٢ م، قاد السعديون حملة ضد المدينة السودانية زادتها وهنا على وهن. وفي هذه الظروف، ومنذ سنة ٨٧٣ هـ أخذ العلماء يرتحلون الى ولاته فوجدوا فيها من الأمن والطمأنينة ما فقدوا في تمبكتو.

لقد استفادت ولاته من تمبكتو في السراء والضراء. فقد كان الولاتيون يتلقون العلم في تمبكتو أيام ازدهارها، وحين بدأ نجمها يأفل، ارتحل عنها العلماء إلى ولاته التي ورثت شقيقتها

وأحسنت خلافتها. وظلت حركة العلم تتنامى في ولاته وتضمر في تمبكتو على مر الأيام، حتى كادت حاضرة الثقافة السودانية تخلو من العلم والعلماء. ففي القرن الثاني عشر هجري كانت تمبكتو خالية من العلماء. قال الشيخ سيدي المختار الكنتي : «قدمت الى تمبكتو أرى أن أصادف فيها من استفيد منه وآخذ عنه فلم ألق بها عالما ولا مدرسة»[٣٧].

ولقد تلقت ولاته المدد الثقافي من غير تمبكتو وحل بها رجال كانوا دعاة الى الله ومعلمين مرشدين.. ومن هؤلاء يحيى الكامل المحجوب (جد قبيلة المحاجيب) الذي جاء ولاته في عهد اختلف في تحديده، هل في القرن الثاني، أو السادس أو التاسع للهجرة. وقد ذكر أن هذا العالم معاصر لسيدي عبد القادر الجيلاني وانه كان معه في العراق مما يرجح أنه من أهل القرن السادس. وبوصول يحيى الكامل انتعشت حركة الثقافة العربية الاسلامية في مدينة ولاتة العريقة.

وفي القرن السادس الهجري أيضا، تصدعت أركان مملكة غانا تحت ضغط أمراء صوصو فهاجر علماؤها بقيادة الشيخ اسماعيل الى ولاته وهي يومئذ تدعى «بيرو»[٣٨]. وفي القرن التاسع جاء الولي الصالح سيدي أحمد البكاي (ت ٩٢٠/١٥٩١) الى ولاته فاتخذها دارا له، وأثر عن ابنه الشيخ سيدي عمر أنه حج مرتين وزار الشام والمغرب ومصر والتقى بالشيخ جلال الدين السيوطي وبالشيخ المغيلي التلمساني.

وكان في ولاته عدد من المحاضر (المدارس)، من أبرزها مدرسة أهل سيدي عثمان التي أسسها محمد بن سيدي عثمان الداودي ومن رجالها البارزين العلامتان محمد يحيى الولاتي ومحمد يحيى بن سليمه[٣٩].

تيـشيـت

تقع تيشيت في منطقة تكانت على مسافة نحو ٢٥٠ كم الى الشرق من مدينة تجكجة وهي احدى مدن الواحات القديمة ومحطات القوافل. كانت تمر بها طريق قلم ـ ولاته ـ تمبكتو ـ توات ـ فزان ـ الاسكندرية وغيرها.

وهي اليوم احدى المدن الشواهد التي شاخت وما تزال حية تغالب عوادي الزمن وعوامل الاندثار.

تأسست تيشيت سنة ٥٣٦ هـ/١١٤٢ م. وكانت من أول يوم حاضرة علم ومعرفة، فقد كان الشريف عبد المؤمن مؤسسها. وهو سفير من سفراء العلم والدين، أخذ عن القاضي عياض السبتي (ت ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م) بمراكش وحمل علمه الى بلاد شنقيط فأسس هذه الحاضرة العريقة، والتحق به فيها زميله الحاج عثمان أحد مؤسسي وادان بعد أن جال في البلاد. وهما مدفونان بجانب المسجد العتيق.

وتقول الروايات الشعبية المتداولة في «تيشيت» أن الشريف عبد المؤمن رأى واحة البلدة والجبال المطلة عليها يتدفق منها الماء فأعجبته هذه الأرض وقال : «تي شئت»، فسارت علما على القرية التي أسسها واستقر بها[٤٠].

ومع ذلك فان تيشيت وردت في بعض الخرائط القديمة بالسين المهملة، «تيسيت» فهل الاصل ذلك ثم أعجمت الشين؟

ان قلب السين شينا وارد في عدد من الاعلام حسب الروايات الشعبية فاذا اعتبرنا التفسير الذي يقول أن أصل شنقيط بالسين المهملة لأن المعنى «سن قيط»، وقيط جبل بالمنطقة والسن «مستعارة من مفرد الاسنان (في الفم) للدلالة على طرف الجبل أو رأسه.. اذا أخذنا بهذا التفسير وجدنا في شنقيط أثرا لاعجام السين بعد أن كانت مهملة. ونجد نموذجين من ذلك في «السماسيد» و«مدلش» و«تاشدبيت» وهي أعلام على قبائل. فالمأثور أن أصل مدلش مجلس، قلبت الجيم دالا والسين شينا. ويروى أن اندكسعد كان رجلا صالحا وكان بوادان ومعه قومه، فحدث ما دعاهم الى الرحيل، فارتحلوا مساء وما غربت الشمس إلا وهم في جنوب البلاد، حيث استقروا فسموا بروحتهم هذه. وهي في العامية المتأثرة بالبربرية تدعى «تاسدبيت» بالسين المهملة، ولكن القوم أعجموا السين. أما السماسيد فينسبون الى شمس الدين وقد قلبت سينا في النسبة.

وهكذا اذا نحن اعتبرنا «تيشيت» مهملة السين أصلا، لم نجد مساغا لتفسير اشتقاقها على النحو الذي يذكره السكان. ولكن من المنطقي حقا أن تحمل المدينة اسما عربيا من البداية ما دام مؤسسها عربيا قحا بلا خلاف.

وكان فرنانديس البرتغالي أول أروبي ذكر تيشيت، فقد تحدث عنها في رحلته عامي ١٥٠٦/١٥٠٧م[٤١].

ولكن هذه الحاضرة العريقة ظلت نكرة شبه مجهولة عند المؤرخين العرب. وحسبك أن مؤرخا معاصرا من منطقة المغرب العربي ذكرها فقال انها اسم قبيلة، وليس الامر كذلك وانما هي مدينة، ونسب اليها العلامة الطالب أحمد بن اطوير الجنة وهو وداني لا تيشيتي[٤٢].

وقد أنجبت تيشيت علماء كثرا من أبرزهم الفرقدان أحمد بن محمد الصغير وأخوه عبيدة. وفي هذه المدينة وعلمائها يقول العلامة محمدي (الملقب بدّي) بن سيدينا.

أخلى لجمع الشمل بيني وبينكم   بلادي وأنسى طارفـــي وتليـــــدي

وتيشيت اليوم هي أوفر المدن الشنقيطية القديمة نصيبا من المخطوطات.

وادان

تقع مدينة وادان الاثرية على بعد ١٠٠ كلم الى الشمال الشرقي من مدينة شنقيط.

تأسست هذه المدينة على العلم في يوم عرفة من سنة ٥٣٦ هـ/١١٤٢ م، فهي توأم تيشيت ومعاصرتها. وقد أرسى قواعدها عدد من العلماء الذين حجوا البيت الحرام وتلقوا العلم خارج بلدهم.. وكانوا ثلاثة في البداية : الحاج عثمان الانصاري، تلميذ القاضي عياض السبتي وزميل الشريف عبد المؤمن والحاج يعقوب القرشي والحاج علي الصنهاجي. والتحق بهم بعد التأسيس عبد الرحمن الصائم. وفي رواية أن الحجاج الثلاثة الأول انطلقوا في رحلتهم الى الحج من ثلاثة قرى كانت في نواحي وادان وقضوا نسكهم ثم عادوا فهجروا قراهم وأسسوا وادان[٤٣].

وكانت حول وادان مدن منها تفرله وتامكونه، خربت بسبب الحروب القبلية[٤٤].

وتختلف الأقاويل في اشتقاق اسم «ودان». ولعل أكثرها مساسا بما نحن بصدده وافصاحا عن مكانة المدينة الثقافية والتجارية التفسير الذي أورده الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي الوداني نقلا عن شيخه سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم قال أنها : «واديان ملىء أحدهما علما ودينا وملىء الآخر نخلا وتمرا»[٤٥].

ازدهرت ودان كمحطة تجارية وكمركز اشعاع علمي. وكون أهلها «دولة علم ودين ومال عاشت أربعة قرون قبل أن تقع حروب أهلية بين مجموعتي تفرلة وتامكونة» ثم وقعت الحرب فانصرم عقد هذه الدولة ونزح بعض سكان المدينة[٤٦]. وكانت ودان محطة لنقل ملح سبخة الجلد، ويربطها الطريق اللمتوني بدرعة وسجلماسة في الشمال وتمبكتو في الجنوب عبر تيشيت وولاتة، وتربطها طريق أخرى بتوات وتغازة. وكانت تصدر الى الشمال المواشي والمصنوعات الجلدية والذهب والتوابل والعاج والأخشاب وريش النعام وبعض الحبوب وكانت تصدر الى السودان الملح والتمور والأقمشة والفرش والمصنوعات المعدنية والخيل والقمح والشعير، والكتب[٤٧].

وهكذا استفادت وادان من مركزها التجاري لخدمة العلم ونشر الدين فكانت ذات وظيفة مزدوجة اقتصادية ـ ثقافية، قبل أن تزدهر مدينة شنقيط.

وكان في وادان على ما يرويه الطالب أحمد بن اطوير الجنة ٤٠ دارا متوالية في كل منها عالم ضليع. وفي المدينة اليوم شارع يسمى شارع العلماء، يشهد لما نقله ابن طوير الجنة.

وكان طلبة العلم يشدون الرحال من شنقيط وتيشيت الى ودان. ومنها تخرج سيدي عبد الله بن محمد (ابن رازكة) والطالب محمد بن الأعمش الشنقيطان وسيدي أحمد بوالاوتاد التيشيتي.

ومن علماء ودان القدماء محمد بن أحمد بن أبي بكر، صاحب «موهوب الجليل» في شرح مختصر خليل، وهو أول تأليف شنقيطي محفوظ (اذا استثنينا كتاب الاشارة في تدبير الامارة للامام الحضرمي).

وبودان اليوم بقايا ١٧ مكتبة.

شنقيط

تأسست شنقيط القديمة سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م وعاشت قرونا ثم اندثرت لتنهض على أنقاضها شنقيط الثانية سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م، وهي ما زالت حية تغالب شيخوخة قاتلة وعزلة خانقة.

ورد ذكر شنقيط، موثقا، لأول مرة في تاريخ السودان للسعدي(٤٨). ونجد النسبة اليها في شجرة النور الزكية عند ذكر محمد الشنقيطي الآخذ عن رزوق، وذكرها شارح القاموس في المستدرك بعد شنكات فحرف كتابتها، قال : «ومما يستدرك عليه شنكيت : مدينة بأقصى المغرب» ولعله تأثر باسم المدينة مكتوبا بالحروف اللاتينية في مرجع أجنبي، لكن الشارح استدركها على نحو صحيح بعد الشنقيط قال : «ومما يستدرك عليه شنقيط بالكسر مدينة من أعمال سوس الأقصى بالمغرب»(٤٩).

وقد اختلف في وجه اشتقاق كلمة «شنقَيط» ومعناها، على مذاهب، فمن قائل أنها كلمة من اللغة الازيرية أو البربرية الصنهاجية معناها «عيون الخيل» (العيون التي تشرب منها)، وعلى ذلك فسرها سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، وأيد الأستاذ محمد الحنشي بن محمد صالح هذا التفسير.

ومن قائل أنها كلمة عربية أصلها «سن قيط» أي طرف جبل قيط وهو جبل مجاور.

ويرى شغالي بن أحمد بن محمود أن أصلها «الشقيط» وهي كلمة عربية فصيحة دالة على نوع من الأواني الخزفية كان منتشرا في المنطقة. وهو يرى أن مؤسس المدينة حبيب بن أبي عبيدة باعتبار أنه حفر بئرا في هذا الموقع ابان حملته في الصحراء سنة ١١٦ هـ، فلا يبعد أن يكون قد أطلق عليها اسما عربيا(٥٠).

وعلى هذا الأساس تكون المدينة قد بنيت بعد حفر البئر بـ ٤٤ سنة.

وقد بسط زميلنا الأستاذ أحمد بن المفيد القول في التفسيرات المختلفة لاشتقاق الكلمة. وأفاض الأستاذ محمد محمود ابن جدو، في رسالة قيمة في تتبع كتابات المؤرخين الغربيين عن المدينة، تتبعا نقديا(٥١).

كانت شنقيط مدينة واحات ومحطة كبيرة من محطات التجارة الصحراوية.

يروون أنه خرج يوما من شنقيط ٣٢٠٠٠ (اثنان وثلاثون ألف) جمل موقرة بالملح عشرون لأهل شنقيط المدينة واثنا عشر لأهل تيشيت. وباعت الرفقه كلها في «زار» فتعجب الناس أي البلدين أعمر مع اتفاق الكلمة(٥٢).

ومن شنقيط كان حجاج البلاد ينطلقون، يتداعون اليها من كل فج، ثم يدفعون منها في قافلة واحدة باتجاه الديار المقدسة. ولذلك «يعرف أهل هذا القطر الصحراوي في أرض المشرق وفي الغرب بالشناقطة».

ويقول بابا بن الشيخ سيديا : «اما لأنهم كانوا من أكثر أهل هذه البلاد حجاجا فصاروا أعرف في تلك البلاد، واما لأن شنقيط من أقدم القرى في هذه البلاد»(٥٣).

وواضح أن التعليل الاول أوجه فقد رأينا أن شنقيط من أحدث المدن القديمة سنا، فهي أحدث نشأة من ولاتة وتيشيت وودان. وسنرى أن أهل مدينة شنقيط من أكثر الناس حجا. وهم الى اليوم على ذلك العهد، وتوجد منهم أسر كثيرة تقيم بالمدينة المنورة وآخرون يعودون اليها كلما ذهبوا، تشدهم اليها، كما تشد الفرس آخيته.

اما أهم أدوار شنقيط فهو دورها كمركز اشعاع علمي. وقد أهلها لذلك مركزها التجاري ومركزها الديني كمنطلق للحجيج. ولم يفتأ دور شنقيط العلمي يتعزز منذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري حتى أصبحت العاصمة الثقافية للبلاد. وقد وفد الى شنقيط سفراء كان لهم دور في اعدادها لاداء رسالتها العلمية.

ففي أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر وصل شنقيط أحمد الذهبي قادما من تلمسان وهو شريف من سلاسة عبد الله التلمساني الذي ذكر الرهوني وكنون أنه من أشياخ ابن عاصم. ومر في طريقه الى شنقيط بمراكش حيث لقى السلطان مولاي اسماعيل، ثم أقام بشنقيط فترة يعلم الناس الفقه. وكان أول من درس بها مختصر خليل وترك بها ولدين وعاد الى مراكش وبها توفي. وتنتشر سلالته اليوم في «موريتانيا»(٥٤).

ووصل شنقيط في القرن الحادي عشر شاب شريف فاسي ذكره صاحب فتح الشكور باسم «الشريف الشاب»(٥٥)، وذكره صاحب الوسيط باسم «الشاب الشاطر» ـ وبه يعرف في شنقيط المدينة والقطر، يقول ابن الأمين «وهو من العجائب»، وقد ساق طرفا من قصته، وما ظهر عليه من خوارق العادات. وقال ان أهل شنقيط وجدوه بحرا لا ساحل له، فانتخب أربعة منهم يعلمهم، ولما أراد السفر قال لهم «تركت فيكم المحمدين والعبدلين، وابن المختار هو ال نختار»، ويعني به الطالب محمد بن الأعمش وهو أحد المحمدين. أما العبدلان فلم يعين صاحب الوسيط منهما إلّا القاضي عبد الله بن الطالب محمد قائد هجرة العلويين من شنقيط الى بلاد القبلة(٥٦).

ويروي محمد بن أحمد بن البشير ان «الشاب الشاطر قد جلب معه الى شنقيط كتبا أندلسية لم تكن معروفة في البلاد»[٥٧].

تنيكي

تقع اطلال هذه المدينة بين شنقيط وودان. ومن المرجح أن تكون أول حاضرة علم في البلاد بعد رباط عبد الله بن ياسين وآزوكي، وان كانت قد تأسست في القرن السادس الهجري وهو القرن الذي ولدت فيه ودان وتيشيت وكانت تنيكي مركز قبيلة تجكانت، ازدهرت في القرن العاشر الهجري كحاضرة من حواضر العلم في البلاد. قيل أن فيها يومئذ ٣٠٠ فتاة تحفظ موطأ الامام مالك، ثم آلت المدينة الى الخراب ونزح أهلها منها بعد أن شهدت حربا أهلية طاحنة وكان خرابها في القرن العاشر الهجري (١٧ ميلادي) وسار خرابها مثلا عند الشناقطة «أخلى من تنيكي». وقد قال أباه بن محمد الأمين اللمتوني (١٣٣٠هـ) ان أكثر بقاع الدنيا علما اذ ذاك تنيكي ومصر[٥٨].

وكما اندثرت تنيكي فقد اندثرت **آزوكي** (مدينة الكلاب) حيث يقع ضريع الامام الحضرمي.

اطـــار

تقع اطار قرب آزوكي وتمت الى شنقيط بصلة قربى وثيقة، فهي تقع على مقربة منها (نحو ٦٠ كم) في منطقة آدرار نفسها. وقد أسسها الشماسيد النازحون من شنقيط سنة (١٠٨٥) وأسسوا فيها المحاضر ودور ضيافة الطلبة وكان من أبرز علماء اطار في القرن الحادي عشر الهجري محمد بن أحمد المجذوب (كان حيا سنة ١٠٨٥ هـ)[٥٩]. وكانت له مؤلفات على ما يذكر إلّا أنها لم تصل أيدينا. وكان يقول انه يرى الخضر ويتحدث إليه وينقل عنه العلوم. وشدد محمد ابن المختار بن الأعمش من شنقيط، النكير عليه في أقواله، فكان الخلاف بينهما مظهرا آخر من مظاهر الجفوة بين المدينتين.

ويجب أن ننوه بالدور الذي لعبته مدن معمرة أخرى مثل **تجكجه والنعمه** في احتضان العلم ورعاية المحاضر، فقد كانت النعمة رافدا من روافد ولاتة، وكذلك كانت تجكجه بالنسبة لشنقيط.

٦ ـ تقاليد محضرية حضرية

لقد أدت جميع الحواضر التي ذكرناها أدوارا هامة ـ على تفاوت في ذلك ـ في الحياة الثقافية للبلاد. وخصوصا في رعاية المحاضر وهي في المهد، وتمهيد السبل أمامها لتضرب أطنابها في رحاب البادية؛ لكن أبرز هذه الحواضر وأوفرها عطاء ثقافيا هي الشواهد الأربعة : ولاتة، تيشيت، ودان، شنقيط، فلهذه المدن الأربع عمادة المراكز الحضرية الحية في البلاد. ولها ريادة الحركة الثقافية منذ تسعة قرون سلفت.

للمدن الأربع عطاء ثقافي كبير، ولها تقاليد مرعية باقية تبرز أنها بالعلم قامت وعليه تقوم الى اليوم.

لقد كان في كل من هذه الحواضر دور للتلاميذ، هي سكن مدرسي مجاني يوفره المجتمع لكل من يردون المدينة للنهل من معين المعرفة. وتتميز هذه المدن بأن للمسجد فيها دورا ثابتا في الحياة الثقافية وان الدراسة فيه تخضع لبرمجة زمنية دقيقة.

ومن التقاليد المشتركة بين الحواضر العتيقة قراءة صحيح البخاري والشفاء للقاضي عياض بانتظام.

وتبرمج شنقيط صحيح البخاري حصصا يومية تقدم في المسجد بين الظهر والعصر على امتداد أربعة أشهر (جمادى الآخرة ـ رمضان)، بينما تبدأ قراءة الشفاء مستهل شهر رمضان ويختم في اليوم التاسع والعشرين منه.

وفي فتح الشكور نجد الاشارة الى هذا التقليد غير ما مرة، فسيدي محمد بن أحمد بن شيخنا الطالب الأمين المتوفي سنة ١٢١٥ كان «ملازما للمسجد وصلاة الجماعة وحضور مجلس البخاري والشفاء ومدح النبي صلى الله عليه وسلم»[٦٠] وكذلك محمد بن الحاج أحمد المتوفي سنة ١١٧٢ هـ كان «يحضر مجلس صحيح البخاري والشفاء في رجب وتاليه دائما»[٦١]. وكان الفقيه الحاج صالح بن الفقيه عبد الله بن الطالب أبي بكر الايديلبي المتوفي سنة ١٢٠٥هـ «ملازما حضور مجلس البخاري ومجلس الشفاء»[٦٢].

وفي مسجد ودان يدرس القرآن يوميا طوال السنة. وتقرأ حلقات من صحيح البخاري والشفاء للقاضي عياض بعد العصر[٦٣].

وكان من عدة الطلبة في ودان أن يأخذوا ألواحهم ويجلسوا في الطريق المؤدية الى المسجد، كلما مرّ عالم في طريقه إلى الصلاة يملي عليهم درسا من فن معين، حتى إذا انقضت الصلاة يعود اليهم فيفسر درسه وتتكرر العملية من صلاة الى صلاة[٦٤].

وفي ولاتة يخصصون لتفسير القرآن ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء، فيقرأون تفاسير النسفي والجلالين والخازن والصاوي.

ويقرأون في المسجد ما بين صلاة الظهر وصلاة العصر صحيحي البخاري ومسلم، ويقرأون الشفاء «للقاضي عياض» حلقات يومية في شهر رمضان فيختمونه يوم ٢٩ من الشهر(٦٥).

٧ ـ من الحاضرة إلى البادية

كانت المحضرة، في غالب شأنها وبطابعها العام مؤسسة تربوية بدوية، ولكن أثر الحواضر الثقافية في تأسيسها وتغذيتها بما يضمن لها استمرار العطاء أثر واضح وجلي.

يقول الدكتور محيى الدين صابر «ان التقاليد العربية التي أثرت عن المدن التاريخية الموريتانية الى عهد قريب كفلت للتراث الاسلامي العربي البقاء والاستمرار من خلال المؤسسات التي ابتدعها المجتمع الموريتاني سواء في المراكز العلمية المستقرة أو المتنقلة والتي يمثلها نظام المحاضر»(٦٦).

وقد تتبع المختار بن حامد في موسوعته «حياة موريتانيا». السبيل الذي سلكته المحاضر وهي تنسل من المدن القديمة، وتتناسل في أرجاء الصحراء وضفاف البحر والنهر(٦٧). وهذه نماذج من فروع محضرتي وادان وشنقيط :

محضرة وادان

١ ـ محاضر أدو الحاج في «القبلة»، وكانوا نزحوا في القرن العاشر الهجري وهم أهل بادية يتنقلون. وقد عبر نهر السنغال طوائف منهم، فكان لها دور خاص في نشر الاسلام والعلم هناك.

٢ ـ محاضر ادو الحاج النازحين الى «الرقيبة» في عجز القرن الحادي عشر الهجري.

٣ ـ محاضر الأوقيتيين، في تمبكتو. وقد عاد منهم الى وادان بنو الفقيه محمود ابن عمر بن محمد اقيت، وهم قضاة وادان وأئمتها.

محضرة شنقيط

تفرعت منها محاضر المجموعات التالية :

١ ـ ادو على النازحين من شنقيط الى تجكجه في عجز القرن الحادي عشر الهجري (نحو ١٠٧٠)،

٢ ـ أهل امبوجه العلويين بتشيت،
٣ ـ ادو على النازحين الى القبلة في عجز القرن الحادي عشر،
٤ ـ الاغلال النازحين الى الرقيبة والحوض في عجز القرن الحادي عشر،
٥ ـ السماسيد النازحين الى اطار وأوجفت،
٦ ـ لمتونة في القرن الحادي عشر،
٧ ـ اتمدك،
٨ ـ مسومة، ومن أشهر رجالها فحفو عبد الرحمن بن المختار السالك بن الشيخ بن فحفو وابنه سيدي محمد أخذ عنه في طريقه الى الحج أبو القاسم التواتي من علماء ليبيا،
٩ ـ تجكانت،
١٠ ـ اديجبه،
١١ ـ تندغه،
١٢ ـ بني مالك،
١٣ ـ تاكاط،
١٤ ـ اديبسات،
١٥ ـ تركز،
١٦ ـ تاكنانت،
١٧ ـ تنواجيو،
١٨ ـ اداب لحسن،
١٩ ـ أولاد الفغ حبيب الله،
٢٠ ـ اكمليلن،
٢١ ـ أهل كنار،
٢٢ ـ مدلش، ورغم أن هذه القبيلة تنسب الى الفقيه ابراهيم الاموي صاحب «مجلس العلم» في عهد المرابطين، فان التاريخ لم يحفظ من أسماء رجالها بعده إلّا من يعتبر من خريجي محضرة شنقيط، بوسائط.
٢٣ ـ انتابه،
٢٤ ـ تشمشه ومن أبرز رجالها الفقيه مينحن بن محمد مودي مالك.

ويروى أن السلطان العلوي مولاي اسماعيل سأل سيدي عبد الله بن محمد الشنقيطي عن أعلم من يعرف من الناس، فقال : أما في القبلة (من بلاد شنقيط) فمينحن، وأما في المغرب فالحراق.

ولذلك رد محمد العالم ابن السلطان مولاي اسماعيل على هذا الحكم مفضلا سيدي عبد الله الشنقيطي على الاثنين :

فدع عنك حراقا ومينحن بعده فانت جميع الناس في شخص واحد

٢٥ ـ اديقب،

٢٦ ـ أولاد أبيري،
٢٧ ـ اجمان،
٢٨ ـ اد كجمله،
٢٩ ـ القلاقمة،
٣٠ ـ التوازير،
٣١ ـ كنته،
٣٢ ـ فوتا الموريتانية، من رجالها الامام سليمان بال، أخذ عن علماء تيشيت وآوكار وعاد فقاد حركة الامامة السنية في فوتا (ت ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م) وقد تفرعت من كل محضرة من المحاضر المذكورة عشرات المحاضر تنضاف الى مجموعات أخرى لا سبيل لاحصائها.

وقد بدأت المحاضر تنتشر في البادية منذ القرن العاشر الهجري وفيه ولدت محضرة «الكحلاء» العريقة، وإن لم يقو ساعدها إلّا بعده[٦٨]. ومن محاضر البادية القديمة محاضر محمد سعيد بن تكدي في القرن العاشر وسيدي الفاضل الديماني (ت ١٠٤٧ هـ/١٦٣٧ م) وابنه الفغ (الفقيه) الأمين (ت ١٠٧٧ هـ/١٦٦٦م) وعبد الله الحاج بن بو المختار الحسني والفاضل بن أبي الفاضل الحسني كلاهما في القرن الحادي عشر والقاضي عبد الله العلوي (ت ١١٠٣ هـ/ ١٦٩٢ م)[٦٩].

ويستنتج من استقراء القوائم هيمنة مدينة شنقيط (كأصل) والبادية (كفرع) على الحياة الثقافية في البلاد.

* * *

ولئن غطت شهرة «شنقيط» على اخواتها الاخر، فلقد شاركنها كما رأينا، بل وسبقنها في العطاء الثقافي. وتشترك المدن الاربع أيضا في أنها مراكز حضرية نشأت بجوار واحات النخيل، وأدت أدوارا مميزة في تجارة الصحراء واحتضنت فنا معماريا أصيلا. وهي إلى اليوم شواهد حية مفصحة عن عظمة الماضي.

وتقديرا لمكانتها في التراث الانساني العالمي أعلنت منظمة اليونسكو سنة ١٩٨١ حملة دولية لاحيائها، وقال الدكتور أحمد مختار امبو في نداء الحملة :

«ان مدن وادان، شنقيط، ولاته، تيشيت، هي الشواهد الاخيرة على ازدهار منطقة ظلت لفترة طويلة بحكم موقعها في ملتقى طرق القوافل الصحراوية الكبرى تربط بين المغرب العربي ومنطقة الساحل، كما أن وجودها في محور فكري تلتقي فيه الأندلس بأقاصي افريقيا، جعلها تفتح أبوابها في آن واحد لتجارة السلع ولتبادل المعارف كما استطاعت أن تصبح بذاتها مراكز للابداع والالهام ومصدر اشعاع لحياة دينية غنية، ولأنشطة علمية وفنية عديدة»[٧٠].

وقد حضر اعلان الحملة الدكتور محيى الدين صابر، مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فأشاد بما لهذه المدن من أثر في نشر الاسلام والثقافة العربية...

الفصل الثاني

عوامل انتشار التعليم المحضري

مهد الاسلام الطريق للعلم، منذ دخوله الصحراء، فكان أول العوامل وأعظمها شأنا في اخراج أهل الصحراء من ظلمة الجهل الى نور العلم، فقد كان تطبيق الشعائر الدينية يقتضي ضرورة درجة من العلم بما تؤدى به الشعيرة. وقد ظل الاسلام غريبا في عهده الاول لانتشار الجهل بين الناس، إلى أن وصل عبد الله ابن ياسين، فبدأ يبث علوم الدين في الناس، فقوي الدين بالعلم وقوي العلم بالدين منذ ذلك التاريخ، وأصبح التعلم والتعليم بعد أن فرغ القوم من الجهاد، بل وهم يخوضون غماره، أشرف ما يصرف الانسان فيه وقته.

لقد دعا الاسلام الناس للعلم، ويسره لهم وحببه إليهم حتى كان منهم عشاق مولهون مغرمون باللوح والقلم والمحبرة، وكان لهذا الحب أثر بالغ في انتشار المحاضر واقبال الشباب على العلم حتى اتخذوه رهبانية لهم في مقتبل العمر، فانصرفوا اليه معرضين عن الاكتساب وتدبير المال. وقد واكب العامل الديني مسيرة المحضرة من نشأتها الى اليوم، فكان يغذيها في كل المراحل ويرفدها في كل الظروف بما يضمن لها المضي قدما على الطريق.

وفي العصور الأولى لدخول الاسلام، وعلى مر القرون من بعد، كان للقوافل وتيارات التبادل التجاري أثر في تنشيط الحركة العلمية، فقد كانت القوافل التي تعبر الصحراء تحمل العلماء الذين ينفقون من بضاعتهم المعرفية أينما حلوا.

وحين انقطعت تجارة الصحراء، وهيمن الأروبيون على التجارة عبر المحيط، تمحض الغرض الديني والثقافي من رحلات القوم الى الشمال والشرق، وكانت التجارة الأوروبية عونا في الحصول على بعض أدوات المعرفة، مثل الورق.

وقد مهدت حركة القوافل عبر الصحراء السبيل أمام الذين يرغبون في استيطانها فوصلت مجموعات بشرية مختلفة استوطنت بلاد شنقيط، وكان منها علماء ساهموا في نشر العلم وآخرون اختصروا الطريق اليه بنشر اللغة العربية، وإن بواسطة اللهجة العامية.

وبازدياد الهجرة الى البلاد، وتنافس الناس على تملك الأرض وتبوأ مراكز النفوذ فيها، انتشرت الحروب القبلية، ولكنها لم تكن كلها وبالاعلى العلم، فقد اضطرت فئات من القوم الى وضع السلاح واحلال القلم محل السيف، وهاجر آخرون من مواطنهم، وكانوا أهل علم، فنشروا العلم في أطراف البلاد.

وكانت البداوة السمة المميزة للمجتمع الشنقيطي، حتى كان منهم قوم يهجرون الحواضر بعد أن استقروا فيها، ويضربون في فجاج الارض يتتبعون مساقط الغيث، وقد ظل هؤلاء البدو ينشرون العلم أينما توجهوا، واستطاعوا أن يطوعوا «المحضرة» لحياة الحل والترحال، فأصبحت جامعة بدوية متنقلة.

وقد كانت حياة الظعن التي ألفها أهل الصحراء دربة لهم على تحمل مشاق السفر وتجشم عنائه، فلم يتردد كثير من الشناقطة في ضرب أكباد الابل، أو السير على الاقدام لحج بيت الله الحرام ولاكتساب العلم واقتناء الكتب.

وفي رحلاتهم الى البلاد الأخرى، تعرف العلماء الشناقطة على الطرق الصوفية وحملوها الى البلاد، فسعت المحضرة والحضرة معا في ألفة حميمة لنشر العلم في البلاد وخارجها.

وهكذا نستطيع أن نرد انتشار التعليم المحضري، بوجه عام الى العوامل الاساسية التالية :

- انتشار الاسلام ودعوته للعلم، والحماس الديني الذي أثمر حبا خالصا لحياة المحضرة.
- عناية الشناقطة بالعلم وولعهم به.
- تجارة الصحراء والمحيط.
- الهجرة الى البلاد.
- الحروب والنزاعات القبلية.
- حياة البداوة.
- الرحلات العلمية والدينية.
- الطرق الصوفية.

١ ـ الاسلام.. دين العلم

لم يكن لسكان الصحراء أن يعنوا بالعلم لولا أن هداهم الله للاسلام، فكان لا بد لمن شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمدا رسول الله، أن يتعلم من القرآن ومن أحكام الدين ما يقيم به صلاته ويؤدي به زكاته ويصوم به ويحج ان استطاع ويقف عند حدود الله أمرا ونهيا. لقد كان اعتناق الاسلام في حد ذاته التزاما بالتعلم، اذ لا دين لمن لا علم له، ثم أن المسلمين وجدوا الدين يدعو الى العلم ويحث عليه ويرفع من شأنه. وقد وردت كلمة العلم ومشتقاتها في القرآن الكريم ٧٨٨ مرة وامتن الله بالعلم وأمر به وأثنى على العلماء :

«ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم».
(النساء ـ الآية ٨٣)

«وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم».
(الأنعام ـ الآية ٩١)

«وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب».
(يونس ـ الآية ٥)

«فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون»
(النحل ـ الآية ٤٣، الانبياء ـ الآية ٧)

«وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا».
(آل عمران ـ الآية ٧)

«اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم».
(العلق ـ الآيات ١ ـ ٥)

«فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم».
(البقرة ـ الآية ٢٦)

«قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»
(الأنعام ـ الآية ٩٧)

«وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون».
(يوسف ـ الآية ٦٨)

«وعلم آدم الأسماء كلها».
(البقرة ـ الآية ٣١)

«الرحمن علم القرآن، خلق الانسان، علمه البيان».
(الرحمان - الآيات ١ - ٤)

«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».
(الزمر - الآية ٩)

«فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون».
(البقرة - الآية ٢٣٩)

«وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون»
(العنكبوت - الآية ٤٣)

«ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم».
(البقرة - الآية ٢٤٧)

«شهد الله أنه لا إله إلّا هو والملائكة وأولو العلم».
(آل عمران - الآية ١٨)

«لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك».
(النساء - الآية ١٦٢)

«وقل رب زدني علما».
(١١٤ طه)

وقد حثّ النبي عليه الصلاة والسلام على العلم وكان يقول : «ما تصدق الناس بصدقة خير من علم ينشر» وقرن بين مداد العلماء ودماء الشهداء وقال : «أجودكم من بعدي رجل علم علمه، فنشر علمه يبعث يوم القيامة أمة وحده ورجل جاد بنفسه لله عز وجل حتى يقتل» وكان صلى الله عليه وسلم يقول : «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» والأحاديث في هذا الباب كثيرة(٧١).

وقد جاء عبد الله بن ياسين والامام الحضرمي وابراهيم الاموي وزميلاهما والشريف عبد المؤمن والحاج وعثمان وغيرهم من الرواد الأوائل، وفي روعهم أن نشر العلم فريضة مفروضة وعبادة، لا تتأتى دونها اقامة الدين.

وما ان دبَّ الايمان في العروق وجرى من أهل الصحراء مجرى الدم حتى كانت الدعوة الى التعلم والحثّ عليه والتحذير من الجهل ديدن الشيوخ، وكان الشباب يتهافتون على المحضرة، حبا وشغفا ورهبانية علم.

٢ - عناية الشناقطة بالعلم

عني الشناقطة كثيرا بالعلم، دعا اليه علماؤهم فلبى الناس الدعوة، واتخذوا العلم قسيما للمال فرغبوا عن المال. وكان لهم في اقبالهم على المحضرة رهبانية علم وهوى عذرى عميق، فكانت هذه الروح نتيجة وسببا في آن لانتشار العلم.

ونحن نرى أن هواية التعلم قامت أول ما قامت على أساس من الدين، وبه استمرت فقد وجدت دعوة الاسلام الى العلم آذانا صاغية وقلوبا واعية عند الشناقطة الذين لبوا النداء واندفعوا بحماس ينشرونه في الآفاق، فأصدروا في ذلك الفتاوي وحرروا الكتب والرسائل ودبّجوا القصائد ونصحوا فمحضوا النصح. ومن ذلك دعوة محمد فال بن متالى (١٢٨٧ هـ/١٨٧٠ م) لحضور مجالس العلم حتى لمن لا يستفيد منها :

عليك بالتعلم والتعلم ... ذا رغبة في أجره المعظم
ولا يزعك عن حضور العلم ... وأهله ان لم تكن ذا فهم
فإن في الجلوس عند العالم ... سبع كرامات لغير الفاهم
تحصيل فضل المتعلمينا ... وحبسه عن الذنوب حينا
مع نزول رحمة الله عليه ... عند خروجه بنية اليه
وانه له نصيب يحصل ... مما من الرحمة ثم ينزل
وانه ما دام منه سامعا ... فانه ممن يعد طائعا
وضيق قلبه من الحرمان ... وسيلة لرحمة الرحمن
وأن يرى العالم قد أجلا ... في الناس والفاسق قد أذلا
فطبعه ثم الى العلم يميل ... عسى عليه يفتح الله الجليل
لذا النبي بحضور العلما ... أمرنا فلازم التعلما

وقد أفتى ابن متالى بتفضيل تعلم اللغة على التفرغ للعبادة :

تعلم اللغة شرعا فضل ... على التخلي لعبادة العلى
يؤخذ ذا من قوله : وعلما ... آدم الاسماء، الزم التعلما

ومراده أن الملائكة ما أمروا بالسجود لآدم إلّا لفضل كان له عليهم وما كان هذا الفضل إلّا بالعلم، لا بالعبادة لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون «وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون» فما فضلهم آدم إلّا بما علمه الله إياه.

وقد توسع ابن متالى في فتواه، فأفتى بفضل العلم مطلقا على العبادة، تلاوة وذكرا في جميع الأوقات، قاصدا النوافل بشكل خاص :

علـى التـلاوة ففـي وقتيـن   قد فضلـوا الذكـر بدون ميـن
قبل طلوع الشمس، بعد العصر   والعكس بالعكس لباقـي الدهـر
والعلـم في الوقتين أو سواهمـا   علـى الجميع فضلوه العلمـا(٧٢)

وطلب العلم فرض عين، واجب على كل مسلم ذكرا كان أو انثى فتركه معصية :

وطلب العلـم وجوبـه شمل   جمع الذكور والانـاث كالعمل
وتـارك التعليم عاص أبـدا   ان كان تركـه بلا عذر بدا
وعـذره طلب عيش لازم   أو اشتـداد مرض ملازم(٧٣)

ودعا عبد الله بن حبيب الله بن المختار التندغي البوحبيني إلى تعليم الصغار واعتبر اعانتهم واجبة وفي ذلك يقول :

وحثوا على كسب العلوم صغاركم   أعينوهم فالعون حتم لمن يقرا
فمـا النـاس إلا عالـم ومعلـم   وماالدار إلاذىوضرتها الاخرى(٧٤)

وقرن العلامة يحي بن أحمد فال (١٣٤٥ هـ/١٩٢٦ م) بين الجهل والكفر :

ألا فاعلموا أن التعلـم تركـه   الى الكفر داع بل بساحته الكفر
فجاهل فرض لا لديـه فريضة   وليس له شفع وليس له وتـر
فان عاش يوما عاش عيشا مذمما   وان مات لاقته المهانة والخسر

واعتبر حماد المجلسي (ق ١٣ هـ) العلم حليا وقنية وفرضا في منظومة حافلة بمكارم الاخلاق :

الحلم خيـر ما ارتـداه السيـد   «لن يدرك المجد» لذاك يشهـد
فازدن به والعلـم زيـن الظرفـا   فالعلم نعـم المقتنـى والمقتفـى
طلبـه فريضة وأفـرضه   علم مهمك به أبدأ تقـبضه(٧٥)

وفي الحث على العلم والأخلاق الحميدة التي كانت المحضرة ترعاها، يقول الشيباني بن محمد بن أحمد :

أسماء ليس الهون ذل الفتى لمن   يحب فان الحب للحب ذو ذل
ولكنما هون الفتـى ذلـه لمـن   يهدده بالسجن والضرب والقتـل
وهون الفتى إعراضه عن عشيره   اذا حملوا مالًا يروغ عن الحمل
وإعراضه عن مجلس القوم ان دعوا   لفهم عويصات الفروع أو الاصل
ولا هو مشغـول بعلـم عقائـد   ولا سنة كلا ولا الفرض والنفل
ولا بكتـاب الله أشغل فكـره   ولا بالأحاديث الصحاح أخو شغل

ولا بلسان العـرب نال فصاحـة   وما نالها باسم وحرف ولا فعل
ألا فاشتغل بالعلم إن الفتـى به   يسود. وما ساد الفتي قط بالجهل
ترى العلم يربـي من سؤال عفاته   مقلا وليس المال يربو من السؤل
تأهب لنيل العلـم جد وشمـرن   وعد عن الأوطان والخود والأهل
وايـاك ادمـان التنـاوة(٧٦) انـه   ينسيك ما تدريه من باب او فعل
وأوالـي جم المـدارس واستعـن   أو ان الدجى بالنار والحطب الجزل
اذا نلت صرف العلم نلت فخامة   وفضلا به مهما تأهبت للفضل
وإلّا فبالهـون اكتسيت وان تكـن   سليل كرام طيب الفرع والاصل(٧٧)

والى هذا المعنى قصد بلابن الفاضل (ق ١٣ هـ) في تحقيره شأن الجاهل وعدم الاعتداد بما يصدر منه، فقد تعرض لاعتداء من قوم ضربوه، فتسلى بعلمه وجهلهم عما أصابه من أذاهم وقال :

لا يؤلم الضرب ممن لا يميز للز   يدون يدعون والهندات تدعونـا

وكانوا يكبرون العلم كثيرا ويجدون لذة كبيرة في استكناه مجاهله واستكشاف خباياه. وكان لصلاحي بن المامي، وهو عالم شاعر، طبل يحمله معه أينما توجه. وكان مولعا بتحرير المسائل، فاذا عنت مسألة عويصة وفهمت ضرب ذلك الطبل اشهارا للامر وزهوا به(٧٨) وعن لذة العلم يتحدث سيدي عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي (١١٤٣ هـ/١٧٣١ م) شعرا :

إذا جلت فكرا في العلوم عويصها   وجئت بما يشفي غليل مريدي
تصاغـرت الدنيـا لدي وأهلهـا   ومادت بي الافـراح كل مميـد
ونلت لذيذ العلم بالـذوق وحـده   وكل لذيـذ غيـره كهبيـد(٧٩)

وقد اعتبر موناك بن المصطفى التندغي العلم غاية اللذة ومنتهاها :

سلام كعرف الروض غب الهواطل   ألـذ من التعليـم في قلب جاهل

ويقول ابن المبارك بن اليمين في محضرة «الصفراء» :

ليهنئك يا صفراء ان برحت جمل   وقدلاحشهرالصيفأننيل مايحلو
اذا نيل جد الامر فالـكل هيـن   وماالمجدإلاالعلملاالشرب والاكل(٨٠)

وكانوا يفرغون الشباب للعلم، ولا يكلون الى من وجدوا فيه أهلية لارتياد آفاق المعرفة أي شأن من شئون الكسب والتدبير.

يروى أن البخاري بن المأمون أجدب أهله فبعثوه يرتاد لهم، فاتفق أنه مر بحي هام بفتاة فيه ومكث أياما ثم رجع الى أهله، فلما سألوه عن مساقط الغيث أنشأ يقول:-

وبيضا في الملاحة لا تبارى — ألا فاصدع بحبكها جهارا
فبينا الناس ينتجعون غيثا — اذا «المامي» تأتزر ائتزارا
لهي الغيث أطلب لا سواها — فلا شول لديّ ولا عشارا

فلم يغظ ذلك والده، بل سرّ به ونذره للعلم. وقال للملأ من قومه : أشهدكم أنه حرّ من الاشتغال بالدنيا، فأكب على لغة العرب فبرع فيها وفي الشعر(٨١).

العلم والمال :

وقد أقام علماء المحضرة صراعا حادا بين العلم والدنيا (المال)، رغم أن مقاليد الثروة من تنمية وتجارة وزراعة كانت بيد الزوايا، فصوروا العلم والمال قطبين يتصارعان لا سبيل للجمع بينهما، ودعوا الى اختيار العلم وحصروا فيه مجد الدنيا والآخرة وبالغوا في تحقير شأن المال. ولعل هذه النظرية كانت أسلوبا دعائيا ضروريا لمواجهة نزوع الشباب إلى متع الحياة ولصرف همته الى العلم، حتى اذا تضلع منه لم يعد في الكسب والتدبير خطر عليه، وأصبح ـ اذا أثرى ـ مؤهلا لانفاق ماله في وجوه الخير والبر.

وقد حمل الشيخ محمد بن حنبل لواء العلم في الصراع بينه وبين المال ونظم في الموازنة بين هذين الهمين قصيدة عني بها الشباب كثيرا وتداولتها المحاضر جيلا بعد جيل فبلغت من القلوب غايتها. وفي هذه القصيدة يقول :

ان خير الزاد يا صاح التقى — فبه المجد التمس لا بالنسب
في التقى عز وكثر وغنى — دون سلطان وجند ونشب
هو دون العلم عنقا مغرب — فاطلبه فلنعم المطلب
جرع النفس على تحصيله — مضض المرين ذل وسغب
ودع المال الى تطلابه — تكتسبه فلنعم المكتسب
هو حلى المرء في أقرانه — وهو عند الموت زحزاح الكرب
وهو نور المرء في اللحد واذ — ينسل الأقوام من كل حدب
يا غريبا يطلب العلم اصطبر — ان مبدا العلم من قبل غرب
ما سعى في الربح ساع سعيكم — بل سواكم سعيه جد نصب
ان تقولوا منعتنا درسه — ازم الدهر والاعوام الشهب
قلت هل يحتال في دفع العصا — من أظلته الحسامات القضب
فكأني بنوي العلم غدا — في نعيم وحبور وطرب
يحمدون الله أن عنهم جلا — كل حزن وعناء وتعب
بادروا العلم بدارا قبل أن — يبغت الحَيْن بهول وشغب
صاح لا تلف بجهل راضيا — فذوو الجهل كأمثال الخشب
واصحب الدائب في استنباطه — لا جهولا خدن لهو ولعب

انما القنية علم نافع — لا العتاق الجرد والخور الصهب
لا يزهدك أخي في العلم أن — غمر الجهال أرباب الأدب
زبد البحر تراه رابيا — واللئالى الغر في القعر رسب
لا تسوء بالعلم ظنا يا فتى — ان سوء الظن بالعلم عطب
ان تر العالم نضوا مرملا — صفر كف لم يساعده سبب
قد تجوع الأسد في آجامها — والذئاب الغبس تعتام القتب
رأت الدنيا خبيثا مثلها — لم تمالك أن أتته تنسلب
فحبته الحب منها خالصا — وكذاك الشكل للشكل محب
ورأت ذا العلم فواح الشذى — أبي الذام فآلت تصطحب
فقلته وقلاها يا له — قمر عنه قد انجاح الحجب
فغنى ذي الجهل فاعلم فتنة — وافتقار الحبر تأسيس الرتب
فخذ النصح، ولا تعبأ بمن — بدل النصح، فطاوعه تصب
أضيع الأشياء حكم بالغ — بين صم ونداء لم يجب

لم يضع نداء ابن حنبل، ولم تعدم محاكمته القاسية للمال آذانا صاغية لدى طلبة كثر آثروا فقر العلم على غنى الجهل. لقد أدرك ابن حنبل وأدرك معه الكثيرون أن المواءمة بين العلم والغنى في عهدهم وبيئتهم وفي عمر الشباب أمر صعب فاختاروا العلم.

ويمضي ابن حنبل في حربه الشعواء، ضد الجهل والجهلة المتمولين، فيقول :

كل فتى شب بلا اعراب — فهو عندي مثل الغراب
وان رأيته لخود عاشقا — فقل لها اتقى الغراب الناعقا
عار على حسناء ذات منصب — ترى ببيت فيه غير معرب
لا انتفعت بالاكل والشراب — من آثرت مالا على اعراب
حلى الفتى إعرابه لا ماله — ولانجاره ولاجماله(٨٢)

لقد قسا ابن حنبل كثيرا، ولعله غلا في تقدير أمر الاعراب. وليت شعري ما عساه يقول ـ رحمه الله ـ لو رأى ما في دنيا العرب اليوم من «الاغربة»، على أن ابن حنبل لم يكن بدعا من العلماء في دعوته المسموعة، فما هي إلا تعبير عن روح المحضرة وموقف رجالها.

يقول الشيخ محمد حامد الحسني مخاطبا ابنه :

يا أحمد الحسن اقرأ لوحك الكرم — اللوح لا الأصل والدينار والنعم
الاصل لابن الزوايا لوحه أبدا — أن يخل منه فلا عز ولا كرم(٨٣)

ولأحدهم في الموازنة بين العلم والمال :

خليلي أفن العمر غير الممدد — على نشب ان منه أنفقت يزدد
ولا تفنين العمر في كسب ما اذا — بخلت به تذمم وان جدت ينفد

ويقول يقوى الفاضلي (١٣٠٤ هـ/١٨٨٨ م) في الفخر بقومه :

فلا بالمـــال فخرهـــم ولكـــن   بتحريـــر العلـــوم وبالـــقضاء
وتفريـج الكـروب عن الموالـــي   واسداء الجمـــيل بلا جزاء[٨٤]

ولمحمد ابن فتى في هذا المعنى أبيات ضمن فيها بيتين لسيدي عبد الله بن محمد سبق الالمام بهما :

تقول أميم الكتب دع واسع للغنى   غنى الكتب دون المال غير مفيد
فقلت دعيني أنظر الكتب ساعة   ألم تسمعى أبيات عمى سيدي :
(اذا جلت فكرا في العلوم عويصها   وجئت ما يشفي غلـيل عميـد
تصاغـرت الدنيـا لديّ وأهلهـا   ومادت بي الافراح كل مميد)[٨٥]

وإذا كان العلماء يحتقرون الاثرياء الجهلة كما رأينا، فأنهم قد يجدون جزاء ذلك قوما لا يعبأون بالعلماء، فتزداد نقمة هؤلاء على الدنيا وأهلها الذين لا يقيمون وزنا للعلم وأهله.

وقد نزل العلم بن أحمد فال، وهو من هو علما وشعرا، بدكانه، قرية على نهر السنغال، اتخذها الفرنسيون قبل الاحتلال مركزا لتجارة الصمغ مع الامارات الحسانية ولم تكن مثل مراكز التجارة الصحراوية التي زاوجت بين التجارة والثقافة.. وجد العم سوق الكندر نافقة وتجاره مكرمين مقربين يفرش لهم ويقرون، ولم يكن تاجر صمغ وإنما كان أديبا عالما فلم يجد من يعنى به، فأنشد من انشائه :

أما واليعملات من المطايـا   ومكنون المحاسن من حذام
لمن ريب الزمان ومعتداه   مقامي في «دكان» بلا مقام
كأني في المحافل «واوعمرو»   وهمز الوصل في درج الكلام[٨٦]

ويقول الشيخ محمد حامد بن آلا الحسني (١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م) في تهكم لاذع ممن يطلبون المجد بغير العلم، موردا الأمر في صيغة النهي :

أيا قاصدا شأو الألى علوا اتئد   اذا كنت تبغى تكسب المجد والفخرا
فلا تنتسب للغـرّ من آل هاشم   ولا الشم من لخم ولا مضر الحمرا
ولا تنضينّ البزل في طلب العلى   اذا قطعت قفرا رميت بها قفرا
ولا تقدم الرايات في كل مشهد   لتوردها بيضا وتصدرها حمـرا
ولا تغترب تنحو مدارس تيرس   ولاتلف يوما تنتحي «الكحل والصفرا»
ولك اجمع الاموال وابخل بفضلها   ولا تعط ذا قربي ولا تجبرن كسرا
فإن كنت من عرب فأنت ابن منذر   وان كنت فرسيا فأنت اذا كسرى
وأنت اياس وابـن قيس وحاتـم   وأنت حكيم من يدب على الغبرا[٨٧]

ولتشجيع التعلم ابتدع المجتمع المحضري نظرية تقول ان دماغ الانسان يتكون من كمية هائلة من الثقوب، التي تنسد وتنفتح، تبعا لمستوى البلادة أو الذكاء عند الانسان فالذي يدرس كل يوم، ويستفيد كل يوم جديدا تظل ثقوب دماغه تتفتح، فيزداد ذكاؤه وفهمه بازدياد علمه، أما اذا توقف عن التعلم فان هذه الثقوب تأخذ في الانسداد تدريجيا حتى يعود المرء الى الدرك الاسفل من البلادة. وهي نظرية تربوية ذات مغزى واضح، لكن لها مصداقيتها أيضا من الناحية الفزيقية في كثرة عدد خلايا الدماغ (١٠ مليارات خلية) كما أنها صادقة فيما تشير اليه من أثر الدربة والتجربة في تطوير الموهبة. والنظريات العلمية اليوم تقول كلاما شبيها بكلام المحضرة، فهي تعتبر أن كل انسان يولد بطاقة وافرة من الذكاء، لكن التقصير في استعمالها وعدم اتباع المنهج السليم لذلك ينزل بالطاقة الفعلية المستعملة الى أقل من ١٠٪ عند أغلب الناس.

وكان الشناقطة يراعون هذه النظرية ويحرصون على تعلم الجديد في كل يوم جديد، وقد سموا تعطيل الدراسة «غبا» يقولون : فلان «غب» اذا لم يكتب درسا جديدا، ولو كرر دروسه السابقة، وفي ذلك احالة الى مدلول الكلمة في حياة البادية، يقولون ان الماشية «غبت» اذا لم تشرب يومها[٨٨]، فكأن الذي لا يدرس ظمآن لا يرد الماء، وهكذا كان العلم عند هؤلاء، وقبل أن ينادي بذلك طه حسين حقا وواجبا وضرورة حياتية مثله في ذلك مثل الماء والهواء.

وقد آتت هذه الدعاية المكثفة أكلها فأقبل الشباب على ارتياد المحاضر، ولم يلبثوا أن ألفوها وأحبوها حبا جما، فانشدوا اليها برباط عاطفي وثيق.

حب ورهبانية علم :

لقد كان في الحياة المحضرية كد وشظف عيش، وعناء كبير. ورغم ذلك فقد استأنس بها الشناقطة، وأحبوها حبا جما تهون في سبيله كل التضحيات.. أحبها قوم كثير من قلوبهم، فدعوا اليها «رهبانية علم» فاقتدى بهم آخرون لم يرضوا بالتخلف عن الركب فالتقى الركبان في رحاب المحضرة : بين صب يأتي صعاب الحياة وصعاب الفنون بقلب العاشق الولهان، لا تثنيه المكاره عن إنقاع غلبته.. وصابر مصابر أدرك أن قيمة الانسان هي قيمة علمه، هي مستواه الثقافي، فرجح مصلحته على راحته وشمر عن ساق الجد في سبيل اكتساب العلم كما يرضى أن يفعل في اطلاب الماء والخبز.

ومن حب المحضرة، ما خامر القلب في الصبا، فصادف قلبا فارغا فتمكن.

كان محمد فال بن متالي يتردد في طفولته على أحد العلماء ليدرس عليه مختصر ابن أجروم، في النحو، ولكن هذا العالم لم يكترث به، وكان يعني بغيره من الطلبة الكبار، فضاق صدر الطفل وبكى كثيرا فانفتحت له أبواب المعرفة من ذلك اليوم.

وإذا كبر الطفل برزت عواطفه وتوهجت ولكنه يتعلم ـ وماطر شاربه ـ أن يصون هذه العواطف ويضحي بوصال الأحبة ولا يمد عينيه الى متع الحياة ما لم يقض من العلم وطره. وهذا مضمون دعوة الشيخ سيديا الكبير :

ومن كان ذا لوح وهم وطاعة ... فلا يدن للمستصبيات اللواعب
فما أفسد الألواح والهم والتقى ... كبيض التراقي مشرفات الحقائب(٨٩)

وقد دأب مشايخ المحضرة وعلماؤها على تحذير الطلبة الشباب من الانجراف وراء الهوى والسقوط في شرك الغواني، وكانوا يعرضون عمن ينقل اليهم عنه الاشتغال بما يلهيه عن ابتغاء العلم، يعتبرون إعراضهم عنه عقابا أليما له.

وقد حدث مثل ذلك لمحمد مولود بن أحمد فال (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م) وهو في المحضرة، اذ نمى الى شيخه عنه ما لا يسره، فأعرض عنه، حتى كتب اليه يعتذر :

همنا العلم لا مراض الجفون ... لا تظنوا مرجمات الظنون
إن هزلا أقوله في المجون ... لمعين على صعاب الفنون

وعلى هذا السبيل يطرد محمد ابن السالم (١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م) طيف محبوبته وقد ألم به في «محضرة» شيخه أو «حضرته» :

أهلا وسهلا بطيف الخود فاطمة ... لكن ربقة آل الشيخ في عنقي
طافت بنا بعد تهجيع فقلت لها : ... بنت الكرام ألا لا وصل فانطلقي
لو كنت أصبو إلى خود لكنت ولكن ... ليس وصل الغواني اليوم من خلقي
ما حضرة الشيخ ملهى عاشق كلف ... ولا الكلى والعجى يجمعن في شدق

وكذلك يقول محمد عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك بن اليمين الكناني، وهو في محضرة «الصفراء» :

أبى لي أن أصبو الى الخرد الدهرا ... وأن آلف النوم الخيال من«الصفرا»
ترفعت عن وصل الخرائد برهة ... وآلت لي«الصفرا» قطعت لها الامرا
فسلمت مقهورا ببرح غرامها ... كما فعلت قبلي بكل فتى قهرا
بها فتية آووا طريقة مالك ... كما مالك آوى طريق أبي الزهرا
كأنهم وهنا من الليل ركعا ... عراجين جنات حمتها السرا هصرا
فذا قائم يبكي وذاك مؤذن ... وذي فتية تقرا وذي أضيف تقرى(٩٠)

وهذا محمد ابن فتى يعرب عن لواعج شوقه الى الحبيبة، ولكنه يعتذر لها أو لنفسه عن الوصال ما لم ينقع غلته من العلم :

بلغ سليمى وبلغ من يبلغها ... عني فكم قائل عن فاعل نابا
أني الى وصلها هيمان مدلع ... أكفكف الدمع تهياما وتسكابا
وكيف يرجو وصالا من مخدرة ... في مخدع الدار من لم يفتح (البابا)

وفي البيت الاخير اشتراك بديع، «فالباب» مصطلح يطلقه الطلبة على الجزء الثاني من مختصر خليل ـ يريد الشاعر أن يقول أن من لم يقرأ المختصر لا يستطيع أن يفرغ لعواطفه(٩١) وتسلى أحد الشعراء بهينمة التلاميذ، وهم يقرأون دروسهم ويكررونها عن المحاورة مع الحبيبة والتمتع بأهازيج المغنين :

فما دعد تحاور بالكلام ... ولا صوت الخلاخل في الخدام
ولا عبد الودود بدين دانت ... يشابه حسن هيمنة التلامى(ذ)(٩٢)

ويخاطب محمد بن حنبل لوحه، وقد طوى فيه كل عواطفه وأشواقه، فيقول :

رب خود ماء النعيم عليها ... جريان الزلال في الصفاح
تستبي المرعوي بثغر الاقاحي ... وجبين مثل انبلاج الصباح
وعلى ثغرها بعيد كراها ... قهوة الراح بالمعين القراح
في عقود الجمان والدر منها ... جيد جيداء من ظباء رماح
خدلة غصّ قلبها وبراها ... غصص المرط فهي غرثي الوشاح
لا تبالي هب الرياح اذا ما ... أشفق الرسح من هبوب الرياح
أقصد القلب من صميم هواها ... فعل نبل صوائب ورماح
قد تسليت عن رسيس هواها ... بك حتى كأنني جد صاح
بل يمينا بواردات البطاح ... يتبارين ضمرا كالقداح
بعد ليل سرينه بعد يوم ... تصل الهجر بانسلاب الرواح
أفتأ الدهر هاجرا للغواني ... ووصولا للكتب والألواح

وكان الشيخ محمد الأمين الجكني في المحضرة يطلب العلم عندما اقترح عليه بعض أصدقائه الزواج، فرد شعرا :

دعاني الناصحون الى النكاح ... غداة تزوجت بيض الملاح
فقالوا لي تزوج ذات دل ... خلوب اللحظ جائلة الوشاح
تبسم عن مؤشرة رقاق ... تمج الراح بالماء القراح
كأن لحاظها رشقات نبل ... تذيق القلب آلام الجراح
ولا عجب اذا كانت لحاظ ... لبيضاء المحاجر كالرماح
فقلت لهم : دعوني ان قلبي ... من الغي الصراح اليوم صاح

ولي شغل بأبكار عذارى ... كأن وجوهها ضوء الصباح
أراها في المهارق لابسات ... براقع من معانيها الصحاح
أبيت مفكرا فيها فتضحى ... لفهم الفدم خافضة الجناح
أبحت حريمها جبرا عليها ... وما كان الحريم بمستباح(٩٣)

وهكذا كان من أهل المحضرة قوم يتخذون طلب العلم رهبانية فيعزفون عن متع الحياة وشئون الصبا والشبيبة منقطعين الى اللوح والكتاب حتى يقضوا من الدراسة أربهم ثم هم، بعدُ، مدمنو علم وتعلم يؤدون ما للنفس عليهم من حق دون أن تستهويهم عواطفهم فتصرفهم عن مواصلة التعلم.

وهذا يقوى الفاضلي يتخذ من الكتاب ضرة للحبيبة وله الى كل منهما حنين شديد لكنه يقسم بينهما بالعدل والسوية :

ان لي ساحرين في ذا المكان ... بابليين جل ما سحراني
دررا لابن خلكان وظبيا ... يتحرى الظلام بالاتيان
فنهاري أظل فيه جليسا ... لبني برمك وآل المدان
وضجيعي في الليل ظبي جميل ... حسن الدل فاتر الأجفان(٩٤)

ثم يتقدم الزمن بالرجل، فتتحول مرابع المحضرة الى أطلال يبكيها، وأيامها الى ذكريات يستدعيها فتدعى اليه بمزيج غريب من الفخر والشوق والمرارة.

فمن قبل كانت المرابع والرسوم تزدان بالمحضرة كما تزدان بمنازل الأحبة، فاذا حلت المحضرة تلا من التلال، أو سهلا من السهول حلت الارض بها من القلب محل المحبوب.

وقد وصلت محضرة «الصفراء» في ترحالها مرة الى «بوطلحاية»، موقع من مواقع البادية فأنشأ أحد شعرائها يهنىء البلدة بنزلائها :

ألا فرحت بلاد تويرسات ... بأن الحي قد نزلوا لداها
وحلوا «ذا السيالة» فاستنارت ... غياض الأرض وابتهجت رباها

واذا غاب طالب المحضرة أخذ بالحنين الى أعرشتها وخيامها وهو يودعها ملتاعا كما ودع ابن زريق بغداد وحنَّ اليها وقد شطت به الدار وضاقت به الحال.

يقول أحد شعراء المحضرة :

أستودع الله أقواما تركتهم ... عند «الصفيراء» لا أبغى بهم بدلا
ما بين حبر يبث العلم مشتغل ... ومن تراه بنيل العلم مشتغلا
الله بارك فيما الله أودعهم ... من اقتفائهم من يقتفى السبلا

وربما استدعى أحدهم ذكريات المحضرة ليخفف من همومه وأشجانه ويروح عن قلبه فمحمد بن السالم الذي أضنته العزلة ذات مرة لم يجد بجانبه إلا كلبا لا يحسن الاصغاء للشعر، فخاطبه بأبيات انتهى فيها الى استدعاء أحلى ذكرياته، فكانت ذكرى «مغازلة جماء العظام»، ولكن بعد أن تذكر مسامرات طلبة العلم «لهم كتب وألواح» :

ان يطرحوني أرضا لا يصاحبني ... الا ألص هريت الشدق نباح
فقد يسامرني في مجلس عطر ... شم الانوف لهم كتب وألواح
وقد أغازل جماء العظام على ... أنيابها العنبر الهندي والراح

ولما كان العلم من المآرب التي يقضيها الشباب في رحاب البادية أخذت الاطلال والدمن والرسوم البالية عند الشناقطة بعدا آخر، فهي لم تعد ديار ليلى وعزة وزينب فحسب ولكنها أصبحت كذلك ديار المحضرة. وللمحضرة في نفوسهم مكان مكين، زادوا به الارض حبا على حب واثارة على اثارة.

وهكذا ولد ضرب جديد من البكاء على الاطلال هو «نسيب محضري».

ومن ذلك أن حرمة بن عبد الجليل (١٢٤٣ هـ/١٨٢٨ م) مر على عرصات كانت حينا من الدهر مثابة لطلبة العلم الوافدين الى محضرة شيخه المختار بن بونه، فأنشد يبكي ويندب ويستعيد ذكريات غالية عليه :

دمن دعتك الى القريض فان تجب ... فلمثلها يهدى القريض ويندب
واذا سكت عن الجواب لعبرة ... فاضت فذاك من الاجابة أصوب
أما النسيب فلا يسوغك ذكره ... عصر المشايخ والتعلم يعذب
كنا مع البوني في عرصاتها ... هالات بدر لم يشبها غيهب
فيها تجمع سيبويه ويوسف ... والكاتبي والاشعري وأشهب
شاقتك أطلال بلين لهم وما ... شاقتك سعدى اذا نأتك وزينب(٩٥)

وحسبك أن حرمة هذا هو القائل (وإن في مقدمة غزلية) :

لا يصدر الطرف عن جيدا منعمة ... إلّا امرؤ لم يكن في وجهه بصر

ويقول الشيباني بن محمد بن أحمد، في شجرة عوسج كان وزملاؤه يستظلون بها للمذاكرة، أيام الدراسة المحضرية فقطعها أحد الرعاة :

ألا هل فتى يا نادى الحل والعقد ... يكف أكف الظلم ساع الى الرشد
يلينا من ابن الشيخ قسطا فانه ... أتانا بأمر من خنى مكره اد
لنا عوسج كنا ضحى نستظله ... ازاء مكان لا شموس ولا مند
جدتها، وكانت ذات زهو ونضرة، ... قدوم لنجل الشيخ صارمة الحد
ولا ذنب منه جذها غير أنها ... لها ثمر أحلى لديه من الشهد(٩٦)

وبالجملة فقد رعى الشناقطة عهد المحضرة، شغفوا بها ولما يصلوها، وزادوا بارتيادها حبا لها، وودعوها حزانى ملتاعين، وتذكروها فلم ينسوها، وبكوا أيامها وآثارها حتى الاطلال والأشجار.

وما كان ذلك منهم إلا لمحاضر البادية، خلافا لشعراء الأندلس والمشرق الذين أفرغوا جذوة حبهم وشوقهم على الحواضر العامرة.

في بلاد شنقيط لم تتسور الحواضر الجميلة على الشعراء قلوبهم، ولم يغز وجدانهم غير هذه النضائد التي ينصبونها في لحظات ويقوضونها في لحظات والعرصات يسفى عليها السافي، تبقى تذكارا للوح والكتاب والدواة ومسامرات الطلبة، فلا تنفك حية تثير لواعج الشوق وان تعاورتها الرياح وعفى عليها الزمن.

لقد كان حريا بهذا الحب أن يغدق ويثمر فتزداد به المحضرة علو شأن.. وكذلك كان.

٣ ـ تجارة الصحراء والبحار

لم يكن في الصحراء قديما من الحيوانات التي تستخدم في نقل البضائع إلا الحمير والثيران. وابتداء من سنة ١٠٠٠ ق. م دخل الحصان وتطور النقل عليه باستخدام العربات التي تجرها الخيول، وتوجد على جبال المنطقة رسوم قديمة لهذه العربات.

أما سفينة الصحراء الأرفع شأنا، فقد تأخر وصولها. يقال أن الجمل دخل مصر سنة ١٠٠٠ ق. م قادما من شبه الجزيرة العربية(٩٧)، ولكنه تأخر قرونا كثيرة في الوصول الى منطقة الصحراء المطلة على المحيط، فلم يدخلها إلا في القرن الأول أو الثاني أو الثالث الميلادي على روايات مختلفة.

وبدخول الجمل حدثت ثورة في وسائل النقل عبر الصحراء. ولم تعد المهامه والقفار والرمال الزاحفة حواجز عازلة. لقد حطم استخدام الجمال العربية ذات السنام الواحد كل هذه الحواجز وتحولت الصحراء الى معبر للقوافل، وقامت في مناطق مختلفة منها محطات تجارية مزدهرة منها في بلاد شنقيط : أوداغست وغانه (كومبى صالح) وأزوكي وولاته وتيشيت وودان وشنقيط.

وقد نشطت حركة القوافل عبر الصحراء منذ القرن الثاني الهجري، مستفيدة من الآبار التي حفرها الفاتح العربي المسلم عبد الرحمن بن حبيب أو حبيب نفسه ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع. وتعددت مسالك التجارة وطرقها عبر الصحراء فكانت منها الطرق التالية :

- طريق قديمة تربط بين غانة ومصر أهملت في القرن ٩ م بسبب انتشار اللصوص ووعورة الطريق.
- طريق قلم ـ ولاتة ـ السوس ـ مراكش.
- طريق تامدولت ـ أوداغست، وكانت حية مزدهرة على عهد الادارسة بالمغرب.
- طريق قلم ـ تيشيت ـ ولاته ـ تمبكتو ـ توات ـ فزان ـ الاسكندرية.
- طريق سجلماسة ـ ولاته ـ تمبكتو وجنه وغاو، وكان مزدهرا في القرن ١٥ م.
- طريق سجلماسة ـ أودغست، وقد وصفها البكري في كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب» وقال ان المسافة بين الحاضرتين ٣ أشهر.
- طريق وادي درعة ـ أزوكي ـ نهر السينغال، وكان حيا في القرن ١١ م، وقد استخدمه المرابطون في زحفهم الى المغرب.
- طريق ساحلي ينطلق من وادي درعة بالمغرب، ويسير بمحاذاة المحيط الأطلسي في اتجاه سبخة آوليل، شمالي تكند الجديدة (نحو ١٠٠ كلم جنوبي نواكشوط).

كانت القوافل تنقل العبيد والذهب والذرة البيضاء من الجنوب (بلاد السودان وافريقيا السوداء) الى الشمال. وتنقل الملح والمصنوعات النحاسية والحلي وأدوات الزينة والخيل وسرجها والعطور والقمح والزيت والمنسوجات من الشمال (بلاد المغرب العربي) الى الجنوب.

ونجد نموذجا للشركات التي كانت تسهر على التجارة الصحراوية في شركة أبناء المقري، وهم خمسة إخوة من أهل القرن الرابع عشر، جمعوا مالهم فجعلوه شركة بينهم وكانوا يقتسمون الأرباح بأنصبة متساوية، وقد توزعوا على المراكز التجارية، فكان عبد الواحد وعلي مقيمين بولاته وأبو بكر ومحمد بتلسمان وعبد الرحمن بسجلماسة، وكانت هذه الشركة تقوم بخدمات أمنية لتأمين طرق القوافل ودرء خطر اللصوص، وساعدتهم في مهمتهم التجارية علاقتهم الطيبة بملوك مالي(٩٨).

ولعل الصحراء كانت مرتبطة تجاريا بالأندلس في عهد مبكر، فقد تحدث البكري عن وجود أشجار الصمغ الذي يجلب الى الاندلس قرب أوداغست(٩٩).

ورغم أن يحي بن ابراهيم وصف تجار الصحراء بالجهل في حديثه الى أبي عمران الفاسي، فاننا لا نستطيع الأخذ بهذا الوصف على اطلاقه، فقد كانت القوافل تنطلق من والى مراكز اشعاع ثقافي وعلمي بارزة مثل سجلماسة وتلمسان وفاس والاسكندرية. وكان يسير في

هذه القوافل رجال أخذوا من العلم بنصيب فلا مناص من أن تكون بضاعتهم ثقافية أيضا لا تجارية صرفا وقد رأينا البكري وابن بطوطة وغيرهما من الرحالة يتحدثون عن آثار العلم في المدن القديمة التي كانت محطات للقوافل مثل ولاتة وأوداغست. أما تيشيت وودان وشنقيط فقد كانت من أول يوم تؤدي وظائف ثقافية بارزة، فلا جرم أن تستعين عليها بوظائفها التجارية.

ومما يشهد لذلك ما يراه أحمد بابا التمبكتي وغيره من المؤرخين الذين يردون الى القوافل ـ وقد سار فيها الدعاة والعلماء ـ الفضل الأول في فتح بلاد السودان وزرع الاسلام فيها.

ولكن من المسلم به أن الصبغة التجارية ظلت طاغية على حركة القوافل عبر الصحراء الى أن انفتحت للتجارة مسالك أخرى عبر المحيط، عندئذ ضعفت حركة التجارة عبر الصحراء ولكن الحركة الثقافية استمرت في التطور والنماء، حيث تمحضت الأغراض الدينية والثقافية أو انطبعت بها الرحلات والاسفار نحو الشمال كما لم يحدث قط وازدادت في هذه الحقبة حركة **الهجرة البشرية نحو الجنوب**، فكانت رفدا للحياة الثقافية.

ولقد أثر تهديم سجلماسة في القرن ١٥ م على التجارة الصحراوية فكان من عوامل **انحطاطها**. وكذلك كانت هجرة القبائل العربية الى الصحراء وسيطرة الاتراك العثمانيين على مناطق من شمال افريقيا(١٠٠)، لكن الضربة القاضية على تجارة الصحراء جاءت من البحر على أيدي الأوربيين، فقد كانت البضائع والسلع الافريقية وخصوصا الذهب والعبيد تمر عبر الصحراء فتصل ضفاف البحر الأبيض المتوسط متأخرة، مما أثار في البحارة البرتغاليين الرغبة في الاقتراب من هذه السوق المغربية، فضلا عن تطلعهم الى طريق تجاري يصلون به الى الهند دون المرور بالبحر الأبيض المتوسط(١٠١).

وهكذا بدأوا يبحثون عن منافذ عبر الأطلسي فاتجهوا الى شواطىء بلاد شنقيط ففي سنة ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م، أرسى البرتغاليون سفنهم على سواحل الأطلسي الشنقيطية، وفي سنة ٨٤٢ هـ/١٤٤٨ م، أقاموا مركزا تجاريا في جزيرة أرغين (أغادير دوم) الى الجنوب الشرقي من مدينة أنواذيبو، وذلك بعد أن خاضوا عدة معارك مع السكان العرب، وتوغل البرتغاليون في البلاد فوصلوا الى اطار وأقاموا عدة مراكز تجارية منها مركز في حفرة ودان أسسوه سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م واستمر سنتين الى أن أغلقه السكان(١٠٢). وكان البرتغاليون يقايضون بضائعهم بالملح وبالصمغ العربي اللذين تنتجهما الصحراء، وكانت أوروبا بحاجة اليهما والى الصمغ العربي خاصة، فهي تستخدمه في صناعة النسيج. وفي سنة ٩٨٨ هـ/١٥٨٠ م، خلف الاسبان البرتغاليين في تجارة الشواطىء، ثم وصل الهولنديون سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٨ م، فحاولوا احتكار استيراد الصمغ، بينما بدأ الفرنسيون ينافسون التجار الأوروبيين، انطلاقا من مواقعهم في السينغال المجاورة، وخصوصا في «أندر» (أو «سانلويس» كما يسمونها) التي تقع على الحدود الجنوبية الغربية لبلاد شنقيط(١٠٣). وكان الفرنسيون قد وصلوا الى السينغال وتمركزوا على النهر سنة ١٠٣٦ هـ/١٦٢٦ م، ونجحوا في استقطاب تجارة الصمغ التي تحولت من ميناء «هدى» Port Tendik الى أندر Saint Louis لكن الفرنسيين تراجعوا خلال الحرب النابليونية فحل الانكليز محلهم في السيطرة على نقاط التبادل التجاري مع

البيضان، ثم استعاد الفرنسيون مواقعهم سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م(١٠٤). وما كان هذا الصراع كله إلّا لأن التجارة البحرية استهوت السكان، فحدث هبوط في حركة القوافل وضعف في تجارة الصحراء. وقد تأثرت بتحول مسالك التجارة الدولتان المرينية والسعدية في المغرب، وكان تضرر تمبكتو من هذا التحول أكبر ـ ولكن نتيجته على الحواضر الشنقيطية لم تكن سلبية، كما أسلفنا، فقد ازدهرت شنقيط في هذه الفترة ولم تفقد ودان مركزها.

هكذا وطأت تجارة الصحراء للنهضة الثقافية في بلاد شنقيط حتى اذا هيمنت تجارة المحيطات استطاعت البلاد أن تحافظ على دورها الثقافي وتنميه متخففة من أعباء التجارة في مبادلاتها مع الشمال.

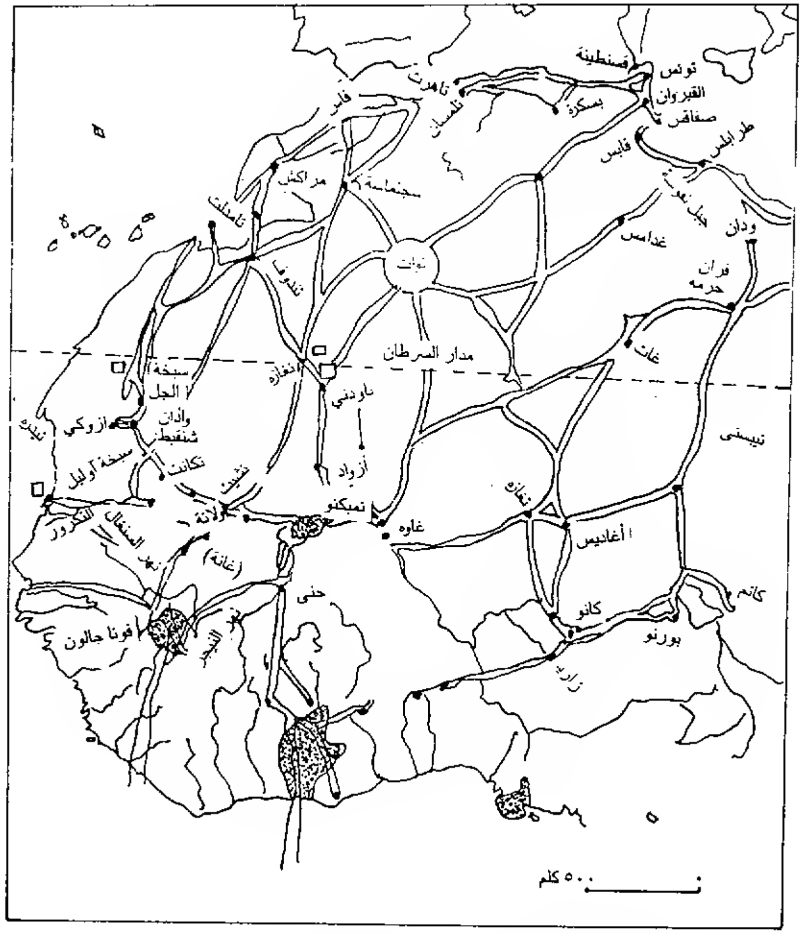

أبرز طرق المواصلات في شمال افريقيا وغربها خلال القرون الوسطى

سباخ الملح — مناطق تصدير الذهب

٤ ـ الهجرة إلى البلاد

كانت شنقيط في الحيز التاريخي الذي يهمنا مسرحا لهجرات عديدة من فئات شتى ولعل أبرز هذه الهجرات وأعظمها دورا سياسيا هجرة بني حسان من بني معقل في القرن الثامن الهجري.

لقد لفتت هذه الهجرة الانظار لأنها كانت نزوحا جماعيا لموجات بشرية ذات شوكة تركت آثارها حيث مرت واستوطنت الصحراء فحكمتها لأول عهدها بها. وقد تلقت البلاد هجرات أخرى من قبائل زوايا تحمل العلم، وقليلا ما تعنى بالحرب والسلاح، لكن هجرة هذه المجموعات ظلت شبه مجهولة لأنها لم تكن هجرة منظمة ذات حجم ووزن مثير للاهتمام، ولم تستهدف السيطرة السياسية.

ويحيط بهذه الهجرة العلمية أو الهجرات المتناثرة عبر القرون غموض واضطراب كبيران وهي في الغالب هجرة فردية أي أن فردا أو مجموعة من الافراد يتجهون الى البلاد فيستوطنونها فتتكون من سلالتهم بطون وقبائل ترعى عهدهم الديني والثقافي، ومن الأمثلة المبكرة على هجرة الزوايا : سيدي علي بن سيدي يحي (من سلالة عقبة بن نافع) الذي كان يخرج من توات الى المرابطين أيام دولتهم، وتزوج في الصحراء بنت محمد بن آلم بن كنت بن زم رئيس أبد وكل، فولدت له ابنه سيدي محمد الكنتي فنشأ في أخواله الصنهاجيين وقفل سيدي علي الى توات، وخرج سيدي محمد الكنتي الى سبتة فأخذ فيها عن أبي العباس السبتي، ثم عاد فاستوطن الصحراء ومعه تلامذته. وبها ولد له الشيخ سيدي أحمد البكاي من أم جكنية(١٠٥).

ووصل ودان الحاج عثمان والحاج يعقوب والحاج علي وعبد الرحمن الصائم.

وجاء الشريف عبد المؤمن الى البلاد، فأسس مدينة تيشيت، والتحق به بعد فترة زميله الحاج عثمان، من مؤسي ودان فأقام معه ودفنا بمسجدها، وكانا تلقيا العلم بمراكش عن القاضي عياض صاحب «الشفا» و«المدارك».

وأتى شنقيط مولاي أحمد الذهبي التلمساني والشريف الفاسي الشاب الشاطر، فنشرا فيها العلم.

وقد هاجر الى بلاد شنقيط الشريف مولاي ابراهيم بن مولاي عمار، وله ذرية في البلاد. كان مفتيا في كليميم، وكان يتنقل بين جنوب المغرب وآدرار ومنطقة القبلة وله شرح على قرة الأبصار في السيرة لعبد العزيز اللمطي(١٠٦).

وفي القرن الثامن الهجري نزح خمسة أفراد من تارودانت الى المنطقة الجنوبية (القبلة) من بلاد شنقيط ونزلوا «أكننت» قرب المذرذرة، فتحالفوا هناك على الصبر والتمسك بالقرآن

والسنة وصيانة الكرامة.. وأطلق على الرجال الخمسة وعلى ذريتهم من بعدهم اسم «تشمشه» وهي المرادف البربري لكلمة «خمسة» وهم : منهض أمغر جد أولاد ديمان ويدمس جد إذكبهنى وابهنضام جد اديْقب والفغ يديبال يعقوب جد اد الفغ ويداج جد ادوداي(١٠٧).

وفي القرن التاسع نزحت مجموعة من ادوعلى والاغلال من تبلبالت الى شنقيط. وفيه استقبلت ولاته شرفاء وعلماء قادمين من تمبكتو.

لقد رفدت هجرات الزوايا ـ على غموض تاريخها ـ حركة العلم والدين في البلاد. فتلك كانت رسالة الزوايا الأولى يحملونها أينما اتجهوا.

أما الهجرة الأوضح معالم وآثارا فهجرة بني حسان التي كتب عنها ابن خلدون وغيره من المؤرخين.. وقد عرفت هذه الهجرة بأنها هجرة قوم أولى باس صعاليك محاربين ذوي بطولات وصولات كبيرة. ولم يؤثر عن هؤلاء «العرب» أنهم كانوا حملة علم أو دعاة الى الدين وان كانوا قد خدموا العلم والدين خدمة جلى بتعميم الحسانية التي كانت ـ على حد تعبير الشيخ محمد المامي «قنطرة أهل هذه البلاد الى الفصحى»(١٠٨) وبالفصحى تعلموا وعلموا ودعوا الى الله.

لقد كانت القبائل الحسانية المهاجرة قبائل محاربة تجيد حمل السلاح والمبارزة فتلك لا ريب ـ سمتها المميزة ووظيفتها الكبرى. ومع ذلك فمن غير المستساغ اعتبارها قبائل أمية جاهلة ليس للعلم فيها مكان، ومالها في نشره من دور إلا تمهيد السبيل للغته.

ان نسبهم الجعفري الذي يتشبثون به ويشهد لهم به علماء البلد، ورحلتهم الطويلة في بلاد العروبة والاسلام واحتكاكهم بمراكز العطاء الثقافي عوامل ترجح كلها أن لا يكونوا جزيرة معزولة في البحر الخضم الزاخر بالمعارف، فلا بد أن يكونوا قد حملوا من العلم وورثوا منه أو تكون العدوى سرت اليهم من الجيران وأبناء العمومة الذين ولوا وجوههم شطر العلم، ولدينا من الشواهد التاريخية ما يثبت أنهم كانوا على جانب من العناية بالدين والعلم، وكانوا يحتمون بالعلماء ورجال الله كما يحتمي بهم الزوايا.

حسبك أن أولئك الذين خاضوا «شرببه» ضد الزوايا، كانوا يستندون في خوضهم هذه الحرب الى فتوى من بعض العلماء، وسواء أخطأ المفتي في ذلك أم أصاب، فان رجوعهم اليه يوحى بعناية بالعلم لا تبدر ممن هو ناد عنه محتقر له. وقد كان الفاضل بن باب أحمد وبارك الله بن يزيد ومحمد بن المختار بن الأعمش ضد الحرب، وكانت قبائل علم أخرى تعتز لها.

ومما يذكر أن سيدي محمد الكنتي، وهو من أهل الشأن في مضمار الثقافة الدينية كان حليفا لهذه القبائل إبان اجتياحها أرض شنقيط.

وقد ساعد أهل الشيخ القاضي الأجيجبي عثمان بن لفظيل معنويا في طموحه للامارة. ولعل لهم دورا، وهم في منطقة لبراكنه، في إعداد أخواله الذين كانوا يحكمون المنطقة لنجدته بجيش

واجه به ابن عمه عبد الرحمن بن حمّو بن غراف فانتصر عليه وانتصب على سدة الامارة في آدرار(١٠٩).

ولن تكون علاقة العالم سيدي عبد الله بن محمد العلوي بالامير المقاتل على شنظورة المغفري مجرد علاقة تكامل بين حامل قلم وحامل سيف. لقد ظهرت بصمات مغفرية على سيدي عبد الله بن محمد الذي كان متشبعا بقيم البطولة والرجولة وروح الزعامة، ولعل علي شنظورة كان على نصيب من العلم يبرر جانبا من هذه الصداقة أو يصونها. ولسنا نجد لروائع سيدي عبد الله ومحمد اليدالي في مديح أمراء بني حسان ورثائهم مبررا لو كانوا يخاطبون بها أعاجم لا يحسنون الاصغاء للشعر الفصيح ولا يملكون من البضاعة المعرفية ما يزنونه به ويعجمون عوده.

وفي اسلام سكان قرية غابونية وثنية على يد الأمير البركني المختار بن محمد بن سيدي محمد الذي نفاه الفرنسيون في أواسط القرن التاسع عشر ما يؤيد ما ذهبنا إليه(١١٠).

فلو لم يكن هناك رصيد وإن قل من الثقافة الدينية، وأساس من الايمان والاعتناء بالعلم لما سهل على أمير مغفري أن يتحول الى مرشد داعية الى الله.

ويحدثنا التاريخ عن الاميرة العالمة خناثة زوج السلطان مولاي اسماعيل. هذه الاميرة هي بنت أحد أمراء المغافرة في بلاد شنقيط (بكار بن عبد الله) وكانت لها تقييدات على هوامش الاصابة لابن حجر. ولن تكون بدعا من نساء قومها، فضلا عن رجالهم.

وقد وصف محمد باه الأمير أحمد بن محمد (آدرار) بأنه حافظ للقرآن، عابد. كان من الأسر الحاكمة في امارته أسرة أهل بوبوط، وهي أسرة ذات يد في العلم والمعرفة(١١١).

وقد تربى سيدي أحمد بن أحمد بن سيدي أحمد بن عيده (أمير آدرار) عند ماء العينين، فأقام عنده خمس سنوات قبل أن يعود الى بلده فيخوض الجهاد(١١٢).

وذكر صالح بن عبد الوهاب الناصري في «الحسوة البيسانية» ٣٥ عالما من علماء بني حسان ممن سبقوا عهده ولم يحط بهم عدا. ومن أبرز العلماء الحسانيين، صالح بن عبد الوهاب نفسه والمختار فال بن ابراهيم فال البركني، المتوفى حوالي سنة ١٣٣٢ هـ وشيخنا بن بونه اليونسي، المتوفى سنة ١٢٠٧، ومحمد يحيى بن سليمه اليونسي، المتوفى في ٢٢/١٢/١٣٥٤، والحاج الحسن بن آغبد الداودي، الذي ترجم له فتح الشكور(١١٣).

وهكذا نخلص الى أن الهجرة الى بلاد شنقيط، وأيا كانت طبيعة المهاجرين، قد رفدت الحياة العلمية في البلاد وساعدت على قيام «المحاضر» وازدهارها كمؤسسات تربوية بدوية ناجحة.

٥ ـ الحروب القبلية

كانت الحرب أيام المرابطين جهادا في سبيل الله تخوضه قوة اجتماعية منظمة متآزرة متآلفة. ولم تنتقض دعائم دولة الملثمين حتى أخذت الحرب مسارا جديدا فعلى مر القرون ظلت القبائل تتناحر في الصحراء، لا وازع لها ولا رادع، فاذا لم تجد القبيلة من تحاربه حاربت نفسها، فانشطرت فريقين يختصمان ويقتتلان. وحين دخل العرب لم تضع الحرب أوزارها بل ازداد لهبها واشتد أوارها بما جد بينهم من حروب طاحنة وبحروبهم مع الزوايا، وبمزيد من حروب الزوايا، فيما بينهم، فلم تزل هذه «البلاد السائبة» تكتوي بنار الحرب، تتمزق وتتناثر أشلاؤها حتى وجد بعض الفقهاء ـ عن حسن نيّة طبعا ـ أن لا بد من قوة تردع الناس فتحقن الدماء، وإن كانت قوة معادية، ولشدة ما ذاق الناس بعضهم بأس بعضهم كان منهم من استمرأ طعم الاستعمار، لأنه كان يملك العدة والعدد والقوة الرادعة التي مكنته ـ وإن مكنت له في الأرض ـ من تجريد الناس من السلاح وكسر شوكتهم، فكان من فوائد ذلك ـ على علاته ـ أن كفى أهل البلاد بأس بعضهم، أو انتقصت معاناتهم من الحروب الأهلية بدرجة بينة.

وكانت للحروب الطاحنة أسبابها، وان بدت الحرب ظاهرة اجتماعية لصيقة بالمجتمع الصحراوي حتى كأنها جبلة فيه، لما غلب عليه من حب الحرية والنفوذ الذي يضمنها. وهكذا لم تكن الحرب تحتاج الى أسباب وجيهة لتندلع، فقد تعود أهل الصحراء إضرام النار بدون شرارة بل بمجرد الاحتكاك بين الأخشاب الباردة.

ولعل أكثر الأسباب وجاهة أن تقع الحروب بين بني حسان بسبب التنافس على غلة زراعة النهر وتجارة المحيط وأن تقع حروب الزوايا بسبب النزاع على الماء والمرعى وملكية الأرض الحية(١١٤).

وربما كانت الأسباب تافهة، أهون من متاع الدنيا كملاحاة بين رجلين أو هزل يؤول الى جد قاتل أو نزاع على رقعة من الأرض الموات، وهذه نماذج من أسباب الحروب المدمرة :

- جمل يورده صاحبه الماء فيضربه بعض أهل الماء ليصرفه عنه فيؤول الخصام الى أن يتضارب الرجلان ثم الى أن تتقاتل القبيلتان.
- شاب غر يعترض طريق المارة في زقاق ضيق، ينصب رجليه بوابة لا يسمح بالمرور إلّا من تحتها تمر فتاة فتكسر ثنيتها فيقتتل الناس.
- شاب مدلل فخوربنفسه،من أسرة مستضعفة كانت تأتيها الصدقات، فغاظه ذلك فاتخذ كلبة وذهب بها الى المذبح ليطعمها من لحم جزور أو ذبيحة ما كان صدقة لأسرته، يقتلها صاحب اللحم، فيقتله الشاب، فيقتتل الفريقان حتى يبيدا.

وقد تكون الحرب قبلية داخلية يصطرع فيها طرفان ينتميان لنفس القبيلة أو المدينة، مثل

حروب أولاد امبارك فيما بينهم ولبرابيش وأهل يحي بن عثمان وادوعيش، ولبراكنة، وأولاد أحمد ابن دمان، وأهل تنيكي في القرن العاشر وادوعلي أو أهل شنقيط فيما بينهم، وأهل ودان وأهل ولاته (الشرفاء) وادغ ماجك، وتندغه وتاكنيت.

وقد تكون الحرب بين مدينتين فتشترك فيها تجمعات قبلية، مثل الحرب التي دارت بين شنقيط وودان سنة ١١٥٥ هـ/١٧٤٢ م ابان قيام امارة أهل «يحي بن عثمان» في آدرار(١١٥).

وتدور أغلب الحروب بين القبائل أو البطون، فينقسم فيها الناس على أساس سلالي متمحض، ومنها ما يكون بين قبائل وعشائر بني حسان، وإماراتهم، ومنها ما يكون بينهم وبين الزوايا، ومنها ما يكون بين قبائل الزوايا.

وقد دارت بين بني حسان حروب كثيرة ذكر صالح بن عبد الوهاب منها ٤٤ وقعة خلال قرنين و١٣ سنة(١١٦) من ذلك حروب :

- أولاد رزق والمغافرة ق ٩/١٠ هـ،
- أولاد داود ولبرابيش،
- أولاد علوش واجمان،
- أولاد امبارك وأولاد الناصر،
- أولاد يونس وشنان العروسي،
- أولاد عروق وأولاد محمد،
- ادوعيش وأولاد مبارك،
- أولاد السيد وأهل اكمتار،
- أهل عبللة وأهل آكتمار،
- نغموشة وأهل مانة الله،
- أولاد يحيى بن عثمان وأدوعيش،
- أولاد دليم وأولاد تدرارين،
- تغرجنت وادكباج(١١٧)،
- أولاد علوش وأولاد امبارك معاضد الطوارق.

ومن الحروب بين بني حسان والزوايا حروب :

- أولاد بالسباع وأهل يحي بن عثمان،
- أولاد بالسباع وأولاد دليم،
- أولاد بالسباع وأولاد اللب،
- أولاد بالسباع وادوعيش،
- العروسيين وتجكانت،

- أولاد الناصر وتنواجيو،
- مشظوف ولغلال،
- اجمان وتجكانت،
- أولاد غيلان والرقيبات،

وقد دارت حروب ساخنة ونزاعات بين قبائل الزوايا منها :

- تندغة ومدلش في القرن ٩ هـ أيام قدوم تشمشه،
- الاغلال وتجكانت،
- لمحاجيب وإديلب،
- تنواجيو والاغلال،
- تجاكنت وأهل سيدي محمود،
- اد وعلي والاغلال،
- أهل سيدي محمود وكنته،
- أولاد بالسباع وأولاد ابييري،
- تجكانت وكنته،
- تاكنانت وادغ زينب،
- اجيجبة وأولاد ابييري،
- اولاد ابييرى وتندغه،
- الرقيبات وتجكانت،
- كنته وأولاد بالسباع،
- ادوعلي واد ابلحسن،
- ادولحاج وماسنه،
- نزاعات أهل بارك الله وأهل بوحبيني على المياه(١١٨).

وكانت حروب المدن والقرى تنتهي بتشرذم سكانها فيخرج ملأ منهم مغاضبا أو مبتعدا بنفسه وذويه عن الفتنة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك حرب العلويين (ادوعلى) في شنقيط التي تميزت على ضراوتها، بمراعاة آداب رفيعة توحي بأنها ليست حرب أعصاب، بل هي حرب قوم أهل دين وعلم. وكانوا فئتين لقبت احداهما «البيض» ولقبت الثانية «الكحل» (السود). وقد قتل بتلك الحرب مائة وأربعون من «البيض» وكثير من «الكحل» قيل أنه تمام الاربعمائة وكانوا يقتتلون ليلا ونهارا، إلّا أنهم لا يغدرون فلا يقتل أحدهم الآخر إلّا في الصف، ولا ينهب بعضهم أموال بعض ولا يجهزون على الجريح ولا يتتبعون الفار. وكانوا يصلون في المسجد جماعة ويتناوبون القرى لضيوف المدينة على عادتهم أيام السلم(١١٩).

ورغم روعة هذه الآداب فقد كانت الحرب مدمرة، فككت أوصال القبيلة، فاضطرت القاضي عبد الله (١١٠٣ هـ/١٦٩٢ م) بن الطالب محمد بن حبيب العلوي للهجرة الى القبلة

(بوادي الجنوب) سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٦٠ م. وإنتقل البيض الى تكانت فأسسوا مدينة تجكجه وخرجت طائفة من الاغلال الى الحوض بنفس المناسبة.

وكانت قد حدثت موجدة بين الشماسيد والعلويين في شنقيط فخرج السماسيد سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م وأسسوا مدينتي أطار وأوجفت.

وكانت ودان دولة علم ودين ومال الى أن وقعت الحرب بين قبيلتي تفرله وتامكونه فهزمت تفرله ونزحت من المدينة(١٢٠).

* * *

ليس من البديهي اعتبار هذه الحروب حافزا من حوافز العلم، فقد فرقت بين الاخوة ودمرت المدن وقوضت أركان الدول وهلك فيها خلق كثير منهم العلماء والشعراء والكتاب، وقد تلفت ثروة الزوايا من المخطوطات في الحروب، خاصة في حرب «شرببه». وفيها كانت مقتلة القضاة الذين يخلد تل معروف في منطقة «القبلة» (أعليب القضية) ذكرى استشهادهم.

ومع ذلك، فقد كان العلم في بلاد شنقيط ينمو وهو يصطلي نار الحرب، وكان اذا أثخنته الجراح ومزقت جسمه السهام، يستعيد قوته وحيويته بسرعة.

ولعل من الخصائص الفارقة للثقافة المحضرية الشنقيطية أنها نمت وازدهرت في ظروف عاصفة، فلم تكن الاضطرابات والحروب القبلية التي أثخنت جسم المجتمع الشنقيطي منذ نهاية القرن الخامس الهجري الى أوائل القرن الرابع عشر لتشل حركة العلم، خلافا لما كان عليه الشأن في مراكز الثقافة العربية الاسلامية الاخرى.

فهذه جامعة القرويين وهي أدنى الجامعات العريقة شقة الى بلاد شنقيط وأعمقها أثرا في حركة الثقافة الشنقيطية، كانت تعطل الدراسة عندما تضطرب الظروف الأمنية. وحدث ذلك بسبب حروب في الأندلس بعيدة الشقة(١٢١).

أما في بلاد شنقيط فكان الحي البدوي يظعن راحلا في وجه الخطر فترتحل معه المحضرة وتتواصل الدراسة على ظهور العيس وفي حالة السير. ومما يذكر في هذا الصدد أن العلامة محمد الأمين بن أحمد زيدان كان يدرس في شبابه على شيخه محمد الامين بن أحمد بن المختار. وتعرض الحي لغارة فجهز الشيخ فرسه وأعد سلاحه لمطاردة المغيرين، وبينما كان يستعد للانطلاق أقبل عليه التلميذ الشاب يطلب منه أن لا يخرج حتى يقرئه درس يومه. وتنتهي الحكاية بنكتة، فقد تفرس الشيخ في الطالب أن يكون أحد اثنين، إما عالما مبرزا واما أن ينكشف الغيب أن لا عقل عنده بتاتا(١٢٢). وكان أولهما، ولعل أبرز مثال على حيوية العلم في بلاد شنقيط وصموده في معمعان الحرب وضعيته أيام المواجهة الساخنة بين الزوايا وبني حسان خلال حرب «شرببه»(١٢٣).

خاض هذه الحرب تجمع قبلي حساني يقوده هدى بن أحمد بن دامان أمير الترارزه وبكار بن علي بن عبد الله أمير البراكنة وبوسيف بن محمد الزناقي (من أولاد امبارك) ضد تجمع قبلي من الزوايا يقوده الامام ناصر الدين الشمشوي وتشارك فيه مجموعة تشمشه وبارتيل وتندغة وأجيجبه ومدلش وأدغ زينب وأفراد من قبائل أخرى(١٢٣).

وكانت هذه الحرب مهما تعددت أسبابها ثمرة حركة علمية أقنعت مجموعات قبلية بضرورة اقامة الدولة والحكم بشرع الله والدعوة اليه وتعليم الناس ما جهلوا منه. ومعلوم أن الحركة بدأت بالدعوة الى الاسلام ورفع الظلم عن المستضعفين في بلاد السودان المجاورة (السينغال) وكانت حركة وعظ وارشاد في موطنها طيلة ثلاث سنوات.

وكان ناصر الدين وقومه، حتى خلال الحرب، يدرسون صحيح البخاري مع شراحه في رمضان بعد صلاة الظهر. وقد تغيب القاضي عثمان وبقية القضاة، فلم يحضروا موقعة «تلماس» لاشتغالهم بقراءة الحديث آنذاك(١٢٤).

ولناصر الدين في هذا المقام كلام بليغ، فقد كان يحض كثيرا على العلم ويذم الجهل ويقول: «من ركب منكم فرسه فليجعل لوحه بينه وبين سرجه، فان الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء الآخرة».

وبعد الحرب نبغ بنوها في العلم فقد شرط الفاضل بن الكوري أيتام حرب شرببه علي أحمد بن مودي مالك «فأنجبوا كلهم ما بين قارىء مجود وخطاط مسود وعالم مفيد وشاعر مجيد»(١٢٥).

لقد أثخنت الحروب المجتمع الصحراوي، ونتج عنها دمار كثير، ولكن كان فيها اثم كبير ومنافع للناس.

فقد كانت الحروب والنزاعات القبلية سببا مباشرا في تعمير الأرض ونشأة بعض الحواضر التي أصبحت مراكز اشعاع ثقافي وديني تستقطب الناس.

وكأمثلة على ذلك، نذكر بأن خراب «آبير» بعد ارتكاب يحي العلوى جريمة القتل فيها (حسب الروايات المتداولة) كان سببا مباشرا في ازدهار مدينة شنقيط التي تصدرت الساحة الثقافية خلال ثلاثة قرون تقريبا.

وكان لخراب تمبكتو والعواصف التي هبت عليها في عهد السونغاى أثر مباشر في ازدهار ولاته التي انتقلت اليها أيضا عمارة جارتها تازخت ضحية الحروب.

وقامت ودان على أنقاض مدن احترب أهلها حتى تركوها خرابا، ودبت النزاعات والحروب في صفوف أهل شنقيط أكثر من مرة فنزحت منهم طوائف أسست حواضر علمية جديدة، مثل: أطار، وأوجفت، وتجكجة، وأمم ضربت في أطراف البادية فأسست المحاضر ونشرت العلم فيها بعد أن كان رهين الحواضر.

٦ ـ البداوة

لم يرع عهد البادية مثل الشناقطة، فهم قوم قليل حواضرهم كثير ترحالهم، كان ذلك شأنهم منذ القدم، وظلوا على ذلك الى عهد قريب. فلم تعرف البلاد من المراكز الحضرية إلّا عددا قليلا، نشأ وتطور استجابة لضرورات تجارية في الأساس، وان أدت بعض هذه المراكز وظائف ثقافية دينية جليلة.

وقد ظلت التجارة وظيفة ثانوية في مجتمع تطغى الصبغة الرعوية على حياته. وشأن الرعاء أن يلزموا البادية فلا يركنوا الى المدينة إلّا لماما. وهكذا كان الصنهاجيون الذين استوطنوا البلاد قبل قرون كثيرة. وكان بنو هلال قوما بادين يضربون، على سنن الاعراب في بلاد الجزيرة وغيرها، فما غيروا ولا بدلوا عندما دخلوا بلاد الملثمين. وكان دخول الجمل وشيوع استعماله عاملا مهما في تطويع البادية وتحبيبها الى النفوس. بل ان سفن الصحراء الجديدة (الابل) كانت تملي على القوم اختيار منتجعاتهم ومضارب احيائهم بين فترة وفترة. فما أخطأ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : «ان العرب لا يوافقها إلا ما وافق ابلها من البلدان».

وكثيرا ما كانت غيوم السماء وسحبها تقود البدو وترشدهم في ترحالهم، يهتدون بها كما يهتدون بالنجوم. فهم كما يقولون بالحسانية «أولاد المزن» يقعون حيث يقع المطر، يحفظون في ذلك عهدا عربيا قديما غنى به الشعراء :

اذا وقع السماء بأرض قوم   رعيناه ولو كانوا غضابا

وهم ان لم يظعنوا لتتبع مساقط الغيث فلانتجاع أشجار الربيع والابتعاد بالماشية عن المناطق التي يغزوها الذباب والحشرات المؤذية والأوبئة ولمجرد «تقليب المراح». فالمألوف اذا مكث الحي أسابيع في موقع أن يتحول عنه ولو مسافة قصيرة ليغير مراح ابله أو بقره أو شائه.

ولشدة ما تعودوا الترحال صارت ملازمة موقع بعينه، أمرا يثير الانتباه فقد أصبح حي من أحياء الحسنيين مضرب مثل في الاستقرار لأنهم ضربوا مخيمهم لدي «انيامل» لم يضعوا حجرا على حجر، ولم يبرحوا مكانهم طيلة ١٨ سنة[١٢٦].

وربما لزم الرجل مكانا فسمى به لخروجه في استقراره هذا عن المألوف ومن ذلك أن «اغشممت» واليه ينتسب بيت علم كبير، ليس علما على رجل، وانما هو علم منهل كان الرجل يألفه كثيرا، فسماه الناس في البادية «مرابط اغشممت» ثم سارت «اغشممت» وحدها علما على المرابط وبها نسبة أحفاده اليه[١٢٧].

وتتخذ المستوطنات البدوية عدة أشكال فهناك :

- «المحصر» وهو تجمع قبلي كبير يلتئم بسبب الاستنفار في وجه الحرب.

- «الحلة» وهي حي بدوي يشكل مركز قيادة القبيلة من قبائل بني حسان، فهو عاصمتها المتنقلة.
- «الزمان» تجمع بدوي من الزوايا محدود أكثر استقرارا من سابقيه.
- «الفريق» مخيم محدود العدد (فوق ١٠ خيام) محدود الاقامة.
- «الخيام» أو «الحية» أو «النزلة» : مخيم صغير (١٠ فما دونها) محدود الاقامة غالبا[١٢٨].

وذكر الرحالة «ماج» أنه شاهد أثناء سفره الى تكانت سنة ١٨٥٩ مخيمات يتألف كل منها من ١٠٠ خيمة، ورأى كيف يقوضون نضائدهم ويحملونها على الابل ويقطعون مسافة خمسة فراسخ مع ماشيتهم، كل ذلك في أقل من ٧ ساعات.

وكثيرا ما شوهدت في «لبراكنه» مخيمات طولها ميل ونصف أو أكثر، وهي تتألف من ٥ مجموعات تضم كل مجموعة ٢٤٥٩ خيمة وتؤوي ١٣٠٠٠ شخص[١٢٩].

لقد كانت الخيمة وطن الصحراوي وحضن أمه الذي يفيء اليه ويلوذ به، فلا يستشعر سكينة النفس وطمأنينة القلب إلّا في ظلها. ولذلك تجد منهم، وحتى من المعاصرين قوما كثرا لا يستطيعون النوم تحت سقف صلب أو بين أربعة جدران.

لقد هيمنت البداوة على حياة السكان، فلم تسلم منها المؤسسات التي لا تقوم عادة إلّا في الحضر.

فالدول (الامارات) الحسانية التي قامت في مناطق حضرية، ظلت مشدودة الى البادية. ولم تكن عواصمها الحقيقية إلّا أحياء بدوية متنقلة. لم تكن «الحلة» (وهي حي الأمير وعاصمته السياسية) قارة ولا ثابتة وإنما تنتقل بحثا عن الكلأ والماء. وكانت الحلة في ادرار في ترحال مستمر إلّا أنها تستقر في موسم التمور في حمدون أو كنوال» (واحات حول اطار).

«وتضم الحلة الأمير وأقاربه ووزراءه ومجموعة من أساتذة المحاضر»[١٣٠].

حتى الحواضر العتيقة لم تسلم من عدوى البادية.

ففي شنقيط لم تكن دار الندوة أو منتدى القوم إلّا ساحة عارية ليس فيها من المعالم الا صخرة سموها بها (بوحجرة) وكانوا يجتمعون بها في الهواء الطلق يتدارسون شئونهم ويتذاكرون ويتحدثون[١٣١]. وانك لتمر بملأ منهم في ساحة فارغة بين المنازل فيقولون لك : هذه الساحة هي عاصمة شنقيط...

وقد تفرعت عن محضرة سيدي محمد بن حبت الحضرية محضرة بدوية يشرف عليها أبناؤه خارج شنقيط. ويأتيها هو من حين لآخر ليباشر التدريس فيها. وحملت المحضرة الفرعية

لقب «خمية المرابط» وكأن الخيمة المضروبة في الصحراء لم تشبع نهم القوم الى البادية، فأسسوا محضرة ثالثة متنقلة، كان يشرف عليها ابنه الشيخ(١٣٢).

واليوم نشاهد في المدن الحديثة والمخيمات صراعا محموما بين المدينة والبادية، يأخذ في ظاهر الأمر شكل الألفة الحميمة. ففي المنازل الراقية بمدينة نواكشواط تجد البقرة والعجل والشاة والخيمة في ساحة المنزل. وقد تجد الخيمة على سطح أحد الفنادق. وكثير من أهل اليسار في العاصمة الحديثة لا يقيمون فيها إلّا وجه النهار ثم هم في الليل بداة يركبون سياراتهم لتحل بهم في كنف خيمة في فراغ من الأرض بعيدا عن ضوضاء المدينة وأضوائها، ينامون فيها آمنين مطمئنين بعد أن ينالوا من حليب الابل الطازج.

وتجد حول مطار نواكشوط، وبمحاذاة الطرق الرئيسية المنطلقة منها مراحات ومبارك للابل والبقر يتوارد عليها الناس من كل فج لشراء الحليب.

وتمثل نواكشواط بذلك وبحالة العمران فيها (٣٥٪ من منازلها خيام)(١٣٣) صورة الحياة المخضرمة التي يعيشها المجتمع وهو يقف على ملتقى (أو مفترق) طرق بين حياة البادية وحياة المدينة.

«ان البدو الذين هاجروا الى القرية والمدينة حملوا معهم، ولا يزالون يحملون ثقافة البادية. ولذلك ما زالت ثقافة البادية تؤثر في الحياة الاجتماعية بالقرى والمدن خاصة وأن غالبية سكان المدن من البدو النازحين(١٣٤).

وتكتمل صورة الصراع المحموم أو الالفة الحميمة حين تقف أمام خيمة في قلب الصحراء فاذا أهلها يتابعون شريط «الرسالة» أو أحد أفلام «غوار الطوشي» أو غيرها في جهاز فيديو حديث بالألوان تغذيه بطارية سيارة لاندروفير أو تويوتا أو مرسديس.

لقد غزت المدينة البادية وامتصت من دمائها، ولكن البادية وهي الآخذة بأزمة القلوب منذ آلاف السنين لم تمت بعد، بل انها حاولت أن تخلع على المدينة بعض صفاتها وخصائصها، ووفقت في ذلك الى حد كبير، وان لم تستطع الاحتفاظ بمركز الريادة.

لقد تراجعت مؤسسات البادية، ومنها المحاضر تراجعا بينا. وكان انحسار التعليم التقليدي نتيجة طبيعة ومظهرا من مظاهر انكسار نمط الحياة البدوية، الذي كان سائدا في البلاد. فلا مناص اذا من اعتبار الحياة البدوية عاملا من عوامل انتشار الثقافة والعلم في البلاد فقد كانت البادية مراكز عطاء ثقافي موصول. تلك ـ لا ريب ـ ميزة فارقة من مميزات المجتمع العربي، وهي للمجتمع الشنقيطي أميز وفيه أبين، فما كان العلم حيث كان إلّا ربيب الحضارة. ولقد كانت البادية العربية مرجعا في الفصاحة وموئلا للشعراء والرواة. أما العلماء وحلقات العلم ومجالس الدرس فكانت للمدينة دون البادية.

في بلاد شنقيط خاصة انخرمت هذه القاعدة انخراما لا جدال فيه ما ازدهر العلم ولا الأدب ولا التأليف ولا مؤسسات التعليم حتى احتضنتها البادية.

وكان القوم، وهم بدو رحل، يدركون أنهم جروا في العلم على غير سننه من الاستقرار ولزوم الحضر، ويلتمسون العذر ببداوتهم فيما يستشعرون من نقص وقصور. وفي ذلك يقول الشيخ محمد المامي :

وانني متلمس المعاذر ... بالسن والبدو من الأكابر
ولم تكن معاهد الاعراب ... أهلا لتأليف ولا اعراب(١٣٥)

لقد كانت في بلاد شنقيط بعد أن لم تكن وانطلق البدو في كافة أرجاء البلاد ينشرون العلم ويبدعون، وهم يطاردون المزن ويغالبون ظمأ الصحراء وحرها وقرها، لا يشغلهم ذلك عن لوح أو كتاب. فقد ابتدعوا نظام المحضرة فطوعوا به العلم لظروف الحياة البدوية. أو قل ان حياة البداوة هدتهم الى هذا النظام المرن الذي جعل المدرسة مؤسسة جوالة تسيح في الأرض كما يسيح الرعاة.

وهكذا لم تخل جهة من جهات بلاد شنقيط من جامعات بدوية متنقلة تحمل رسالة العلم أينما حلت.

ففي المناطق الشرقية من البلاد انتشرت محاضر بارتيل وتجكانت ومسومة (أهل باب المصطف وأهل باب عيسى) ولمتونة واتمدك.

وفي القبلة محاضر أولاد ديمان وتندغه وادا بلحسن والشقرويين وأهل الفغ حبيب الله ومدلش وأولاد انتشايت وأولاد خاجيل واجيجب وادوعلي وادغ ماجك.

وفي ادرار وغرب البلاد محاضر اليعقوبيين (أهل الفغ موسى والاعمام والأخوال) وأهل بارك الله : عبد الله بن بارك الله (١٢ هـ) ومحمود بن عبد الله (ت ١٢٥٠) وحبيب الله ابن محمود (ت ١٢٧٠ هـ) وأهل الحاج المختار : محمد بن عبد الودود والخرشي بن عبد الله (ت سنة ١٢٦٣ هـ) وأهل الفغ الخطاط، (توفي الفغ الخطاط الملقب آبيه سنة ١١٩٦ هـ)(١٣٦).

وقد حصر الخبير الدولي لكرتوا Le Courtois الخصائص الفارقة للمجتمع التقليدي الشنقيطي في ثلاث سمات :

ـ تتبع مساقط الغيث وانتجاع المراعي،
ـ الخيام ومضارب البادية،
ـ المحضرة(١٣٧).

فالمجتمع الشنقيطي مجتمع بدوي يسكن الخيام وينتقل في طلب الكلأ وينمي معارفه العلمية أينما كان، عبر جامعة بدوية متنقلة هي المحضرة.

٧ ـ الرحلات الدينية والعلمية

لم يطبع حياة البدو مثل الترحال. كان الظعن ديدنهم، ان لم يكن لضرورة مادية (انتجاع المراعي، الابتعاد عن الحشرات الضارة والمناطقة الموبوءة..) فلحاجة نفسية ملحاح، فقد كانوا يأنفون الاستقرار والسكون ويحبون الحركة والسير في الأرض يجدون في ذلك بعض المتعة والطمأنينة.

لقد كان سكان الصحراء بحكم طبيعتهم البدوية أقوياء على السفر ذوي جلد عليه وقدرة على مكابدة تعبه ونصبه، فكانوا يضربون في الأرض ويقطعون المسافات الشاسعة، لا يجدون في ذلك كبير مشقة. وقد عرفوا رحلات غير رعوية كثيرة، منها ما هو تجاري شأن القوافل التي كانت تربط حواضر أوداغست وتيشيت وولاته وودان وشنقيط بحواضر الشمال والجنوب والشرق. وقد رأينا أن هذه القوافل كانت تنقل العلم والعلماء أو الدعاة فتؤدي وظيفة ثقافية الى جانب وظيفتها التجارية.

ومن الرحلات ما هو ديني كرحلات الحجاج وقد اقترنت هذه الرحلات بالعلم، فكان الحجاج يعودون وقد أدوا فرضهم ونهلوا من العلم وتلقوا اجازات وكتبا.

وكان هذا النمط من الرحلات (الحج) مصدر شهرة أبرز حواضر الثقافة في البلاد فقد كانت مدينة شنقيط مثابة للحجيج يفدون اليها مما حولها من الحواضر والبوادي، وينطلقون منها في ركب واحد الى الديار المقدسة مرورا بالمغرب وتونس ومصر والبحر الأحمر في الشمال أو بمالي والنيجر والسودان والبحر الأحمر في الجنوب.

وكان الركب يسير من شنقيط كل عام «فيتعلق به كل من أراد الحج من سائر الآفاق وقد تحج الدار منهم كلها حتى لا يبقى فيها صغير ولا كبير من شدة اعتنائهم بالحج، ويحجون من قدروا عليه»[١٣٨].

وكان يقدر عدد الحجاج المنطلقين من شنقيط سنويا بثلاثة آلاف الى خمسة آلاف حاج[١٣٩].، وهو رقم هائل اذا أدركنا أن عدد حجاج «موريتانيا» اليوم، وقد تطورت وسائل المواصلات، لا يكاد يصل ٢٠٠٠ حاج سنويا!!

وفي تقرير أكثر تواضعا يقولون أن ركب الحجيج يتكون من ٦٠٠ راحلة تصحبها ٣٠٠ للبيع[١٤٠].

ورغم بعد الشقة (نحو ٧٠٠٠ كلم) ومصاعب الطريق (اللصوص، المجاهل، الأوبئة) فقد كان من هؤلاء القوم من يقطع المسافة راجلا، ومن يحج المرة تلو المرة. وقد حج محمد سعيد (جد محمد بن محمد سالم) سبع مرات وتوفي عائدا من حجته السابعة ودفن بودان[١٤١] وحج

الحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي التواتي مرات «وكان شيخ الركب من أرضنا حتى يصل الى توات فيكون الامر لأبي نعامة» وكان الحاج الأمين الغلاوي قد حج واستقر هناك وهاجر معه عشرات من تلامذته وأقربائه[١٤٢] وحج الحاج عثمان بن محمد بن الطالب الوافي الغلاوي (ت ١١٢١ هـ/١٧٠٩ م) ثلاث مرات[١٤٣] وحج حامد بن أحمد جد الشيخ محمد حامد الحسني راجلا وعاش ١٠٥ سنوات وتوفي سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٣ م[١٤٤].

وكان الحجاج يلقون العلماء ويأخذون عنهم ويمكثون في طلب العلم سنين مغتربين وقد حج أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر الصنهاجي (جد أحمد باب التمبكتي) سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م ولقي بمصر جلال الدين السيوطي والشيخ خالد الأزهري[١٤٥]، وحج ابنه الحاج أحمد بن أحمد ولقي جمعا كبيرا من العلماء وحج عبد الله بن محمد بن أحمد بن عيسى البوحسني (ق ١١ هـ/١٧ م) وأخذ اضاءة الدجنة اجازة عن أبي مهدي مفتي الحرمين[١٤٦].

وقد حج القاضي عبد الله العلوي في القرن الحادي عشر (١٧ م) ومر بمصر حيث لقى الفقيه عليا الاجهوري المتوفي سنة ١٠٦٧ هـ/١٦٥٦ م وتلميذيه عبد الباقي والخرشي، ونبههما على فرع خارج من نسختهما من شرح الحطاب فبحثوا فوجدوه في نسخة المؤلف وعجبوا لسعة علم الشنقيطي[١٤٧].

وأخذ القاضي الشنقيطي في سفره هذا الحديث وغيره عن رئيس العلماء الشافعية بالديار المصرية عامر بن شرف الشبراوي[١٤٨]. وعاد وهو يحمل معه ٦٠٠ كتاب[١٤٩] وأخذ سيدي عبد الله ابن محمد بن القاضي عبد الله عقائد أهل السنة وعلم المعاني والبيان وعلم المنطق من عدد من الأشياخ الذين أدركهم في المغرب الاقصى والسوس الأدنى كالسيد أحمد العطار وأبي مدين القاضي الأكبر والسيد أحمد بن يعقوب الولالي عن سيدي محمد مياره الفارسي عن سيد أحمد المقري[١٥٠]. وقدم سيدي عبد الله من المغرب بـ ٤٠٠ كتاب[١٥١].

وقد حج عبيدي بن محمذ بن الفغ عبد الله (أواسط القرن ١٢ هـ) ونزل بالمغرب وسجلماسة لطلب العلم، وكان أخواه سيد الأمين وانبد أول من أدخل «القاموس» بلاد تشمشه، وكانت نسختهم منه موجودة الى خمسينات القرن العشرين[١٥٢].

وتلقى علامة شنقيط سيدي محمد بن المختار بن الأعمش الاجازة في موطإ الامام مالك وصحيح البخاري ومؤلفات سيدي محمد بن يوسف السنوسي عن عالم المدينة المنورة أبي اسحاق ابراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي الشافعي[١٥٣]. وذكر محمد محمود بن سيدي عبد الله في كتابه الدر الخالد أن جده الحاج ابراهيم حج وتوفي بمصر وخلف بها مكتبة قدم بها ابنه سيدي عبد الله عندما سافر للحج وطلب العلم[١٥٤]. وفي طريق عودته مكث سيدي عبد الله سنوات بالمغرب فأكرمه السلطان سيدي محمد بن عبد الله وأهداه ٤٠٠ كتاب وقد أخذ ابن الحاج ابراهيم في المغرب عن الشيخ البناني محشي شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل والشيخ التاودي المعروف بابن سودة وعمر الفاسي شارح اللامية[١٥٥]. وقد حج الشيخ

محمد الحافظ بن المختار بن حبيب (المتوفي سنة ١٢٤٧ هـ/١٨٣١ م) فلقي بالمدينة المنورة صالح الفلاني الذي أجازه في رواية الصحيحين والسنن الأربعة وموطإ الامام مالك وشفاء القاضي عياضي. وظلت اجازته هذه متداولة في منطقته يجيز بها الشيوخ تلاميذهم إلى عهد قريب. وقد مر الشيخ محمد الحافظ في طريق العودة بفاس حيث لقي الشيخ سيدي أحمد التجاني (ت ١٢٣٠ هـ/١٨١٤ م) وصحبه ثلاث سنين(١٥٦).

لقد ساعدت هذه الرحلات في تطوير المحضرة وإثرائها حتى صار باستطاعة القوم، وقد بلغوا في العلم شأوا بعيدا أن يقولوا عن ثقة : «لقراية في الرأس ما هي في فاس ولا مكناس»(١٥٧)، ولكنهم مع ذلك شدوا الرحال كثيرا الى المغرب. وكانوا كثيرا ما يمكثون به وهم عائدون من الحج وربما شدوا اليه الرحال خصيصا ومكثوا فيه سنين لطلب العلم.

وقد رحل أحمد فال بن محمد فال الى المغرب، وابنه (محمد مولود) رضيع، فلم يعد إلا وقد شب(١٥٨).

ودرس محمد سعيد بن تكدي اليدالي في تافلالت بجنوب المغرب خلال القرن العاشر الهجري وعاد الى منطقة القبلة من بلاد شنقيط فنشر النحو هناك حتى لقب النحوي، وبه سمي النحوي بن أكد عبد الله فاتح فوته. ومما يذكر أن اليدالي قدم بشرح المكودي على الالفية وبالبسط والتعريف في تعلم التصريف(١٥٩).

وأخذ أحمد بن القاضي عن محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي المتوفى سنة ١٠١٠ هـ/١٦٠١ م فأجازه. كما أخذ مسكه اليعقوبي عن ناصر الدين الدرعي فأجازه في معقولاته ومنقولاته(١٦٠) ويقال أن صالح بن عبد الوهاب سافر الى المغرب وتونس ومصر والحجاز ولعله لقي العلماء وأخذ عنهم(١٦١).

وقدم الشيخ سيديا مراكش، أيام السلطان عبد الرحمن فنال حظوة عنده وعند علماء البلد(١٦٢). وعاد من رحلته بـ ٢٠٠ كتاب، ٧٧ في الفقه، ٢٧ في التفسير، و٢٥ في اللغة و٢٠ في التصوف والتوحيد وعدد من كتب الطب والتاريخ(١٦٣).

ورحل الشيخ سيد عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي المتوفي سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م الى سيدي أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي فأخذ عنه القراءات العشر وأتى بخزانة نفيسة. «ووجد الناس يلحنون في القراءة ويصحفون في الحروف فأزال اللحن والتصحيف عنهم» وهو الذي أتى بالجيم الشديدة(١٦٤).

وقد قدم بعض المغافرة هدية إلى الطالب أحمد بن محمد رار التنواجيوي فبعثها مع تلميذ له الى الغرب لشراء الكتب(١٦٥). وكان الشيخ سيدي المختار الكنتي (١٢٢٦ هـ/١٨١١ م) يستقبل سنويا قوافل الكتب من فاس والقيروان والجامع والأزهر(١٦٦).

وهكذا كان شيوخ المحاضر الشناقطة عى اطلاع دقيق ومتابعة حية لمستجدات الحركة

العلمية خارج بلادهم، فكانوا يضبطون وفيات الأعيان ويقيمون مصنفاتهم، يحكمون لها أو عليها ويقارنون بين علماء البلاد وأضرابهم في البلاد الأخرى، خصوصا المغرب، وربما احتموا لأنفسهم وفضلوا علماءهم، خصوصا على معاصريهم من غيرهم. ومن ذلك ما ورد في رسالة من الشيخ أحمد آب بن محمد (بدي) إلى العلامة الحارث بن محنض حيث يقول :

«وقبولك لكلام الدسوقي وهو ووالدك (محنض بن سيدي عبد الله) متعاصران، ووالدك منه أقدم، لأنه ينقل في حاشيته عن الأمير، من غير سماع منه، معبرا عنه بخاتمة المحققين. والامير وحرمة (ابن عبد الجليل) ولدا في عام واحد، فقد قال في مجموعه شرعت فيه وأنا ابن احدى وعشرين سنة في القرن الثاني عشر ثم تم تبييضه سنة ١١٦٦هـ وحرمه مات عام ١١٤٣ (...) وهو شيخ والدك فهلا نقلت عن والدك»(١٦٧).

٨ ـ المراسلات

ومما يجري مجرى الرحلات العلمية في نقل المعارف «المراسلات». والمحفوظ منها قليل، إلّا أن الاستفادة منها أكيدة، اذا اعتبرنا أن الاتصال عبر القوافل والمسافرين كان قائما وأن علماء البلد تعرفوا خلال أسفارهم أو عن طريق المسافرين على عدد من معاصريهم من علماء الاسلام، فلا يستغرب أن يكتبوا اليهم. ولدينا نموذج تاريخي هام يتمثل في رسالة من أحد المشتغلين بالعلم في بلاد التكرور، كتب فيها الى الامام جلال الدين السيوطي يستفتي عن بعض الأحكام الفقهية وذلك في شهر شوال سنة ٨٩٨ هـ(١٦٨).

وللرسالة أهمية خاصة نظرا لقدمها من جانب ولأنها تشير الى مستوى من الاتصال والمعرفة العلمية في حقبة نكاد لا نملك عنها أية معلومات، ثم لما تتناوله من وصف أوضاع الناس يومئذ.

وهذا نص الرسالة نورده لفائدته التاريخية والعلمية :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب فيه أسئلة من العاصي الحقير المذنب المنكسر الراجي عفو ربه الكريم الكبير وسميته مطلب الجواب بفصل الخطاب.

الحمد لله الكامل الذات الحي القيوم الأزلي الصفات وصلى الله على حبيبه المفضل على سائر المخلوقات وعلى آله وصحبه وأزواجه الطاهرات.

(فصل) رد الجواب على من علمه الله فرض كما قال الله لآدم «أنبئهم بأسمائهم» كما أن

السكوت على من لا يعلم فرض كما قالت الملائكة «لا علم لنا إلّا ما علمتنا». وكذلك أن تخضع لمن علمه الله مَا لم يعلمه لك كما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا وكانوا عبادا مكرمين. وأبى ابليس وقيل له «وان عليك اللعنة الى يوم الدين».

والسؤال على من لم يعلم فرض قال الله تعالى : «فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

(فصل) نسأل عن قوم عادة ملوكهم أخذ الأموال منهم بعادة معروفة في زمن معروف وأكثره عند ظهور الثريا أو الشتاء أو الصيف بأموال شتى منها ما يخرج من الأرض كالمن، ومنها ما يخرج من الدوم، حتى حبالها ونعالها وحميرها. ويفرض ذلك عليهم في كل سنة فالبلد للملوك ومن اراده منهم فيجيء عندهم فيعطيهم شيئا ثم يشترطون عليه شروطهم فيرضونهم فان نقص شيء من خراجهم أخذوه وعذبوه وأخرجوه وجعلوا في بلادهم من أرادوا.

(فصل) ولهم عند قوم بقرة وشياه ومزاود طعام وغير ذلك من الخراج في كل زمن معروف فمن أعطى وإلا ضربوه أو نفوه.

(فصل) ويأتيهم سادات قوم وكبراؤهم مع جماعاتهم فيطلبون البلاد فيقولون لهم ان كانت عادتنا على ما هي عليه فأتوا بقبيلتكم فلنختر واحدا منكم يحكمون لهم بذلك ومرة يحكمون لمن يعطيهم أموالا كثيرة أو يرجون منه خيرا أو يخافون شره.

(فصل) ومنهم من يخاصم على الأحرار ويدعوهم بالعبيد فان مات من ادعي عليه ذلك لم يقسموا بين ورثته ثم يدعوهم من بقي باسم الرق وان قلت لهم : هؤلاء أحرار كادوا يقتلونك ويقولون : هؤلاء عبيد أتباع للسيف، ومنهم من يجعلهم كالخدم بالضرب والعذاب ومنهم من يسخر منهم ويأخذ منهم الأموال ولا يضرهم في أنفسهم.

ومنهم من يبيعهم بالتنافس، والتنازع، ومنهم من يؤمر على قوم فيأخذ منهم الخراج أكثر مما أخذ منه الملوك فان أبوا نفاهم أو سلط عليهم الامير أو وزراءه. ومنهم من يؤمر على بلد فيتركه ويمشي الى أحرار قبيلته حيث كانوا فيأخذ منهم من أراد حتى يكون القتال في ذلك.

(فصل) من بعض أموال الملوك الخراج على المسلمين ومكس الأسفار والأسواق على كل من جاء بالخيل أو بالابل أو البقر أو الغنم أو الرقيق أو الثياب أو الطعام وكذلك عند الأبواب عند دخول قوم أو خروجهم ولو بحطب.

(فصل) ومنهم من بينه وبين الكفار المصاحبة والمراسلة فان قتلوا المسلمين أو نهبوهم أو قطعوا عليهم الطرق لم يبالوا بذلك ان أعطوهم شيئا ومنهم من اذا اغرت على الكفار وآذيتهم آذاك أكثر مما آذيت به المشركين فيكون ذلك عونا للكفار وضعفا للمسلمين.

(فصل) ومنهم من اختار الكفار على المسلمين لسكون بلادهم أو ربح تجارته في أرضهم

أو سكون بعض أقاربهم أو بسبب من الأسباب من دنياهم لا يبالون بأوامر الله ونواهيه إلّا حيث كانت اللقمة بداء.

(فصل) منهم من لا يبالي بالكتاب والسنة إلّا حيث كان الدرهم والدينار معه وإلا فلا.

(فصل) منهم من لا يعطي المرأة صداقها أصلا وكان ذلك عـادة فليس عند الرجال إلّا الذبيحة والنفقة.

(فصل) وعادتهم عدم الحياء عند اجتماعهم بالنساء وخلوتهم بهن واللعب بهن وحديثهن ورؤيتهن وكشف زينتهن وأكثرهن للمزمار والعود والغناء وضرب الدفوف والزغاريت وآلات اللهو كلها ويعرضن بأنفسهن ويقلن أن الجن فينا وان دواءنا بذلك وفيهن من يقلن ان من الخدم من يقتل وان مسك مرضت واذا جن الليل يطرن ومعهن النار ويقتلن بذلك.

(فصل) ومنهم من يقاتل فيما بينهم تكبرا وتجبرا وتنافسا وينهب بعضهم ويغير بعضهم على بعض، ومنهم من يمنع عباد الله اذا وكله الأمراء عليهم إلا بالخراج ويمنع الماء والفواكه والحشيش والكلأ وكل ما ينبت في الأرض حتى يمنعون الطرق ويسدونها بالحجارة والأشجار حتى لا يقرب المسافرون بلادهم ويعذبون بهائم المسلمين بالآت من العذاب والضرب وسد الأفواه ويربطون مع أذناب الأنعام الشوكة وماله أذى.

(فصل) منهم من ليس له حرفة الا الغناء والمزمار ومدح من أعطاه وذم عكسه. ومنهم من ليس له حرفة إلا أن يكون مع الأمراء والكبراء فيأكل معهم ويعيش في أموالهم الحرام.

(فصل) منهم من حرفته أن يكون جالسا حتى يجيء أوان الطعم فيحضر ويسلم ويأكل.

(فصل) ومنهم من حرفته القمار والميسر وأمثال ذلك.

(فصل) ومنهم من حرفته أن ينكح النساء المطلقات بالثلاث فيحللهن لأزواجهن.

(فصل) ومنهم من حرفته أن يرمي عقله فيجعل نفسه كالمجنون فيضحك الناس به. ومنهم من حرفته السؤال، ومنهم من حرفته أن يتزوج النساء الكثيرات الأموال ويعيش في رزقهن، ومنهم من حرفته السرقة، ومنهم من حرفته الاختلاس، ومنهم من حرفته أن يصيد ومنهم من حرفته أن يكون مع الأمراء فيقضي للناس حوائجهم ويعيش هناك، ومنهم من حرفته أن يعادي للناس أعداءهم ويحب لهم أحبتهم سواء كانوا على الحق أو الباطل.

(فصل) منهم من حرفته علم الحديث والقصص وأخبار الدنيا والحكايات المضحكة بالحق أو الكذب.

(فصل) منهم من حرفته أن يكون نماما أو مغتابا أو متجسسا، ومنهم من حرفته معاداة العلماء والأتقياء والصالحين ومنهم من حرفته أن يكون رسولا بين النساء والرجال كالديوث،

ومنهم من حرفته أن يخلط الماء باللبن أو الشحم مع اللحم الهزيل أو دنيئا بجيد ومنهم من حرفته أن ينزل المسافرين في مسكنه فيخدعهم بقدر طاقته وقلة عقولهم، ومنهم من حرفته الباس الحق بالباطل عند الموازين والمكائل.

(فصل) عوائد بعضهم البخل والجبن وعدم الرحمة للناس كافة وقطع الرحم، ومنهم من عادته السخاء والكرم والشجاعة إلا أن عندهم مع ذلك كثرة الظلم والفساد والاختلاط بالنساء الاجانب، ويحلفون بالاباء والامهات والنساء ويشهدون بالزور، ولنسائهم مكان معروف يخلون فيه بالرجال في يوم نكاح أو يوم عرس أو يوم عيد ولهم لهو يتضاربون فيه حتى يقع في ذلك شج وكسر سن أو يد أو رجل، أو قتل. وعادة بعضهم بناء المساجد وتلاوة القرآن والمدائح ومع ذلك يعبدون الأصنام ويذبحون لها ولا تصوم نساؤهم ولا يصلين إلّا اذا كبرن. ولا يدخلون مساجدهم إلّا ومع كل واحد منهم عصا، وعندهم طلسمات للنكاح والبيع والشراء والتهييج والحروب والمحبة ووجع الرأس والضرس ويزعمون أنهم ملوك الدنيا وأبناء الأنبياء، ومنهم من يجحد البعث والحشر، والنشر والحساب والثواب والعقاب ويسجدون لملوكهم ويركعون لهم، ومنهم من هو مسلم ويجعلون أموالهم دولا بينهم يغير بعضهم على بعض ويقتلونهم.

(فصل) منهم من عادته أن يجيء إلى قوم فيسألهم ابلهم ليسافروا عليها فيحملوا عليها الطعام الى بلد الملح ويحملوا عليها الملح الى بلادهم فيجيئهم أرباب الابل فيعطونهم من الثياب ما شاء الله فمرة يرضون ومرة يأتون حتى يسترضوهم وإلّا فيخاصمون، ما شرط أحد على أحد منهم ذرة.

(فصل) منهم من صلاته بالتيمم أبدا فلا يتوضئون إلّا نادرا ولا يغتسلون من الجنابة إلّا نادرا وتوحيدهم بالفم وما يعرفون حقيقة التوحيد وزكاتهم يجلبون بها مصالح دنياهم أو يدفعون بها مضارهم وحجهم بالأموال المحرمة، ومنهم من عادته محبة العلماء والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. والأعمال الصالحة الصدقة وإطعام وقرى الضيف وغير ذلك من وجوه الخير ولا يتركون ما هم عليه من تكبر واسترقاق الأحرار والمقاتلة والظلم وأكل الحرام، ومنهم من عادته مصاحبة الكفار ومؤاخاتهم وذكر أخبار المسلمين وعيوبهم لهم، ومنهم من يعادي من عادى الكفار.

(فصل) ومن فقهائهم من عادته ترك القرآن والسنّة وأخذ الرسالة، والمدونة الصغرى وابن الجلاب والطليطلي وابن الحاجب حتى عادوا من يفسر القرآن ويقولون قال أبو بكر الصديق : ان كذبت على ربي أي أرض تحملني واذا سمعوا آية تتلى لتفسير نفروا عنها نفرة الحمر الوحشية.

(فصل) منهم لا يفارق الأمراء طرفة عين يأكل معهم ويشرب ويأخذ أموالهم المحرمة، ومنهم من نهى فعادوه فخاف فسكت. ومنهم من يأخذ الزكاة ولا يستحقها، ومنهم من حرفته أن يشترط مع الناس أن يصلي بهم ويقريء صبيانهم ويرى عندهم المنكر العظيم ويسكت وان

تكلم قالوا له : أسكت فقد ذكرت ما عليك فخذ شرطك ومالك ولا تزر وازرة وزر أخرى فيسكت، ومنهم من اذا وعظت الناس قالوا لك : أما نحن فقهاء مثلك؟ فنحن قد رأينا ذلك وسكتنا عنه. هذا آخر الزمان نهي المنكر فيها منكر.

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) وتقول له العامة : أما رأيت فلانا هو أعلم منك وأتقى وأعز وأشرف وقد ترك ذلك وهو يراه ويقدر على قطعه فيسكتونك بذلك وإلا جعلوك شر خلق الله وأجهل الناس وأسفه الناس، ومنهم من تعظه من العلماء فيطيعك ويصدقك فإذا خرج من عندك يكذبك ويذكر للعامة دلائله على تكذيبك وتصديقه، ومنهم من إذا وعظت العامة وقبلت وتابت خلا بهم فنقض عنهم ذلك حتى تعود العامة على ما كانت عليه.

(فصل) منهم من يأخذ العشر عند الميراث فلا تقسم لأحد إلا إذا أخذ عشره، ومنهم من اكتسابه بالطلسمات والرقي لباب المحبة والنكاح والوجه عند العامة والخاصة ومن غضبوا عليه يفعلون به ما قدروا من مكائد سوء فمرة يوافق فعلهم القدر ويقولون هذا فعلنا.

(فصل) منهم من يشتري القضاء بماله ويأخذ الرشوة والسحت ويحكم بما يريد ومنهم من يؤمره الملوك على قوم فيأخذ زكاتهم ولا يقسمها بين من يستحقها.

(فصل) منهم من يقرأ بالشواذ ويترك القراءات المشهورة.

(فصل) ومنهم الألد الخصم في كل شيء.

(فصل) ومنهم من ليس له عمل إلّا تلاوة القرآن، والحديث والعبادة ولزوم الخلوة وقراءة الرسالة والشهاب وأمثال ذلك.

(فصل) منهم من يكون عند الجهال يأكل ويشرب ويكون أمامهم.

(فصل) منهم من يقول ويعتقد أن بعض الناس يقتلون بعضا بمس أو مقاربة ويزعمون أنهم يمرضونهم وأن اعطوهم ما أرادوا داووهم، ومنهم من يعتقد أن الجرب والجذام، والبرص، والزكام، وسائر الأمراض تعدي. واذا نكحت امرأة ومات عندها ثلاثة من الأزواج تشاءموا بها، وكذلك الدار والخيل ومنهم من يزعم أن بعض الطيور والسباع أنحس من بعض ومنهم من اذا رميته بمشط يقول لك : لافإنه يأتي بطلاق. ويقولون في الأيام بعضها منحوس وبعضها مسعود ويذمون الحجامة في بعض الأيام وشرب الدواء ومشي المسافرين والنكاح فيها، وكذلك بعض البلاد والمياه والمراعي يزعمون أن بعضها أنحس من بعض.

(فصل) منهم من يزعم أنه عارف اذا كرهت البهيمة أولادها ويعرف أسباب ذلك ويقول للناس : تعالوا عندي كلكم يأتونه فيكيل بذراعه أرجلهم ويعزم بشيء في نفسه ويزعم أن ذلك

قراءة ثم يكيلهم ثانية فيزيد الامر على ما هو عليه أو ينقص فيأخذ ذلك فيأخذون من أشعار رأسه أو لحيته ويجزونه على تلك البهيمة فيوافق مرة ومرة لا.

(فصل) منهم من اذا سرق ماله وأخذ المتهمين يوقد نارا ويقيد المتهمين بشيء قصير ويأمرهم بالمشي عليها ويمرون عليها، والذي يسرق تارة تحرقه والذي لم يسرق لا تحرقه ولا تمسه. ومنهم من يأخذ المرآة ويعلقها على خيط ويأخذ الخيط ويدلي المرآة ويجعل خيطين في الأرض ويجعل الرماد على خيط واحد من الأرض ويترك الآخر ويدليها على وسط الخيطين ويقرأون سوة يس على ذلك فان تحركت المرآة وجرت على طريق الرماد ثبتت السرقة عليه وإلّا فلا.

(فصل) منهم من يقريء الصبيان فاذا ختم واحد أو بلغ النصف أو الثلث حمله على درقة من فوق رؤوسهم أو على فرس أو جمل ويجتمع عليه القراء ويطوفون به البلد كله يقرأون عليه آيات ومدائح رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعطيهم الناس طعاما وشرابا وغنما وثيابا فيتركونه للفقيه.

(فصل) ومنهم من يمشي بين العوام ويناجي كل من يلقاه ألا أريك رقية العين والنكاح ودخلة القلوب والوجوه عند السلاطين؟ وأمثال ذلك.

(فصل) ومنهم من لا يزوجون إلّا صاحب نسب وحسب ومال كبير لا يزوجون غيره ولو كان عالما صالحا تقيا.

(فصل) ومنهم قوم لا يعدون الطلاق فليس له عندهم حد ومنهم من يعد الطلاق فاذا وصلوا ثلاثا أعطى شيئا ثم يعيدها بغير محلل، ومنهم من لا يعتد بالمرأة فتنكح من أرادت في العدة، ومنهم من يشتري للتي طلقها ثلاثا من يحللها أو تشتريه هي بنفسها أو أحد من أهلها.

(فصل) ومنهم ملوك لا يقيمون القصاص أصلا وانما يأخذون المال ويقسمونه بين من لا يستحقه شرعا.

(فصل) منهم من يدعي أنه شريف ليكرم ولا شهادة له في ذلك، ومنهم من يدعي أنه عالم وولي ليستخدم وليس كذلك.

(فصل) منهم من اذا قصد المسلمون بقتل أو أخذ مال أو نحوه يقاتل حتى يقتل أو يقتل وفي نيته من قتل دون ماله فهو شهيد ومنهم من يأتي القتال حتى يقتل بغير حركة منه وفي نيته «اني أريد أن تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار» كما فعل هابيل ثم عثمان أيهما أعلى من الآخر.

(فصل) هل يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر القتال في ذلك بقدر طاقته؟

(فصل) فقيه رأى منكرا فعلم أنه لا يقبل الناس نهيه ولا أمره هل يسقط ذلك عنه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(فصل) ما قلتم في من أمر بمعروف ونهى عن منكر وقصد به رياء وسمعة.

(فصل) ما قلتم في من أمر بمعروف ونهى عن منكر وخوفوه فسكت خوفا وفي من أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم سكت عن سوء مقالات الناس له والضرر والتعب؟

(فصل) ما قلتم في رجلين أمرا بمعروف ونهيا عن منكر حتى رأيا أمرا عظيما في هلاك النفوس والأموال فتركه واحد منهما ولم يقاتل عليه وقاتل عليه حتى قتل وقتل أيهما أعلى من الآخر.

(فصل) ما قلتم في رجلين أحدهما يخالط أمراء السوء فيشفع للمسلمين لديهم فينفعهم والآخر اعتزلهم فأيهما أعلى؟

(فصل) في بلادنا كتب يذكرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقاويل ليست في الموطأ ولا في الصحيحين فما يفعل فيهم؟.

(فصل) هل يتمثل الشيطان بأمر من أمور الله في كتابه وملائكته ورسوله وأوليائه أم لا؟

(فصل) هل يجوز مدح النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام العجمي أم لا؟

(فصل) هل يدخل أحد الجنة بمحبته النبي صلى الله عليه وسلم وهو عاص وتارك بعض الفرائض.

(فصل) رجل يعظ الرجال فقال له النساء عظنا معهم فجعل بين النساء والرجال سترا لا يرى أحد الفريقين الآخر أيجوز له ذلك أم لا؟

(فصل) أيجوز لنا أن نقريء نساءنا سورة النور حتي يحفظنها ويفسرنها أم لا؟

(فصل) أيجوز لمسلم ان حضر القتال بين المسلمين والكفار أن يرمي نفسه في الغرر لحب الشهادة؟

(فصل) أيجب القتال على أمراء المسلمين بأنفسهم أو ليس عليهم إلّا تجهيز الأمور واصلاحها وهل يجوز للأمير أن يرمي نفسه على أشد الباس من الكفار وهو اذا مات لم يجتمع المسلمون بعده لقتال ولا يجتمعون على غيره إلّا بعد مدة طويلة؟

(فصل) هل تقبل هدية الكفار وتجوز صحبتهم وليس عليهم جزية؟

(فصل) وتبين لي أمر هيئة السماوات والارض بدلائل القرآن والحديث وعرض بلدنا وطولها وبلغني أنك ألفت شيئا في حروف التهجي فلا يليق بكرمكم أن تكتمه عنا وأنا أحبك في الله واني لمشتاق الى لقائك غاية واسمى محمد بن محمد بن عالي اللمتوني فلا تنسني في دعائك والسلام.

٩ ـ الطرق الصوفية

نشأ التصوف في القرن الهجري حركة زهد وعبادة وإعراض عن الدنيا وإقبال على الله بالقلب والقالب (الجوارح).

وكان من رواده، على ما يذكر المتصوفة سيد تابعي البصرة، الحسن بن أبي الحسن وهو صاحب مدرسة وعظية مؤثرة وقد سار على نهج علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والحسن والحسين وأويس القرني الذين اعتبرهم المتصوفة من آباء هذا المشرب القلبي الروحاني[١٦٩].

وتبع الحسن البصري رجال (ونساء) عاشوا لله عيشة خالصة فأرسوا دعائم التصوف ورفعوا من شأنه وكان منهم ابراهيم بن أدهم (ت ١٦١ هـ/٧٧٧ م) ورابعة العدوية (١٨٥ هـ/٨٠١ م) وأبو علي شقيق البلخي (ت ١٩٤ هـ/٨١٠ م) ومعروف الكرخي (٢٠٠ هـ/٨١٦ م) وبشر الحافي (٢٢٧ هـ/٨٤٠ م) وذو النون المصري (٢٤٥ هـ/٨٥٠ م) وأبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (٢٦١ ـ/٨٧٥ م)[١٧٠].

وحمل لواء التصوف من بعد هؤلاء أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م) الذي لقب «سيد الطائفة» وإليه ينتسب جمهور المتصوفة من بعده[١٧١].

وقد اختلف في اشتقاق كلمة التصوف هل هي من لبس الصوف أو من الصفة نسبة الى أهل الصفة[١٧٢] من الصحابة الكرام نزلاء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حبسوا أنفسهم على الذكر والتعلم والجهاد أم هي مشتقة من الصفاء أو المصافاة أو من «صوفة» علم على رجل من القرن الأول ظهرت عليه بوادر التصوف[١٧٣].

وأيا كان الاشتقاق فان غاية التصوف ومداره على تزكية النفس البشرية وتطهيرها من رعونتها وتصفيتها من أمراض القلوب : الغل، الحسد، الحقد، العجب، الكبر... الخ والرقي بها في مدارج الاحسان الذي ورد في الحديث النبوي الشريف انه ثالث مقامات الدين (بعد الاسلام والايمان)[١٧٤].

وقد دخلت عدة طرق صوفية بلاد شنقيط، والتحم التصوف بالعلم في رحاب المحضرة وكانت الزوايا الصوفية في البلاد سندا للمحاضر في تدريس علوم القرآن والحديث والفقه المالكي أصولا وقواعد وفروعا، والعقائد الأشعرية والتصوف والسيرة النبوية والتاريخ الاسلامي وعلوم اللغة العربية، وعلم أسرار الحروف[١٧٥].

وسنتناول فيما يلي أبرز الطرق الصوفية التي استقطبت الناس في بلاد شنقيط.

القـادرية

تنسب الطريقة القادرية الى سيدي عبد القادر الجيلاني دفين بغداد (ت ٥٦١ هـ/١١٦٧ م).

وكانت من أوسع الطرق انتشارا ومنها تفرعت طرق كثيرة.

وقد انتقلت القادرية الى المغرب على يد أبي مدين شعيب الانصاري الاندلسي (ت٥٩٤ هـ/١١٩٨ م) فنشرها هناك وجاء من بعده عبد السلام بن مشيش فزادت انتشارا على يده.

واتسعت خريطة انتشارها على يد الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي (ت ٩٤٠ هـ/١٥٣٣ م)، الذي زار السودان والنيجر، وعنه أخذ الطريقة الشيخ سيدي أعمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي الشنقيطي (ت ٩٥٩ هـ/١٥٥٢ م). وتفرعت الطريقة القادرية في بلاد شنقيط الى شعبتين كبيرتين : البكائية الكنتية والفاضلية[١٧٦].

أ ـ البكائية :

أسس الشعبة البكائية الشيخ سيدي اعمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي في القرن العاشر وكان قد سافر الى الشمال مرارا، ولقي الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي في توات وأخذ عنه. وبلغت هذه الطريقة أوج مجدها مع ظهور الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت ١٢٢٦ هـ/١٨٢١ م).

والى هذه الشعبة ينتسب الشيخ سيديا الكبير الذي تلقى العلم والتربية الصوفية في حضرة الشيخ سيدي المختار الكنتي ثم في حضرة ابنه الشيخ سيدي محمد وعاد سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٥م فنشر القادرية في مناطق تمتد من جنوب بلاد شنقيط الى السنغال والسودان وغينيا. وعنه أخذ الشيخ أحمد بن سليمان من علماء أولاد ديمان والشيخ أحمد بن حبيب الرحمن من تندغه. وعن الشيخ سيدي المختار أخذ الشيخ القاضي ابن الحاج الأجيجبي (١٢٤١ هـ/١٨٢٥ م) والشيخ المصطفى ابن العربي الابييري[١٧٧].

وإلى نفس الفرع ينتسب العلامة الشيخ محمد المامي الشمشوي ومجموعة أهل بارك الله في الساحل ولمرابط بن عبد الفتاح التركزي في لبراكنة وأهل الشيخ بن امني في تكانت.

ب ـ الفاضلية

أما الشعبة الفاضلية، فقد أسسها الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي (١٢٨١ هـ/١٨٧٩ م).

وكان يقيم في منطقة الحوض من بلاد شنقيط ثم توجه الى «الجريف» شمالي مدينة شنقيط، فاتخذ منها مقرا له.

وقد انتهج الشيخ محمد فاضل سياسة حكيمة فوزع أبناءه في أرجاء البلاد، فكان لكل منهم منطقة نفوذ خاصة به : الشيخ سعدبوه في الترارزه والشيخ ماء العينين في آدرار والصحراء بينما استقر سيد الخير بالحوض وكان منه على صلة بالسودان. وكان لهذا التوزيع غايات علمية واضحة فقد سئل الشيخ محمد فاضل عن الحكمة في توجيه ماء العينين الى الشمال الأقل علما وتوجيه الشيخ سعد بوه للقبلة المشهورة بالعلم، فقال : ليعلم الأول أهل الشمال ويتعلم الثاني من أهل القبلة[١٧٨].

وقد برزت في العشيرة ثلاث أسر التف حولها المريدون : أهل محمد فاضل بن الطالب وأهل محمد فاضل بين عبيدي وأهل الطالب المختار، وكان الشيخ ماء العينين والشيخ سعدبوه أبرز شخصيات العشيرة وقد أخذ عن الشيخ ماء العينين الشيخ المجتبى بن خطري البصادي. وأخذ عن الشيخ سعدبوه الشيخ أحمد أبو المعالي التقاطي والشيخ التراد بن الشيخ العباس بن الحضرمي وعن الشيخ التراد أخذ الشيخ محمد عبد الله بن اده البصادي (١٤٠٤/١٩٨٤).

الشـــاذلية

تنسب هذه الطريقة الى سيدي أبي الحسن الشاذلي (٩٣٩ هـ/١٥٣٢ م) وكان قد ظهر في مصر وبرز في مريديه في المغرب شيخ العلمين أحمد زروق (٩٦٣ هـ/١٤٩٣ م) ثم محمد ابن ناصر الدرعي (١٠٣٦ هـ/١٦٢٦ م) وبهذين الشيخين المغربيين تمر السلسلة الشنقيطية.

فقد أخذ عن محمد بن ناصر عدد من الشناقطة، منهم سيدي محمد بن سيدي عثمان بن سيدي عمر الولي المحجوبي وسيدي عبد الله التنواجيوي ونختار بن المصطفي. وكانوا قد اتصلوا به في زاية تامكروت.

وذكر صاحب شجرة النور الزكية محمد الشنقيطي الاخذ عن الشيخ زروق مباشرة واخذ عنه أبو الرضاء رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي المتوفي سنة ٩٩١ هـ[١٧٩] وعليه يحتمل أن تكون الطريقة الشاذلية قد دخلت البلاد قبل الطريقة القادرية أو تزامن دخولهما، إلا أن يكون محمد الشنقيطي هذا اخذ عن رزوق العلم الظاهر فقط.

وفي ولاته يوجد ضريح الشيخ الركاني مولاي عبد المالك وهو أحد مشايخ الطريقة الشاذلية الذين نشروها في البلاد[١٨٠].

ومن العلماء الشناقطة المنتسبين الى الطريقة الشاذلية سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، تلقاها خلال اقامته بفاس، وكان لا يلقن أذكارها إلا لمن درس أحكام الشرع، وعنه تلقاها تلميذه الطالب أحمد بن طوير الجنة، ويحتمل أن يكون قد أخذها هو الآخر خلال رحلته الى الحج عندما مر بالمغرب.

وقد أخذها الفغ (الفقيه) الخطاط عن سيدي أحمد التواتي بزاوية تامكروت وعن الخطاط تلقاها حمدي بن المختار بن الطالب أجود الحاجي وكان لحفيده المرابط بابا بن محمذ بن حمدي دور متميز في نشر هذه الطريقة في السنغال.

وعن حمدي أخذها زائد المسلمين التاشدبيتي.

ومن أعيان الطريقة الشاذلية محمذ فال بن متالي ويحظيه بن عبد الودود وكان منهم أيضا عبد الجليل بن الحاج والد حرمة بن عبد الجليل. ويذكر الأستاذ محمد الكبير العلوي أن الفغ الخطاط تلقى الشاذلية من عبد الجليل هذا، فلعله كان أحد شيخين له فيها[١٨١].

التيجـــانيـة

هذه الطريقة هي أحدث الطرق السائدة في بلاد شنقيط نشأة وأوسعها انتشارا في افريقيا الغربية[١٨٢] وهي تنتسب الى سيدي أحمد بن محمد سالم التجاني نزيل فاس (١١٥٠ هـ/١٧٥٧ م ـ ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م) تلقاها عنه عدد من الشناقطة، منهم الاخوان الودانيان أحمد ومحمد الملقب السالك ابنا الامام وسيدي عبد الرحمن بن أحمد الشنقيطي الذي كان يدرس العلم بفاس العليا وكان جميع نجباء وقته يأتون من فاس الادريسية على أرجلهم لحضور مجلسه وسيدي محمد الطالب جد بن الشيخ العلوي قاضي شنقيط وإمامها والشيخ محمد الحافظ بن المختار بن حبيب الذي لقى الشيخ التيجاني في عودته من رحلة الحج فتعلم منه وتربى لديه وعاد الى بلاد شنقيط سنة ١٢٢٠/١٨٠٥ فنشر الطريقة فها ونشرها أتباعه في افريقيا فاليه ترتفع جل أسانيد الطريقة التجانية في افريقيا[١٨٣].

وعن الشيخ محمد الحافظ أخذ سيدي مولود فال وعنه أخذ سيدي بانم بن حم ختار وعن بانم هذا أخذ سيدي محمد الصغير التيشيتي صاحب الجيش الكبير.

وينتسب الشيخ عمر بن سعيد الفوتي والحاج مالك سي، وهما من أبرز زعماء التيجانية في مناطق السنغال والسودان وافريقيا الغربية الى الطريقة التجانية، بواسطة سيدي مولود، ويتمسك الشيخ ابراهيم الكولخي بالسند الحافظي (نسبة الى الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي) ويقول أنه هو السند العالي الغالي عندي.

وقد بلغت الطريقة التجانية قمة انتشارها في افريقيا على يد الشيخ ابراهيم هذا ومريديه من الشناقطة، خصوصا الشيخ الهادي بن سيدي مولود فال الذي نشر الطريقة والمعارف في نيجيريا.

وفي مطلع القرن العشرين تشكلت في شرق بلاد شنقيط وغرب السودان شعبة جديدة من الطريقة التجانية هي الشعبة الحموية نسبة إلى الشيخ أحمد حماه الله التيشيتي الشنقيطي[١٨٤].

وقد امتد نفوذ الشيخ حماه الله على مناطق واسعة من بلاد شنقيط الى مالي وساحل العاج وغينيا وغيرها.

طرق أخرى

الى جانب الطرق الثلاث الرئيسية : القادرية، الشاذلية، التجانية، ظهرت طرق أخرى في بلاد شنقيط سادت في فترات محدودة أو في مناطق محدودة، ولكنها أدت أدوارا هامة.

ومن هذه الطرقة :

الغظفية : وهي مزيج من الطريقتين القادرية والشاذلية وتنسب الى الشيخ محمد الأغظف الداودي الجعفري واليه تنسب الشعبة الفاضلية من الطريقة القادرية.

ازدهرت في عهد الشيخ سيدي المختار بن الطالب اعمر بن نوح البصادي وخلفائه : خاصة الشيخ محمد محمود الخلف (١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م) والشيخ الغزواني. ومن مشايخها الشيخ محمد المحفوظ بن بيه، وهي طريقة محكمة التنظيم وقد شغلت الفرنسيين واهمتهم فصدرت عنها أبحاث وكتب، ورغم تركيزهم على مظاهر الجذب في هذه الطريقة فان منشأ اهتمامهم بها قد يكون تميزها بثلاث سمات :

- انها شنقيطية المنشأ،
- ان الشريف سيدي بن مولاي الزين قاتل كابولاني ينسب إليها،
- انها نظمت حركة هجرة جماعية ابان دخول الفرنسيين. ففي سنة ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ م توجهت ٥٠ أسرة من الغظف الى الحج بقيادة الشريف القلقمي محمد الأمين بن زيني – وفي الطريق حملهم الأتراك الى القسطنطينية حيث استقبلهم السلطان عبد الحميد استقبالا حسنا، واستقروا بعد الحج في الاناضول[١٨٥].

الصديقية : شعبة قادرية تنسب الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أسسها سيدي محمد الصعيدي وهو شريف مصري قدم البلاد في القرن التاسع عشر وأقام في أحياء مدلش. وبلغت طريقته أوج ازدهارها على يد الشيخ محمد عبد الحي بن محمد بن سيد أحمد.

الخضرية : تنسب الى الشيخ عبد العزيز الدباغ تلقاها محمد بن حبيب الله الملقب «المجيدري» عند مروره بالمغرب، عن عبد الوهاب التازي. وتلقاها عن المجيدري البخاري الفلالي ومولود بن أحمد الجواد ومحمد بن سيدي محمد التشيتي وعنه أخذها محمد بن محمد سالم المجلسي.

* * *

لقد أثرت الحركة الصوفية حركة العلم والمعرفة في البلاد، فقد كان مشايخ الطرق الصوفية علماء، تضلعوا من معارف المحضرة قبل التصدي للمشيخة والدعوة الى الله. وكانوا يرفضون «تربية المريد» وهي تلقينه المعارف الالهية وصرفه عن الاهتمامات الدنيوية ما لم يكن قد أخذ بنصيب وافر من علوم الشريعة واللغة. وقد أثرى هؤلاء المشايخ المحضرة بأنفسهم. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد

والشيخ سيديا الكبير وسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم والشيخ ماء العينين والشيخ محمد المامي والشيخ محمد الحافظ بن حبيب وخلفاءه بدي وأحمد بن بدي ومحمد فال بن بابا، كلهم كانوا شيوخ تربية صوفية وتدريس محضري، وكانوا في الغالب شعراء مؤلفين.

لقد كانت جميع هذه الطرق روافد للتعليم المحضري، ذلك أنها تفاعلت مع المحضرة تفاعلا حيا، نمت فيها ونمتها، كما أنها شجعت حركة الأخذ والعطاء فساعدت المحضرة في النمو والانتشار.

فمن جانب أصبحت عيون الشناقطة مشدودة الى بلاد المغرب التي برز فيها أولياء كبار، كانت الرحلة اليهم رحلة الى العلم يعود صاحبها وقد لقى عددا من العلماء وغنم عددا من الكتب، ثم يتهيأ بعد العودة لأداء الأمانة التي حمل، فيدعوه ذلك الى التحرك داخل البلاد وخارجها في المناطق الافريقية لنشر الطريقة. وحيث كانت الطرق تكون معارف الدين واللغة ولا أقل من قصائد الأشواق ومقطعات الأذواق التي تشكل، اضافة الى بعض كتب التصوف وسيلة من وسائل تربية المريدين.

وقد مكنت الطرق الصوفية للمحضرة بما يسرت لها من أسباب الحماية، فللعالم حيث هو نصيب من الهيبة والاعتبار في المجتمع الشنقيطي والمجتمعات المجاورة، ولكن نصيب العالم من التقدير اذا صار شيخ طريقة صوفية، أو مقدما من مقدميها، يتضاعف بشكل مذهل.

لقد استطاعت الطرق الصوفية ـ والمحضرة من خلالها ـ أن تخرق كل الحواجز وتمد الجسور بين قبائل شتى وأجناس وأعراق مختلفة وأن تنظم قوى بشرية لا تستطيع القبيلة تنظيمها. وكانت بمثابة أحزاب سياسية قوية يسودها الانضباط والطاعة والمحبة وبذلك تتنامى هيبة العالم ويرتقي الى مصاف قادة الدول وان لم يحترف السياسة بالصيغ التقليدية.

لقد كان كل من الشيخ سيديا الكبير والشيخ ماء العينين والشيخ محمد الحافظ بن حبيب شيوخ محاضر ولكن القسط الأوفر من سمعتهم ونفوذهم انما تشكل تحت مظلة المشيخة الصوفية وفي ذلك تدعيم لدور المحضرة ورسالتها.

وقد تساءل أحد الباحثين عما اذا كانت الطرق الصوفية في بلاد شنقيط خطة سلمية لتحقيق السلطة المركزية الاسلامية التي أخفقت فيها حركة ناصر الدين[١٨٦]؟ وفي طي السؤال ملاحظة وجيهة حول النفوذ الكبير الذي كان للعلماء منذ ظهور التصوف في المجتمع والواقع أن الزوايا «لم يضعوا هذه الخطة» عن قصد نية وسبق اصرار لبلوغ الهدف الذي استشهد ناصر الدين وأنصاره من أجله، ولكن النتيجة صحيحة فقد تحقق للزوايا بالطرق الصوفية من السلطة ما لم يكن ليتحقق لهم بقوة السلاح. وقد استطاعت الطرق أن تقيم «دولا» وأشباه دول غير معلنة أساسها شعبية عارمة تدعمها دبلوماسية حصيفة وروح سلمية تتحلل في مواجهتها قوة الرجال المسلحين.

وقد لاحظ الرحالة الفرنسيون الامر في تقاريرهم منذ بداية القرن، وذكروا أن أحياء «الزوايا» حرم آمن لا يستباح وإن المغلوب الخائف اذا احتمى بهم أمن. وتلك ثمرة جهد بدأته المحضرة العلمية وأكملته الحضرة الصوفية واندمجتا فواصلتا سعيهما في انسجام كامل بدون كلل.

ولم تكن الخطة التي حقق بها الزوايا ما عجزوا عن تحقيقه بالسلاح خطة اقليمية، قاصرة على مضارب خيامهم ومنتجعات مواشيهم. بل كانت خطة عامة ذات بعد انساني. لقد توقفت الفتوحات التي تعضدها قوة السلاح.

ومنذ ذلك الحين لم تتوفر للعرب ولا للمسلمين القوة التي تمكنهم من أن يفتحوا البلاد الأخرى ويصدعوا فيها بما أمروا ويبرزوا في حياتهم وسلوكهم نموذج الانسان المسلم ليقتدي بهم الناس عن بينة أو يعرضوا وقد قامت عليهم الحجة.

أصبحت «دار الاسلام» ديارا متصدعة الجدر، وكان في الوهن الذي أصاب المسلمين ما ينذر باحتمال توقف انتشار الاسلام خارج دياره.

هنا كان تدخل الطرق الصوفية رائعا ـ لقد حملت لواء الفتوحات الذي وضعه المجاهدون واستمرت في نشر الاسلام في أنحاء المعمورة، فحققت بالسبحة والكتاب واللوح ما لم يتحقق في عهدها بالسيف والترس والرمح. وفي افريقيا بالذات أبلت هذه الطرق بلاء حسنا.

ان الطرق الصوفية على الخصوص، ومنذ القرن الثامن عشر هي التي حملت رسالة الاسلام للشعوب السوداء(١٨٧).

هوامش وتعليقات الباب الأول

(١) قحطان عبد الرحمن البدوي : مقال في مجلة تعليم الجماهير، عدد ١٤ يناير ١٩٧٩.

(٢) الصفة : مكان مظلل في المسجد النبوي كان يأوى اليه فقراء المهاجرين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام فكان منهم طائفة كبيرة مقيمة به للتعلم والعبادة والجهاد وقد نظم أسماء أهل الصفة بعض الشناقطة مثل أحمد بن دهاه العلوي.

(٣) دكتورة مليكة أبيض : التعليم الاسلامي في المسجد الجامع بدمشق قبل نشوء المدارس مقال في مجلة «العربي» عدد ٣٣٠ شعبان ١٤٠٥/مايو ١٩٨٦.

(٤) رشيد محمد عليان : الفقه الاسلامي/حضارة العراق ٧/٢٠٠، ٢٠٢.

(٥) أحمد أمين : ضحى الاسلام ١/٨٥ ـ ٩٠.

(٦) Le Courtois : Etude expérimentale sur l'enseignement traditionnel en Mauritanie, p. 31

(٧) عبد الله السالم بن الشيخ أحمد : دراسة شخصية الشيخ محمد حامدبن عبد الله بن آلا (رسالة مرقونة) ص ١٥ و١٩.

(٨) يحي ابن البراء : الألفية وتأثيرها في الثقافة الموريتانية (رسالة تخرج مرقونة) ص ٧٣.

(٩) عن مختصر خليل بن اسحاق و«أقفافه» راجع الدرس المحضري في الباب الثاني.

(١٠) الشعب الموريتانية، عدد ١٧٠٢ في ١٣ ربيع الثاني ١٨/١٤٠١ فبراير ١٩٨١.

(١١) «رأس مادس» موقع جبلي في منطقة تيرس بشمال بلاد شنقيط والنون:السمك، والبحر : المحيط الأطلسي، ولعله يعني أيضا نهر السنغال، فقد كان المختار ابن بونه يجول بين أقصى الشمال (تيرس) وأقاصي الساحل الأطلسي والجنوب (نهر السنغال) ويتجه الى شرق البلاد أحيانا.

(١٢) ابن مالك : محمد بن مالك الأندلسي، وسنعود اليه بحول الله في الباب الثاني عند تناول الدرس المحضري.

(١٣) راجع ترجمة الوسيط لبابا بن أحمد بييه، ص ٦٩.

(١٤) تحولت مراكز التعليم العربي ـ الاسلامي منذ وقت مبكر، خصوصا مع ظهور المدارس الى مؤسسات ذات شخصية معنوية يتعاقب عليها الأشخاص وهي مستمرة في أداء رسالتها، أما في بلاد شنقيط، فقد تميزت المحاضر بأنها مؤسسات شخصانية يؤسسها عالم معين (أو تتأسس عليه) فتعرف به لا تنسب إلا إليه، تعيش ما عاش وتموت اذا مات، فلا تكاد تقوم بدونه وان كان من عادة الشيوخ أن يكونوا هيئة تدريس من متقدمي الطلبة تساعدهم في عملهم. ولهذه الظاهرة ما يبررها في بداوة المجتمع، فالنظام الذي تقوم عليه المدارس والمعاهد بدعة أو صنعة حضرية، ليس للبدو في حياتهم المرنة البسيطة اليها من سبيل ومالهم بها من حاجة. ولأن غالب شأن المحضرة أن تكون متنقلة، مع شيخها، لم يكن من المناسب نسبتها الى مكان بعينه، وان حدث بعض ذلك مع شيء من الاستقرار، كما أن كثرة العلماء شيوخ المحاضر أحيانا في الحي الواحد أو القبيلة جعل النسبة الى الشخص أدق من النسبة الى عشيرته أو قبيلته، على أن بعض الأسر الكبيرة تتوارث لمحضرتها (أو محاضرها) اسم المؤسس، أو أحد الأجداد، فتنسب الى أهل فلان (أهل محمد سالم أهل محمذ فال بن أحمد فال... الخ).

وقد وجدت بعض المحاضر مخرجا طريفا من «شخصانية» النسبة، فحملت أسماء مستنبطة من طبيعتهاوحياتهاالبدوية، متحررة من أسماء الشيوخ، وأبرز مثال على ذلك محضرة الكحلاء ووليدتها «الصفراء» سميت الأولى بلون خيمة سوداء من صوف النعاج كانت تلقى فيها الدروس. وكانت للثانية خيمة صفراء من وبر الابل، فتسمت بها، وحملت المحضرتان الاسم على مر القرون والعقود كأنما هي مؤسسات معنوية، غير مرتبطة بشخص بعينه كلما توفى أحد الشيوخ حل آخر محله دون أن تنسب اليه المحضرة.

وبهذا المعنى تكون «الكحلاء» قد عاشت ٤٠٠ سنة تقريبا بينما كانت المحاضر الأخرى، تختفي باختفاء «المرابط» وإن كانت مستمرة في واقع الامر لأن أبناءه وطلبته ينشئون في عهده ومن بعده محاضر جديدة، إلا أن نسبة المحضرة الى شيخها تفقد خلافته ووراثته العلمية دلالة الاستمرارية.

وهكذا يقولون، مثلا أن محضرة محنض بابه عاشت ٦٠ سنة وعاشت محضرة الحسن بن زين ٤٠ سنة وعاشت محضرة يحظيه بن عبد الودود ٧٠ سنة والمقصود أن الثلاثة مكثوا هذه المدة وهم يدرسون وقد واصل حمل الرسالة بعدهم كثير من أبنائهم وخريجي محاضرهم.

(١٥) محمد عبد الله بن محمد الأمين : مساهمة في ابراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين، ص ٣١.

(١٦) البرتلي : فتح الشكور، ص ٤٠.

(١٧) محمد المصطفى الندى : دور المحاضر في موريتانيا، ص ٢ ـ ٤.

(١٨) المصدر السابق عزوا للونشريسي في المعيار.

(١٩) المقري : نفح الطيب ١٩١/٣.

(٢٠) سامي النشار (تحقيق) : كتاب السياسة للحضرمي، ص ٥.

(٢١) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص١٦٥، ١٦٨. وفيما يتصل بالتاريخ يروي الناصري في الاستقصا (٢/٥ ـ ٧) أن يحيى بن ابراهيم إنما خرج حاجا سنة ٤٢٧ هـ، وأنه سلم رسالة أبي عمران إلى وكاك بنفيس في رجب سنة ٤٣٠ هـ.

(٢٢) هذا أرجح الأقوال، ويعرف هذا المكان اليوم بـ «تيدره» ويصدق عليه الوصف الوارد في كتب التاريخ حيث تنحسر عنه المياه في بعض الفترات، وهناك أقوال أخرى منها ما يميل الى اعتبار مدينة «اندر» الواقعة على نهر السنغال، بعضها خلفه وبعضها مما يلي موريتانيا موقعا لرباط عبد الله بن ياسين، ويروى سيدي الأمين نياس أن المرابطين سموا هذا الموقع «دار الاسلام» فحرفه الناس الى «اندر» وجاء المستعمر الفرنسي فسماه تخليدا لذكرى أحد الصليبيين St. Louis.

(٢٣) سيدي محمد بن محمد الأمين : المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية من حياة المرابطين (رسالة مرقونة) ص ٦٢.

(٢٤) البكري، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢٥) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٢٦) لعل أهم ما نشر عن دور أوداغست في الحياة الاقتصادية في المنطقة، الفصل الذي عقده لها الاستاذ الحبيب الجنحاني في كتابه عن «الحياة الاقتصادية في المغرب الاسلامي» وقد تحدث عنها د. حسن ابراهيم حسن في «انتشار الاسلام في افريقيا» ص ٢١٥.

(٢٧) البكري، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢٨) بابا بن الشيخ سيديا : تاريخ.

(٢٩) انور الجندي : العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٣٧٠.

(٣٠) ابن بطوطة، ص ٦٦١ ـ ٦٦٣، لكن الرحالة شنع على أهل ولاتة، فذكر أن نساءهم لا يحتجبن من الأجانب وأزواجهن لا يغارون عليهن من الاصدقاء الذين يجالسنهن بحضرتهم، والواقع أن مدينة ولاته اليوم مضرب مثل في المحافظة، وتجنب الاختلاط ومن التقاليد المرعية فيها أن لا يزور الشخص بيتا غير بيته إلا على موعد مسبق.

(٣١) سيدي محمد بن سيدي الحبيب : نماذج من النشاط الثقافي في ولاتة (مرقونة) عزوا الى تاريخ ابن خلدون ١١٧/٧.

(٣٢) المقري، ٣٠/٧، انظر أيضا :
ـ محمد الأغظف بن الداه : الأوضاع البشرية في الحوض (مرقونة) ص ١٩.

(٣٣) سيدي محمد بن سيدي الحبيب : نماذج، ص ٦.

(٣٤) الشيخ سيدي محمد الكنتي : الطرائف والتلائد (مخطوط).

(٣٥) سيدي محمد بن سيدي الحبيب، مصدر سابق، ص ١٢.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٧ عزوا الى تاريخ السودان للسعدي، ص ٢١.

(٣٧) الكنتي : الطرائف.

(٣٨) محمد المختار ابن اباه : مقدمة «الشعر والشعراء في موريتانيا»، ص ٢٠.

(٣٩) سيدي محمد بن سيدي الحبيب : نماذج، ص ٤٤.

(٤٠) محمد المختار ابن أباه : مصدر سابق، ص ٢٢.

(٤١) مقلد : شعراء موريتانيا، ص ٦٨.

(٤٢) عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل.

(٤٣) المصطفى بن احمدان : مساهمة في كتابة تاريخ ودان (مرقونة) ص ٢١.

(٤٤) تفرلة، مدينة ذكرها البكري، اندثرت قبل ازدهار ودان، وكانت على مقربة منها وحملت الاسم نفسه «تفرلة» قبيلة نازحة من المدينة المندثرة الى ودان وكذلك نزحت الى ودان «تامكونة» بعد خراب المدينة التي تحمل الاسم ذاته وفي ودان احتربت القبيلتان فنزحت تفرلة منها، راجع حياة موريتانيا للمختار بن حامد (جزء أدولحاج).

(٤٥) المصطفى بن احمدان، ص ٢٣.

(٤٦) المختار بن حامد، حياة موريتانيا.

(٤٧) المصطفى بن احمدان، ص ٩٥، ٩٧.

(٤٨) أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي.

(٤٩) أحمد بن الامين : الوسيط، ص ٤٢٢.

(٥٠) شغالى بن أحمد محمود : لمحات من تاريخ شنقيط (مرقون) ص ٥.

(٥١) راجع : Mohamed Mahmoud O. Jiddou : Chinguetti (Mauritanie), bilan critique des recherches historiques، وكذلك : أحمد بن المفيد : شنقيط دورها الثقافي والاقتصادي (رسالتان مرقونتان).

(٥٢) الوسيط، ص ٤٢٢.

(٥٣) بابا بن الشيخ سيديا : تاريخ.

(٥٤) المصطفى بن احمدان، ص ٤٦.

(٥٥) ورد ذكر «الشاب الشاطر» في فتح الشكور باسم «الشريف الشاب» وذكر أنه كان حيا سنة ١٠٤٥ هـ، وله أجوبة في حكم التدخين (تبغ) يحرمها، وله نظم في الوعظ بعث به الى عمر الولي بن الشيخ بن المحجوب الولاتي «جمع بين الشريعة والحقيقة» وله في شأن «تبغ» قصيدة يرد بها على سؤال من الطالب صديق بن الطالب الحسن بن الفغ محم (ص ٢١٣، ٢١٤).

وقد حدثني الأستاذ منّ بن عبدي أن نقلة تترجم له وتتحدث عنه كانت موجودة الى ما قبل سنوات قليلة في شنقيط، ولكنها تلفت.

ولم تسعفنا كتب السير والتراجم المغربية بعد بمعلومات دقيقة حول هذه الشخصية الذائعة الصيت في شنقيط على قلة ما يعرف عنها.

(٥٦) أحمد بن الأمين : الوسيط، ص ٥٧٨، وقد أخبرني الأستاذ دحان ابن أحمد محمود أن أهل شنقيط يعدون من المحمدين : محمد أحمد بن عبد الرحمن بن الوافي الذي تولى القضاء في شنقيط، بينما تولى ابن الأعمش الفتيا، ويبقى ثاني العبدلين من يكون؟.

(٥٧) أحمد ابن المفيد : شنقيط، ص ٢٥.

(٥٨) يحي ابن البراء : الالفية، ص ٦.
(٥٩) عبد الله بن داداه : محمد بن محمد سالم، ص ١٨.
(٦٠) البرتلي، ص ١٤٦.
(٦١) البرتلي، ص ١٤٨.
(٦٢) البرتلي، ص ١٥٧.
(٦٣) المصطفى بن احمدان، ص ١٠١.
(٦٤) نفسه، ص ١٠١.
(٦٥) سيداتي بن بابيه : مقال في نشرة تربوية في النعمة.
(٦٦) خطاب للدكتور محي الدين صابر، منشور في صحيفة الشعب الموريتانية ١٧٠٢ في ١٣ ربيع الثاني ١٤٠١/١٨ فبراير ١٩٨١.
(٦٧) المختار بن حامد، الجزء الثقافي، راجع أيضا تلخيص محمد المصطفى الندى في «دور المحاضر في موريتانيا».
(٦٨) الندى : أساليب وطرق التدريس المحضري في الكحلاء والصفراء، غير منشور.
(٦٩) يحي ابن البراء، ص ٦.
(٧٠) نداء المدير العام لليونسكو، الشعب الموريتانية، ١٦ فبراير ١٩٨١.
(٧١) الشعراني : كشف الغمة ٣/١، انظر أيضا جامع بيان العلم وفضله لأبن عبد البر.
(٧٢) الب بن محمد بن زين : الشيخ محمذ فال بن متالي، ص ٢٧.
(٧٣) المصدر السابق، ص ٢٨.
(٧٤) محمد المختار ابن اباه : الشعر والشعراء، ص ٣٦٠.
(٧٥) في الأبيات اشارة الى قول الشاعر :

لن يدرك المجد أقوام وان كرموا حتى يذلوا - وان عزوا.. لا قوام
أو يشتموا فترى الأعناق خاضعة لاصفح ذل ولكن صفح اكرام

وهو قريب من قول الآخر :

أهين لهم نفسى لأكرمها بهم ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وكان الطلبة في المحضرة يتنافسون في خدمة شيوخهم بمنتهى التواضع، وتعزز هذا المسلك مع نمو شأن «الحضرات» الصوفية، حيث يقول المشايخ : من استخدمناه قدمناه، والامر كله قائم على المبادرة الحرة الطوعية من الطالب.

(٧٦) التناوة : تعطيل الدراسة.. دعوة للتربية المستمرة.
(٧٧) محمد حامد بن محمد أحمد (تحقيق) : ديوان الشيباني بن محمد أحمد (مرقون).
(٧٨) أحمد بن الأمين : ص ٢٢٢.
(٧٩) أحمد بن الأمين : ص ٢٤.
(٨٠) الندى : أساليب وطرق التدريس...
(٨١) أحمد بن الأمين، ص ٢١٨.
(٨٢) وردت الأبيات في الوسيط، وقد اعتمدنا ترتيبها كما هو عند الاستاذ أحمد بن الحسن في «الشعر الشنقيطي..».
(٨٣) عبد الله السالم : شخصية الشيخ محمد حامد، ص ٤٦.
(٨٤) ابن بن الهلال (تحقيق) : ديوان يقوى الفاضلي.
(٨٥) الخليل النحوي : مقال اذاعي حول محمد بن فتى.
(٨٦) أحمد بن الأمين، ص ٨٤.
(٨٧) الندى : أساليب وطرق التدريس...

(٨٨) الكلمة فصيحة : غبت الماشية : شربت يوما وتركت يوما ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : زر غبا تزدد حبا، وحمى الغب هي التي تنوب يوما بعد يوم.
(٨٩) أحمد بن الأمين، ص ٢٤٢.
(٩٠) محمد المصطفى الندى : مقال في مجلة «الشعاع».
(٩١) الخليل النحوي : مقال اذاعي.
(٩٢) محمد المصطفى الندى، مصدر سابق.
(٩٣) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ٣٠/١.
(٩٤) ابن بن الهلال : يقوى، ص ٩٢.
(٩٥) أحمد بن الأمين، ص ٢٥.
(٩٦) محمد حامد : ديوان الشيباني، ص ٥٣.
(٩٧) أحمد بن محمدن : مدخل لدراسة العمود الغربي للتجارة الصحراوية (رسالة مرقونة) ص ١٦، وفيه قائمة بالطرق العابرة للصحراء، وقد نقلنا من مصادر أخرى خرائط لخطوط التجارة الصحراوية.
(٩٨) المصدر السابق.
(٩٩) البكري، ص ١٥٨.
(١٠٠) أحمد بن محمدن، ص ٦٢.
(١٠١) عيشة بن أحمد سالم : تجارة العلك في الترارزة (رسالة مرقونة)، انظر أيضا : دراسة بول مارتي، عن الترارزة والبراكنة بالفرنسية، مصادر سبق ذكرها.
(١٠٢) المصطفى بن احمدان : ... ودان، ص ٧٥.
(١٠٣) Arnaud : La Mauritanie, p. 15.
(١٠٤) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد البحوث والدراسات العربية) : الجمهورية الاسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة، ص ٣٨ وما بعدها.
(١٠٥) الشيخ سيدي محمد الكنتي : الرسالة الغلاوية (مخطوط).
(١٠٦) المصطفى بن احمدان.. ودان، ص ٤٩.
(١٠٧) محمد البدالي : شيم الزوايا... انظر أيضا :
ـ حياة موريتانيا للمختار بن حامد،
ـ التكملة لمحمد فال بن بابا بتحقيق أحمد بن الحسن.
(١٠٨) أحمد بن الحسن : مظاهر الوعي القومي عند مثقفي بلاد شنقيط، مجلة المستقبل العربي، فبراير ١٩٨٥.
(١٠٩) غيثى بن امم : امارة أولاد يحيى بن عثمان ١٩٠٠ ـ ١٩٣٢ (مرقونة) ص ٩.
(١١٠) سنعود بشيء من التفصيل الى قصة اختطاف الامير البركني في باب الجهاد. ومما يناسب المقام ما ذكره العلامة محمد بن أبي مدين، من أن البراكنة وأئمة فوتا لما تحالفوا ضد الترارزة فقتلوا أميرهم علي الكوري (١٢٠٠ هـ) ذهب اعمر بن المختار، الذي سيكون أميرا فيما بعد، متخفيا حتى دخل مسجد الامامي عبد القادر بفوته، ومكث أياما كلما صلى العشاء، يفتتح تلاوة القرآن حتى تصلى الصبح، وكان الامام عبد القادر يعود من الليل الى المسجد يتهجد فيه، فلفت نظره فسأله : من تكون؟ قال : رجل من زوايا الساحل، قال : من اقرأك القرآن، قال : علي الكوري.. ومن اعلي الكوري؟ ـ قال : ـ أمير الترارزه الذي قتلتم فاسترجع الامام الفوتي وأقسم أن لا يسير بعد ذلك جيشا ضد الترارزة (تكلمة ص ٤٨).
(١١١) غيثي بن امم، ص ٤٥.
(١١٢) المصدر نفسه، ص ٣.

(١١٣) المختار بن حامد، وكذلك محمد المصطفى الندي، ص ٨٣.
(١١٤) عثمان بن محمد فال : جدلية السيف والقلم، دراسة في الشعر الحربي الموريتاني في القرن ١٣ هـ (مرقونة)، ص ٢٧.
(١١٥) المصطفى بن احمدان... ودان، ص ٨١.
(١١٦) صالح بن عبد الوهاب الناصري : الحسوة البيسانية، تحقيق أحمد بن محفوظ (مرقونة) ص ١٥.
(١١٧) المصدر نفسه، ص ٣٦.
(١١٨) انظر عثمان : جدلية، ص ٥٩،
– عبد الله بن محمد الأمين : مساهمة في ابراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين (مرقونة) ص ٥٩.
(١١٩) أحمد بن الأمين، ص ٤٢٧، ٤٩٦.
(١٢٠) المختار بن حامد، جزء أدولحاج.
(١٢١) د. عبد الهادي التازي : جامع القرويين، ٢/٤٣٧.
(١٢٢) أحمد بن المختار (ترتيب) : اعداد المهيع شرح محمد الأمين بن أحمد زيدان لمنهج الزقاق، ص ١٧.
(١٢٣) رويت عن الشيخ الوالد محمد النحوي في ذلك بيتين من نظم المختار بن جنكي لمغازي ناصرالدين :

ان الزوايا الشم من قد شربوا   وجاهدوا أبعدهم والاقرب
تاشمش بارتيل آل جيجب   تندغ مدلش وآل زينب

وسنعود لجوانب من شأن هذه الحرب في باب الجهاد.
(١٢٤) محمد اليدالي : أمر الولي ناصر الدين.
(١٢٥) الشيخ أحمد بن سليمان : تأليف في الأنساب.
(١٢٦) يقال أن الطفل كان يولد في الحي ويصوم فيه.
(١٢٧) أحمد بن الأمين، ص ٣٥٦.
(١٢٨) انظر لبعض ذلك : محمد الأغظف، مصدر سابق، ص ٢٧.
(١٢٩) مقلد، ص ٧٧.
(١٣٠) حنوت بنت عبد الله : امارة أولاد يحي بن عثمان (مرقونة) ص ٣٢.
(١٣١) سيدي محمد بن بناهي : نماذج من تاريخ أسرة آل حبت (رسالة مرقونة) ص ٤٠.
(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(١٣٣) دراسة مسحية، مصدر سابق، ص ٤٧٨.
(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٧٨.
(١٣٥) بوميه بن ابياه : مفهوم الدولة عند الشيخ محمد المامي، مجلة الشعاع نواكشوط.
(١٣٦) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم، ص ١٨.
(١٣٧) A. Le Courtois, p. 6.
(١٣٨) ابن الحاج ابراهيم : صحيحة النقل (مخطوطة).
– انظر أيضا الوسيط، ص ٤٢٦.
(١٣٩) أحمد بن المفيد : شنقيط... ص ٣٧.
(١٤٠) سيدي محمد بناهي : ... آل حبت، ص ٦٨.
(١٤١) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم، ص ١٢.
(١٤٢) سيدي محمد بناهي، ص ٣١.
(١٤٣) البرتلي، ص ١٩١.
(١٤٤) عبد الله السالم : ... الشيخ محمد حامد، ص ١٠.

(١٤٥) البرتلي، ص ٢٧.
(١٤٦) البرتلي...
(١٤٧) محمدي بن خيري : بابا بن أحمد بيبه، ص ١٣.
(١٤٨) البرتلي، ص ١٩٤، ١٩٥.
(١٤٩) رواية عن العلامة أباه (محمد فال) بن عبد الله بن أباه ـ شيخ محضرة النباغية.
(١٥٠) البرتلي، ص ١٦٣، ١٦٤.
(١٥١)محمدي بن خيري : بابا، ص ١٤.
(١٥٢) محمد (بدنا) بن سيدي بن أحمدناه : مقال صحفي، اطلعت عليه مخطوطا.
(١٥٣) البرتلي، ص ١١٦، ١٩٣، ١٩٤.
(١٥٤) Mohamed El Moktar O. Bah : Littérature Juridique, p. 180.
(١٥٥) محمد سعيد بن دهاه (تحقيق) : ديوان سيدي عبد الله بن محمد، ص ١٩، وكذلك : عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية.
(١٥٦) محمدي بن خيري:بابا... ص ١٤، وللشيخ محمد الحافظ ترجمة في بغية المستفيد لسيدي العربي بن السائح وفي كشف الحجاب للحاج أحمد سكيرج العياشي وغيرهما.
(١٥٧) مثل شعبي شنقيطي، يشجعون به الطالب على الدراسة حيث كان وفي كل الظروف.
(١٥٨) محمد فاضل بن محمد سالم (تحقيق) : شرح مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال (مرقونة)، ص ٦.
(١٥٩) يحي بن البراء : الالفية.. ص ٢٥.
(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٧.
(١٦١) أحمد بن محفوظ (تحقيق) : الحسوة البيسانية للناصري، ص ٩.
(١٦٢) أحمد بن الأمين، ص ٢٤١.
(١٦٣) محنض بابا بن المختار : مدخل الى تاريخ الطرق الصوفية في موريتانيا، ص ٥٣ عزوا الى : Stewart : Islam and Social Order in Mauritania.
(١٦٤) البرتلي، ص ٢٠٨.
(١٦٥) البرتلي، ص ٦١.
(١٦٦) سيداتي بن الشيخ (تحقيق) : باب الأخلاق من كتاب الطرائف والتلائد، ص ٥.
(١٦٧) أحمد بن الأمين، ص ٢٩.
(١٦٨) وردت الرسالة وجواب جلال الدين السيوطي عليها في كتابه الحاوي للفتاوي (١/٢٨٤ ـ ٢٩١)، وفي النص هلهلة.
(١٦٩) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ٣٦ ـ ٣٧.
(١٧٠) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.
(١٧١) الكلاباذي : التعرف... ص ٤٨.
(١٧٢) الشيخ ابراهيم انياس : كاشف الألباس، ص ٢٦ وما بعدها.
(١٧٣) ورد هذا التفسير في كتاب : العقلية الصوفية ونفسانية التصوف للدكتور علي زيعور.
(١٧٤) الشيخ ابراهيم انياس : كاشف الألباس وكذلك الرسالة القشيرية.
(١٧٥) محنض بابا بن المختار : مدخل... ص ٥٣.
(١٧٦) راجع لموضوع الطرق في موريتانيا، المصدر السابق وكذلك الملف رقم ٢/٦٧/٦٨ (تقارير من العهد الاستعماري) في الوثائق الوطنية بنواكشوط.
(١٧٧) سيداتي بن الشيخ، مصدر سابق، ص ٦.

(١٧٨) عبد الله بن محمد الأمين : مصدر سابق، ص ٢٩.

(١٧٩) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية، ص ٢٨٦.

(١٨٠) ورد هذا في التقارير الاستعمارية، الملف E١/٨، الوثائق الوطنية بنواكشوط والظاهر أنه غير صحيح، اذ لم نجد ما يؤكد ذلك، وفي فتح الشكور (ص ١٦٥) ترجمة لعبد الله المكي، يبدو أنه شيخ قادري، وهو دفين ولاته فلعله المقصود.

(١٨١) رواية عن الأستاذ أحمد بن الطلبة.

(١٨٢) راجع لانتشار الاسلام عن طريق الدعاة التجانيين في افريقيا : Vincent Monteil : l'Islam noir.
وقد بدأ الاسلام ينتشر في الولايات المتحدة الامريكية في عقد الثمانينات على يد الشيخ حسن سيسي حفيد الشيخ ابراهيم نياس الكولخي، والشيخ حسن، أنجز دراسته الجامعية بالعربية والانجليزية وخبر الفرنسية بعد أن تربى في حضرة جده، ودرس على بعض العلماء الشناقطة مثل محمد الرباني، وقد أنشأ اتباعه زوايا للعبادة والعلم، خلال سنوات قلائل في نحو ٢٠ ولاية أمريكية، ويفد عليه في مدينة كولخ بالسنغال جماعات من الامريكيين لدراسة القرآن والدين ويساعده في هذه المهمة بعض الشناقطة.

(١٨٣) سكيرج، ص ٣٥٤ و٣٦٤ و٣٦٦.

(١٨٤) صدر لعلي تراوري بالفرنسية كتاب جديد عن الشيخ حماه الله.

(١٨٥) راجع : محمد محمود ودادي : لبرابيش، والملف E٢/٦٧/٦٨ في الوثائق الوطنية بنواكشوط، ومحنض بابا : مدخل...

(١٨٦) محنض بابا بن المختار في مقدمة رسالته : مدخل...

(١٨٧) Amadou Dia : Islam, Sociétés Africaines et Nature Industrielle, p. 69.

الباب الثاني

المحضرة ... مدرسة جامعة

ظروف الدراسة المحضرية ووسائلها

العملية التربوية في المحضرة

الدرس المحضري

الفصل الأول

ظروف الدراسة المحضرية ووسائلها

ليست المحضرة مدرسة منظمة ذات أوقاف وجرايات، بل هي خلية عمل تربوي تطوعي، تقوم في وسط طبيعي قاس يتحول فيه طلب العلم الى جهاد للنفس، وكبح لجماح العواطف ورياضة متصلة، تصلب عود الطالب وتربيه على الجلد والتحمل، فتكون المحضرة بالنسبة اليه مدرسة للحياة، لا للعلم فقط.

وعلى شظف عيش وضيق حال، يسعى الطلبة بشرف، ويسعى المجتمع معهم بسخاء لتأمين موارد الحياة الضرورية، فيجدون من ذلك ما فيه سداد من عوز.

وللدراسة في المحضرة مستلزمات ووسائل غير معيشية، لا يلقى الطلبة في تحصيلها كبير عناء، فهم يبرون أقلامهم ويكتبون على الألواح، بحبر يصنعونه بيسر، وانما يلقون بعض العناء في اقتناء بقية أدوات المعرفة، من ورق وكتب.

وينصب العمل الدراسي المحضري في ظرف زمني فضفاض، ولكنه مشحون في الغالب. فالزمن كله، أو جله، وعاء للدراسة والتدريس في المحضرة، لكن نظام التعليم الفردي والنهم المعرفي لدي الشناقطة يكاد يحمل الزمن ما لا يحتمل.

١ ـ مدرسة للحياة

ليست المحضرة مجرد مدرسة جامعة، تلقن فنون المعارف، وانما هي مدرسة للحياة، كذلك تعنى بتكوين الطالب جسميا وعقليا ونفسيا تكوينا متكاملا، فهي تعد الشباب الغض لمواجهة الحياة الخشنة، حياة البادية والصحراء القاسية. حتى اذا خرج منها بعد أن تقلب فيها شهورا وسنين، انصرف الى أهله جاهزا لمواجهة كل أعباء الحياة بقوة وجلد كبير.

لا بد للمحضرة من الغربة وشظف الحياة ومواجهة المسؤوليات اعتمادا على الذات. فالعادة أن يترك الطالب حي أهله وعشيرته ولو كانت فيه محاضر، ويضرب أكباد الابل ليلتحق بمحضرة نائية يستطيع فيها أن يفرغ لمهمتها، وينقطع اليها بعيدا عن مهام البيت وشؤون الأسرة ومعارف الحي. وبذلك تكون المحضرة جامعة لشتات الغرباء من جهات مختلفة وقبائل شتى، تجمعهم رابطة العلم في بيت واحد :

تلاميذ شتى ألف «العلم» بينهم لهم همم قصوى أجل من الدهر

ومع الغربة تتسم حياة المحاضر بشظف العيش وضيق ذات اليد فالطالب المحظوظ هو ذلك الذي يصطحب معه بقرة حلوبا أو ناقة الى المحضرة وتجد طلبة كثرا يأتون ولا زاد لهم إلا العزيمة فتتسع لهم صدور اخوانهم ويقاسمونهم العجين واللبن والماء بلامن ولا أذى. فتلك قوانين المحضرة وأعرافها وتقاليدها. لا أحد فيها يشعر بأن له ملكا يتميز به إلّا عندما يؤدي قسطه من واجب الرعاية والسقاية والتدبير. وهي واجبات يتقاسمها الطلبة بالتعاون والتناوب. كل مجموعة من الطلاب تنتظم في حلقة يسمونها «راحلة» ـ ولعل في ذلك احالة، إلى حالة التنقل المستمر في محاضر البادية ـ يشتركون زادهم على نهج الأشعريين ويتعاونون على تدبير شؤونهم من سقاية ورعاية للماشية وحلب وطبخ واحتطاب، وسلخ وشي اذا كانت هناك ذبيحة، وبناء للأعرشة (مساكن الطلاب) وتسييج لها وغير ذلك من مهام المحضرة التي هي مهام البادية بوجه عام.

ولا ننسى مع ذلك كله أن الطلبة يتجشمون عناء الحل والترحال مرات في السنة، فالمحاضر تجوب أحيانا مئات الأميال خلال فصول السنة.

واذا كان الطلبة لا يملكون في الغالب ما يقدمونه للشيخ من عرض الدينا، فانهم يعتاضون عن ذلك بخدمته بعرقهم وجهدهم، ويتبارون في هذا السبيل بشغف، فيضيفون أعباء إلى أعبائهم الكثيرة. كل ذلك وهم راضون مطمئنون بان الثمن زهيد والبضاعة ثمينة غالية. ولا يندر أن يستعين الشيخ بطلبته في تدبير شؤون المحضرة أو الحي.
ولمحمذ فال بن احمد فال يخاطب تلامذته :

أريد عونا في الحشيش الخشن وبعث شخصين لبير اللبن[1]

وغالب شأن الطلبة أن يقيموا تحت أعرشة يبنونها من جذوع الشجر وعيدان الثمام أو الحشائش المختلفة، بينما تجرى الدراسة في خيمة الشيخ وهم ـ في ظروفهم هذه ـ لا يشكون سغبا ولا نصبا، ولا يتأذون بحر ولا قر، بل يستهينون كل هذه المصاعب ويعتبرونها ثمنا بخسا للعلم الذي هو بضاعة غالية.

وهذا ما أوصى به حماد المجلسي (ق ١٣ هـ) محددا لشروط التعلم وآدابه.

له تغرب وتواضع واتـرع … وجع وهن واعص هواك واتبع
حتى ترى حالك حال المنشد … (لو أن سلمى أبصرت تخددي
ودقة في عظم ساقي ويدي … وبعد أهلي وجفاء عوّدي
عضت من الوجد أنامل اليد)
واقصد به وجه الذي انشاكا … ولا تناو فيه من ناواكا[٢]

وقد سمع طلبة المحاضر هذه الوصية ووعوها فالزموا أنفسهم اياها حتى وان خالف ذلك رأي ذوي القربى.

ومن ذلك أن موناك بن المصطفى بن مبارك التندغي اغترب لطلب العلم فوصلته رسالة من والدته تفصح فيها عن لواعج شوقها اليه ورغبتها في عودته. ولعل مما يشفع لها في مطلبها أن ابنها يستطيع أن ينهل من معين المعارف في حيه دون أن يغترب.

ولكن الطالب المثابر كان حريصا على البقاء في دار غربته الى أن ينال طلبته من العلم، فكتب معتذرا عن العودة، إلّا أن ينال حظا من العلم أو يدركه الموت :

سلام كعرف الروض غب الهوا طل … ألذ من التعليم في قلب جاهل
مدى الدهر ما دام التعلم واجبا … وطالبه لم يخش عذل العواذل
وبعد ففرض العين من كان جاهلا … له لم يفد فيه مجيء الرسائل
ولم ينتقل من خوف جوع وغربة … ولم تقتنصه قانصات الحبائل
فان نال فرض العين آب لأهله … وإلا ففرض الموت أول ناقل[٣]

ومع الغربة لا بد من التواضع والوقار والأدب والصبر على المكارة. وفي ذلك يقول أحدهم :

ليس التعلم موقوفا على النسب … ولا بكثرة ما يساق للحلب
ولا مزاود زرع أنت تحملها... … فخرا فتنفقها في اللهو واللعب
ولا بدراعة راقت خياطتها … ولا «بتاسفرة» للوح والكتب
ولا بمدرسة «مزار» حاكمها … عبل الشواء قوي اللحم والعصب
هيهات هيهات لا تطمع به أبدا … دون التواضع والوقار والأدب
وهمة لا تزال الدهر تطلبه … في حالة «الشطن» والأسفار والتعب[٤]

لقد كانت الحياة المحضرية في بلاد شنقيط قاسية، أكثر مما كانت حياة طلاب العلم في أي بلد آخر، خصوصا اذا نظرنا الى ما كان عليه الطلاب من سعة حال في المدارس العتيقة مثل مدارس العراق والأزهر والزيتونة والقرويين ويقارن أحمد بن الأمين بين ظروف الطلبة في مصر والمشرق وظروف الطلبة في بلاد شنقيط.

«اذا تأملت يا مشرقي طالب العلم في أرض شنقيط علمت أنك تجد من الاعانة ما لا يجد. لأن لك من الأوقاف ما يكفيك ووراءك امتحان يحملك على الاجتهاد لأنك اذا سقطت قطعت

من الدفتر واذا لم تكن عالما جعلت عسكريا، واذا صرت عالما تأخذ من الأوقات ما يكفيك وأنت ومن تمون».

«أما الطالب في أرض شنقيط فبعكس هذا كله. فانه اذا لم يتعلم لا يؤخذ للعسكر واذا طلب العلم لا يجد وقفا يتقوت منه، واذا صار عالما ليس وراءه وقف يضمن له ما هو مضمون لك»[٥].

وقد كان لطلبة المغرب مثل ما كان لطلبة المشرق، أوقاف وجرايات ومعونات من الدولة ونزه وغير ذلك من أسباب الحياة الرخية. وانما انفرد أهل شنقيط في العصور المتأخرة بهذه الصورة من صور الكد والعناء في طلب العلم وهي صورة كانت تطبع الحياة العلمية الاسلامية في العصور القديمة واختفت في المشرق لتنبعث في أقصى المغرب بعد قرون.

فقد حفلت الحياة التعليمية في البلاد العربية الاسلامية القديمة بتجارب قاسية، لم يزل الشناقطة يستلهمون منها العبرة والقدوة.

وهذه نماذج من «الحياة المحضرية» في مراكز الثقافة العربية الاسلامية الأولى.

فقد اضطر ربيعة الرأي (١٣٦هـ/٧٥٣م) الى بيع خشب سقف بيته وأكل ما يلقى من الزبيب وعصارة التمر في المزابل[٦]. وكان شعبة بن الحجاج (١٦٠/٧٧٦) يقول : «من طلب الحديث أفلس. بعت طست أمي بسبعة دنانير» وقال الشافعي (٢٠٤/٨١٩) : «لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملك وغنى النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح»[٧].

وروى المحدث أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧/٨٩٠ م) قال : «بقيت بالبصرة سنة ٢١٤ هـ ثمانية أشهر. وكان في نيتي أن أقيم سنة. فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثيابي شيئا بعد شيء حتي بقيت بلا نفقة» وذكر أنه مكث يومين ولم يطعم الا الماء[٨].

وفقد محمد بن اسماعيل البخاري بالبصرة من مجلس الحديث فطلبوه فوجدوه في بيت وهو عريان وقد نفد ما عنده.

وعموما فقد انطبقت على طلاب المحضرة في بلاد شنقيط الصفات التي أطلقها الرامهرمزي قديما على الراحلين في طلب العلم فهم «شعث الرؤوس، خلقان الثياب، خمص البطون، ذبل الشفاه، شحب الألوان، نحل الأبدان قد جعلوا همهم هما واحدا ورضوا بالعلم دليلا ورائدا لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ ولا يملهم منه صيف ولا شتاء»[٩].

وقد رسم أحد الشعراء صورة المحضرة من الداخل فقال :

تلاميذ شتى ألف الدهر بينهم … لهم همم قصوى أجل من الدهر
يبيتون لا كنّ لديهم سوى الهوا … ولا من سرير غير أرمدة غبر

ووصف أبو بكر الفاضلي حال الطلبة المحظوظين الذين لديهم «كنّ» يأوون اليه، اجتهدوا في تشييده ولكنه لم يكن عند حسن الظن فصار مادة تندر ومدعاة شكوى.

بنينا لدرس العلم حوشا مشيدا ... لنبرأ بالتكرار من علة الجهل
فلما تبوأنا من الحوش منزلا ... وجدنا مسلوبا من الدفء والظل
اذا لم تكن يا حوش دفئا ولم تكن ... بظل فخير منك «صدراية» الغسل(١٠)

وليست هموم السكن أكبر هموم الطلبة فهناك هموم الغذاء والملبس حملها الطلبة صابرين مصابرين مرابطين في المحضرة لا يبرحون ساحتها إلا من ضعف عزمه وخارت همته ووهنت قواه، كما يقول أحدهم :

اذا لاح شهر الصيف لا بد من فتى ... تنقل خوف الجوع عن لوحه دهرا
ترى قاصر الهمات يشتاق أهله ... وذو الهمة العليا اذا يألف الصبرا

وقد قدم الشيخ سيدي المختار الكنتي على الشيخ سيدي علي ابن النجيب فلزمه يأخذ عنه العلم. وكان معه طالب من قوم أهل يسار وخفض عيش لم يتعود بؤس الحياة المحضرية. قال الشيخ سيدي المختار : «وكان بالناس مجاعة فقال (زميله) لي : ارجع بنا الى أهلينا فان الله لم يكلفنا تعذيب أنفسنا بالجوع الدائم والعرى وأنواع الامتهان حتى اذا اخصب الناس ودرت أرزاقهم رجعنا». قال الشيخ سيدي المختار فعجبت منه وقلت له ان كنا فانما أخرجنا من بين ظهراني أهلنا الجوع فليردنا اليهم الجوع. وان كنا انما خرجنا لتعلم العلم ورياضة أنفسنا فنحن فيما خرجنا اليه بعد. والجوع من خواص أهله»(١١).

ومما يحكى عن تلاميذ أهل محمد بن محمد سالم أن أحدهم كرع في ماء يشرب منه، فنقرته وليدة وقالت له : «أنت شربت أمس، ولا يشرب في هذا اليوم إلّا من لم يشرب أمس وكان ذلك في شدة الحر»(١٢).

ويتأمل موناك بن المصطفى – وهو في المحضرة – لمته فاذا هي شعثاء، فيجرد منها شخصا يخاطبه بهذه الأبيات :

ألمة ان غدوت اليوم شعثا ... تواعدك المقارض بالمصال
فكم عذراء ناعمة عروب ... مفصمة الدمالج والحجال
منها لو فلتك وبنت عم ... تصون لك الدهان وبنت خال(١٣)

ويقول العلامة حرمة بن عبد الجليل في رسالة الى أهله من محضرة شنقيط :

سلام عليكم مارست شم يذبل ... وما جال ذكر الزاد في قلب مرمل
وما انشرحت نفس امرىء متغرب ... لثوب قشيب ناله بعد مسمل
وبعد فبرق خلب متألق ... من البعد لم تمرع به أرض ممحل

وكتب أحمد بن كداه الكمليلي الى أهله يشكو فاقته وهو في المحضرة...

فمن مبلغ أهلي بأني هاهنا ... أقاسي أمورا لست فيها بمنجد
يساورني جندا أبي وابن مالك ... ومن ساور الجندين لا بد يجهد

وأراد بابي مالك : الجوع اذ هي لقب عليه وبابن مالك:محمد ابن مالك صاحب المنظومات والتصانيف النحوية والصرفية واللغوية المعروفة(١٤).

ولم يكن هذا العناء وقفا على الطالب وحده، دون الأستاذ، بل هو سمه عامة وصبغة جامعة تطبع حياة المحضرة، وقليلة هي الأمور التي يمتاز بها الشيخ عن الطالب.

ويصف أحمد بن الأمين تعب العالم في بلاد شنقيط وما يكابده من المشاق فهو «من جهة التدريس يكابد من الاتعاب ما لا يحصى. فقد يستغرق، يومه كله في التدريس» أماما يكابده من مشاق الدنيا «فهو انه يكون موردا للضيوف وللمستفتين ولطالب الحاجة. وليس للقاضي ولا المدرس هناك أوقاف تصرف عليهما ولا يأخذ أحدهما من الطلبة، بل قد يعطيهم من يده»(١٥).

وضبط أحدهم برنامج العلامة محنض بابه بن عبيد في أحد الأيام، فقال انه خرج في الصباح يسوق بقره الى المرعى، ثم ذهب، والقدوم على عاتقه ليقطع أغصانا من الشجر يطوي بها بئرا يحفرها. وعاد يحمل الأخشاب الرطبة الى البئر، ووقف وقتا يراقب العمل فيها. ثم توجه الى مجلس درسه يدرس الطلاب، ثم اشتغل بقرى الأضياف وكان موروداً. وبقى هكذا حتى نام الناس، أقبل على تأليف كتابه «ميسر الجليل على مختصر خليل»(١٦).

وربما دار الزمن دورة، فأيسر الطالب وشيخ المحضرة معسر، كما وقع لحرمه بن عبد الجليل صاحب الأبيات السالفة، مع شيخه المختار بن بونه : فقد أصاب المختار فاقة ووعده حرمه خيرا فاستبطأ إنجاز الوعد، فكانت بين الاثنين مساجلة فيها عتب وملاطفة.

قال المختار :

لك الفضل ان واعدت يا حرمه والفضل ... ولكنما ميقات انجازك الفصل
فزرعك هذا لم يشخص بخارج ... ولم يتعلق فيه كيل ولا أكل

فأجابه حرمة :

هنيئا لشيخي قوله في والفعل ... وما نال من عرضي وزرعي له حل
فلانك عون الدهر يا شيخ انه ... لابنائه في مقتضى صرفه شغل
يعوق فتهجو من يعوق بصرفه ... ولو أنه ما شاب أخلاقه بخل
واني امرؤ عن هفوة الشيخ ان هفا ... صفوح على اني لما قاله أهل(١٧)

٢ ـ موارد المحضرة

كان الزوايا يمتلكون مقاليد الحياة الاقتصادية في «بلاد شنقيط». فهم أهل الماشية يرعونها وينمونها وهم أهل الزراعة لهم جل غلتها. ومنهم باعة وتجار. وكانوا يستعينون في مهامهم الاقتصادية، خصوصا التنمية والزراعة، باتباعهم لأنهم ينهضون بأعباء أخرى هي أعباء العلم والدين. ورغم أنهم أهل الثروة تقليديا، فقد امتازت حياتهم بالضيق، فكثير منهم فقراء ولعل ذلك يعود الى شح الموارد، والى أن الثروتين الزراعية والحيوانية موسميتان. وقليل من الناس من يدخر الكثير أو يجد ما يدخر. والقوم أهل كرم وتكافل اجتماعي نادر. وكثير منهم يؤدي المغارم لبني حسان. ثم ان الزاوي لا يفرغ لتكوين ثروته أو تنميتها إلّا وقد بلغ الأشد أو جاوزه، فهو مطالب قبل ذلك بالتفرغ للدراسة موسرا كان أو معسرا.

وتستقبل «المحضرة» شبابا وكهولا من الفئتين الموسرة والمعسرة، فيلتقي فيها طالبان : طالب ميسور الحال، يأخذ معه الى المحضرة بقرة أو بدنة أو أكثر وطالب معوز يأتي المحضرة خاوي الوفاض ويسمى «المؤبد» في البادية و«تلميذ غربة» في الحاضرة. أما الطالب الموسر فيخرج من حيه الى محضرة يختارها، يسوق بقرة. واذا كان حسن الحال اصطحب بقرتين وربما ثلاثا ليكون عونا لزملائه من الطلبة المعوزين.

وقد يسوق الطالب الى المحضرة ناقة حلوبا. وذلك الشأن خاصة في محاضر «أهل محمد سالم» و«أهل الحاج المختار» الذين يذرعون مسافات طويلة من انشيري وآدرار الى تيرس، حيث تتباعد نقاط المياه فتتحمل الابل من العطش والسير ما لا يتحمل البقر. لكن البقر هو المورد الأهم للمحضرة لغلبة الاعتماد عليه، فالبقرة هي منحة الطالبة التي بها يدخل المحضرة، وان لم تكن شرطا في الالتحاق بهذه المدرسة. وقد دافع العلامة محمد سالم بن عبد الودود عن البقر دفاعا طريفا ذكر فيه أنه لطلاب العلوم موائد، وهذه قطعته :

يعيبك أقوام بانك مورد	ذويك شتاء والنجوم رواكد
وتلك التي منها اصطفيتك مقتنى	(مصائب قوم عند قوم فوائد)
معين لأرباب الطهور ومومن	من اللوح ان قاد الودانق قائد
اذا ما اضلوا منك صرما تيمموا	زواخر تهديهم اليها الموارد
ومن كثرة الترحال في كل شتوة	بتيه تتيه البرت والبرت قاصد
فانت لروام الحضور مدائن	وانت لطلاب العلوم موائد
على رسلك الأقوام تطرق رافدا	برسلك أكرم بالذي أنت رافد
ينال نداك المختبي وهو راقد	ويجني جناك المحتبي وهو قاعد

في القطعة مقارنة ضمنية طريفة بين الابل، والبقر، فالابل لا تحتاج للشرب في الشتاء، ولكن أهلها يظلون في ترحال دائب بينما يستقر أهل البقر، أو يقلون الحركة والترحال. واذا ضل البقر سهل العثور عليه لأنه لا يلبث أن يقصد أحد المناهل، لعدم صبره على العطش فيترصده أهله عند المناهل فيجدوه. أما الابل فأمرها أصعب لصبرها على العطش وسرعة

سيرها. ومن عادة البقر أن يعود الى مرَاح أهله مع غروب الشمس دون أن يتكلفوا عناء البحث عنه. أما الابل فلا بد للراعي من ملازمتها حتى يسوقها الى الحي عند الرواح، ثم ان البقر يحلبه الرجل قاعدا بينما يحتاج حلب الابل الى رجلين ينجزان مهمتهما قياما.

وخلاصة القول ان البقرة مورد أساس من موارد المحضرة. واذا انضافت اليها ذبيحة غنم من وقت الى آخر وبعض الحبوب (دهن، ذرة، هبيد) اكتمل نعيم المحضرة الغذائي.

والعادة أن يندمج الطلبة بعضهم ببعض، لا يمتاز الموسر عن المعسر بشيء يقتسمون مالهم بينهم سواسية على نهج الاشعريين وينتظمون في مؤسسات تضمن تطبيق هذا المنهج على أحسن وجه، كل أربعة فما فوق يشكلون «راحلة» وهي عبارة عن تعاونية استهلاكية مصغرة تضم أفرادا يقتسمون مالهم سواسية ويلتقون حول مائدة واحدة في الصباح والمساء. وقد ينطمس «المؤبد» في «الراحلة» فيعيش مع اخوته كمايعيشون لا غضاضة في ذلك ولا ضير. واذا ضاقت حال المحضرة خصوصا عندما يتعدد المؤبدون يتدخل المجتمع (الجماعة) لرعايتهم والانفاق عليهم كما ينفق على الضيوف فتتناوب أسر الحي اعالة الطالب (أو الطلبة) كل يوم على أسرة وقد قامت رعاية المجتمع لطلبة المحاضر على اعتبار أن هذه الطائفة التي نفرت لتتفقه في الدين انما تؤدي فرض كفاية لا يلزمها بعينها وان على المجتمع لذلك أن ينفق عليها لتعود هي فتنفق عليه مما أوتيت من العلم(١٨).

لقد أخذت الأحياء البدوية والحضرية في بلاد شنقيط بصيغة المنحة العصرية على نحو ما. فالمنحة مبلغ مالي تنفقه الدولة على طلبتها ليعودوا فيضعوا خبرتهم في خدمتها وخدمة المجتمع. والغاية من توفير المنحة هي ضمان لقمة العيش وهذا ما يؤديه المجتمع لطلبة المحاضر. وللمدن في ذلك تقاليد تختلف أحيانا عن تقاليد البادية،فلطلبة المحاضر في المدن منازل وموارد حضرية.

وقد كان في شنقيط داران للتلاميذ ما تزال احداهما باقية ولكنها خاوية!! وكانت لهم دار ضيافة في أطار أسسها محمد الأمين بن سيدي أحمد بن البشير. ولهم دار في ولاتة.

وقد بنى الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب التواتي الغلاوي، قرية قصر السلام، وكان أول ما بنى المسجد ثم دارا له ودار الامام ودار التلاميذ.

وكان من العادات المرعية في الحواضر أن ينادى في المسجد بعد صلاة العصر على غذاء الطلبة. فيتسابق الحاضرون كل يتطوع بنفقة طالب أو طالبين أو أكثر خلال اليوم والليلة. واذا كانت الجمعة نودي على ملابسهم فيتسابق الناس لتوفير كسوتهم وغسل ملابسهم وخياطتها. والعادة أن تقوم النساء بهذه الخدمة.

وغالبا ما يستفيد شيخ المحضرة، بدوية كانت أو حضرية، من ثروته الخاصة ان وجدت في اعالة الطلبة، ينفق عليهم بسخاء ودون أن يطلب على بره جزاء. فذلك من كمال استاذيته وعلو شأنه.

ولا تزال توجد صور من هذه الكفالة السامية التي تضيق بها جل الدول الحديثة ذرعا.

وفي اكجوجت لاحظ خبير دولي أن شيخ المحضرة، أحمد بزيد بن حياني يعول ١٠٠ طالب يدرسون في محضرته[١٩].

وكانت البادية تغدق عطاءها لطلبة العلم وهي منهلهم المورود. ولم يكل المجتمع هذه المهمة الى سخاء الناس، بل قننها ووضع لها ضوابط وابتدع لها قواعد ملزمة. فكان من التقاليد الثابتة في اعالة طلاب المحضرة أن تحجز مواد معينة، في مناسبات خاصة تكون خالصة لهم :

- شاة أو بقرة أو بدنة حسب الحال، بمناسبة كل عقيقة في الحي،
- وجبة (مائدة) أو شاة أو بقرة أو بدنة بمناسبة كل زفاف،
- ظهر كل ذبيحة من البقر،
- عنق كل نحيرة من الابل،
- مد من كل حمل من أحمال العير التي تمر بالحي أو تصل اليه،
- مواساة خاصة من كل قادم الى الحي، يبعث الى طلاب المحضرة ما تيسر من الهبات والهدايا، حسب حاله،
- قضاء عطلة الخميس حيث يشاؤون، يختارون احدى خيام الحي فيتعين عليهم الاحسان اليهم واكرام نزلهم،
- ثلث الماء أو ربعه (الدلو الرابع) من مياه البئر لرواياهم وماشيتهم،
- الغدوة (وجبات خاصة) تعد للطلبة اذا أكمل أحدهم دراسة متن من كبريات المتون،
- اذا كان للطلبة خباء تتولى نساء الحي خياطته وترقيعه عند الاقتضاء،
- اذا تخلفت حلائب المحضرة يؤذن الطلبة اذانا خاصا بهدءة من الليل، فتبعث اليهم كل أسرة ما استطاعت توفيره من اللبن (الحليب)،
- وقد ينادي الطلبة صبيحة الاربعاء (آخر أيام الدراسة الأسبوعية) «بالقلية» وهي حبوب تقلى يتفكه بها الطلاب في انتظار الغداء فيأتيهم ما يطلبون.

على أن هذه الأعراف قد تتبدل أو تختلف ما بين مكان ومكان أو زمان وزمان وقد شكا بعض الطلبة تبدلها فقال :

رحم الله عادة للتلاميذ أميتت من بين حي كرام
أكلوا ظهرنا وجاؤوا برأس ان هذا يشيب رأس الغلام[٢٠]

الرسالة المفتوحة

على ذينك البيتين آنفي الذكر مسحة فكاهة واضحة. وتلك من الحقوق المعنوية للطلبة.

فقد تواطأ المجتمع على أن يفسح لهم مجال التفكه وأن يغفر زلاتهم ويتجاوز عن هفواتهم

ويمنحهم من رحابة الصدر ما يعوض ضيق ذات اليد. وهكذا كان الطلبة يروحون عن القلوب المكدودة باللجوء إلى المجون والعدول عن عزائم الاخلاق الى رخص العادات دون أن يغلوا في ذلك أو يعتدوا. وفي هذا الاطار قبل غيره تندرج الرسالة المفتوحة التي تشكل أحد موارد المحضرة.

فللطلبة رسالة يجتهدون في تحريرها فيضمنونها وصف ما هم عليه من فقر وفاقة ويمجدون العلم ويسردون فوائده ويذكرون ما أعد الله للمحسنين من حسن الخلف وجميل الثواب، ويهددون من غلت يده الى عنقه وينذرونه عاقبة البخل والشح، وهي رسالة يمتزج فيها الجدل بالهزل، يستمتع الناس بقراءتها ويتسلون، ولكنهم لا يستطيعون إلّا أن يأخذوها مأخذ الجد فيستجيبوا لما فيها بما تيسر من الهبات...

يدور الطلبة بهذه «الرسالة المفتوحة» في الحي وربما الأحياء المجاورة، يقرؤونها على الناس أو يبعثونها مع الركبان والمسافرين، فتؤتي أكلها.. انها صيغة عتيقة من النداءات التي توجهها الدول الفقيرة اليوم لاستدرار هبات الدول الغنية. وتوجد من هذه الرسالة ـ النداء، نماذج كثيرة، فالمحاضر تتبارى في تحريرها كما تتبارى في قرض الشعر وتطرير المتون. وهذا نموذج ينسب تحريره الى سيدي عبد الله بن محمد (ابن رازكه) :

«الحمد لله الذي جعل وجود الجود عصرة النابع والمنجود وأنعش بذوي المآثر كل جد عاثر وفجر من أكفهم ينابيع الندي فأغنت المسنتين عن صوب الندى والصلاة والسلام على محمد الذي قال وأصدق بمقاله : الناس كلهم عيال الله وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله.

«وبعد فمن كل أروع شبوب راكب من جياد الفهم كل سابح يعبوب.

سلام كعرف المسك هبت به الصبا وكالروض فاحت بالعشي ازاهره

«الى من اقتنوا قنن المجد والعلى وعمروا دمن الكرم والسخاء موجبه أن لاوطاءلنا سوى الغبراء ولا رواق سوى الخضراء ولا كفاء سوى صرصر النكباء أو صوب ديمة هطلاء، فتلقوا (كتابنا) بالبشاشة والطلاقة والبذل لما بلغت وما لم تبلغه الطاقة ظفرت بالخير أكفكم وبلت، ورحبت عليكم البلاد وطلت، ورزقكم الله عيشا تلين لكم مثانيه ومعاطفه وتدنو لك مجانيه ومقاطفه. لا زلتم بحور المؤملين وبدور المتأملين غائصين عيالم البحور الزاخرة لدرر العلوم الفاخرة. لا كانت ساحتكم بعد خصبها صاحه ولا زالت روايا المزن تحسد من أحدكم الراحه. هذا ونحن معدون لسد المفاقر وتجديد آثار المآثر :

كل بيضاء ذات دل مليح تحمل البدر بالجبين الصبيح
ولها فاحم أثيث وقد كدجى الليل والقضيب المروح
ولها، كلّ نظرة وابتسام، طرف أحوى وضوء برق لموح

«ولتعلموا نا كفلاء لمن أعطانا بآجل الثواب وعاجل الخلف ولمن حرمنا بآجل العقاب وعاجل التلف. وانظروا ان شئتم مصداق ذلك في الوعيد الوارد في الذين يبلخون ويأمرون الناس بالبخل.

«والمتعلمون أحق من أنفق عليهم مهج النفوس وسواد العيون لولاهم ما عرف الهجان من الهجين ولا فريق بين اللَّجين واللُّجين. وبهم قامت السموات والأرض وأنارت العرصات يوم الحساب والعرض :

من أمكم لرغبة فيكم ظفر — ومن تكونوا ناصريه ينتصر
خير العطية ما كانت معجلة — وأكرم الناس من يعطي على عجل
«فما رجعت بخائبة ركاب — حكيم ابن المسيب منتهاها»[٢١]

ومما يؤكد الطابع الهزلي لهذه الرسالة مع صدق دوافعها وحاجة الطلبة الى ما تدره عليهم من النفحات، وجود تقليد مغربي مماثل تبدو المسحة الهزلية فيه أجلى وأوضح.

فقد كان للطلبة في المغرب «سلطان» هو عريفهم المتحدث باسمهم. وكان لهم نزهة سنوية يخرجون اليها في فصل الربيع، تمولها الدولة. ويشارك في تمويلها المحسنون بهباتهم وبما يسددونه من «الضرائب» التي يجبيها سلطان الطلبة من وجوه البلاد وتجارهم بمراسيم تصدر بامضائه وتختم بطابعه يؤديها هؤلاء عن طيب خاطر. وكان السلطان يبعث رسائل إلى أعيان البلد ويحدد فيها «الضرائب» المفروضة عليهم» مهددا بأنه اذا لم يؤد المبلغ المفروض فانه «يسلط عليهم أسراب الجراد وكتائب الجرذان» فعليهم «اذا أردوا النجاة أن تجود أريحيتهم»[٢٢].

فلعل سيدي عبد الله بن محمد، وقد عاش زمنا في المغرب قد نقل هذا التقليد الى أهل شنقيط، فحذوا فيه حذو المغاربة.

* * *

ترتبط كل هذه الصيغ والأساليب بالمحضرة كمؤسسة، فلا يتردد الطلبة في استغلالها ولا يستنكفون أن يبعثوا رسائل الاستجداء أو ينادوا «بالقلية»، أو يطلبوا نصيبهم من حمولة القافلة، لأن الفرد من الطلاب يتصرف في هذه المواقف باسم المؤسسة (المحضرة) لا باسمه الشخصي. وهو يتصور أنه في كل هذه المواقف يمارس طقسا اجتماعيا أقره المجتمع، وألزم المحضرة اتباعه. ويتصور أنه يمارس في كل ذلك ضربا من الهزل المباح يأخذه الآخرون مأخذ الجد ضرورة.

ونظرا لأن هذه الصيغ والتقاليد تشكل تقاليد «مؤسسية» مرتبطة بالمحضرة ككيان جمعي، فان الطالب يتوقف عن ممارستها بمجرد انفصاله عن دائرة المحضرة فلا يستجدي ولا يتكفف

الناس ولا يشكو فاقته لغيره. ولو فعل لافتضح، ولطاردته عقدة ذنب ولا نحط شأنه في المجتمع من حوله. ذلك أن ما يستحسن في المحضرة من هذه التقاليد يستهجن خارجها. فالمحضرة من هذه الزاوية مركز استجمام واستراحة من الطقوس والتقاليد الاجتماعية المهيمنة. والحياة المحضرية اجازة من كل الأعباء المادية والنفسية التي تحفل بها الحياة في محيط الأسرة والعشيرة. وفي ذلك ما يخفف من عناء الطالب الذي يكابد في طلب العلم، ويلقى في سبيله عناء كبيرا.

٣ ـ أدوات المعرفة والكتابة

كانت الحياة المحضرية تقوم على مبدإ «الاكتفاء الذاتي» وكان حظ الأدوات التعليمية من هذا الاكتفاء حظا غير يسير فقد كانوا يتخذون الألواح والأقلام ويصنعون الاحبار من الأخشاب المحلية والأطيان كما كانوا يوقدون النار ليلا، فتكون ضياء للقارىء ومصطلى للمقرور.

وقد لجأوا الى استيراد بعض المواد مثل الورق خاصة والكتب المصنفة خارج البلاد، وسنلم فيما يلي بما كان للوح والقلم والحبر والورق والكتاب من شأن في المحضرة.

أ ـ اللوح والقلم :

اللوح والقلم هما مبدأ أمر العلم وعماد الحياة المحضرية لهما فيها تلك المكانة التي يراها المؤمنون للوح المحفوظ والقلم في عوالم الكائنات.

وفي حياة الطفل يومان متميزان : يوم يحمل فيه اللوح يقولون «رفد اللوح» أي بدأ الدراسة ويوم يأخذ فيه قلمه فيبدأ في كتابة درسه بنفسه بعد أن يكون قد تدرب على الخط باستخدام قلم جاف يتتبع به كتابة شيخه أو من «ينقش له» من الخطاطين الذين يرسمون نموذجا يحاكيه الطفل في بدء أمره.

وغالبا ما تتخذ الأقلام من الحلفاء أو الثمام، وأعواده مدورة، أو من جريد النخل وأعواده دقيقة مسطحة. يتخيرون لذلك من الأعواد ما استقام واستوى وجف فنفدت رطوبته. وغالبا ما يكون طوله دون الشبر (ما بين ١٢ و١٦ سم) ويقومون ببري رأس العود بموسى أو شفرة يأخذون من وسطه وأطرافه حتى اذا دق رأسه شقوه من النصف شقا خفيفا دقيقا به يسهل انسياب الحبر. وغالبا ما تكون للطالب عدة أقلام تختلف الكتابة شكلا وحجما باختلافها يتخير منها ما يشاء ويعوض منها ما انكسر أو ضاع من أقلامه.

وهم يعنون بحفظ أقلامهم جيدا وربما اتخذوا لها أغلفة خاصة أو أودعوها في غلاف كناش أو كتاب من كتبهم مجلد، ويكون ذلك بعد أن ينظفوها من آثار الحبر السائل ويصلح القلم للكتابة على اللوح والورق معا إلّا أنهم يختارون للورق أقلاما أكثر دقة تكون من الجريد.

أما اللوح فيتخذونه من الأخشاب الصلبة الغليظة(٢٣). وهو عادة مستوي القاعدة مستطيل الشكل الى رأسه فيكون أعلاه مقوسا نصف دائري غالبا ومثلثا هرميا نادرا.

ويتراوح طول اللوح بين ٣٠ و٥٠ سم. أما عرضه فيتراوح بين ١٥ سم و٢٣ سم. ويتخذ الطفل في الكُتّاب لوحا من الحجم الصغير الى أن يتقدم في دراسة القرآن فيتخذ كطالب المحضرة لوحا كبير الحجم.

وهم يسطرون اللوح عند كل كتابة بإمرار قاعدة القلم عليه مرا سريعا متكررا حتى تتميز السطور ويملس مستواها من اللوح. فبذلك تستقيم خطوط الكتابة، ويتجنبون انمياع الحبر في الخشب. ويتسع اللوح لأربعة دروس : اثنين في كل وجه. وقد يزيد على ذلك، بلا حد، خصوصا بالنسبة للأطفال الذين يتعلمون تهجية الحروف. وكلما ملأ الطالب لوحه عاد فمحا الدرس الأول ليكتب درسا جديدا محله.

ولا يكون ذلك إلّا وقد أتقن حفظه، وتكون الدروس الأخرى باقية تمر عليها العين لتزداد رسوخا في الذاكرة، الى أن يتم محوها لكتابة درس آخر.

ويفضل الناس كتابة النصوص التي يدرسها الطالب على الألواح حتى وإن توفرت الأوراق، ذلك أنهم يعتقدون أن اللوح أبرك وأن النص المقروء في اللوح أيسر حفظا وأرسخ في الذاكرة. ويستأنس القوم لذلك بقوله تعالى : «وإخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين لهم لربهم يرهبون».

ولهذا ارتبط اللوح بالمحضرة ارتباطا حميما حتى صار رمزها الخاص. وشغف به الشناقطة كثيرا كما شغفوا بالمحضرة، وأكبروا شأنه كما أكبروا شأن العلم، وهو رمز الحياة المحضرية في التحية التي يوجهها اليه الشيخ محمد بن حنبل :

عم صباحا أفلحت كل فلاح	فيك يا لوح لم أطع ألف لاح
أنت يا لوح صاحبي وأنيسي	وشفائي من غلتي ولواحي
فانتصاح امرىء يروم اعتياضي	طلب الوفر منك شر انتصاح
بك لا بالثرا كلفت قديما	ومحياك لا وجوه الملاح

ب ـ الحبر :

صنع الشناقطة الحبر واستخدموه بألوان شتى. ولكنهم أكثر استخداما للحبر الأسود، فبه يكتبون جل ما يكتبون في الألواح وعلى الأوراق. وانما يلجأوا الى الأحبار الأخرى في رسم الختمات على الألواح أو في المصاحف لتزيينها ولضبط رسم القرآن أو في الكتب لابراز عنوان أو علم من الاعلام ولتمييز النص من الشرح خاصة، أو الأصل من الزيادة. والحبر الأحمر أكثر ما يستخدمون بعد الحبر الأسود. وهم يستخدمون الأحبار الملونة في كتابة المتن

تمييزا له عن الشرح، وفي الطرر خاصة. وقد اتخذوا الألوان أعلاما على بعض المتون لالتزامهم اياها في كتابتها، فقد أكمل المختار بن بونة الفية بن مالك بنظم استدرك فيه ما لم تتضمنه الألفية وتضمنه التسهيل. ولتداخل أبيات النظمين ميزوا بينهما بلون الحبر فكانوا يكتبون الفية ابن مالك بالحبر الأسود وزيادات ابن بونة بالأحمر ويسمون هذا «الاحمرار» وذلك «الاكحلال». وكذلك الشأن في لامية الافعال لابن مالك، كانت تكتب بالأسود واستدراكات الحضرمي عليها بالاخضر وتكملة الحسن بن زين بالاحمر.

وكانوا يصنعون هذه الأحبار غالبا من المواد المحلية.

الحبر الأسود :

يصنعونه من صدإ الحديد والقرظ، وهو ثمرة «آمور» (الغضا) وورق «التمات» (السلم) والصمغ وقد نظم أحدهم المعادلة الكيميائية البسيطة في بيت رجز :

جزءان من قرظ وجزء من سواد   والرابع الكندر تم ذا المداد(٢٤)

والعادة أن تترك هذه الأخلاط تختمر في مرجل أو قطعة منه طيلة ليلتين أو ثلاث حتى يسود الماء ويثخن. ويحرك كل صباح ومساء بعود خشب. واذا كان الحي متنقلا في صحاري تيرس ونحوها حيث لا توجد المياه وإنما يعيش الناس باللبن ويتيممون لصلواتهم فان المحبرة تحضر باللبن نفسه، ويعصرون من آسكاف (شجرة من الحمض) مادة سائلة يغسلون بها الألواح(٢٥).

الحبر الاحمر :

يحكون «الحميرة» (المغرة) وهي مادة ترابية حمراء في ماء وصمغ. وقد يعصرونه من نبتة يسمونها «ام الدم» تتخذ أحيانا بديلا للحناء في الزينة.

الحبر الاخضر :

يصنعونه من أوراق عشب بدوي يسمونه «الشريه».

الحبر الاصفر :

يعدون الحبر الأصفر من أوراق شجرة «تالولاكت = تكفيت» أو «يرتمه» وهي نبات اصفر يستجلب من السنغال.

ج ـ الورق :

لم يكن الورق مادة أساسية في حلقة الدراسة، فقد كان الطالب يكتب درسه على اللوح ولكنهم كانوا يستعملون الورق لتدوين المتون واستنساخ المصنفات وتدوين كنانيشهم، فكان الورق بذلك عنصرا أساسيا في الحياة الثقافية.

ولم يؤثر عن الشناقطة أنهم دونوا على الرق أو الرقاع أو العظام ونحو ذلك. وهذا أمر مفهوم لتأخر ظهور النهضة الثقافية في البلاد من ناحية، ولأن صناعة الورق ظهرت في المغرب في وقت مبكر، فقد كان في فاس على عهد المرابطين والموحدين ٤٠٠ معمل للورق[٢٦].

وقد أخبرني العلامة محمد سالم بن عبد الودود راويا عن غيره أن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا قام بتصنيع الورق محليا، من الأعشاب. ولكن هذه التجربة لم تعمر فيما يبدو. واستمر الشناقطة يستوردون الورق من المغرب ثم من مراكز التجارة الأوروبية في السنغال وعلى المحيط.

وذكر محمد اليدالي في مقدمة كتابه «المربي على صلاة ربي» انه ركب البحر الى مركز «أغادير دوم» التجاري وكان مركزا لتجارة المحيط تعاقب عليه البرتغاليون والهولنديون والانجليز الى أن استقر به الفرنسيون، فاستقبله «النصارى» هناك بالحفاوة والتكريم، وكان من أبرز الهدايا التي قدموها اليها كميات من «الكاغد الشاطبي» وقدوهم بعض الباحثين فظنوا أنه أتى بكتب من رحلته هذه[٢٧].

ومن نكتهم في طلب الورق في صيغة لغز ما كتب به الحسن بن أحمد محمود بن سيدي سليمان، تلميذ محتض باب الى محمد بن المقداد في السنغال :

وما اسم رباع آخراه موافقا	اذا اشتد ثاني كله في الدلالة
وعند انحذاف للأخير موافق	حصانا فاعيى كل واري الذبالة
وفي القلب منهم قرهم قد شكوته	اليك ابن مقداد ازدهر برسالتي

ففهم ابن المقداد مراد العالم الشنقيطي (مهرق) وبعث اليه ما طلب وكتب في جواب أبياته :

فمقداد ما قد رمته منه نلته	وكنه الذي أخفيته قد جلا له
مرامك باد جمعه قلب طارق	وقلب كتاب قد عرفنا جلاله[٢٨]

وفي القديم كان الورق الذي يصل البلاد خشنا فكان الناس يعالجونه بالدلك حتى يلين ثم يضعونه على صفيحة من حديد مشدودة عليها سيور دقيقة من الجلد ويمرون على السيور كتلة معدنية ضاغطة فتنطبع السطور على الورق.

د ـ الكتاب والمكتبة :

كان الورق نادرا عزيز الوجود، وكذلك كان الكتاب، فقد نأت ديار القوم وشط المزار بحواضر الوراقة ودور العلم وبيوت الحكمة، فلم يكن من سبيل لاقتناء الكتب في بداية الامر الا ضرب أكباد الابل عبر الصحراء لارتياد أسواق الوراقة في المغرب والمشرق.

وحين شبت المحضرة عن الطوق أدت دورا جيدا في تيسير تداول الكتاب، فكانت مؤسسة وراقة، يتحول فيها الطلبة الى نساخين يستنسخون ما بالمحضرة وبالحي من الكتب ثم يتفرقون في أرجاء البلاد حاملين كتبهم معهم، وكان العلماء يتسامعون بالكتب الجديدة أو النادرة فيشترونها أو يستنسخونها بثمن.

وكانت المخطوطات تشترى بأثمان باهظة، لندرتها ولما تكلف من جهد[٢٩]. ومن غرائب الصفقات أن أحدهم اشترى نسخة من القاموس للفيروز ابادي بـ ٢٠ بعيرا[٢٩ مكرر] واشترى آخر ديوان المتنبي بعبد[٣٠]. وحين مر سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم بمصر أكرمه أميرها وأهداه فرسا عتيقة من فصيلة «الكحيلات» المعروفة فسئل عنها فقال «جعلتها حطابا» يعني أنه اشترى بها كتاب مواهب الجليل بشرح مختصر خليل للحطاب[٣١].

وحتى في القرن العشرين وبعد ظهور المطابع وانتشار الكتب المطبوعة، كان معدل سعر المخطوط في جنوب بلاد شنقيط ٣ الى ٤ جمال كما تشهد بذلك التقارير الاستعمارية[٣٢].

وكانوا يشترون المخطوطات من النساخ المحليين، ويسافرون لشرائها من المغرب، ومن البلاد العربية الأخرى في رحلاتهم للحج. ولعل أهم سوق لتصدير المخطوطات ثم المطبوعات من بعد، كانت المغرب، فقد ازدهرت المحاضر في عهد الدولة العلوية التي عنيت بالمخطوطات عناية خاصة، يكفي أن نضرب لها مثلا بما ورد عن السلطان مولاي اسماعيل، الذي تعرف على ابن رازكة (سيدي عبد الله بن محمد) الشنقيطي وأكرمه، فقد وقع في أسره ٥٠ نصرانيا واشترط لاطلاق سراحهم فدية من المخطوطات، فطلب عن كل أسير ١٠٠ مخطوط نادر من المخطوطة المحفوظة في مكتبات الغرب، أي ما مجموعه ٥٠٠٠ مخطوط[٣٣]. وهي واقعة تذكر بفداء أسرى بدر الذين قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتبة منهم الافتداء بتعليم عدد من الصحابة.

وقد استقدم سيدي عبد الله بن محمد في عهد السلطان مولاي اسماعيل مكتبة كبيرة أهداه إياها ابن السلطان وواليه على بلاد السوس محمد العالم. وكان العلماء من بعد يطلبون المخطوطات من سلاطين المغرب ويسافرون اليهم للحصول عليها. وقد سافر الشيخ سيديا الكبير الى مراكش لشراء الكتب، وكان اذا أراد أن يقضي الثمن يسلم الى البائع ما بقى عن المحاسبة بالغا ما بلغ[٣٤]. ونجد له رسالة يطلب فيها من السلطان تزويده ببعض الكتب[٣٥].

ولما عاد الشيخ سيديا من رحلته الى المغرب هنأه بابا ابن أحمد بيبه بغنيمته :

أضاءت بلاد الغرب لما اتيتها	وأصبح يبكى عند ترحالك الغرب
وجئت بكتب يعجز العيس حملها	وعندك علم لا تحيط به الكتب[٣٦]

وقد حج اخوان من العلويين (أكتوشن وأمين ابنا السيد) فعادا من الديار المقدسة وقد أوقرا ركابهما كتبا وحملا معهما من ماء زمزم فصار ما جلباه مضرب مثل «أصل ما هو مجيبة أولاد السيد».

ولندرة الكتب وضرورة العلم أفتى فقهاء أدغ ماجك بجواز سرقتها، كما يذكر الأستاذ محمد بن حامد... ولعلهم اعتبروها من المنافع المشاعة كالماء والكلأ والنار التي يشترك فيها جميع الناس.

وكانوا يلجأون الى الاستعارة ويلحون في ذلك. ومنهم قوم يرفضون مرددين :

ومحبوبي من الدنيا كتاب … وهل أبصرت محبوبا يعار

ان الذين استعاروا كتبنا حسبوا … ان الاعارة منها تملك الكتب

ولكن الاعارة ظلت موردا من موارد الكتب وكان الشعر أداة هامة للنجاح في طلب الاعارة أو للامتنان بها.

وقد طلب محمد بن الطلبه اليعقوبي من حرمه بن عبد الجليل العلوي أن يعيره كتاب التبصرة لابن فرحون، ففعل، ولكنه كتب إليه بما في نفسه من الحرص على الكتاب وصور خواطره في أبياته فكأنه هم بتلبية الطلب أولا ثم تردد ثم جزم أخيرا :

يا ابن المشايخ والأشياخ أسلافه … جزاء من يسعف العافين اسعافه

لكن تبصرة الحكام مبخلة … ولؤلؤ وسواد العين أصدافه

ومن أعار سواد العين أتلفه … لكن يهون علينا فيك أتلافه(٣٧)

ولما أخذ المختار بن بونه في نظم التسهيل في النحو احتاج الى مراجع لم تكن لديه فذكر له الدماميني على التسهيل عند محمذ بن بابانا العلوي فقصده بهذه الأبيات :

أتيتكم يا قضاة العلم والدين … وليس لي غرض سوى الدماميني

عن كل حب به قد كنت ذا كلف … وكاد زائدة قد كاد يسليني

كأنكم وهي للتحقيق ترتفعوا … على ظنون فؤاد ذات تحسين

فقال محمذ : أعطوه اياه على قبح أبياته(٣٨).

واستشفع محمد الحسن بن محمد عبد الجليل بالشعر في طلب اعارة كتاب التصريح على التوضيح من محمد سالم بن الأمين : فكتب اليه :

مني سلام الى ذي المحتد السامي … محمد سالم الأعراض من ذام

فانني أرتجي التصريح عارية … من راحتيه مدى عامين أو عام(٣٩)

وأضعف الايمان، لمن لم يستطع اقتناء الكتب، أن يكون للفتى كناش، أي كتاب جامع يدون فيه الفوائد والنوادر والشواهد، فتجده باقة أزهار ملونة فيها من كل شيء.

ومن الأبيات الشعبية التي يتمثل بها أهل المحضرة في هذا المعنى :

لا بد للزاوي من كناش … يحوي به العلوم وهو ماش

وشعار الكنانيش بيتان ينسبان الى مالك بن أنس :

العلم صيد والكتابه قيده … قيد صيودك بالحبال الموثقة

فمن الحماقة أن تصيد حمامة … وتردَّها وسط الأوانس مطلقه

وقد تحولت بعض الكنانيش الى كتب، مثل كناش أحمد الصغير الذي جمعه ابنه وسماه «منن العلي الكبير في فوائد أحمد الصغير» والمحبوك لأحمد بن كداه الكمليلي جمع فيه كلما اطلع عليه من الفوائد والفتاوى والنوازل. رويت عن الأستاذ محمد ابن حامد أن اشتقاق تسميته «المحبوك» لأنه دون في دفتر مشبك بالمسامير. وكان هذا النوع من الدفاتر غير معهود في البلاد.

ومن الكنانيش التي تحولت الى مؤلفات متداولة «الكرشة» لمحمد بن أمين بن الفراء التندغي، جمع فيه كثيرا من فتاوي الشناقطة مضيفا تعليقات وملاحظات.

تجليد الكتاب وصيانته :

كان الشناقطة يعنون بكنانيشهم وكتبهم في بيئة طبيعة قاسية يواجهون فيها الأمطار والعواصف والأغنام والأبقار التي تدخل الخيم وتلتهم ما استطاعت أن تصل اليه من ورق وغيره. ولم تكن لهم صناديق ولا دواليب، وإنما أوعية من جلد مدورة يحملون فيها متاعهم ومنه الكتب.

ومع ذلك فقد بذلوا أقصى الجهود في سبيل صيانة ثروتهم الثقافية المكتوبة فكانوا اذا اقتنوا الكتب يبادرون بتجليدها. وتقوم بالتجليد الصانعات التقليديات. ولهن فيه مهارة فائقة، فهن يحسن اختيار الجلد بعد دبغه ويزخرفنه بخطوط وأشكال هندسية ورسوم وألوان جذابة ويستخدمن القماش والورق المقوى لزيادة سمك الغلاف وصلابته ويلصقن أجزاء الغلاف بعضها الى بعض بالصمغ أو العصيد والخياطة ويكون الغلاف اذا بسط مستطيلا مثلث الرأس أو مقوسا، أشبه شيء باللوح فالدفة اليسرى تمتد معطوفة حتى تغطي جانب الكتاب الأعلى. وينعطف منها لسان يغطي الثلث أو فوقه من الدفة الأولى ويتصل بلسان الغلاف سير طويل من الجلد متى ما أطبق أحكم ربطه به فاحاط بالكتاب من جميع نواحيه.

وعند فتح الكتاب يحذرون الاقتراب من الماء أو أي محلول مائع. ويقولون أن الشيطان لا يكل افساد الكتب الى عياله وجنده، بل يباشر بنفسه هذه المهمة خصوصا اذا حضرت مادة سائلة، فقلما ينجو منها الكتاب كما يقولون.

ومن دأبهم أن يوظفوا الغيبيات بذكاء في الدفاع عن نظرياتهم ومواقفهم دفاعا يضمن لها حسن التنفيذ والاحترام.

وإذا أصاب الكتاب بلل أو رطوبة أو توقفت الامطار ولم تكن في الجو رطوبة بادروا الى نشر الكتب تحت أشعة الشمس. وربما وضعوا الحصى على ورقات منها لتجف أكثر وتنزاح عنها الحشرات.

المكتبات القديمة :

لقد شغف الشناقطة بالكتب وعنوا كثيرا باقتنائها وبصيانتها فاستطاعوا أن يكونوا مكتبات غنية بذخائر التراث، حافلة بمراجع علوم الدين واللغة والعربية وغيرها من المعارف المحضرية.

وتعددت هذه المكتبات في الأحياء والقرى والحواضر، فكان بحيازة كل بيت وكل فرد راشد بضعة كتب. وكانت الأسر المهتمة بالعلم خصوصا ذات اليسار منها تملك عشرات الكتب المخطوطة بأقلام رجالها أو تلامذتها أو الناسخين يستأجرون لذلك، أو بشراء من المكتبات العربية الاسلامية خلال رحلات الحجيج أو التجار وغيرهم.

وكان بمدينة شنقيط عدد هام من المكتبات الزاخرة بالذخائر، ما تزال توجد منها اليوم بقايا مكتبات أهل حبت وأحمد بن عبد العزيز ومحمد المختار بن الديدي وأهل عبدي وأهل الشيخ بن حمني وأحمد بن أحمد محمود وأهل الخرشي وأهل الشيخ وأهل الامام وأهل الحسن ومحمد عبد الله بن فال(٤٠).

ولعل مكتبة أهل حبت هي والمنارة العتيقة أبرز معالم شنقيط الخالدة فما تزال هذه المكتبة شاهدا حيا على العهد الذهبي للثقافة العربية الاسلامية في بلاد شنقيط. وقد انخفض رصيدها من الكتب، ولكن ما زلت تحوي أكثر من (١٠٠٠) من أصل ٤٠٠٠ كتاب(٤١) ليس فيها من الكتب المطبوعة إلّا ٢٠ كتابا. ويعود الى سيدي محمد بن حبت الكبير(١٢٨٨هـ)الفضل في تأسيس هذه المكتبة فقد كان من أهل العلم واليسار وكان يحج ويزور البلاد العربية ليشتري الكتب ويعود بها الى شنقيط. يروي بعض الباحثين أن المكتبة كانت تحوي ١٤٠٠ مجلد عند وفاته وارتفع عدد كتبها في عهد ابنه أحمد حتى بلغ ٥٦٢٩ كتابا(٤٢).

وتوجد في المكتبة اليوم بقية من كتب الطب والحساب والهندسة القديمة بالاضافة الى كتب المعارف الأخرى. وفيها نسخة من كتاب «تصحيح الوجوه والنظائر من كتاب الله تعالى» لابي هلال العسكري يناهز عمرها ألف عام فقد تم نسخها في غرناطة سنة ٤٨٠ هـ وهي الآن بحالة جيدة.

وفي ولاتة يوجد أكثر من ٢٠ مكتبة زاخرة بالمخطوطات النفيسة منها مكتبة أهل سيدي عثمان وأهل عابدين والطالب ببكر المحجوبي وامبوي بن الامام(٤٣). ويذكر أهل ولاتة أن

فرنسيا أتاهم أواسط القرن العشرين. وكانت البلاد مستعمرة فرنسية آنذاك وأقنعتهم بتنظيم مكتبة مركزية فأعطوه كمية كبيرة من الكتب نظمها في دار من دور المدينة. ولم تلبث تلك الكتب ان أصابها حريق فتلفت فهم لذلك يرفضون الى اليوم وضع بقية كتبهم في يد السلطة(٤٤).

وتبقى تيشيت أغنى المدن العتيقة بالمخطوطات الى اليوم وقد تضمنت مكتبات البلاد جميع معارف عصرها.

وها نحن نورد نموذجا بمكتبة شنقيطية بدوية متوسطة الحجم كانت موجودة في مطلع القرن العشرين وهي مكتبة سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان، فقد وضع لها صاحبها فهرسا بأمر من السلطات الفرنسية ونحن نورده فيما يلي معتمدين منهج صاحب المكتبة في الترتيب والتصنيف.

المخطوطات

كتب التفسير :

- الذهب الابريز لمحمد المختار بن سعيد اليدالي الديماني
- ضياء التأويل
- الجلالان
- كتاب فتح الاله في شرح بسم الله
- الزبدة

كتب تجويد القرآن العظيم :

- كتاب الودغيري
- منظومة ابن بري وشرحها ونص ابن بري ممزوجا باحمرار الاعيشي

كتب الحديث :

- صحيح البخاري وشرح ابن أبي جمرة له
- نص الموطأ وأجزاء محمد بن عبد الباقي الزرقاني على الموطأ
- نص الشفاء للقاضي عياض وشرحه المسمى بالشهاب
- الفشني على الاربعين النووية

كتب علم الحديث :

- كتاب شرح التبصرة والتذكرة لعبد الرحيم بن الحسين العراقي
- قصيدة ابن فرح وشرح ابن جماعة لها
- نظم أبي عبد الله محمد العربي الفاسي في ألقاب الحديث
- شرح محمد بن عبد القادر علي ابن يوسف الفاسي

كتب التوحيد :

- شرح محمد بن يوسف السنوسي للكبرى المسمى بعمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد
- شرح الصغرى المسماة «بأم البراهين» للشيخ سيديا الكبير بن المختار الهيبه
- فرائد الفوائد لمحمد بن المختار بن سعيد اليدالي الديماني
- نص الاضاءة للمقري وشرح ابن الأعمش عليها
- وشرح النابغة الغلاوي عليها
- نص الوسيلة للمختار بن بونة الجكني
- شرح عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي لها
- نظم ابن زكري
- لامية الجزائري

كتب الفقه :

- اجزاء عبد الباقي الزرقاني على الشيخ خليل وحاشية البناني عليه
- أجزاء الخرشي على الشيخ خليل
- الميسر علي خليل لمحنض بابه بن اعبيد الديماني
- السوداني علي خليل
- معين حبيب الله ابن القاضي اجيجبي
- رسالة ابن أبي زيد وشرحها المسمى تحقيق المباني لابي الحسن
- شرحها المسمى بكفاية الطالب
- نص مختصر ابن الحاجب وشرحه التوضيح
- الفائق في أحكام الوثائق
- كتاب ابن سلمون
- تبصرة ابن فرحون
- مقدمات ابن رشد
- نص أوضح المسالك وشرحه للبجيري
- ميارة على تحفة ابن عاصم
- ميارة على لامية الزقاق
- ميارة على نظم ابن عاشر، الكبير والصغير
- التودي على تحفة ابن عاصم
- التودي على جامع خليل المسمى عند الشناقطة بالريشان
- التودي على لامية الزقاق
- قوانين ابن جزي
- نص ابن ابي مخلي وشرحه

- رحمة الامة باختلاف الائمة
- نظم العمل المطلق وشرحه
- نظم عمليات فاس وشرحه
- التيسير والتسهيل فيما أغفله الشيخ خليل
- طرد الضوال والهمل لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي
- نظمه المسمى رشد الغافل في تمييز علوم الشر وشرحه
- نظم النوازل لعبد الله بن الحاج احماه الله الغلاوي
- نظمه لرسالة ابن أبي زيد
- نظم محمد بن الخراشي التندغي وشرح محمد محمود بن حبيب الله بن القاضي
- نظمه الاخر الذي لم يشرح وكلاهما يسمى المفيد
- شرح صغير للنابغة الغلاوي على ابن عاشر
- شرح له علي الأخضري
- العنوان على مذهب الشافعي

كتب التصوف :

- شرح نصيحة زروق لابن زكري
- كتاب ابن عباد على حكم ابن عطاء الله
- بداية الهداية للامام أبي حامد الغزالي
- الجرعة الصافية والنفحة الكافية للشيخ سيد المختار
- فتح الودود شرح المقصور والممدود له
- الكوكب الوقاد في شرح ما للقادرية من الاوراد له أيضا
- جنة المريد دون المريد لابنه الشيخ سيد محمد
- خاتمة التصوف لمحمد بن المختار بن سعيد اليدالي الديماني
- الذهب الابريز تأليف أحمد بن المبارك في شأن شيخه عبد العزيز الدباغ
- العلق الثمين للشيخ سيديا بن المختار بن الهيبه
- الفرق والتسديد والتتميم المفيد له أيضا

كتب السيرة النبوية :

- الفية عبد الرحيم بن الحسين العراقي
- عيون الاثر لابن سيد الناس
- كتاب الكلاعي
- الاكتفاء في أخبار الخلفاء
- نظم البدوي البوحمدي
- شرح حماد له
- شرح قرة الأبصار للمأمون اليعقوبي
- أسس الاسلام الذي تتوقف عليه سعادة الانام

كتب النحو :

- الدماميني على التسهيل
- المساعد على التسهيل
- التصريح لخالد الأزهري على التوضيع لابن هشام
- الأشموني على الالفية
- المكودي على الالفية
- طرة المختار بن بونه الجكني على الخلاصة وعلى الاحمرار الممزوج بها
- تكميل المرام شرح شواهد ابن هشام
- نص الكافية وطرتها
- شرح الجرومية للشيخ سيدي الكبير بن المختار بن الهيبه
- روض الحرون لعبد الودود بن عبد الله

كتب اللغة العربية والشعر :

- القاموس للفيروز ابادي
- فتح القدوس على خطبة القاموس
- اضاءة الادموس
- صحاح الجوهري
- المصباح
- ابن السكيت
- الزاهر
- النوادر
- مقامات الحريري وشرحها للشريشي
- رسالة ابن زيدون
- شرح ابن نباتة لها
- شرح ابن هشام لبانت سعاد
- شرح ابن هشام لمقصورة ابن دريد
- المقصور والممدود لأبن مالك وشرح المؤلف له
- مثلث ابن مالك
- شرح المختار بن بابنا الديماني له
- شرح عبد الله العتيق بن ذي الخلال اليعقوبي له
- شرح الحضرمي المسمى بفتح الأقفال للامية الأفعال
- شرح اللامية للشيخ سيديا الكبير بن المختار بن الهيبه
- ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه
- ديوان الشعراء الستة

- شرح الأعلم الشنتمري لها
- شرح عبد الله العتيق اليعقوبي لها
- ديوان غيلان
- ديوان المتنبي
- شرح العكبري له
- ديوان الحماسة لأبي تمام

كتب البيان :

- التفتازاني على التلخيص
- عقود الجمان للسيوطي
- شرح المؤلف له
- نظم الأخضري المسمى بالجوهر المكنون وشرحه
- طرة على عقود الجمان لمحنض بابه الديماني

كتب الأدب :

- المستطرف في كل فن مستظرف
- تحفة الاريب

كتب القواعد :

- كتاب المنجور على نظم الزقاق المسمى بالمنهج
- شرح لمحمد محمود بن حب الله بن القاضي على المنهج
- شرح له على التكميل

كتب الأصول :

- جمع الجوامع وشرحه
- الكوكب الساطع للسيوطي
- شرح المؤلف له
- نشر البنود على مراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم

كتب المنطق :

- نظم السلم للأخضري وطرته
- منظومة ابن طيب وطرتها
- مختصر محمد بن يوسف السنوسي
- شرح محنض بابا ابن اعبيد الديماني له

كتب الحساب الفلكي :

- المطلع في شرح المقنع
- تأليف عبد الله ابن هشام

كتب الحساب العددي :

- المنية لابن غازي وتذييلها
- كتاب القلصادي
- شرح أحمد بن سليمان الرسموكي لنظم ابي سالم السملالي
- تذييله لنظم ابي سالم السملالي وشرحه له

كتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

- تنبيه الانام للمرادي
- نفح الطيب للشيخ سيد المختار الكنتي
- دلائل الخيرات للجزولي

كتب العروض :

- نظم الخزرجي
- نظم اديبج الكمليلي

الكتب الجامعة للفنون :

- النقاية للسيوطي
- القانون لليوسي

كتب الطب :

- نظم ابن سينا
- عمدة الطبيب لاوفي ابن أبي بكر بن عبد الله ابن الفغ
- قواعد الطب
- مجموع له أيضا في علاج الأعضاء وبعض الأمراض

كتب الأمداح النبوية :

- شرح البردة لخالد الأزهري
- شرح الهمزية لمحمد بن آب
- قصائد ابن مهيب المخمسات بقصائد الفازازي
- مقصورة المكودي

كتب الأخبار :

- كنز الأسرار في شأن الجزائر والبحار
- الحلل الموشية في الأخبار المراكشية
- شيم الزوايا لمحمد بن المختار بن سعيد اليدالي الديماني

كتب أنساب العرب :

- الحلة السيرا لمحمد بن المختار بن سعيد اليدالي
- نظم البدوي البوحمدي وشرح حماد له

كتب التاريخ :

- كتاب ابن خلكان (وفيات الأعيان)
- كتاب ابن الخطيب

كتب أنساب المتأخرين :

- ورقات لوالد بن المصطفى بن خالنا
- ورقات للشيخ أحمد بن سليمان في أنساب بني حسان.

الكتب المطبوعة

تفسير القرآن العظيم :

- تفسير محمد بن جرير الطبري
- لباب التأويل للخازن
- تفسير النسفي
- تفسير الجلالين وحاشية سليمان الجمل عليه
- التفسير المنسوب لابن عباس
- تفسير البيضاوي

كتب علم القرآن العظيم :

- لباب النقول في أسباب النزول للأمام السيوطي
- الاتقان في علوم القرآن للسيوطي
- الناسخ والمنسوخ لابي عبد الله محمد بن حزم

كتب الحديث :

- القسطلاني على صحيح البخاري
- النووي على صحيح مسلم

- الحفني على الجامع الصغير
- شرح محمد بن عبد الباقي الزرقاني على الموطأ
- الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين لمحمد بن الجزري

كتب تجويد القرآن العظيم :
- شرح ابن الناصح على الشاطبية المسمى سراج المبتدي وتذكار المنتهي
- غيث النفع في القراءات السبع لسيدي علي النوري
- مقدمة ابن جزري

كتب التوحيد :
- حاشية الشيخ ابراهيم البيجوري المسماة بتحفة المريد على جوهرة التوحيد

كتب الفقه :
- ابن سلمون
- تبصرة ابن فرحون
- المدخل لابن الحاج
- عبد الباقي الزرقاني على الشيخ خليل وحاشية البناني عليه
- الرهوني على الشيخ خليل واختصار كنون له
- كفاية الطالب للرباني على رسالة ابن أبي زيد وحاشية العدوي عليه
- شرح التسولي لتحفة ابن عاصم
- شرح عليش للشيخ خليل
- نوازل عليش
- شرح الرحبية للامام المارديني
- حاشية محمد بن عمر المقري عليه

كتب التصوف :
- احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي
- قوت القلوب لأبي طالب المكي
- سراج القلوب وعلاج الذنوب للشيخ ابي علي زين الدين البناني
- حياة القلوب وكيفية الوصول الى المحبوب لعماد الدين الأموي
- بداية الهداية
- منهاج العابدين

كتب السيرة النبوية :
- محمد بن عبد الباقي الزرقاني على المواهب اللدنية
- نور الأبصار في ذكر آل بيت النبي المختار

كتب النحو :
- حاشية الصباني على الاشموني
- شرح ابن عقيل للخلاصة وحاشية الأخضري عليه

كتب العربية :
- القاموس للفيروز ابادي
- مقامات الحريري وشرح لها صغير
- المصباح
- فقه اللغة للامام ابي منصور الثعالبي
- مختار الصحاح

كتب الأدب :
- المستطرف في كل فن مستظرف
- حياة الحيوان للدميري
- سراج الملوك لأبي بكر محمد بن محمد الطرطوشي
- التبر المسبوك في نصائح الملوك لأبي حامد الغزالي
- العقد الفريد لابن عبد ربه

كتب الأخبار :
- عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات للامام زكرياء ابن محمد بن محمود القزويني
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب لأبي حفص عمر الوردي

كتب الحساب الزمني :
- الممتع في شرح المقنع للامام أبي عبد الله محمد بن سعيد السوسي

كتب التاريخ :
- الكامل لابن الاثير
- روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر لأبي الوليد محمد بن الشخنه،
- أخبار الدول وآثار الأول لأبي العباس أحمد بن يوسف القرماني،
- تاريخ أبي مضر العتبي،
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الحنفي،
- الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى،

كتب المنطق :

- شرح البناني للسلم
- نظم الاخضري وحاشية سيدي علي قصاره عليه
- شرح الشيخ سعيد قدوره على السلم أيضا
- تقييدات عليه لسيدي أحمد بن مبارك السجلماسي

كتب الأمداح النبوية :

- حاشية الشيخ ابراهيم الباجوري على البردة
- شرح خالد الأزهري للبردة
- شرح الامام أحمد بن حجر الهيثمي على الهمزية
- حاشية سيدي محمد الحفني.

وفي الجدول التالي نحلل أعداد الكتب المخطوطة والمطبوعة في هذه المكتبة البدوية النموذجية ونسبها المئوية.

المادة	المخطوط		المطبوع		المجموع	نسبة المادة لمجموع المواد
	عدد	نسبة مئوية	عدد	نسبة مئوية		
علوم القرآن	٨	٤٠	١٢	٦٠	٢٠	٨,٣٥
علوم الحديث	١١	٦٨,٧٥	٥	٣١,٢٥	١٦	٦,٦٦
العقيدة	١٠	٩٠,٩٠	١	٩,١٠	١١	٤,٥٨
علوم الفقه	٤٧	٨١,٠٢	١١	١٨,٩٧	٥٨	٢٤,١٦
تصوف	١١	٦٤,٧٠	٦	٣٥,٣٠	١٧	٧,٠٨
سيرة وأمداح	١٥	٧١ ,٤٢	٦	٢٨,٥٨	٢١	٨,٧٥
النحو	١٠	٨٣,٣٣	٢	١٦,٦٧	١٢	٥
البلاغة	٥	١٠٠	-	-	٥	٥
شعر ولغة	٢٧	٨٤,٣٧٥	٥	١٥,٦٢٥	٣٢	١٣,٣٥
منطق	٤	٥٠	٤	٥٠	٨	٣,٣٣
تاريخ وأنساب	٧	٥٣,٨٤	٦	٤٦,١٦	١٣	٥,٤١
منوعات وعلوم أخرى	١٩	٧٠,٣٧	٨	٢٩,٦٣	٢٧	١١,٢٥
	١٧٤	٧٢,٥	٦٦	٢٧,٥	٢٤٠	

٤ ـ الزمن في المحضرة

نتناول في هذا المبحث الظرف الزماني الذي تقع فيه الدراسة، وسنجد أنه ظروف مشحون، قليلة ضوابطه، فليس للمحضرة عمر محدد. ولا حد لمدة الدراسة، فهذا أمر يعود الى الطالب وحده القول الفصل فيه. وليست للدراسة مواقيت تنحصر فيها فلا تتعداها، وان كان نصف الليل أو أكثر منه سكنا في الغالب، ثم ان الزمن كله موسم للدراسة باستثناءعطل محدودة.

أ ـ عمر المحضرة :

تعيش المحضرة ما عاش شيخها، ولكنها لا تموت اذا مات، وإنما تورث من بعده، يرثها أبناؤه وطلبته الذين تخرجوا على يده فينشؤون محاضر لا محضرة واحدة، إلّا أن المؤسسات الجديدة تحمل أسماء شيوخها الجدد فتبدو وكأنها مؤسسات وليدة، وما هي في الواقع إلّا استمرار لمحضرة الشيخ الذي قضى نحبه.

وبديهي أن عمر محضرة الشيخ هو عمره العلمي العملي الذي ينصرف فيه إلى بث العلم ونشره. لكن جل الشيوخ لا يتقاعدون حتى يدركهم الموت أو يحبسهم عن التدريس مرض عضال. ومنهم من ينتصب للتدريس في سن العشرين أو قبل الثلاثين فاذا عمر عمرت المحضرة معه.

وبهذا المعنى عاشت محضرة يحظيه بن عبد الودود سبعين سنة وعاشت محضرة محنض بابه ستين سنة وعاشت محضرة الحسن بن زين أربعين سنة. أما اذا ارتبطت المحضرة بعلم مكاني (موقع جغرافي أو غيره) فانها تصبح مؤسسة ذات شخصية معنوية مستقلة عن الأفراد الذين يديرونها، فلا تتأثر بوفاة شيخ من الشيوخ ما دام آخر سيجلس مكانه لملء الوظيفة الشاغرة. وفي هذه الحالة ينسب الشيخ الى المحضرة وليس العكس، فنقول «مرابط الكحلاء» ويستغني بهذا العلم (الكحلاء) عن نسبة المحضرة الى شيخها. وبهذا المعنى يمكن اعتبار «الكحلاء» من أطول المحاضر عمرا فقد عاشت نحو ٤٠٠ سنة واندثرت في عهد الاستعمار بوفاة آخر شيوخها الأجلاء أحمد بن محمد عبد الله بن محمد محمود سنة ١٣٦٨ هـ/١٩٤٧م.

ب ـ مدة الدراسة :

يلتحق الطفل أو (الفتاة) بالمحضرة في سن مبكرة تتحدد غالبا في ضوء انتهائه من حفظ القرآن ودراسته لبعض المتون المبسطة، وباستطاعة الطفل أن يبدأ دراسته المحضرية في حيه قبل العاشرة اذ من الأطفال من يكمل حفظ القران في السابعة، فان تأخر ففي الثانية عشرة. وما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يكون الطالب مؤهلا للخروج من حي أهله والاغتراب لطلب العلم.

وباستطاعة طالب العلم في أي مرحلة من مراحل العمر أن يلتحق بالمحضرة لا يمنعه من التعلم حداثة سن ولا شيخوخة. وله أن يمكث في رحاب المحضرة ما شاء من السنين حتى وإن أكمل دراسة المتون، فمن الطلبة معمرون شعارهم «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد» ألفوا المحضرة وتعشقوها فهم مقيمون بها السنين يعيدون دراسة ما قرأوه ويسمعون دروس الآخرين ويكررون لهم ويستنسخون المخطوطات ويقيدون النوادر والشواهد، يستأنسون بجو المحضرة، فلا يطمئنون خارجها.

وبالمقابل للطالب أن ينسحب من المحضرة متى شاء اما الى محضرة أخرى أو لمباشرة شؤونه وتدبير أموره، فالمحضرة خيمة مفتوحة تدخل في جميع الأوقات من جميع الجهات ولداخلها أن يمكث ما يشاء ويخرج متى شاء. وهكذا تتدرج فترة الدراسة في محضرة من الدقيقة صعدا الى السنة الى السنين تستغرق العمر. ومن الانتساب الخاطف انتساب الطالب الى المحضرة يردها لحل إشكال عرض له وينصرف دون أن يمكث.

يروى عن حبيب الله بن القاضي أحد شيوخ محضرة «الكحلاء» أنه كان وهو طالب يدرس مختصر خليل وبلغ فيه قوله في باب اليمين «وخصصت نية الحالف وقيدت» فأشكل عليه المعنى فشد رحله يبحث عن محضرة المختار بن بونة المتنقلة. ووصل المحضرة وقت المقيل فأتى شيخها وسأله. وأجابه المختار فشفى غليله. وعاد الطالب من حينه. ثم افتقده الشيخ فسأل عنه فلما أخبروه الخبر قال «سرق ابن الاجملية منطقي لو علمت أنه هو لم أدعه حتى يدخل بقرته»(٤٥). يعني أنه لو عرفه لألزمه الانتساب الى المحضرة انتساب المقيم الذي يحمل معه زاده.

ومن المقيمين من ينقطع عن أهله السنين تلو السنين لا شغل له إلّا الدراسة. وقد مكث محمد بن حنبل سبع سنين منقطعا لطلب اللغة لم يزر فيها أهله على قربهم منه(٤٦).

ومكث أحمد بن العاقل نحو عشر سنين عاكفا على الدراسة لم يقف على البير(٤٧). وهذا مضرب المثل في الانقطاع لأن من شأن البدوي أن يأتي البير مرة في اليوم أو أكثر يستعذب الماء لذويه أو يسقي ماشيته أو يتفقدها أو يعين غيره أو «يشهد الخبر»(٤٨).

وشد الشيخ سيديا بن المختار الرحل الى الشيخ سيد المختار الكنتي مسيرة شهر فمكث معه ومع ولده من بعده ستة عشر عاما أو عشرين حسب رواية الوسيط(٤٩).

ولزم الطالب أحمد ابن اطوير الجنة محضرة سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي طيلة عشرين سنة(٥٠). وهي مدة اقامة ابن القاسم مع الامام مالك. ومكث أحمد بن محمد عينين بن أحمد الهادي اللمتوني التمدكي في محضرة «الكحلاء» نيفا وعشرين سنة، أجازه في ختامها شيخها محمد محمود بن حبيب الله في القضاء(٥١).

ومكث عبد الله بن الحاج ابراهيم «أربعين سنة يرتاد لطلب العلم لم يشبع منه يأخذ عن من وجد عنده زيادة (...) جمع أولا ما في الصحراء ثم أقام بفاس مدة كثيرة للنظر والتحرير»(٥٢).

ج ـ مواقيت الدراسة :

غالب الشأن أن تنتظم الدراسة المحضرية خلال النهار فتبدأ ضحى بعد أن يكون الناس قد فرغوا من صلاتهم وإفطارهم وأخرجوا ماشيتهم الى مراعيها. والغالب أن تتوقف ساعة القيلولة والغداء. ثم يكون الوقت وقتها الى غروب الشمس. وليس من تقاليد شيوخ المحاضر أن يحجزوا وقتا خاصا لطالب معين أو لدراسة مادة معينة، بل يجلسون لتدريس الطلبة حسب ترتيب حضورهم أو أي ترتيب اختياري آخر يرتضونه.

ذلك شأن محاضر البادية خاصة، إلّا أن تكتظ بالطلبة فيضطر الشيخ الى تنظيم استعمال الزمن أو الى صرف المزيد من وقت راحته ليلا ونهارا على الطلبة.

أما محاضر المدن فهي عادة أكثر عناية بتنظيم الدراسة وضبط مواقيتها وفي هذا الاطار تندرج تقاليد المساجد وهي مراكز علمية في المدن العتيقة... ففي ولاتة وشنقيط يقرءون الحديث بين الظهر والعصر. وفي ولاتة يدرسون علوم القرآن الكريم ما بين العشاءين. وفي البادية نجد تجربة نموذجية في محضرة يحي بن أحمد فال الذي نظم استعمال الزمن مستعينا بالظل في النهار ومنازل النجوم بالليل فجعل الصبيحة للغة فاذا تقلص الظل الى ٧ أقدام بدأ أهل «الباب» (الجزء الثاني من مختصر خليل) دراستهم واستمروا الى الظهر. وجعل ما بين الظهرين لطلبة النحو، وما بين العصر والمغرب لطلبة الفقه (غير أهل الباب) وما بين العشاءين للنساء. وما بين العشاء الاخيرة والصبح خلفة لمن أراد أن يذكر ممن فاتتهم دراسة النهار. وقد شكا بعض طلبة «الباب» الى أستاذه فقال :

الوقت ضيقه على الألواح   ألواح أهل «الباب» ذو اتضاح
مع أنه فيه يكل الفهم   فطلب التشريك فيه ظلم
والرأي أن يزاد قدر قدمين   من سابق شفاعتين العلتين

لكن الشيخ المتمسك بنظام محضرته رفض الاقتراح فقال :

تغير العهود غير ممكن   صار الصواب ترك مالم يكن(٥٣)

وواضح أن هذا الجدول غير حصري فالشيخ كان يدرس فنونا أخرى وإنما انسحبت البرمجة على الفنون الأكثر تدريسا في المحضرة.

وكان الطالب أحمد بن محمد راره التنواجيوي المتوفي سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م يبدأ تدريس الطلبة في الثلث الأخير من الليل ثم يشتغل باوراده بعد صلاة الصبح الى أن يصلي

الضحى ثم يجلس للتعليم الى قرب الزوال فينام نوما خفيفاً ثم يشتغل بالتعليم ما بين الظهرين وما بين العصر والمغرب[٥٤].

وكان يحظيه بن عبد الودود يجلس للتدريس بعد صلاة الضحى حتى الزوال وبعد صلاة الظهر حتى تغرب الشمس[٥٥].

د ـ العطل المحضرية :

ليس للمحضرة موسم دراسي محدد، بل الزمن كله وقت للدراسة ليله ونهاره، باستثناء العطل الدينية المعهودة : العطلة الأسبوعية العمرية وهي الخميس وجناحاه (مساء الاربعاء وصباح الجمعة) وعطل أسبوعية أو ثلاثية (ثلاثة أيام) بمناسبة العيدين (الفطر والاضحى) وعيد المولد النبوي الشريف. على أن الدراسة لا تعطل كليا في هذه المناسبات وإنما يتوقف تقديم الدروس وحفظ النصوص الجديدة، دون أن تتوقف مراجعة الدروس السابقة ومجالس المذاكرة. وآكد العطل عطلة الأسبوع العمرية وقد ابتدع الشناقطة أسطورة تقول أن دويبة تأكل من ذهن الذي يطالع أو يدرس بعد عصر الاربعاء خاصة.

ولعل وراء ترويج هذه الأسطورة وعيا تربويا بضرورة توفير قسط من الراحة للذهن المكدود فضلا عن التشبث بسنن الخليفة الفاروق الذي أعطى أطفال المسلمين هذه الاجازة فصاغ القوم نظريته التربوية في قالب غيبي لاعطائها قوة القانون، وباستثناء هذه العطل المحدودة يظل الزمن كله موسم دراسة وتدريس.

الفصل الثاني

العملية التربوية في المحضرة

رغم الحرية الواسعة التي يقوم عليها نظام التعليم المحضري، فانه لم يعدم ضوابط وأسسا وآدابا تحكم العملية التربوية فيه من بدايتها الى نهايتها.

ففي البداية يشترط للالتحاق بالمحضرة أن يكون الطالب قد أنجز دراسته الابتدائية، فحفظ القرآن. وان زاد عليه بعض المتون الصغرى فذلك خير له، وإلّا فباستطاعته أن يقرأها في رحاب المحضرة.

وهو حين يلتحق بالمحضرة مطالب ـ أدبيا ـ بالتقيد بعدد من المبادىء في مساره الدراسي، ومن السهل عليه أن ينقاد لهذه المبادىء ـ التوجيهات غير الملزمة لأنها وضعت لمصلحته ولتمكينه من استيعاب دروسه على نحو أفضل.

وللمحضرة تقاليد مرنة في طريقة القاء الدروس ولها في أساليب التحصيل الدراسي ضوابط أكثر دقة.

وليس للتأديب شأن كبير، على أنه يتطلب وقفة خاصة نحن واقفوها، وكذلك الشأن بالنسبة لتقويم المستويات الدراسية.

وتنتهي الحياة المدرسية بالتخرج. فاذا كان الخريج، كفؤا أجازه شيخه أو شيوخه ليصبح مؤهلا لادارة الدروس المحضرية.

١ ـ الطريق إلى المحضرة

ذكرنا في سمات المحضرة أنها جامعة، وهي بذلك تختلف عن الكتّاب، فلا يصل اليها الطالب إلّا وقد تعلم القرآن وأخذ من أوليات العلم بنصيب.

يقول العلامة محمد سالم بن عبد الودود :

كانت المحضرة تمثل أعلى درجات التعليم. ولذا يخطيء كل الخطأ من يقيسها بالكتاب. فالكتاب في البلاد العربية مرحلة ابتدائية جدا من التعليم الموريتاني، مرحلة الطفل عندما يكون مع والدته أو جدته أو عمته التي تعلمه مبادىء القراءة والكتابة(٥٦).

وهكذا يمر الطالب بمرحلة ابتدائية تحضيرية تعده لدخول المحضرة.. ويبدأ الطالب طريقه الى المحضرة عندما يكمل ٤ سنوات وأربعة أشهر وأربعة أيام أو اذا بلغ خمس سنين (عادات مختلفة) أو بمجرد ما يلمس فيه أهله الأهلية للدراسة. وهم يمتحنون الطفل عادة في سرد الأعداد الأولى من واحد الى عشرة، فان نجح بدأوا تعليمه. وغالبا ما تتولى النساء التعليم في هذه المرحلة فيعلمن الطفل الحروف بالترتيب الهجائي التالي :

أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، لا، ء، ه، ة، يـ، ي، على اختلاف طفيف في الترتيب يقع بين بعض المناطق.

ثم يعودون الى نفس الحروف يمرنون الطفل على الشكل (الحركات) :

بَ، بُ، بِ، بْ. ويسمون الحركات : فتحة، ضمة، كسرة، نهمة. وطائفة منهم تسميها : نصبة، رفعة، خفضة، جزمة. والكل فصيح.

ثم يمرنونه على الحركات مشبعة بالمد :

با، بو، بي، تا، تو، تي.

ثم يعلمونه الحروف بالترتيبين الأبجدي والأيقشي، وفيهما مزيد تدريب على التهجي بتمييز الحركات :

أبجد، هوز، حطي، كلمن، صعفض، قرست، ثخذ، ظغش.
ايقش، بكر، جلس، دمت، هنث، وصخ، زعذ، حفظ، طضغ.

ويختلف ترتيبهم لهذه الحروف عن ترتيبها في المشرق اختلافا طفيفا.

وبعدئذ يبدأون تدريس الطفل القرآن، وكثيرا ما يكون البدء بالسور القصار، وربما كتبوا له بيتا أو أبيات شعر على اللوح في هذه المرحلة.

والعادة أن ينهي الطفل دراسة القرآن في سنتين الى ثلاث ان كان ذكيا. فاذا مكث ٧ سنوات أو نحوها لم يكن ذلك أمارة ذكاء. وفي مرحلة الكتاب هذه يحفظ الطفل بعض مقطعات الشعر ويدرس أوليات في النحو (مثل الأجرومية أو عبيدربه) والفقه (الاخضري) ونحو ذلك

من المتون الصغيرة. فاذا استوفى حفظ القرآن وأخذ من مبادىء الدين واللغة شد الرحل الى المحضرة ويكون الالتحاق بها عادة في سن العاشرة (خصوصا إن كانت المحضرة في حي أهله) الى الثانية عشرة.

٢ ـ مبادىء تربوية

قلنا، فيما سبق، أن الطالب يتمتع بحرية واسعة في ممارسة الدراسة داخل المحضرة، بدءا من اختيار المتن والحصة الدراسية وغير ذلك. ومن حقوق الطالب التي يمارسها دراسة متنين أو أكثر في آن واحد، يقرأ من كل متن حصة في اليوم. وله أن يكثف مجهود التحصيل ليفرغ من المتن بسرعة. وله أن ينتقل منه قبل أن يكمله الى غيره، ولكن هناك طائفة من الآداب تمثل مبادىء تربوية ينصح بها الشيوخ الطلبة الذين يحرصون على الاتقان. وهي آداب صممت لتكون عونا لجميع الطلبة، وان لم يتميزوا بذكاء، في تحصيل دروسهم، فربما شذ عنها طائفة من العباقرة الأنكياء(٥٧).

وسنعرض لأربع أو خمس من هذه المبادىء :

أ ـ **التدرج** : يدعو هذا المبدأ الطالب الى التزام التسلسل الطبيعي في دراسته فيبدأ بالمتون الصغرى المبسطة، وينتقل منها الى فئة وسطى قبل أن يدرس المتون الكبرى، جامعية المستوى. ففي الفقه مثلا يدرس الشناقطة عدة متون تتدرج حسب محتواها ومستواها العلمي والأدبي. ومنها حسب الترتيب : مختصر الأخضري ـ منظومة ابن عاشر ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني ـ مختصر خليل بن اسحاق المالكي، لا ينبغي لمن لم يدرس الأخضري أن يدرس ابن عاشر، أحرى أن ينتقل لدراسة ابن أبي زيد، ولا ينبغي القفز من ابن عاشر الى ابن اسحاق. وانما بدراسة المتون مرتبة على هذا النحو يكفل الطالب لنفسه فرصة استيعاب أكبر للمادة(٥٨).

ونجد مثل ذلك في النحو، فالمتون تتدرج على هذا النحو : مختصر ابن اجروم أو منظومة عبيد ربه ـ ملحة الاعراب للحريري ـ ألفية ابن مالك ـ تكميل ابن بونة لها معها، أو الكافية لابن مالك.

ويكرس هذا المبدأ التربوي الرجز التالي الذي ينقد عدم احترام بعض الطلبة لتراتب المتون :

علامة الجهد بهذا الجيل ... ترك الرسالة الى خليل
وترك الاخضري الى ابن عاشر ... وترك ذين للرسالة احذر
وترك الاجروم للالفية ... وترك الالفية للكافية
أن خليلا صار مثل الشم ... يشمه كل قليل الفهم
قد استوت فيه الكلاب والذئاب ... ما أبعد السماء من نبح الكلاب(٥٩)

ب ـ وحدة المتن واستيفاؤه: ينصح الطالب أن يشتغل بدراسة متن واحد، يفرغ له وينفرد به فلا يجمع اليه غيره، ولا ينتقل عنه حتى يستوفي دراسته كله. فهم يرون أن ترادف الفنون يحد من قدرة الطالب على الاستيعاب، فيظل جهده الذهني موزعا بين عدة متون لا يكاد يتقن أيا منها، كما أن بتر الدراسة يضيع جهد الدارس هباء، وينم عن كسل وقصور همة من الطالب في حين يقتضي كسب العلم كثيرا من الصبر والمثابرة والاناة.

وتمثل المحضرة «لترادف الفنون» بالتوأمين، لا سبيل الى خروجهما في آن واحد بل لا بد أن يسبق أحدهما الآخر.

وقد نظم أحدهم هذا المبدأ في بيتين :

وإن ترد تحصيل فن تممه ... وعن سواه قبل الانتهاء مه
وفي ترادف الفنون المنع جا ... «ان توأمان استبقا لن يخرجا»(٦٠)

ج ـ تقليل الحصة الدراسية : للطالب الكلمة الفصل ـ عادة ـ في تحديد مقدار الحصة الدراسية في ضوء قدرته على الحفظ والاستيعاب. ولكن للمحضرة آدابا وأعرافا تندب بمقتضاها الطلبة الى اختيار حصص دراسية قصيرة يتمكنون من استيعابها بيسر وقد تدخلت المحضرة في كبريات المتون خاصة، فاعتمدت لها حصصا دراسية موزونة، حذرت الطلبة من تجاوزها، كما هو الشأن في مختصر خليل، فقد تحكمت المحضرة في دراسته فوزعته الى وحدات تشكل الوحدة منها أكبر درس يمكن السماح للطالب بتلقيه في يوم واحد، له أن يقصر دونه ولكن ليس له أن يتجاوزه، وذلك مراعاة لاكتناز مادة المختصر، وصعوبة استيعابها. وقد سموا هذه الأجزاء «أقفافا» واحدها «قف» لأنهم يكتبون عند نهاية كل جزء «قف»، وكأنهم يضيئون اشارات حمراء في طريق وعر مزدحم، لكن الطلاب المتميزين حفظا وذكاء قد يزيدون على القف قليلا أو كثيرا فيكون ذلك استثناء يسترعي الانظار.

وروي أن طالبا معروفا بالذكاء والتحصيل كان لا يزد في متن خليل على سطرين فقط. فقيل له : لِمَ لا تزيد وأنت قادر على التحصيل؟ فقال : لأنني أتعجل العودة الى أهلي، فقالوا له : ذلك يقتضي أن تزيد في درسك، فقال : لا، انني أريد أن أتقن ما أقرأ حتى لا أحتاج الى اعادة دراسته، فأتأخر»(٦١).

وفي هذا القول احالة الى مبدأ تربوي آخر هو المبدأ الرابع.

د ـ اعادة دراسة المتن بعد استيفائه : تندب المحضرة الطالب الى أن يعيد دراسة المتن، خاصة من المتون الكبرى، بعد دراسته الأولى مرة ثانية أو مرات، ليزداد حفظا له واستيعابا، وأول من يتجه اليهم هذا الخطاب التربوي أولئك الذين درسوا المتن دراسة مبكرة دون أن يمروا ببعض المتون التي تعتبر بمثابة السلم اليه أو استعرضوه متعجلين، فكانوا يقرأونه حصصا دراسية كبيرة، أو جمعوه مع غيره فلم يفردوه بالدراسة حتى يخلصوا منه.

ومن شأن الطالب المجد حتى من غير هؤلاء أن يعود الكرة تلو الكرة لدراسة متون سبق أنْ قرأها.

وتختلف الروايات في الطريقة التي بها نبغ كبير نحاة بلاد شنقيط، المختار بن بونة. ومنها رواية تناسب المقام لدلالتها التربوية. فقد كان العالم الجليل ـ حسب هذه الرواية ـ بليد الذهن في بداية أمره. حاول حفظ الالفية وفهمها فلم يوفق، فكان يخرج الحي ويجلس الى شجرة ينفرد في ظلها بلوحه، وذات يوم لفتت انتباهه نملة تحاول تسلق جذع الشجرة كلما صعدت سقطت ثم أعادة الكرة من جديد، حتى اذا كانت المحاولة السابعة، وهو ينظر وفقت في سعيها، فأخذ الطالب درسا من هذه النملة المثابرة، وقال لنفسه لا ينبغي أن أكون أوهن عزما من مخلوق ضعيف هذا شأنه. وتقول الحكاية أنه درس الالفية سبعا، كما فعلت النملة في محاولاتها، فأتقن حفظها وفهمها ثم فتح عليه. واستطاع عندئذ أن يستدرك الكثير على ابن مالك، فينظم احمرار الألفية وهو زيادات تتخلل أبياتها، تكتب بحبر أحمر تمييزا لها عن الاصل (نظم ابن مالك) الذي يكتب بحبر أسود. وقد اعتمد ابن بونه في استدراكاته على التسهيل لابن مالك أيضا.

وقد درس محمد فال بن أحمد بن آلا الانتابي الالفية مثل ذلك سبع مرات(٦٢)، ويروى أن محمد عالي بن نعمه المجلسي وأحمد يكثه الجكني ومحمد بن المحبوبي وثلاثتهم من أنبه طلاب محضرة يحظيه بن عبد الودود مكثوا ثلاثة أعوام يعيدون دراسة ألفية ابن مالك بعد أن أنجزوا دراستها الأولى (فتحة النص).

وقرأ سيد أحمد بن هك الكلادي مختصر خليل ست مرات(٦٣).

٣ ـ طريقة القاء الدروس

لا يلتزم الشيخ (ولا الطلبة) صيغة ثابتة في حلقة الدرس، إلا في بعض محاضر المدن. أما في البادية فالبساطة صبغة الحياة كلها، لا تشذ عن ذلك المحضرة. فليس للشيخ كرسي يجلس عليه ساعة التدريس وليس على الطلبة إلّا أن يكونوا حوله في هيئة لائقة تمكنهم من متابعة الدرس ولا تخل بوقار المجلس.

ولا ضابط للهيئة التي يلقى عليها «مرابط» المحضرة درسه «فتراه يدرس ماشيا مسرعا ومرة جالسا في بيته ومرة في المسجد. ومنهم من يدرس أثناء الارتحال من جهة الى أخرى سواء كان راجلا أو راكبا»(٦٤). وكثيرا ما يقدم الشيخ دروسه وهو يتجول في الحي، يصل الأرحام، أو يرعى ماشيته، أو يحضر سقيها، أو يطلبها خارج الحي، لا يشغله ذلك عن التدريس، حتى لقد تساءل بعض الباحثين عما اذا كانت هذه الظاهرة أثرا من آثار مدرسة المشائين (الارسطية)(٦٥)، ولا ضرورة لافتراض ذلك حيث أن القوم بدو، وديدنهم الحركة، وهم يعتبرون العلم، تعليما وتعلما، عبادة وذكرا لله. والله يقول جلّ وعلا : «فاذكروا الله قياما

وقعودا وعلى جنوبكم» وكذلك يعلمون ويتعلمون، خاصة والوقت يستعصى على البرمجة في حالات كثيرة، فيضطر الشيخ لأداء عدة مهام في آن واحد. ويساعده في ذلك أنه يشرح ويفسر ويملي غالبا من ذاكرته. وربما فتح أحدهم الكتاب للتثبت أو لتحقيق مسألة معينة. وفي هذه الحالة يشفع له قول مأثور عندهم يتناقلونه : «اذا أردت أن تنظر الى فم كذاب فانظر الى معلم بغير كتاب».

وهذا مَحمد عبد الله بن أبي بكر الصديق الولاتي، مؤلف فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور «كان من ورعه أنه لا يفسر إلّا في الكتاب» فان سئل عن مسألة لم يرها في كتاب أمسك عن الجواب(٦٦).

وهم يلتزمون فتح الكتب والوقوف عند المسطور والعزو اليه في حالات معينة، مثل الافتاء، وتفسير القرآن. ورويت عن الأستاذ منا بن عبدي أن الشيخ بن حامني، وهو علم أعلام محضرة شنقيط في أيامه، قد حج، فمر عائدا بالقاهرة واشترى منها تفسير البيضاوي، فكان يضعه قريبا من مجلسه، كلما سئل عن آية أو أمر من القرآن بادر اليه وفتحه، وقرأ منه لا يزيد ولاينقص. وكان يقول أنه لم يشتره إلا لينجو من تفسير القرآن أو القول فيه بالرأي.

وعادة ما ينتهي الدرس بدعوتين متبادلتين. يقول الطالب لشيخه : غفر الله لي ولك، ويقول الشيخ للطالب : علمني الله وإياك حسن الأدب.

٤ ـ طريقة التحصيل الدراسي

يتتبع الطالب في الدراسة تسلسلا معينا، لا ينبغي أن يخل به اذا كان حريصا على اتقان درسه : فهو يكتب النص على اللوح أولا ثم يقرأه على «المرابط» ليجيزه أي ليصحح له ما يرد على لسانه من أخطاء حتى يحفظه بصيغة سليمة، ثم يقبل على قراءة النص المرة تلو المرة حتى يتقن حفظه ثم يقرأه على شيخ المحضرة سردا من ذاكرته على الأحسن حتى يتأكد من سلامة النص ويضبط حجم الدرس، ثم يعود لقراءته مجزءا، جملة جملة أو بيتا بيتا أو شطرا شطرا، و«المرابط» يفسر له. ولا يبقى بعد هذه المراحل الا التكرار لترسيخ المعلومات في الذهن. وقد نظم محمذ فال بن متالي خطوات الدراسة في بيتين :

كتب اجازة وحفظ الـــرسم   قراءة تدريس : أخذ العلم
ومن يقدم رتبة على المحل   من ذي المراتب المرام لم ينل(٦٧)

وأهم هذه الحلقات حفظ المتن وحفظ المعاني.

أما حفظ المتن، فهو شرط عندهم لتيسير حفظ المعاني وترسيخها في الأذهان.

ومن المألوف عندهم لحفظ النص استيفاء «عشرة المختار» وهي خمس وخمسون نقطة

ترسم على الارض بأصابع اليد الثلاثة (البنصر، والوسطى والسبابة) في شكل هرم قاعدته عشر نقاط وقمته نقطة واحدة، كلما قرأ الطالب مرة يمحو نقطة. فاذا استوفى حفظ درسه بهذه الطريقة يقولون انه لن ينساه بعدئذ. وعليه أن يستوفي العدد كله حتى ولو حفظ النص دونه.

أما حفظ المعاني فيرتكز على ما يسمى «التكرار» وهو ركن أساسي في الدراسة المحضرية، ذلك أن «من ترك التكرار لا بد أن ينسى» كما يردد الشناقطة. ويقوم الطالب في هذه العملية باستحضار كل ما صدر عن أستاذه من شروح وتفسيرات وشواهد وملاحظات حول النص. ويعيد استحضار ذلك مرة بعد مرة. ويقرأه على نفسه جهرا. وقد يستعين بأحد الطلبة المتقدمين الذين يؤدون في المحضرة دور الاساتذة المعيدين، أو بزملائه الذين يشاركونه الدرس نفسه.

وللطلبة صيغ في التكرار منها صيغة تنسب الى الامام أحمد بن حنبل وهي أن تكرار الدرس في اليوم الأول ٧ مرات وفي اليوم الثاني ستا وفي اليوم الثالث خمسا ـ وهكذا تنازليا، الى اليوم السابع حيث يقتصر على مرة واحدة. ويسلك هذا المنهج بالنسبة لكل دروس الأسبوع، فاذا أعاد ستة دروس في اليوم بهذا النظام بلغ مجموع الدروس المكررة في الأسبوع ١٦٨ درسا، بواقع ٢٤ درسا في اليوم، أو ٢٨ درسا باستثناء يوم الاجازة (الخميس)، لكنهم كثيرا ما يكررون في هذا اليوم فلا يتوقفون الا عن تلقي دروس جديدة، وهم بعد حفظ المعاني يحرصون على أن لا ينسوا النص، لأن نسيانه يؤدي حسب أمثالهم المأثورة الى نسيان المعنى. يقولون «اللي أطلق النص يبقى يطمس»... ومن شأن الطالب المجتهد أن يتعهد المتون التي حفظها كما يتعهد القرآن، فهو يقرأ كل يوم أحزابا من القرآن وأجزاء من المتون التي درسها(٦٨).

٥ ـ التأديب

ليس شيخ المحضرة مدير مؤسسة يعنى بمحاسبة رجالها وانما هو «مرابط» يقف على ثغر من ثغور العلم ينفق من علمه على من أتاه يسأله.

وقد نشأت المحضرة وتطورت في ظروف لم يكن فيها للتأديب ضرورة، فالناس يقبلون على الدراسة بشغف كبير، ويقدرون للعالم جهده ويشكرون له عطاءه ويقبلون كل التضحيات في سبيل الاستفادة منه والأخذ عنه. وفي حالة كهذه لا مكان للتأديب ولا ضرورة له في حفز الطلبة على متابعة الدروس، خاصة وأنهم أحرار في مغادرة المحضرة متى شاؤوا، أحرار في اختيار ما يكتبون بل وفي أن لا يكتبوا.

وهكذا لم تعرف المحضرة تقاليد متميزة في مجال التأديب ومحاسبة الطلبة(٦٩)، فاذا بلغ «المرابط» أن أحد التلاميذ أساء فانه يعاتبه برفق بأن لا يلفت اليه حتى يعلم التلميذ ذلك من حاله، لا يوقع عقوبة بدنية ولا مالية، وإنما هو عقاب نفس هادىء ورزين ولكنه مؤثر. ومن

شأن الشيخ اذا نمي اليه ما لا ينبغي عن أحد الطلبة أن يشمله برداء الستر، وينتظر التئام الحلقة حوله، وفيها المعنى ليسدي نصحا عاما يفهم منه المقصود، وذلك أدب نبوي رفيع. وكان من عادة العلامة يحي بن أحمد فال، أن يقول في هذا المقام :

وفعل ما لا ينبغي لا ينبغي   لتنـــدغ ولا لغيـــر تندغـــي

واذا كان الأمر قولا :

وقول ما لا ينبغي لا ينبغي   لتنـــدغ ولا لغيـــر تندغـــي

و«تندغه» علم على قبيلة هذا العالم، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل على جهة التعميم. يقول : «ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا. وما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله». ويعقب صاحب الوسيط على هذا النهج التربوي قائلا : «هذا النوع أردع للناس. فليت أن علماء الازهر فعلوا مثله وتركوا عنهم : يا ابن الفاعلة أو يا ابن الكلب أو يا حمار، فان هذه الألفاظ تذهب هيبة الشيخ من قلب الطالب».

ولغياب السلطة القسرية، اتسمت علاقة الشيخ بطلبته بأدب جم وخلق رفيع.

٦ ـ تقويم المستويات الدراسية

ليس للمحضرة امتحانات دورية، مثل امتحانات المدارس والجامعات، ولم تعهد مؤسسات التعليم العربية العتيقة مثل هذه الامتحانات التي بها ينتقل الطالب من سنة دراسية الى سنة أعلى أو يرسب. لقد أخذ التعليم الحديث بالزمن وعاء أساسيا، محسوبا في العملية التربوية. ولم تكن المحضرة تهمل دور الزمن، ولكنها كانت تهتم بالدرس أكثر مما تهتم بوعائه الزمني، فلم تكن هناك مدة ينبغي أن يتخرج فيها الطالب لمزاولة مهام تنتظره. ولم يكن عليه من حرج في اعادة دراسة المتن، بل ان الاعادة تكون منه اجراء طوعيا ينم عن جد واجتهاد ورغبة في اتقان الدراسة.

ومع ذلك فتقويم المستوى الدراسي للطالب عملية قائمة مستمرة في رحاب المحضرة ومجتمعها وان لم تأخذ شكلها الحديث، إلّا أنها تؤدي نتائج أفضل.

فمن تقاليد المحضرة أن ينظم الطلبة فيما بينهم وخصوصا في ساعات الليل الأولى مساجلات وأحاجي والغازا وتمرينات مختلفة يختبر بها بعضهم مستويات بعض ويتخذونها دُرْبة لهم على توظيف معارفهم.

ومن عاداتهم أن يلجأوا الى علماء الحي غير شيخ المحضرة، وربما الى الشيخ، في ساعة فراغ يطلبون منهم اختبارهم. ويكون ذلك خصوصا باعراب بيت في الشعر أو آية. وقد يكون بحل أشكال فقهي أو لغز في موضوع ما.

وهذه احدى خصائص النظام التربوي المحضري، فالطالب هو صاحب المبادرة في طلب

اختبار مستواه في حالات كثيرة. وقد تأتي المبادرة من غيره : شيخ المحضرة، أو الوالد وأهل حيه حين يعود اليهم في اجازة أو غيرهم من العلماء.

ومن الاختبارات التقليدية المعهودة اختبار القافلة فمن عادة الطلبة أن يتجهوا الى كل عير تمر بالحي يطلبون حقهم (حسب الأعراف) من حمولة العير وفي هذه الحالة يحق لعلماء القافلة أن يمتحنوا الطلبة فيلقوا عليهم أسئلة اذا هم وفقوا في الاجابة عليها كان ذلك أجدى في تحقيق طلبهم. ولم يكن لأصحاب العير أن يحجزوا عن الطلبة «حقهم». أما اذا لم ينجحوا فان المنة تكون للعير اذا هي أعطتهم ما يطلبون. واذا كان الاختبار صعبا، بادر الناس الى اشهار نجاح الناجح وربما رصدت له جائزة.

وقد كان لصلاحي بن المامي طبل،وكان يعرض المشاكل على أهل العلم فاذا هدي أحدهم لحل مشكلة ضرب بالدف فرحا بذلك واعلانا عنه.

وربما أعلن أحدهم عن جائزة لمن يصل الى فك بعض غوامض العلوم. فقد روى أن فارسا وقف على ملأ منهم ووعد باعطاء حصانه لمن يدرسه :

نحـــو أظـــن ويظنانـــي أخـــا   زيد وعمرو اخوين في الرخا

من باب «التنازع» في الفية ابن مالك. ولهذا السبب عرف هذا البيت في المحضرة بـ «بيت الزامل»(٧٠) وهو في العامية الفرس، والزاملة في الفصحى : بعير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه عليه.

وعندما عاد سيدي محمد وأخوه محمد محمود ابنا سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، وكانا يدرسان في محضرة أخرى، طبقا للأعراف والتقاليد المرعية عند الزوايا، بعث بهما والدهما إلى تلميذه الشريف أحمد الولي ليختبرهما ففعل وقال له : «ان أحدهما معادل لك في العلم والآخر أعلم منك».

وكان عبد الودود بن عبد الله يكتب الألغاز لتلميذه محمد عالي بن سعيد الملقب «معي»، ومن الغازه له في التصريف :

قل للذي كان بالتصريف مشتغلا   لم يخل من درسه يوما وتكرار
ما وزن نكتل وآرام وأثفية   وأينق وعريب ثم ديـــار(٧١)

وقد يكون اللغز امتحانا في الذكاء لا في الخبرة العلمية، ومن ذلك لغز ألقاه جدود بن اكتوشن على طلبته في شأن خيمة لهم رثة بالية. وأجابه محمذ (اباه) ابن النحوي(٧٢).

والحق أنه ليست لهذه الوقائع قيمة أساسية في اختبار مستويات الطلبة وتقويمها. لكن نظام المحضرة وبيئتها يوفران حالة اختبار دائمة لطالب العلم ومتعاطيه أيا كان.

ففي فترة الدراسة كلها يواصل شيخ المحضرة رصد مستويات الطلبة ويراقب تطور مؤهلاتهم المعرفية والسلوكية الخلقية معا. وهو يستعين في ذلك بمناظرات المحضرة وألغازها وأحاجيها ومحاورات المسجد وحلقات الدراسة، وبإسناد المهام الخاصة (تدريس بعض

الطلبة، استنساخ كتب أو التعليق عليها) ومواجهة أعباء الحياة المحضرية. ولا عبرة بالنجاح والتميز في مناسبة معينة (حفظ نص، حل إشكال ونحو ذلك) بل العبرة باستمرار النجاح فترة زمنية معتبرة تصل أحيانا الى عشرات السنين. ويساعد شيخ المحضرة في تقويم مستويات طلبته أنه يعيش معهم في محيط عائلي مفتوح، ليل نهار يزورونه ويزورهم في أي وقت، يجلس معهم على الأرض ويحدثهم ويحدثونه بقلوب مفتوحة لا يقتصر ذلك على مادة الدرس فقط بل يتعداها الى كل فنون الحياة وشجونها المختلفة... واذا هم عادوا الى أعرشة المحضرة لم يحتجب عنه خبرهم، فالناس في المجتمع البدوي، وحتى القروي العتيق، يسكنون في بيت واحد كالأسرة الواحدة. وحسبك أن الخيمة ـ ولا جدران لها ـ تدخل من الجهات الأربع، أو الثلاث. وتنضاف الى ذلك سهولة الاحاطة بشأن الطلبة لقلة اعدادهم (قياسا الى طلبة الجامعات اليوم) ولخبرة الشيخ ومعرفته بمحيطهم الاجتماعي.

وبذلك يكون تقويم «المرابط» أقرب الى الدقة من تقويم الأستاذ أو عميد الكلية فالأول درس جوانب شخصية الطالب كلها : خبر علمه ومعرفته وخبر نفسيته وسلوكه وألم بحقائق بيئته ومحيطه الاجتماعي الخاص، فكان على بينة من الامر في تقويمه. أما الثاني، فانما يلقى الطالب ـ ان هو لقيه ـ بين أربعة جدران وفي ساعات معدودة، لقاء أشباح قد لا تتآلف فيه الأرواح. وهو يخاطب الطالب من أعلى كرسي، يرمز الى المسافة بين المعلم والمتعلم فيكون تكريس هذه المسافة، حطا من فرص الحوار، بعد أن أخذ منها الزمان والمكان بنصيب.

ثم ان الجامعات والمدارس الحديثة تبقى قاصرة، مهما بذلت من جهد، عن تقويم شخصية الطالب بجميع جوانبها فيظل الاحتكام في الغالب الى الجانب المعرفي متصلا بمادة بعينها، بنص بعينه، بمناسبة بعينها ثم الجانب السلوكي منحصرا في علاقة الطالب بأستاذه في المدرسة. وهكذا يكون النجاح في المدرسة الحديثة ومضة عابرة. فالطالب الذي ينجح اليوم بتقدير ممتاز في القانون الدستوري لو أعيد اختباره السنة القادمة في نفس المادة لكان احتمال سقوطه واردا... وبذلك تكون الشهادات الحديثة بنسبة ٩٠ ـ ١٠٠٪ ثمرة نجاح ظرفي آني في استيعاب مواد معينة. أما الاجازات المحضرية فهي ثمرة نجاح مستمر في الزمان متسع في ضروب المعرفة منطبع في شخصية الطالب، سمة من سماتها المميزة[٧٣].

٧ ـ التخرج والاجازة

تخرج الجامعات العصرية كثيرا من المثقفين وقليلا من العلماء تجيزهم بنفس الشهادات وتصدرهم بنفس الألقاب.

أما المحضرة فتخرج العلماء والمثقفين ولكنها لا تجيز إلا العلماء فهناك صنفان من خريجي المحاضر :

ـ **الصنف الأول**، قوم نهلوا من معارف المحضرة ولم يتعمقوا فيها، أخذوا من كل فن بنصيب، كما تأخذ النحلة من كل الأزهار، حتى اذا أصبحوا مهيئين للاندماج في المجتمع أعضاء صالحين غير مخلفين، انسحبوا من المحضرة وانساقوا الى الحياة النشطة، حياة الكد

والتدبير. ولا يتلقى هؤلاء اجازة، وانما يحملون القابا فيها حكم قيمة على مستواهم الثقافي. والمجتمع ـ لا المحضرة ـ هو الذي يصدر هذه الألقاب، ويكون ذلك عادة أن ظهرت سعة معارف الفرد وتنوعها في المحاورات وأحاديث الجماعة. حينئذ يقال عنه أنه «فتى» أو «ولد زوايا» فولد الزوايا هو رجل صحح نسبته الطينية بنسبة علمية ترقى به الى مصاف قومه و«الفتوة» تؤدي نفس المعنى، فلا يستحق لقب «الفتى» إلا من ظهرت عليه بوادر العلم والمعرفة، وكان رجل جماعة يستطيع أن يدلي بدلوه فيما يطرح من قضايا علمية وغيرها بعلم سديد ورأي صائب.

أما **الصنف الثاني**، فهم قوم تدرجوا في الدراسة المحضرية صعدا الى درجة التعمق في دروبها والتخصص في معارفها أو في بعضها، وهؤلاء هم خريجو المحضرة الحقيقيون. وهم الذين يحسبون عرفيا في عداد «المتصدرين منها» ولهم دون غيرهم يمنح الشيخ الاجازة.

ومثل هؤلاء يخرجون من المحضرة مهيئين لتبوإ مراكز علمية سامية، يصبحون بها شيوخ محاضر وقضاة ومفتين وأئمة ودعاة الى الله وشيوخ تصوف. ومنهم من يتخرج من المحضرة، وهو شيخ محضرة فعلا.

فاذا لفت أحد الطلبة نظر زملائه، بكفاءته، وقرر مغادرة المحضرة، لم يجد الطلبة غضاضة في الانسحاب من المحضرة ومرافقة زميلهم الذي يصبح شيخا لهم من ذلك الحين.

وقد وقع مثل ذلك قديما لسيبويه، كان يدرس عند الخليل بن أحمد، فلما غادره انسحب طلبة الخليل مع سيبويه وواصلوا دراستهم على التلميذ المتخرج. وكان ذلك ـ فيما يروى ـ سبب اهتمام الخليل بابتكار علم يمتاز به عن تلميذه، فابتكر علم العروض أو اكتشف قوانينه.

وفي بلاد شنقيط، حدث ذلك للمختار بن بونه، فقد مكث برهة قصيرة يدرس في احدى المحاضر، فلما هم بمغادرتها انسحب أربعون من طلبة المحضرة فصحبوا الطالب المرابط الجديد[٧٤]، وكان محمذ(باه)ابن النحوي يدرس في محضرة العلامة المختار بن أبي فلما غادره انسحب معه جمع من تلامذة المحضرة واتخذوه شيخا يدرسون عليه.

* * *

ويختص شيخ المحضرة عادة بسلطة الاجازة فيها، وان كان قد يستنيب غيره في كتابة نص الاجازة.

ومن عادة خريجي المحاضر أن يهتموا بجمع أكبر عدد ممكن من الاجازات من جميع الشيوخ الذين تلقوا عنهم، كل يجيز الطالب فيما نقل عنه...

ويحفل نص الاجازة بعبارات المودة والتعظيم للطالب، مقابل أدب جم وتواضع رفيع من جانب المجيز تترجمه اتهامات بالقصور والجهل يوجهها الى نفسه.

وغالبا ما تتضمن الاجازة الدعاء الصالح للمجاز وحثه على تقوى الله وطاعته. وربما علل الشيخ اجازته، كما في اجازة سيدي مالك بن الحاج المختار الغلاوي (ت ١٢٠١ هـ/١٧٨٥ م) لعبد الله بن الفقيه الطالب أحمد بن الحاج المصطفى الغلاوي (ت ١٢٠٩ ـ/١٧٩٤ م) قال :

«وقد أجزت عبد الله المذكور ما أخذ عني وما لم يأخذ من غير الكتابين المذكورين (صحيح البخاري، والشفا للقاضي عياض) لما ظهر فيه من أهلية الاجازة معتمدا في ذلك على ما نص عليه العلماء، لأن من علم فيه أهليته للاجازة وجب اعطاؤها له وحرم منعها»(٧٥). وقد يبرزون في مقدمة الاجازة أهمية السند باعتباره نسبا علميا يثبت شرعية انتساب حامله للعلم.

وكان الشيخ سيدي المختار الكنتي يكتب في بعض اجازاته بعد الثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم :

«أما بعد، فان السند هو العروة ألوثقى للعلماء والصلة الموصلة بمددها للاولياء، اتخذه العلماء مغنما والأولياء سلما حتى قالوا من انقطع به السبب لم يتصل به النسب»(٧٦).

وقد تكون الاجازة مطلقة وقد تكون مقيدة. وكان يحظيه بن عبد الودود قد أجاز تلميذيه العالمين أحمد بن كداه الكمليلي ومَّ الجكني وابنه التاه (ابن يحظيه) اجازة مقيدة في النحو وأطلق في اجازته لمحمد عالي بن نعمة(٧٧).

ومن شأنهم أن يعرضوا في متن الاجازة أسانيدهم مسلسلة الى غايتها الأولى. وهذا نموذج من اجازات علامة شنقيط أبي عبد الله سيدي محمد المختار بن الأعمش. ففي اجازته في الفقه لمحمد الحاج عثمان بن السيد بن الطالب صديق الجماني يقول: «وأجزت له أيضا رواية الفقه عني وقد أخذته والحمد لله رواية ودراية عن شيخي بلدتنا. عمرها الله تعالى، وهما الفقيه الجليل سيدنا أبو محمد الحاج عبد الله ابن الفقيه محمد والفقيه النبيل أبو العباس أحمد بن أحمد بن الحاج رحمهما الله تعالى وهما أخذاه قراءة عن شيوخ بلدهما ودان. وأعلى سندهما في بلدنا روايتهما عن الفقيه الجليل أحمد بن محمد بن يعقوب الوداني عن الفقيه الجليل أبي العباس أحمد المسكه والد سيدي أحمد بابا التمبكتي، عن الحطاب شارح المختصر بسنده المذكور في كتابه. واجازنا به أيضا شيخنا الفقيه الحاج المذكور عن شيخ المالكية بالديار المصرية أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الأجهوري بضم الهمزة عن شيوخه الشيخ محمد التبوجري والشيخ كريم الدين البرموني والشيخ القاضي بدر الدين محمد القرافي والشيخ عثمان المغربي عن جده عبد الرحمن الأجهوري صاحب الحاشية على المختصر عن الشيخ أحمد الفيشي جد شارح العزية والشيخ سليمان الجزولي شارح الارشاد وأبي شمس الدين وأخيه العلامة ناصر الدين اللقانيين. وهؤلاء عن شيخ المالكية في زمنه نور الدين علي السنهوري عن الشيخ طاهر بن علي بن محمد النويري عن الشيخ حسن بن علي عن أحمد العربي عن قاضي القضاة فخر الدين المخلطة بن عمر الكندي عن عبد الكريم بن عطاء الله الاسكندري عن أبي بكر بن محمد عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي عن الامام أبي محمد المكي الأندلسي عن الامام أبي محمد ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة عن الامام أبي بكر محمد بن اللباد عن الامام يحيى بن عمر الافريقي صاحب اختلاف ابن القاسم وأشهب عن الامامين سحنون بن سعيد وعبد الملك بن حبيب، وهما عن عبد الرحمن بن القاسم العتقي وأشهب بن عبد العزيز العامري القيسي المصريين عن امام دار الهجرة النبوية الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى. وهو يروي عن الزهري عن انس بن مالك وعن نافع عن عبد الله بن عمر

رضي الله تعالى عنهم وهما أخذا عن سيد المرسلين وإمام المتقين المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وهو تلقي الوحي عن الأمين جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ عن رب العالمين»(٧٨).

صورة لاجازة العلامة محمد علي بن نعمة يحمل توقيع اباه يخطيه

الفصل الثالث

الـدرس الـمحـضـري

نعنى في معالجة الدرس المحضري بالمتون والنصوص التي كانت مادة لهذا الدرس وموضوعا له، متتبعين حركة المد الثقافي للبلاد من منابعها، وخاصة، من خلال الروافد الكبرى، المغربية ـ الاندلسية والمصرية التي غذت البلاد بفيض كبير من الكتب التي كانت مادة للدرس المحضري أو مرجعا له.

وقد تناول الدرس المحضري جميع معارف ذلك العصر، من علوم الدين واللغة الى الطبيعيات.

وإذ كثرت المعارف التي تبثها المحضرة، تعين ترتيب أولوياتها، فاختلفت المحاضر في ذلك اختلافا، فكان من أهلها من يقدم علوم الشرع، وكان منهم من يقدم علوم اللغة لكن الفريقين متفقان على أولوية هذه العلوم معافي الحياة الثقافية وضرورة المام الطالب بها جميعا، سواء قدم أو أخر، فلا بد من دراسة الدين، عقيدة وفقها. ولا بد من دراسة اللغة، معجما ونحوا وصرفا.

وانصرفت بعض المحاضر الى جانب من هذه المعارف تكرس له جهدها، فتزود الطالب منه بأوفر نصيب. فكانت محاضر مختصة، بينما أخذت محاضر أخرى أفقا أوسع، فحاولت أن تشبع للطالب رغبته في جميع فنون العصر ومعارف البيئة.

وكان للطلبة في هذه المحاضر، الجامعية الموسوعية، أو في ترحالهم من محضرة مختصة أو متوسطة الى محضرة أخرى منهاج دراسي مصطلح عليه، يسعون لاستيعابه دون أن يلزموا أنفسهم فيه دقيق ترتيب.

١ ـ روافد الثقافة الشنقيطية(*)

تتحدد مصادر الثقافة الشنقيطية بالرجوع الى الرحلات العلمية والاجازات والى الكتب المعتمدة أو المتداولة في بلاد شنقيط خاصة.

* عنينا في هذا المقام بالحديث عن روافد الثقافة الشنقيطية أو مصادرها باعتبارها مراجع للدرس المحضري، متونا تدرس أو كتبا ينبسط بها في استكناه أسرار المادة والتعمق فيها.

ولا مناص من التسليم بدءا بوحدة الثقافة العربية الاسلامية لوحدة منبعها ومصدرها الأول، ولكن الروافد التي تتشعب من المحيط الواحد تصب في اتجاهات مختلفة. وإنما نعني هنا بالروافد تلك التي غذت بلاد شنقيط بهدى النبوة ونور الايمان ونسغ لغة القرآن. كانت الجزيرة العربية منطلق الحركة الثقافية فمنها انطلقت الرسالة المحمدية التي احتضنت العلم ورفعت شأن الثقافة وجعلت التعلم والتعليم عبادة يتقرب بها المؤمنون الى الله. ولم يعد هذا المدد النبوي من ضروب المعرفة إلا ضربان أقرهما الدين وصهرهما في حضارته فامتزجا بها امتزاج الماء باللبن. أما الضرب الأول فهو الموروث الأدبي وأبرزه قصائد الشعر الجاهلي. وأما الضرب الثاني فهوما اغتذت به الحضارة الاسلامية بعد الفتوحات في مرحلة النقل والترجمة، من معارف الآخرين وعلومهم. وكانت الثقافة في ذلك بنت الجزيرة ثم ـ وخاصة في عهود النقل والترجمة ـ بنت المشرق بما فيه العراق والشام ثم كانت لها دورة بمصر ثم في بلاد المغرب وفي الأندلس أيام كانت للمسلمين.

وكانت دار الاسلام وهي بعد مستوية الأركان عالية الدعائم دار ثقافة واحدة جامعة يرحل فيها الناس لطلب العلم من الأندلس الى بغداد ويأتون من المدينة والشام الى قرطبة وغرناطة والمغرب، ويتبادلون المراسلات ويتهادون الكتب والمصنفات ويتداولونها لا يعوقهم في ذلك تنائي الديار ولا صعاب الترحال.

ثم كانت المذاهب الفقهية والفكرية (الكلامية) والنحوية وغيرها، فبها امتاز الناس بعضهم عن بعض، وساعدت عوامل الجغرافيا في تشكيل الوحدات المذهبية ورسم حدودها. ولكن العامل المكاني لم يكن حاسما في هذا السبيل. وحسبك أن المغاربة لم يأخذوا بمذهب الامام الشافعي وهو بمصر غير بعيد منهم ولا بالمذهب الظاهري ورائده ـ بعد محمد بن داود ـ منهم (ابن حزم الاندلسي) وان اتبعوه حينا، وإنما أخذوا بمذهب الامام مالك بن أنس امام دار الهجرة البعيدة الشقة ولكن القريبة المكينة في القلوب.

ولقد شدّ الشناقطة الرحال وطوحت بهم الأسفار في بلاد الله حتى وصلوا، بعد الحجاز، تركيا والهند وغيرها. وكانوا حيث حلوا ينهلون من معين الثقافة الاسلامية الجامعة ولكنهم مع ذلك ظلوا متمسكين بعروة المذهب المالكي وغيره من الاختيارات الثقافية التي كانت لهم ولجل المغاربة سمة جامعة وعلامة فارقة.

وحين نعمد الى الحديث عن مصادر الثقافة الشنقيطية انما نرمي الى تتبع المنابع التي بها ارتسمت خصائص هذه الثقافة فقد أخذ القوم في القرآن بقراءة نافع وأخذوا في الفقه بالمذهب المالكي وأخذوا بالأشعرية في العقائد وبالمذهب البصري في النحو.

وبهذه الاختيارات تتحدد المنابع الأولى :

ـ فقد كان أبو الحسن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (١٦٩ هـ) مدنيا من دار الرسول عليه الصلاة والسلام. وكذلك كان أبو عبد الله مالك بن انس ابن أبي عامر الاصبحي (١٧٩ هـ).

ـ وكان أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري (٣٣٠ هـ) بصريا بغداديا. وكذلك كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) وتلميذه أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه (١٨٠ هـ) كلاهما بصريان.

واذا تنزلنا وجدنا الشناقطة قد أخذوا من قراءة نافع بروايتي ابي سعيد عثمان بن سعيد، ورش (١٩٧ هـ) وهو مصري، وأبي عيسى موسى بن ميناقالون (٢٢٠ هـ) وهو مدني، ولكن رواية المصري أوسع انتشارا فبها يقرأ الأطفال وعليها يقتصر جل الحفاظ.

أما في العقيدة على المذهب الأشعري فقد اعتمد الشناقطة مؤلفات محمد بن يوسف الحسيني التلمساني (٨٩٥ هـ) وعبد الواحد بن أحمد بن عاشر الفاسي (١٠٤٠ هـ) وأبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (١٠٤١ هـ) وثلاثتهم من بلاد المغرب.

أما الفقه المالكي فقد أخذ فيه الشناقطة وكذلك المغاربة برواية أبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي (١٩١ هـ) وهو مصري واحتضنوا مختصر ضياء الدين خليل بن اسحاق الجندي (٧٧٦ هـ) وهو مصري. واستقوا جل معارفهم النحوية من أبي عبد الله محمد بن مالك الأندلسي (٦٧٣ هـ) وشاركه جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام المصري (٧٦١ هـ). وهكذا كان جل اعتماد الشناقطة على مصادر مصرية ومغربية ـ أندلسية في أمهات المعارف التي عنيت المحضرة أكثر ما عنيت بنشرها. ونلمس تداخل المراجع المصرية والمغربية ـ الاندلسية على نحو جلي في المتون التي اعتمدتها المحضرة.

ففي الفقه رجع الشناقطة وغيرهم من المالكية الى أمهات أربع عنها صدر جل المؤلفين اللاحقين.

وهذه المؤلفات هي :

ـ المدونة وهي سماع ابن القاسم من مالك بن انس، دونه أسد بن الفرات وأخذها منه سحنون وعاد بها الى ابن القاسم يعرضها عليه فصحح فيها واستدرك عليها فنسبت الى سحنون ولم تلق مدونة أسد بن الفرات رواجا.

ـ العتبية وهي المستخرجة جمعها محمد بن عتب الأندلسي، أخذها عن سحنون. وكان الأشياخ يرون فيها ضعفا حتى اتى ابن رشد فشرحها وتكفل بصحتها فأصبحت معتمدة عند أهل الأندلس.

ـ الواضحة ألفها عبد الملك بن حبيب الأندلسي سماعا من عبد الملك بن الماجشون ومطرف.

ـ الموازية الفها محمد بن ابراهيم المعروف بان المواز المصري تفقه بابن الماجشون وابن عبد الحكم واعتمد على اصبغ.

وقد اختلف الفقهاء في المفاضلة بين هذه الامهات ولكن المغاربة ومنهم الشناقطة أجمعوا على ترجيح المدونة على العتبية والواضحة اللتين الفهما اندلسيان مغربيان.

وقد نظم القاضي محمد بن محمذ فال بن أحمد فال الكتب المعتمدة في المذهب المالكي فأوصلها الى مائة كتاب وشرح القاضي محمد عبد الرحمن بن السالك هذا النظم شرحا ينم عن تبحر وسعة اطلاع وتحقيق دقيق فتحدث عن المفقود وعن المطبوع والمخطوط من هذه الكتب وأين يوجد حديث الخبير.

وفي النحو عرف الشناقطة مؤلفات محمد بن مالك الأندلسي (الالفية والكافية والتسهيل) ومختصر بن آجروم الصنهاجي المغربي، ومنظومة محمد بن ابّ الغلاوي التواتي (عبيد ربه). وورد عليهم من مصر الفية جلال الدين السيوطي ومؤلفات ابن هشام (مغنى اللبيب وقطر الندى والشواهد) وشرح الدماميني على تسهيل ابن مالك.

لنقف الآن عند كل من الرافدين المغربي ـ الاندلسي والمصري وقفة منفردة.

أ ـ الرافد المغربي ـ الأندلسي :

يرجع بعض المؤرخين النهضة الثقافية في بلاد شنقيط الى الدور الذي لعبه المسلمون النازحون من الأندلس بعد سقوط غرناطة في أيدي الاسبان[٧٩].

وقد عرفت الأندلس المذهب المالكي وقراءة نافع في وقت مبكر، فقد عاد الغازي بن قيس وكان مؤدبا بقرطبة أيام عبد الرحمن الداخل من المشرق وهو يحمل موطأ الامام مالك وقراءة نافع المدني. وكان أبو موسى الهروي قد لقى مالكا ومعاصريه من الفقهاء[٨٠].

ورغم وصول المذهب المالكي الى الأندلس باكرا فقد تأخر انتشاره وتفرده في الساحة. وكان أهل الأندلس في القديم على مذهب الاوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح. وفي دولة الحكم بن هشام ثالث الولاة الامويين بالأندلس انتقلت الفتوى الى مذهب مالك بن أنس وأهل المدينة فانتشر علم مالك ومذهبه بقرطبة والأندلس جميعا بل والمغرب[٨١].

وكان الأندلسيون في مالكيتهم قاسميين كما كان الشناقطة من بعد. ويقول المقري أن أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى أنهم كانوا لا يولون حاكما إلا بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم[٨٢].

وللمذهب المالكي صلة حميمة قديمة ببلاد المغرب تعززت بعودة أسد بن الفرات وسحنون من مصر حيث سمعا المدونة من ابن القاسم، ولكنها بدأت قبل ذلك مع دخول الامام الشريف ادريس بن عبد الله الذي أسس الدولة الادريسية بالمغرب ١٧٣ هـ/١٧٨٩ م فقد كان هذا الشريف يكن حبا وتقديرا للامام مالك بن أنس لمناصرته محمدا النفس الزكية ومعارضته في شأنه للخليفة العباسي المنصور معارضة لقى في سبيلها عنتا معلوما.

جاء ادريس الى المغرب وفي نيته أن ينشر المذهب المالكي ومعه موطأ مالك فوفق إلى حد كبير في تعميمه وتحجيم انتشار مذهبي الخوارج والمعتزلة في هذه البلاد، وكان يقول «نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه».

وقبل ادريس كان الامام مالك قد بذر بذرة في نفوس مغاربة الأندلس، فقد ذكر له شأن عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية الأندلسية (ت ١٧٢/٧٨٩) فقال «ليت الله زين حرمنا بمثله» وتناقلت الكلمة أفواه الحجاج حتى بلغت صقر قريش في مقر دولته فكان لها أثر في قبول الناس لمالك ولمذهبه في هذه الأقطار[٨٣].

ويرى الدكتور محمد المختار ابن أباه أن حركة الثقافة في بلاد شنقيط انطبعت أساسا بطابع أندلسي ـ مغربي. ويستعرض كدليل على ذلك المصنفات المتداولة. ففي علوم اللغة والنحو نجد نظم ابن آجروم والفية ابن مالك وكتب ابن حيان وشرح الأعلم الشنتمري للشعراء الستة الجاهلين.

وفي علوم القرآن نجد كتب الشاطبي والداني مرجعا في فن القراءات والتجويد ونجد في التفسير أحكام ابن العربي وتفسيري القرطبي وابن عطية.

ويعزو الدكتور محمد المختار ابن اباه ضآلة اسهام الموريتانيين في علوم الحديث وأصول الفقه الى ندرة هذه الشعب في الأندلس اذا استثنينا أفرادا بارزين مثل ابن عبد البر وابن حزم.

والكتاب المتداول في التاريخ هو نظم ابن الخطيب المعروف برقم الحلل.

وفي الفقه نجد نظم ابن عاشر ورسالة بن أبي زيد القيرواني. واذا كان مختصر خليل بن اسحاق المصري أصبح المتن الأساسي لدراسة الفقه المالكي فانه ارتكز على أربعة فقهاء هم المازري واللخمي وابن يونس وابن رشد.

وكان جل الارتكاز على هذا الاخير. وعليه تأسس الفقه الموريتاني. أما كتب المازري فلم تعرف إلا عن طريق العزو اليها في المختصر وشراحه. ولم يسلم اللخمي من اعتراضات ومآخذ جعلت بعض مؤرخي التشريع يعتقدون أنه مزق مذهب مالك في تبصرته حتى قيل عنه :

لقد مزقت قلب سهام جفونها ... كما مزق اللخمي مذهب مالك[٨٤]

«وقد عرف الموريتانيون ابن رشد الكبير، الفقيه وعرفوا أيضا الحفيد الفيلسوف صاحب «بداية المجتهد».

ومن المأثور عندهم أن الأندلس فاقت بقارئها ومحدثها وفقيهها. أما القارىء فأبو عمرو الداني واما المحدث فأبو الوليد الباجي وأما الفقيه فأبو عمرو ابن عبد البر. وقد قرأ العلامة بابه

بن أحمد بيبه الشنقيطي أبيات ابن عبد البر التي وردت في الديباج المذهب لأبن فرحون وهي :

تذكرت من يبكي على مداوما ... فلم أر غير العلم بالآى والاثر
علوم كتاب الله والسنن التي ... اتت عن رسول الله في سالف الاثر
وعلم الأولى قرنا فقرنا وعلم ما ... له اختلفوا بالعلم والرأي والنظر

فرد الدعوى بهذه الأبيات التي يذكر فيها كتبه الاستذكار والتمهيد والاستيعاب والكافي :

بلى قد بكتك الناس شرقا ومغربا ... وقد حق أن يبكى عليك أبا عمر!
فانت الذي استذكرت كل خبيئة ... وأبديت من علم الشريعة ما بهر
ومهدت للقاري موطأ مالك ... ولولاك لم ييسر لطالبه ثمر
وأنت بالاستيعاب تستوعب العلى ... وكافيك كاف للتفقه والنظر
جزاك اله العرش خير جزائه ... واسقى ثرى قبر بشاطبة المطر[٨٥]

ب ـ الرافد المصري :

أما الرافد المصري وهو ثاني روافد الثقافة الشنقيطية فحسبنا أن نأخذ شاهدا عليه قائمة المؤلفين المصريين الذين وصلت مؤلفاتهم بلاد شنقيط :

وهذه هي القائمة كما أوردها المختار بن حامد في حياة موريتانيا. وضمنها مغاربة نزلوا مصر.

- عبد الرحمن بن القاسم (١٩١) له المدونة،
- أشهب بن عبد العزيز القيسي (٢٠٤) له سماعات،
- سحنون عبد السلام بن سعيد (٢٤٠) له المدونة،
- ابن سحنون عبد الوهاب بن أحمد (٢٥٦)،
- ابن الحاجب عثمان بن عمر بن أبي بكر (٦٤٦) له مختصر فقه،
- ابن السبكي (٧٧١) له جامع الجوامع،
- الصاوي أحمد بن محمد المصري مولدا (١٣٤١) له حاشية على الجلالين،
- العسقلاني أحمد بن محمد بن أبي بكر (٩٢٣) له ارشاد الساري في شرح البخاري وشرح البردة والمواهب اللدنية في السيرة النبوية،
- المنوفي علي بن محمد (٩٣٩) له شرح على الرسالة،
- ابن فرحون ابراهيم بن علي بن محمد (٧٩٩) له تبصرة الحكام، والديباج،
- الأشموني علي بن محمد بن عيسى (٩٠٠) له شرح الخلاصة لأبن مالك،
- البناء أحمد بن محمد بن أحمد الدمياطي (١١١٧) له إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر،

- الفيومي أحمد بن محمد بن علي (٧٧٠ هـ) له المصباح المنير،
- ابن دريد محمد بن الحسن (٢٢٠) له الدريدية وشرح بانت سعاد،
- القرافي أحمد بن ادريس (٦٨٤) له أنوار البروق (فقه) والذخيرة،
- السبكي أحمد بن علي بن عبد الكافي (٧٦٣) له شرح تلخيص المفتاح عروس الأفراح،
- الحفني محمد بن سالم (١١٨١) له حاشية على الجامع الصغير،
- القشيري محمد بن سعد (٣٣٤) له تاريخ الرقة ومن نزلها من الصحابة والتابعين،
- الزرقاني محمد بن عبد الباقي (١١٢٢) له شرح الموطأ وشرح المواهب اللدنية،
- ابن عبد البر محمد بن عبد البر (الأندلسي) (٧٧٧) له الكافي والتمهيد والدرفي اختصار المغازي والسير،
- السخاوي محمد بن عبد الرحمن (٩٠٣) له شرح الفية العراقي في مصطلح الحديث،
- العلقمي محمد بن عبد الرحمن (٩٦٩) له الكوكب المنير في شرح الجامع الصغير،
- المناوي محمد بن علي (١٠٣١) له البشير في شرح الجامع الصغير،
- الصبان محمد بن علي (١٠٢٦) له حاشية على شرح الأشموني للالفية،
- اليعمري محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس (٧٣٤) له عيون الأثر في المغازي والسير،
- ابن نباتة محمد بن محمد المصري (٧٦٨) له ديوان، وشرح على رسالة ابن زيدون،
- النوبري بن محمد بن محمد (٨٥٧) له الغياث منظومة في القراءات الثلاث الزائدة على السبع وشرحها وشرح طيبةالنشر في القراءات العشر لأبن الجزري،
- ابن أبي شريف محمد بن محمد بن أبي بكر (٩٠٦) له الدرر اللوامع شرح جمع الجوامع للسبكي،
- متولي محمد بن أحمد (١٣١٣) له الفرش فيما تخالف فيه حفص وورش (قصية لامية)،
- الشرنوبي بن عبد المجيد (١٣٤٨) له تقرير المعاني بشرح رسالة القيرواني،
- ابن هشام الأنصاري عبد الله بن يوسف (٧٦٢) له أوضح المسالك في ألفية ابن مالك وقطر الندى وشرح بانت سعاد ومغني اللبيب.
- البوصيري محمد بن سعيد (٦٩٥) له الهمزية والميمية،
- ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧) له فتوح مصر وافريقية والمغرب والأندلس،
- العسقلاني أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢) له فتح الباري والاصابة وبلوغ المرام من أدلة الأحكام،
- المحلي جلال الدين بن محمد بن أحمد (٨٦٤) له الدرر الطوالع في شرح جمع الجوامع وجزء من تفسير الجلالين،
- الزوزني الحسين بن علي أو ابن احمد (٤٨٠) له شرح المعلقات،
- الشعراني عبد الوهاب (٥٦٥) له لطائف المنن والميزان وطبقات الصوفية وكشف الغمة ولواقح الأنوار القدسية والعهود المحمدية،

- مرتضى الزبيدي محمد ابن محمد بن محمد بن عبد الرزاق (١٢٠٥) له تاج العروس وإتحاف المتقين بشرح أحياء علوم الدين،
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (٧١١) له لسان العرب،
- الدميري محمد بن موسى (٨٠٨) له حياة الحيوان،
- الشربيني محمد بن أحمد (٩٧٧) له السراج المنير،
- الأبشيهي محمد بن أحمد بن منصور (٨٥٦) له المستطرف في كل فن مستظرف،
- المناوي محمد بن ابراهيم (٨٠٣) له فيض القدير على الجامع الصغير،

- الدماميني محمد بن أبي بكر (٨٢٧) له شرح لامية العجم للصفدي وشرح الخزرجية وشرح تسهيل الفوائد لابن مالك،
- المرادي محمد بن قاسم (٧٤٩) له شرح تسهيل الفوائد لابن مالك،
- الدمنهوري أحمد بن محمد (١٢٢١) له نزهة الأحداق،
- النفزاوي أحمد بن غنيم (١١١٢) له الفواكه الدواني شرح رسالة القيرواني،
- القلقشندي أحمد بن علي (٨٢١) له صبح الأعشى، ونهاية الارب في معرفة أنساب العرب،
- الهيثمي أحمد بن محمد (٩٧٤) له الاعلام بقواطع الاسلام والزواجر عن اقتراف الكبائر والصواعق المحرقة على أهل الرفض والزندقة والفتاوي الحديثية، والقول المختصر في علامات المهدي المنتظر وكف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع والمنح المكية في شرح الهمزية،
- المقري التلمساني نزيل مصر (١٠٤١) له اضاءة الدجنة ونفح الطيب،
- ابن عطاء الله الاسكندري أحمد بن محمد بن عبد الكريم (٧٠٩) له الحكم العطائية والتنوير في اسقاط التدبير والمنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الحسن،
- المرسى ابي العباس (٦٨٦) في التصوف،
- القليوبي أحمد بن سلامة (١٠٧٠) له التذكرة في الطب،
- الديربي أحمد بن عمر (١١٥١) له المجربات : فتح الملك والمجيد،
- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (٩١١) له التفسير والاتقان والجامع الصغير والدر المنثور في التفسير بالمأثور وتاريخ الخلفاء وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة والنقاية في فنون مختلفة واسعاف المبطأ برجال الموطأ والكوكب الساطع في الأصول والحاوي على الفتاوي والفية الحديث وعقود الجمان (بلاغة) والفريدة في النحو وتنوير الحوالك شرح موطأ مالك،
- الخفاجي أحمد بن محمد بن عمر (١٠٦٩) له شفاء الغليل فيمافي كلام العرب من الدخيل ونسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض،
- القرطبي أحمد بن عمر بن ابراهيم (٦٥٦ هـ) المتوفي بالأسكندرية له التفسير والتذكرة،
- ابن خلكان أحمد بن محمد بن ابراهيم (٦٨١ هـ) له وفيات الأعيان،
- الجمل سليمان بن عمر (١٢٠٤) له توضيح تفسير الجلالين،

- الخزرجي عبد الله بن محمد الأنصاري الأندلسي نزيل الاسكندرية (٦٢٦) له الخزرجية في العروض،

* * *

لقد أسهم هذان الرافدان مساهمة جلى في تكوين ملامح الثقافة الشنقيطية، وعليهما كان جل اعتماد المحضرة، في بث المعارف المختلفة التي هي موضوع المبحث التالي.

٢ ـ معارف المحضرة

نظرة عامة

كان نشر العلم رسالة المحضرة الأولى والأخيرة ولم تكن أدوارها الأخرى الانتائج أوعوامل مساعدة لهذا الدور الأساس.

فالمحضرة مؤسسة دراسة تقليدية جامعة لشتات المعارف، قد تتسع دلالتها لتشمل كتاتيب تحفيظ القرآن، ولكنها تنصرف غالبا في الاصطلاح الى المدارس التي يتلقى فيها الطلبة مختلف المعارف الأخرى تدرجا من المستوى الابتدائي وصولا الى المستوى الجامعي.

وهكذا كانت المحضرة توفر لطلبة العلم جميع ما يحتاجونه أو يبغونه من معارف عصرهم من العلوم الدينية الشرعية الى علوم اللغة والتاريخ الى الحساب والجغرافيا والفلك والطب. وكان طلبة المحاضرة يستعذبون تعداد المعارف التي تلقوها وهم بالمحضرة ويحيون بها مجالس سمرهم ويستحضرونها اذا شدهم الحنين الى أيام مضت وعهود سلفت يودون لو أنها تعود.

وقد كانت معارف المحضرة متنوعة منذ فجر النهضة الثقافية الشنقيطية.

ففي رثاء سيدي عبد الله بن محمد للعلامة أحمد بن يوسف البوحسني تجد لوحة لمعارف شتى تمتد من القرآن والفقه واللغة الى الفلسفة اليونانية والحكمة العربية الى الهندسة اذ يشبه الفقيد بأبرز أعلام هذه المعارف فهو :

بصير بحل المشكلات كأنما	يكاشف عن أسرارها ثم يكشف
حكيم تلاشى فيه سحبان وائل	وقس وافعى الجرهمي وقلطف
ورسطا وقسطا وبن سينا وهرمس	واقليدس ذو الجوسقين واسقف
.. تملك أطراف القضاء وفقهه	وما هو إلا مالك ومطرف
..درى في اللغي والنحو ماشاء في الصبا	فشب على تحقيقها يتفلسف
يجود آيات الكتاب فصدره	لمجموع ذي النورين عثمان مصحف
يفسره تفسير حبر موفق	يسنى له فيض العلوم فيغرف(٨٦)

وهذه صورة رسمها الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا :

وكم سامرت سمارا فتوا	الى المجد انتموا من محتدين
حووا أدبا على حسب فداسوا	أديم الفرقدين باخمصين
اذا كر جمعهم ويذاكروني	بكل تخالف في مذهبين
كخلف الليث والنعمار طورا	وخلف الأشعري مع الجويني
واوراد الجنيد وفرقتيه	اذا وردوا شراب المشربين
وأقوال الخليل وسيبويه	وأهلي كوفة والأخفشين
نوضح حيث تلتبس المعاني	دقيق الفرق بين المعنيين
وأطوارا نميل لذكر دارا	وكسرى الفارسي وذي رعين
ونحو الستة الشعراء ننحو	ونحو مهلهل ومرقشين
وشعر الأعميين اذا أردنا	وان شئنا فشعر الاعشيين
ونذهب تارة لأبي نؤاس	ونذهب تارة لابن الحسين(٨٧)

ويتحدث ابد الصغير (محمد بن سيدي أحمد بن محمود) عن معارف المحضرة فيبرز فيها بعض التنوع وان اجتاله النحو والأدب :

ومورد أقلام لحبر دواته	فآونة تروى وآونة تظما
يحلى بها بيض الطروس جواهرا	فلا مهرق إلا بها يشتهي الرقما
فما أنكرت «حتى» المعاني عنهم	ولا «أو» ولا «اما» ولا «ام» ولا «ثما»
ولا «أي» ولا «لكن» لا اخواتها	ولا«ان» ولا«كلا» ولا «لم» ولا «لما»
يميلون نحو النحو يفشون سره	فلا حفظ عنهم يطبيك ولا فهما
يخوضون في مهما : أمهما بسيطة	يخوضون في لولا وفي أم وفي أما
وذا منشد «بان الخليط» ومنشد	«امن أم أو في»أو«صحا القلب عن سلمى»
وذاك التي منها «يهيجني» وذا	«طحا»والتي منها«غدا طفت ع الما»
يخوضون في الأعشى وغيلان ميه	يخوضون في حسان وابن أبي سلمى
وطورا الى من صاغ «زرات على» أو	لواشي التي منها «سرى يخبط الظلما»
وآونة في الشيخ سيدي وابنه	وفي سيد عبد الله طورا وفي «حرما»
وآونة في ابن الحسين وفي أبي	علي وفي الشامي أو في أبي تما(٨٨)

ويعدد محمد بن أحمد يوره بعض معارف المحضرة ناصحا بالأخذ من كل فن بطرف :

هو الجهل جهل الفقه ليس بجائز	وجاهل علم النحو ليس بفائز
وجهل عروض الشعر شر غريزة	اذا عددت يوما شرار الغرائز
ولا تجهلو علم الحساب فانه	قبيح على الفتيان عد العجائز
ولا تتركوا التوحيد ملغى فانه	لخيمة دين المرء احدى الركائز

ويقول محمد محمود بن أحمذية مستعيدا ذكريات المحضرة :

وأين المـــــدارس والمعتنــــــون   بعلــم الفــروض وعلــم السنـــن
فبلـه الأصول وعلـم الحـديث   أو يكسب القارلـــون اللبـــن
وتقــرأ بالسبــع آي الكتـــاب   ويعلـــم من سره ما استجـــن
ويرفـــع بالنحـــو قدر النحــــاة   ويخـــجل باللحـــن مرء لحـــن
ويـدرك بالـحس نفــع البيـان   لمن بقضايا البيــان افتتن(٨٩)

ولمحمد حامد بن عبد الله بن آلآفي تذكر عهود المحضرة :

كم سقانـي بهـا مدام المعانـي   بمعيـن البيــان بعض الفحــول
فتعاطيتهــا معـــي كل ندب   ورث المجـد عن همـام نبـيل
يتعاطونهـــا مرارا فتجـــرى   في سواد القلوب جري الشمول
ويميلــون للخـــلاصة طورا   ويميلـــون تارة للخلـــيل
ويميلـــون للنـــوازل طورا   ويميلــــــون تارة للأصول
ويميلــون للقطامـــى طورا   ويميلــون تارة لجمـــيل
وعلـى السيــرة الشريفــة ميل   ولعلم البيان بعض المـيل(٩٠)

وهذه صورة أخرى التقطها العلامة محمد عالي بن عبد الودود في محضرة يحظيه بن عبد الودود :

كانت لابكار نـور العلم مؤتلفا   والربع منها بعون العلم مكتنفا
كانت منـازل للشيخين ما ذهبـا   من مذهب جددا ما كان منه عفا
وللقرينيــن في حافاتهـا أثـــر   قدما لما ائتلفا فيهـا وما اختلفا
صانا من السر ما شاء وكم نشرا   أسرار ما أودع الألـواح والصحفا
وكم تعاطى بها الاخوان في طرب   من راح علم مداما قرقفا أنفــا
ترى ابـن يوسف محتثا نجائبـه   ينحو بها الاشعري الكامل الشرفا
ترى الجويني والشيخ الامام بها   بين التعـادل والترجيح قد وقفا
فيهـا علـي وعمـرو لا يروعهمـا   زنبــورواش اذا مادب وازدلفــا
لا يختشي بن يزيـد يوم نائبـة   فيها بن يحيى ولا يحيى بها خلفا(٩١)

ولأحمد بن دهاه في الفخر بقومه :

قوم أحاديثهم سرد الحديث على   ما صح متنا واسنادا على نسق
تسقيك راحاتهم راحــا معتقــة   مما انتقى مالك في الفقه والعتقي
يشفي الغليل اذا نحو الخليل نحوا   وسيبويه ومادهر الكسائي لقى(٩٢)

ومن أطرف النصوص التي تحصى معارف المحضرة أو بعضها المقامة الشنائية التي ألفها محنض بابه عندما أكمل دراسته لمقامات الحريري.

فقال :

«حكى المبرد عن الفراء فقال بينما نحن بمدرستنا الغراء المبيحة بسر السراء الجامعة أفنان الفنون بأصولها، المحيطة بأبوابها وفصولها، اذ دخل علينا الشتاء في برده الأغبر ومعه جنده الأكبر، فتلقيناه بفاكهته ورغبنا عن مفاكهته، لأنه رقم لوح الجو ودون في صفائح الدو، وكتب باب الاعتكاف وما من كافاته كاف. وجد في درسه وقرن يومه بأمسه، إلا أنه لبس بعض التلبيس بدوي ذلك التدريس، فأصبح الفقيه يصلي بكل كثيف ولو لم يكن بنظيف. ويتنفل في الكنيف. وكاد يقصر الشاهد ويصلي القادر وهو قاعد. واختار الصائم التدفي عن التبرد والتدثر عن التهجد، واستباح الوصال ولم يترقب الأسحار والاصال. وغدا الأصولي معلق الهموم بتخصيص ما في البرد من العموم، يقيد مطلقه بظواهر يديه. ولم يخرج الصوفي الى حيز التجلي إلّا اذا كان يصلي. ولا يسلك المسالك ولا قدح عليه في ذلك. والمحدث لا يروي إلّا عن بن شهاب ولا يروي الا حديث أيما أهاب، ويرجح الارسال على الرفع ولا يبالي بالافتراء والوضع. ويكره الاخراج ويعجبه الازدواج. وأصبح النحوي مفترشا مذرويه يفضل الكسائي على سيبويه، ويود الجر بالجوار ويعجبه خرق الثوب بالمسمار، ويجزم بيات وظل ويرفع بليت ولعل، ويخلط في الشواهد وينشد في المشاهد :

ليت وهل ينفـــع شيئـــا ليت   ليت شبابـــا بوع فاشتـــريت
تنتـــفض الرعـــدة في ظهيـــري   من لدن الظهر الـى العصيـــر

وقال البياني بمقتضى حاله: اللهم قِنا شر البرد وأهواله. وأجهم هواؤه كأن لون أرضه سماؤه، ينعكس تشبيهه من غير عار ويستعير ولا يجد من مستعار، ويقعى جلوس البدوي المصطلى وينشد للمشاكلة بيتها الجلي :

ليت وهل ينفـــع شيئـــا ليت   ليت شبابـــا بوع فاشتـــريت
تنتـــفض الرعـــدة في ظهيـــري   من لدن الظهر الـى العصيـــر

وقال البياني بمقتضى حاله : اللهم قِنا شر البرد وأهواله. وأجهم هواؤه كان لون أرضه سماؤه، ينعكس تشبيهه من غير عار ويستعير ولا يجد من مستعار، ويقعى جلوس البدوي المصطلى وينشد للمشاكلة بيتها الجلي :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

ويكنى الكناية في قبة بن الحشرج ويعجبه المعنى المدبج، ويغلب اللف على النشر ويوري ولو بالعشر، ويردد بقدر الجهد : جبة البردجنة البرد. وأصبح اللغوي بادي الحصر والخصر لا

يعرف الصِّر من الصَّر، يتردد بين ضم الحبوة وكسر الحبوة. ونسى أمثاله إلا ضغثا على إبّالة : اصرد من الحرباء ومن العنز الجرباء.

وغد المنطقي في تصويره مندرجا في عنوان غيره، يكره قضايا السلب ويستنتج في مطالب السلب، وينفر عن جهة الانتشار ويتشوق الى التسوير في الأسوار، ويغتبط الصغرى لاندراجها في الكبرى. وغدا الكلامي يفتري في شعاره الأشعري، ويود تغير البرد من حالة الى حالة ولو كان يستحيل الاحالة، يستطيل بقاءه ويترقب فناءه، ويعجبه الجوهر المكنون ويتمنى التحيز في الكانون، وتعجبه ملة ادريس ولا يعيب نار المجوس، يؤمن بالحشر وينكر النشر، فقد لبس الشتاء المسائل وجمد كل فهم سائل فلم تقاومه الاحبار الجهابذة فما ظنك بالتلامذة»[٩٣].

٣ ـ ترتيب المعارف

لم تكن المحاضر تلتزم منهاجا دراسيا تتبع فيه ترتيبا ثابتا، بل كانت تقدم وتؤخر، تختلف التقاليد في ذلك من محضرة الى محضرة أو من جهة الى جهة، «فلكل جهة اعتناء ببعض العلوم أكثر من غيرها»[٩٤].

يقول ابن الأمين أن «أهل آدرار وتكانت ومن حذا حذوهم يبدؤون بالأخضري وابن عاشر والرسالة ثم الشيخ خليل» وهي متون متدرجة في الفقه.

أما أهل «القبلة» فان منهم من يبدأ بدواوين العرب فيحفظها قبل البلوغ ثم يدرس العقائد الأشعرية. وقد يمكث سنين في دراستها ليصبح عندهم مؤمنا حقيقة ثم يدرس النحو والفقه.

وكان علماء القبلة في القرن الثالث عشر يدرسون الفية ابن مالك في النحو قبل الفقه وعلوم الشرع[٩٥].

وكان أهل ودان يعنون بالقرآن تفسيرا وتجويدا ورسما فالفقه فالحديث فعلوم اللغة[٩٦].

أما ترتيب مراحل التعليم في شنقيط فكان على النحو التالي :

١ ـ القرآن ورسمه وضبطه وتجويده، والحديث ومصطلحه والفقه والسيرة النبوية الشريفة وسير الصحافة وفتوحاتهم وانسابهم.

٢ ـ اللغة وآدابها وعلومها من نحو وصرف وبلاغة وعروض وأنساب العرب وأيامهم.

٣ ـ التاريخ والمنطق وحساب العدد والفلك والطب[٩٧].

وكان بعض علماء تشيت ينصحون بتأخير دراسة العقائد الى أن يستكمل الطالب لوازم استيعابها من لغة وعلوم دين أخرى.

وقد أورد التشيتي في «منن العلي الكبير» رسالة لبعض المتأخرين يقول في بدايتها :

«الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، وجعل النصيحة شرطا لكل مسلم. والصلاة والسلام على سيد الصامت والمتكلم وبعد: فأقول لمن سيقف عليه من الاخوان والتلامذة وأنصحهم وأحذرهم أن يخوضوا في براهين علم الكلام حتى يمارسوا العربية والقران والحديث ليكونوا على أمن من الاضطراب في متسع آفاق تلك الشبهات».

ويوصي حماد المجلسي بدراسة الفقه والنحو والسيرة على هذا الترتيب :

طلبه فريضة وأفرضه   علم مهمك به أبدا تقبضه
فقوته الفقه وملحه الذي   يصلحه النحو جهوله انبذ
واسه ادامه تحقيقه   سيرة خير واجب تصديقه[٩٨]

ويقول محمد مبارك اللمتوني :

وقدم الأهم ان العلم جم   والعلم طيف زار أو ضيف الم
أهمه عقائد ثم فروع   تصوف وآلة بها الشروع

قال انه أراد أن يؤخر علوم الآلة فقدمها. وعلوم الالة يعنون بها علوم اللغة والنحو وما اليها مما يدرس لا لذاته بل ليفهم به كتاب الله وأحكام الشرع، بينما تعتبر علوم الشرع غاية في حدّ ذاتها.

ومهما اختلفت المحاضر في الترتيب بين علوم الآلة وعلوم الشرع، فقد اتفقت على ضرورة الالمام بهما معا، فكانت علوم العقيدة والفقه واللغة والنحو وهي المعارف السائدة، دعائم يقوم عليها بناء المحضرة المعرفي.

٤ ـ المعارف السائدة

عنيت المحاضر جل ما عنيت بعلوم الدين واللغة فاهتمت من الدين بعلم الكلام وأصول الدين أو ما يصح به اعتقاد الفرد المسلم، مستندة الى مذهب الاشاعرة وما صدر عنهم من مؤلفات.

وكان لها اهتمام كبير بالفقه أصوله وقواعده وفروعه. واهتمامها بالفروع أكبر. وجل ارتكازها فيها ـ والقوم مالكيون قاسميون ـ على مختصر خليل بن اسحاق.

أما اللغة فقد أخذت بقلوبهم شعرا ونحوا، وكان بابهم الأكبر الى دراسة النحو والصرف الفية ابن مالك ولكن لهم الى الشعر ميل خاص انشاء وإنشادا.

وسنتناول فيما يلي هذه المعارف التي بها كان قوام المحضرة وعليها ارتكازها.

أ ـ العقيدة :

ذهب الشناقطة في مشاريهم الفكرية في اتجاهات ثلاثة :

- اتجاه أشعري عقلاني متوسع في مذهبه يؤمن بالمنطق الصوري وعلم الكلام المنطقي وتمثله مدرسة المختار بن بونه.
- اتجاه سلفي نصاني يعادي علم الكلام والمنطق اليوناني متأثرا بالوهابية والظاهرية يمثله المجيدري اليعقوبي.
- اتجاه صوفي قوامه التبحر في العلم والاستقامة في السلوك يمثله الشيخ سيد المختار الكنتي(٩٩).

وقد اصطرعت الاتجاهات الثلاثة في بعض المراحل كما حدث بين المختار بن بونه والشيخ سيد المختار الكنتي، وانتهى الأمر بالتراضي والتفاهم بين الرجلين على ما يذكر(١٠٠) دون اتفاق المشربين.

ومن الجانب الآخر دار صراع ساخن بين المختار بن بونه والمجيدري اليعقوبي وجماعته. والغريب أن اليعقوبيين كانوا أهل علم باللغة وإنما استقدموا المختار ليدرسوا عليه علم الكلام وكان مجليا فيه. ثم كان صراعهم معه صراعا كلاميا، سار فيه الطلبة على غير نهج استاذهم، فاتهموه بتوهين الدين والابتداع فيه والعدول عنه الى المنطق اليوناني وفي ذلك يقول شاعرهم المأمون :

قد جرت معتسفا يا هادي الطرق ... وانه البحر لا يقتلك بالغرق
اكثرت حزك لو دريت مفصله ... فادر المفاصل قبل الحز واستفق
ما الدين إلّا الذي تسعى لتوهنه ... آي النبي وآثار الهدى العتق
لا كل خبط عن اليونان مبتدع ... قدسن بين أصول الدين مختلق
ان قلت ساغت لمن تمت قريحته ... أو أن تخلص لنا من مسلم تلق
ردا بان أبا حفص قد أوردها ... وردها المصطفى منه على تأق
كما البخاري في التوحيد أخرجه ... والحبر أحمد والبزار في طرق(١٠١)

وفي القطعة كما ترى ـ عرض وجيز لحجج الفريقين. وقد وقف المجيدري وجماعته موقف المحافظة والتمسك بظاهر الحديث.

والظاهر أن الخلاف لم يقع إلّا بعد رحلة المجيدري إلى الحج وعودته مما يرجح كونه تأثر بأستاذ ثان لقيه في رحلته. وقد افترض بعض الباحثين أن يكون عاد متأثرا بالحركة الوهابية التي كانت يومئذ في بدايتها هناك. ولكن هذا التأثر ـ ان صح ـ لم يكن عميقا ففي تلك الرحلة وفي طريق العودة تلقى المجيدري الطريقة الشاذلية أو الخضرية بالمغرب(١٠٢).

وايا كانت الحقيقة فقد ظلت منظومة ابن بونه المطولة في علم الكلام (الوسيلة) من المراجع المعتمدة في المحاضر عبر السنين. وانتهى الصراع الى تعايش سلمى بين المشارب المختلفة مع سيادة العقيدة الأشعرية والمشرب الصوفي وتمسك الشناقطة بهما معالا يرون في ذلك أي تناقض.

وقد وصلت العقيدة الأشعرية الى البلاد في وقت مبكر فالمعروف ان الفقيه أبا عمران الفاسي (ت ٤٣٠ هـ) أخذ في بغداد عن أبي بكر الباقلاني (ت ٤١٣ هـ) الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للأشعرية. وحين عاد إلى بلده رفع دعوة الاصلاح فنفاه حكام مغراوة فتوجه الى القيروان. وصحبه تلميذه وكاك بن زلو ثم رحل وكاك الى السوس الأقصى واستقر بمدينة نفيس حيث بنى دار أسماها «دار المرابطين»(١٠٣).

وعن وكاك أخذ عبد الله بن ياسين المعلم الأول في بلاد شنقيط. والغريب أن المرابطين لم يأخذوا في المغرب بالمذهب الأشعري، حتى انه كان أداة في أيدي خصومهم الذين انقلبوا عليهم وتسموا «الموحدين» اعتزازا بالعقيدة الاشعرية التي يحملون. فقد جاء محمد بن تومرت من الشرق وفرض الأشعرية مشربا عقيديا في المغرب فبقى الناس عليه الى اليوم. وكان من مراجع المحضرة للعقيدة الأشعرية اضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة للمقري والواضح المبين في أصول الدين لمحمد بن محمد سالم وعقيدة ابن أبي زيد القيرواني في «الرسالة» (مقدمة) وابن عاشر في «المرشد المعين» و«أم البراهين» للسنوسي بالاضافة الى «وسيلة» المختار بن بونه.

ب ـ الفقــه :

الشناقطة كلهم مالكيون وهم في المالكية قاسميون، لا يحيدون في الغالب عن رواية ابن القاسم، ثم هم خليليون يعتمدون ما رواه خليل بن اسحاق المصري في مختصره مرجحا ما ورد عن محمد بن القاسم العتقي من مذهب مالك.

وقد رسمنا من قبل في روافد الثقافة الشنقيطية الطريق الذي سلكته المالكية الى بلاد المغرب. ومنها انتقلت الى بلاد شنقيط مع الفقهاء عبد الله بن ياسين وأبي بكر الحضرمي

وإبراهيم الأموي وغيرهم. ومن الشناقطة فقهاء مارسوا الاجتهاد بشجاعة وحزم في آن وخصوصا اجتهاد الترجيح فقد مارسه محمد بن المختار بن الأعمش وبابا ابن الشيخ سيديا وآخرون. وكان هؤلاء ينحون منحى اجتهاديا لا يرون غضاضة في العدول عن مذهب ابن القاسم الى ما يرونه أصلح منه.

وبتأثير هؤلاء وخصوصا في العقود الاخيرة أخذت طوائف من الشناقطة بأمور مرجوحة في مأثور ابن القاسم، وخارجة على مشهور مذهب الامام مالك أحيانا. وثار بذلك جدل كبير حول القبض والسدل والرفع والبسملة في الفرض وتأمين الامام جهرا والاجتماع لقراءة القرآن والذكر جهرا وتثنية الاقامة أو افرادها ووجوب الزكاة على مستغرقي الذمة وغير ذلك من المباحث الفرعية.

ومن الشناقطة طائفة كبيرة منعت الاجتهاد أو جزمت بانقطاعه مثل محمد النابغة الغلاوي القائل :

والاجتهاد في بلاد المغرب   طارت به في الجو عنقا مغرب

ومن أصولييهم من منع تقليد أكثر من مذهب وألزم المقلد باتباع مذهب معين والاقتصار عليه دون غيره، مع جواز الأخذ بداية بأي مذهب من المذاهب السنية الأربعة (المالكي، والحنفي، والشافعي، والحنبلي).

وبعضهم ذهب أبعد من ذلك فالزم المقلدين في بلاد شنقيط (بل بلاد المغرب) اتباع مذهب مالك دون غيره، معللا رأيه بانتفاء ما سوى المذهب في هذه البلاد. وفي ذلك يقوم محمد بن محمذ فال بن أحمد فال :

وأهل مغرب عليهم يمنع   غير الامام مالك أن يتبعوا
لفقد غيره وكل خارج   عن نهجه فهو من الخوارج(١٠٤)

ومن الكتب المالكية المعتمدة عند الشناقطة :

- البيان والتحصيل لابن رشد والمقدمات له
- الجامع لابن يونس
- المازري
- تبصرة اللخمي
- الأحكام لابن سهل
- جامع المتيطي ومختصراته
- تبصرة ابن فرحون
- مختصر ابن الحاجب وشروحه

- ديوان ابن عرفة
- شرح القلشاني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني
- شرح ابن مرزوق لجزء من مختصر خليل
- شرح الحطاب علي خليل
- المواق الكبير والمواق الصغير
- شروح حلولو
- بهرام الكبير وبهرام الصغير.
- حواشي ابن جزي
- حواشي احمد بابا التمبكتي
- نوازل ابن هلال
- المعيار للو نشريسي
- نوازل سيدي عيسى السجستاني(١٠٥)

وليس في نظم القاضي محمد بن محمذ فال بن احمد فال للكتب المالكية المعتمدة اي مصنف من مصنفات الشناقطة على وفرتها بل انه يستثنى المتأخرين من أهل الالف الثالية، فلا يذكر من مصنفاتهم الا النزر اليسير مثل حاشية الرهوني(١٠٦).

وقد رويت عن العلامة اباه الثاني ابن عبد الله بن اباه ان المدونة كانت أهم المتون التي تدرس في البلاد، وذلك قبل ان يصل مختصر خليل الذي تلقفه الشناقطة فشغلوا به عن المدونة وعن رسالة ابن ابي زيد القيرواني واعتمدوه حتى قال أحمد بابا التمبكتي ما قال ناصر الدين اللقاني : «نحن خليليون ان ضل ضللنا». ويستأهل المختصر منا وقفة خاصة لمكانته بين مراجع الثقافة المحضرية.

مختصر خليل :

ألف هذا الكتاب ضياء الدين أبو المودة خليل بن اسحاق بن موسى بن شعيب المصري (ت ٧٦٩ أو ٧٧٦ هـ) فوضعه مختصرا على مذهب الامام مالك بن انس رحمه الله تعالى مبينا لما به الفتوى مستعرضا فقه المذهب في عبارات قصيرة كثيفة مكتنزة جمالة. ووزع كتابه الى ٦٣ بابا و ٦٤ فصلا بالاضافة إلى خطبة الكتاب. ويقع الجميع في نحو ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط (طبعة دار الفكر ١٤٠١/١٩٨١ م).

وكان مولاي احمد الذهبي اول من ادخل مختصر خليل في شنقيط. ويقال ان سيدي أحمد الفزازي هو اول من أدخل في وادان شرح الحطاب لمختصر خليل وكان أخذه عن أحمد المسكة والد أحمد بابا التمبكتي(١٠٨).

وفي وادان ظهر أول مصنف شنقيطي محفوظ. وكان شرحا وضعه محمد بن أحمد الوداني وكان حيا سنة ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م) على مختصر خليل(١٠٩).

وقد أقبل الشناقطة على دراسة مختصر خليل بنهم حتى اعتبروه شرطا للرجولة وسمة من سمات النضج. وكان من عادة أهل الشيخ القاضي (اجيجيبه) أن لا يتسرول الشاب منهم حتى يتم دراسة مختصر خليل.

وقد قسموا المختصر حصصا دراسية سموها «اقفافا» واحدها «قف» واشتقاق التسمية واضح. فقد كانوا يضعون في نهاية كل حصة دراسية كلمة «قف» اشارة الى أن هذا القدر هو أقصى حد يستطيع الطالب الذكي أن يستوعبه في يوم، وذلك لكثافة مادة المختصر واكتناز جمله وصعوبة حفظ النثر عموما...

وتبلغ «أقفاف» المختصر ٣٣٣ «قفا»، ويعود تقفيفه الأول الى مبادرة أربعة من طلاب على الاجهوري كانوا «دولة» يدرسون عليه معا كتاب خليل بن اسحاق وكانوا من أذكى الطلاب كما تشهد بذلك مؤلفاتهم وصيتهم العلمي المدوي وهم عبد الباقي والخرشي والشبرخيتي والنشرتي.

ويرى الشناقطة، وهم مضرب المثل في قوة الحافظة والذكاء، ان القف كثير لا يستطيع استيعابه مع الاحتفاظ به من الذاكرة الاقلة من الحفاظ ولذلك عمدوا الى تجزئته، وسارت عندهم هذه العبارات مسار المثل :

– «قف = أف» أي أنه بمثابة الريح (اف اسم صوت) يمر عابرا فلا يستقر منه شيء في الذاكرة.

– «نص لا بدال يخص» أي أن النصف لا يمكن الاحتفاظ به جملة فلا بد أن ينسى قارئه بعضه أو يعجز عن استيعابه أصلا.

– «ثلث يوترث» أي أن ثلث «القف» يعلق بالذاكرة فلا ينساه قارئه حتى يموت كأنه يورث من بعده(١١٠).

وكانوا يرون أن من أتقن دراسة المختصر، فقد حاز الفقه بحذافره.

حكى عن الفقيه الشريف سيدي محمد بن فاضل الشريف المتوفي سنة ١١٦٠ هـ أنه قال

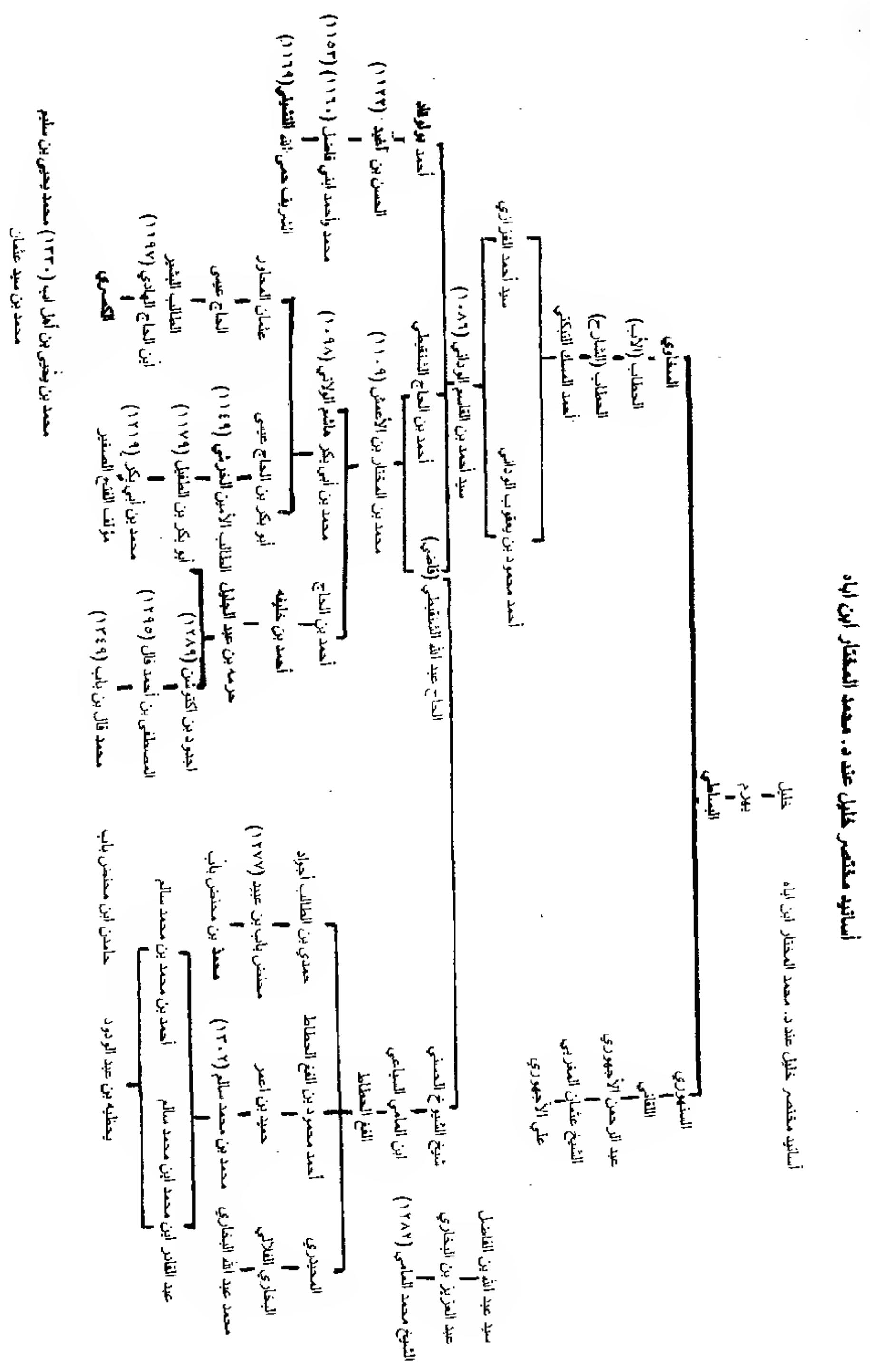

ما من مسألة في الفقه إلا وحكمها يؤخذ من مختصر خليل رحمه الله إما من منطوقه وإما من مفهومه. فكان يسأل عن المسألة ليست بظاهرة في منطوق خليل من أين تؤخذ من نصه، فيقول تؤخذ من مكان كذا. فقيل له من أين يؤخذ تحريم اشتراء الدواب التي عليها وسم الزوايا من الاعراب مستغرقي الذمم؟ فقال من قوله : «وختن مجلوبها» يعني أن الاطلاع على الرقيق المجلوب من بلاد الحرب مختونا عيب فيه مخافة أن يكون رقيقا أغاروا عليه أو أبق اليهم وكذلك الدواب المشتراة من مستغرقي الذمم اذا كان عليهاوسم الزوايا، فقد تكون ضالة أو نهبا في غارات الاعراب(١١١).

وقد دخل المختصر في الحياة اليومية للناس من أوسع الأبواب حتى استعملت مصطلحاته استعمال مفردات العامية، وجرى الناس على التخاطب بها خارج حلقة الفقه وعبروا بها عما يختلج في صدورهم، واتخذوا منها أمثالا ورموزا واشارات. ومن ذلك أن حمد الله بن محمد بن محمد سالم كان في مجلس، اذا أقبل سارق مشهور يدعى «الطاهر» وفي المجلس من لا يعرفه، فقال شطر بيت رجز ارتجالا : أول فصل من فصول المختصر.. وسكت ففهم أخوه أحمد الاشارة فاكمل البيت ارتجالا :

بالبيت جالس خذوا منه الحذر

ومعلوم ان الفصل الأول من فصول المختصر يبدأ بهذه الكلمة :

«الطاهر» ميت ما لا دم له

وسار البيت، وخصوصا صدره مسار المثل في الناس فهم الى اليوم ينبهون به من يريدون أن يمسك عن حديث أو عمل أو يأخذ حذره ازاء شخص امي (أو غير امي بحيث لا يسمع). واذا قال أحدهم أن فلانا «بلغ فلا اشكال» في الأمر الفلاني فمقصوده انه بلغ منه غايته ومنتهاه لأن هذه الكلمة «فلا اشكال» هي آخر مختصر خليل بها ينتهي نصه.

وقد أعجب الفقهاء المتأدبون خاصة بأسلوب خليل الأدبي المتميز فنسجوا على منواله يحاكون جملته وعبارته واصطلاحه باقفاف كانت من روائع الأدب المحضري إلّا أنها وذلك مكمن طرافتها ـ تنصب غالبا، وفي طرافة، على قضايا اجتماعية وتتضمن أحيانا نقدا ساخرا لاذعا، فهناك قف الشاي وقف أما نيجه (تبغ) وقف المسؤول واقفاف أخرى بديعة.

وهذا نموذج من الأدب الشنقيطي الخليلي المنثور* :

«باب. ندب لمواطن شب، وان بلا ثقافة، حلق لحية واعفاء شارب ومقدم رأس وظفر وتاكد إن تمتع بثقافة أجنبية وهل يجب عند المسؤولية حلق الكل أو يستحب؟ خلاف...

* قد لا يتذوق هذا الأدب من لم يدرس مختصر خليل أو لم يلم إلماما ببعضه، حتى يكون على بصيرة من اصطلاحه وأسلوبه.

«ووجب لمن عظمت مسؤوليته حلق عم ولباس جم لا حدد إلا في استقبال في كوفد ولأولى مسؤولية. وهل بقيد الجماعة الكل أو بحسب العرف أن اختلفا أو مطلقا؟ تأويلات..» ولا يقلد مثقف غيره ولا كتابا إلا لكمستشرق. وقلد غيره مثقفا عارفا أو كتابا. فان لم يجد، أو تحير مثقف، تخير. والأظهر رأيه. ولمسن أصلع الكل وان عجز سقط. والأرجح الوسع.

«فصل : وحرم أدب مع كسني وتوقيره وانصات، ولو قل، كنص سني، والغي شرح وقول كصحابي فيه وتعين زجره وان مسنا. واستحسن بنصيحته وقول برأي في القرآن وطعن في القرآن وطعن في الصحيح ومتقدم زكى. قال : وحكم عقل على شرع وعادة عليهما.

«وسقطت كالقناع العمامة ولو في حر وقر وفرض عين وبر لكزوج ووالدين وامر بمعروف وجماعة وان بصلاة إلّا لامر دنيوي عم ونفقة ومسمى عن غائب كبني غير الحالية ورق وحد.

«فصل وجب لحرة في كرياضة لبس محدد وارسال شعر وتسويده ووصله. وهل أن أبيض وقصر، وصحح، أولا؟ رويت عليهما. وصبغ ظفر بكحمرة أو صفرة زانتا وازالة حاجبين مطلقا وتسويد محلهما. وفي وجوب الوشر والوشم وسنيتهما قولان.

«ولبست أبيض وملونا شفافا. وتأكد ان خرجت وكاسنمة بخت أن ضفرت وقضي على الزوج بالكل.

«واختير تجولها، وحضرت ان قدرت كل اجتماع عم. وانقول قولها. وطلقته ويعكسه ولها التصرف المطلق في ماله وبنيه كنفسه والتزوج عليه بلا حد، كفي عدته ومن محرم، والخروج متى شاءت وان بلا اذن. ورفع صوت عليه ونداؤه من وراء الحجرة وباسمه، وافتيات عليه وغضب وادعاء مرض برجوع..».

ج ـ علوم اللغة :

للشناقطة منذ قرون اليد الطولي في علوم اللغة العربية، فقد عنيت المحضرة بنشر هذه العلوم ووقفت في مسعاها، فنشرت الفصحى وذللت قطوفها لعامة الناس، وأفاض الطلبة في تعاطي الشعر حفظا ورواية وانشاء وفي دراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة والعروض بل ومعاجم اللغة.

ويبدو أن العناية بعلوم اللغة كانت في العصور الأخيرة سمة مميزة لبلاد شنقيط يقول جاك بيرك : «ان بلاد شنقيط كانت في القرون الثلاثة الاخيرة مختصة بالدراسات اللغوية والأدبية، بالمقارنة مع سائر البلاد العربية»(١١٢).

ويشهد لذلك أن الشناقطة الذين حلوا في رحاب الازهر وغيره من مراكز الثقافة في البلاد العربية كانوا قدوة في اللغة وإليهم المرجع في علومها. وحسبك أن الدرس اللغوي كان مهملا في الأزهر الى أيام محمد عبده الذي انتدب له الشيخ محمد محمود وعلى هذا الشيخ وعلى زميله ابن الامين اعتمدت دور النشر هناك في تحقيق ذخائر كتب التراث.

ولم يفتأ العلماء الشناقطة يفخرون بثروتهم اللغوية، يباهون بها الآخرين وفي ذلك يقول غالي بن المختار فال البصادي.

وبعـد فاللغـة من عدانـا   يمكث في طلابهـا عدانـا
يسائل الصميم والـد دانـا   والـحشم الخـول والعبدانـا

وكأنه أراد أن يقول : اما نحن فهي لنا خالصة، نرضعها من ثدي الأمهات. وذلك ما صرح به أحمد بن محمد بن عبد الله «الذئب» :

لنا العربيـة الفصحى وأنـا   أعـم العالمين بها انتفاعـا
فمرضعنا الصغير بها يناغي   ومرضعـه تكورهـا قناعـا

وقد أدخل الشريف عبد المؤمن مؤسس محضرة تشيت والحاج عثمان مؤسس محضرة وادان علوم اللغة العربية الى البلاد في القرن السادس الهجري(١١٣). وذكر صاحب «فتح الشكور» بعض النحاة الذين كانوا في شرق البلاد مثل الفقيه المختار النحوي ابن اند غمحمد (ت ٩٢٢) واند عبد الله بن سيدي أحمد وكان حيا سنة ٩٣٧، والحاج أحمد بن عمر الصنهاجي الذي حج سنة ٨٩٠ هـ ولقى الشيخ خالد الأزهري امام النحو(١١٤).

وقد أقبل القوم على دراسة اللغة العربية بدءا بالدراسة المعجمية. مستعينين ببعض المعاجم المنظومة، مثل المثلثات (مثلث قطرب ومثلث ابن مالك) والمقصور والممدود لابن مالك والمتون النثرية الحافلة بالمفردات مثل مقامات الحريري وبالنصوص الشعرية كدواوين الستة الجاهليين والمعلقات وديوان غيلان ذي الرمة ولامية العرب ومقصورة ابن دريد والشمقمقية. وكانوا في سعيهم الى اقتناء اللغة يتهافتون على أشعار الأولين، يحفظونها ويتناشدونها. وفي ذلك يقول سيدي محمد بن الشيخ سيديا :

فقلت للائم قد لج يلحـو   كفاك اللوم بالكلم اليسيـر
رويدك ان بيتا من قديم   من الشعراء ذي نسب خطير
يعز على الرواة ألذ عندي   من الدنيا ومن مال كثير(١١٥)

ومن عنايتهم بالشعر في رحاب اللغة، عنوا بالعروض، فكان منهم ائمة فيه مثل أحمد بن أمين بن الفراء الذي «له معرفة بالعروض عظيمة ما أظن أحدا في هذا العصر يبلغها، ولا جمع أحد من كتبه ما اجتمع عنده»(١١٦).

ولكن الطريف في شأنهم مع اللغة أنهم عنوا بمطالعة معاجمها المنثورة وحفظها. وكان محمد ابن الطلبة لا يحط رحله اذا حمل عصا التسيار إلّا حيث يوجد القاموس المحيط، «كلما مر بحي سأل : هل يوجد القاموس؟ فان قيل لا واصل سيره، فكأنما هو ضيف على الفيروز ابادي، قراهُ أن يقرأ في كتابه فيطعم اللغة حيث كان».

وقد ورث عبد الله العتيق اليعقوبي ابن الطلبة، فاذا هو يبرمج في محضرته «لسان العرب» لأبن منظور دروسا منتظمة.

وكان اباه بن محمد الأمين يمتحن صفوة طلبته بحفظ صفحتين من القاموس في قراءتين(١١٧).

وقد حفظ محمد بن محمد سالم حرفين من القاموس، فاتهمه زملاؤه بقصد المباهاة فاقلع عن حفظ البقية(١١٨).

وحفظ محمد الأمين بن الددو القاموس الى حرف الراء ونهي عن بقيته خوف العين. ولكن امرأة، مريم بنت اللا حفظت القاموس كله(١١٩).

ومن حفظ اللغة حفظ الصيغ الصرفية الشاذة، وقد أكثروا من ذلك، وباروا فيه الأقدمين.

وقد بلغ جدود بن اكتوشني ما نقل عن المتنبي أن أحد العلماء، سأله : كم من الجموع ورد على وزن فعلى بكسر فسكون؟ فأجاب على البديهة : ظر بى وحجلى.

قال سائله، فسهرت ثلاث ليال افتش في الكتب، فما وجدت لها ثالثا.. فاستدرك جدود اللفظ الثالث وتحرى امانة العزو، فقال :

وثـالث اللفظين لفظ يعزى   الـى الدماميني وهو معزى

وكان القوم يبالغون في تقدير اللغة، ويرون أن من راضها فأعطته زمامها، انفتحت له أبواب المعارف كلها.

ومن ذلك، أو هو من عجائب الاستحضار، ما نقله صاحب الوسيط وشاع ذكره في ألناس، ان حربا قبلية وقعت في أرض القبلة من بلاد شنقيط، كان العلويون طرفا فيها، فسعى الناس للصلح بين المتحاربين، فتراضوا بتحكيم عالم قاض، فحكم بقتل أربعة من العلويين قصاصا... عندئذ جاءه بابا بن أحمد بييه العلوي معترضا، فقال ان مثل هذا لا قصاص فيه. فقال القاضي: ان هذا لا يوجد في كتاب. قال بابا : بل لم يخل منه كتاب، فقال القاضي متحديا : هذا القاموس، يعني أنه يدخل في عموم «كتاب» فتناول بابا القاموس وفتحه أول ما فتحه على قوله : «والهيشة الفتنة وأم حبين. وليس في الهيشات قود، أي في القتيل لا يدرى قاتله» (بعينه)(١٢٠).

د ـ النحـو :

وكان لهم بالنحو ولع شديد، حتى قدمته محاضر كثيرة على الفقه، فبه يكون فهم نصوص الشرع على نحو أحسن وبه يستقيم منطق طالب العلم، كما يقول أحدهم :

النحو يصلح من لسان الألكن   والمرء تكرمه اذا لم يلحن

ويجزم النابغة الغلاوي في نظمه الفقهي «بوطليحية»، بعدم جواز الفتوى من فقيه جاهل بالنحو، ويلح على دراسة النحو مبررا ومستشهدا :

وبعضهم يفتي وهو جاهل   اعراب بسم الله عنه ذاهل
فليس من أهل اللسان العربي   وفي الأصول ماله من ارب

فمثل هذا لا يكون مرشدا ... لجهله النحو ومما أنشدا :
عليك بالنحـــو فان النحـــوا ... لحن الخطاب ملكه والفحوى
أما ترى الفقيه في التهجي ... قد يترجى غاية الترجـــي
حتـــى اذا تلاه بالتفهـــم ... نكص حيران على التوهـــم
ومع ذاك كل قول انفرد ... به متى رددته عنه يرد
وكلمـــة ابـــن مالك كافيـــة ... اذ قال في بيتين في الكافية :
«وبعد فالنحو صلاح الألسنه ... والنفس ان تعدم سناه في سنه
«به انكشاف حجب المعاني ... وجلوة المفهوم في الاذهان»

وقد دخل النحو البلاد مبكرا فلعل تلميذي القاضي عياض[١٢١] الشريف عبد المؤمن والحاج عثمان اللذين أسسا تشيت ووادان سنة ٥٣٦ هـ قد جلبا النحو ضمن ما جلبا من علوم اللغة.

وفي التواصل الذي تجسده رسالة محمد بن علي اللمتوني الى جلال الدين السيوطي وطلبه منه كتابه عن الحروف ما يوحي بأن النحو كان في البلاد في القرن التاسع الهجري[١٢٢] وللسيوطي نفسه «الفريدة» في النحو، وكانت من المتون المتداولة عند الشناقطة[١٢٣].

ويروى أن محم (محمد) سعيد بن تكدي اليدالي الذي درس في تافيلالت (سجلماسة) بالمغرب وعاش في القرن العاشر الهجري، كان أول من جلب النحو الى منطقة القبلة (جنوب البلاد) ولذلك سمي «النحوي». وسمي عدد من أعلام البلاد من بعده باسمه[١٢٤].

ويرى الأستاذ المختار بن حامد أن أقدم متن عرفه الشناقطة في النحو «ملحة الاعراب» للحريري ثم الفية ابن مالك وكافيته وتسهيله ولامية الأفعال له ثم فريدة السيوطي ومختصر ابن آجروم الصنهاجي.

ولعل في ذلك احالة الى التراتب الزمني للمؤلفين الأربعة..

وكانت السيادة بين مصنفات النحو لألفية ابن مالك التي احتضنها الشناقطة واعتبروها دعامة أساسية من دعائم ثقافة الفتيان والفتيات، فكان لها من الاثرة في النحو ما لمختصر خليل في الفقه.

وقد نظم الألفية، وسماها الخلاصة، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي المتوفي سنة ٦٨٢ هـ بدمشق..

وكان للشناقطة على الألفية أعمال كثيرة، شرحا واستدراكا بلغت نحو السبعين.. وللالفية تأثير كبير في الحياة الثقافية، بل وفي الحياة العادية، للشناقطة، تناوله الأستاذ يحي بن البراء. فأجاد، في رسالته «الألفية وتأثيرها في الثقافة المورتيانية».

من مشايخ النحو واللغة (قرن ١١، ١٢ هـ)

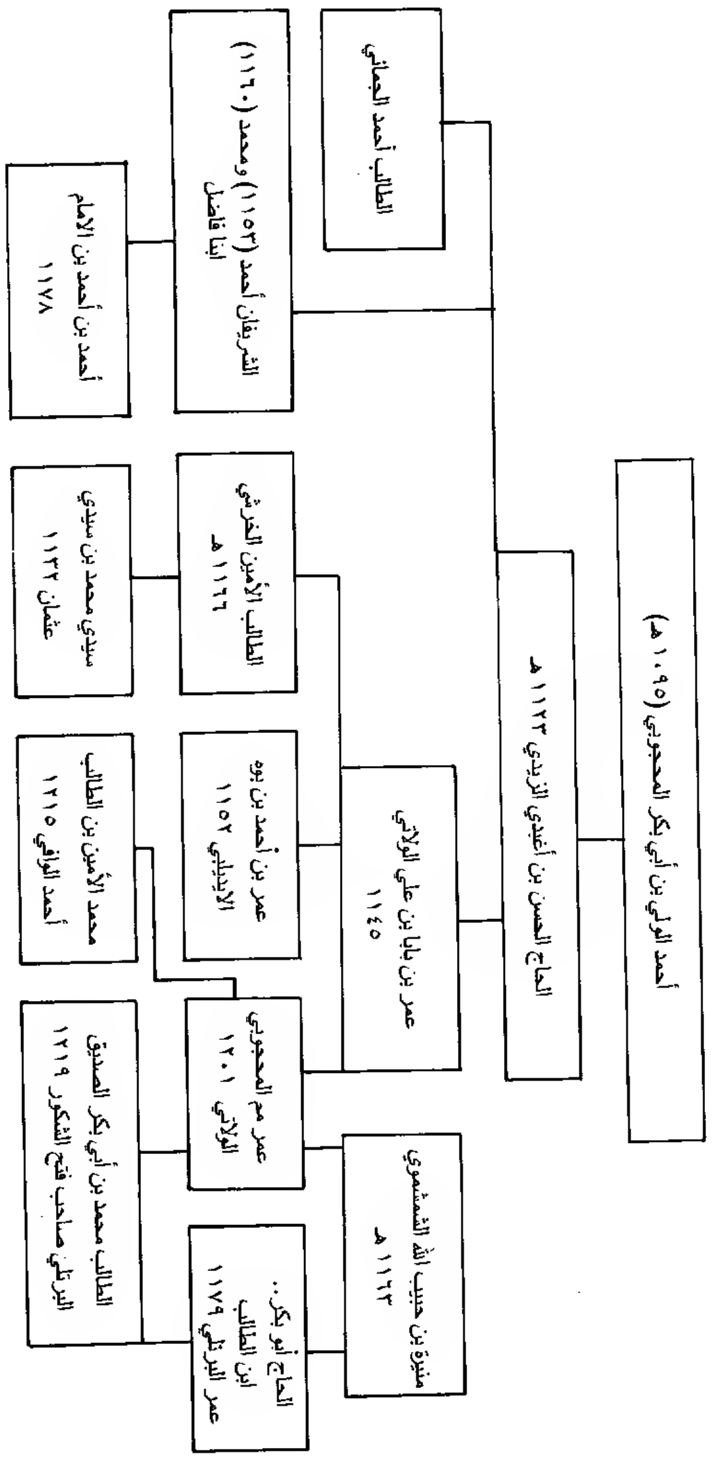

من مشاييخ النحو واللغة (ق ١٣، ١٤ هـ)

(مدرسة ابن بونه)

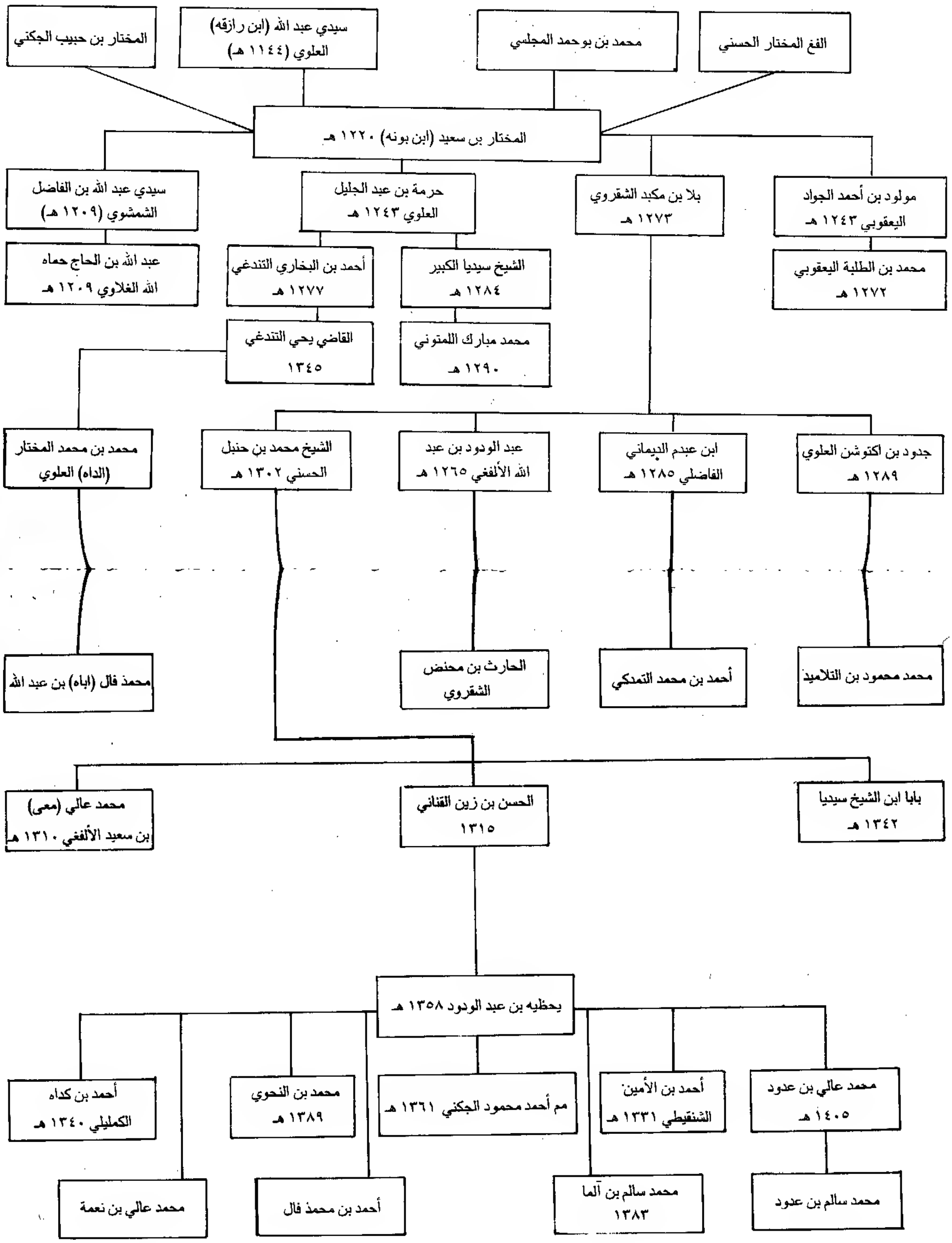

٥ ـ محاضر متخصصة

ربما اختصت بعض المحاضر بفن من الفنون تعنى به دون غيره أو توليه عناية أكبر والغالب أن يتنازع الفقه وعلوم الدين والنحو وعلوم اللغة المحاضر اذا هي عمدت الى التخصص.

ومن نكت الصراع بين القطبين ما يروون من أن طلبة محضرة للدراسات اللغوية كانوا يتندرون بطلبة محضرة فقهية فيقولون لهم كيف تعربون زيدا؟

فيرد طلبة الفقه :

وماذا تفعلون أنتم بزيد هذا اذا أدركه الموت؟(١٢٦).

ويكتسي التخصص صبغة اقليمية بارزة فقد كانت المناطق الشرقية من البلاد مجلية في الدراسات القرآنية. وكان للفقه حضور مكثف في آدرار والشمال وحسبك ودان مثالا على ذلك فهي أول حاضرة شنقيطية تنتج كتابا في الفقه (موهوب الجليل على مختصر خليل) ولكننا لا نجد فيها أي أثر لغوي(١٢٧).

وبنفس المعنى تمايزت المحاضر قبليا في مشاربها العلمية فمحاضر تجكانت ومسومة وتنواجيو مشهورة باختصاصها في علوم القرآن بينما اختصت محاضر اجيجبة وأهل محمد بن محمد سالم بالدراسات الفقهية.

قال ايتيان رشيه «ان محضرة أهل محمد سالم مدرسة عليا للحقوق (الفقه الاسلامي) يبعث العلماء تلامذتهم المتفوقين اليها لينهوا دراستهم فيها»(١٢٨).

أما محاضر عبد الودود بن عبد الله والحسن بن زين وبلا بن مكبد فتخصصت في علوم اللغة والنحو والصرف(١٢٩).

وكذلك اختصت في اللغة محاضر محمد بن حنبل والشيخ محمد بن الغزالي الشقروي وكان يملك ١٠٠ (مائة) ديوان شعري، وعبد الله العتيق بن ذي الخلال اليعقوبي الذي أشرنا آنفا الى أنه برمج لسان العرب في محضرته.

وامتازت محاضر مدلش بالتركيز على السيرة النبوية، خاصة وان علماء «مجلس العلم» قد وفروا لها بعض المراجع الضرورية نظما مثل المغازي وعمود النسب لأحمد البدوي. وربما ذهبت محاضر قبيلة أو منطقة بعينها مذاهب شتى في التخصص.

وقد تطورت محضرة «الكحلاء» العريقة فانجبت محضرة «الصفراء» فكان لكل منهما ميدان اختصاص اختصت «الكحلاء» بالدراسات الشرعية (قرآن، فقه، أصول) واختصت «الصفراء» بالدراسات اللغوية (نحو صرف، بلاغة) وكان ذلك في عهد حبيب الله بن القاضي المتوفى ١٢٤١ هـ(١٣٠).

وما كان للمحاضر أن تختص لولا أن من العلماء أفرادا مبرزين يرجع اليهم الناس في مجال اختصاص قليل من يزاحمهم فيه. وهؤلاء العلماء المبرزون في معارف معينة كثيرون لو رمنا حصرهم لتكلفنا في ذلك عناء كبيرا فلنكتف منهم بما يصلح شاهدا على ما نحن بصدده.

كان عمر الخطاط بن محمدنا الله الأنصاري البرتلي المتوفى ١١٠٧ هـ متبحرا في العقائد. حكى عنه أنه قال : «لو علمت عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفي مصر من يعلمها لرحلت اليه حتى أتعلمها»(١٣١).

وكان يحظيه بن عبد الودود بارعا في النحو بينما كان محمد علي بن سعيد بارعا في الفقه فقال بن الأمين ان الأول هو سيبويه تلك البلاد والثاني خليلها(١٣٢). وقيل أن الحسن بن زين هو ابن عصفورها(١٣٣).

وكان العم بن أحمد فال من أفراد عصره في معرفة البيان(١٣٤). واشتهر غالي بن المختار فال البصادي باللغة والسيرة(١٣٥). وكان عبد الودود بن عبد الله نحويا شهيرا. «انفرد به من غير نكير وأوضح للناس أسراره وأعلى مناره»(١٣٦).

وكان بن التلاميذ يقول نحاة شنقيط ثلاثة : المختار بن بونه وعبد الله بن الفاضل وجدود بن اكتوشني(١٣٧).

٦ ـ محاضر موسوعية

غالب شأن المحاضر المختصة أن تقوم بتدريس الفنون الأخرى أو بعضها لغير المنتهين ذوي المستويات العليا. وربما قامت محاضر موسوعية المعارف توفر تعليما جامعيا متنوعا لطلبتها.

وكان من شأن الطلبة أن يضربوا أكباد الابل بحثا عن هذه المحاضر، وان ينتقلوا من واحدة الى أخرى يعتامون اطاييب ثمر العلم عند شيخ «لا يرد لوحا» أي أنه يدرس كل الفنون التي يبغيها الطالب بدون استثناء. ومما يؤثر في هذا الصدد أن النابغة الغلاوي شد رحله وساح بين محاضر البلاد مجتازا مسافات شاسعة، فكلما حل بمحضرة وقال له شيخها ماذا تريد أن تدرس؟ استنكف أن يقيم معه وواصل رحلته الى أن وصل محضرة في غرب البلاد، مثل بين يدي شيخها (أحمد بن العاقل) فوفق هذا الشيخ أن لا يسأله السؤال التقليدي وانما قال : «مش» أي هيا اقرأ ما شئت فرضي النابغة واطمأن الى هذا الشيخ المستعد للتدريس دون أن يسأل سلفا عن المادة التي يبغيها الطالب والقى الطالب عصا التسيار عند هذا البحر ولزمه.

وكانت محضرة المختار بن بونه مختصة في النحو لكنها برزت أيضا في العقائد (علم الكلام) وكان للفقه فيها مكان مكين، ويصور ذلك حرمة بن عبد الجليل في بيت شعر :

فيها تجمع سيبويه ويوسف   والكاتبي والأشعري وأشهب

وهذا محمد بن الفغ الديماني يباهي بخبرة شيخه محمد سالم بن آلما في فني الفنون المحضرية : الفقه والنحو :

في النحو والفقه شيخي لا مثيل له ... وكل قرم إلى اقرائه قرم
اذا أتت طرة المختار يقرئها ... حتى يرى الحاضرون النار تضطرم
وان أتاه «خليل» يوم مسألة ... يقول لا غائب مالي ولا حرم

وقد ضمن الشاعر بيت زهير في هرم بن سنان وأبدع في «سرقته» بحسن التضمين والاعتراف فقال :

أنا الذي قال هذا البيت لا ابن أبي ... سلمى وشيخي به المعنيّ لا هرم

٧ ـ منهاج المحضرة

لم يكن للمحاضر منهج دراسي ثابت يلتزمه الطلبة، وإنما كانت لهم فنون هي جل ما يقرؤون وقد يغيرون فيها في الترتيب من منطقة الى منطقة ومن محضرة الى محضرة، بل ومن طالب الى طالب.

وتتدرج هذه المتون حسب المستويات الدراسية، فمنها ما يصلح للمبتدئين ومنها ما به يتقدمون شوطا ليلتحقوا بعد حين بفئة ثالثة أو رابعة من المتقدمين ذوي المستويات الجامعية العليا، ولكل مراجعه المعتمدة.

ويتخرج الطالب من المحضرة عادة وقد أخذ من كل فن بنصيب وحفظ متونا كثيرة.

وقد ذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في كتابه «الطرائف والتلائد» ان والده درس المتون التالية : مختصر خليل ونظم ابن عاصم ورسالة ابن أبي زيد وحدود ابن عرفة في الفقه وألفية ابن مالك والفريدة للسيوطي في النحو، والفية السيوطي (عقود الجمان) في البديع والبيان، وكتاب المنجور على قواعد الزقاق في القواعد، وورقات امام الحرمين وجمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه، والصحاح الستة (البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي وأبا داود والنسائي) في الحديث، وتفسير ابن عطية.

وأكيد أن معارف الشيخ ليست محصورة في هذه القائمة. وربما تخرج الطالب وقد درس متونا كثيرة ولم يدرس بعض هذه المتون المذكورة أعلاه فمنهاج المحضرة على مرونته منهاج اثير متنوع بعيد عن الرتابة. وهو وان اشترك مع منهج مدارس العلم في المغرب في أشياء، فلقد يفيض عنه في أشياء أخرى.

وهذا للمقارنة نموذج من المناهج الدراسية المغربية، اختطه السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٨ ـ ١٧٨٩) لجامعة القرويين بفاس عين فيه الكتب المسموح بدراستها بعد كتاب الله وتفسيره، وهي :

- في الحديث : المساند والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلما وغيرهما من الكتب الصحاح.
- في الفقه : المدونة، والبيان والتحصيل، والمقدمة لابن رشد والجواهر لابن شاس وكتاب النوادر والرسالة لأبن أبي زيد وغير ذلك من كتب الاقدمين. «وعلى الذين يريدون تدريس مختصر الشيخ خليل أن يدرسوه بشرح الشيخ بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشي الكبير، لا غير. وما عدا هذه الشروخ الخمسة كلها ينبذ ولا يدرس به. وان من عدل عن الشراح المذكورين واشتغل بالزرقاني وأمثالـه من شراح الشيخ خليل، فان شأنه كمن يهرق الماء أو يتبع السراب».
- «وعلى العلماء أن يدرسوا سيرة النبي عليه السلام بالكلاعي وابن سيد الناس اليعمري».
- وفي النحو والتصريف : التسهيل والألفية لأبن مالك وغيرها من كتب الفن المتخصصة.
- وفي البيان : كتاب الايضاح المطول.
- وفي اللغة : دواوين الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وأمثالها.
- ومن أراد علم الكلام فعقيدة ابن أبي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغني بها جميع المسلمين».

ويبدو أن السلطان كان ضد «دراسة علم الكلام والمنطق والفلسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص»، ولكنه يشجع «الفقهاء الذي يقرأون الاسطرلاب وعلم الحساب، فينبغي أن يأخذوا حظهم من الأوقاف، لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث».

وقد بعث السلطان بوثيقة «اصلاح التعليم» هذه الى مصر يطلب اعتمادها وإبداء الملاحظات عليها(١٣٨).

وكانت المحاضر في بلاد شنقيط تأخذ ببعض ما ورد في المنهج المغربي ولكنها توسعت كثيرا فأخذت بغيره.

وهذه قائمة بأبرز الكتب والمصنفات التي كانت تدرس في المحضرة أحصاها زميلنا محمد المصطفى الندى وتصرفنا فيها على نحو بسيط(١٣٩) :

أولا : علوم القرآن الكريم :

- الدرر اللوامع على مقرا الامام نافع لابن بري،
- الغرر السواطع على الدرر اللوامع في القراءات السبع لعلي ابن زين العابدين الشنقيطي،
- الشاطبية في القراءات السبع لأبي القاسم الشاطبي،
- مقدمة ابن الجزري الدمشقي،
- نظام الشوشاوي.

وهم يرجعون في التفسير الى :

- الجلالين وحواشيهما،
- ابن كثير،
- الطبري،
- القرطبي.

ومن متونهم في المفردات :

- منظومة المترادف لمحمد مولود بن أحمد فال الشنقيطي.

وفي الرسم والضبط والاملاء :

- مورد الظمآن،
- كتاب الامهات (اندثر)،
- المحتوى الجامع لرسم الصحابة وضبط التابع للطالب عبد الله الجكني الشنقيطي،
- كشف العمى والرين عن ناظر مصحف ذي النوري لمحمد العاقب بن مايابي،
- حذف المرابط عبد الفتاح،
- حذف الشيخ الحضرمي بن عبيدي،
- رسم عبد الودود بن حميه.

ثانيا : الحديث ومصطلحه :

- موطأ الامام مالك،
- الصحاح الستة،
- الفية زين الدين العراقي،
- منظومة البيقوني،
- طلعة الأنوار لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم،
- غرة الصباح له.

ثالثا : العقيدة :

- مؤلفات السنوسي،
- مقدمة المرشد المعين لابن عاشر،
- عقيدة ابن أبي زيد القيرواني،
- اضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة للمقري،
- وسيلة السعادة للمختار بن بونة الجكني،
- الواضح المبين لعبد القادر بن محمد سالم.

رابعا : الفقه :

في الأصول :

- مراقي السعود لسيدي عبد الله،
- جمع الجوامع للسبكي،
- الورقات لأمام الحرمين.

في القواعد :

- المنهج للزقاق وتكميلات له،

في الفروع :

- تهذيب المدونة للبرادعي،
- مختصر الأخضري،
- ابن عاشر،
- رسالة ابن أبي زيد،
- مختصر خليل بن اسحاق،
- نظام الكفاف لمحمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي ومنظومات أخرى محلية،
- تحفة الحكام لابن عاصم.

خامسا : السيرة والأنساب :

- قرة الأبصار لعبد العزيز اللمطي،
- الغزوات لأحمد البدوي المجلسي الشنقيطي،
- عمود النسب العربي له.

سادسا : اللغة العربية :

- المعجم،
- المعلقات العشر،
- دواوين الستة الجاهليين،
- لامية العرب للشنفرى،
- بانت سعاد لكعب بن زهير،
- ديوان غيلان،
- مقصورة ابن دريد،
- ديوان المتنبي،
- ديوان المعري،
- مثلث قطرب،

ـ مثلث ابن مالك،
ـ الشمقمقية،
ـ المقصور والممدود لابن مالك،
ـ مقامات الحريري،
ـ مقامات الهمذاني،
ـ مختار الصحاح،
ـ القاموس المحيط،
ـ قصائد ومتون أخرى.

٧ ـ النحو والصرف :

ـ مختصر ابن اجروم،
ـ منظومة عبيد ربة (محمد بن آب الغلاوي)،
ـ ملحة الاعراب للحريري،
ـ الفية محمد بن مالك الاندلسي،
ـ الفية جلال الدين السيوطي،
ـ احمرار ابن بونة على الفية ابن مالك،
ـ لامية الأفعال،
ـ اخضرار الخضرمي واحمرار الحسن بن زين على اللامية.

٨ ـ العروض والقوافي :

ـ الكتاب الوافي،
ـ الخزرجية،
ـ نظم ابن عبدم الشنقيطي،
ـ نظم يحي بن أحمد فال.

٩ ـ البلاغة والمعاني :

ـ الفية السيوطي (عقود الجمان)،
ـ الجوهر المكنون للأخضري،
ـ نور الاقاح لابن الحاج ابراهيم الشنقيطي.

١٠ ـ المنطق :

ـ مختصر السنوسي،
ـ سلم الأخضري،
ـ احمرار السلم لعبد السلام العلوي الشنقيطي،

ـ قواعد المنطق للمغيلي،
ـ جواهر ابن طيب.

١١ ـ الحساب العددي :

ـ اراجيز للرسموكي،
ـ ارجوزة للسملالي،
ـ ارجوزة للأخضري.

١٢ ـ الفلك والجغرافيا :

ـ المقنع وشرحه الممتع لأبي عبد الله محمد بن سعيد السوسي،
ـ نظم ليحي بن أحمد فال،
ـ قصائد شعبية.

١٣ ـ الطب وخصائص الأشياء :

ـ منظومة العمدة لأوفى بن الفغ منصر،ويتوسعون بدراسة الطب النبوي والرحمة في الطب والحكمة للسيوطي.

١٤ ـ التصوف :

ـ مقدمة الأخضرى،
ـ خاتمة ابن عاشر،
ـ خاتمة التصوف لمحمد اليدالي،
ـ مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال.

١٥ ـ الآداب الاجتماعية :

ـ كتاب الآداب من الرسالة للقيرواني،
ـ منظومات محمد مولود بن أحمد فال،
ـ نصيحة البشير بن امباريكي،
ـ نصيحة محمد بن سعيد،
ـ متون محلية أخرى حول آداب الجلوس والقيام والسلام ورده والاكل والحديث والسفر والصحبة.

١٦ ـ علوم السر :

ـ خصائص أسماء الله الحسنى لسيدي محمد الكنتي،
ـ رشد الغافل لأبن الحاج ابراهيم، وفيه يحذر من تعاطي كثير من هذه العلوم مبينا الصلة بين (علوم السر) بإهمال السين و(علوم الشر) باعجامها.

هوامش وتعليقات الباب الثاني

(١) عبد الله السالم بن الشيخ أحمد : دراسة شخصية الشيخ محمد حامد بن آلا.
(٢) أحمد بن الأمين الشنقيطي : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص ١٥ ـ ٣٥٥.
(٣) انظر رسالة الاستاذ محمد بن محمد الحافظ حول الشاعر موناك.
(٤) في القطعة كلمات غير فصيحة تعمدها الشاعر على ما يعمدون اليه أحيانا من خلط الفصحى بغيرها. وهذا تفسير الكلمات الواردة في القطعة :

ـ التاسفرة : جراب جلدي مدور طويل، يحمل فيه المسافر متاعه وبداية الكلمة (تا) أداة تأنيث بربرية، ولكنها تضم حروف السفر الثلاثة. وحيث أن السفرة تعني طعام المسافر، فقد تكون أصلا للكلمة، خصوصا وأن المسافر يحمل في حقيبته هذه زاده.
ـ مزار : كلمة بربرية، شرحها عجز البيت، ضخم قوي، وهاأننا نجد لها أصلا عربيا أيضا ففي اللغة مزر : اشتد قلبه وقوى.
ـ الشطن : حالة الأنشغال الشديد، وفي اللغة شطنه : خالفه عن نيته ووجهته وشطن الرجل : أبعده. وشطن الدابة : شدها بالشطن، الحبل.

(٥) الوسيط، ص ٥٢٠.
(٦) انظر جامع بيان العلم وفضله لأبن عبد البر ـ ٩٧/١.
(٧) بشار عواد معروف : التربية والتعليم ـ حضارة العراق ـ ٤٧/٨.
(٨) انظر تاريخ بغداد لأبن الخطيب ـ ٧٥/٢.
(٩) بشار عواد معروف : مصدر سابق ـ ٤٧/٨.
(١٠) انظر رسالة الأستاذ محمذن بن باباه حول أبي بكر الفاضلي ـ و«صدراية» في البيت كلمة عامية تعني الشجرة. ويقصد باضافتها الى الغسل الشجرة التي يغسل عندها أهل البادية موتاهم، فمن عادتهم أن يخصصوا لذلك مكانا معلوما بجانب شجرة خارج الحي.

(١١) الشيخ سيدي محمد الكنتي : الطرائف والتلائد، وسنرى في مبحث لاحق (مدة الدراسة) صورا من تفرغ الطلبة وانقطاعهم للعلم.
(١٢) الوسيط ـ ص ٥٢١.
(١٣) انظر تحقيق محمد بن محمد الحافظ لديوان الشاعر، وبحث محمد المصطفى الندى حول أساليب التدريس في «الكحلاء».
(١٤) يحي بن البراء : الالفية وتأثيرها في الثقافة الموريتانية ـ ص ٢١.
(١٥) الوسيط ـ ص ٥١٨.
(١٦) الوسيط ـ ص ٢٣٧.
(١٧) الوسيط ـ ص ٥٣٠.
(١٨) انظر «أساليب وطرق التدريس المحظري في الكحلاء» لمحمد المصطفى الندي.
(١٩) Le Courtois : Etude de l'Enseignement Islamique Traditionnel en Mauritanie, p. 37.
(٢٠) انظر «دور المحاظر في موريتانيا» لمحمد المصطفى الندي.
(٢١) عالج أحمد فال بن أحمد الخديم أدب المحاضر في مقالة غير منشورة وتناول نماذج من الرسائل.

(٢٢) د. عبد الهادي التازي : جامع القرويين ـ ٧٢٠/٣، ٧٤٧.
(٢٣) أفضل الألواح تصنع من شجر يسمونه «آفلال» (تنطق القاف جيما مصرية) وربما صنعوها من «تيشط»، وهو شجر من البلوطيات.
(٢٤) انظر بحث الندى حول أساليب التدريس في «الكحلاء».
(٢٥) لم تعد هذه الصورة قائمة، فقد عصفت بها المتغيرات التي ستتعرض لها بحول الله في فصل لاحق، عندما نتحدث عن حاضر المحاضر، ولكن الأستاذ محمد سالم بن عبد الودود (وهو مولود سنة ١٩٣٠) أخبرني أنه أدرك الناس يضربون في صحاري تيرس، ويمارسون حياتهم العلمية، مطبقين هذه الأساليب.
(٢٦) راجع جامع القرويين، في حديث المؤلف عن الحياة العلمية في عهدي المرابطين والموحدين.
(٢٧) اليدالي : المربي على صلاة ربي.
(٢٨) محمد حامد بن محمد أحمد (تحقيق) : ديوان الشيباني بن محمد أحمد ـ ص ٩٢، وقد نسب الأبيات الثلاثة، خطأ، الى الحسن بن زين القناني، والصحيح ما أوردناه أكده لنا الأستاذ محمد سالم بن عبد الودود.
(٢٩) يحيى بن البراء ـ ص ٦.
(٣٠) محمد عبد الله بن البخاري الفلالي : كتاب الآبار (مخطوط).
(٣١) الوسيط ـ ص ٣٨.
(٣٢) تقرير استعماري عن أوضاع التعليم الاسلامي في منطقة بوتلميت بتاريخ ١٩٣٥/١٢/٣١ ـ الملف E ٢/٤٤ في الوثائق الوطنية بنواكشوط.
(٣٣) التازي ـ ٦٦٨/٣.
(٣٤) الوسيط ـ ص ١٤١.
(٣٥) لم نتمكن من الحصول على نص رسالة الشيخ سيديا، ولكننا أوردنا نص رسالة السلطان المغربي الجوابية، في حديثنا عن التقسيم الوظيفي لفئات المجتمع الشنقيطي، في المدخل.
(٣٦) محمدي بن خيري : بابا بن أحمد بيبه : حياته وديوانه ـ ص ٥٧.
(٣٧) الوسيط ـ ص ٢٥.
(٣٨) الوسيط ـ ص ١٨١.
(٣٩) الوسيط ـ ص ٧٩.
(٤٠) سيدي محمد بن بناهي : نماذج من تاريخ أسرة آل حبت ـ ص ٢٠.
(٤١) المصدر السابق ـ ص ٥٥.
(٤٢) أحمد بن المفيد : شنقيط ودورها الثقافي والاقتصادي ـ ص ٣٢.
(٤٣) سيدي محمد بن سيدي الحبيب : نماذج من النشاط الثقافي في ولاتة ـ ص ٥٣.
(٤٤) المصدر السابق ـ ص ٥٥.
(٤٥) راجع بحث الندى «أساليب التدريس». و«الاجملية» نسبة الى قبيلة ادكجملة.
(٤٦) الوسيط ـ ص ٣١١.
(٤٧) البرتلي ـ فتح الشكور، ص ٦٢.
(٤٨) نجد صورا من هذا الانقطاع والتفرغ للعلم في الحياة العربية ـ الاسلامية القديمة، نسوق منها هذا النموذج :
روى أبو بكر بن العربي في أحكامه الكبرى : «كان أبو فضل المراغي يقرأ بمدينة السلام. فكانت الكتب من بلده تأتي اليه، فيضعها في صندوق ولا يقرأ منها واحدا مخافة أن يطلع فيه على ما يزعجه أو

يقطع به عن طلبه. فلما كان بعد خمسة أعوام وقضى غرضا من الطلب وعزم على الرحيل شد رحله وأبرز كتبه وأخرج تلك الرسائل، فرأى فيها مالو أن واحدة منها يقرؤها في وقت وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حرف من العلم، فحمد الله تعالى ورحل على دابته بما شد وخرج الى باب الحيلة طريق خراسان وتقدمه المكري بالدابة، وأقام هو على عامي يبتاع منه سفرته، فبينما يحاول ذلك معه اذ سمعه يقول لعامي آخر : ما سمعت العالم الفلاني اليوم يقول، يعني الواعظ أن ابن عباس يجوز الاستثناء ولو بعد سنة؟ لقد شغل بالي منذ سمعته بقوله وظلت فيه مفكرا. ولو كان ذلك صحيحا لما قال الله لأيوب : وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث. وما الذي كان يمنعه أن يقول حينئذ : ان شاء الله. فلما سمعته يقول ذلك قلت : بلد يكون فيه العاميون من العلم في هذه الرتبة أخرج منه الى المراغة! لا أفعله أبدا.. واقتفى أثر المكري وحلله من الكراء وضرب رحله وأقام بها حتى مات رحمه الله.

انظر الحطاب بحاشية الرهوني ٤/١٠٤ والمراغة كسحابة قرية بأذربيجان.

(٤٩) الوسيط ـ ص ٢٤١، والرواية الأولى أصح على ما يذكره أهل الشأن في البلاد.

(٥٠) Mohamed El Moktar O. Bah : Littérature Juridique et Evolution du Malikisme en Mauritanie, p. 83.

(٥١) يحيى بن البراء ـ ص ٦٢.

(٥٢) الوسيط ـ ص ٣٨، ومن ذلك أن أباه (محمذ) بن النحوي مكث ١٦ سنة في محظرة المختار بن أبيه الجكني. وقد أدركت، في محظرة آل احويب الله، محمد بن اكمجتمين، وقد استوفى ٢٠ سنة وهو يدرس بها وغادرتها بعد ثلاث سنين وهو باق بها، لا يزمع الرحيل.

(٥٣) محمد المصطفى الندي : مقال عن المحضرة في مجلة الشعاع.

(٥٤) البرتلي ـ ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٥٥) يحيى بن البراء ـ ص ٧٦.

(٥٦) الندى : دور المحاضر ـ ص ١.

(٥٧) راجع حديثنا في باب اشعاع المحضرة عن نوادر الحفظ والنبوغ.

(٥٨) هذا مبدأ من مبادىء التربية الاسلامية، نجده عند التربويين القدامى. يقول ابن خلدون في مقدمته (الفصل التسع والعشرون) : «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا، يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن. وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلّا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيئته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج من الاجمال ويذكر ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته. ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا غلقا إلا وضحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. (انظر التربية عبر التاريخ للدكتور عبد الله عبد الدائم).

(٥٩) استوفيت هذه الأبيات رواية عن الأستاذ محمد فاضل بن محمد الأمين.

(٦٠) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم ـ ص ١٤.

(٦١) محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، ٢٧/١.

(٦٢) يحيى بن البراء ـ ص ٢١.

(٦٣) البرتلي ـ ص ٧٠.

(٦٤) الوسيط ـ ص ٥١٩.

(٦٥) أحمد بن عبد الله : مقالة عن المحاضر.

(٦٦) البرتلي ـ ص ١٩.

(٦٧) محمد الأمين بن داداه ـ ص ١٥.

(٦٨) عرضنا أمثلة من حفظ الشناقطة في باب اشعاع المحضرة.

(٦٩) هكذا الواقع في المحاضر، اذا قصدنا بها ما تنصرف إليه في اصطلاح غالبية أهلها، وهي المدارس الجامعية التي يلتحق بها الطالب بعد حفظ القرآن، وبعض المتون الصغرى في غالب الامر. ففي هذه المدارس لا يوجد نظام للتأديب، لأن الدراسة غير قائمة على القسر، بل على المبادرة الحرةللطالب الذي ينذر نفسه لطلب العلم ويتعشق المعرفة بصدق وحرارة. أما في المرحلة التحضيرية (مرحلة الكتاب) فان العقوبات مقررة، معمول بها، نظرا لأن حوافز الطفل للدراسة في مثل هذه السن ضعيفة، وتتلون العقوبة في هذه المرحلة، ما بين العقاب الجسدي والعقاب النفسي. فقد يلجأ مدرس القرآن الى ضرب الطفل وقد يحبسه في الليل ساعة أو ساعات بعد انصراف زملائه، فيقال أنه «بقي في الحفرة» وقد يأمر التلاميذ المتفوقين عليه أن يتفلوا من ريقهم على رأسه اذلالا له. وقد يأمر بقلادة تصنع له من أرواث الدواب والبعر فتوضع حول عنقه، وربما أمر أصحابه فطافوا به في الحي على هذه الهيئة المشينة.

(٧٠) يحيى بن البراء ـ ص ٢٢.

(٧١) ساق صاحب الوسيط ـ ص ٣٧٦ ـ حل الألغاز فذكر أوزاز الكلمات الواردة :

ـ نكتل : وزنها نفتعل بكسر العين لأنه من الكيل وأصلها نكتيل فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصارت نكتال ثم حذفت الألف لسكونها وسكون اللام فصارت الكلمة (نكتل). وقد سأل أبو عثمان المازني ابن السكيت عن وزن نكتل فلم يعرفه.

ـ آرام : وزنها أعفال لأنها مقلوب ارآم وهو جمع رئم بالكسر.

ـ أثفية : وزنها أفعولة على القول بانها من ثفيت كادحية لمبيض النعام من دحيت. وقيل وزنها : فعلية بتشديد الياء من أثفيت (والياء مشددة في الحالين وقد خففها الشاعر، فلعل ذلك على سبيل التعمية)

ـ أينق : وزنها أيفل وقيل أعفل. الأول باعتبار أن العين حذفت وعوضت الياء منها قبل الفاء. والثاني باعتبار أن عين أينق قلبت الى ما قبل الفاء فصارت أونق فأبدل الواو ياء. وهي جمع ناقة.

ـ عريب : وزنها فعيل على ما ظهر لابن الأمين. فلا اشكال فيه ولا يستعمل إلّا للنفي تقول : ما بالدار عريب.

ـ ديار : وزنها فيعال لأنه من دار يدور : والأصل ديوار، فقلبت الواو ياء وأدغمت.

(٧٢) قال اجدود :

حاجيتكـــــم أي شيء لا يكـــــون اذا ... أجنـــه اللــــيل الا وهــــو مضطجـــع
حول النظائـــــر طرا وهـــــي واقفـــــة ... تأملـــوا في سؤالـــــي واسمعـــوه وعـــوا

وقال محمذ بن النحوي مجيبا :

شيـــخ الشيـــوخ ومـــــن بالعلـــم يدرع ... ومـــن حلاه تحلـــى العلـــم والـــورع
لولاك ما ساد من سادوا ولا سعـــــــدوا ... كلا ولا اتبعـــــوا لولاك ما سمعـــــــوا
عمـــــيت في درر فاقت سنـــــا غرر ... لفتيـة ربـــد نهـــج الهـــدى تبعـــوا
ما يقصد الشيـــخ بيت منهـــج خلـــق ... فكلمـــا شطنـــوا أشطانـــــه يقـــــع

(عن والدنا الشيخ محمد بن النحوي)

(٧٣) تحدثنا بمزيد من التبسط عن هذا الموضوع في الموازنة بين نظام التعليم المحضري ونظام التعليم العصري في باب «حاضر المحاضر وآفاق مستقبلها».

(٧٤) الوسيط ـ ص ٢٧٩.

(٧٥) البرتلي ـ ص ١٧٩.

(٧٦) الطرائف والتلائد.

(٧٧) يحيى بن البراء ـ ص ٧٧.
(٧٨) البرتلي ـ ص ١١٨.
(٧٩) أحمد بن المفيد ـ ص ٢٥.
(٨٠) د. مهدي المخزومي : أعلام في النحو العربي ـ ص ١٠٣.
(٨١) المقري : نفح الطيب ٣/٢٣٠.
(٨٢) المصدر السابق، ٣/٢١٦.
(٨٣) التازي : جامع القرويين ـ ١/٤٣، ٤٤، ١١٨، ١١٩.
(٨٤) في هذا المعنى، يقول النابغة الغلاوي في منظومته بوطليحية (طبعت في مصر سنة ١٩٢١ م) :

واعتمدوا تبصرة اللخمي   ولم تكن لعالم أمي
لكنه مزق باختياره   مذهب مالك لدى امتياره

راجع في هذا الموضوع أيضا مخطوطة القاضي محمد عبد الرحمن بن السالك «عون المحتسب بشرح ما يعتمد في المذهب من الكتب» وهو شرح وضعه على منظومة للعلامة القاضي محمد بن محمذ فال بن أحمد فال.

(٨٥) محمد المختار بن أباه : الشعر والشعراء في موريتانيا (ص ٣١)، راجع أيضا «عون المحتسب».
(٨٦) انظر القصيدة في ديوان الشاعر بتحقيق محمد سعيد بن دهاه (ص ١٢٣). وهذا بيان بعض الأسماء التي وردت فيها :
ـ سحبان وائل (ت ٥٨ هـ/١٧٤ م)، مضرب مثل في الخطابة والفصاحة، أسلم، وكان يخطب بين يدي معاوية بن أبي سفيان.
ـ قس بن ساعدة الأيادي، حكيم خطيب واعظ، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم انه رآه يخطب بعرفات، توفي قبل البعثة (نحو ٢٣ ق هـ).
ـ أفعى الجرهمي حكيم معروف فصل في شأن ميراث مضر وربيعة واياد وأنمار أبناء نزار.
ـ قلطف الطائي أحمد حكماء العرب وكهانهم.
ـ رسطا : ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م) من كبار الفلاسفة اليونانيين.
ـ قسطا بن لوقا البعلبكي (ت ٣٠٠ هـ) فيلسوف، رياضي.
ـ ابن سينا : الحسين بن عبد الله (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ) فيلسوف عربي كبير وطبيب.
ـ هرمس اله الفصاحة والتجارة عند اليونان.
ـ اقليدس (ق ٣ ق. م) من علماء الهندسة. كان في الاسكندرية.
ـ اسقف نجران الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقبل المباهلة وكان يقول الشعر.
ـ مالك ابن انس (٩٣ أو ٩٧ ـ ١٧٩ هـ) امام المذهب.
ـ مطرف بن مازن الكناني (ت ١٩١ هـ) روى عنه الشافعي.
(٨٧) الليث (أبو الحارث) بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، محدث فقيه ت ٩٤ هـ،
ـ النعمان : أبو حنيفة النعمان بن ثابت أحد الأئمة الأربعة ت ١٥٠ هـ.
ـ الأشعري : أبو الحسن بن علي امام الطائفة الأشعرية ومنها الشناقطة ت ٣٢٤ هـ.
ـ الجويني : (امام الحرمين) عبد الملك بن عبد الله، كان أشعريا أيضا ت ٤٨٧ هـ.
ـ الجنيد أبو القاسم بن محمد بن الجنيد البغدادي، يعرف بامام الطائفة عند متصوفة السنة ت ٢٩٧ هـ.
ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي، من أئمة الفقه والنحو وواضع علم العروض، شيخ سيبويه ت ١٧٠ هـ.
ـ سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، امام النحو بالبصرة ت ١٩٦ هـ.
ـ الأخفشان : أطلق هذا اللقب (الأخفش) على مجموعة من النحاة واللغويين منهم الأخفش الاوسط، سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ) والأخفش الأصغر علي بن سليمان (ت ٣١٥ هـ).

ـ دارا ملك بابل وكسرى من ملوك الفرس وان كانت سمة لهم جميعا.
ـ مهلهل بن ربيعة بن الحارث، شاعر أخو كليب، خاض بسبب مقتله حرب البسوس (ت نحو ١٠٠ ق هـ).
ـ المرقش الأكبر عمر، أو ربيعة بن سعد بن مالك بن بكر شارك في حرب البسوس (ت ٧٥ ق هـ) والأصغر ابن سليمان بن سعد بن مالك قريب الآخر (ت ٥٠ ق هـ) كلاهما شاعران.
ـ الأعميان بشار بن برد والمعري.
ـ الأعشى لقب لجماعة من الشعراء منهم ميمون بن قيس أعشى بكر أدرك البعثة ونظم قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم صد عن ذلك (ت ٨ هـ)، ومنهم أعشى مازن ذكر ابن الاعرابي له أرجوزة ألقاها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام.
ـ أبو نواس : الحسن بن هانيء، شاعر معروف (ت ٢٠٠ هـ).
ـ ابن الحسين : أحمد بن الحسين المتنبي، شاعر معروف (ت ٣٥٤ هـ).
(٨٨) القصيدة طويلة، وقد أوردها الدكتور محمد المختار بن اباه في كتابه «الشعر والشعراء في موريتانيا»، (ص ٣٥٨) وفيها اشارات :

«طال الثواء» من قصيدة عنترة :
طال الثواء على رسوم المنزل   بين اللكيك وبين ذات الحومل
«هل ما» عن قصيدة علقمة :
هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها اذ نأتك اليوم مصروم
«بان الخليط» من قصيدة زهير :
بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا   وزودوك اشتياقا أية سلكوا
«أمن أم أوفى» لزهير أيضا :
أمن أم أوفى دمنة لم تكلم   بحومانة الدراج فالمتثلم
«صحا القلب»، لزهير أيضا :
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعري أفراس الصبا ورواحله
«يهيجني» من قول الشاعر :
يهيجني للوصل أيامنا الالى   مررن علينا والزمان وريق
«طحابك قلب»، من قصيدة علقمة :
طحا بك قلب في الحسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب
«غداة طفت» من قول قطري بن الفجاءة :
غداة طفت ع الماء بكر بن وائل   وعجنا صدور الخيل نحو تميم
«زارت عليُّ» من قصيدة محمد بن محمدي :
زارت عليُّ على شحط النوى سحرا   فاعتاض جفنك من عذاب الكرى سهرا
«سرى يخبط..» من قصيدة محمد ابن الطلبة :
سرى يخبط الظلماء من بطن تيرس   اليَّ لدى ابريبير لم يتعرج

(٨٩) محمد محمود بن محمد سالم (تحقيق) : غرض المديح من ديوان محمد محود بن أحمذيه ـ ص ١٢٠.
(٩٠) عبد الله السالم بن الشيخ أحمد ـ ص ٣٧.
(٩١) رواية عن الأستاذ محمد سالم بن عبد الودود.
(٩٢) الشعر والشعراء في موريتانيا، ص ٣٦١.
(٩٣) وردت هذه المقامة في جزء الثقافة من موسوعة المختار ابن حامد «حياة موريتانيا» وفيها مصطلحات خاصة بكل فن من الفنون التي تدرس بالمحضرة يضيق المجال عن شرحها جميعا.

– كافات الشتاء سبع، يوثقونهم في بيتين قديمين :

جاء الشتاء وعندي من حوائجه   سبع اذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكأس طلا   مع الكباب وكس ناعم وكسا.

والبيت الشاهد على المشاكلة :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

ومن شواهد الكناية المشار اليها :

ان المروءة والسماحة والندى   في قبة ضربت على ابن الحشرج

(٩٤) الوسيط – ص ٥١٨.
(٩٥) يحيى بن البراء – ص ٢١.
(٩٦) المصطفى بن احمدان : مساهمة في كتابة تاريخ وادان – ص ١٠٢.
(٩٧) أحمد بن المفيد – ص ٢٧.
(٩٨) الوسيط – ص ٣٥٤، ٣٥٥.
(٩٩) عثمان بن محمد فال : جدلية السيف والقلم – ص ٢٠.
(١٠٠) الوسيط – ص ٢٨٢.
(١٠١) الوسيط – ص ٢١٧.
(١٠٢) مدح المجيدري بتصوفه، ففيه يقول المأمون بن محمد الصوفي اليعقوبي يمدحه بعد عودته من رحلته :

أصبح يستشفى به وسيلة   الى الله بين المستغيث وذي الفقر
وأصبح للسر الجنيدي وارثا   وما زال سر الليث في نسله يسري
وحلته فاس اللازوردي بعدهم   وبعد كسته حلة السنن البكري
هناك تلقى النور منهم سراجه   وأودع أسرار الملاقة الزهر

(١٠٣) د. سامي النشار (تحقيق) السياسة للحضرمي، مصدر سابق – ص ٩. عزوا لابن أبي زرع في القرطاس ٢/١٠.
(١٠٤) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم – ص ١٦.
(١٠٥) M.M.O. Bah : Littérature Juridique.., p. 64, 65.
(١٠٦) انظر أيضا قائمة بالكتب المعتمدة في نظم النابغة الغلاوي «بوطليحية».
(١٠٧) المصطفى بن احمدان – ص ٤٦.
(١٠٨) المصدر السابق – ص ١٠٤.
(١٠٩) الندى «أساليب التدريس».
(١١٠) انظر ص ٤٣.
(١١١) البرتلي – ص ١٢٥.
(١١٢) انظر رسالة الأستاذ أحمد بن الحسن «الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري».
(١١٣) راجع «حياة موريتانيا» المختار بن حامد، جزء الثقافة.
(١١٤) البرتلي – ص ٢٧، ١١٣، ١٥٩.
(١١٥) أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي.
(١١٦) الوسيط – ص ٣٤٧.

وكانوا يرون أن تعلم العروض لا يكلف وقتا، بينما يورث جهله ندما طويلا، وفي ذلك يقول الراجز :

والادبا تقول علم شهر   وحسرة الانسان طول الدهر

وأهم ما درسوا في العروض منظومة الخزرجي وفيها يقول اديج الكمليلي :

ولم أجد في علمه المستخرج   من اقتفى في النظم غير الخزرجي

ولهم في العروض مقطعات أخرى :

لولا قيام الوزن بالعروض   لما عرفنا صنعة القريض
وللقوافي في القريض علم   به يتم للأديب النظم

وفيه يقولون :

وبالعروض تقبل الشواهد   وينجلي صحيحها والفاسد

(انظر شرح نعت العروض وتبيين الغموض لمحمد بن باباه / تحقيق محمد عيسى بن باباه، ص ٧٦ – ٧٨).

(١١٧) الندى : الشعب الموريتانية بتاريخ ٢٤ شعبان ١٤٠٥ هـ.
(١١٨) محمد الأمين بن داداه – ص ١٦.
(١١٩) رويت خبر محمد الأمين ومريم هذين عن العلامة محمد سالم بن عبد الودود، رئيس المحكمة العليا، كبير قضاة البلد، وذكر لي في شأن الحافظة مريم أن والدها كان يرسلها لتطالع له مادة في القاموس، ولم يكن في الحي إلّا نسخة واحدة منه يعود اليها الجميع، فكانت كلما قرأت مادة استوعبتها وأوعبتها حفظا وتكرر الامر كثيرا، حتى أتت على القاموس، فكان الناس يعجبون من أمرين : قوة حافظة الفتاة، وكثرة رجوع والدها الى القاموس...
(١٢٠) الوسيط – ص ٣٧.
(١٢١) النابغة الغلاوي : «بوطليحية» طبعة القاهرة.
(١٢٢) راجع نص رسالة اللمتوني الى السيوطي في الباب الأول.
(١٢٣) شرحها محمدبن المختار بن الأعمش (ت ١١٠٧ هـ).
(١٢٤) المختار بن حامد : تاريخ موريتانيا «الحياة الثقافية».
(١٢٥) التراتب واضح في الحريري (ت ٥١٦ هـ) وابن مالك (٦٨٢ هـ) والسيوطي (٩١١ هـ) ولكن ابن آجروم سبق السيوطي فقد توفي سنة ٧٢٣ هـ. وكان بفاس، فلا يبعد أن يكون مختصره قد وصل قبل فريدة السيوطي.
(١٢٦) شنقيط ودورها الثقافي – ص ٣٠.
(١٢٧) المصطفى بن محمد (تحقيق) : سواطع الجمان في ذكر المعاني والاوزان لسيدي محمد بن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، ص ١٤.
(١٢٨) محمد الأمين بن داداه – ص ٢٨.
(١٢٩) راجع مقدمة «الشعر والشعراء في موريتانيا» لمحمد المختار ابن اباه و«حياة موريتانيا» للمختار بن حامد.
(١٣٠) تحقيق سواط الجمان – ص ١٧.
(١٣١) فتح الشكور – ص ١٨٢.
(١٣٢) الوسيط – ص ٧٩.
(١٣٣) تحقيق سواطع الجمان – ص ١٩.
(١٣٤) الوسيط – ص ٥٨.
(١٣٥) الوسيط – ص ٣٧٢.
(١٣٦) الوسيط – ص ٣٧٤.
(١٣٧) المصطفى بن علمبطالب : الارستقراطية الدينية والأوضاع السياسية – ص ٢٠.
(١٣٨) التازي – ٣/٧٢٣، ٧٢٤.
(١٣٩) انظر مقالي الندى في الشعب الموريتانية بتاريخ ٢٤ شعبان ١٤٠٥ هـ/١٥ مايو ١٩٨٥ م و١ رمضان ١٤٠٥ هـ/٢٢ مايو ١٩٨٥ م.

الباب الثالث

اشعاع المحضرة

الحصاد الثقافي :

- نوادر الحفظ والنبوغ
- التأليف والمؤلفون
- الشعر والشعراء

سفراء المحضرة :

- في افريقيا
- في البلاد العربية

النتائج العامة :

- الاسلام
- التعرب
- العلم.

لم يفتأ شأن المحضرة يعظم ويتنامى حتى سرت عدواها الى بيئتها، فجعلت الأرض للبدو محضرة، كما هي مسجد وطهور..

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين لم يكن طالب العلم في الزوايا بحاجة الى أن يخرج حيه، بلَ بيت أبويه، لطلب العلم (إلّا أن يلزم نفسه ذلك طموحا وممارسة لتقليد محضري عتيق).. فقد كان كل بيت محضرة، يستطيع الشاب أن يتلقى فيها عن أبويه وأفراد عشريته الأقربين ما يتعاطاه أهل المحاضر من المعارف.

لهذا وجدنا من العلماء وشيوخ المحاضر الشناقطة نوابغ، يقال أنهم «لم يتلقوا العلم عن شيخ»، ربما لأنهم لم يشدوا الرحال لطلب العلم، فقد وجدوه حاضرا في بيئتهم. وكانت بيئة خصبة معطاء تنبت العباقرة وتلد الحفاظ.

وكان الطلبة يصدرون عن المحضرة، وقد نهلوا من معارفها وعلوا فيسيرون في الأرض، سرجا مضيئة، يحملون رسالة العلم، وينتضون عزم المجاهدين وصبرهم وجلدهم، فتحل بهم المحضرة حيثما حلوا : علما مذخورا في الصدور مبثوثا في الناس، ومصنفات غضة طرية دبجت في رحاب المحضرة، ومؤلفات نسخت فيها.

كانت المحضرة مصنعا للدعاة بالمثل والقدوة الحسنة والكلمة الطيبة. وكانت مركز أبحاث وتأليف وتوثيق، وكانت مطبعة العصر.

وبكلمة : كانت المحضرة مركز اشعاع في مجاهل الصحراء وغياهب الليل الافريقي.

ورغم أسوار العزلة التي كانت تحيط ببلاد شنقيط، فقد امتد اشعاع المحضرة الى مناطق نائية في افريقيا وفي البلاد العربية الاسلامية.

حمل رسالة المحضرة هنا وهناك رجال أشداء، كان منهم تجار دعاة وعلماء عاملون معلمون، أعدتهم المحضرة اعدادا روحيا وجسميا جيدا لأداء الرسالة، فبلغ بهم الامر ان حج كثير منهم سيرا على الأقدام، يعبر آلاف الأميال، شهورا تلو الشهور، ويؤدي حيثما حل رسالة المحضرة : دعوة الى الله وتعليما وتعلما.

وفي الصفحات التالية نعرض نماذج من عطاء المحضرة في الداخل واشعاعها في الخارج واثرها في تكوين سمات المجتمع الشنقيطي بوجه عام.

الفصل الأول

الحصاد الثقافي

١ ـ نوادر الحفظ والنبوغ

خرجت المحضرة أجيالا من العلماء الحفاظ الذين كانوا يحملون العلم معهم في الحل والترحال، صدورهم خزائن لكل ما طالعوه أو درسوه. كانوا يستأنسون بقوله تعالى : «وحصل ما في الصدور» وكان شعارهم بيتين، طالما تمثلوا بهما، ينسبان للامام الشافعي :

علمي معي أينما يمّمت أحمله ... في باطن الصدر لا في جوف صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي ... أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وكانوا في شأنهم هذا خير خلف لخير سلف فقد قامت الحركة العلمية العربية قديما على حفظ النصوص وروى عن الاقدمين في ذلك حكايات عجيبة.

ويناقش مصطفى صادق الرافعي أسرار هذه الملكة عند العرب، فيرفض رأي الباحثين الذي يردون حفظ العرب الى كونهم قوما بادين، بعثتهم قلة مرافق الحياة التي بأيديهم على التوسع في الحفظ والمران عليه. فذلك عند الرافعي «رأي لا يستقيم على النظر ولا يصح عند التحقيق لأن أقواما غير العرب قد تبدوا في عصور مختلفة ولم يؤثر عنهم من نوادر الحفظ وفنونه بعض ما أثر عن هؤلاء»... «والصحيح أن العرب قوم معنويون. ولم يجرمن الأحكام النفسية على أمة من الأمم ما جرى عليهم. ولهذا كان لا بد لهم في أصل الخلقة من الحوافظ القوية التي ترتبط مآثر تلك النفوس ارتباطا والا اختل تركيبهم الطبيعي.

«واذا أردت أن تعرف مصداق ذلك فاعتبر ما اتسعوا فيه من المحفوظ. فانك لست واجده إلّا في المعاني النفسية مما يرجع الى التفاخر والتفاضل بالأحساب والأنساب والتعاير بالمثالب والتنابز بالألقاب. ولو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا اليها ولا استغنوا بها عن الحفظ لأن سبيل تلك المعاني الطبيعية أن تجيء من أداة طبيعية أيضا، حتى تكون عند الخاطر اذا خطر والهاجس اذا بدر وليس لذلك غير اللسان» ويلخص مصطفى صادق الرافعي نظريته :

«كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظا وأتمهم حافظة وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي»(١).

ولسنا إلى مناقشة هذه النظرية فالمهم الثابت أن الحفظ، والرواية منه، كان سمة مميزة للثقافة العربية التي اشترك مع العرب في نقلها حفاظ بارزون من أمم أخرى أسلموا فتعربوا

وكانوا مجلين، مثل الامام البخاري الذي كان نادرة في الحفظ، فقد ذكر الرافعي أن علماء بغداد أرادوا امتحانه فعمدوا الى مائة حديث قلبوا متونها وأسانيدها، جعلوا متن هذا لاسناد آخر وإسناد هذا لمتن آخر واقتسموها : كل عشرة أحاديث يلقيها أحدهم. فلما جلسوا اليه قام أحدهم وسأله عن حديث من العشرة التي حفظها فقال : لا أعرفه واستمروا يسألونه وهو يقول لا أعرف، حتى أتوا على المائة. فلما علم أنهم فرغوا التفت الى الاول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني قلت فيه كذا وصوابه كذا واستمر حتى أتى على تمام العشرة وفعل بالآخرين مثل ذلك ما يخطيء في ترتيب حديث على غير ما ألقي عليه ولا في نسبة حديث الى غير صاحبه الذي ألقاه وهو في كل ذلك يرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه[٢].

وقد ظهر في الأندلس وهي من منابع الثقافة الشنقيطية علماء حفاظ نوابغ وجد فيهم الشناقطة نموذجا ومثالا يحتذى فكانوا يستحثون همم الطلبة بقول أبي عمر الداني «ما رأيت شيئا إلا كتبته وما كتبت شيئا إلا حفظته وما حفظته فنسيته»[٣].

وقد أحرقت كتب أبي محمد ابن حزم الأندلسي فقال :

دعوني من إحراق رق وكاغد   وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فان تحرقوا القرطاس لا تحرقو الذي   تضمنه القرطاس اذ هو في صدري

وكان أبو المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب أعجوبة في الرواية للأشعار والأخبار وقد لقبوه «حافظ إشبيلية» وذكروا في حفظه أنه كان وأدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة. فمد الهيثم يده الى الديوان فمنعه منه أحد الأدباء، فقال يا أبا عمران (لأبي عمران بن سعيد وكان حاضرا) أو أحب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتا وأنا أحفظه؟ فأكذبته الجماعة. فقال : اسمعوني وامسكوه : فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فأقسموا عليه أن يكف وشهدوا له بالحفظ[٤].

بمثل هذه الحافظة وأرفع منها، امتاز الشناقطة، واختطف علماؤهم المتجولون الأضواء. فبقوة الذاكرة وغزارة العلم وحضور البديهة بهر ابن التلاميد ومحمد أمين فال الخير وأحمد بن الأمين الطلبة والعلماء على حد سواء في المشرق وحسبك أن أحمد بن الامين الشنقيطي نزيل القاهرة قد دون كتابه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط املاء من ذاكرته، وفيه نحو ٤٥٠٠ بيت من الشعر الشنقيطي. وكانت في قبيلة تجكانت على عهدهم بتنيكي ٣٠٠ فتاة تحفظ موطأ الامام مالك. وكان الغلام من قبيلة مدلش (مجلس العلم) يحفظ المدونة قبل البلوغ وكان العبيد الأميون يغنون على الطبل مقامات الحريري. وكثير من فتيان «الزوايا» بوجه عام يحفظون دواوين الشعر الجاهلي والفية ابن مالك ومختصر بن اسحاق ومتونا أخرى قبل البلوغ[٥].

وحدثني العلامة محمد سالم بن عبد الودود ان مريم بنت اللاعمة والدته كانت تحفظ القاموس. وقد استوعبته بطريقة غريبة، حيث كان والدها يرسلها من حين لآخر الى خيمة أحد

علماء الحي تنظر له معنى كلمة في القاموس فتعود وقد حفظت المادة كلها. «وقد حفظ محمد الامين بن الددو القاموس الى حرف الراء ثم نهي عن اتمامه، خوفا عليه من العين».

وللشيخ محمد عبد الله بن أحمذيهْ قولة لعلها أبلغ من قولة أبي عمرو الداني، فقد كان يقول : «ثلاث لا يعجز الرجل عنها، الطهارة المائية وحفظ النص من قراءة واحدة وقول الحق في محله»[٦].

ويروى أن محمد بن العباس الحسني، وهو راوية شعر، ادعى ليلة في مجلس سمر أنه لا يسمع بيتا من الشعر إلّا روى القطعة التي هو منها وذكر الكتاب الذي توجد فيه فتصدى له حبيب بن أمين أحد تلامذة العلامة حرمه بن عبد الجليل ، فسأله من القائل :

لو كنت أبكي على شيء لأبكاني   عصر تصرم لي في دير غسان

فقال ابن العباس : نسيت قائل هذا البيت وهو من قطعة أعرفها في حماسة أبي تمام، فدعي بالكتاب، فلم توجد فيه، فقال لهم حبيب ها هي بقية الأبيات :

دير حوى من خمور الشام أجودها   وساكنوه لعمري خير سكان
دهرا يدير علينا الراح كل رشا   خمصان غص بزنديه سواران

وقال ان القطعة من انشائه، نظمها تعجيزا لزميله، وساق دليلا على صحة قوله، ان دير غسان لا وجود له في اديرة العرب.

كان شيخ المحضرة حرمة بن عبد الجليل حاضرا فالتفت الى تلميذه حبيب وأنشأ على البديهة :

لله درك يا غليم من فتى   سن الغليم في ذكاء الأشيب
لست الصغير إذا تند شريدة   وإذا تذاكر فتية في موكب
إن الكواكب في العيون صغيرة   والأرض تصغر عن بساط الكوكب[٧]

وكان سيدي أحمد الولي بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الله المحجوب، قاضي ولاتة وامامها يحفظ مقامات الحريري[٨] وليست من فنون الفقه ولا القضاء.

وخرج الطالب أحمد بن محمد بن الحاج الطيب الجماني المتوفي سنة ١١٥١ من تيشيت وهو يحفظ ثلاثة عشر نصا[٩] أي ثلاثة عشر متنا.

وكان محمد محمود بن احمذيهْ يحفظ مقامات الحريري والمستطرف وكامل المبرد والوسيط في تراجم أدباء شنقيط وديوان المتنبي وديوان أبي تمام وديوان البحتري[١٠]. هذا في الأدب وحده وخارج المنهج الدراسي التقليدي.

وكان الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان المتوفي سنة ١٣٩٧ يحفظ الاتقان في علوم القرآن وفتح الباري على صحيح البخاري[١١] فما بالك ببقية المتون التي تدرس في المحضرة.

ونجد استثناءات قليلة تطرد القاعدة دونها فهذا قاضي ولاتة اندعبد الله بن أحمد بن اندعبد الله المتوفي سنة ١١٧٢ لم يكن مشتغلا بحفظ النصوص. وقد سمع ليلة رجلا يقرأ نص خليل أو العاصمية فقال «هذا تعذيب الحيوان»[١٢].

لقد طرح القاضي الفاضل قضية لم يكن أهل عصره ليقبلوها أو يتفهموها، فقد كانوا أهل رواية لا يعتدون في العلم إلا بالحفظ. أما اليوم فقد تغيرت الحال، وصار الاعراض عن حفظ النصوص حالة قائمة وواقعا مستحكما لا يعدم له المعاصرون فلسفة تبرير. وهاقد وجدت دعوته آذانا صاغية.

وقد كانت ملكة الحفظ النادرة، أيا كان الامر اليوم، عونا للشناقطة المتقدمين في تحصيلهم الدراسي. فكان منهم قوم لم يعبأوا بآداب الدراسة المحضرية التي عرضناها في صيغة مبادىء تربوية وانطلقوا في التحصيل بالسرعة التي هيأتها لهم طاقتهم الذهنية العالية. وآخرون يفخرون في ثقة عالية بقدرتهم على استذكار عشرات الكتب.

ويروى عن سيدي محمد بن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم أنه قال : «ان علوم المذاهب الاربعة لو رمي بجميع مراجعها في البحر لتمكنت أنا وتلميذي ألفغ الديماني من إعادتها دون زيد أو نقص، هو يحمل المتون وأنا أمسك الشروح»[١٣].

يروى عن يحظيه بن عبد الودود أنه كان يقول ان محمد عالي بن سعيد يعرف البيت الاحمر (احمرار ابن بونه) والحسن بن زين يعرف البيت الأكحل (الفية بن مالك) وأنا أعرفهما معا»[١٤].

وحين ألف سيدي محمد بن حبت كتابه (المواهب النحوية على الخلاصة والألفاظ البونية) أخذه ابنه الشيخ وكان كثير الترحال ينقل معه كتبه وطلبته على ظهور الابل، فضل جمل كان يحمل جزءا من مكتبة الشيخ، وفيه كتاب والده، وأعياهم البحث عنه فلم يجدوه فجاء الابن الى والده وقص عليه ما حدث. قال الوالد : لقد ضيعت جزءا كبيرا من عمري، ثم ان الشيخ، وكان قد قرأ كتاب والده من قبل، لخص الكتاب من ذاكرته وقدمه الى والده فلم ينقص منه شيئا، ووجد أن الشبل من الاسد. وأقبل الوالد بدوره على اعادة كتابة تصنيفه فنشره كاملا، فأنتجت الذاكرة الشنقيطية كتابين اثنين بسبب فقدان كتاب واحد[١٥].

وعموما، فقد كان الشناقطة مضرب مثل في الحفظ، وكذلك شأن كثير منهم اليوم وقد رد مصطفى السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي) على المتقولين في مرويات أبي هريرة المستغربين كثرة أحاديثه بان الحفظ سجية عند العرب. وضرب مثلا لذلك بالشناقطة، وذكر منهم المجيدري بن حبيب الله وأحمد بن الأمين[١٦].

أما الذين برزوا في سرعة التحصيل الدراسي وهم حفاظ أيضا فمنهم الشيخ سيدي المختار الكنتي. فقد ذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار أن والده درس على آم الكلحرومي. ونسب الى والده قوله : «كنت مدة اقامتي عنده أكتب سبعة ألواح، كل لوح في فن فاحفظ تلك الألواح كلها وأفسر مع أهل كل فن الدروس الموافقة لدرسي (...) وكان درسي من مختصر خليل قفين وربما كتبت ثلاثة أقفاف أو أربعة (...) ولم أختم كتابا قط، درسا بل كلما شطرت الكتاب أو ثلثه عرفت باقيه».

أما درسه من الخلاصة (الفية ابن مالك) «فكان أربعين بيتا بطررها وشواهدها[١٧] وكان درس الشيخ ماء العينين من مختصر خليل بن اسحاق ٢٠ قفا في اليوم[١٨].

ومن مظاهر الحفظ والنبوغ ما يجري مجرى خوارق العادات وفيه حكايات غريبة تتناقلها أوساط المحاضر.

وتتضارب الروايات حول دراسة الفقيه الجليل محمد بن محمد سالم لمختصر خليل فمن قائل أنه درسه في ٦ أشهر ومن قائل أنه درسه في ١٦ شهرا وفي كل ذلك اعجاز ذهني. وقد ورد أنه كان يقرأ في اليوم ٩ أقفاف دفعة واحدة وربما زاد[١٩].

يروون أن بابا بن أحمد بيبه كان يناظر العلماء وعمره ثلاث عشرة سنة. وكان الناس يتعجبون منه. وكان حرمة بن عبد الجليل يقول اذا زار أخواله : امسكوا عني بابتكم وعيش ذؤابتكم[٢٠].

ومن المتداول أن بابا هذا على تبحره في العلم بشهادة معاصريه لم يتلق عن شيخ. وكان خاله حرمه يمازحه بذلك فيقول ان علمه «فرخ» وهي كلمة عامية تعني الولد لغير رشدة. قال أحمد بن الأمين «وهذا قريب مما كان أبو حيان يقول عن ابن مالك فانه قال : بحثت عن شيوخ ابن مالك، فلم أجد له شيخا مشهورا يعتمد عليه ويرجع في حل المشكلات اليه إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال قرأت على ثابت بن حيان بجيان وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما. ولم يكن ثابت بن حيان من الأئمة النحويين وانما كان من الأئمة المقرئين[٢١].

وبابا هذا هو القائل :

وإذا المسائل أحجمت وتمنعت   وأبت مشاكلها على الحذاق
أعملت سيف الفكر نحو عويصها   فحنت على خواضع الأعناق
فتبوح لي بسرائر مكتومة   حتى عن الأسطار والأوراق[٢٢]

وفيه تقول عيشة بن أحمد :

وحفظ القرآن في يومين   والدنا بابا بدون مين
رويت ذاعن ابنه محمد   قال الامام العالم المجدد[٢٣]

وقد تبحر محمد فال بن متالي في علوم المحضرة دون أخذ على العلماء وفي برهة وجيزة.

وانتصب يحظيه بن عبد الودود للتدريس، فكان شيخ محضرة وعمره ٢٢ سنة. ومن غرائب ما يحكى أن العلامة حمدا الله بن محمد بن محمد سالم نبغ بالشعر في سنته الثالثة. وذلك أن والدته أعطته تمرا للفطام فخاطبها قائلا :

أشك أو أظن أو أقطع   أن الذي أعطيت لا يشبع[٢٤]

وأغرب منه حكاية يرمزون بها إلى تبحر علماء تشمشه في الفقه، رواها الشيخ أحمد بن سليمان ويتناقلها الناس، فقد ذكروا أن الفغ موسى بن الفغ محنض امغر قال حين وضعته والدته «قال مالك»[٢٥] ففرت القوابل فزعا فكأنما كان الصبي يقرأ المدونة أو غيرها من أمهات المذهب المالكي.

وتتناقل الأفواه روايات غريبة أخرى حول هذا الحفظ الأسطوري فقد روى أن مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي نام وسط خزانة كتب فاستيقظ وهو يحفظ جميع ما فيها[٢٦].

وروى أن الشيخ محمد المامي تمكن من مطالعة جميع الكتب الموجودة في عصره باستثناء كتابين[٢٧]؟!

وروى أن الشيخ سيديا طالع خزانة تامة في ليلة واحدة. ونام المختار بن بونه أياما، وكان بليدا لا يستطيع أن يفقه الاجرومية، فاستيقظ وقد حفظ ما في كتب المحضرة. ولما بدأ أبوفمين المجلسي قراءة الالفية، ووصل الى قوله في باب الاسم :

بالجر والتنوين والندا وأل   ومسند للاسم تمييز حصل

قال : حصل الاعراب والتمييز[٢٨]. فقيل أنه، وهو في البداية استوعب بقية الالفية.

٢ ـ التأليف والمؤلفون

انكب أهل العلم في المحضرة على التدوين والنسخ والتصنيف فكانت المحضرة دار وراقة ومؤسسة نشر، ينصرف فيها الطلبة الى نسخ الكتب اذا هم فرغوا من دروسهم.

وربما احترف بعض الخطاطين النسخ مهنة حياة يمارسها داخل المحضرة وخارجها، يكتب لنفسه أو لغيره الليل والنهار...

وكان من هؤلاء من العلماء الطالب البشير بن الحاج الهادي الاديلبي (ت ١١٩٧ هـ/١٧٨١ م) لم تيبس دواته مدة ثلاثين سنة، لاشتغاله بالكتابة والتدوين طول هذه المدة[٢٩].

وكان القوم، خاصة أول أمرهم، يكثرون استنساخ الكتب ويقلون تصنيفها، ويقولون محذرين «من ألف فقد استهدف». ولم يكن لجل العلماء وقت للتأليف لو أرادوه، فقد كانوا منصرفين الى التدريس لا يفيض لهم عنه وقت إلّا قليل منهم.

وحسبك أن لا تجد ذكرا في فهرس المؤلفين الشناقطة للعلامة يحظيه بن عبد الودود (ت ١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م) وهو واسطة عقد العلماء المتأخرين، فقد كان مشغولا عن التأليف بتكوين المؤلفين وتخريج العلماء[٣٠].

وكان من القوم من لو وجد سعة في وقته لما رقم سوادا في بياض، يعزف عن التصنيف ورعا وجنوحا الى الخمول وفرارا من الرياء والمباهاة.

ومع ذلك، فقد أدلت طائفة منهم كبيرة بدلائها في التصنيف، فأخذوا ينثرون على السطور ما في صدورهم، ويعلقون ويطررون ويفسرون ويشرحون وينظمون المنثور، خدمة للعلم وتذليلا لصعابه.

لم يكن التصنيف نزهة أو تسلية محضة... لقد كان فيه عناء كثير وتعب وان مع متعة.

وربما صرح المؤلف ببعض المصاعب التي تعترض سبيله متضرعاالى الله مستعينا به.

يقول محمد اليدالي، في مقدمة كتابه «الذهب الابريز» في تفسير كتاب الله العزيز :

وأعني يا ذا الجلال عليه   وأعن من يعينني يا معين
بمداد أو مزبر أو بدلك   للقراطيس اذ بذاك تلين

وكان اليدالي قد ركب البحر الى أغادير دوم (مركز تجاري) أوروبي على المحيط الأطلسي قرب نوانيبو يطلب من الورق ما يعينه على تدوين مصنفاته[٣١].

وللشناقطة أبيات وجمل يرسمونها على الكتاب ترمز الى ما يلقون في النسخ والتأليف من مشقة وعناء، فمن عادتهم أن لا يكتفوا بالبسلمة والحمد له والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (وهي فواتح تجتمع دائما في مقدمة الكتاب، ويطالعك بعضها مبدأ كل صفحة) بل يضيفون اليها الاستعانة والتفاؤل باحدى الصيغ المألوفة في هذا المقام :

عونك يا معين   وبك نستعين
اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا   وأنت تجعل الحزن اذا شئت سهلا

رب يسر ولا تعسر ... يا ميسر كل عسير
ويا ربع عونا والمعان مؤيد ... وما لامرىء ان لم تعنه كفاء[٣٢]
مبارك الابتداء ... ميمون الانتهاء
مبارك الابتداء والانتهاء ... مرجو النفع به والاهتداء

وعلى صفحة بارزة من المخطوط يواجهك مثل هذا البيت :

وقل من جد في أمر يحاوله ... واستصحب الصبر الا فاز بالظفر

وفيه تشجيع للمقبل على النسخ أو التأليف.

ويودعك المؤلف أو الناسخ في نهاية الكتاب بمثل هذه الأبيات :

يا ناظر الخط فاستغفر لمن كتبا ... فقد كفتك يداه النسخ والتعبا
كتبت وقد أيقنت لا شك أنني ... ستفنى يدي يوما ويبقى كتابيا
وأيقنت أن الله سائلها غدا ... فيا ليت شعري ما يكون جوابيا
وما من كاتب إلا سيفني ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

وكثيرا ما يبدأ الشناقطة مؤلفاتهم النثرية بمقدمة مشحونة بأوصاف القصور ونعوت العجز يصم بها المؤلف نفسه، معتذرا عن إقدامه على ما ليس له أهلا من التأليف معللا جرأته هذه بالاستجابة لطلب ملحاح من فلان أو بامر من لا تسعه مخالفته، وانه ظل يقدم رجلا ويؤخر أخرى مترددا في الاستجابة للطلب، مصورا موقفه بمثل هذه العبارات :

«فاحجمت عن ذلك وأعرضت عما هنالك، لعلمي اني لست من فرسان ذلك الميدان ولا ممن يلعب فيه بكرة ولا صولجان، ولا من ينطق فيه بلسان ولا من يشار اليه ببنان»[٣٣].

ثم يعلن المؤلف أن «فلانا» ـ وغالبا ما يكون مبهما ـ لم يزل به يلح عليه فلم يجد مناصا من تلبية طلبه بعد استخارة الله تعالى.

والشناقطة في ذلك خلف لسلف من المؤلفين سلكوا مسلكهم. ومنهم خليل بن اسحاق (٧٦٧ هـ) الذي افتتنوا بمختصره والقاضي عياض السبتي (ت ٥٤٤ هـ) الذي تتلمذوا عليه، واتخذوا كتابه «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» وردا يقرؤونه بانتظام، خاصة أهل الحواضر منهم، خلال شهر رمضان من كل سنة، ولا يهملونه في بقية الشهور.

ولعل كتاب عياض هذا من أول الكتب وصولا الى البلاد، خاصة وأن الشريف عبد المؤمن مؤسس تيشيت والحاج عثمان أحد مؤسسي وادان كانا من تلامذة القاضي، ووصلا البلاد قبل وفاته بثماني سنوات (سنة ٥٣٦ هـ).

يقول عياض في مقدمة كتابه بعد كلام :

«فانك كررت علي السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام» وما يجب له من توقير واكرام، وما حكم من لم يعرف واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينه بتنزيل صور وأمثال، فاعلم أكرمك الله أنك حملتني من ذلك أمرا إمرا وأرهقتني فيما ندبتني إليه عسرا، وأرقيتني بما كلفتني مرتقى صعبا ملأ قلبي رعبا (...).

«وها هنا مهامه فيح تحار فيها القطا وتقصر بها الخطا».

ويورد القاضي الأسباب التي دفعته الى تلبية الطلب، مستطردا في نهايتها حديث «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٣٤].

أما خليل بن اسحاق (ت ٧٦٧ هـ) فيقول في مقدمة مختصره :

«سألني جماعة أبان الله لي ولهم معالم التحقيق وسلك بنا وبهم أنفع الطريق مختصرا على مذهب الامام مالك بن أنس رحمه الله مبينا لما به الفتوى فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة».

وهو يعتذر «لذوي الألباب عن التقصير الواقع في هذا الكتاب».

ولسنا نطعن في مصداقية هذه المقدمات، فمن شأن الناس، في بيئة عرفناها، أن يلتمسوا التصنيف من أهله. والتواضع ـ فوق ذلك ـ خلق من أخلاق العلماء. لكننا لا نجد منه في نتاجهم الشعري (منظومات ـ قصائد) مثل ما نجد في منثورهم.

لقد كان الشعر ميدان فحولة عند العرب منذ القدم، فلعل الشناقطة عرفوه هكذا فخلعوا عنهم جلباب التواضع فيه وعدلوا الى المباهاة به عن التخفيف من شأنه، إلا في حالات نادرة، يكون ذلك فيها أداة تشويق وتزويق ترفع شأن العطاء الأدبي ولا تضعه[٣٥].

وكانت تلك مفارقة غريبة : النثر (وهو أهون) مطلوب مضنون به والشعر (أو النظم) مبذول، مزهوٌ به صاحبه وإن بلا من ولا أذى.

ولكن الشناقطة لم يكونوا في هذا بدعا من المؤلفين العرب.

ومن التقاليد المرعية أن يطوف المؤلف بتصنيفه، متى اكتمل على علماء منطقته أو يبعثه اليهم ليطلعوا عليه ويبدوا ما لهم من ملاحظات. ولشد ما كانوا يحتفون بالكتاب الجديد كما يحتفون بالمولود وزيادة.

ومن مظاهر الاحتفاء التقريظ شعرا في الغالب ونثرا، واجازة الكتاب والتسليم بما فيه. وربما ضم عالم جهده الى جهد معاصره، فشرح له نظمه..

ويتحدث الشيخ محمد المامي عن رحلته لعرض نظمه في فقه خليل على العلماء :

وتم عرضه على الأعيان … كالعالم الاكدبجي الرباني
أنخت عنده بتيماس … في الصيف والجمل ذو أخماس
فوضع الأصبع في يومين … على جميع المتن دون مين
وإذ تبدّى لمحنض بابا … عشية أعجبه اعجابا(٣٦)

وكما يصعب التأليف، كذلك تصعب صيانة الكتاب وحفظه اذا هو أنجز. والناس في بلاد شنقيط يندبون اليوم تراثهم الضائع، فقد عصفت بمخطوطات أسلافهم عوامل جمة أبرزها – قديما – طبيعة الحياة البدوية التي لا تتوفر فيها الظروف المناسبة لصيانة الكتب وأولها الاستقرار. فالكتب في حالة ترحال دائب ينضي البشر والركاب فلا ينجو منه الكتاب.

والكتب معرضة، رغم ما تحاط به من عناية، للتضرر بمطر غير متوقع أو ريح عاصفة.

وربما نفرت الراحلة بمتاع الرجل وفيه كتبه، فكان آخر العهد بها(٣٧).

وربما سقطت شرارة على الكتاب في مجلس الشاي أو حلقة الدرس (وكانوا يستضيئون بنار الحطب ليلا ويستدفئون) فأتت عليه. وما أكثر ما تدخل الدواجن (أغنام، بقر...) الخيمة فتنال من الكتب، فتتلفها.

وكانت الحروب – وقد كثرت – وبالا على الكتب. ويذكر المختار بن حامد أن كتب الزوايا أحرق منها الكثير ودفن في حرب «شرببه».

وحين دخل الاستعمار عني بجمع المخطوطات، فاختفى منها الكثير بسبب هذه «العناية» على أن بعضه محفوظ في المكتبات الفرنسية(٣٨).

وفي دورة الجفاف الاخيرة – ولم تكن الأولى – شغل الناس عن كتبهم، وقد مسهم الضر. فربما ارتحل الحي وخلف صناديق الكتب وأوعيتها بين العرصات والاطلال. وربما تخففوا منها في مرحلة من مراحل الطريق، ولكنهم يبدعون في التعبير عن احتضار العلم حين يتركون كتبهم في المقابر، صيانة لها واحتراما!!(٣٩).

ومنذ سنوات، بدأت الدولة الموريتانية وهيئات أخرى تعنى بما بقي من التراث الثقافي للبلاد. وفي هذا الاطار أسست الدولة «المعهد الموريتاني للبحث العلمي» وكلفته – بين أمور – بحصر المخطوطات وحفظها. وقد تمكن حتى الآن – على ضعف في الوسائل – من اقتناء :

٣٢٠٠ كتاب مخطوط
٢٢٣٩ ميكرو فيلم
٥٠٠ ملف للشعر
٣٠٠ ملف للنوازل(٤٠).

وقد سعى المعهد الى فهرسة بعض المكتبات، ولكنه لم يتمكن من نشر الفهارس، ولو سحبا على الرونيو، باستثناء الجزء الأول (فقط) من فهرس مكتبة أهل حبت بشنقيط.

وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بالتعاون مع المعهد، قد عقدت ندوة حول المخطوطات في نواكشواط سنة ١٩٧٧، تأكد المشاركون فيها من أهمية الثروة الثقافية المطمورة في هذه البلاد...

ويدين المعهد للمنظمة وقطر وليبيا ببعض المساعدات في عمله. وقد عنيت المانيا الغربية عناية ميدانية بتصوير هذه المخطوطات، فأفادت الباحثين في بعض مكتباتها ولم تحرم المعهد من نصيبه(٤١)..

ورغم جهود بذلت، فما زالت حصيلة الفهرسة والحصر، فضلا عن الاقتناء، ضئيلة قاصرة.

ولعل أهم ما أنجز في مجال الفهرسة حتى الآن دليل المؤلفين الشناقطة الذي وضعه المختار بن حامد والخبير الدولي هيموفسكي.

وبالاستناد الى هذا الدليل، أساسا، نعرض المعطيات التالية حول حركة التأليف في بلاد شنقيط(٤٢).

اذا استثنينا اثار الامام الحضرمي (ت ٤٧٩ هـ)، نجد أن حركة التصنيف في بلاد شنقيط ولدت، فيما هو معلوم، في القرن العاشر الهجري وازدهرت في القرن الثالث عشر، وبلغت أوجها ثم بدأت تنهار في القرن الرابع عشر.

وتناول المؤلفون جميع معارف المحضرة :

القرآن تناول المؤلفون الشناقطة علوم القرآن، وعنوا عناية خاصة بترتيب السور والآيات، وأسباب النزول، وتفسير المبهم، وخواص الآيات والكلمات، والقراءات والقراء، وغريب القرآن والناسخ والمنسوخ، والحروف المشددة، ونحو ذلك.

وقد أحصينا لهم في ذلك ١٢٠ مؤلفا تعود ١٠٠ منها الى القرن الرابع عشر الهجري.

الحديث : تناولت مؤلفاتهم فيه تصنيف الحديث وجمعه وبيان مصطلحه وناسخ السنة والمنسوخ.

وكان لهم في ذلك ٥٨ تأليفا، منها ٤٠ في القرن الرابع عشر.

الفقه : لم يعن الشناقطة بباب من أبواب المعرفة مثلما عنوا بالفقه بجميع شعبه. منهم من حاول أن يوعب فروعه فأفاض فيها جهده حتى كتب بعضهم في فقه المذاهب الأربعة. ومنهم من ألف خصيصا في القضاء، أو في فروع خاصة كالبيوع والزكاة والصوم ومبيحات الفطر والايمان والعدالة والدية والفرائض.

وقد اهتم فقهاء القرن الرابع عشر بالقضايا المستجدة مثل ثبوت الأحكام بالتلغراف وحلية المعاملات المصرفية.

ومن المؤلفين من عني بالاستدراك على الآخرين. ولهم في الشوارد والنوازل والألغاز مؤلفات.

وقد اختص فقه الفروع بأول مصنف شنقيطي محفوظ، ألفه محمد بن أحمد الوداني (كان حيا سنة ٩٥٣ هـ) شرحا على مختصر خليل أسماه «موهوب الجليل».

وكانت حركة التأليف في هذا الباب بطيئة في القرن الحادي عشر، باعتبار ما وصل إلينا، وسجلت تقدما في الثاني عشر (نحو ١٠ مؤلفات) وبلغت العشرات في الثالث عشر والمئات أوائل الرابع عشر.

واستأثرت الفتاوي بنصيب هام من جهد المؤلفين. وكانت الفتاوي المجموعة من أقدم المصنفات المحفوظة، فقد ظهرت في القرن الحادي عشر وزادت على العشرة في الثاني عشر وعلى العشرين في الثالث عشر وعلى الثلاثين في الرابع عشر.

وكان للشناقطة اثار في أصول الفقه وقواعده، خاصة منذ القرن الثالث عشر أكثر من ٢٠ تصنيفا والرابع عشر (نحو ٥٠).

السيرة والأنساب : تناولت مصنفات السيرة مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العظيمة وتعداد آله والترجمة لبناته وأزواجه وصحابته وخصائصه ومعجزاته وسير خلفائه الراشدين.

وكانوا في عنايتهم بالأنساب يضبطون أنسابهم وانساب العرب عامة. وعكس اهتمامهم بانساب العرب وحفظهم لها روحا قومية متينة، هذبها الاسلام وصقلها وعززها.

وقد بلغت مصنفاتهم في المجالين نحو ١٠٠ اثر، نصفها أو أكثر في القرن الرابع عشر.

التصوف : كتب الشناقطة عن الطرق الصوفية، وتناولوا مباحث الحقيقة والشريعة وما يدور من جدل بين الفقهاء والمتصوفة، وعرضوا لأسماء الله الحسنى وشرحها وأسرار الحرف والكلمة، وصدعوا بالنصائح والمواعظ والمدائح النبوية والدعوات والاذكار. وكان جل عطائهم هذا في القرن الرابع عشر، فلهم فيه نحو ٣٠٠ تصنيف.

الأخلاق والآداب الاجتماعية : ومما يلحق بالتصوف الأخلاق وآداب السلوك التي اهتم بها المؤلفون ساعين الى تصحيح الانحرافات في مسالك الناس وعاداتهم وقد تركوا في هذا الباب نحو ١٠٠ اثر في القرن الرابع عشر.

ويعتبر محمد مولود بن أحمد فال أحد أئمة المدرسة الاخلاقية فقد كتب في قضايا هامة كتعليم الاطفال وأحكام السؤال وأدب الاكل والشرب والضيافة والعيادة والانفاق وكتب في محارم اللسان وأمراض القلوب.

اللغة : ألف الشناقطة في اللغة وفقه اللغة فتتبعوا أسرار العربية، واختصوا بعض الحروف بالدراسة، مثل الجيم والضاد، وفيهما اختلف الناس. ولهم في هذه الأبواب ١٣ أثرا من القرن الثالث عشر الهجري ونحو ٢٠ من القرن الرابع عشر الهجري.

النحو والصرف : عرفت المناطق الشرقة من بلاد شنقيط النحو في وقت مبكر وكتبت فيه فقد وضع اند عبد الله ابن سيدي أحمد المحجوبي (ت ٩٣٧ هـ/١٥٢٦ م) شرحا على الاجرومية. وفي مدينة شنقيط ذاتها وضع الطالب محمد بن المختار بن الأعمش (ت ١١٠٧ هـ) شرحا على الفريدة للسيوطي.

وتدرجت اثارهم : ١٠ مؤلفات في القرن ١٢ هـ و١٥ في ١٣ هـ و٣٠ في ١٤ هـ.

وكان الصرف، غالب الامر، رديفا للنحو خاصة في المؤلفات الكبيرة، لكنه اختص احيانا ببعض المصنفات. وأولها - فيما نعلم - كان تأليفا لمحمد عالي بن زياد الديماني (ت ١١٦٠ هـ). وقد بلغت مصنفاتهم في شرح لامية الأفعال ومحاذاتها والتعليق عليها نحو ٢٦ أثرا.

ولهم في هذا الباب ٣٦ تأليفا جلها في مسائل الفعل. وقليل منها في مسائل الاسم، و٧ تصانيف في المشاهير.

الأدب والعروض : عني المؤلفون بتاريخ الأدب العربي وتصنيف طبقات الشعراء ولهم في العروض والقوا في ثلاثة مصنفات من القرن ١٢ هـ و١٦ من ١٣ هـ و٢٧ من ١٤ هـ أو جزء منه.

التاريخ : كتب الشناقطة في تاريخ بلادهم وفي التاريخ العربي ـ الاسلامي بوجه عام، وتركوا في ذلك أكثر من ٧٠ اثرا، تطرقوا فيها الى حوادث سني الهجرة ووفيات الأعيان وحوادث السنين في بلادهم وتاريخ بعض المدن والمناطق، وعموميات تاريخية.

وقد عني بعضهم بالترجمة لمشاهير البلاد. ومن مؤلفاتهم في هذا المجال : الطرائف والتلائد للشيخ سيدي محمد الكنتي في مناقب والدته ووالده الشيخ سيدي المختار، ونزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ لخليفته بدي (محمدي) بن سيدينا، الدر الخالد في مناقب سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم لابنه محمد محمود، أمر الولي ناصر الدين للشيخ محمد اليدالي، السند العالي في مناقب اليدالي للنابغة الغلاوي، عيون الاصابة في مناقب محنض بابه لميلود بن المختارخي، حياة الشيخ محمد فاضل للطالب بويكر بن احمد المصطفى، نزهة الغيب والجلاس، في مناقب شيخنا أبي العباس لمحمد الأمين ابن بدي في الترجمة لوالده أحمد بن بدي (اب)(٤٣).

المنطق والجدل : ألف الشناقطة في علم الكلام والمنطق والجدل والفلسفة، فعرضوا لمسائل كثيرة منها، مسألة الخلود وبعث الأجساد والمعية ومذاهب الحقيقة وآيات الصفات وتأويلها.

ولهم في ذلك نحو ١٠٠ اثر، ٦٠ منها في القرن الرابع عشر.

الطب : كان في البلاد أطباء تقليديون مهرة وعلماء، مثل أوفى الشمشوي، محمد بيب بن المقري، محمذ فال بن متالي، أباه بن بابا، الشيخ ماء العينين، محمد الأمين بن الرباني، المختار السالم بن علي.

ومن هؤلاء وغيرهم من ألف في الطب، وأهم آثارهم فيه «العمدة» لأوفى.

الحساب : اهتم بالحساب تأليف عدد من العلماء نذكر منهم أحمد بن حامد تو، الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط الولاتي محمد أحمد بن البخاري، محمد مبارك اللمتوني، محمد عبد الله بن القاضي، محمد يحي ابن سليمة، المختار بن محمد بن اغليميت، سيدي أحمد بن اسمه.

الجغرافيا : بلغت اثار الشناقطة في الجغرافيا نحو ١٥ تصنيفا، تتناول الابار وجغرافية البلاد وبعض الظواهر الكونية، وغير ذلك.

الفلك : اهتم الشناقطة بالفلك قديما وإن لم يدونوا فيه الكثير. ولعل أهم من ألف فيه سيدي أحمد بن اسمه (ت ١٣٩١ هـ).

الرحلات : دوّن بعض المؤلفين رحلاتهم خارج البلاد. ومن هؤلاء محمد يحي الولاتي والطالب أحمد بن طوير الجنة والبشير ابن مباريكي وأباه بن بابا ومحمد عالي بن فتي.

المنوعات : جمع بعض المؤلفين في ثنايا الكتاب موضوعات شتى، مراعيا التنوع فيها، فمنهم من جمع الطب واللغة والمنطق والنحو، أو التوحيد والفقه والتصوف والطب، في كتاب.

ومن أهم مراجع المنوعات كتابا «الأقرن» و«الأجم» للشيخ محمد المامي وكتاب «الاعداد» لأحمد بن حبيب.

ويبلغ عدد آثارهم في هذا الباب عشرين أثرا.

* * *

وكان مما اهتم به المؤلفون الشناقطة اكمال أعمال سابقة، فقد تركوا نحو ٢٠٠ اثر نظما أو تذييلا أو شرحا أو استدراكا على مصنفات لشناقطة آخرين. وكذلك اهتموا بمصنفات غير الشناقطة، وخاصة :

- مختصر خليل : علقوا عليه وشرحوه كله أو أجزاء منه وذيلوه واستدركوا عليه واختصروه فبلغ ذلك كله أكثر من ٥٢ اثر،
- الفية ابن مالك : شرحوها في القرنين ١٢ و١٣ هـ ولهم عليها في القرن ١٤ أكثر من ١٦ شرحا. وبلغت أعمالهم عليها نحو ٧٠ أثرا،
- رسالة ابن أبي زيد القيرواني لهم عليها ١٣ شرحا في القرن ١٣ هـ،
- لامية الزقاق شرحوها في القرن ١٢ هـ،
- تحفة الحكام لأبن عاصم شرحت في القرنين الاخيرين،
- المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لأبن عاشر شرح في القرنين الأخيرين،
- تبصرة ابن فرحون هذبت ورتبت ونظمت في القرن ١٤،
- فتاوى عليش ونوازله نظمت في القرنين الاخيرين،
- تكميل المنهج لميارة، ذيل وشرح في القرن ١٤،
- أجوبة عبد القادر الفاسي، نظمها زين بن أحمد اليدالي في القرن ١٤،
- حدود ابن عرفة شرحت في نفس القرن،
- لامية ابن مالك لهم استدراكات كاستدراك الحسن بن زين وشروح وطرر عليها،
- مثلث ابن مالك لهم عليه استدراكات من بينها استدراك أبي بكر بن محنض في القرن ١٣ وشرح في القرن ١٤
- لامية العجم انحصرت العناية بها في القرن ١٣،
- ديوان غيلان شرحه الكثيرون في القرنين الاخيرين،
- لامية المجرادي في اعراب الجمل شرحت في القرن الثاني عشر وانبعثت من جديد في القرن ١٤ هـ،
- اضاء الادموس للهلالي على خطبة القاموس شرحت ونظمت في القرنين الاخيرين،
- مختصر الأجدابي في اللغة، شرح ونظم في القرنين الحادي عشر والثالث عشر،

- لامية العرب شرحت في القرنين الثاني عشر والرابع عشر،
- قافية رؤبة شرحت في القرن الرابع عشر،
- الرسالة القشيرية نظمت تراجم لرجالها في القرن الرابع عشر،
- حلية الأولياء لأبي نعيم نظمها أحمد بن دَهاه في القرن ١٤،
- المعلقات شرحت في القرن ١٤،
- دواوين الشعراء الستة الجاهليين شرحت في الثالث والرابع عشر الهجريين،
- كافية ابن مالك في النحو شرحت فيهما،
- دلائل الخيرات شرح في الثاني والثالث عشر،
- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام شرح في القرنين الاخيرين (الثالث والرابع عشر،
- ديوان الشماخ شرحه محمد فتى والشيخ أحمد بن أحمذي في القرن الرابع عشر،
- الشاطبية في القراءات لأبي القاسم الشاطبي (ق ١٤)،
- القاموس، استخلص البشير منوعاته في القرن ١٤،
- منظومة المكودي في التصريف شرحت في القرن ١٢،
- رقم الدول لأبن الخطيب، نظم وشرح في القرن ١٣،
- التحفة الوردية في النحو شرحت في القرن الرابع عشر،
- الجوهر المكنون في البيان للأخضري شرح في القرن ١٤،
- مختصر الوصول في الأصول لأبن عاصم شرح في ١٤،
- اختصار ابن أبي جمرة للبخاري شرح في ١٤،
- عقود الجمان للسيوطي شرح في ١٤،
- نقاية الفنون للسيوطي شرح في ١٤ ونظم بعضها،
- الفية الحديث للسيوطي شرحت في ١٤،
- جمع الجوامع لأبن السبكي في الأصول ونظم وشرح في القرن ١٣،
- روضة الفهوم في العلوم النقلية للسيوطي وشرح في القرن ١٣،
- سلم الأخضري في المنطق شرح في القرنين ١٣ و١٤،
- الكوكب الساطع في الأصول شرح في القرنين ١٣ و١٤،
- الورقات في الأصول للجويني شرحت في القرن ١٣،
- الخزرجية في العروض لضياء الدين الخزرجي شرحت في القرن ١٣،
- الفريدة في النحو للسيوطي شرحت في القرن ١١ و١٣ و١٤،
- قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير حظيت بعناية كبيرة في القرن ١٤،
- الاضاءة للمقري في علم الكلام، عنى بها المؤلفون في القرنين ١٣ و١٤،
- همزية البصيري وميميته شرحتا في القرن ١٤،
- المقصور والممدود لابن مالك شرح في القرنين ١٣ و١٤،
- الدرر اللوامع لابن بري في مقرأ الامام نافع : اختصر وشرح في القرون الثلاثة،

- موطأ الامام مالك نظم وعنى برجاله في القرن الرابع عشر،
- ام البراهين في التوحيد نظمت في القرن ١٢ وشرحت في ١٣ و١٤،
- الفية زين الدين العراقي في السيرة شرحت في القرن ١٤،
- قرة الأبصار لعبد العزيز اللمطي شرحت وعلق عليها وأضيف اليها في ق ١٣، ١٤،
- حكم ابن عطاء الله، نظمت وشرحت في ١٢ و١٤،
- الأجرومية عنى بها المؤلفون منذ القرن العاشر،
- منهج الزقاق في القواعد شرح في القرنين الأخيرين،

وقد شرحت مقصورة ابن دريد وقطر الندى لأبن هشام ونظمت أمثال الميداني وشرحت الأمالي لأبي على القالي واختصرت الأغاني للاصفهاني وشرحت دواوين الشعراء الهذليين وشرح مختصر السنوسي وتأليفه في العقائد ونظم التنقيح في الأصول للقرافي وشرحت منظومة الاوجلي في العقائد، وشرحت ونظمت أبواب الأحياء وكتاب الاقتصاد للغزالي، وشرح نظم السلطان عبد الحفيظ لمغنى اللبيب ونظم الميزان للشعراني ونظم متمات الأجرومية للحطاب وبداية المجتهد لابن رشد ونظم كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر للعسقلاني وغير ذلك مما يضيق به الحصر في مجال محدود.

وكان في المصنفات فئة خفيفة حجمها وان كانت ذات قيمة، هي الرسائل والمكانيب وهي تآليف مصغرة تعالج جزئيات ومواضيع خاصة وقد تناولت الرسائل اللغة وفقه اللغة والنوازل والشوارد ونحو ذلك ويبلغ مجموع ما ألف على شكل رسائل نحو ٢٠٠ اثر للشيخ ماء العينين ولمحمد مولود بن أحمد فال والشيخ سيديا الكبير والمختار السالم بن علي منها النصيب الأوفر.

*　　*　　*

ومع ميلاد الرسائل أو بعده ولد الاختصار في القرن ١٤ هـ فكان كما كانت الرسائل، خطوة على طريق تبسيط العلم واستباق الزمن الذي يسير بسرعة. ولمحمد يحي بن سليمه دور الريادة في هذا الضرب من التصنيف باختصاره مجموعة الكتب التالية : ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن للسنوسي، بداية المجتهد لابن رشد الحفيد، التيسير والتسهيل على خليل لعبد الملك الداودي، تكميل منهج الزقاق لميارة، جواهر المعاني من كلام سيدي أحمد التجاني حاشية محمد بن عرفة علي الدسوقي، مختصر خليل بن اسحق المصري، صحيح البخاري، طرد الضوال لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، تحفة الحكام لابن عاصم منظومة الشيخ ماء العينين في الاجتماعيات، المنهج المنتخب في القواعد للزقاق، نصيحة محمد يحي الولاتي، نوازل الكصري النعماوي، ووضع مختصرين لموطأ مالك أحدهما مطول والآخر موجز.

ومن المؤلفين شبه المختصين أحمد بن حبيب بكتابيه «أيام السنة» و«الاعداد» وأحمد بن الشيخ محمد بن أحمذيه بتقديم جل تآليفه شروحا وتعليقا على مصنفات واردة مثل بانت سعاد، الفية زين الدين العراقي، حد ابن عرفه في النكاح ديوان الحماسة لأبي تمام، شواهد تفسير

الطبري، قافية رؤبة (وقاتم الأعمال خاوي المخترق) قصيدة لبيد (ان تقوى ربنا خير نفل)، قصيدته (عفت الديار محلها فمقامها) وميمية حميد بن ثور الهلالي (الاهيما مما لقيت وهيما) ومن أبرز أئمة التأليف في التصوف الشيخ التراد بن العباس والشيخ ماء العينين، وفي القرآن الطالب عبد الله ومحمد محمود بن محمد الأمين اللمتوني، وفي الاجتماع والآداب محمد مولود بن أحمد فال وفي الاختصار محمد يحي بن سليمه.

وكان هنالك علماء قلة ألفوا في فن واحد أمثال : أحمد بن البشير الغلاوي في الفقه، أو في الطب والبدوي في السيرة والتاريخ وحماد بن الامين في السيرة ومحمد احيد بن سيدي عبد الرحمن في القرآن.

ومن المؤلفين طائفة بلغت مؤلفاتهم العشرات، نذكر منهم :

– ابراهيم بن أمانة الله اللمتوني الذي خلف	أكثر	من	٢٠	كتابا
– أحمد الصغير التشيتي	»	»	٣٠	»
– أحمد بن محمد الحاجي	»	»	٣٠	»
– سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم	»	»	٣٠	»
– الشيخ سيد المختار الكنتي	»	»	٣٠	»
– الشيخ سيديا الكبير	»	»	٣٠	»
– محمد الأمين بن أحمد زيدان	»	»	٣٠	»
– محمد مولود بن أحمد فال	»	»	٣٠	»
– محمد حبيب الله بن مايابى	»	»	٣٠	»
– عبد الله بن الحاج حماه الله	»	»	٤٥	»
– محمد يحيى الولاتي	»	»	٤٥	»
– محمد يحيى بن سليمه	»	»	٧٥	»
– المختار السالم بن علي	»	»	١٠٠	»
– الشيخ ماء العينين	»	»	١٢٥	»
– الشيخ محمد المامي	»	»	١٢٥	»

وتجدر الاشارة الى غلبة الصبغة النظمية في الثقافة الشنقيطية. فغالب شأن الطلبة في المحضرة أن يختاروا المتون المنظومة ويتوسعوا أو يتعمقوا في دراستها بالعودة الى المتون المنثورة.

وقد وظف المؤلفون الشناقطة ملكة الشعر كثيرا في انتاجهم يريدون تيسيره بذلك للحفظ وضمان حظ أوفر من القبول والبقاء له.

ويكفي أن نراجع هذه الأرقام التي استخلصناها من فهرس المؤلفين لندرك مكانة المنظومات في حركة التأليف في البلاد.

– ٦٦ نظما في القرآن،
– ٢٦ في الحديث،
– ١٤ نظما حول مختصر خليل،
– ١٢٠ في التصوف،
– ٧٥ في السيرة والأنساب،
– ١٥ في اللغة،
– ٣٥ في النحو،
– ١٢ في الصرف،
– ٢٣ في الأدب،
– ٤٣ في المنطق والجدل،
– ١٠ في الحساب،
– ٦ في المنوعات،
– ١٢ تلخيصات وشروحات واستدراكات.

وأهم مراجع الطب المحلية منظومة العمدة لاوفى :

ومن هذه المنظومات عدد كبير من الألفيات نذكر منه :

– نظم الشيخ أحمد بن أحمذيه في تفسير القرآن : ١٥٠٠٠ بيت
– الفردوس في الفقه لابراهيم بن أمانة الله : ١٢٠٠٠ بيت،
– الخراج الثاني في عقد خليل للشيخ محمد المامي : ١٠٠٠٠ بيت،
– نظم غريب لغة القرآن لمحمد بن أحمد زيدان : ٥٠٠٠ بيت،
– الوسيلة في الفرائض لمحمد مبارك اللمتوني : ٤٠٠٠ بيت.

أما ما دون ذلك من الالفيات فعدد كثير، نكتفي بالاشارة منه إلى نظم أحمد بن حبيب في الجغرافيا (١٢١٠ بيت).

* * *

ما تزال هذه الكنوز مجهولة مغمورة إلّا القليل فقد تأخر دخول المطابع في بلاد شنقيط إلى ما قبل سنوات أو سنين معدودة. وما تزال المطابع المحلية الى اليوم عاجزة عن الاسهام بجد في إحياء التراث والنشر الثقافي لضآلة وسائلها الفنية والمادية ولانصرافها نحو أعمال رسمية أو تجارية تستوعب طاقتها، ولا تكلفها كبير مغامرة(٤٥).

لكن بعض المصنفات وجد طريقه الى النشر (وكثير منها نفد) في بلاد أخرى :

ففي السعودية نشرت بعض المؤلفات لغالي بن المختار فال وأحمد البدوي والشيخ سيدي المختار الكنتي.

وفي لبنان طبع بعض كتاب «الميسر» علي خليل لمحنض بابه ومؤلفات لكتاب متأخرين.

وفي قطر صدرت مؤخرا بعض ذخائر التراث مثل شرح محمد الأمين بن أحمد زيدان لمنهج الزقاق في قواعد الفقه وشرح حماد علي عمود النسب لأحمد البدوي. وكتابين لمؤلفين معاصرين : «في موكب السيرة» للدكتور محمد المختار بن اباه و«مواهب الجليل من أدلة خليل» للأستاذ أحمد بن المختار.

وفي سوريا صدر بعض مصنفات الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد بعناية من الأستاذ محمد محمود ابن ودادي.

وفي مصر، صدرت كتب مؤلفة أو محققة للشنقيطيين محمد محمود وأحمد بن الأمين، وبعض مصنفات ألمختار بن بونه والنابغه الغلاوي، وكذلك محمد بن المشري ومحمد بن الشيخ عبد الله.

وفي تونس صدرت بعض مصنفات سيدي عبد الله ابن الحاج ابراهيم، وكتب مؤلفة أو محققة، لمعاصرين : الدكتور محمد المختار ابن أباه والاستاذين أحمد بن الحسن وأحمد بن اميريك.

وصدرت في السنغال كتب لمحمد مولود بن أحمد فال وسيدي أحمد بن اسمه وأحمد بن حبيب.

وقد أحصى عباس الجراري بعض مؤلفات علماء المنطقة، المطبوعة في المغرب، نورد منها ونضيف اليها :

١ ـ أحمد بابا :
١. مجموع (سنة ١٣٠٧) به :
أ ـ ارشاد الواقف لمعنى نية الحالف،
ب ـ فتح الرزاق في مسألك الشك في الطلاق،
ج ـ افهام السامع لمعنى قول الشيخ خليل في النكاح بالمنافع،
د ـ أنفس الاعلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق.
٢. نيل الابتهاج بتطريز الديباج (سنة ١٣١٧).

٢ ـ المختار بن بون الجكني :
أ ـ وسيلة السعادة في نشر الشهادة،
ب ـ نظم في مسائل العقائد.

٣ ـ عبد القادر بن محمد سالم الشنجيطي :
ـ الواضح المبين في أصل علوم الدين.

٤ ـ محمد بن الصغير الشنجيطي :
أ ـ سرية الحق والانتصار والذب عن أولياء الله الأخيار (١٣١٩)،
ب ـ الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سل على الشيخ التجاني سيف الانكار (١٣١٩).

٥ ـ النابغة الشنجيطي :
ـ أرجوزة فيما تجب به الفتوى وما يعتمد من الكتب (بوطليحية).

٦ ـ محمد فال بن محمد بن أحمد العاقل الديماني :
ـ شرح قصيدة المختار بن بون الشنجيطي.

٧ ـ سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي الشنجيطي :
أ ـ نشر البنود على مراقي السعود (١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م)،
ب ـ هدى الأبرار على طلعة الأنوار،
ج ـ فيض الفتاح على نور الأقاح.

٨ ـ سيدي محمد بن حبت الشنجيطي :
ـ اختصار المواهب النحوية على الخلاصة المالكية والكتابات البونية.

٩ ـ الشيخ ماء العينين* :
أ ـ نظم في ٥٦ ص (١٣٢٢)،
ب ـ هداية المبتدئين ونفعة المنتهين أرجوزة في النحو (١٣٢٢)،
ج ـ إبراز اللالي المكنونة في الأسامي الظاهرة والمضمرة (١٣٢٢)،
د ـ المريد في الجهر بالذكر على المريد (١٣٢٢)،
هـ ـ ثمار المزهر : قصائد (١٣٢٤)،
و ـ الكبريت الاحمر (١٣٢٤)،
ز ـ منتخب التصوف (١٣٢٥)،
ح ـ سيف المجادل للقطب الكامل (بدون تاريخ)،
ط ـ منظومة في التوحيد (بدون تاريخ)،
ي ـ سيف السكت للمتعرض لنا في أول الوقت،
ك ـ مبصر التشوف على منتخب التصوف ـ جزءان ـ (١٣١٤)،
ل ـ الخلاص في حقيقة الاخلاص وبهامشه : مزيلة النكد عمن لا يحب الحسد (١٣١٩)،

* وزع الجراري قائمة مؤلفات الشيخ ماء العينين على أربعة أشخاص : الشيخ ماء العينين ومحمد بن فاضل ومحمد المصطفى بن محمد الفاضل وابن محمد فاضل، مسندا الى كل منهم طائفة من هذه الكتب وقد وحدنا القائمة وحذفنا الأسماء الثلاثة الأخرى فهي واقعة على مسمى واحد : محمد المصطفى، الملقب الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل.

م ـ تقييد يتعلق بحديث انما الأعمال بالنيات وبهامشه مزيلة النكد (١٣٢٠)،

ن ـ تبيين الغموض على نعت العروض بهامشه مفيدة النساء والرجال في بيان بعض ما جاز من الابدال (١٣٢٠)،

ص ـ الاقدس على الأنفس (شرح ورقات امام الحرمين) وبهامشه : المفيد مع شرحه تنوير السعيد في العام والخاص (١٣٢٠)،

ع ـ السيف والموسى في قضية الخضر وموسى بهامشه : الايضاح لبعض الاصطلاح سنة (١٣٢٠) واعيد طبع الايضاح مفردا سنة (١٣٢١)،

ف ـ مفيد السامع والمتكلم في أحكام التيمم والمتيمم،

ض ـ دليل الرفاق على شمس الاتفاق ثلاثة أجزاء،

ق ـ تنبيه معاشر المريدين على كونهم لأصناف الصحابة تابعين (١٣٢١)،

ر ـ حجة المريد في الجهر بالذكر على المريد ١٣٢١ وطبع (١٣٢٢) بعنوان المريد،

س ـ اظهار الطريق المشتهر على اسمع ولا تغترر : وبهامشه : قرة العينين في الكلام على الرؤية في الدارين (١٣٢١)،

ت ـ الصلات في فضائل بعض الصلوات وبهامشه :

١ ـ تبيان الحق الذي للباطل سحق،

٢ ـ مظهر الدلالات المقصودة في الفاظ التحيات،

٣ ـ نصيحة النساء (١٣٢١)،

ث ـ مغري الناظر والسامع على تعلم العلم النافع (١٢٩٤) وطبع ثانية (١٣٢١)،

خ ـ صلة المترحم على صلة الرحم (١٣٢٣)،

ذ ـ مفيدة الحاضرة والبادية بشرح هذه الأبيات الثمانية (١٣١٦)،

ظ ـ ديوان شعر (١٣١٦)،

غ ـ نعت البدايات وتوصيف النهايات سنة (١٣١١) ثم طبع في القاهرة (١٣٢٤)،

١٠ ـ محمد تقي الله بن محمد مصطفى (ابن الشيخ ماء العينين) :

ـ مذكرة الموارد بسيرة ماء العينين ذي الفوائد ط سنة (١٣١٦).

١١ ـ الشيخان بن محمد الطلبه :

ـ ديوان شعر جمعه ورتبه الأستاذ الداه بن محمد عبد الرحيم.

١٢ ـ محمد فال بن عبد الله :

ـ رشق السهام (في التصوف).

١٣ ـ محمد سعيد بن محمد محمود :

ـ تحقيق ديوان سيدي عبد الله بن محم.

٣ ـ الشعر والشعراء

في رحاب المحضرة، نبت الشعر نباتا حسنا وتقبله الناس قبولا حسنا وتعاطوه حفظا ونظما حتى قيل عن بلاد شنقيط أنها «بلاد المليون شاعر».

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الشعر في هذه البلاد، فهناك قرون مظلمة لم تفض بعد بشيء من أسرارها، ومن المرجح أن تكون البلاد قد عرفت فيها شعرا ذا قيمة لأن عمداء الشعراء المعروفين (سيدي عبد الله بن محمد ١١٤٤ هـ، محمد اليدالي ١١٦٦ هـ ومعاصرهما بوفمين) تركوا لنا شعرا كان قد تمعدد وبلغ أشده واستوى، فلا بد أن مرحلة طفولة شعرية قد سبقته.

ولدينا نتف قليلة من المعلومات تبرر هذا الافتراض، ففي عهد المرابطين كان الامام الحضرمي، المعلم الثاني في البلاد وقاضي مدينة آزوكي يكتب الشعر وله مقطعات ملحقة بكتابه «السياسة».

وفي القرن السابع الهجري كان محمد غلي، أحد بناة شنقيط ـ الثانية، يكتب الشعر، وما زال أحفاده، من قبيلة الاغلال يتداولون شعراء، في الدعاء والتضرع الى الله ينسبونه اليه[٤٧].

وفي القرن الحادي عشر، تقول الروايات الشعبية، أن ناصر الدين، امام الزوايا وقائدهم في «شرببه» جلد الحبيب بن بلا اليعقوبي وأمر أن يطاف به مصفدا لأنه نظم هذين البيتين :

رب حوراء من بني سعد أوس	حبها عالق بذات النفوس
جعلت بيننا وبين الغواني	والكرى والجفون حرب البسوس[٤٨]

لقد فقد كثير من انتاج عصر النهضة الأدبية في بلاد شنقيط (ق ١١ ـ ١٣ هـ) فلا جرم أن يكون الشعر قد وجد قبلئذ وفقد.

ويسوق محمد المختار ابن أباه دليلا على هذا الافتراض ثبوت مساجلات شعرية بين آلما العربي وأهل بارك الله لم يصلنا منها شيء ذو بال على قرب العهد (ق ١٣ هـ).

وقد رأينا سيدي عبد الله بن محمد يخاطب محمد الكريم بن الفاضل ردا على قصيدة له :

عدمنا قبل شعرك كون شعر   قوافيــه من الــدر اليتيــم

ولكن هذا الدر اليتيم لم يصلنا...

ورغم عوادي الزمن، فقد وصلنا من الشعر ما فيه بيّنة لدعوى المدعين أن المجتمع الشنقيطي كان مجتمعا من الشعراء.. لقد كان أبناء الزوايا وطلبة المحاضر عموما يتعاطون الشعر بيسر وبكثرة. وبه لا بالنثر كان معظم مساجلاتهم ومراسلاتهم في رحاب المحضرة، وكثيرا ما يكون سمر المحضرة ندوة شعرية يتبارى فيها الطلبة في رواية الشعر ونظمه، وقد يسر لهم الشعر حتى ظنوا أنهم يرضعونه من ثدي الأمهات. وفي ذلك يقول محمد فال بن عينين :

الطفل يولد فينا كابن ساعدة   منقحا دررا أصدافها ذهب
انظر الى مالنا من كل قافية   لها تنم شذور الزبرج القشب

وقد اتخذ هذا الشاعر من شاعرية قومه وفصاحتهم وبلاغتهم شاهدا على عروبتهم. وسما محمد بن السالم البنعمري بنسبه الثقافي الى قريش، مدللا بسليقته الشعرية وبأنه مطبوع على الفصاحة وان لم يتعلم النحو :

مصداق أني كريم العيص منتسب   الى قريش بيوت العز والجدل
نسجي القريض وإحكامي قوافيه   ولا أميز بين العطف والبدل

وكان محمد الحافظ بن فتى شاعرا مجيدا، ولم يكن يعني بالعروض، روى عنه أنه كان إذا نظم قصيدة يسأل الحاضرين في أي بحر هي(٤٩).

ويبدو أن الشعر ذا الاغراض الدينية (مديح، دعاء، توسل، وعظ...) كان أسبق الى الظهور، فكان في تمبكتو وولاتة وتشيت وغيرها شعراء مقلون ينظمون الشعر ويتأثمون من الاكثار منه أو من تسخيره لأغراض وجدانية غير دينية، وتجد في كتاب «فتح الشكور» نماذج من هذا الشعر تعود الى القرن العاشر وما دونه. وبهذا النمط من الشعر تميزت مدرسة ولاتة، ولكنه كان النمط السائد في كل الحواضر بما فيها شنقيط الى حد ظهور سيدي عبد الله بن محمد الذي طرق الغزل وأبدع فيه وفي غيره من الأغراض.

لقد أحيا ومعاصروه تقليد المقدمة الغزلية حتى سار متصوفة الشعراء على نهجهم، وكانوا يعللون مسلكهم هذا بأثر منسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم «لا تمدحوني بخصي شعركم».

لقد ضرب الشعراء الشناقطة منذ عهد سيدي عبد الله في أوداء الحياة، على أن نفرا منهم ظلوا أوفياء لميثاق الحواضر وعهد ناصر الدين، لا يحيدون عن الغرض الديني في شعرهم، فهذا

بدى (محمدي) بن سيدينا، يقول عنه صاحب الوسيط : «لولا دفاعه عن الصوفية لم ينظم بيتا واحدا»(٥٠).

وقد نظم الشناقطة في بحور الشعر العربي كلها أو جلها، وتفننوا في زخرفه وبهرجه، فكتبوا القصائد كلها حروف مقطعة، والقصائد تقرأ في البحرين الى جل البحور أو كلها، وكان ذلك لهم أحيانا مجال منافسة كما حدث في مساجلة مديحية المضمون والمقصود بها التعجيز جرت بين بعض الشعراء.

فقد نظم المختار بن المعلى قصيدة تقرأ في ثلاثة بحور فأجابها ابد (الكبير) ابن سيدي أحمد بقصيدة نسجت من عشرة بحور فرد ابن المعلى بأربعة أبيات في كل البحور أو جلها فكتب ابد بيتين في كل البحور(٥١).

وكتب الشيخ سيدي الكبير قصيدة تقرأ في ثلاثة بحور : الكامل، المديد، البسيط يمدح بها الشيخ سيدي المختار الكنتي(٥٢) وكتب ابن حنبل في الشيخ سيديا قصيدة مماثلة سماها «الزرقاء».

وكان القوم أهل ذوق في الأدب يعتامون اطايبه ويكثرون من حفظ ذخائره، وربما طمح أحدهم بطرفة الى ما أبدعه غيره، لا سرقة أو اختلاسا، ولكن اعجابا وغيرة في غير حسد ولا غل، فقد أعجب ابن الطلبة بقصيدة حميد بن ثور الهلالي :

ألا هيما مما لقيت وهيما   وويحا لمن لم ألق منهم ويحما

وأعجبته جيمية الشماخ بن ضرار :

ألا ناديا أظعان ليلى تعرج   فقد هجن شجوا ليته لم يهيــج

ولعل لامية أعشى قيس (ميمون بن قيس) قد راقته :

ما بكاء الكبيــر بالأطــلال   وسؤالي وما ترد سؤالــي

فنظم معارضاته الشهيرة للقصائد الثلاث(٥٣).

الميميــــة :

تأويه طيف الخيال بمريما   فبات معنى مستهاما متيما

والجيمية :

تطاول ليل النازح المتهيج   أما لضياء الصبح من متبلج

واللامية :

صاح قف واستلح على صحن جال   سبخة النيش : هل ترى من جمال؟

وقد أرجأ ابن الطلبة فرز هذه المسابقة وأوكل حكومتها الى أهل الجنة، فتمنى أن يجتمع والشماخ بن ضرار وحميد بن ثور في ملأ من أهل الجنة وينشدوا قصائدهم ليحكم بينهم هؤلاء، وكأن ابن الطلبة، وهو المعجب بهذين الشاعرين، المعتد بنفسه الواثق بأدبه لم يرض حكما من أهل الدنيا للفصل في مسابقة بين الفحول، لكن محمد يوسف مقلد تعجل الحكم الذي أجله ابن الطلبة فحكم على الشاعر الشنقيطي حكما لا يحط من مرتبته، وقد بدأ الاستاذ أحمد ابن الحسن يتعقب الحكم بانكبابه على دراسة شعر محمد ابن الطلبة كظاهرة متميزة في الأدب الشنقيطي خاصة والعربي عامة(٥٤).

أما أحمد بن الأمين، فقد حكم حكما نصفا في المعارضة الثالثة فقال أن قصيدة ابن الطلبة لا تقصر عن قصيدة الأعشى التي عدها محمد بن الخطاب في المعلقات(٥٥)، وأورد القصائد الثلاث للمقارنة، وقال ان جودة شعره وكونه لا يقل عن شعر العرب العرباء محسوسة لا تحتاج الى تصديق فلان وفلان(٥٦)، ولقبه بنابغة شنقيط(٥٧) وأعطاه أكبر نصيب في ديوان الشعر الشنقيطي.

ومن قبل أخذ سيدي عبد الله بن محمد برونق الأدب الاندلسي وجاذبيته، فلم يخف تأثره به واعتداده، فقدم رائعته الدالية في مديح صديقه محمد بن المولى اسماعيل سلطان المغرب، وقال انها :

عروب عروس الزي أندلسية   من الأدب الغض الذي روضه ندى

واطع على قصيدة على بن أحمد الشامي المغربي في المديح النبوي، ومطلعها :

دعوا شفة المشتاق من سقمها تشفى   وترشف من أسآر ترب الهدى رشفا

فعارضها في تواضع ولكن في روعة واقتدار بقصيدة مطلعها :

غرام سقى قلبي مدامته صرفا   ولما يقم للعذل عدلا ولا صرفا
قضى فيه قاضي الحب بالهجر مذغذا   مريضا بداء لا يطب ولا يشفى

وقد أبدع في القصيدة إبداع الشعراء ثم تواضع فيها تواضع العلماء فوفى سلفه حقه من التقدير :

قفوت بها الشامي في الفاء موقنا   بأني وان دوي إدراكه ضعفا

وعارض ابن حنبل بمقصورته :

أشاقتك بعد تولى الصبا   حمول بكرن بأدم الظبا

مقصورة أبي صفوان الأسدي :

نأت دار ليلى فشط المزار   فعيناك ما تطعمان الكرى

ويرى الأستاذ سيدي أحمد بن الدي أن ظهور كتاب الوسيط في مصر ابتداء من سنة ١٩١١، وفيه كل هذه المعارضات، قد يكون أوحى الى أحمد شوقي، وهو يومئذ في عز دولته الأدبية، بمعارضاته للبوصيري في همزيته وميميته.

وربما راقت للشاعر أبيات فتمنى لو كان قائلها، وقد اتفق للعم بن أحمد فال أنه أنشد بيتين لنفسه، فبلغه أن أحد الأدباء ادعى أنه اشتراهما منه بثمانية أبيات، فأثار ذلك حفيظة العم وأنشد قصيدته :

أخيرا هاجك البرق اليماني   وتذكار المعاهد والمغاني

وفيها يقول :

فبينا ننشد الأشعار قصرا   ونأخذ في المقايس والمباني
وننحو النحو والتصريف طورا   وأطوار نميل الى البيان
اذ! بفتى يقول شرى فلان   بذى الأبيات ذينك من فلان
... أليس الشعر طوع يدي وقلبي   وسهل الصوغ ويك على لساني؟؟
أصوغ البيت منه بلا عروض   على أقوى وأقوم الاتزان
وأنفي اللحن والتعقيد عنه   بذوقي والقريحة والجنان
وأرتقب المحاسن من بعيد   وأقتنص الشرود من المعاني
فأكسو اللفظ بالأفكار حليا   يذم له الثمين من الجمان(٥٨)

ولقد كان الشناقطة أكثر اهتماما ببعث القديم التليد منهم بالبحث عن الطريف الجديد، وذلك مبدأ النهضة الحديثة، فهي احياء وبعث قبل أن تكون ابتكارا وابداعا من غير احتذاء، على أن الشناقطة عاشوا هاجس التجديد وقدموا مساهمتهم في اغناء العروض العربي فأستدركوا عليه.

أما الدعوة للتجديد والشكوى من الاجترار والتقليد، فقد برزت جلية واضحة في قصيدة مطولة للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا يصور فيها أزمة الشعر والشاعر :

يا معشر البلغاء هل من لوذعي   يهدي حجاه لمقصد لم يبدع
اني هممت بأن أقول قصيدة   بكرا فأعياني وجود المطلع

لكم اليد الطولى عليّ أن آنتم ... الفيتمـــوه ببقعــــة أو موضع
فاستعملوا النظر السديد ومن يجد ... لي ما أحـاول منكـم فلـيصدع
وحذار من خلع العذار على الديا ... ر ووقفة الـزوار بيــن الأربــع
وافاضة العبرات في عرصاتهـا ... وتـردد الزفرات بيــن الأضلــع
وتذاكـر السمــار بالأخبـار من ... أعصار دولــة قيصر أو تبــع
والقينة الشنبـا تجـاذب مزهـرا ... والقهوة الصهبـا بكـأس متـرع
وتدافع الأبطـال في رهـج القتـا ... ل الـى النـــزال بكل لدن مشرع
فجميع هذا قد تداولــه الــورى ... حتى غدا ما فيه موضع أصبع
والشعر ـ ليس كما يقول المدعي ـ ... صعب المقادة مستـدق المهيــع
كم عز من فح بليــغ قبلنـــا ... أو من أديب حافظ كالاصمعــي
هل غادرت (هل غادر الشعراء) في ... بحر القصيد لطامع من مطمع
والحــول يمكثــه زهيــر حجــة ... أن القوافــي لسن طوع الامّــع
ان القريض مزلـــة من رامهـــا ... فهو المكلف جمع ما لم يجمع
إن يتبع القدمـــا أعــاد حديثهــم ... بعد الفشو وضل إن لم يتبع(٥٩)

وأما إثراء العروض العربي، فقد حدث من قبل مع محمد سعيد اليدالي الذي نظم موشحة مرقصة في المديح النبوي في بحر جديد، وقال في شرحها ان وزنها «ليس من الأوزان الستة عشر بزيادة المتدارك، إلّا أن أشبه البحور بها مخلع البسيط، والمتزنة به من أجزاء التفعيل (مستفعلات) وليس من أجزاء تفعيل الشعر المعروفة، وقد يدخله الخبن وهو حذف الثاني فينتقل الى (مفاعلات) وهو حسن لأنه أخف، ويدخله أيضا الطي وهو حذف الرابع فينتقل الى (مفتعلاتن)»(٦٠).

والقصيدة ذات ايقاع موسيقي منتظم جميل، يدرك ذلك كل من يملك الأذن الموسيقية وقد نظمها الشاعر بميزان بحور الشعر الشعبي الحساني التي تقوم على حساب المتحركات. وقوام هذا البحر خمسة متحركات للشطر.

وقد عني أحمد بن الأمين الشنقيطي نزيل القاهرة بتدوين أدب قومه، فألف فيه كتابه «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» وَضمنه قصائد ومقطعات لاثنين وثمانين شاعرا من أبرز شعراء البلاد خلال قرنين من الزمن، أورد لهم نحو ٤٥٠٠ بيت.

وجاء محمد يوسف مقلد فأخذ من «الوسيط» بعض ما ورد فيه، وأضاف اليه قصائد ومقطعات لخمسة وعشرين شاعرا وارتفع ديوان الشعر الشنقيطي المنشور بصدور كتاب «شعراء موريتانيا» لمقلد الى نحو ٦٠٠٠ بيت.

ثم جاء الدكتور محمد المختار بن أباه، فأورد في كتابه «الشعر والشعراء في موريتانيا» نحو ٦٠٠٠ بيت لم ترد في الوسيط موزعة بين ٩٤ شاعرا منهم ٥٣ لم يذكرهم صاحب الوسيط(٦١).

ووطأ لهذه المدونة بمقدمة تاريخية وتحليلية هي أهم ما نشر في هذا المضمار لحد الآن.

وقد عكف الأستاذ أحمد ابن الحسن، في عمل جامعي جليل على وصف الأساليب في الشعر الشنقيطي، مسجلا خطوة جادة على طريق دراسة هذا الأدب وتحليله، بعد أن كان جهد الباحثين منصبا على تدوينه وتوثيقه(٦٢).

لم يتردد الذين اطلعوا على الأدب الشنقيطي في التسليم بأن البلاد شهدت نهضة ثقافية، أدبية كبيرة، منذ القرن الثاني عشر الهجري خاصة.

وقد حطمت هذه النهضة لمن شهد آثارها، التصنيف التقليدي لعهود الانحطاط في الأدب العربي، وأثبتت أن الشناقطة حملوا لواء التجديد قبل أن تقدم مصر رجـالا أجلاء مثل البارودي، وأحمد شوقي.

وفي ذلك يقول عبد اللطيف الدليشي الخالدي ان من الشناقطة : «شعراء فحول لا يقلون مستوى عن أمثال المتنبي والبحتري وشوقي والرصافي».

وهو يعجب «لكثرة ما يجد الباحث من الأعداد المتزايدة من هؤلاء الشعراء الفحول المجيدين العريقين في الجزالة اللغوية والصور الشعرية الجميلة الرائعة المبتكرة في شتى الأغراض» ويستغرب «رقة أذواق وعواطف هؤلاء الشعراء العلماء الصوفية المتدينين وهم يحلقون في وصف الخصور والنحور والمطل والوصال والقدود المائسة والعيون الناعسة والارداف الثقيلة والخصور النحيلة»(٦٣).

ويقول طه الحاجري :

«ان الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخو الأدب العربي على اطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة (التي يغطيها كتاب الوسيط) فهو عندهم وكما تقضي آثاره التي بين أيديهم أدب يمثل الضعف والركاكة والفسولة في صياغته وصوره ومعانيه، اذ كانت هذه الصورة تمثل لنا الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الأباء، فهو في جملته أدب بعيد عن التهافت والفسولة»(٦٤).

وقد استطرد الأستاذ أحمد ابن الحسن وجهة نظر الحاجري ودعمها بالأدلة، وذكر بمعطيات تاريخية دقيقة، فابن الطلبة اليعقوبي محيي الشعر الجاهلي قد ولد سنة ١٧٧٤ أي قبل البارودي بأربع وستين سنة، وتوفي سنة ١٨٥٦، والبارودي ابن ثمان عشرة سنة وذلك قبل ميلاد أحمد شوقي بثلاث عشرة سنة. وابن الشيخ سيديا، وقد طرح في عينيته التي عرضنا لها آنفا اشكالية التجديد والتقليد ـ توفي سنة ميلاد أحمد شوقي (١٨٦٩).

وقبل هؤلاء جميعا، نذكر بريادة سيدي عبد الله بن محمد (ابن رازكة) محيي الشعر الأندلسي ـ وما هو بشعر انحطاط ـ الذي توفى سنة ١١٤٤ هـ/١٧٣١ م، أي قبل ميلاد البارودي بقرن وزيادة (١٠٧ سنوات).

واذ أوضحنا ذلك، فلا ضير أن نخلص مع الأستاذ أحمد ابن الحسن الى أن «الأحكام المتداولة في تاريخ الأدب العربي قائمة على تدوين ناقص ينطلق من المركز ويتجاهل الاطراف»، ويتساءل زميلنا : «هل يؤدي بنا هذا الى القول أن النهضة الحديثة في الأدب العربي بدأت في بلاد شنقيط ولكنها كانت ضحية مؤامراة صمت؟».

ذلك تساؤل وارد، ولكننا نميل الى انصاف الباحثين ومؤرخي الأدب، فهم معذورون ولو بالجهل «وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا» لنقص اطلاع كثير منهم على أدب الأطراف. وتلك ـ فيما يعنينا الآن ـ مسؤولية مشتركة، لم تتهيأ للشناقطة بعد، الفرص الكافية للنهوض بقسطهم منها.

أما مؤرخو الأدب العربي ودارسوه في المركز فهم مدعوون الى توسيع دائرة اطلاعهم ما أمكن، وإلى أن يضعوا نصب العين قومية التراث العربي الذي أطلقته اللغة العربية خاصة منذ ظهور الاسلام، من أسار الحدود والحواجز الجغرافية، فالثقافة العربية وطن واحد بلا حدود، والابداع يذرع أرجاء هذا الوطن فلا يغترب...

وقد تتبع محمد المختار ابن أباه رحلة الابداع هذه في حضارة الأدب العربي فاذا هي قد «نشأت وتفجرت في قلب الجزيرة قبيل ظهور الاسلام وبعده، وتفتقت أزهارها في العراق والشام، كان ذلك في القرن الرابع والخامس، وازدهرت في السابع والثامن في مصر وافريقية والاندلس، واحتضنها المغرب الاقصى في القرنين التاسع والعاشر، وقبل أن تعود الى المشرق من جديد فان صحراء شنقيط من منحنى النيجر الى ضفاف الأطلسي قد حملت لواءها وأعادت لها نضرة الشعر الجاهلي ومتانة أسلوبه، وزخرفة الآداب العباسة ومالها من حسن البيان وغذتها بقيمها الروحية فانصهرت عناصرها في أدب متكامل وغني، يظلمه أبناؤه من موريتانيا اذا لم يجتهدوا في التعريف به ويظلمه العرب اذا أعرضوا عن التعرف عليه»(٦٦).

ونجد مثل هذه الدعوة للعناية بالأدب الشنقيطي عند الأستاذ عبد اللطيف الدليشي الخالدي الذي يدعو الى ادخال الأدب الشنقيطي في برامج الدراسة في المدارس العربية والاسلامية(٦٧).

الفصل الثاني

سفراء المحضرة

كانت المحضرة مركز اشعاع ثقافي وروحي شمل تأثيره مناطق واسعة من افريقيا ولم يقصر عن البلاد الاسلامية في المغرب والمشرق العربيين، وفي آسيا.

وقد انطلق اشعاع المحضرة في اتجاهين، جنوبي وشمالي شرقي، فكان رسل المحضرة في الجنوب فاتحين مدرسين ودعاة الى الله مربين، وكان سفراؤها في المغرب والمشرق أقطاب حركة علمية نشطة، يلتف حولهم العلماء وطلبة العلم اعجابا بما أوتوا من ملكة في الحفظ والرواية والدراية.

وسنعرض لعطاء المحضرة في المحورين، بادئين بأثرها في افريقيا...

١ ـ في افريقيا

كان للمحضرة ـ كما أسلفنا ـ دور كبير في نشر الاسلام، لا في بلاد شنقيط وحدها وانما في افريقيا الغربية أيضا، فقد كان العلماء والدعاة الشناقطة يجوبون البلاد الافريقية المجاورة فيستقطبون من يلقون بالقيم والأخلاق الفاضلة والشعائر التي يؤدونها وبأحاديثهم الى الناس وتعليمهم ووعظهم اياهم.

وكان الأمراء الأفارقة الذين يعتنقون الاسلام يتخذون شيوخا من البياضين (العرب الشناقطة) يعلمونهم أحكام الدين ويقرئونهم القرآن ويؤمون بهم الصلاة ويبذلون النصح للمسلمين.

وكان لحركة القوافل بين حواضر الصحراء وبلاد السودان أثر كبير في هذا التواصل الروحي العميق، الذي نجد له نموذجا متميزا في العلاقة بين مدينة «ولاته» وحاضرة السودان الغربي «تمبكتو» فقد كان العلماء يتنقلون بين المدينتين، وحين عاث «سني علي» فسادا في

بلاد السودان احتمل الف من العلماء فلجؤوا الى ولاته، فكانت لهم حصنا حصينا وحمى منيعا. وكان لودان هي الأخرى أثر كبير على الحياة العلمية في تمبكتو، فقد تخرج من محضرة وادان، العلامة السوداني أحمد بابا التمبكتي، ومنها انحدر قومه «الاقيتيون» وهم بيت علم وقضاء كان له دور كبير في تمبكتو.

والحق أن التجار والدعاة الشناقطة أولئك الجنود المجهولين الذين لم ينضووا تحت لواء دولة ذات منعة، ولم يسيرهم سلطان، ولم ينتظموا في جيش أو خلف قائد بعينه، هم الذين واصلوا حركة الفتح في افريقيا واستطاعوا، زرافات ووحدانا، أن ينشروا الاسلام في مناطق واسعة من القارة، وليس لهم من العدة والسلاح إلّا الحكمة والموعظة والأسوة الحسنة، وقد كابدوا في ذلك من المشاق القدر الكبير.

يقول آما دو ديا :

«لم يدخل الاسلام غرب افريقيا عن طريق الغزو الامبريالي ولا عن طريق شواطىء النيل، وانما عن طريق الصحراء التي اعتبرت فيما بعد «بحرا لا سبيل لعبوره»(٦٨).

ويقول بيرلابات Perelabat في مشاهدات رحلته في الفترة من ١٦٧٠ الى ١٦٩٠ أن «المرابطين (العلماء) البيضان هم الذين نقلوا المحمدية (الاسلام) الى الزنوج، ولهذا كان لهم نفوذ قوي على هذه الشعوب التي تنظر إليهم كأساتذة مرشدين في كل ما يتصل بالدين وتستشيرهم في غالب شأنها»(٦٩).

ويتحدث فرنسيس مورفي في كتابه «رحلات إلى ربوع افريقيا» الصادر سنة ١٧٣١ م عن مجموعات على جانبي النهر، ذات بشرة سمراء، «تشبه العرب» ومعظمهم يتكلم اللغة العربية لأنهم يتعلمونها في مدارسهم ولأن القرآن أيضا وهو شريعتهم، مكتوب بهذه اللغة»(٧٠).

ويذكر جلبر فييارد Gilbert Vieillard سلسلة الدعاة الأفارقة (Funtankobé) الذين تخرجوا من محاضر الحوض (في بلاد شنقيط) وانتشروا يدعون الى الاسلام في فوتاتور وبونود ولابي وصولا إلى «تيمبو»(٧١).

ولاحظ غولبري Golberry في رحلته الى السينغال (١٧٨٥ ـ ١٧٨٧) أن البيضان يجوبون افريقيا بحماية الأمراء الزنوج، وهم يسوقون قطعان بقر تصل إلى أربعمائة رأس(٧٢).

والغالب أن يتخذ الشناقطة التجارة وسيلة للكسب الحلال وأداة لتيسير سبل الدعوة في افريقيا، وقد اعترف الفرنسيون بأن كل شنقيطي هو داعية بالفعل «فالبيضان جميعا وإن لم يكونوا دعاة مختصين، فانهم بادارة سبحاتهم، بصلواتهم وابتهالاتهم الدينية هم رجال دعوة».

وفي القرن التاسع عشر، وبالذات في حدود سنة ١٨٦٠ م، بدأ الاسلام ينتشر في داكار (عاصمة السينغال اليوم)، وذلك بعد اعتناق مادنيامادين Mandiama Diene الاسلام بفضل جهود أتابع الشيخ سيديا الكبير الذين كانوا ينشرون الاسلام في المنطقة(٧٣).

وفي أوائل القرن العشرين لاحظ الفرنسيون أن «المرابطين» البيضان ينشترون بأعداد كبيرة في قرى السينغال ومدنه كافة، حيث يديرون «مدارس بيضانية» (مدارس القرآن واللغة العربية)، وقال بول مارتي :

«انهم دعاة أقوياء للاسلام»(٧٤).

«ويمكن أن نقرر كقاعدة عامة أن الاسلام دخل السينغال وانتشر فيه بفضل «المرابطين» البيضان (المشاييع والعلماء) وأتباعهم، وأنه اليوم إما مباشرة أو بشكل غير مباشر خاضع للقيادة الدينية لهؤلاء المشاييخ»(٧٥).

ويرى بول مارتي أن جميع التحولات التي حدثت في السينغال خلال القرن الثامن عشر مثل ثورة الامام عبد القادر سنة ١٧٧٥، وقيام دولة الأئمة الاسلامية في فوتا على أنقاض دولة السيراتيك Siratiks التكرور، واعتناق «البراك» ـ ملوك والو ـ للاسلام وغيرهم...» كل هذه التحولات الدينية والسياسية هي ثمرة عمل بعثات الدعاة التي كان العلماء الشناقطة يرسلونها الى المنطقة، وهي كذلك ثمرة غزوات بني حسان البيضان بنسبة ما».

ويدلل بول مارتي على النفوذ الشنقيطي في السينغال باسم البلد «حتى كلمة السينغال التي نعيّن بها البلد والتي أخذها عنا السينغاليون فقد فرضها علينا البيضان فسنغال أو سنغان اسم عربي يطلقه البيضان على هذه البلاد، أما الاسم الولفي للمنطقة فهو «كايور وجولوف»(٧٦).

وقد أكد ذلك الأستاذ سيدي الأمين نياس، في كتاب له تحت الطبع عن الأدب في السينغال.

والواقع أن ثقافات افريقية الغربية قد انطبعت بطابع الاسلام، صرفا ولغة وعلوما، منذ القرن الرابع الهجري (١٠ م) وان لم يتسع المدد الثقافي العربي ـ الاسلامي في المنطقة إلّا في القرون الأخيرة.

وكان لعلماء الصحراء ومشاييخها في كل العهود القديمة والحديثة دور متميز في نقل الاشعاع الثقافي الاسلامي الى الشعوب السمراء، اذ يؤكد أغلب المؤرخين أنه بجهودهم تغلغلت الثقافة العربية في افريقيا العربية قديما «وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول الافريقية الاسلامية بالاضافة الى أنها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب، وكان للعرب في عاصمة غانة القديمة (وهي على الأرجح كومبى صالح، الموجودة في شرق بلاد شنقيط ـ موريتانيا) اثنا عشر مسجدا ألحق بكل مسجد

مدرسة لتعليم اللغة والفقه الاسلامي ثم أصبحت اللغة العربية لغة التدوين في شتى أنحاء القارة»[٧٧].

لقد توسعت اللغة العربية فامتزجت بلغات الفلان (ينتشرون في أنحاء غرب افريقيا والبمبارا بمالي والولوف بالسينغال وغامبيا) والصوننكيه، ولغات النيجر والهوسا والماندنجو، كما أثرت على اللغات السواحلية والصومالية، ولغة الدناكل في أثيوبيا وأريتريا.

فقد اتجه حملة العلم من الافارقة نحو الكتابة لتبليغ أحكام الاسلام وعلومه فكتبوا باللغة العربية، واستخدموا الحرف العربي للكتابة بلغاتهم، وساعدت اللغة العربية والاسلام في انتشار الشعر في اللغات الافريقية،«ومع انتشار الاسلام تنامى العطاء الأدبي في اللغات الافريقية، وكثرت المصنفات الافريقية المكتوبة بالعربية أو لغات السونغاي والماندينغ والجرمه والفلان».

ويسوق دانيال مايير Daniel Mayer عدة أسماء وأمثلة شاهدة على هذا التأثير[٧٨] ويرى الأستاذ أحمد نياس استنادا الى مصادر تاريخية محلية أن «الولفية» كبرى لغات السينغال، هي لغة عربية الجذور حديثة المنشأ، ولدت في عهد الأمير انداديان الذي ينتمي الى أصول افريقية وصنهاجية معا، وقد سعى هذا الامير القوي إلى إيجاد لغة مشتركة توحد شتات القبائل الافريقية التي تتحدث لغات شتى، ونجح في مسعاه وتشكلت «الولفية» مزيجا من اللهجات الافريقية المحلية واللغة العربية التي غذتها بنحو ٥٠٪ من مفرداتها، إلّا أن تحريفا شديدا أدرك جل هذه المفردات.

ولكن، هل نأسى على ذلك، ونحن اليوم نرى وشائج اللغات الاسلامية بالدين تنقطع تحت ذرائع شتى؟

لقد دشن مصطفى كمال أتاتورك هذه القطيعة باختيار الحرف اللاتيني أداة لكتابة اللغة التركية بدل الحرف العربي وتبعت ذلك عملية غربلة أجليت بموجبها ١٣٠٠٠ مفردة عربية من اللغة التركية، وامتدت العدوى من بعد الى الاندونيسية، واستشرى الداء فوصل افريقيا حيث كتبت السواحلية سنة ١٩٤٨ والصومالية سنة ١٩٧١ بالحروف اللاتينية، وترعى اليونسكو ووكالة التعاون الثقافي والتقني للدول الناطقة بالفرنسية عدة تجارب لكتابة بعض اللغات الافريقية الاسلامية بالحرف اللاتيني.

وقد أنشأت موريتانيا معهدا لهذا الغرض سنة ١٩٨٠ ولكن الأفارقة المسلمين الذين انصهرت دماؤهم بدماء العرب في موريتانيا على مر القرون، وامتزجت دماؤهم بدمائهم على سوح الجهاد من أيام أبي بكر بن عامر ووارجبي إلى أيام ناصر الدين وأئمة فوته، الامام عبد القادر وسليمان بال واضرابهم الى أيام الشيخ عمر بن سعيد الفوتي والشيخ أحمد بن بدي والشيخ ماء العينين والشيخ حماه الله... هؤلاء الأفارقة المسلمون المتشبعون بثقافة الاسلام

وروحه يشكلون مع اخوتهم في بلاد شنقيط ضمانة كبيرة لمواجهة التغريب ومددا متصلا للغة العربية والثقافة الاسلامية في البلد وخارجه.

وينبغي أن نشير في هذا السياق الى أن الاستاذ المرحوم كبل علي ديالو (أمين عام سابقا لوزارة العدل والتوجيه الاسلامي) كان قد درس كتابة اللغات الشعبية الافريقية ووضع لذلك نموذجا حديثا بالحروف العربية.

وتواصل مدارس «الفلاح» التي أسسها الحاج محمودبا، بجدارة كبيرة وجهد يستحق التقدير نشر الثقافة العربية الاسلامية في اطار واسع يشمل عددا من الدول الافريقية.

ذرية بعضها من بعض

ساعدت الشناقطة في فتحهم لافريقيا،وهم على فترة من الأحكام، حالة التواصل ووشائج القربى والجوار التي تربط سكان الصحراء بجيرانهم الأفارقة من قديم. وقد نسج الجوار الجغرافي خيوط ألفة بين الفريقين. وتطورت هذه الألفة الى علاقة عائلية في بعض الحالات.

فقد امتزج الدم العربي الصنهاجي بالدم الافريقي منذ عهود مبكرة... وحرصت الشعوب والقبائل الافريقية التي اعتنقت الاسلام على تأكيد نسبتها العربية هذه وارتفعت بها أحيانا الى أصول من مصر أو سورية أو الجزيرة العربية أو ليبيا، واندعت الى بعض الفاتحين الأوائل مثل عقبة بن نافع.

وتنتسب أسرة انداديان انجاي، أول ملوك «والو» إلى أمير المرابطين الى أبي بكر بن عامر من زوجة افريقية[٧٩].

وينتسب الناطقون بالهالبولار (التكارير والفلان) المنتشرون حول ضفاف نهار السينغال ومنها الى نيجيريا الى أصول عربية، وهم مجموعة بشرية ذات تاريخ عريق وإسهام جليل في نشر الاسلام والثقافة العربية، وألوانهم فاتحة تميل الى السمرة، يدرك من يراهم أن دمهم مزيج من دماء الافارقة السود والعرب البيضان. ويعتقد بعض المؤرخين أن الفلان منحدرون من صعيد مصر[٨٠] ومنهم قبيلة تعرف عند الشناقطة باسم (أهل راشد) وتعرف عند التكارير باسم «دمنتاب» نسبة الى قرية من قراهم (دمت) وفي تراثهم الشعبي أن (دمت) تحريف لكلمة (دمشق) أو (دمياط)، ذلك أن أسلافهم هاجروا من دمشق وتوقفوا في أرض فلسطين، ثم في بورسعيد فالاسكندرية، فتونس، وصولا الى مراكش. وحين وصلوا بلاد السوس، افترقوا فرقتين : فرقة توجهت صوب السودان (مالي) فنزلت أرض «ماسي» وبها سموا «ماسنة»، وفرقة توجهت الى مدينة شنقيط فمكثت بها أربع سنوات ومنها الى «تندكسم» وضواحيها في أرض «القبلة» (جنوب البلاد) حيث مكثوا قرنا ثم واصلوا رحلتهم باتجاه النهر فأخذوا اسمهم في قرية «دمت»[٨١].

ومنهم اليوم بيوتات علم جليلة في قرية انتيكان في جنوب البلاد، وفيهم يقول أحد الشعراء :

قوم لدى قرية انتيكان أصلهـــم   من ذروة العرب من قاص ومن دان[٨٢]

والى عقبة بن نافع الفهري تنتمي أسرة «آل نياس» التي برز فيها الشيخ ابراهيم (ت ١٩٧٥) عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي، وكان والده الحاج عبد الله من أجلاء علماء السينغال. وكان أخوه الحاج محمد يقول : «نحن عرب سودتنا الامهات» وفي هؤلاء يقول مادحهم :

أبناء انياس قد دلت شمائلهم   بأن عنصرهم ينمى الى العرب[٨٣]

ومن الجانب الآخر، تجد قبائل عربية في بلاد شنقيط ذات أصول افريقية، فقد ذكر والد بن خالنا في كتابه عن الأنساب أن أحد أبناء الشريف سيدي الياس الولاتي، خرج الى أرض السينغال وتزوج بها احدى النساء الافريقيات، ولم تكن مسلمة، فولدت له ولدين. وكانت ذريتهما على دين أمهما، الى أن ولد عبد الله دينغ (دينغ = العالم) فكان على دين الجد مسلما عالما، وولد له مودى مالك، فنشأ نشأة دينية ونال حظا من العلم، وقد توجه مودى هذا الى بلاد شنقيط، فأقام بمنطقة القبلة، يدرس القرآن في قبيلة أولاد ديمان، وكان ذلك في القرن الحادي عشر للهجرة ـ السابع عشر للميلاد[٨٤].

ومن صلب مودى مالك هذا، خرج علماء كثر منهم ابنه الفقيه الصالح مينحنا (ت ١١٥٠/١٧٣٨) الذي درس عليه سيدي عبد الله ابن محمد، وذكره في شعره بما يفيد علمه، بل انه اعتبره أبرز علماء البلد حين سأله السلطان مولاي اسماعيل عن أعلم معاصريه أو خيرهم[٨٥].

ومن ذرية مودى مالك وابنه مينحنا اليوم عشير كبير من بيوتات العلم في البلاد.

وقد وصل امتزاج الدماء الى بيوت الامارة على ضفتي نهر السينغال، فقد تزوج أمير الترارزة محمد الحبيب بن أعمر ابن المختار، وريثة عرش براك (ملك) والو الاميرة جمبت Diombott وولدت له ابنه الأمير علي، فحلت الدبلوماسية محل العنف في العلاقة بين العرب وجيرانهم السود.

وكانت حركة الاتصال، جيئة وذهابا، نشطة عبر النهر. وربما أفضت الى الاستيطان فقد هاجرت مجموعات شنقيطية فعبرت النهر واستوطنت السينغال، وكان من أقدمها هجرة أحياء من أدولحاج والترارزة والبراكنة وادوعيش اكمليلن والمثلوثة وتاشدبيت والركاكنة التحق بهم طوائف من أولاد أبي السباع وكنته وادوعلي والشرفاء القلاقمة وغيرهم.

وقد انصهر كثير من هؤلاء في المجتمع السينغالي الافريقي حتى «فقدوا دمائهم العربية الخالصة، ولكنهم أعطوا مقابل ذلك الاسلام»[٨٦] ونشروا العربية.

ولعل أهم هذه الهجرات وأقدمها هجرة ادولحاج. تقول بعض الروايات أن الحاج عثمان أحد مؤسسي وادان، وصل في ترحاله الى منطقة السينغال وأسكن بها من ذريته منذ القرن السادس الهجري[٨٧]. وكانت أحياء من هذه القبيلة تنتقل جنوب النهر في القرن السابع عشر الميلادي... وقد استطاع الحاجيون أن يقيموا علاقات وثيقة مع ملوك «والو» ورعاياهم.

ويترجم اللقب الذي أطلقه عليهم السينغاليون عمق التفاهم الذي ساد بين المجموعتين فما زال أفراد هذه القبيلة الى اليوم يلقبون في السينغال «دار مانكور» وهي كلمة تعني «الاتحاد».

ومن أبرز علماء هذه القبيلة الشنقيطية حمدي بن المختار بن الطالب أجود (ت نحو ١٢٧٩/١٨٨٠)، وقد تجول كثيرا في مناطق افريقيا المجاورة وترك صدى طيبا لعشيرته في فوتا ووالو[٨٨].

وقد امتزج الدم العربي من خلال هذه القبيلة بالدم الافريقي فتكونت في السينغال مجموعات بشرية مزدوجة الانتماء منها دار ماكور، سوغوفارا، دياخومبا في اقليمي ديولوف، وكايور، وأسست بطون أدولحاج عدة قرى في السينغال منها ودان (سمية المدينة التاريخية منطلقهم) وكرباتي وانغابيل وخاديي.

ومن محاور الهجرة العربية الحديثة مدينة كولخ، مركز دعوة الشيخ ابراهيم ابن الحاج عبد الله نياس (ت ١٣٩٥/١٩٧٥) أبرز الشخصيات الدينية السينغالية وأوسعها صيتا خارج السينغال، فقد اجتذب بعلمه وعرفانه أعدادا كبيرة من الشناقطة ومن بيوت العلم بالذات، أقام بعضهم معه وصاهره عدد منهم. وما زالت أعداد كبيرة من أبناء البلد تتردد على مدينته مرتين أو أكثر في السنة. وفيها ينتظم «مربد شعري» سنوي يشارك فيه عشرات الشعراء أغلبهم شناقطة تخليدا لذكرى المولد النبوي.

وقد اتخذ الشيخ ابراهيم من العلماء الشناقطة أئمة في مسجده الجامع ومدرسين للقرآن وغيره من علوم الدين واللغة، وأرسل اليهم أبناءه وأبناء مدينته للتعلم ومدينته من المناطق السينغالية التي تعربت تعربا شبه كامل، فلا تكاد تجد فيها فردا (طفلا أو شيخا أو امرأة) إلّا وهو يتحدث اما بالعربية الفصحى ـ وهي الأغلب ـ أو اللهجة الحسانية (عامية بلاد شنقيط).

وقد لاحظت ذلك مجلة «العربي» الكويتية في استطلاع لها عن السينغال[٨٩].

مدرسون ومربون شناقطة

ظل حضور الشناقطة وتأثيرهم في المناطق الافريقية المجاورة يقوى ويتنامى على مر القرون، فكان الاسلام يزداد بهم انتشارا جيلا بعد جيل، منطقة خلف منطقة وكانوا بانتشار الاسلام يزدادون قوة نفوذ وتأثير وكثافة حضور.

وقد تربى علماء ومجاهدون وأعيان أفارقة كثر في المدرسة الشنقيطية، منهم من جاء الى البلاد، فاستقبله العلماء في محاضرهم وحضرانهم وعلموه مما علمهم الله، ومن العلماء الشناقطة من جال في أقطار افريقيا، أو انتدب من ينوبه للدعوة للاسلام ونشر العلم.

وقد تلقى الامام عبد القادر كان زعيم دولة الأئمة في فوتا، العلم عن «مرابطة» شنقيطية هي الشيخة خديجة بنت العاقل، ورد ألفا ابراهيم تورى، الجميل للاسرة، فلقن أخا العالمة وتلميذها، أحمد ابن العاقل العلم الباطن(٩٠)، وأخبرني الأستاذ أحمدُ الطلبة راويا عن الأستاذ محمد الكبير العلوي، أن الامام عبد القادر هذا أخذ الطريقة القادرية أيضا عن عبد الجليل بن الحاج.

وللحارث بن محنض الشقروي، الفضل في نشر العلم في فوتا جالون، فقد أخذ عنه عدد من علماء المنطقة، منهم الحاج أحمد مختار ساخو، وأحمد مختار آن الذي تتلمذ عليه الحاج مالك سي وتيرنو مودي بوبكر والشيخ محمد بابا بن الصديق تله.

وكان لأحمد بن أمين بن الفراء التندغي «منزلة عظيمة عند رؤساء السودان، وقد تولى القضاء لتين رئيس بول»(٩١).

وقد التمس الأفارقة عند الشناقطة أيضا العلم الباطن والطرق الصوفية، وقد أخذ العالم المجاهد الشيخ عمر بن سعيد ـ زعيم دولة فوتا الكبرى التجانية عن سيدي مولود فال الشنقيطي.

وأخذ الشيخ أحمد بمب القادرية عن الشيخ سيديا (بابا) في تندوجه وتلقى العلم هناك، ولا ينافي ذلك استقلال الشيخ السينغالي من بعد بالطريقة المريدية.

وأخذ الحاج مالك سي عن محمد عالي بن محنض ودرس في محاضر العلويين، وهو باني ضريح سيدي مولود فال آنف الذكر (في تم بويعلي)(٩٢).

وللشيخ ابراهيم بن الحاج عبد الله نياس الكولخي اجازات تلقاها من علماء شناقطة: محمد محمود بن محمد الصغير بن أحمد الصغير التيشيتي، والحاج عبد الله بن الحاج العلوي، ومحمد الكبير بن أحمد بن محم بن العباس، والشيخ محمد سعيد بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الحافظ(٩٣).

وقد أدى الدور الأكبر في التعليم والتربية والدعوة في افريقيا رجال من الاسر الكنتية والفاضلية ومن العلويين وآل الشيخ سيديا، اضافة الى الشيخ أحمد حماه الله الذي قاوم الاستعمار ودعا الى الله فالتفت حوله آلاف مؤلفة من الأفارقة من أقطار شتى.

ويذكر الأستاذ أحمد بن الطلبة، أن الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد، كانا يتبادلان المراسلات مع المجاهد عثمان دان فوديو مؤسس دولة سوكوتو وأبنائه بنيجريا، ويبديان لهم الرأي فيما يعرض من شئون الاسلام والمسلمين(٩٤).

كذلك كان الشيخ سيدي المختار على صلة طيبة بأحمد لبو مؤسس دولة ماسنا بمدينة «حمد الله» (في مالي)، فلا غرو أن نجد حفيد الشيخ الكنتي، سيدي أحمد البكاي يساند قادة ماسنه في وجه الشيخ عمر الفوتي(٩٥)، وان لم يعدم الشيخ عمر سندا من نفس الأسرة الشنقيطية من خلال حماده بن سيدي المختار(٩٦).

وفي السينغال ظهر الشيخ أبو محمد بن بونعامة الملقب «الشيخ بوكنته» فكان له أتباع بلغ عددهم أوائل القرن العشرين نحو ٥٠,٠٠٠ نسمة، ينتشرون في أرجاء السينغال وغامبيا.

وقد أسس الشيخ بوكنته في السينغال قرية حمله اسمه (كربوكنته = دار بوكنته) قرب مدينة تيبوان، وأقام هناك الى أن توفى سنة ١٩١٤(٩٧).

وقد أخذ عن الشيخ سيديا الكبير عدد من أئمة (أمراء) دولة فوتا الاسلامية وخصوصا الامام بيرام (ابراهيم) وابنه الامام محمد (ت ١٨٦٦) وابنه ابر الماني (ابراهيم الامام)(٩٨).

واتسع نفوذ الشيخ ليشمل جميع أنحاء السينغال وغامبيا وبعض الأقطار الافريقية الأخرى. وكان للشيخ سعدبوه دور نشيط في نشر الاسلام في السينغال وغامبيا وغينيا بساو وغينيا كوناكري(٩٩).

وقد ارتحل الشيخ المحفوظ بن الطالب أخيار بن الشيخ محمد فاضل من بلاده وجال في عدد من أقطار افريقيا قبل أن يستقر في قرية بناكو Binako في منطقة كازامانس بالسينغال.

وكان قد مكث سنتين ينتقل بين مدن وقرى غينيا بيساو، فزار بافتا Bafta وبريبان Briban وبيسنكي Bissinki ودمباسو Dambasso ومانسابا Mansaba وكنتوفة Kantoufa وبيجيني Bidjini وباهان Pahane، وأكرمه شيخ هذه القرية مامادو باتي Mamadou Patté وأخو زعيم غينيا بيساو مودي سلوكايادا Modi Sello Kayada وأوكل اليه مهمة التدريس، ولكن البرتغاليين منعوا الشيخ المحفوظ من الاقامة في المنطقة خصوصا أن الزعيم مودي، الذي كان على صلة بالشيخ المحفوظ، قد ثار على السلطات الاستعمارية، وعندئذ أمر الحاكم البرتغالي بوضع الشيخ رهن الاقامة الجبرية، وتحت رقابة مشددة في احدى القرى الصغيرة، وفي النهاية اضطر الشيخ المحفوظ لمغادرة غينيا بيساو، فتركها الى السينغال(١٠٠).

وقد امتد نفوذ الشيخ التراد بن العباس من بلاده الى مالي وكازاماس وغينيا وسراليون، وكان زعماء بارزون في هذه البلاد يراسلونه ويوفدون اليه مندوبيهم، فتقوم السلطات الاستعمارية بتفتيشهم وقراءة البريد الذي يحملونه(١٠١).

وكان لمشاييخ العلويين : الشيخ محمد الحافظ ومحمدي بن سيدينا الملقب بذي وسيدي مولود فال ومحمد المختار بن أحمد فال وأحفادهم نصيب وافر من العمل الاسلامي في المناطق الافريقية المجاورة، وحسبك أن أكبر الطوائف التجانية في مطلع القرن العشرين أتباع الشيخ عمر الفوتي وأتباع الحاج مالك سي يدينون بالتلمذة لمشاييخ العلويين لأخذهم عنهم مباشرة أو لتتلمذ مشاييخهم وآبائهم عليهم(١٠٢)، وتنتشر هاتان الطائفتان في السينغال ومالي وعموم افريقيا الغربية(١٠٣)، وكان لجدود بن محمد الكبير ومحمد بن المختار، دور هام في نشر التجانية افريقيا، خاصة السودان ونيجيريا.

* * *

لقد أدرك الفرنسيون، منذ قرون قوة الحضور الشنقيطي في البلاد الافريقية، وفي السينغال بالذات، وقد أسلفنا بعض شهاداتهم عن ذلك.

وفي القرن التاسع عشر، كانت فرنسا تحكم قبضتها على السينغال وتتطلع الى بلاد شنقيط، تطلب الصمغ والنفوذ، وكانت تلقى العداء من البيضان، لحد المواجهة الساخنة ولكن الحكام الفرنسيين رغم هذا العداء لم يستطيعوا تجاهل الاسلام والشناقطة في السينغال.

لقد اضطر فيدرب Fiadherbe (وهو قائد الحرب الفرنسية ضد أمير الترارزه، محمد الحبيب) أن يرضخ للاسلام في السينغال، فيعتمد القضاء ويستعين بالعرب الشناقطة فيه ويسمح ببناء المساجد.

كان راعى المصالح الاستعمارية مضطرا الى هذا المسلك، ولكن الفرنسيين لم ينصفوه ولم يرضهم أن ينتظم على عهده «قضاء اسلامي ـ عربي ـ بيضاني»(١٠٤).

وكان الشناقطة قد استغلوا الظرف الاستعماري بذكاء وحيوية، فاستفادوا من وسائل المواصلات الحديثة لنشر الاسلام عبر افريقيا. ولاحظ رجال الادارة الفرنسية هذا النشاط بقلق، فأكدوا أن الماشييخ البيضان قد أقبلوا على «غزو افريقيا» في ظل الاستعمار. وشملت فتوحاتهم هذه السينغال وغامبيا وغينيا وساحل العاج والداهومي والسودان (مالي) مستغلين «ظروف الأمن التي حققها الفرنسيون»(١٠٥).

وقد حاول بول مارتي Paul Marty أن يضع حصيلة لهذه الفتوحات، فأحصى في السينغال وحدها مئات الاعلام الذين أسلموا ـ أو تعلموا ـ أو تربوا، على يد العلماء الشناقطة.

وفي ذلك يقول فهمي هويدي (العربي ـ ربيع ١ ـ ١٤٠٢) :

«كان للموريتانيين دور لا بد أن يذكر في تعزيز صمود اللغة العربية داخل السنغال (...) وقد ظل هؤلاء الموريتانيون بمثابة الدعامة الاساسية التي قامت عليها مختلف خنادق الدفاع عن اللغة العربية أمام الغزوة الاستعمارية الشرسة».

٢ ـ في البلاد العربية

امتد اشعاع الشناقطة الى البلاد الاسلامية العربية والآسيوية. فكان لهم حضور كبير في السودان. وحدثني أحد الصوماليين أن أسرة من الشناقطة، من أهل العلم، حكمت في الصومال مدة سنتين قبل قرن وزيادة. وكان للشناقطة حضور في المغرب وتونس وليبيا ومصر والأردن وسوريا وتركيا والهند واليمن والعراق، فضلا عن حضورهم المتميز في الديار السعودية (الحجاز ونجد) التي كانوا يفدون عليها بكثرة لأداء فريضة الحج ولزيارة سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه البلاد وغيرها أصبحت كلمة **شنقيطي** دالة لا على الموطن والنسبة اليه فقط، وانما على العلم والحفظ والمعرفة قبل النسبة وبعدها. ورأينا بعض أعلام الفكر مثل محمد رشيد رضا وطه حسين وأحمد حسن الزيات في مصر، يتحدثون باعجاب عن هؤلاء الشناقطة، الذين ملأوا دنيا الازهر وشغلوا ناسه فترة من الزمن.

يقول الدكتور محيى الدين صابر : «كانت صورة الشناقطة وما تزال في البلاد العربية أنهم الممثلون الأوفياء للثقافة العربية الاسلامية في نقائها وأصالتها وأنهم سدنتها في قاصية ديار الاسلام، المرابطون في ثغورها حفاظا عليها ونشرا لها واشعاعا بها»(١٠٦).

وتصدق على الشناقطة الذين كانوا سفراء للمحضرة هذه الصورة التي نقلها طه حسين عن الشيخ الشنقيطي، دون أن يذكر عالما بعينه، قال في «الأيام» :

«كان أولئك الطلبة الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب (...) وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئا أو ناسخا»(١٠٧).

ويقول عبد اللطيف الدليشي الخالدي أن من الشناقطة «علماء قد لا نغالي اذا قلنا عنهم أنهم لا يقلون أهمية عن أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وأبي الثناء الألوسي وعثمان بن سند واضرابهم».

ويخلص الى دعوة نشاطره اياها :

«أن للأقطار العربية خاصة والاسلامية عامة، أن تدخل في برامج مدارسها دراسات وافية ضافية عن علماء وشعراء وأدباء شنقيط»(١٠٨).

ولنعرض، الآن أسماء بعض سفراء المحضرة الذين رفعوا اسمها في الديار العربية.

حج وتجول في عدد من البلدان، وكان يقيم الدنيا ويقعدها في كل بلد يصل اليه. وقد بهر الناس بسعة علمه وقوة حافظته وجرأته لكنه لم يوفق في مراعاة خواطرهم، فضويق مرارا.

ذكر ابن الأمين في ترجمته أنه قدم مكه فأكرمه أميرها الشريف عبد الله (ملك الاردن فيما بعد) وكان يحرش بينه وبين العلماء، وكان عكاش اليمني قد أتى مكة وله شرح على لامية الأفعال فغلطه ابن التلاميد فيه. وتوطدت الصلة بينه وبين أديب الحجاز عبد الجليل براده زمنا ثم شملته النفرة التي حدثت بين الشنقيطي وعلماء المدينة لانتقاداته عليهم. وكان يحضر درس السيد علي ظاهر الوتري من صحيح البخاري فيخطئه.

وفي مصر دخل الشنقيطي فيجدل مع كبار العلماء حول مسائل عديدة منها مسألة سنية لبس الخف الأسود ومنع عمر من الصرف. ودخل في مواجهة خاصة مع شيخ المالكية الأستاذ سليم البشري حول مسألة الخف، ومع السيد أحمد البرزنجي لتغليطه الامام مالكا بن أنس ولتشنيع الشنقيطي على القاضي عياض في بعض المسائل(١٠٩).

وكان محمد محمود على صلة طيبة بالشيخ محمد عبده والأستاذ محمد رشيد رضا الذي وصفه بأنه «العلامة المحدث الذي انتهت اليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار» ـ يعني مصر ـ «ولا سيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب المخضرمين»، وقد توسع الزركلي في «الأعلام» فوصفه بانه «علامة عصره في اللغة والأدب». وعكف ابن التلاميد في مصر على تحقيق ونشر ذخائر التراث العربي، فأبلى بلاء حسنا.

وتقديرا لمكانته كلفه السلطان العثماني عبد الحميد بالسفر الى اسبانيا لوضع فهرس المخطوطات العربية، وأعطاه مؤذنا وخادما وسفينة خاصة، وكلف أحد العلماء التونسيين بمرافقته. وقد أنجز ابن التلاميد مهمته، ولكنه رفض تسليم القائمة للسلطان لسوء تفاهم حدث بينهما. وقد وقفت على نسخة مخطوطة من هذا الفهرس في المكتبة الوطنية التونسية. وكان الملك أوسكار ملك السويد والنرويج قد طلب من السلطان أن يوفد اليه الشيخ الشنقيطي ليحدثه عن أشعار العرب وأيامها.

ولنأخذ حديث الدكتور أحمد حسن الزيات عن الشيخ محمد محمود الشنقيطي نموذجا في تقدير المصريين، الأزهريين، للشناقطة.

«كان حديثنا وحديث المتأدبين يدور على ما تتناقله الأفواه وتتداوله الصحف من الجدل المضطرم الحاد بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطي وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر».

واستعرض الزيات نتفا من تاريخ الشنقيطي ومعاركه السابقة وذكر أنه نشر المخصص وحرر القاموس وأملى الاراجيز، ورثا نفسه (مثلما فعل ابن عبد البر) مستطردا بعض أعماله الجليلة :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد ... سوى أمهات الكتب بعدي أو علمي
وغير الفتى المفتي محمد عبده ... صديقي الصدوق الصادق الود والكلم
وعصم علـوم كنت أنزلهـــا لـه ... اذا اعتاص أرواها على كل ذي فهم
مخصصها المطبوع يشهد مفصحا ... بحفظي عند الحذف والبتر والخرم
وقاموسها المشهور يشهد بالضحى ... بذاك وفي بيض الليائل والدهـــم

كان محمد محمود، كما يصفه الزيات «شموس الطبع حاد البادرة قوي العارضة يجادل عن نفسه بالجواب الحاضر والدليل المفحم واللسان السليط».

«كان لا ينفك يتحدى رجال اللغة بالمسائل الدقيقة والنوادر الغريبة، مستعينا على جهلهم بعلمه وعلى نسيانهم بحفظه حتى هابوا جانبه وكرهوا لقاءه وأصبحت سيرته في مصر سلسلة من الخصومات الأدبية سجلها بالشعر اللاذع والنثر القارض سجله في كتاب الحماسة».

واستطرد الزيات من قصص الشيخ الشنقيطي ما يشهد لقوله فيه، وذكر أن الأزهر كان قد «درج طويلا على اغفال اللغة والأدب من مناهجه، حتى أدخلهماالأستاذ الامام محمد عبده في الدراسة الحرة وجعل دراسة اللغة للشيخ الشنقيطي»(١١٠).

وكان من أبرز أطروحات ابن التلاميد التي أقامت الدنيا ولم تقعدها نظريته في مسألة صرف «عمر»، فقد زعم الشيخ الشنقيطي أن عمر جمع عمرة فهو علم منقول، وليس معدولا عن عامر. ولذلك فلا مبرر لمنع صرفه، وخطأ الشيخ الشنقيطي جميع النحاة من عهد سيبويه الى عهده زاعما أنه يملك من كلام العرب الاقدمين ما يشهد لقوله ـ ولسنا الى مناقشة المسألة، ولكن المقام يقتضي التنبيه الى نقطتين :

ـ أولاهما أن الشنقيطي، وان سلمنا بأنه أخطأ في زعمه، قد جمع بدعواه هذه فضيلتي العلم والجرأة والشجاعة النادرة. فاذا استحق طه حسين تقدير من يخالفونه لجرأته في وضع نقطة استفهام أمام صحة الشعر الجاهلي الموروث، فان ابن التلاميد أهل لمثل هذا التقدير، خصوصا أنه سبق طه حسين الى اثارة عاصفة جدل حول الموروث. واذا استحق صاحبنا العتب فيما سعى اليه، فلا جرم أن يكون أحد علمين أثنين شقا عصا الجماعة العلمية في مصر، فنقم الناس منهما ذلك دون أن ينكروا لهما فضيلة العلم والأدب.

أحمد بن الأمين

ـ الملاحظة الثانية، وهي مدخل لذكر سفير آخر من سفراء المحضرة، هي أن مانعي عمر من الصرف وجدوا سندا قويا في «شنقيط»، التي لعبت دور المحرك سلبا وإيجابا في الساحة

الثقافية المصرية، فلعل الشيخ الشنقيطي الآخر (أحمد بن الأمين) كان الأندى صوتا في الدفاع عن سيبويه وأترابه، فقد ألف رسالة يحتج فيها لمنع عمر من الصرف وطبعت «الدرر في منع عمر» بمصر، فكانت (مسألة عمر) شنقيطية الطرفين لأن الشناقطة كانوا، وهم في مصر، فرسان ميدان اللغة بلا منازع.

وقد حج أحمد بن الأمين الشنقيطي وزار سورية وروسيا قبل أن يستقر بمصر. وبها كان على صلة وثيقة بالعلماء وخاصة السيد محمد توفيق البكري والعلامة أحمد تيمور والكتبي الشهير أمين الخانجي.

وقد ارتبط ابن الامين مع المويلحي صاحب «حديث عيسى ابن هشام» بصداقة وثيقة فأهداه المويلحي كتابه تقديرا لجهوده في احياء التراث العربي ـ الاسلامي والاسهام في النهضة العربية الحديثة(١١١).

ترك ابن الأمين ١٤ كتابا لعل أبرزها كتابه المجلي في ميدانه «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط».

الشيخ محمد الأمين (آب بن خطور)

ـ هذا واحد من أبرز سدنة العلم في الديار السعودية، خرج من بلاد شنقيط حاجا فتعرف عليه هناك كبار الساسة والعلماء فرغبوا في الاستفادة منه. فكان أول الأمر يدرس في الرياض بأمر الملك عبد العزيز آل سعود. وكان محل تقدير خاص من الامير عبد الله بن عبد الرحمن والشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ عبد العزيز بن صالح.

وحين زار الملك محمد الخامس ملك المغرب الرياض رغب في استصحابه، فرافقه الى المدينة المنورة(١١٢).

وكان الشيخ الشنقيطي من أبرز أساتذة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة وله بالحرم النبوي حلقة لتفسير القرآن، وكان عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي.

قال عنه تلميذه الشيخ عطية محمد سالم القاضي بالمحكمة الشرعية بالمدينة المنورة، في مقدمة كتابه «أضواء البيان» أنه «ربى أفواجا متلاحقة تعد بالآلاف من خريجي كليات ومعاهد الادارة العامة بالرياض والجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة. ما مات إلّا بعد أن أصبح له في كل دائرة من دوائر الحكومة في أنحاء البلاد ابن من أبنائه وفي كل قطر اسلامي بعثة من البعثات»(١١٣).

وقد لقي كتابه «أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن» قبولا واسعا في الأوساط العلمية. قال الدكتور أحمد نصيف الجنابي :

«ذهب جمهور العلماء الى أن أفضل التفاسير هو أن يفسر القرآن بالقرآن. وأحسن ما ألف في هذا الاتجاه كتاب «أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن» لمحمد الأمين ابن محمد المختار» (الشنقيطي)، وأورد نماذج من تفسيره(١١٤).

ـ وممن برزوا بدور علمي مرموق في الحجاز ونجد، أحمد بن المنجي الشنقيطي الذي اصطحبه الملك عبد العزيز آل سعود الى الرياض وصلى خلفه سبع سنوات، ثم انتقل الشيخ الشنقيطي الى الطائف فأقام بها الى أن توفي، وكان فيها اماما لمسجد مسلم بن عقيل(١١٥).

وما زال أحفاد الشناقطة يواصلون رسالة أجدادهم في تلك الديار، فهم اليوم على رأس العديد من المؤسسات الاعلامية هناك. ولنذكر منهم :

أحمد محمود رئيس تحرير صحيفة المدينة سابقا مدير دار العلم للطباعة والنشر حاليا، ومحمد معروف الشيباني المدير العام في الشركة السعودية للأبحاث والتسويق التي تصدر عنها صحيفة «الشرق الأوسط»، وأمين محفوظ مدير بمؤسسة «تهامة» للاعلان والنشر. وغيرهم كثير.

محمد محمود التندغي :

ـ كان مفتي المالكية بمكة، ثم رحل الى العراق مع الملك علي بن الحسين في عهد الملك فيصل الأول الذي أكرمه وأفرد له دارا وأجرى عليه، وهمّ أن يسند اليه جهة الافتاء لولا أن «بعض المنتفعين ـ كما يقول الشيخ عبد الوهاب عبد القادر امام جامع حسن بك في الأعظمية ببغداد ـ عارضوا ذلك وتمنوا ازاحته لأنه غطى عليهم وأصبحوا وكأنهم طلاب في حلقة درسه». وقد مكث زمنا يعظ الناس ويحدثهم في جامع الفضل ببغداد. وشهد له العلماء العراقيون أنه كان آية في الحفظ وسرد الحديث ومعرفة رجاله. ثم انه ترك العراق الى الأردن فرحب به الملك عبد الله وأدنى مجلسه، فظل هناك الى أن توفي فدفن بعمان(١١٦).

وقلد الملك ابنه محمدا عدة مناصب سامية فكان قاضيا للقضاة ووزيرا للمعارف ووزيرا للعدل، وعينه الملك حسين سفيرا. فشغل هذا المنصب فترة في السعودية. فكان ثلاثة سفراء شناقطة يجتمعون هناك في المحافل الدبلوماسية : سفير الاردن هذا وسفير موريتانيا، والزعيم أحمد بن حرمه بابانا العلوي؛ وكان مقيما بدرجة سفير، من قبل المغرب.

محمد أمين فال الخير الشنقيطي

ـ حج البيت وسافر الى الهند والبحرين والاحساء. وكان على صلة وثيقة بالمصلح البحريني الشيخ عبد الوهاب الزياني وبأمير الكويت الشيخ أحمد الجابر الصباح. وقد زار الكويت أكثر من مرة واحتفل به النادي الأدبي هناك.

أقام في قرية «الزبير» من أعمال البصرة وبها أسس سنة ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠ م جمعية النجاة ومدرستها، وشارك في معركة «الشعيبة» ضد الانجليز. وقد خلدت العراق ذكر هذا العالم الشنقيطي فخصصت له أول كتاب مطبوع في سلسلة «أعلام البصرة»[١١٧].

الشيخ محمد الأمين بين زيني القلقمي

ـ هو من أبرز سفراء المحضرة في المشرق. قاد هجرة جماعية في سنوات الاحتلال الأولى، فخرج على رأس ٦٠٠ رجل وعائلاتهم فاستقر حينا بمدينة أوباري في منطقة فزان الى أن اشتعلت الحرب بين الليبيين والايطاليين فواصل رحلته و«سكن الرشيدية بالقرب من مدينة عمار حيث أقام زاوية كان لها دورها الكبير في اعادة نشر الاسلام وبث روحه بين قبائل شرق الأردن التي كانت مرتعا تلك الأيام للجهل وتبعاته» وما زال بعض ذراري المهاجرين الشناقطة في الأردن، وانتقل الشيخ محمد الأمين من بعد الى أضنة بتركيا، وقاتل مع الأتراك ضد الانجليز، وامتد به العمر وبقي هناك الى أن توفي حوالي سنة ١٩٦٩[١١٨].

ومن السفراء الشناقطة في مصر[١١٩]

- القاضي عبد الله بن حبيب العلوي مر بمصر وأخذ عن علي الاجهوري (ق ١١ هـ).
- الحاج الحسن بن أغبد الزيدي، لقي الخرشي شارح خليل واستدرك ٤٠ مسألة في شرحه ردها عليه. وقد جمع الشريف محمد بن فاضل الشريف هذه المسائل.
- شيخ الشيوخ الحسني الفاضل بن أبي الفاضل، أخذ عن علي الاجهوري.
- سيدي عبد الله بن الفاضل الباركي، كان قاضيا بالقاهرة عدة سنوات.
- الحاج أحمد بن الفاضل بن أبي أجود الحسني أقام بمصر وتزوج سيدة مصرية ولدت له ابنه سيدي محمد. ثم توجه الى بلاده وبحوزته ٣١٤ كتابا. والتحق به من بعد، ابنه وأمه مصطحبا كتبا كثيرة.
- سيدي بن أحمد باب اليعقوبي الذي مرّ بمصر في القرن الثالث عشر الهجري، فكلفه الأمير بالاقامة يستنسخ الكتب لديه. فمكث ٦ سنوات. ويقال أنه زوده عند سفره بعشرة أعبد وعشرة اماء وثلاثين جملا موقرة قد لا تخلو أحمالها من ذخائر المخطوطات.
- المجيدري بن حبيب الله، أكرمه أمير مصر. وكان فيها على صداقة مع السيد مرتضى الزبيدي شارح القاموس المحيط للفيروز ابادي.

وقد اتصل المجيدري بالسلطان المغربي مولاي اليزيد بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله فأكرمه. وكان له شأن في الأوساط العلمية المغربية قبل عودته. قال ابن الأمين : «يكفيه أن الصالح الصوفي سيدي أحمد بن ادريس الفاسي تلميذه».

- عبد الرشيد الشنقيطي ذكر الزبيدي أنه من جملة شيوخه.
- سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، مر عائدا من الحج فأكرمه الأمير محمد علي وأهداه

فرسا عتيقة من «الكحيلات».. وعندما سئل عنها في بلاده، قال «جعلتها حطابا» فقد باع العالم المسافر ظهره ليشتري شرح الحطاب علي خليل، وهو كتاب أثير عندهم. وقد أخذ ابن الحاج ابراهيم في فاس عن البناني وأخذ البناني عنه، وجاهد في المغرب ضد البرتغاليين وأكرمه السلطان سيدي محمد «وكان عالما يجل العلماء».

- محمد حبيب الله ابن مايابي كان يدرس بالأزهر ترك ٣٤ تأليفا من أبرزها كتابه «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم».

ومن سفراء المحضرة في بلاد المغرب العربي : محمد يحيى الولاتي، الذي حج ولقي العلماء في طريقه فأخذ عنهم وأخذوا عنه وأعجبوا به، وتلقى في سفره اجازة في الفقه الحنفي والشافعي. وقد دوّن رحلته، وبقي على صلة بعدد من العلماء الذين لقيهم في تونس وغيرها. وقد رثاه بعض الشعراء فأشاد بعلمه وانتشار صيته في بلاد الاسلام[١٢٠].

سل العلما الاعلام شرقا ومغربا ... تر الحكم منه بالعدول مسلما
فسل علما السودان والبحر والذي ... بتيشيت أو شنقيط ممن تقدما
فانهم استفتوه في الشرع دائما ... فكان مجيبا للمعاند مفحما
ومن تونس الخضراء سل علماءها ... وسائل رباط الفتح اذ فيه علما
واسكندر أسألها بأيام حجه ... تر الكل بالحكم المصحح أفحما
ومكة سل فيها وسائل بطيبة ... تر السند المروي عنه مقدما[١٢١]

وقد بلغ تونس أيضا إشعاع محضرة يحظيه بن عبد الودود فتلقت وساما وشهادة تقدير من المملكة التونسية[١٢٢]. وحدثني المؤرخ الليبي الكاتب علي المصراتي أنه أخذ العلم في صباه عن العلماء الشناقطة أبناء ما يابى الذين مروا هناك.

وكان ابن الأعمش الجكني صاحب محضرة كبيرة في تندوف (بجنوب الجزائر).

وقد مهدت الجغرافيا، فضلا عن الدين واللغة لاحتكاك وثيق بين علماء شنقيط وعلماء المغرب، أخذا وعطاء. فقد كان العلماء الشناقطة على سبيل المثال يراسلون علماء فاس ويلغزون لهم شعرا. وفاس ـ كما هو معروف ـ هي موطن جامعة القرويين والعاصمة العلمية للمغرب.

من ذلك أن «ابن رازكه» كتب الى علماء فاس وابن زكري خاصة، ملغزا في قوله تعالى ثم استخرجها من وعاء أخيه».

شيوخ البيان الذائقين حلاوة ... من العلم لم تطعم لغير ذويه
سلام من الله السلام ورحمة ... يعمانكم من خامل ونبيه
سلام غريب دون شنجيط أرضه ... من البعد تيه يتصلن بتيه

صورة من شهادة التقدير
التي بعثتها الحكومة التونسية لمحضرة بدوية شنقيطية

اذا شبه الهادي بها وجه مرشد ... تشابه في عينيه وجه متيه
قراه لديكم أهل فاس جوابه ... بنص بيان في البيان وجيه
سما بكم علم البيان وحقه ... اذا ما هوى ظن بمختلجيه
أسائلكم ما سر إظهار ربنا ... تبارك مجدا «من وعاء أخيه»
فلم يأت عنه منه أو من وعائه ... لأمر دقيق جل ثم يخيه
فان تك أسرار المعاني خفية ... فمرآتها أفكار كل نبيه
وأنت ابن زكري نبيه محقق ... تفردت في الدنيا بغير شبيه(١٢٣)
اذا غصت في بحث حصلت بدره ... وخلّيت عن سفسافه ورديه
يمدك في اتقان علم تبثه ... قياس أصولي ونص فقيه
وقاك الذي أبداك كالنجم يتقي ... به الغيّ من يبغي الهدى ويعيه

وقد جاء حل اللغز من محضرة شنقيطية أخرى على لسان العلامة محمد ابن سعيد اليدالي :

سؤال بليغ في البيان نبيه ... أديب من أرباب الهدى وذويه
عليه مدار العصر في العلم سيما ... علوم المعاني وهو قطب رحيه
سبوق لدى قيد الشوارد راكب ... من الفهم متني لاحق ووجيه
عن السر في اتيان ربي بظاهر ... مكان ضمير في وعاء أخيه
معمى قد أعيى أهل فاس وغيرهم ... فكنا بحمد الله مفتتحيه
وكلفني نصح البرية فكه ... فأعظم بما قد كان كلفنيه
فقلت وبالله الصواب مجاوبا ... له بقياس في الأصول وجيه
ولكنه صعب المدارك معسر ... على ضعفاء الفهم منتقصيه
فهذا بحمد الله ايضاح لغزه ... مساو له في بحره ورويه
فلو قال فرضا ربنا «من وعائه» ... فذلكم بعد التفكر فيه
يؤدي الى عود الضمير ليوسف ... فيفسد معناه لمختبريه
لأن الضمير في الصناعة عائد ... لا قرب منكور هناك يليه
وان قال منه اختل أيضا لأنه ... يؤدي لعود مضمر لأخيه
فتنزع منه الصاع لا من وعائه ... وتأنف من ذا نفس كل نزيه
لما في انتزاع من أذى ومهانة ... ولم يرد الرحمن ذا بنبيه(١٢٤)

ومن ذلك أيضا أن محمد عثمان ابن اغشممت المجلسي ألغز لأهل فاس في العمري التي ترجع الى من أعمرها لا الى ورثة المعمر عليه :

الى مدارسي فاس الغر أسئلة ... عيالم العلم أهل الحفظ والملكه
عن حاضر قسم متروك لوالده ... صار البكاء له حظا من التركه
وما به مانع في القسم يمنعه ... وحاز الابعد عنه كل ما تركه

ثم ألغز في نساء أهل البيت اللواتي لا يمنعهن الحيض دخول المسجد وكذلك أهل البيت لا تمنعهم الجنابة دخوله :

وعن طوامث لا يمنعن أو جنب ... من مسجد وفروع الفقه مشتبكه

ثم ألغز في المصدر الذي لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث :

واسم في الافراد والتذكير تذكره ... وفروع ذين بنوع واحد سلكه
أريد منكم جوابا رائقا حسنا ... نظما والا فما أعطتكم الشبكة(١٢٥)

ولعبد القادر بن محمد سالم يخاطب أهل فاس ملغزا :

يا أهل فاس سؤالي نحوكم قصدا ... تزجيه نحوكم أيدي السعادة غدا
وفي السؤال سؤالات لكم وبكم ... ينحل من عقد الساعين ما وردا
في مذهب الاصبحي اللغز مجتمع ... ونجل اسحاق فيه البعض قد وجدا
فأين شخص اذا ما أم يصلحها ... وحيثما أنتم لم تصلح له أبدا
وأين ما رجل يرى من امرأة ... غير الذي نظرت منه ولا فندا
ولتخبروا عن صلاة لم تكن بطلت ... وعودها لازم ان كنتم رشدا
وأين وطء وأحداث وليس بها ... نقض الوضوء وغسل ذاك ما عهدا
وأين جهر مكان السر تطلبه ... من المصلي لكي به ينال هدى
وأينما امرأة بالحيض قد وصفت ... صلت وصامت وتقضي صومها أبدا
وأينما زوجة ان أرضعت ولدا ... تحرم على زوجها لرضعها الولدا

ولأحمد بن محمد بن محمد سالم :

أيا أهل فاس الغر لغز سياقه ... بنص خليل جاوفيه مساقه
....
أسائل ما عقد صحيح صداقه ... قد أبطله قبل البناء فراقه
وآخر فيه أكمل المهر كله ... على الزوج من قبل البناء طلاقه

فأجابه أحد علماء فاس :

فمن وهبت قبل البناء صداقها ... لزوج وذاك الزوج حم فراقه
وليس لها نصف بتطليق زوجها ... فما شطر المأخوذ منه طلاقه
وواهبة من مالها لحليلها ... قبيل البنا ما سيق منها صداقه
يعيد لها المأخوذ منه جميعه ... جواب بحمد الله تم اتساقه

وله أيضا يخاطبهم :

أسائلكم يا أهل فاس ومن سما ... بكم ولكم بالعلم بحر تنسما
ولا غرو أنتم دره يجتنى بكم ... ونحن بحمد الله نزهو بكم ثما
.....
أسائلكم عمن يموت ولم يكن ... مدينا ولا أحصى ويأخذ بعض ما
يخلفه شخص وليس بوارث ... ولابنته الباقي من المال حتما

فأجابه أحدهم :

اذا قال شخص مالك أبوي سلمى ... نحلت أباك وادعت الابنة الاما
فعتق الأب المنحول للبشر واجب ... لاقراره والعتق أحواله عما
فان مات بعد العتق فالزوج عندنا ... ينال من المتروك قيمته حتما
ولابنته الباقي من المال نصفه ... بارث ونصف بالولاء وقدتما

ولأحمد بن محمد بن محمد سالم أيضا من نفس الباب :

هلم لأهل فاس فالعقول ... بحكم جاء قد حارت فقولوا
لهم قولا يزيل الجهل عنا ... فان الجهل مرتعه نحيل
تحيرت العقول لقول شخص ... أمن رشد وإسلام يقول
لزوجة أنت طالق أي ثلاثا ... ولم يلزم طلاقا ذا المقول
ولم يكره ولم يسبق لسان ... فهل ذا القول تألفه النقول

فأجابه أحدهم :

نعم ذا القول تالفه النقول ... فهو زوج لزوجته يقول
أزينب أنت طالق أي ثلاثا ... يريد اذا دخلت ولا يقول
(كذا بالاصل)

وله أيضا :

يا أهل فاس لغزة من العبر ... فلتفهموا بفكر ونظر
ما زوجة قبل البناء طلقت ... لزوجها ارتجاعها فيما ثبت
اما اتفاقا أو على المشهر ... فأنتم أهل لحل الخبر

فأجابه بعضهم :

من علق الزوج طلاقها على ... ايقاعها فافهم وكن محصلا
اذ سوغوا له بباقي الوطء ... رجعتها وحنثه بالجزء

وللسيد ابن محمد المجلسي يلغز هل فاس في التركة :

لفاس الذي لولاه ما كان مختصر ... ولاصدرت في مذهب الاصبحي الزمر
أسائل عن زيد اذا عمر أقر ... بايخائه والموت بالأول استقر
ومن بعده مات المقر وقد أتت ... ذراري زيد تطلب الارث من عمر
لها ارثه أم لا ترى منه خردلا؟ ... أجيبوا جوابا من علومكم الغرر

وقد أجابه سيدي عبد الله من ذرية القاضي محمد :

اذا عمر قد قال من قبل ما عصر ... بنوه بنو عجن لجمع من الغرر
لهم ارثه، إلا فلا ثم وارث ... لذا المال منهم فانظر الامر واعتبر(١٢٦)

وكان لبلاد شنقيط سفارة قديمة في البلاط الملكي في المغرب، فقد تزوج مولاي اسماعيل الاميرة المثقفة خناثة بنت بكار بن عبد الله أمير لبراكنه وأنجبت له مولاي عبد الله، وقد تحدث عنها، وذكر علمها الناصري السلاوي في الاستقصاء وصالح بن عبد الوهاب في الحسوة البيسانية(١٢٧) وترجم لها الزركلي في الأعلام.

وكان الشاعر الكبير سيدي عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي (ت ١١٤٤/١٧٣١) على صلة وثيقة بالمولى اسماعيل سلطان المغرب (١١٣٩/١٧٢٧) وعلى صلة أوثق بابنه محمد العالم (١١١٦/١٧٠٥) الذي كان حاكما على السوس. وكان محمد شديد الاعجاب بصديقه الشنقيطي. وفيه يقول وقد جاء من أرض القبلة (اقصى جنوب بلاد شنقيط) :

هذا الحبيب الذي قد جاء من بعد ... والشمس قد أثرت في وجهه أثرا
فقلت يا عجبا للشمس في قمر ... والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

ويقول مقرظا شعره :

أتانا من قرى شنقيط شعر ... تعالى فوق سحر الساحرينا
يقصر شعرنا عنه لو أنا ... بعثنا في المدائن حاشرينا

ويبالغ في تفضيله على غيره فيقول فيه :

فدع عنك حراقا ومينحن بعده ... فأنت جميع الناس في شخص مفرد(١٢٨)

وله مرحبا به في مكناسة الزيتون، وقد أتى معه الأمير المغفري علي شنظوره :

مكناسة الزيتون فخرا أصبحت ... تزهو وترفل في ملاء أخضر
فرحا بعبد الله نجل محمد ... قاضي القضاة ومن ذؤابة مغفر(١٢٩)

وقد لمع في المغرب اسم الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن حبيب العلوي الآخذ مباشرة عن سيدي أحمد التجاني، وكذلك سمي الشيخ التجاني بن بابا بن أحمد بييه الذي أخذ عنه العلامة المغربي سيدي العربي بن السائح وشرح له بعض مؤلفاته، وسيدي عبد الرحمن الشنقيطي، والشاعر المفلق محمد بن محمدي الذي مر بالمغرب في طريقه الى الحج فأكرمه السلطان مولاي عبد الرحمن. وواصل رحلته وتوفي بعد أداء مناسك الحج فدفن ببحرا قرب الحديبية.

وممن برز في المغرب العلامة أحمد مسكه الآخذ عن أحمد ناصر الدرعي، وقد عاد من تلك البلاد بثروة علمية هامة(١٣٠)، والشاعر معاوية بن الشد التندغي الذي مدح السلطان مولاي اليزيد، والحاج البشير بن عبد الحي البربوشي الذي درس في محضرة محنض بابه وحج ولقي السلطان العثماني وجال في البلاد ثم عاد الى مراكش حيث توفي(١٣١).

وقد خرج محمد حبيب الله بن مايابى مهاجرا ابان الاحتلال الفرنسي فتوجه الى المغرب، ونزل بطنجة في ضيافة السلطان عبد الحفيظ الذي رغب في استبقائه لمكانته العلمية، ولكنه فضل مواصلة السير لأداء الحج. وحين حج السلطان سنة ١٣٣١ استصحبه معه الى القدس والخليل، فكان رفيقه في حجه وزيارته(١٣٢).

الشيخ ماء العينين :

ولعل أبرز الشخصيات الشنقيطية دورا وأوسعها صيتا في المغرب الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل الذي درس في محاضر شنقيط واتجه الى الشمال، فالتف حوله الناس، ونال حظوة كبيرة، لدى المغاربة وسلاطنة المغرب.

اتصل الشيخ ماء العينين بالسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن سنة ١٢٧٤ هـ/١٨٥٧ م. وكان في طريقه الى الحج. واتصل بعد عودته بالسلطان سيدى محمد سنة ١٢٧٥ هـ/١٨٥٨م ثم بالسلطان الحسن الأول وأعانه في حملته لمواجهة الاطماع الاسبانية في المنطقة سنة ١٣٠٤ هـ/١٨٨٦ م، وتتلمذ عليه السلطان مولاي عبد العزيز(١٣٣).

أسس الشيخ ماء العينين زوايا بمراكش سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م وفاس سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٦ م واحديدة واطوير وتيزنيت وطرفاية بالمغرب، اضافة الى زاويتيه الرئيسيتين في السمارة بالصحراء وأطار بآدرار من بلاد شنقيط(١٣٤).

ومن السفراء بعد الشيخ ماء العينين :

- محمد محمود البيضاوي الشنقيطي، عالم كبير هاجر الى مراكش وكان مع محمد الهيبه بن الشيخ ماء العينين، توفي في كردوس سنة ١٣٤٩ هـ.
- محمد البيضاوي الشنقيطي، أمه العالمة خديجة بنت البيضاوي، تجول في المشرق ثم استقر في المغرب متفرغا للتدريس في طنجة وتطوان. تقلد مناصب في العدالة والترجمة وعين محررا في جريدة «السعادة» بالرباط ثم عين في مجلس الاستئناف وكان في النهاية باشا في تارودانت، وبها توفي عام ١٩٤٥ م وقد نشط في مجال الأدب والشعر. وكانت له مساجلات مع معاصريه من الشعراء المغاربة أمثال عبد الله القباج ومحمد بجندار وأحمد البلغيثي.

- محمد بابا الصحراوي (١٢٩٠ ـ ١٣٤٢) أديب كبير مشهور استقر في ايليغ سنين عديدة، واتخذه الشيخ ماء العينين ناسخا لمؤلفاته. له مطارحات أدبية مع معاصريه من الايليغيين.
- محمد سالم الصحراوي المتوفي نحو ١٣٦٤، كان في صحبة الشيخ ماء العينين ثم أقام في السوس، قال عنه صاحب المعسول : «هذا شاعر فطري مفوه عبقري يعرف كيف يسبك وكيف يصوغ».
- الشيخ سيديا ابن الشيخ أحمد الديماني (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣) صحب الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة ثم هاجر إلى السوس وهو من رجالات العلوم فانه علامة جليل محصل أديب مشارك في المنقول والمعقول وله مساجلات مع علماء وأدباء السوس.
- ماء العينين ابن العتيق حفيد الشيخ ماء العينين الكبير توفي سنة ١٩٥٧ م وكان قاضيا في طنطان واستاذا بكلية ابن يوسف بمراكش(١٣٥).
- محمد عالي بن فتى صحب القاضي سكيرج وأعانه في عمله العلمي.

الفصل الثالث

النتائج العامة

أحسنت المحضرة البذر فأحسنت الحصاد وكان عطاؤها سمحا ثرا وفيرا، حمدته الأجيال وحمده التاريخ. واذا شئنا أن نوجز هذا العطاء في كلمات قلنا ان المحضرة كونت مجتمعا مسلما عربيا، عالما شاعرا مبدعا مجاهدا مؤثرا في محيطه مجليا في أقرانه.

وها نحن نستعرض النتائج العامة التي تشكل بصمات كبرى تركتها المحضرة في حياة كل الأفراد أو جلهم في بلاد شنقيط وأبرز هذه النتائج في رأينا انتشار الاسلام والتعرب والعلم.

١ ـ الاسلام

كان سكان الصحراء يهودا أو مجوسا، متأثرين في عاداتهم وتقاليدهم بالنصرانية. وكان منهم وثنيون أو قوم على غير دين.

وحين وصل الفاتحون الأول : عبقة أو أبناؤه تركوا الاسلام وهو لا يعدو أن يكون شتلة مغروسة في أرض غير مستصلحة. وكان الفتح الثاني مع ظهور طلائع المرابطين فتحا وطأ له العلم ومهد. ولم يكن السيف، حين خرج قوم عبد الله بن ياسين من معتكفهم، إلا خادما للقلم ورفيق درب له.. وظلت المحضرة منذ ذلك العهد تقوم على هذه النبتة الغضة الطرية تتعهدها بالسقي والرعاية حتى نمت وكبرت فاذا هي اليوم ومنذ قرون، دوحة وارفة الظلال يفيء إليها جميع أفراد هذه الجمهورية الاسلامية التي تفخر بأن أبناءها مسلمون مليونا بالمليون.

بفضل المحضرة انتشر الاسلام وصلب عوده ورسخت جذوره في البلاد وخارجها ولذلك رد لكرتوا Le Courtois الى المحضرة الفضل في توحيد شعوب من أعراق مختلفة في بلد واحد(١٣٦)، مبينا أنها صاحبة الفضل في اسلام الشناقطة أصلا حتى لم يبق منهم فرد واحد خارج ملة الاسلام(١٣٧).

والواقع أنه لم يكن للمحاضر أن تكون لولا الاسلام، فهي نتيجة له لم تفتأ أن صارت بذاتها سببا في نموه وانتشاره ورسوخه.

لقد أعطى الاسلام بلاد شنقيط نخبة من المؤمنين كان منهم علماء وافدون نذروا وقتهم ودمهم لنشر الدين فأسسوا له ثغورا ثقافية رابطوا عليها وحملوا لحمايتها السيف وجاهدوا فأدوا الرسالة بالعلم قبل كل شيء.

وهكذا «نشأت المحضرة من أجل أهداف دينية خالصة، أهمها ترسيخ الاسلام الصحيح واحكامه في نفوس المسلمين الجدد الذين ظل اسلامهم ناقصا نتيجة لجهلهم بالدين وبعدهم عن مراكز التوجيه الاسلامي، هذا بالاضافة الى متابعة نشر الرسالة بين الشعوب التي لم تبلغها بعد»(١٣٨). ولئن اتسعت هذه الدائرة فامتدت الى مجمل التراث الحضاري العربي، فلقد «ظلت العلوم الدينية بمختلف أنواعها العمود الفقري للمحاضر والمحور الذي تدور عليه، وحقق الأدب تطورا واضحا في ظل هذه المحاضر الدينية»، وكان من أدواتها الهامة لحمل الرسالة وتبليغ الدعوة الاسلامية.

وإذ نجحت المحضرة في بلوغ الهدف الذي ابتغته داخل البلاد، فقد طمحت الى أن تنقل عطاءها وإشعاعها الروحي الى الخارج، فكان لها أثر كبير في نشر الاسلام في ربوع القارة الافريقية. «ويتمثل دور المحاضر الشنقيطية في نشر الاسلام في افريقيا في وصول رجالها الى مختلف شعوب القارة الافريقية مبشرين بمبادىء الدين الاسلامي وحاملين مشعل الحضارة الاسلامية. وقد واصلت المحضرة ارسال الأفواج المتتالية من خريجيها الممتازين الى مختلف الأقطار الافريقية لنشر مبادىء الاسلام وتأسيس محاضر فرعية. وفي الوقت نفسه ظلت تستقبل الوافدين من هذه الأقطار للارتواء من منابع الثقافة الاسلامية. وقد ترتب على انتشار الاسلام في الكثير من الشعوب الافريقية ان تمسكت هذه الشعوب بثقافتها وتحصنت من الذوبان في ثقافة المستعمر»(١٣٩).

٢ ـ التعرب

قديما كانت تسود في الصحراء لغات زنجية وبربرية (كلام آزناكة وآزير). ولم يكن للعربية حضور ذو شأن، وبعد دخول الاسلام بقرون انقرضت اللغات الصنهاجية البربرية حتى صارت في خبر كان أو كاد، وفسحت اللغات الزنجية في مجلسها فاحتضن أهلها العربية بشغف وإيمان وان لم يهجروا لهجاتهم.

لقد كان دخول القبائل العربية المهاجرة (بني حسان) حاسما في نشر اللهجة الحسانية قريبة العهد بالفصحى، وكان للمحضرة خاصة الفضل الأكبر في تحقيق التعرب الشامل، فقد

نشرت الفصحى وغرست حبها في النفوس، وبثت معارفها بين الناس، ومضت تنشر اللغة العربية وثقافتها خارج الحدود.

وصدق الأديب اللبناني محمد يوسف مقلد حيث يقول :

للضاد في افريقيا راية ... خفاقة رفافة عاليه
يرفعها العرب بنو عمنا الـ ... بيضان أهل الهمة الساميه
هم ناشروها هم أساتيذها ... هم حصنها هم درعها الواقيه
ان الذكا كل الذكا كائن ... تالله بين النهر والساقيه(١٤٠)

لقد كانت اللغة مسرحا لمنافسة غير معلنة بين «الزوايا» وبني حسان. كان بنو حسان ينشرون الحسانية، بحكم سيطرتهم وانتشارهم في أطراف البلاد، ولم تكن لهم مؤسسات يكلون اليها انجاز هذه المهمة، وإنما تحققت عفوا بدون تكلف ولا تعمل مع مرور الأيام.

أما الزوايا، فقد عنوا بنشر الفصحى، وبذلوا في هذا السبيل جهدا كبيرا وأنشأوا له مؤسسات تسهر عليه، فكانت المحاضر مراكز للتعريب بقدر ما هي مراكز للتعليم.

وبلغ من عنايتهم باللغة أن هموا بتفصيح العامية الجارية على الألسن فلم يستسيغوا اللحن في أي جملة مركبة تركيبا عربيا سليما. من ذلك أن مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي تكلم رجل في مجلسه فقال : «هذا لا يَمكن» وفتح حرف المضارعة (الياء) فقال مولود : «لا يَمكن لا يُمكن». فتح الكلمة الأولى على الحكاية وضم الثانية ليوضح غلط المتكلم. وقال رجل بمحضره : «هذا يَزري بالمروءة»، ففتح حرف المضارعة، فقال مولود مصححا وموبخا «يَزري بالمروءة يُزري بالمروءة». أي أن هذا اللحن يزري بالمروءة اذ الصحيح ضم حرف المضارعة في يزري(١٤١). والحال أن الحديث في الواقعتين حديث عامي، لم يرد في سياق خطاب أو مداولة بالفصحى، ومبنى العامية على اللحن. ولكن مولودا كان ينافح عن حمى العربية حتى لا يستبيحه الناس وينتهكوا حرماته اذا هم تحدثوا بالفصحى.

لقد أحب الشناقطة العربية حبا جما، فأكبوا على دراستها بشغف حتى أخذوا بناصيتها وراضوا أوابدها و وذللوا قطوفها تذليلا، فصارت الفصاحة لهم سمة كالجبلة، وأدركوا أن اللغة هي العامل الأول في الانتماء القومي. كل من تكلم العربية فهو عربي، ولقد بلغ من حبهم للعربية والدين الذي حملت ان ارتدوا جلباب العروبة فتشبثوا بأنساب عربية نقية، منهم من زعم ـ ولسنا نكذب أحدا ـ الانتماء لقريش واسطة عقد القبائل العربية، منهم العلويون، حسينيين، حسنيين وزينبيين. ومنهم الهامشيون ومنهم البكريون والعمريون، ومنهم الأمويون والفهريون ومنهم من انتسب الى الأنصار، الاوس أو الخزرج. ومن أقر منهم بصنهاجيته وتمسك بعروبة صنهاجة وحميريتها وتشبث في ذلك بشهادات عدد من المؤرخين والنسابة.

لكن الأنساب ظلت محل شك، وكثيرا ما طعن في صحة انتساب هذه القبيلة أو تلك الى هذا البطن أو ذاك من بطون العرب. حينئذ يأرز الشناقطة الى اللغة، الشاهد الذي لم يغب ليثبتوا بالبينة القاطعة والحجة الدامغة عروبتهم.

يقول محمد فال بن عينين :

إنا بنو حسن دلت فصاحتنا … أنا الى العرب العرباء ننتسب
إن لم تقم بينات أننا عرب … ففي اللسان بيان أننا عرب
انظر الى ما لنا من كل قافية … لها تذم شذور الزبرج القشب
الطفل يولد فينا كابن ساعدة … منقحا دررا اصدافها ذهب

ويقول محمدي بن أحمد فال، مقدما اللسان :

يا قائلا طاعنا في أننا عرب … قد كذبتك لنا لسن وألوان
وسم العروبة باد في شمائلنا … وفي أوائلنا عز وإيمان
أقيال حمير والأساد من مضر … شم الأنوف، فما ذلوا ولا هانوا

ويتساءل المرء عن السر في إقبال الشناقطة منذ قرون على افتراع مخدرات اللغة العربية واستكناه مجاهلها، هذا الاقبال الذي أثمر تعربا كاملا، ليس للنسابين ولا المؤرخين فيه مطعن ولا مغمز، ترى لماذا هذا التعرب ممن هم ـ زعم النسابون ـ بربر في الأصل؟ تجد من يقول أن اللغة العربية أصبحت بعد دخول بني حسان مرقاة من مراقي المجد وسمة من سمات التفوق والتميز، وفي ذلك توجيه وجيه. فلقد كانت العربية كذلك ولا غرو.. ولكن أليس من الغريب أن تكون القبائل العربية المهاجرة قد اكتفت في غالب شأنها بنشر العامية (اللهجة الحسانية) بينما زايدت عليها القبائل الصنهاجية (مع قبائل عربية وافدة طبعا) كل هذه المزايدة، فتولت نشر اللغة العربية الفصحى، متخلية عما عداها من اللغات، وإن كانت لسان الآباء والأجداد وأبناء العمومة، ولم يرد عن القبائل المهاجرة (بني حسان) يوما أنها أخذت على عاتقها مسؤولية نشر اللغة العربية الفصحى وعلومها بسلطان القوة الذي تملك؟! لقد كانت هذه القبائل عربية الأعراق بالاجماع. ولئن اختلف في أصول القبائل الأخرى، فلا سبيل الى الخلاف في أنها كانت عربية الروح؛ فقد احتضنت الاسلام أيما احتضان وتحدثت بلغته ونشرت علومه، واضطرت في مفارقة غريبة، من عجائب ما يأتي الزمان به، أن تنتصب وصية على هذا الميراث الحضاري الكبير، فتدخل بسببه وبه حروبا طاحنة مع القبائل الحسانية، وهي أولى بهذا الميراث وأجدر لو احتكمنا الى النسب والحسب، خصوصا وقد قال نسابوها انها من سلالة جعفر الطيار شهيد مؤتة؟!(١٤٢).

والواقع أن المغافرة وبني عمومتهم من العرب الوافدين لم ينازعوا الزوايا وكثير منهم صنهاجيون ـ حيث نازعوهم ـ على قيادة الحركة الثقافية؛ حركة التعرب و«التأسلم». لقد ظلت هذه القيادة سلما لهؤلاء الزوايا. فكانوا هم الفاتحين، وكانت حركتهم عربية اسلامية صرفة...

لقد غُلب الزوايا مرتين : في المرة الأولى غلبهم العرب الاقحاح عندما ناجزوهم في حركة الثلاثين سنة (شرببه)، فما زادتهم الهزيمة إلا إكبابا على العربية وعلومها وكأنهم لم يعتبروها بضاعة حسانية، (ولا بنو حسان اعتبروها كذلك) فينظروا اليها نظرة المغلوب الى غالبه.. المغلوب الذي ظل يعتبر أنه كان على حق، وما زال.

ومرة ثانية غُلِبَ الزوايا : غلبهم أغراب ـ غير أعراب، كما غلبوا غيرهم. وذلك عندما اجتاح الفرنسيون البلاد في مطلع القرن العشرين. وفي هذه، استمسك الشناقطة من اللغة والدين بالعروة الوثقى، فما زادتهم غلبة المستعمرين وما أحاطوا به لغتهم من الاجلال والاكبار، إلا حبا للغة العربية وتمسكا، بل وتحصنا بها، وكأنهم لم ينظروا الى الفرنسية يومئذ كمرقاة من مراقي المجد، يتبوأ بها أهلوها من أرض النفوذ والتمول حيث يشاؤون.

لقد كانت لهؤلاء الشناقطة، عبر القرون، في ظروف السراء والضراء غالبين ومغلوبين، وعلى تعدد الغالبين، صلة حميمة باللغة العربية : عهد رعوه في كل الظروف وذمة لم يخفروها قط، حتى لكأن هذه اللغة وكل ما هو لها خالص دم يجري في عروقهم لا يتبرعون به ولا يبيعونه وما لهم حياة إلا به.

وما كان لذلك أن يكون لولا المحضرة...

٣ ـ العلم

استطاعت المحضرة ـ وهي تحمل رسالة الاسلام ولغته ـ أن تحول البداة الجفاة من الأعراب الأميين الى علماء وشعراء، هذب العلم طباعهم ومشاعرهم ونخل صدورهم وصفى قلوبهم، فتاهت بهم البادية على الحاضرة، وفي كل منهما أدب وعلم وأخلاق.

لم تقتصر المحضرة في ذلك على تخريج أفراد أفذاذ وإنما نشرت لواءها ليستظل به الجميع فخرجت مجتمعا يتذوق العلم كله ويجله، كل فرد منه يأخذ من العلم بنصيب. وهكذا كان من حق الشيخ محمد المامي أن يفخر بأن بلاده، بلاد علم لها بذلك منتهى الشرف :

ان لم يكن شنقيط فيه زمزم … فلهم في العلم أصل أقدم(١٤٣)

ولقد سجل الفرنسيون، مشدوهين، شهادتهم لهذا المجتمع الذي لا يندر أن تصادف فيه راعيا يترنم بقصائد الشعر الجاهلي(١٤٤).

وبلغة الأرقام، يعتقد أن المحضرة استطاعت القضاء على الامية في البلاد بنسبة ٨٠٪(١٤٥).

وقد كان العبيد، وهم فئة محرومة من الثقافة عادة، يغنون على الطبل بمقامات الحريري. وكان منهم، أو من الموالي علماء بلغوا مقام المشيخة في العلم مثل «الوسر» الذي كان يدير محضرة في ولاتة(١٤٦).

وبلغت المحضرة شأوا بعيدا في الانتشار وعلو الشان، حتى حملت بعض البطون اسمها، فكان ذلك فالا حسنا في البداية ثم صار لها حالا فكانت جميع بيوت البطن بيوت علم، ففي قبيلة تجكانت بطن كبير ما زال يسمى «المحاضر»(١٤٧).

وقد انتشر العلم في عموم هذه القبيلة حتى قيل «العلم جكني». ويحكى أن أول من أطلق هذه العبارة العلامة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي، وسبب ذلك ـ على ما رواه أحمد بن أحمد المختار الشنقيطي المدرس بالمسجد الحرام ـ أن ابن الحاج ابراهيم كان يدرس علم البلاغة على المختار بن بونه الجكني. وكان أحمد بن المختار الجد، وهو جكني أيضا زميلا له في الدراسة. وكان الطالبان يستشكلان لدى شيخهما بعض المسائل. وربما قال كل من الثلاثة برأي فيها، فيدون سيدي عبد الله الآراء حتى اكتملت عنده أربعون مسألة بحث عنها خلال رحلته الى الشرق، فوجدها في مكتبة الجامع الاموي بدمشق، ووجد أن المشهور فيما اختلفوا فيه رأي شيخه المختار بن بونه وأن مقابل المشهور رأي زميله أحمد بن المختار وكلاهما جكني، فقال : «العلم جكني»(١٤٨).

وليس تجكانت في ذلك إلا نموذجا لقبائل الزوايا التي انتشر فيها العلم وساد ـ وتعداها الى غيرها ـ حتى كان للحي حيث كان محضرته، بل وللبيت محضرته. وصار الأطفال يرضعون الألفية ومختصر خليل، بل والمنطق مع حليب الأمهات!

أجل! لقد كانت المرأة في هذا المجتمع متعلمة عالمة معلمة، فلنقف عند مشاركة النساء في العلم وقفة سريعة نتبين بها مدى نجاح المحضرة في بث العلم في جميع الأوساط.

نساء متعلمات معلمات

كان للعرب، وخصوصا منذ ظهور الاسلام، عالماتهم وشواعرهم، وكان النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام يخصص للنساء مجالس يلقنهن فيها العلم، ويعدهن لنقل المعرفة حتى أمر بأخذ العلم عن «الحميراء» أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ولكن نشاط المرأة العلمي (تعلما وتعليما) ظل يواجه الصعاب والعقبات في ديار الاسلام على مر العصور، وكأن المجتمع لم يكن يرى للمرأة أهلية لتعاطي هذه الشؤون الرجالية السامية، وإنما كان يكل اليها شؤون البيت والغزل والنسيج وما الى ذلك.

ألم يقل المعري :

علموهن الغزل والنسيج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والاخـ ـلاص تغني عن يونس وبراءه

ومع ذلك كانت هناك استثناءات وكان لبلاد شنقيط منها الحظ الوفير. فالفتاة تتعلم القرآن كما يتعلمه الطفل. وترتقي الى المحضرة في حيها فتتلقى من المعارف ما يتلقى، إلا أن غالب

شأن النساء، أن يصرفن اهتماما زائدا الى دراسة السيرة النبوية الشريفة لا يمنعهن ذلك أن يزاحمن الرجال على المعارف الأخرى أيا كانت.

ولقد كانت خديجة بنت العاقل تقول اذا أرادت أن تبالغ في سهولة أمر ما وبساطته : «ذلك كالمنطق عندنا»!

وكان لا بد للمرأة من رصيد معرفي زكي، لأنها هي بحق مدرسة الطفل الأولى تلقنه أول دروسه، من تعليم الحروف الهجائية الى تلقين القصص التاريخي الى تدريس القرآن (فكثير من مدرسي الكُتّاب نساء) الى تحفيظ المتون وتفسيرها. والقاعدة العامة هي أن وراء كل رجل عالم امرأة مهدت له السبيل الى الالتحاق بالمحضرة في مرحلتها المتوسطة أو العليا. ولكن دور المرأة لا يقف عند هذا الحد. فمن الشنقيطيات نساء تصدرن للمشيخة المحضرية، فكن يدرسن الطلبة والطالبات ما يدرس كبار المشايخ.

وقد ذكر الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، وكان من أبرز سدنة العلم في الحجاز ونجد، أنه درس الأدب على زوجة خاله وتلقى عنها الآجرومية وتمرينات ودروسا واسعة في أنساب العرب وأيامهم والسيرة النبوية ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي ونظم عمود النسب له (في أنساب العرب)(١٤٩).

وكذلك حدث لكاتب هذه السطور، فقد درس على والدته فاطمة بنت فتى وتلقى عنها متون السيرة النبوية والأنساب وغيرها. وكانت خديجة بنت العاقل تدير محضرة تخرج منها علماء أجلاء مثل أخيها أحمد بن العاقل وامام النحو سيبويه البلاد المختار بن بونه، وامام دولة فوته الاسلامية الامام عبد القادر(١٥٠). وكان لمريم بنت الماحي شرح على الكافية.

وفي شنقيط بلغت منه بنت أحمد بن خليفة مرتبة القضاء(١٥١).

وكانت مريم مانه بنت اللا تحفظ القاموس. وكانت فتيات تنيكي يحفظن الموطأ(١٥٢).

وكان من هؤلاء العالمات خطاطات بارعات ينسخن الكتب، ومنهن شواعر كمريم بنت بلا التي قال الشيخ سيديا، استحسانا لشعرها «المرأة كلها عورة»، كأن الشعر لروعته بعض مفاتنها. وكانت آمنة بنت الخال عارفة مولهة تنظم في المحبة شعرا رقيقا، وكذلك اليوم مريم بنت محمد بن الطلبه. وكانت عزه بنت المامون شاعرة شعبية مدرسة أخذ عنها بعض العلماء مثل محمد عالي بن فتى.

وتوجد بدار الكتب المصرية نسخة نادرة من نظم مالك بن المرحل لفصيح ثعلب المسمى (التلويح) بخط آمنة بنت الطالب محمد الشنقيطية، كتبتها لمحمد محمود ابن التلاميد(١٥٣).

وقد أحصى عباس الجراري عددا من النساء الصحراويات المشاركات في الحركة العلمية بقسط غيرهين، ومنهن(١٥٤) :

١ ـ زينب النفزاوية زوج يوسف ابن تاشفين، وقد اشتهرت بالجمال والرياسة والعلم.
٢ ـ أم طلحة التميمية بنت يوسف ابن تاشفين وكانت لها عناية بالأدب والشعر.
٣ ـ قمر زوجة علي ابن يوسف وكانت مبرزة في الرياسة والأدب.
٤ ـ حواء وزينب اختا ابن بكر ابن ابراهيم ابن تافلويت. وكانت لهما اهتمامات بالأدب والشعر. وكانت زينب زوجة لتميم بن يوسف.
٥ ـ خناثة بنت الامير المغفري الشنقيطي بكار، وهي زوج السلطان العلوي مولاي اسماعيل، عرفت بالجمال والرياسة والعلم، وذكر العلامة اكنسوس ان لها تقييدا رآه بخطها على هامش الاصابة لابن حجر. وكانت تحاور العلماء.
٦ ـ صفية بن المختار، وكانت عالمة بالتجويد والتفسير والسيرة والنحو، وكانت مدرسة.
٧ ـ خديجة بن المختار ابن عثمان وهي أم التجاني ابن بابا العلوي. وعنها أخذ علوما كثيرة.
٨ ـ هند زوج الشيخ ماء العينين وكانت عالمة مشاركة.
٩ ـ ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمي، وكانت راوية للأشعار وعالمة مشاركة.
١٠ ـ اختها ربيعة وكانت أديبة ناقدة. وهي وأختها حفيدتان للشيخ ماء العينين.
١١ ـ خديجة بنت الامام محمد العتيق. وكانت عالمة مشاركة.
١٢ ـ خديجة بنت البيضاوي ـ وكانت تدرس بمدينة مراكش، وكانت عالمة مستحضرة للسيرة والعربية والفقه والنحو.

* * *

هكذا استطاعت بلاد شنقيط، وقد حمل الرسالة فيها مجتمع من العلماء والعالمات أن تكون، بصدق، منارة إشعاع فاض منها نور الاسلام ودوحة علم ظللت أفياؤها أقاصي الناس في افريقيا وغيرها.

وقد تساءلت مجلة «الأمة» القطرية : «كيف استطاعت بلاد شنقيط، وهي تقع على شاطىء المحيط الأطلسي في أقصى غربي القارة الافريقية، بعيدا عن الجزيرة العربية أن تبلغ تلك الدرجة العليا وتظل لقرون عديدة منارة للعلم والفكر الاسلامي والأدب العربي ومهدا لإعداد العلماء والدعاة العاملين»؟

«لا يكاد يختلف اثنان على أن بلاد شنقيط لم يكن لها أن تبلغ ما بلغت لولا ذلك النظام الذي التزمت به وسارت عليه في مجال التربية والتعليم.. ألا وهو ما اصطلح على تسميته بنظام المحاضر»(١٥٥).

هوامش وتعليقات الباب الثالث

(١) الرافعي : تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧١/١.
(٢) المصدر السابق ـ ٢٩٤/١.
(٣) د. محمد المختار ابن أباه : مقدمة «الشعر والشعراء في موريتانيا»، ص ٣٠.
(٤) المقري : نفح الطيب ـ ١٩٢/٣.
(٥) المختار بن حامد : حياة موريتانيا، جزء الثقافة.
(٦) محمد عبد الله بن محمد محمود : تحقيق ديوان الشيخ محمد عبد الله ابن أحمذيه ـ ص ١٢.
(٧) محمد المختار ابن اباه، المصدر السابق.
(٨) البرتلي : فتح الشكور ـ ص ٤١.
(٩) المصدر السابق ـ ص ٤٧.
(١٠) محمد محمود بن محمد سالم : جمع وتحقيق غرض المديح من ديوان محمد محمود ابن احمذيه : ص ١٧.
(١١) المصدر السابق ـ ص ٦٤.
(١٢) البرتلي ـ ص ١٦٨.
(١٣) المصطفى بن محمد : تحقيق نظم سيدي محمد بن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم (سواطع الجمان في ذكر المعاني والأوزان) ـ ص ٣٠.
(١٤) يحيى بن البراء : الألفية وتأثيرها في الثقافة الموريتانية ـ ص ٧٦.
(١٥) سيدي محمد بن بناهي : نماذج من تاريخ أسرة آل حبت ـ ص ٥٥.
(١٦) رواية عن الأستاذ محمد سالم ابن عبد الودود، وقد اطلع على الكتاب وكذلك الشيخ الحاج بن المشري.
(١٧) الطرائف والتلائد، مخطوط.
(١٨) عبد الله بن محمد الأمين : مساهمة في ابراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين ـ ص ١٩.
(١٩) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم ـ ص ٢٢، ٢٣.
(٢٠) أحمد بن الأمين : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ـ ص ٣٤.
(٢١) المصدر السابق ـ ص ٣٤.
(٢٢) المصدر نفسه ـ ٣٦، ٣٧.
(٢٣) محمدي بن خيري : بابا بن أحمد بيبه ـ ص ١٧.
(٢٤) الخليل النحوي : مقال اذاعي حول حمد الله، استنادا الى دب سالم، أحد رجال العلم المعاصرين، من الأسرة ذاتها.
(٢٥) كتاب الأنساب للشيخ أحمد بن سليمان، طبعة هامت باريس ١٩١١.
(٢٦) محمد المختار ابن أباه : المصدر السابق، ص ٥٠.
(٢٧) محمد المختار ابن أباه.
(٢٨) أحمد بن الأمين ـ ص ٤٣٨.
(٢٩) البرتلي ـ ص ٨٠.
(٣٠) كذلك لا نجد مؤلفات للقاضي عبد الله بن حبيب (ت ١١٠٣ هـ) وقد قال فيه محنض بابا «وجدهم أستاذ تشمش كلها»، ولا نجد ذكرا لتأليف للفقيه مينحنا بن مودي مالك (ت ١١٥٠ هـ) وكان ابن رازقه يرى

أنه أعلم أهل بلده. ولا نجد أثرا ـ غير الشعر ـ لمحمذ بن حبيب الله «المجيدري» (ت ١٢٠٣ هـ)، وهو عالم جليل ذائع الصيت، يقول عنه الأستاذ أحمد بن الحسن أنه «ضائع الأخبار غريب الأطوار.. والأمثلة كثيرة يضيق بها المقام.

(٣١) اليدالي : المربي على صلاة ربي، مخطوط.

(٣٢) من قصيدة ابن مالك في المقصور والممدود.

(٣٣) عبد القادر الكمليلي : المواهب العندية في المناقب الحمدية.

(٣٤) القاضي عياض : الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ـ ص ٤، ٥.

(٣٥) انظر مثلا ميمية سيدي عبد الله بن محمد الرائعة وفي آخرها يقول :

السبك فاغض جحمرش عجوز ... تقص معالم الزمن القديم

وانظر فخره وازدهاءه بالدالية التي يمدح بها محمد العالم ابن سلطان المغرب مولاي اسماعيل، وفي آخرها يقول من جملة أبيات :

أمكنه من بكر شعر خريدة ... نتيجة فكر سلسل الطبع جيد
عروب عروس الزي اندلسية ... من الأدب الغض الذي روضه ندي
مهذبة يستملح الذهن سرها ... ويستعذب استرسالها ذوق منشد
ترقت لما فاقت وراقت تبرجا ... على معتلى برج البديع المشيد

وبعد أن يفيض طويلا في تقريظ قصيدته يلبس فجأة جلباب الحياء والتواضع فيخاطب ممدوحه والقاريء من خلاله :

تخادع وان كنت اللبيب لبهرجي ... ولا تنتقد يا سيدي وابن سيدي

راجع ديوان الشعر بتحقيق الأستاذ محمد سعيد ابن دهاه، وكذلك «الوسيط».

(٣٦) انظر الندى : دور المحاضر في موريتانيا، العالم الأكدبجي يقصد به الشيخ محمذ فال بن متالي نسبه الى بطن تندغي وتيلماس موضع كان نازلا به.

(٣٧) وقع هذا للشيخ بن سيدي محمد بن حبت فقد ضلت راحلته وعليها كتبه، فكان آخر العهد بها. أشرنا الى ذلك في الفصل الأول من هذا الباب.

(٣٨) مثال من ذلك : الدلاصة على الخلاصة، شرح وضعه منير بن حبيب الله الشمشوي (ت نحو ١١٦٣) يوجد في مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس. وقد اختفت كتب كان لها شأن في المحضرة، مثل طرة ابن القاضي التي يذكرها النابغة الغلاوي :

وطرة ابن القاضي أيضا لعبت ... أيدي التلاميذ بها فذهبت

ويذكر أهل ولاتة أن كثيرا من كتبهم اختفى بعد وصول فرنسي أراد أن ينظمها وقد أخبرتني الفاضلة مريم بنت سيدي محمد بن حبت، عزوا الى الاستاذ بو العالم (جزائري كان مديرا لمدرسة اطار في أواخر الثلاثينات) أن الفرنسيين نهبوا في تلك الفترة كثيرا من مخطوات مكتبة أهل حبت، كبرى مكتبات شنقيط، ويفسر ذلك جانبا من الانخفاض في أرصدة المكتبة (من نحو ٥٠٠٠ مخطوط الى أقل من ١٠٠٠). ونلاحظ أن تقارير الفرنسيين عن حجم المكتبة تختلف ما بين فترة وفترة من ٩٠٠ الى ٧٠٠ مجلد. وقد وقفت على مخطوط «المواهب العندية» لعبد القادر الكمليلي في دار الوثائق الوطنية السنغالية، ولم أعثر له على أثر في موريتانيا.

(٣٩) حدثني بذلك الأستاذ أحمد بن محمد يحيى رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي وقال أن في مخطوطات المعهد بعض هذه الكتب التي كانت ملقاة في المقابر أو في فيافي البادية.

(٤٠) رواية عن الأستاذ أحمد بن محمد يحيى أيضا ننبه الى أن في مكتبة معهد افريقيا ـ السوداء IFAN بداكار نحو ٤٠٠٠ مخطوط فيها مخطوطات شنقيطية وكذلك معهد أحمد بابا التمبكتي في باماكو، وفيه نحو ٥٠٠٠ مخطوط.. ما زالت عملية الجمع في موريتانيا في بدايتها...

(٤١) رواية عن الأستاذ أحمد بن عبد القادر، الذي أقام فترة في المانيا الغربية وشاهد المخطوطات الشنقيطية تعرض هناك ولما تصل بعد مصوراتها الى المعهد الموريتاني للبحث العلمي وهو الطرف الآخر في العقد مع الالمانيين.

(٤٢) راجع أيضا : الخليل النحوي ـ مئات المؤلفين وآلاف المؤلفات في مجاهل التاريخ ـ الفكر التونسية ـ نوفمبر ١٩٧٧. وسوف نورد ملحقا بآخر الكتاب، دليل المؤلفين الشناقطة ومخطوطاتهم.

(٤٣) كان من العلماء الشناقطة طائفة يرون أن التاريخ علم لا فائدة منهم، فلا يعنون بتدوينه وحسبك أن مدينة شنقيط، الحاضرة الثقافية الكبرى في البلاد، لم تكتب تاريخها ولا علماؤها اهتموا بالتاريخ لها، وقد سرت عدوى الزهد في التاريخ الى جارتها ودان (أو سرت العدوى من ودان الى شنقيط) بينما نجد بعض الاهتمام بالتاريخ في بوادي الجنوب وفي حواضر الشرق. ففي ولاتة وتشيت والنعمة، كانت الأحداث البارزة تدوّن في سجل يرعاه الناس في المسجد.

وفي الجنوب اهتم عدد من العلماء الشعراء بتدوين الأحداث، فكانت في ذلك منظومات لوالد بن خالنا وبابا بن أحمد بيبه وبابكر بن احجاب والمختار بن جنكي ومحمد بن البراء والمختار بن محبوبي.

ولعل أهم المراجع التاريخية المنشورة عن البلاد حتى الآن كتاب «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» للطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي و«الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» لأحمد بن الأمين نزيل القاهرة. وقد أنجز علامة البلاد ومؤرخها الكبير المختار بن حامد موسوعة ضخمة في تاريخ بلاد شنقيط وحيانها سماها «حياة موريتانيا» تجري حاليا طباعة جزئين منها بدعم من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٤٤) يحيى بن البراء : الفية ابن مالك وتأثيرها في الثقافة الموريتانية ص ٩.

(٤٥) الحق أن القائمين على المطابع المحلية بدأوا يعون مسؤوليتهم في مجال النشر ويخوضون تجارب تدعو إلى التفاؤل. فقد عنيت كل من مطبعة النصر ومكتبة منير ودار الكتاب الاسلامي بنشر بعض المصنفات الشنقيطية تصويرا على الأوفسيت، وربما سحبا على الرونيو. وخاض زميلنا محمد بن سيدي (بدنا) مع أحد رجال الأعمال، تجربة تستحق التقدير، فقد عني بنشر مجموعة من الآثار القديمة والمعاصرة القيمة ولكن الامكانيات اعترضت سبيل التجربة، فكانت الأعمال تسحب على الرونيو أولا ثم توقفت.

ومن قبل ساهمت المطبعة الوطنية في حركة النشر الثقافي فصدرت عنها بعض الكتب مثل قرة الأبصار لعبد العزيز اللمطي بمبادرة من الأستاذ محمد يحيى بن فتي وبعض كتب الامام بداه بن البصيري، وصدر في مطبعة جبكا، تأليف للأستاذ أحمد بن حميد عن الأدب الموريتاني المعاصر، من خلال تجربة زميلنا الشاعر أحمد بن عبد القادر.

ويهتم الأستاذ أحمد سالك، أحد رجال الأعمال الموريتانيين حاليا بنشر عدد من ذخائر التراث، منها مؤلفات لأهل محمد سالم ولمحمد مولود بن أحمد فال. وكذلك عني الأستاذ الحضرمي بن خطري بنشر بعض مصنفات سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

(٤٦) أورد القائمة السابقة عباس الجراري في : ثقافة الصحراء ـ ص ٥٢، ٥٧.

(٤٧) من ذلك قصيدة دالية بسيطية، في التضرع، يسمونها «قصيدة القمح»، امدتنا بها الأخت الفاضلة سلمى بنت محمد بن عبد الله بن أحمد بن البشير ومطلعها :

الحمد لله ما دام الوجود له ... حمدا يبلغنا منه الرضا أبدا

(٤٨) محمد بن محمد الحافظ (تحقيق) : يوان موناك بن المصطفى ص ١٤٨، انظر أيضا ابن حامد : حياة موريتانيا.

(٤٩) رواية عن خالنا أحمد محمود بن فتي.

(٥٠) ابن الأمين ص ٥٠.

(٥١) المصدر السابق ـ ص ٧٨.

(٥٢) المصدر السابق ـ ص ٢٤٣.
(٥٣) صرح ابن الطلب بانه قصد معارضة القصيدتين الأولين، أما الثانية، فذلك فهم من أحمد بن الأمين. ومعلوم ضرورة أن ابن الطلبة لن يتمنى أن يكون والأعشى في مجلس واحد يوم القيامة، فقد كان الأعشى جاهليا، وابن الطلبة يقصر حكومته وناديه على أهل الجنة.
(٥٤) وضع الأستاذ أحمد بن الحسن رسالة حول «أسلوب ابن الطلبة اليعقوبي» أجيز بها في شهادة الكفاءة للبحث بكلية الآداب ـ تونس سنة ١٩٨٠.
(٥٥) الوسيط ـ ص ١٤٧.
(٥٦) الوسيط ـ ص ٩٥.
(٥٧) الوسيط ـ ص ١٩٠.
(٥٨) الوسيط ـ ص ٨٥، ٨٦.
(٥٩) القصيدة طويلة وذلك جزء منها. انظر : أحمد بن الأمين ـ الوسيط : ص ٢٧٠، ـ أحمد بن الحسن : خواطر حول عينية ابن الشيخ سيديا، مقال في حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٣.
(٦٠) مطلع القيصدة :

صلاة ربـــي مع السلام علـــى حبيبي خيـــر الانـــام

ومنها، وهو عنوانها عند ابن رازقة :

آيـــات طه ليست تناهـــي ولا تناهـــي علـــى الـــدوام

انظر : المربي على صلاة ربي لليدالي.
(٦١) طبع في تونس كتاب الدكتور محمد المختار ابن أباه «الشعر والشعراء في موريتانيا». وقد عني أحمد بابا مسكه بقراءة منهجية لكتاب الوسيط، وللمجتمع الشنقيطي من خلاله، فأصدر سنة ١٩٧٠ في باريس كتابه : Alwasit : Tableau de la Mauritanie au début du 20e siècle.
(٦٢) أعد الأستاذ أحمد ابن الحسن عمله هذا اطروحة لنيل شهادة الدكتورا من الجامعة التونسية سنة ١٩٨٦. وأعد الأستاذ عبد الله بن بنحميدة كذلك رسالة ماجستير عن نشأة الشعر الشنقيطي. وقد بذلت جهود كثيرة، خلال السنوات الاخيرة، بل ومنذ الستينات في سبيل جمع الشعر الشنقيطي ودراسته وتحقيقه أحيانا. وهذا بعض ما أنجز :

- ملفات لـ ٣٠٠ شاعر في المعهد الموريتاني للبحث العلمي.
- دراسة شعر أبي بكر الفاضلي للأستاذ محمذ بن باباه.
- مجموعة شعرية بعنوان «نماذج من الشعر الموريتاني المعاصر» صدرت عن اتحاد الكتاب العربي بدمشق سنة ١٩٧٠.
- تطور الأدب الموريتاني، للأستاذ أحمد ابن احميد، حول تجربة الشاعر أحمد بن عبد القادر، طبع في نواكشواط سنة ١٩٦٦.
- ديوان «أصداء الرمال» للشاعر أحمد بن عبد القادر، طبع ببيروت سنة ١٩٨٠.

ومن الأعمال الجامعية دواوين الشعراء :

- سيدي عبد الله بن محمد (ابن رازقة)، تحقيق محمد سعيد بن دهاه، طبع بالدار البيضاء سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.
- محمد بن أحمد يوره / جمع وتقديم محمد بن سيدي «بدنا».
- محمد «بدي» بن سيدينا / تحقيق محمد الأمين بن بدي.
- القاضي محمد ابن أحمد فال / تحقيق أحمد بدي بن أحمد فال.
- يقوى الفاضلي / تحقيق ابنو ابن الهلال.

- الشيخ محمد عبد الله ابن احمذيه / تحقيق محمد عبد الله بن محمد محمود.
- محمد فال بن بابه / تحقيق السيد بن أحمد.
- ابد بن محمود / تحقيق اباه بن أحمد بن أباه.
- محمد المشري / تحقيق عبد الله بن السيد ابن مولود فال.
- باب ابن احمد بيبه / تحقيق محمدي ابن خيري.
- الشيباني بن محمد أحمد / تحقيق محمد حامد بن محمد أحمد.
- محمد محمود ابن احمذيه (غرض المديح) / تحقيق محمد محمود بن محمد سالم.
- الشيخ محمد بن حنبل / تحقيق أحمد بن أحمد بين بيات
- محمذ بن السالم / تحقيق محمذ بن عبد الله.
- محمد ابن سيدي أحمد / تحقيق المختار بن محمذن.
- الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا / تحقيق عبد الله بن سيديا والناجي فال ابن سيدي.
- محمد بن محمدي / تحقيق محمدي بن بدي.
- الاحول الحسني / تحقيق أحمد بن المصطفى.
- المامون اليعقوبي / تحقيق محمد بن ماء العينين.
- مولود بن أحمد الجواد (جزء من الديوان) تحقيق محمد ابن المبتي
- محمدي بن القاضي / تحقيق عبد الله بن محمد عبد الرحمن.
- الشعر السياسي الاصلاحي / المختار بن أحمد.
- الشعر الاسلامي / سيدي بن محمد بن جيلاجي.
- الشعر الحربي / عثمان بن محمد فال.

(٦٣) راجع الدليشي : من أعلام الفكر الاسلامي في البصرة : الشيخ محمد أمين الشنقيطي، ص ٣٨.
(٦٤) طه الحاجرى : شنقيط أو موريتانيا : حلقة مجهولة من تاريخ الأدب العربي ـ مقال في مجلة «العربي» الكويتية عدد ١٠٧.
(٦٥) احمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ ص ٦٦٥ وما بعدها.
(٦٦) محمد المختار ابن أباه : الشعر والشعراء في موريتانيا (المقدمة)، ص ٦٦.
(٦٧) الدليشي : مصدر سابق.
(٦٨) Amadou Dia : Islam, Sociétés Africaines et Culture Industrielle, p. 68.
(٦٩) ورد ذلك في رحلة بعنوان : : La Nouvelle Relation de l'Afrique Occidentale - P. Marty
Etudes sur l'Islam au Sénégal, Tome 1, p. 69.
(٧٠) أنور الجندي : العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي ـ ص ٣٧١.
(٧١) انظر : Vincent Monteil : L'Islam Noir, p. 53
(٧٢) انظر، المصدر السابق Paul Marty. p. 9.
(٧٣) المصدر السابق Marty p. 20.
(٧٤) المصدر السابق p. 17.
(٧٥) المصدر السابق p. 4, 5.
(٧٦) المصدر السابق p. 7, 8.
(٧٧) أنور الجندي، مصدر سابق ـ ص ٣٧٠.
(٧٨) انظر مقدمات Cheikh Hamidou Kane : L'aventure amibiguïe ed. du Burin, 1973.

(٧٩) أحمد بن الطلبة : مساهمة الموريتانيين في نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا بحث في ندوة سبل دعم التضامن والتعاون العربي ـ الافريقي في الاطار الاسلامي ـ جامعة تونس ٢٦ ـ ١٩٨٥/١٢/٢٧.

(٨٠) د. عبده بدوي : مع حركة الاسلام في افريقيا ـ ص ١٧١.

(٨١) عبد العزيز سي : القاضي أبو بكر سي بن الامام ابراهيم سي ـ ص ٤٠.

(٨٢) المصدر السابق ـ ٤٨.

(٨٣) الحاج محمد الخليفة نياس : المرهفات القطع، مقدمة الكتاب.

(٨٤) مصدر سابق.

(٨٥) أورد كل من الاستاذ محمد سعيد بن دهاه، في تحقيقه لديوان سيدي عبد الله بن محمد (ص ١٨) والأستاذ أحمد ابن الحسن في «الشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ» (ص ١٣١) أن ابن رازقه سيدي عبدالله درس على الفقيه مينحنا وعلى ذلك اعتمدنا ولكننا نسجل المعطيات التالية :

ـ توفي مينحنا سنة ١١٥٠ عن مائة سنة بينما توفي سيدي عبد الله قبله بسبع سنوات أو سنة (١١٤٣/٤) عن ٨٤ سنة.

ـ يذكر مينحنا وسيدي عبد الله واليدالي من المتعاصرين وكأنهم جيل واحد.

ـ ومن ذلك ما ذكره صاحب فتح الشكور (ص ٦٣) من مساجلة شعرية بين سيدي عبدالله على مينحنا، حول برذونة ومبنحنا ولم يذكر البرتلي، وقد أوردها، تلمذة لسيدي عبد الله على لمينحنا ولم يذكر ذلك في ترجمة سيدي عبد الله.

ـ ومن ذلك أيضا أن الدكتور محمد المختار بن اباه ذكر في كتابه دراسات في تاريخ التشريع الاسلامي في موريتانيا (ص ٨٦) احتجاج الشيخ محمد المامي في مسألة زكاة مستغرقي الذمة بموقف مينحنا واليدالي، وقد توفي اليدالي سنة ١١٦٦، وكان معاصرا لابن رازقه صديقا له.

ـ رد سيدي عبد الله بقسوة بالغة فتوى لمينحنا في شأن العقيدة. ونظم في ذلك قصيدته الميمية (ص ١٤١ من الديوان) فكيف يكون التلميذ قاسيا كل هذه القسوة مع شيخه، وهو الذي مر بزاوية محمد بن ناصر الدرعي، فالغز لأهلها في قصيدته الرائية، واستثنى الشيخ الدرعي احتراما له، ونص على ذلك في قصيدته (ص ١٤٧ من الديوان) والألغاز أخف من التشنيع في رد الفتوى.

كذلك استطرد سيدي عبد الله ذكر مينحنا، وكان يجله قطعا في سياق يناسب المعاصرة لا التلمذة.

من اللائي يستصبين مينحن عنـوة وبعهدن في الحراق أحسن معهـد

فلعل نفسية المعاصرة، وليس بين الرجلين إلا عشر سنين طغت على علاقة التلمذة.

(٨٦) مصدر سابق P. Marty - p. 11.

(٨٧) المصطفى بن احمدان : مساهمة في كتابة تاريخ ودان ـ ص ٣٨.

(٨٨) مصدر سابق P. Marty - p. 60.

(٨٩) انظر عدد : فبراير ١٩٨٢ وكذلك : رسالة النعمة بن عبد الله : شخصية الشيخ ابراهيم نياس الكولخي، وV. Monteil-p.132. وقد أنشأ الشيخ ابراهيم معهدا سماه «معهد الحاج عبد الله انياس للغة العربية والعلوم الاسلامية ليكون أداة للتعليم الديني والتعريب. وقد خرج المعهد أعدادا كبيرة من الطلبة، وله فروع في غامبيا والنيجر. ويقوم على ادارته الأستاذ محمد النذير ابن الشيخ ابراهيم.

(٩٠) محمد بن أحمد يوره : إخبار الأحبار بأخبار الابار.

(٩١) ابن الأمين : الوسيط ـ ص ٣٤٧.

(٩٢) أخبرني الأستاذ أحمد بن الطلبة ان الحاج مالك تلقى اجازة في الطريقة التجانية أيضا من الحافظ بن خيري العلوي وحدثني الأستاذ عبد الله بن الهادي بن السبد، وهو حفيد سيدي مولود فال، عن زيارة الحاج مالك لتم بويعلى. قال انه مكث بها شهرا.

(٩٣) انظر أسانيده في آخر كتابه «كاشف الألباس».

(٩٤) راجع بحثه «مساهمة الموريتانيين في نشر الاسلام».

(٩٥) أحمد ابن الطلبة : المصدر السابق.

(٩٦) سكيرج : كشف الحجاب : ص ٣٧٧.

(٩٧) مصدر سابق P. Marty - p. 348.

(٩٨) المصدر السابق ـ ص ١٧.

(٩٩) المصدر السابق ـ ص ٣٥.

(١٠٠) المصدر السابق ـ ص ٣٧.

(١٠١) الوثائق الوطنية بنواكشوط ـ ملف رقم ٦٨/٦٧/ E²

(١٠٢) مصدر سابق ـ ص ٥٥.

(١٠٣) راجع : ـ د. حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام في افريقيا، ـ د. عبد بدوي : مع حركة الاسلام في افريقيا، ـ V. Monteil : Islam Noir.

(١٠٤) راجع دراساته عن الاسلام في السنغال، مصدر سابق ـ ص ١٠.

(١٠٥) المصدر السابق ـ ص ١٨ P. Marty.

(١٠٦) د. محي الدين صابر، خطاب بمناسبة الحملة الدولية لانقاذ المدن التاريخية : شنقيط ودان، تشيت وولاتة ـ «الشعب» الموريتانية ١٧٠٢ بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٤٠١، ١٨ فبراير ١٩٨١.

(١٠٧) طه حسين : الأعمال الكاملة ٣٤٣/١.

(١٠٨) الدليشي، مصدر سابق.

(١٠٩) ابن الأمين : الوسيط ـ ص ٣٨١ وما بعدها.

(١١٠) محمد الحافظ بن أحمد : مقال في «الشعب» الموريتانية ٢٦٤٨ بتاريخ ١٩٨٦/٦/١٨.

(١١١) طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ـ ص ٦٨٠، انظر أيضا : رسالة أحمد بن المفيد عن شنقيط ودورها الثقافي ـ ص ٣٨.

(١١٢) انظر مقدمة كتابه «أضواء البيان» المجلد الأول.

(١١٣) المصدر السابق ـ ٨/١، ٩.

(١١٤) د. أحمد نصيف الجنابي : علوم القرآن الكريم، (حضارة العراق ٥٩/٧).

(١١٥) الندى : أساليب وطرق التدريس المحضري في «الكحلاء».

(١١٦) الدليشي، مصدر سابق.

(١١٧) حول هذا الرجل صدر كتاب «محمد أمين الشنقيطي» لعبد اللطيف الدليشي، ضمن مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالعراق.

(١١٨) محمد محمود ودادي : تعريب «لبرابيش» لبول مارتي ـ ص ٨٠، ٨١.

(١١٩) راجع لهذه القائمة : المختار بن حامد في حياة موريتانيا وأحمد بن الأمين في «الوسيط» ومحمد المختار بن أباه في «دراسات في تاريخ التشريع الاسلامي في موريتانيا» وصالح بن عبد الوهاب الناصري في «الحسوة البيسانية».

(١٢٠) تحدث محمد بن أحمد مخلوف عنه في شجرة النور الزكية، فرعي افريقية وتونس.

(١٢١) الخليل النحوي : مقال اذاعي عنه.

(١٢٢) تجد صورة من شهادة الوسام في الكتاب، وقد أوردها وتحدث عنها ـ محمد بن محمد يحيى بن الدوه في «محضرة يحظيه بن عبد الودود».

(١٢٣) ذكر محمد عبد الرحمن بن السالك في «عون المحتسب» ان ابن رازقه وابن زكري توفيا في سنة واحدة (١١٤٤ هـ).

(١٢٤) الوسيط ـ ص ٧، ٨.

(١٢٥) الوسيط ـ ص ٣٥٨.

(١٢٦) راجع لهذه المساجلات : الجيلاني لعبدا : بحث في ندوة الامام مالك بن انس ـ نشر وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالرباط سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠، عزوا الى : محمد بن محمد سالم في «لوامع الدرر».

(١٢٧) راجع : الناصري في الحسوة البيسانية، أحمد بن الحسن في تحقيق كتاب التكملة لمحمد فال بن بابا العلوي (ص ٢٧) وقد عزا أيضا الى الناصري السلاوي في الاستقصاء ٥٨/٧).

(١٢٨) د. محمد المختار بن اباه : الشعر والشعراء في موريتانيا (المقدمة)، ص ٤٨.

(١٢٩) ابن الامين ـ ص ٢.

(١٣٠) محمد عبد الله بن البخاري : كتاب الابار.

(١٣١) المختار بن حامد، ابن البراء (ص ٤٠).

(١٣٢) ابن حامد، والندى في «دور المحاضر».

(١٣٣) عبد الله بن محمد الأمين، مصدر سابق، ص ٦٥ وما بعدها.

(١٣٤) المصدر السابق ـ ص ٣٠.

(١٣٥) عباس الجراري : ثقافة الصحراء ـ ص ٤٢، ٤٤.

(١٣٦) مصدر سابق ـ ص ٦ Le Courtois.

(١٣٧) المصدر نفسه ـ ص ٣١.

(١٣٨) وزارة الاعلام (نواكشوط) : من أجل اعادة الاعتبار لتراثنا الثقافي الوطني، ص ٦، ٧.

(١٣٩) المصدر السابق نفسه.

(١٤٠) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ـ ص ٢٨.

(١٤١) ابن الأمين ـ ص ١٩٠، ١٩١.

(١٤٢) نتحدث، حديثا عاما، عن القبائل الحسانية وفي ذهننا ما تنصرف اليه اصطلاحا ونسبا في آن : القبائل التي تسنمت ذروة السلطة والنفوذ الحربي في البلاد. وإلّا فان من قبائل الزوايا، طوائف تنتمي لبني حسان، مثل اليعقوبيين وأهل بارك الله فهم بنو عبيد الله بن حسان وقد خدموا اللغة والدين خدمات جلى، ولكن بالعلم لا بالسيف، ولم يشاركوا بني عمومتهم حكم البلاد.

وقد أوردنا في المدخل التاريخي ما يثبت لبني حسان عطاء علميا ثمينا فليرجع اليه.

(١٤٣) السيد بن أحمد وبنعمر ابن فتى : الصداق للشيخ محمد المامي (تحقيق وتعليق) والبيتان من خاتمة نظم الشيخ محمد المامي لخليل.

(١٤٤) Beyrie : Evolution Sociale et Culturelle des Collectivités Nomades en Mauritanie.

(١٤٥) «العربي» الكويتية عدد ٨٣ (مقال : الواح تحت الشجر)، انظر أيضا : سيدي محمد بن بناهي، مصدر سابق ـ ص ٤٦.

(١٤٦) سيداتي بن بابيه، مقال في نشرة تربوية.

(١٤٧) ابن حامد، الجزء السادس من موسوعته، الندى : «دور المحاضر» ـ ص ١٣٨.

(١٤٨) أحمد بن أحمد المختار : اعداد المهج ـ ص ١١.

(١٤٩) الشيخ محمد الأمين الجكني : أضواء البيان ٢٣/١.

(١٥٠) في خديجة هذه يقول أخوها أحمد بن العاقل، مفاخرا، في شعر له

وما أقرات قوما فلانة قبلنا ... على عهد نجل البون ممن يشاهد

ولهذه العالمة شرح على سلم الأخضري في المنطق وشرح لعقيدة محمد بن يوسف المنوسي المسماة «ام البراهين». (انظر مقال الأستاذ محمد بن احمدناه في جريدة «الشعب»، عدد ٢٦٢٣ بتاريخ ٨ رمضان ١٤٠٦/١٧ مايو ١٩٨٦.

(١٥١) غيثي بن أمم ـ ص ٤٦.

(١٥٢) يدين كاتب هذه السطور بجانب كبير من تقحمه ميدان الشعر لوالدته التي كانت تنظم في الرجز ولشقيقته الكبرى، خاصة، زينب بنت النحوي التي كانت تساجله شعرا لتمرينه.

(١٥٣) رواية عن الشيخ محمد سالم بن عبد الودود عزوا إلى مقدمة شرح الهروي لفصيح ثعلب بتحقيق عبد المنعم خفاجي.

(١٥٤) عباس الجراري : ثقافة الصحراء، ص ٢٨ ـ ٣٠.

(١٥٥) مجلة «الأمة» عدد أغطس ١٩٨٥.

الباب الرابع

المحضرة.. رباطا للجهاد

مشروع الدولة الراشدة

مواجهة الأطماع الخارجية

مقاومة الاحتلال

كانت المحضرة، في نشأتها الأولى رباطا للجهاد، ولم يكن الفقهاء الأول إلا مجموعة من المجاهدين يحملون السيف والقلم، يقاتلون بذلك ويعلمون بهذا موقنين أن لا تعارض ولا تناقض بين المهمتين، وإنما هي في الواقع مهمة واحدة ورسالة يؤديها العالم المسلم بريق حبر دواته في سبيلها ولا يتردد في الانفاق من دمه اذا اقتضى الأمر.

وقد خلدت اللغة هذه الصلة العضوية التي صهرت العلم والجهاد في رحاب المحضرة، فاحتفظ شيخ المحضرة والعالم في الاصطلاح العامي الشنقيطي بلقب «المرابط» الذي يحيل على دور المحضرة في الجهاد، ويذكر بأن العلماء الأوائل كانوا مرابطين على الثغور يجاهدون في الله حق جهاده.

وقد دخلت كلمة المرابط Marabout في اللغة الفرنسية منذ القرن السابع عشر، حيث وردت في كتابات عدد من الرحالة : موكي Mocquet سنة ١٦١٧ وسين لو Saint-Lô سنة ١٦٣٧ وبرونودو بومجورج Pruneau De Pommegorge سنة ١٧٨٩. وكانوا يكتبونها أحيانا Marabou أو Marabot(١).

و«المرابط» ـ كما عرفه بابا بن الشيخ سيديا ـ «هو كل زاوي ولا سيما اذا كان ذا سن أو علم أو فضل» وذلك أن صنهاجة كانوا قديما يسمون المرابطين «سمى بها مهديهم عبد الله بن ياسين أصحابه الأولين للزومهم رابطته ثم صارت اسما لعامة صنهاجة وتوافقه عبارة الشيخ سيدي محمد (ابن الشيخ سيدي المختار الكنتي) حيث يقول أن أبو الحاج قبيلة من قبائل المرابطين». ورتب بابا على ما ذكر احتمال أن يكون الزوايا أصلهم صنهاجة.. قال «إلّا أنه يتطرقه احتمال أن الزواي يقال له مرابط لملازمتهم مواقع العبادة التي هي ربط جمع رباط. والرابطة مثله من غير خصوص رابطة عبد الله بن ياسين»(٢).

والواقع أن المحضرة ظلت وفية لميثاقها وعهد نشأتها، فكان علماؤها على مر العصور مجاهدين. كانوا كذلك وبلادهم على فترة من الأحكام بعد سقوط دولة المرابطين وقبل دخول الاستعمار. وكانوا مجاهدين أشاوس في وجه الاستعمار. وهذا ما سنعرض له تفصيلا في الصفحات التالية.

الفصل الأول

مشروع الدولة الراشدة

١ ـ دولة التوبة أو حركة ناصر الدين

لم تقم في بلاد شنقيط دولة ذات شأن بعد دولة المرابطين. لقد حدثت بعض المحاولات، وقامت أشباه دول وامارات، ولكن أيا منها لا يداني مستوى الدولة الصنهاجية.

يقول بابا أحمد بن محمد مبارك اللمتوني :

ولم تنتبه من بعد لمتون دولة	ولم يك في بنيانها بعدهم ظل
... وأين لأهل الله نصر وراءهم	ألا إن أهل الله بعدهم ذلوا(٣)

لقد تمزقت دولة المرابطين، فلم يجتمع أهل البلاد بعدهم على أمير، وإنما كانت لبعضهم دويلات مدن أو قبائل انتظمت في اطار بشري وجغرافي ضيق غير دقيق، فكفلت لنفسها من أسباب التنظيم ما تصون به حياتها وترعى مصالحها الخاصة..

كانت لأهل وادان بها دولة علم ودين ومال. وكان العلويون في شنقيط القديمة (آبير) يسوسون مدينتهم، وقد تكاثروا فنيفوا على ٤٠ قبيلة ما بين صميم وحليف. فكانوا يقتلون من قتل، حتى ارتكب يحي جريمة القتل فيهم، وكان وجيها عندهم فتركوه وطلبوا منه أن يخرج من البلد، فصادف تأسيس شنقيط الثانية.

قال سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم أن أهل شنقيط هذه «كانوا اذا مات شيخ رأسوا عليهم آخر. وبقيت دولتهم بشنقيط دولة دين ودنيا ثلاثا وثمانين سنة، مدة حياة الشيخ سيدي أحمد بن الوافي»(٤).

لم يكن أهل المدن يسعون الى إقامة دولة جامعة بل انهم لم يستطيعوا صيانة «دولتهم» الصغيرة. ولذلك ظل الفراغ قائما.

وفي القرن ١١ هـ/١٧ م، كانت البادية، لا الحاضرة، منطلق أول محاولة جادة لاحياء دولة المرابطين.

ويحار المرء هل يتحدث عن دولة أو عن حزب.. لقد كانت حركة الامام ناصر الدين ميلاد وتأسيس دولة ولكنها كانت أيضا حربا ضروسا التهمت المشروع...

بدأ أبو بكر بن أبهم (أبوهم) بن الفغ (الفقيه) ابهنض (أبو محمد) يعظ الناس واستمر في هذا الاعداد النفسي ثلاث سنوات سميت «سنوات التوبة». ثم دعا الناس الى البيعة فبايعوه. ولعله استلهم من السيرة النبوية فقد بقي النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بمكة ويعبد الله سرا ثلاث سنوات، حتى نزلة الآية «فاصدع بما تومر» في السنة الرابعة.

وتدرج امام الدولة المؤودة في الألقاب كما تدرج في دعوته ونشاطه، فكان أول الامر يلقب «سيدنا» ثم لقب «امامنا» فـ «مشيع الدين» وحمل في الأخير لقب «ناصر الدين».

وقد بدأ ناصر الدين دعوته في بلاد السودان المجاورين، فكان يبعث الى أمراء الضفة اليسرى من نهر السينغال يذكرهم الله ويعظهم ويحذرهم من الظلم « فالله لا يبيح لهم نهب أموال رعاياهم ولا قتلهم أو استرقاقهم».

وأعاد الكرة ٧ مرات وهم معرضون عن دعوته متصاممون عن ندائه. بعدئذ أعرض ناصر الدين عن الأمراء وولى وجهه شطر رعيتهم، فلقيت دعوته حسن القبول في أوساط الشعب. وانطلق المستضعفون في ثورة عارمة أطاحت بعروش الأمراء في فوتا وجلف وكايور ووالو.

وقد شهد الفرنسيون الأحداث، وكان لهم مركز بالسنغال يومئذ، فغاظتهم حركة «المرابط» الشنقيطي.

يقول دي شامبونو Louis Moureau De Chambonneau مدير الشركة التجارية الفرنسية باندر (سان لويس) : «ما رأي الناس قط «مرابط» أو راهبا، وهو الذي يجب أن يكون قد ترك الدنيا وانقطع لله وأن يكون تواضعه عميقا وزهده متصلا وأن لا يهتم بثروات الدول أكثر من اهتمامه بالطين، يغادر وطنه ويذهب الى بلد بعيد ليدفع سكانه الى الثورة ويجعلهم يقتلون أو يطردون ملوكهم بحجة الدين»[٥].

ويقول بير لابات Père Labat، وقد زار السنغال في الفترة ١٦٧٠ ـ ١٦٩٠ إن «المرابطين» (العلماء) البيضان استغلوا نفوذهم في السنغال الذي أدخلوا اليه الاسلام، فانطلقوا يبثون دعاياتهم ضد الملوك المهيمنين على الزنوج، ويرغبون رعاياهم في الحرية واقامة نظام جمهوري (لم تكن فرنسا قد عرفت يومئذ النظام الجمهوري) مماثل لنظامهم هم (البيضان). وقد فعلت هذه الدعاية فعلها في المواطنين السود الذين «رفضوا أداء الأعمال الشاقة التي كان يعهد اليهم بها امراؤهم. وحين هم الأمراء بارغامهم قسرا، استعان هؤلاء المواطنين السود بجيرانهم البيضان فأمدوهم بجيوش وخاضوا معارك انتهت بهزيمة الملوك السود (البراك ـ دُامل وموتهم»[٦].

وكان ناصر الدين يعين محل كل أمير افريقي يسقط، أميرا مسلما من أبناء البلد، لا يفرض عليهم شخصا من خارجه. ولم تتخلف هذه القاعدة إلّا في فوته التي ولى عليها أول الامر النحوي بن أكد عبد الله. ثم لم يلبث هذا أن ترك المنصب لاحد أبناء البلد.

وكانت لهذه الاحداث آثار سلبية على المطامح الاقتصادية والسياسية للفرنسيين في المنطقة، ثم لم يلبث بنو حسان أن شعروا بالضيق من تنامي نفوذ الزوايا.

أما الفرنسيون فكان ناصر الدين يرفض التعامل معهم، وقد منع تجارة الرقيق فضاقوا بذلك ذرعا. وكان يبعث رسله الى أمراء السودان يحثهم على اتخاذ الحيطة والحذر تجاه الدول الأجنبية المتربصة بهم[٧].

وكان ناصر الدين، في أبسط الأحوال، لا يقيم للفرنسيين وزنا.

يقول دي شامبونو :

«ان الملوك يأتوننا لبضائعنا. أما رجال الدين، فانهم يفخرون بتجنّبهم لنا (...) ثم انهم يزدروننا كثيرا بسبب الاختلاف بين «ديننا» و«شعوذتهم»، ويوهمون شعوبهم أننا لا نشتري العبيد إلّا لنأكلهم. ومنذ أصبحوا سادة في البلاد فان عبدا واحدا لم يدخل الى سفننا...».

لقد أضرت حركة ناصر الدين بمصالح الفرنسيين ماديا ومعنويا. وكان الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليهم ضارا بمصالح السماسرة المحليين الذين كانوا يعاملونهم.

ولهذا لم يفتأ الفريقان، وقد التقت مصالحهما، أن انقلبا على المرابطين الجدد.

ضاق بنو حسان ذرعا بنشاط ناصر الدين، لا لأنه نال من مصالحهم المادية فحسب، بل لأنه نال بقدر أكبر من مصالحهم المعنوية.

لقد زعزع هؤلاء العرب النازحون أركان دول عظيمة في المشرق والمغرب، فكانوا شجا في حلق العباسيين في المشرق والفاطميين في مصر، وأبعدهم المرينيون المغاربة من بلادهم ليتقوا بأسهم، فوصلوا «بلادا سائبة» كانوا يحملون أن تكون لهم مستقرا وينالوا بها من السيادة والسيطرة ما طلبوه في البلاد الأخرى، فلم ينالوا منه مبتغاهم. لقد ضاقت بهم البلاد، وكانوا مغرمين بالحرية، ولو على حساب الغير، فطلبوها في الصحراء واسعة الأطراف.

وفي سبيل طلبتهم هذه، لم يتردد بنو حسان في الاقتتال بينهم، فكانت المواجهة الساخنة، قبيل حركة ناصر الدين، بين أبناء العمومة : أولاد رزق والمغافرة. ولم تكن آخر صراعاتهم الدامية من أجل السيادة.

وما ان تغلب المغافرة على أبناء عمومتهم وأجلوهم فاستتب لهم الأمر حتى اقتحم ميدان القيادة «مرابط زاوي» لم تحنكه الحرب ولم ترضعه. ولم يك من الوافدين الجدد، بل كان من

قوم سبقوا المغافرة الى البلاد، فكانت أية حركة ينتظمون بها ليعلو شأنهم ويشتد ساعدهم موضع ريبة ومصدر خيفة ومظهر مواجهة، وان لم تعلن، مع الوافدين الجدد ومنازعة لهم في أمر أرادوه لأنفسهم خالصا.

لقد كانت حركة ناصر الدين، بطبيعتها وبموقعها في التاريخ أشبه شيء برد فعل على سطوة بني حسان وظلمهم ـ كما يصرح بذلك الشيخ اليدالي ـ وان كانت ذات مطامح أكبر.
سطوة بني حسان وظلمهم ـ كما يصرح بذلك الشيخ محمد اليدالي ـ وان كانت ذات مطامح أكبر.

ومع ذلك، ينبغي التحفظ من اضفاء صبغة سلالية على هذه المواجهة، فقد نبهنا من قبل الى من قبائل الزوايا ـ وجلهم يدعي ذلك ـ عربا وأن من صنهاجة من سلك في الحياة مسلك العرب (بني حسان)، فكان واياهم في خندق واحد.

وقد رأينا محمد بن الطلبة ـ واليعقوبيون بنو عبيد الله بن حسان ـ يفخر بفتية من قومه هؤلاء :

على حافظ من عهد «شريبه» حافظوا   على ملكه مثل المجرة مهيع

ولم تقم الحركة بدافع اقتصادي، فقد أوقف ناصر الدين تيار المبادلات التجارية مع الغربيين، لكن الحرب حين وقعت مع بني حسان لم تخل من عوامل اقتصادية، يجب أن لا نهول من شأنها.

أما العامل الديني، فقد كان، بلا ريب، حجر الأساس في بناء دولة التوبة، ولكنه لم يكن وحده السبب في اشعال فتيل الحرب بين «الزوايا» و«حسان»، فقد ظل بنو حسان يحتمون ببعض علماء الزوايا. وذكر أن هدّي بن أحمد بن دامان، وهو أمير الترارزه، وأحد القادة البارزين للحرب، استفتى الحاج عبد الله بن بو المختار، وأفتاه بجواز محاربة قوم ناصر الدين مستشهدا بقوله تعالى : «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم...».

وقد ثبت أن هذا الفقيه وعددا آخر من الفقهاء كانوا ضد حركة ناصر الدين في حربه مع بني حسان، متعللين بأن هؤلاء قوم مسلمون.

لقد قامت دولة التوبه على أساس من الدين. اما الحرب فلم تكن صراعا سلاليا أو عرقيا، ولا كانت مجرد نزاع على المصالح الاقتصادية، ولا هي حرب بين فئة مؤمنة وفئة كافرة، فتلك كانت حرب الزوايا ضد السود الوثنيين.

والذي نراه دون أن نستبعد العامل الديني استبعادا، أن بني حسان لم يستسيغوا قيام «دولة» موازية ذات سلطة مركزية تطمح الى فرض سيطرة دينية سياسية واقتصادية وعسكرية جامعة مانعة، زمام الامر فيها بيد السكان القدامى لا الجدد.

ان طابع المنافسة على السيادة بين مجموعتين، احداهما أقدم وصولا وأرسخ ايمانا وأوفر علما والأخرى حديثة الوصول قوية الشوكة طابع جدى لا مشاحة فيه.

ولئن صح أن الزكاة كانت السبب المباشر في اشعال الحرب، فلأن جبايتها وفرضها على بني حسان بالذات كان مظهرا من مظاهر السيادة وممارسة للسلطة التي بدأ ناصر الدين يستبد بها.

وتقول الروايات الشعبية المتداولة أن سيد الحسن بن القاضي، وكان عاملا لناصر الدين على الصدقات، جاء ببه بن أحمد بن أصور الصكاعي فطلب منه اخراج زكاة ابل، عنده، فامتنع، واحتمى له بنو حسان فوقعت الحرب، وسميت لذلك «شربيه» أي حرب ببه، على خلاف في هذا التفسير[٨].

والواقع أن جباية الزكاة ليست إلا عاملا فرعيا، فالصراع أوسع أبعادا وأعمق أغوارا من ذلك، وهو صراع متعدد الأطراف. فقد وضعت الدولة الناصرية الفرنسيين في السنغال وبني حسان في خندق واحد، وهما طرفان سيصطرعان طويلا فيما بعد.

واستغل الفرنسيون الوضع فأغروا ملك «والو» بشق عصا الطاعة والخروج من دولة التوبة، فاستجاب لهم وحالف المغافرة (وهذا أيضا حلف مؤقت) على حرب الزوايا.

واشتعلت الحرب عوانا بين الطرفين لم يخمد أوارها طيلة ٣٠ سنة : من ١٠٥٥ هـ/١٦٤٥م الى ١٠٨٠ هـ/١٦٧٤ م على ما يرويه بعض المؤرخين مثل والد ابن خالنا والمختار بن جنكي.

ولكن محمد ابن باباه يرى ويوافقه في ذلك محمد المختار بن السعد ـ ان هذه الرواية تخلط بين الدولة أو الحركة والحرب. فلعل حركة ناصر الدين قد بدأت أواسط القرن. أما الحرب فقد تأخرت سنين بعد ذلك[٩].

ويقسم محمد المختار بن السعد الحرب الى مرحلتين :

المرحلة الأولى ضد السود (الوثنيين) والمرحلة الثانية ضد بني حسان. ويرى الباحث أن مدة الحرب لم تتجاوز ٧ سنوات، اعتبارا من سنة (١٠٨٢ هـ/١٦٧١ م).

ويؤيد رأيه في تأخر وقوع الحرب أو انتهائها ما نقلناه آنفا، من كلام بير لابات Père la Bat، الذي زار السنغال في الفترة ما بين(١٦٧٠ ـ ١٦٩٠ م)(١٠٨١ ـ ١١٠١ هـ).

وقد أصيبت حركة المرابطين الجدد بنكسة كبيرة، عندما استشهد الامام ناصر الدين في الوقعة **الثانية** مع المغافرة بترتلاس سنة ١٠٨٥ هـ/١٦٧٤ م، وان كان جيش الزوايا قد انتصر في المعركة. فقد دبت الخلافات في صفوف الجماعة، كما يحدث مع اختفاء كل قائد كبير. واستمر الزوايا في الحرب على تقلب سريع في القادة، حتى يوم تنيفظاظ (١٠٨٨ هـ/١٦٧٧ م) فكانت الغلبة فيه لبني حسان. وكان آخر أيام الحرب.

وهكذا تفككت أوصال دولة «الزوايا»، بعد أن فقدوا في الحرب كثيرا من علمائهم واضطروا لقبول شروط مجحفة (غرامات وغيرها) تكرس سيطرة بني حسان.

وقد لاذ الزوايا، بعد «شرببه»، بالعلم ـ وكانوا أهله من قبلها ـ يحاولون أن يغسلوا به عار الهزيمة، فمجدوا القلم، واعتبروا العلم ملاك الامر كله.

يقول المأمون اليعقوبي :

حرب الزوايا جدال أو مناظرة ... أقلامهم كقسي النبع والسمر
لا بد أن تشهدوا يوم الجدال بها ... ان المدار على ما خط في الزبر
ليس المدار على من يدعي شررا ... ان الجحيم غدا تكفي من الشرر(١٠)

لقد وضعوا القلم موضع السيف ونحلوه رتبته وقيمته، فصار القتال عندهم فتوحا للمعارف وليا برقاب المشكلات، ووظفوا اصطلاحات الحرب في لغة العلم، تعبيرا عن هذه النظرة الجديدة.

يقول أحمد بابا بن عينين الحسني مادحا أهل محمد ابن محمد سالم بعلمهم :

اذا ما المشكلات دعت نزال ... وهاب لقاءها الشهم الجنانا
تصدوا للطعان لها وكانوا ... بني من كان يوليها الطعانا

وما كانوا ليوظفوا لغة الحرب في سياق كهذا، لولا أنهم يعيشون هاجسها ويعترفون للسيف بشطر من السيادة لا يستبد به القلم دونه.

لقد وردت الموازنة بين «السلاحين» صريحة في سياق فخر الزوايا، وقد ظل شعرهم يفيض بالاباء وقيم البطولة.

فهذا محمد ابن الطلبة، شاعر عالم من بيت كثر علماؤه حتى صارت «الطلبة» علما عليه. ولد قرنا من الزمن بعد انقضاء الحرب، تجد الذكرى طرية غضة لديه، فهو وفي لعهد «شرببه»، كثير الفخر بما لقومه من قيم البطولة والاباء واطلاب المجد، قليل الحديث عن أمجادهم العلمية.

اقرأ له هذه الأبيات من قصيدة طويلة :

وفتيان صدق قد دعوت فبادروا ... لمحمدة تغلو على كل بيع
من آل أبي موسى بن يعلى بن عامر ... اذا شهدوا زانوك في كل مجمع
هم ما هم.. ان تدعهم لمضوفة ... يجبك لما تهواه كل سميدع
على حافظ من **عهد «شريب»** حافظوا ... على ملكه مثل المجرة مهيع

... وأبقى مراس الحرب منهم بقية ... بحمد الاله لا تلين لمفظع
... حلومهم أحلام عاد ودينهم ... بنوه على الأس القويم الممنع
بنوه على نهج النبي محمد ... فيالك من نهج هدى متتبع
هم شيدوا أركانه برماحهم ... فما مال حتى صرعوا كل مصرع
... لنا هضبة أعيت على من يكيدها ... اذا غمزوا أركانها لم تلعلع
وانّا اذا ما النائبات تضعضعت ... لها حلماء الناس لم نتضعضع(١١)

ويمثل هذه النغمة الابية الطموح الى المجد والكرامة يطالعك الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا في كثير من شعره. وهذا لب دعوته في أبيات :

... فما حر يقر بدار هون ... ولو كانت مقر الوالدين
وأهل المرء نيل غنى وجاه ... وهل يسعى الرجال لغير ذين
ومسقط رأسه ضر ونفع ... والا فاتباع القارظين
.. فعش حرا فان لم تستطعه ... فضربا في عراض الجحفلين

ولقد كانت للزوايا، بعد «شرببه» فيما بينهم أو مع غيرهم صراعات تستثير ذلك الشجن القديم وحروب يسلكون فيها مسلك بني حسان حذو النعل بالنعل، فاذا هم ينسون هويتهم الثقافية ومجدهم العلمي، ويفخرون ببطولاتهم الحربية فخرا خالصا...

وللأحول الحسني شعر ملحمي رائع، يدع فيه جانبا ما لقومه من مآثر علمية جليلة، مبرزا بطولاتهم، فهم «بنو الحرب»، والابن مسكون بعاطفة البنوة التي تشده الى أمه، فهيهات الجبن والفرار :

إنا بنو الحرب لا نشكو أظافرها ... لو جرحتنا بأنياب وأظفار
خضنا لواها وجنبنا بني حسن ... حمل المغارم من حمل وأوزار
والخيل فيها على الأبناء نوثرها ... **صونا فيالك** من صون وايثار

بنو الحرب لا نعطي القوي مقادة ... ولا نشتكي فيها نزول المصائب
ولكننا نحمي الحمى ونحوطه ... ونزداد صبرا تحت كل النوائب

وبلهجة أقل ملحمية يتحدث ابد الصغير (محمد بن سيدي أحمد ابن محمود) عن حلم قومه وسيادتهم ونفاذ أمرهم وعلمهم، موظفا لغة العلم، مرجحا كفته :

... وليست توازي الشم حلم حليمهم ... ولا علم الا قد أحاطوا به علما
ولا رفع بل لا خفض الا لديهم ... ولا نصب في أيدي سواهم ولا جزما
وتأبى الفتاوي غيرهم فسواهم ... من الناس لا فتوى لديه ولا حكما(١٢)

ويضيف المصطفى بن بابا التندغي المال الى العلم والسلاح، معددا مفاخر قومه :

إنا تنادع لم تبرح لنا الغلبة على الزوايا بعلم وافر طلبه
فالعلم فينا وفينا المال أجمعه والعدّ والعدد الموفور والحلبه
... أبناء أعمامنا فرسان ملحمة يدعون بالكندر المسود والدببه(١٣)

هكذا كان «الزوايا» يتسابقون في حلبة العلم ويتضاربون في ميدان الحرب، ويفخر بعضهم على بعض. وكان لشعرهم في ذلك كله حظ كبير من الصدق، فقد أبدعوا في البيان وأوجعوا في الطعان. وكان من حروبهم الطاحنة حرب ودان وشنقيط التي دمرت وتبرت، على أنها أنتجت أدبا رائعا، يرسم ملامح نفسية الزوايا، بعد «شرببه»، وفيها من القابلية لحمل السلاح والتأهب للقتال مثل ما فيها من الاقبال على العلم والانصراف اليه.

تأمل هذه الأبيات لحرمة بن عبد الجليل :

... تراهم ـ وليس الدهر إلا نوائبا ـ اذا كبرت تلك النوائب أكبرا
سما للمعالي من تقدم منهم ويسمو على آثاره من تأخرا
مآثرهم حلي الزمان لو أنه على صورة الانسان كان مصورا
فكم من فتى منهم يروقك علمه ويهزم من أجناد وادان عسكرا
ويجعل في احدى يديه **مهندا** **طريرا**، وفي الأخرى **كتابا مطررا**
يحب الردى يوم الوغى فكأنه اذا مات فيه لا يزال معمرا(١٤)

لقد ظلت روح المقاتل تسكن هؤلاء القوم حتى بعد هزيمتهم. ولم تزل تجد فيهم عرقا نابضا بالاباء والطموح ولسانا صادحا بالبطولات وقلبا تواقا الى الغلبة في الأرض والسيادة عليها والريادة، فقد كانوا أعزاء النفوس، تواقين للحرية طلاعين لانجاد المجد، ما لم يكن من ذلك بقوة السلاح، فانه يكون لهم بالعلم، وبالشعر...

* * *

وكان «الزوايا» ـ وقد سقطت دولتهم ـ يرعون عهدها ويرقبون إلّها وذمتها في حركات الجهاد في البلاد المجاورة، فيعرفون لأهلها فضلهم ويدعمونهم ما استطاعوا.

وكان أثر دولة التوبة قويا في السنغال، فقد استطاع أهل العلم المجاهدون أن يبعثوا هنالك المشروع الذي دفن في بلاد شنقيط، فانطلقت بعيد الحرب الحركة الامامية في بيدو التي انتخبت سنة ١٦٩٠ م مالك سي امام لها.. وتبعتها الثورة الالامية، قادها كارموكا مؤسس المملكة الفلانية الاسلامية وتألقت في عهد خليفته ابراهيم توري ممادو (١٧٥١ ـ ١٧٨٤ م) وحركة تورودو بقيادة سليمان بال(١٧٦٦ م)(١٥).

وبالجملة فان «جميع التحولات التي حدثت في السنغال، خلال القرن الثامن عشر، مثل ثورة الامام عبد القادر وقيام دولة الأئمة... كل هذه التحولات الدينية والسياسية هي ثمرة عمل «المرابطين البيضان»(١٦)، وهي أثر من آثار حركة ناصر الدين، ظل الزوايا يدعمونه.

وقد أيدوا الشيخ عمر في جهاده، أمده محمدي ابن النحوي بمائة رجل يقاتلون معه(١٧)، وألف الشيخ أحمد بن بدي في الانتصار له كتابا يعبق عنوانه برائحة الجهاد : «الدرع والمغفر في الذب عن الشيخ عمر».

ويذكر الشيخ محمد النحوي أن أحمد بن محم العلوي كان مريدا للشيخ عمر، محبا له، فسمع ما لا يرضيه، وهو بالمسجد في انتظار الصلاة، ففاضت عيناه بالدموع. وكان الشيخ أحمد بن بدي حاضرا، فبادر من يومه الى تأليف كتابه في الدفاع عن الشيخ عمر.

ولم يغب الشناقطة عن حركة الجهاد واقامة الدولة الاسلامية في نيجيريا على بعد الشقة، فقد كان الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد على صلة ود وتشاور مع مؤسس دولة سوكوتو الاسلامية : الحاج عثمان دان فوديو وأبنائه(١٨).

وكان للشيخ سيديا الكبير مراسلات مع آل عثمان فوديو، وقد مدحهم بانتصاراتهم :

رددتـــم فرضا له جمـــوح اذ عاق عنه العجز والطموح

وفي المغرب من قبل، شارك العلامة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم في حملة السلطان سيدي محمد بن عبد الله ضد البرتغاليين.

وكان في هذه الأحداث وغيرها تذكار للزوايا بسابق عهودهم وحفز لهممهم، فظلوا يطمحون الى نصب الامام واقامة الدولة الراشدة.

الدعوة الى نصب الامام

جدد الزوايا في القرن الثالث عشر الهجري دعوتهم الى الجهاد واقامة الدولة التي تلم شتات المسلمين في البلاد وتحقن دماءهم وترعى مصالحهم.

وقد صدرت الدعوة من أوساط الفقهاء، والمتصوفة، وكانت البادية منطلقها، مثلما كانت في عهد ناصر الدين.

فرغم أن محمد مولود بن أحمد فال طوع نظمه «الكفاف» في الفقه لواقع الحياة البدوية، مهملا الأبواب التي لا يحتاج اليها البدو عادة مثل زكاة النقدين وصلاة الجمعة والحج والاعتكاف، فاننا نجده يخصص في نظمه بابا للجهاد مبرزا ضرورة تنصيب الامام لخوضه(١٩).

وهو في ذلك يقفو سنن الشيخ محمد المامي الذي نظم الأحكام السلطانية للماوردي وبرمج في محضرته دراسة السياسة الشرعية[٢٠]، وأدركته الغيرة من أئمة فوتا، الذين أقاموا دولة سنية على مشارف البلاد الجنوبية فدعا الى إحياء دولة الزوايا الموعودة

يقول الشيخ محمد المامي من قصيدة طويلة :

... وينصب حاكم بالعدل يقضي   فلستم بعده تتنازعونا
فينفي ظلم بعضكم لبعض   وبالحد المقام تطهرونا
... ويصبح أمركم شورى لديكم   وتتفقون فيما تصنعونا
وتعرض عنكم حسان لما   رضيتم ملة الاسلام دينا[٢١]

وقد تلقى هذه الدعوة بالقبول ورددها علماء آخرون منهم الفغ (الفقيه) سيدي أحمد العلوي ومحنض بابه الديماني الذي كان قاضيا للأمير الحساني محمد الحبيب، أثيرا عنده، فلم يمنعه ذلك أن يجهر بالدعوة ذاتها :

... حرض على نصب الامام فانه   بدوائه يشفي من الأسقام
فرض الجهاد على الانام فريضة   يعصي اذا تركت جميع الانام
كيف الجهاد وكيف كف محارب   من معشر فوضى بغير امام
... فاغدوا على نصب الامام بقرعة   وابغوا بذاك نصيحة الاسلام

يقول ميلود بن المختار خي في كتابه : «عيون الاصابة في مناقب محنض بابه» :

«وقد لبث الشيخ رحمه الله يدعو الناس الى نصب الامام واقامة دين الله، اذ يجوز ذلك ـ على الاصح ـ في بلاد لا تجري عليها أحكام الامام، فصار معه في ذلك جماعة فركبوا وجالوا في البلاد يرفعون عقيرتهم به في كل واد، وحضّوا عليه بالنظم والنثر وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر، فوجدوا الناس ماتت قلوبهم عن الحق وصمت آذانهم وعميت أبصارهم حتى كأنه لم يأت به بشير نذير داع الى الله باذنه وسراج منير، فلم يعرفوا للدين عرينا ولم يجدوا عنه مبينا فانا لله وإنا إليه راجعون».

وكانت الدعوة الى نصب الامام مواجهة سياسية مع بني حسان لم تنتطح فيها من الطرفين عنزان، رغم مجاهرة علماء الزوايا بالشكوى من بني حسان والسخط عليهم والتطلع الى اقامة دولة على أنقاض دولتهم.

وكان الشيخ سيديا الكبير، وهو مكين أمين عند أمراء البلاد، صريحا في العتب على بني حسان والتنديد بهم :

وذه البغا، طوائفا سدت بها   طرق الرفاق غدوهم ورواح
ما رفقة تلقاهم الا غدت   نهبا، وفيها مقتل وجراح[٢٢]

والواقع أن الدعوة الى بعث الدولة المرابطية لم تثمر، كما قال ميلود بن المختار خي، ولكنها كشفت ما عليه الزوايا من الطموح الى تجديد عهد الاسلاف. وهو طموح لم يغظ بني حسان لأن الدعوة لم تأخذ شكلا منظما جادا، ولأن الزوايا كانوا قد بلغوا من النفوذ ما يطمحون اليه، فكانت لهم سلطة في المجتمع وإثرة لدى الأمراء.

٢ ـ سلطة العلماء

أدرك «الزوايا» بالعلم ما قصروا عنه بالسلاح فأسسوا دولة في القلوب خلفت بخير دولتهم على الأرض، فكانوا أهل سلطة ونفوذ في الناس، مسموعي الكلمة عند بني حسان، مشاييخ لامرائهم وقضاة وكتبة لهم، وإلا يكن ذلك فأنداد محترمون.

ولهذه العلاقة جذور قديمة في تاريخ البلاد، حيث كان للعلماء منذ عهد المرابطين سلطة نافذة على الامراء، فالفقيه عبد الله بن ياسين لم يكن أميرا، ولكن الامير يأتمر بأمره. وإلى الفقيه تعود صلاحية تعيين الامير بل عزله. ويروى أنه علا الامير يحيى بن عمر اللمتوني ـ وكان يدعي أمير الحق ـ بالسوط فضربه، وقال له : انما ضربتك «لأنك باشرت القتال واصطليت الحرب بنفسك، وذلك خطأ منك فان الامير لا يقاتل وانما يقف ويحرض الناس ويقوي نفوسهم، فان حياة الامير حياة عسكره وموته فناء جيشه»[٢٣].

ويؤثر عن سيدي محمد الكنتي (والد الشيخ سيدي أحمد البكاي) أنه كان على صلة وثيقة بعرب المعقل النازحين الى بلاد شنقيط، وأيد حركتهم لاخضاع قبائل صنهاجة[٢٤].

«وكان أحمد بن دامان (١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م) مؤسس امارة الترارزة يحمي زوايا منطقته ويحسن اليهم»[٢٥].

وقد حدثت بين الفريقين مواجهة استثنائية أيام ناصر الدين، الذي اصطلى الحرب بنفسه، كأنه لم يسمع نصيحة عبد الله بن ياسين. لكن بني حسان لم يخوضوا الحرب إلّا وقد استفتوا بعض علماء الزوايا. فقد أفتاهم الفقيه الحاج عبد الله بن بو المختار بما يسوغ تصرفهم، والى ذلك يشير الشاعر حيث يقول :

ونحن المنقذون من الزوايا   بني حسن وناصر لو أطاعا

وكان محمد بن المختار بن الأعمش ضد حركة ناصر الدين. وقد اعتزلها الفاضل بن باب أحمد[٢٦] وبارك الله بن بازيد.

وقال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان أن «الزوايا لم تتفق كلمتهم على محاربة المغافرة كتوافقها على محاربة السودان، لأن الفاضل بن باب أحمد الذي هو حائز السبق فيهم علما وعقلا لم يوافقهم على محاربة المغافرة لكونهم غير كافرين»[٢٧].

وبعد انقضاء الحرب (شربيه) بدأت آثار الجفوة بين الفريقين تنمحي، وتعززت الصلة بين بيوت العلم وبيوت الامارة.

وكان آل الشيخ القاضي، وهم أهل محضرة ذائعة الصيت في أجيجبه سندا لعثمان بن الفظيل في طموحه لحكم آدرار.

وكانت لسيدي عبد الله بن محمد العلوي (١١٤٤ هـ) صولة في مجال الدولة، بما كان له من اثرة عند سلاطين المغرب. وقد توسط عندهم لصالح صديقه الأمير المغفري علي شنظوره (١١٣٩ هـ)، فأمدهما بمحلة (جند وعتاد) ساعدت أمير الترارزة في تدعيم سلطانه وزادت زميله العلوي هيبة في النفوس حتى خاطبه محمد اليدالي بلقب الملك :

ان لذت بالسيد **الملك** لست بعد أبالي.

ويذكر أيضا أن علي شنظورة كان مريدا للأمين بن الفغ أحمد. وقد لجأ الأمين إلى علي يشكو جور الخاظير (الخضر) أحد المتجبرين من بني حسان فأعطاه الامير عمامته، وكانت رمزا للدولة، ليضعها على رأسه، فما أن رآها الخضر حتى احتمل بركبه[٢٨].

واتفق لمحمد بن اليدالي (١١٦٦ هـ) أنه كان في أرض أحمد بن هيبة بن نغماش (ت ١١٧٥ هـ) أمير البراكنة، فسمع شعرا شعبيا (عاميا) في تمجيد الأمير، فأخذته غيرة الهية وصمم أن ينظم على منواله شعرا فصيحا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فنظم مطربته الطويلة :

صلاة ربـــــي ... مع السلام
علـــى حبيبـــي ... خيـــر الانـــام
بادي الشفـــــوف ... دانـــي القطـــوف
بر عطـــــوف ... ليث همـــــام

فبلغ أمره الأمير فاستدعاه مغضبا يسأله لماذا صرف مديحه إلى غيره (وكان تصرف اليدالي مظهرا من مظاهر الصراع بين الفئتين)، فرد الشيخ العالم بثقة :

ـ صرفته الى من هو خير مني ومنك.

فأذعن الأمير[٢٩]. ثم ان الصداقة توطدت بينهما، وأهدى الامير جملا الى «المرابط» اليدالي وقال له : هي غرامة لك عليّ وعلى ولدي الى يوم القيامة.

وكان أمير تكانت القوي محمد بن محمد شين (١١٣٦ هـ) يدين بخضوع تام وولاء اسطوري للعلامة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم (١٢٣٣).. قال ابن الأمين : «انه كان لا يقطع أمرا دونه»[٣٠].

وقد عرف أمير آدرار احمد الملقب «ولد عيدة» (١٢٧٩ هـ) بالعطف على العلماء وكان مريدا للطالب أحمد بن طوير الجنة[٣١].

وكذلك حفيده احمد بن محمد بن أحمد (١٣٠٨ هـ). ومن مظاهر تقديره للعلماء وقوة نفوذهم أن علامة شنقيط الشيخ بن حامني اتهمه بالظلم لجريه على سنن أمراء حسان من جباية «الحرمة» وغيرها من الوظائف (ضرائب مقابل الحماية) على بعض فئات المجتمع بمقتضى عهود «شربيه»، فاستقال من منصبه ثلاثة أيام، حدثت فيها غارات واستنجد به الناس فلم ينجدهم لتخليه عن وظيفته. وظل على ذلك الى أن تدخل القاضي الشيخ بن حامني من جديد وطلب منه العودة الى منصبه كأمير كامل السلطة[٣٢].

ومن قوة القضاة في الله، أن السالك بن بابا رفعت اليه قضية تتعلق بالحزام بن معيوف وهو أحد أبطال بني حسان وفرسانهم الأقوياء، فقال لحزام أنه سيقتل من يجرؤ على الحكم ضد هواه، لكان القاضي كان شجاعا، فقال لقومه : اشغلوه عني حتى أفرغ من تحرير الحكم، وليقض بعد ذلك ما هو قاض. وحين حكم القاضي على الزعيم الحساني، لم يكن من الحزام إلّا أن رضخ للحكم وأذعن لسلطة القاضي[٣٣].

وكان أمراء الترارزه يعينون القضاة ويخضعون لأحكامهم.

وكثيرا ما لمس العلماء في نفوسهم القدرة على مواجهة رجال بني حسان الذين لا يقدرون لهم قدرهم، فأروهم عزة وشمما. وكان الطالب أحمد بن محمد رار «لا يبالي بالظلمة ولا يقوم لأحد منهم. واذا صافحه يمد له رؤوس أصابعه زاهدا فيه»[٣٤].

وكان العلماء يجيرون على أمراء بني حسان فلا يخفرون ذمتهم. وقد صار محمذ فال بن متالي «حرما آمنا يفر اليه الخائف فيأمن». وكان اذا أجار لاجئا من عدو يريد قتله «أجلسه بين كتبه»[٣٥].

وقد لجأ الى النحوي الزينبي حي من «التياب» فأجارهم على علي شنظورة أمير الترارزه[٣٦].

أما الشيخ سيديا فقد «أذعنت له الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يعقب أمره. وكانت العرب في أرض شنقيط تجعله حرما آمنا فيجتمع عنده أحدهم بمن قتل أباه أو أخاه فيجسلهما على مائدة واحدة. واذا بلغ الجاني نواحي البلد الذي يقيم فيه أمن على نفسه»[٣٧].

وكان أمراء المنطقة يدينون له بالولاء التام ولا يجرؤون أن يخالفوا له أمرا، وكل منهم يدرك ما للشيخ من نفوذ على نظرائه من الامراء الآخرين، وهذه نماذج تشهد لما ذكرناه.

فقد كتب أحمد ابن عيده أمير آدرار الى الشيخ سيديا في رسالة يقول :

«اني عبد ما دمت حيا ومن معي لا أخالفك في شيء كبيرا أو صغيرا، وأفوض لك أمري في كل شيء من أموري، وافعل ما شئت به. وهذا عام في كل زمان ومكان. واقض بما شئت لا حرج عليك ولا نقض»[٣٨].

وكتب بكار بن سويد أحمد أمير تكانت (دوعيش) يشرح للشيخ سيديا ملابسات نزاع امارته مع امارة الترارزة، ووصفه في الرسالة بانه حبيبه وشيخه[٣٩].

وكلا الاميرين يدرك ما للشيخ من نفوذ على نظيرهما وندهما محمد الحبيب أمير الترارزة، فابن عيده يطلب من الشيخ سيديا «أن يقبض له الخير» من محمد الحبيب أي أن يفرض عليه الصلح والتفاهم، وابن سويد أحمد يطلب منه «أن يبعث اليه ابن محمد الحبيب» للتفاوض.

وتظهر مكانة الشيخ سيديا جلية في اللهجة التي كان يخاطب بها الأمراء. فهو يقول في رسالة الى الامير أحمد بن عيده :

«اعلم أنا نعزم عليك ونجزم بتوجيه أمرنا بالقدوم مع حامل المرسوم حتى تنيخ بين أيدينا عند بوتلميت في سبعة من رؤساء قومك لنؤدي نحن وأنتم ما يجب علينا من السعي والاجتهاد في اصلاح ذات بين المسلمين»[٤٠].

وفعلا، لبى الأمير دعوة الشيخ أو نفذ أمره، فمثل بين يديه.

وقد كتب الشيخ سيديا الى زعماء البراكنه : أولاد عبد الله وأولاد نغماش ومن معهم يحثهم على الانصاف والعدل بين المسلمين ويحذر من مغبة عدم امتثال أمره[٤١].

وله مراسلات مع محمد الحبيب ينصحه فيها ويحثه على العدل ويخاطبه بلغة الآمر الناهي الأعلى شأنا والأوسع نفوذا[٤٢].

وكان الشيخ سيديا يسعى للاصلاح بين بني حسان والتاليف بين اماراتهم المتنافرة واستطاع أن يقنع زعماء امارات آدرار والترارزة والبراكنة بالاجتماع في مؤتمر ثلاثي، انعقد تحت رعايته بتندوجه سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م[٤٣].

وبهذا المستوى من النفوذ استطاع العلماء أن يصلوا الى بعض ما كانوا يطمحون اليه من اقامة الحدود والحكم بشرع الله.

اقامة الحدود[٤٤].

مارس العلماء السلطتين القضائية والتنفيذية، في ظل الامارات الحسانية وخارجها، مستفيدين من العلاقات الطيبة التي تربطهم بالأمراء والهيبة التي يتمتعون بها في بيئتهم.

وقد فرض الطالب محمد بن أبي بكر الولاتي الجزية على يهوديين زارا ولاتة[٤٥]. وذكر أن الحاج أحمد بن الحاج الأمين التواتي الغلاوي، المتوفي سنة ١١٥٧ كاد أن يقيم الحدود في بلده لأنه مسموع الكلمة (...) وقد ترك عنده بعض الظلمة عكتين فلما أتاه قال له : أنت يا ابن الكلب تركت عندي شيئا؟ انما تركت عندي مال المساكين والفقراء فدفعته لهم[٤٦].

وقد حاول سيدي محمد (حبت) بن سيدي أحمد بن الامام أحمد اقامة الحدود[٤٧].

وكان محنض بابه «يرى على نفسه وهو بالبلاد السائبة ما على الامام الاعظم من تنفيذ الأحكام وأخذ الحق من الظلام ان استطاع الى ذلك سبيلا (...) فحيث وجديدا الى قصاص من قاتل أو قتل محارب أو تعزير عاص بادر»[٤٨]. وقد قام بتطبيق الحدود في عهد الأمير محمد الحبيب.

وكان المرابط بابا بن محمذ بن حمدي الحاجي مهتما بتطبيق الشريعة وعدم تعطيل الحدود. ويذكر أنه أشرف على تنفيذ حدّ القتل في مجتمعه[٤٩] قصاصا من رجل قتل زوجه غيلة[٥٠].

وذكر محمدي (بدي) بن سيدينا في كتابه «نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ» أن رجلا من قبيلة العويسات سعيد بن حبيب قتل فقيها ورعا من قبيلة أديقب (مولود بن الفغ عمر) فتوجه ركب من قبيلة القتيل، وهي من قبائل الزوايا المشهورة بالعلم، صحبة أبناء عمومتهم أهل بارك الله، ومن بينهم القاضي سيدي عبد الله بن الفاضل (فحل تيرس)، الى قبيلة القاتل يطلبون القود، فسلموه اليهم طوعا فقتلوه قصاصا[٥١].

وحدث أن الشريف بن اعنيير، وهو ابن عم عبد الله بن اعلي بن أحمد رئيس أولاد اللب، قتل البخاري بن سعيد، من بيوت علم أولاد الفغ حبيب الله، فسار وفد من أهل بارك الله بقيادة أحمد يعقوب بن محمد بن اعمر يطلب القصاص فطلب عبد الله بن اعلي رئيس القبيلة الحسانية من الوفد الاكتفاء بالدية المغلظة فرفضوا الاقتراح، فما كان من زعيم القبيلة إلّا أن سلم القاتل، فطلب وفد الزوايا من زعيم القبيلة أن يتولى بنفسه قتل ابن عمه قصاصا ففعل[٥٢].

* * *

لقد قامت بين الزوايا وبني حسان علاقة ثقة وتعاون استفاد منها العلماء كثيرا، ولكنهم أيضا أفادوا نظراءهم من بني حسان، فقد محضوهم النصح وأضفوا على سلطتهم صبغة الشرعية عند الجمهور، وأصفوهم الوداد وخلدوا ذكرهم بالثناء الجميل عليهم شعرا ونثرا.

فقد مدح اليدالي الامير أحمد بن هيبة بن نغماش وقومه برائية ينسبهم فيها الى جعفر بن أبي طالب ويقول فيهم :

ثغور المعالي قابلتهم ضواحكا   اليهم. وكم مصوا لمى ذلك الثغر

ورثى ابن رازقة اعمر آكجيل التروزي (١١٤ هـ) بقصيدة طويلة فأبدع في تأبينه وفيها يقول :

هو السيد الممتد في الناس ذكره   وفي البؤس كفاه وفي البأس قاضبه
... فتى يهب الآلاف عفوا، وتنكفي   مخافته الآلاف حين تحاربه
تنوع فيه الناسبون فكلهم   الى كل جنس كامل الوصف ناسبه
... إمام ندى في جامع المجد راتب   تحيل القضايا أن تنال مراتبه(٥٣)

وقد أثنى والد بن خالنا على هذا الامير وعلى ابن أخيه اعمر بن علي شنظوره (١١٧٠ هـ)(٥٤).

ومدح محمد الحسن بن محمد عبد الجليل أمير ادرار العادل أحمد بن محمد، ومدح سلفه :

أميـــــر فارس بطل جواد   خليفـــة فارس بطل جواد(٥٥)

وكذلك مدحه محمذ الملقب اباه ابن النحوي، بقصيدة ينصحه فيها برفع الظلم :

يا أحمدا فانه الطغام عن الطغا   نهي الطغام عن الطغا ارشاد(٥٦)

وأثنى الشيخ محمد فال بن بابه على أمير الترارزة محمد الحبيب بن اعمر بن المختار (١٢٧٧ هـ) وقال انه «كان من أهل الخير يبجل العلماء»(٥٧)... وأثنى على ابنه، الأمير من بعده، سيدي بن محمد الحبيب (١٢٨٨ هـ) فقد كان «يحب العلماء ويبجلهم ولا سيما أهل الورع منهم، يسأل عن النوازل الواقعة ويتناظر العلماء بين يديه وتنظر الكتب حتى يظهر له الصواب ويفهم، تكثر الزوايا ولا سيما العلماء بمجلسه»(٥٨) وبمثل ذلك أثنى عليه الشيخ محمد بن حنبل شعرا، فقال أنه :

... ألفى الزوايا كالهشيم رمت به   بين القفار دبورها وصباها
فثنى عليها عاطفات حنانه   وأقام يرأب جاهدا مثآها
فأضاء ليلتها وجمع شملها   وأقر بعد مخافة أحشاها
... عبد الشريعة مكرم علماءها   مولى مواليها عدو عداها
أوفى بذمتها وحاط حدودها   وأطال سمك منارها وبناها(٥٩)

* * *

هكذا ساد جو من الثقة والتعاون والتقدير المتبادل بين أعيان الزوايا وأعيان بني حسان، فاستغل العلماء هذا الجور خير استغلال لابتناء مجدهم، وتحويل هزيمتهم الى انتصار وان في حدود.

لقد وضع الزوايا السلاح فهادنوا بني حسان وواتوهم ولكنهم لم يدعوا الراية تسقط من أيديهم ولم يتخلوا عن أهدافهم بل ظلوا متشبعين بنفسية المجاهد. كل ما حدث أنهم غيروا أساليب عملهم، طائعين أو مكرهين، ثم صار التطبع فيما بعد طبعا لهم، فكانوا ـ في الغالب ـ قوما مسالمين، يبحثون عن الغلبة والتفوق بالرفق، ويواصلون دعوتهم الدينية ـ السياسية ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة، ساعين بجد للسيطرة على قلوب الناس، تاركين قوالبهم لأخوتهم حملة السيف.

قامت فلسفة الزوايا ونظرتهم الى الحياة بعد ناصر الدين على شطر بيت غزلي لأبن الشيخ سيديا :

* ينال بالرفق ما بالعنف لم ينل*(٦٠).

وقد آتى منهجهم هذا أكله. فقد أخفقوا من قبل في السيطرة بالقوة على البلاد، ولكنهم نجحوا بالرفق (بقوة الدين والعلم) في اخضاع الأمراء وتكوين أشباه دول تتعدى اطار القبيلة والمنطقة فتمتد على رقعة بشرية وجغرافية أوسع من رقعة الامارة الحسانية.

وبهذا النهج حقق المتصوفة ما حققوا في بلاد الاسلام دون أن يلجأوا الى السلاح إلّا كعامل مساعد ثانوي.

ولعل الزعيم الهندي غاندي الذي درس تاريخ الاسلام قد استوحى منهجه في انجاز «الثورة السلمية» من تجارب المسلمين الغنية في هذا المضمار.

وقد زاوج الشناقطة بين المنهجين، وخلطوا الرفق بالعنف وهم يواجهون قوة أعتى من الامارات الحسانية : الاستعمار الفرنسي.

الفصل الثاني

مواجهة الأطماع الخارجية

١ ـ التجارة الغربية

مهدت فرنسا لاحتلال بلاد شنقيط طيلة قرنين وزيادة، مستغلة التجارة على المحيط ونهر السنغال لتوثيق الصلة مع الأعيان، وخاصة الأمراء، ومنتدبة رجالها المستطلعين لدراسة أحوال السكان وتقاليدهم وتشخيص عوامل قوتهم ونقاط ضعفهم والتعرف على سبل الأرض وفجاجها.

وقد كان حضور فرنسا واضحا أيام حركة ناصر الدين. وقد أشرنا الى ما كان لها من دور في توظيف العامل الاقتصادي لتأجيج الحرب داخل البلد ومع ملوك والو. وكانت دولة ناصر الدين ترفض التعامل مع الفرنسيين وتأبى تجارة الرقيق على نحو خاص.

وبعد سقوط دولة «الزوايا»، وعلى مراحل، تمكن الفرنسيون من توقيع اتفاقيات تجارية مع بعض الأمراء. وكانت النصوص تحرر باللغتين العربية والفرنسية، وتحدد رسوما، تحمل عنوان «الجزية»، يتلقاها الامراء مقابل السماح لفرنسا بحق التجارة. وكانت بنود الاتفاقيات تراجع من حين لآخر في ضوء ميزان القوة المتغير، فيخفف مقدار «الجزية» أو يثبت، وكذلك الشروط الأخرى التي يفرضها الأمراء على الفرنسيين. وقد أدت مطامح فرنسا الى صدامات مع الامارات، وارتفعت أصوات العلماء غير ما مرة بمعارضة هيمنة التجار الأوروبيين وتأييد الأمراء الذين يواجهونهم.

وقد قاوم أمير الترازة اعمر بن المختار بن الشرقي (١٢٤٥ هـ) المشاريع الزراعية الفرنسية على ضفة النهر(٦١).

وكان التدخل الفرنسي سافرا في امارة لبراكنة، حيث تضررت مشاريع التجارة الاستعمارية في عهد الأمير المختار بن سيدي ابن سيدي محمد (١٢٥٧ هـ/١٨٤١ م ـ ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣ م) فقرر الحاكم الفرنسي في السنغال اختطاف الامير البركني. وتم تنفيذ القرار يوم ٢٧ يناير ١٨٤٣، فاقتادته فرقة فرنسية الى مدينة اندر بالسنغال. ومنها نفي الى الغابون، وكان مستعمرة جديدة احتلها الفرنسيون في السنة السابقة (١٨٤٢)، واحتجز هناك في

قرية صغيرة Faure d'Aumale، فكان على حد تعبير بول مارتي «مدشن الاعتقالات في هذه المستعمرة».

وفي المنفى حاول الامير وجماعته الافلات من معتقلهم يوم ١٣ سبتمبر ١٨٤٤، ومعهم ثلاثة من حراسهم العسكريين، نجحوا في استقطابهم، ولكن الجماعة ـ وقد وجدت نفسها محاصرة في منطقة وثنية معادية ـ اضطرت للعودة الى المعتقل.

وهناك نشط الأمير بصفته «مرابطا» يدعو الى الله، فنشر الاسلام في القرية، وبسط نفوذه على سكانها.

ويبدو أن الامير المجاهد استطاع أن يوصل معلومات عن ظروف اعتقاله الى باريس دون علم السلطات الاستعمارية في غرب افريقيا.

وهكذا صدرت في ٥ مايو ١٨٤٨ رسالة من شلشر Schelcher نائب كاتب الدولة للمستعمرات موجهة الى الحاكم الفرنسي في غرب افريقيا يذكره بان المختار سجين سياسي وأن اعتقاله «انتهاك لحقوق البشر»، وأشاد بعظمة السجين وأمر باطلاق سراحه وإعادته الى بلده(٦٢).

ولعل هذه «الروح الانسانية» كانت ثمرة ضغوط انجليزية، فقد ذهب بعض أقرباء الامير المنفي الى بانجول (غامبيا) يطلب من الانجليز حمايته وتمكينه من الدخول الى الغابون لرؤية الامير.

ولكن الرسالة لم تثمر، اذ يبدو أن المختار توفي في منفاه، وليس في معلوماتنا ما يشير الى عودة أي من رفاقه. وفي ذلك ما يوحي بأن التعليمات ألغيت عمدا.

وقد بذلت دولة الأئمة الفوتية ـ وكانت حليفا لامارة البراكنة ـ جهدا للثأر للأمير البركني، إلّا أن فرنسا نجحت في اسقاط زعيم الدولة يومئذ واحلال امام «معتدل» محله.

وكان لبراكنه يغيرون على الفرنسيين ورجالهم في السنغال فينهبون من أملاكهم. وقد أدرك هؤلاء نفوذ المشاييخ، خاصة الشيخ سيديا في بلده، فكتب اليه الجنرال «فيدرب» في احدى هذه المناسبات، يطلب منه التدخل لاعادة ما سلبه أولاد أحمد من أمواله وأموال «عياله» ويهدده اذا هو لم يفعل.

وقد رفض الشيخ سيديا، في رده على الحاكم الفرنسي، استغلال نفوذه لدى الأمراء، متعللا بان علاقة الزوايا وحسان لا تسمح لأي طرف منهما بالتدخل في شؤون الآخر. وخاطبه بلغة حازمة، ودعاه الى الاسلام وذكره برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم الذي اقتنع بالاسلام، لولا أن قومه ثبطوه، فآل ملكه الى الزوال.

وهذه بعض فقرات الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله، الملك الحق العلي العظيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه ورسوله الكريم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم على دينهم القويم هذا وانه من عبد ربه الغني به سيدي بن المختار بن الهيب طهر الله منه الجيب وستر العيب وأصلح الشهادة والغيب الى فضرب اميراندر الذي خفي عليه كثير من حقيقة الوبر سلام على من اتبع الهدى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى أما بعد فاعلم يا فضرب أن مكتوبك وصل الينا وقدم به حامله علينا فنظرنا فيه فاذا هو مشتمل على أسلوب من الكلام لم يواجهنا بمثله قبلك أحد من الانام لما فيه من الجرأة والتوعد بالانتقام إن لم نرد اليك ما نهبه أولاد أحمد من مالك ومال عيالك»... «فاعلم أنا ندعوك الى الاسلام ونأمرك به أمرا جازما لتنجو به من النار وتخلد به في الجنة خلودا ملازما والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم فأسلم تسلم ويوتك الله أجرك مرتين وتفز بما فيه لك قرة العينين وانبذ عنك شهاب الكفر بدخانه واستضيء بضياء دين الله تعالى اسلامه وايمانه واحسانه تتحف بمغفرته سبحانه لجميع ما مضى من ذنوبك ورحمته ورضوانه لأن الاسلام يجب ما قبل وينشر الله به على العبد رحمته ونعمته وفضله...»[٦٣].

وفي صيف سنة ١٢٧٢ حضر الشيخ سيديا وقعة «اركبه» بين لبراكنه والفرنسيين وفيها انتصر البراكنه، فرد الفرنسيون هزيمتهم الى حضور الشيخ وقومه مع لبراكنه[٦٤].

وفي آدرار تمكن العلماء من اقناع الامير ـ رغم تعهد سابق منه وفوائد يجنيها ـ بعدم توقيع اتفاقية تجارية مع مبعوث السلطات الفرنسية فينسان Vincent[٦٥].

واحتد الصراع في عهد الأمير محمد الحبيب بين امارة الترارزة والفرنسيين، وكانت نتيجة الحرب (سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م) لصالح الفرنسيين الذين أملوا شروطهم على محمد الحبيب في اتفاقية جديدة.

وقد ساند الشيخ سيديا الكبير وبابا بن أحمد بيبه وغيرهما من العلماء محمد الحبيب في حربه ضد الفرنسيين[٦٦]. ولعل «البخاري» الذي يندبه بابا بن أحمد بيبه في قصيدة له قد اختطف خلال هذه الحرب[٦٧].

ودعا جدود بن اكتوشني الى الالتفاف حول الأمير المجاهد، ونادى بحصار اقتصادي على الفرنسيين :

لا تعينوا بالعلك حزب النصارى   أتعينون آثما كفارا
فاقطعوا عنهم الشراء حذارا   أن يصروا على الأذى اصرارا
واذا ما أعنتموهم أساؤوا   وأصروا واستكبروا استكبارا

وكانت سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م سنة مواجهة ساخنة ففيها بلغت الحرب بين الفرنسيين والترارزة مداها، وكانت لهم وقعة خسروها مع لبراكنة.

وفي نفس السنة ندب الشيخ سيديا الأمراء الى توحيد كلمتهم وتنسيق مواقفهم لمواجهة الغزو الفرنسي، فانتظم تحت رعايته مؤتمر تندوجه الثلاثي لأمراء الترارزة وآدرار والبراكنة.

وبعد المؤتمر، بعث الشيخ سيديا رسالة الى سلطان المغرب يطلب فيها السلاح لخوض الجهاد، ولكن السلطان لم يتمكن من تلبية الطلب[٦٨].

ولعل الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا قد أطلق في تلك الأيام صرخته التي يدعو فيها المسلمين الى المبادرة لحمل السلاح حتى لا يقعوا ضحية للفرنسيين خاصة و«للصوص» :

حماة الدين ان الدين صارا   أسيرا للصوص وللنصارى
فان بادرتموه تداركوه   وإلا يسبق السيف البدارا

وقد أجاد في وصف النتائج المتوقعة للاحتلال والتحذير من انتظارها بكسل وخمول.
ومن صيغ المعارضة للتجارة الأوروبية ما لبس ثوب الوعظ. وقد صاغ الهادي بن بدي موقفه في شكل موعظة بليغة يدعو فيها للاعتبار بموت ثلاثة من التجار الفرنسيين وردت أسماءهم في المنظومة هكذا : ججم ـ كزبار ـ ويت :

يقول الناظم بعد أبيات :

... فانما الدنيا كمحض العدم   لا هي بالبقا ولا بالقدم
عن **ججم** زالت. وقل عجمي   وعربي في الغنى كججم
بعد اشترائه لكل عير   عدل للخلود في السعير
بعد اشتراء كندر الأغلال   أصبح في القيود والأغلال
... ولم تفد فيما اليه صارا   يا ويحه مكائد النصارى
حل به يا ويحه الوبار   ويقتفي أثره «**كزبار**»
... لم يق **ويتا** وهو حي ميت   فلك ولا حصن ولا كميت
ولا دجاجة ولا حمام   لما عليه أشرف الحمام
... تبا له من معشر افرنجي   يلعب بالنرد وبالشطرنج[٦٩]

* * *

وكان الأمراء في عهد التجارة الأوروبية يتخذون من شيوخ المحاضر وعلمائها كتابا يحررون لهم مراسلاتهم فيطبعونها بطابعهم.

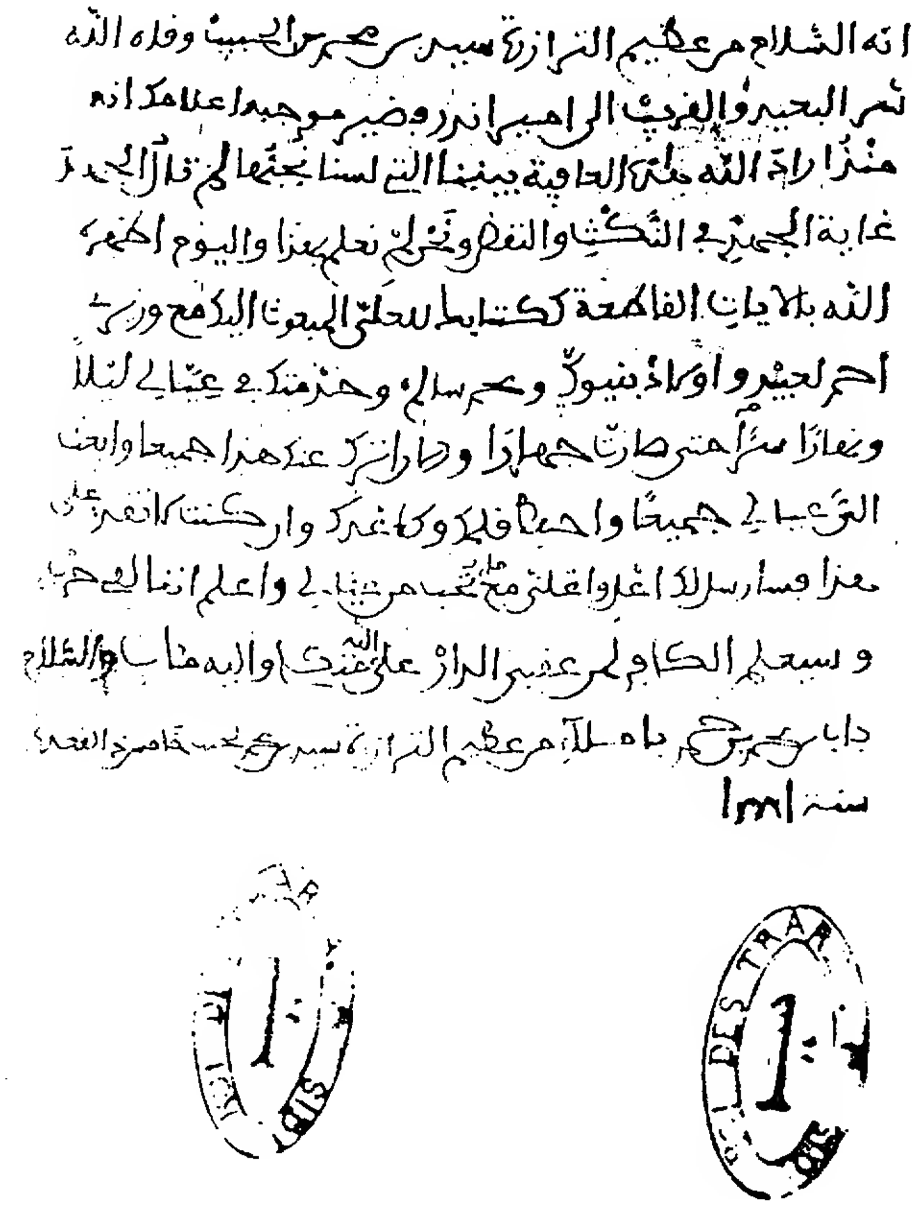

نموذج من رسائل الأمراء الحسانيين
إلى ممثلي السلطات الفرنسية قبل الاحتلال

وتظهر بصمات المحضرة واضحة في المراسلات المتبادلة بين أمراء البلاد وممثلي السلطات الفرنسية في السنغال، وخصوصا في المقدمات...

فقد كتب اعمر بن المختار أمير الترارزة الى «شيخ اندر، موسى كب» M. Le Coupé يقول :

«السلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الضلالة والردى واستحيا من ملك يرى ولا يرى».

ووعده في الرسالة باللقاء للتباحث في شأن التجارة ولكن بشرط «أن ترسل الذي عندك من المسلمين وتبين لنا أمرا معلوما من ناحيتك».

وقد وجه محمد الحبيب رسالة الى «حاكم اندر» قبل اندلاع الحرب بينه وبين فيدرب Faidherbe، ينذره فيها بأنه صبر كثيرا ويقول في مقدمة الرسالة :

«الحمد لله الذي أمر بالعدل والاحسان ونهى عن الجور والطغيان»(٧٠).

ووجه أمير الترارزة أعلى بن محمد الحبيب إلى «أمير اندر» رسالة تبدأ هكذا :

«الحمد لله الذي أنزل على عبده الذي هدى : أيحسب الانسان أن يترك سدى» وكثيرا ما كانوا يبدؤون رسائليهم بقوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد)(٧١).

وهكذا كان الامراء يتحدثون الى ممثلي السلطة الاستعمارية في السنغال حديث الدعاة، يعظونهم ويذكرونهم بأن لا باقي إلا الله ويحذرونهم عواقب الظلم والجور ويدعونهم بلطف الى الدين... وتلك شنشنة محضرية خالصة.

٢ ـ الاستكشاف

كانت مراكز التجارة مع الفرنسيين نقاطا محدودة محددة بمقتضى الاتفاقيات، لا يجوز للفرنسيين أن يتجاوزوها، وكانت كلها على الحدود، بحيث لا تتاح لهم فرصة التوغل داخل البلاد. وبذلك لم تكن التجارة كافية لاشباع رغبة الفرنسيين في التعرف على البلاد، وكان عليهم أن يبتعثوا مستكشفين يجوبون أعماق البلاد. يعيشون بين الناس، يرون ويسمعون ويلاحظون عن كثب. وقد تقمّص بعض هؤلاء شخصية التاجر معلنا أنه مكلف بدراسة امكانيات التعاون التجاري وإن كان غير مفوض للتوقيع. وكان غالب شأن هؤلاء المخابرين أن يحتموا بمظلة الاسلام، إما بانتحاله وممارسة شعائره (وفيهم من أعد اعدادا خاصا لهذا الغرض) أو بالسير في حماية احدى الشخصيات الدينية، اذ نجحوا في اقناعها بأنهم لا يريدون سوءا بالبلاد.

لكن هذه الاحتياطات لم تكن كافية لوقاية «جواسيس النصارى» من رجال الصحراء اليقظين.

وكان المستطلعون الأول فرنسيين، منهم من تعلم العربية والدين مثل ولد كيبحه (René Caillé)، قبل التوجه الى البلاد(٧٢). ثم كان من حسن حظ فرنسا أن استمالت دودو (محمد) سك الملقب «ابن المقداد». وهو سنغالي متعرب، أخذ العلم عن الشناقطة واحتك بهم، وجعل منزله في «اندر» دار ضيافة لهم مفتوحة ليل نهار، وكان رجلا جوادا مورودا.

وقد أوفدته السلطات الفرنسية إلى البلاد في ثلاث مهمات استطلاعية، أولاهما سنة ١٨٦٠، بصفته حاجا والآخريان سنتي ١٨٧٩ و ١٩٠٠ برفقة فرنسيين. وفي رحلة «الحج» استطاع ابن المقداد أن ينجز مهمته بدون صعوبة فوصل المغرب وعاد منه لم ينله سوء. لكن علاقته الطيبة بالشناقطة وكونه رجلا مسلما من بلد مجاور لم تنجه في الرحلتين الاخريين، لأنه كان فيهما رفيقا للفرنسيين.

ففي سنة ١٨٧٩ انتدبته فرنسا لمرافقة بول سوليي Paul Soleiller في رحلة استطلاعية. ومرا بالشيخ سعد بوه، وكان شيخا جليلا وجيها، فبعث معهما مرافقا من جماعته وزودهم برسالة توصية. لكنهم في الطريق وقعوا في أسر مجموعة من «أولاد دليم»، واضطر مرافقهما أن يقسم بالله أن الفرنسي سوليي جاء إلى الشيخ سعد بوه برسالة من سلطان مكة المكرمة وأعيان آخرين، فأوصى باكرامه لهذا السبب!!

وفي سنة ١٩٠٠ أعادت فرنسا الكرة فبعثت ابن المقداد رفيقا لبول بلانشي P. Blancher، وآخرين، لاستطلاع الوضع في آدرار استعدادا لاجتياح المنطقة، وطلبت الحماية للبعثة من الشيخ سعد بوه.

فلما وصلت البعثة أطار اعتقلها السكان، وقام امام المسجد يحرض المسلمين على مواجهة الكفار، وجرت اشتباكات مات فيها بعض أفراد البعثة وفر بعضهم، بينما بقي رئيسها بلانشي وعريفها ابن المقداد في الأسر.

وحضر الشيخ سعد بوه للوساطة في شأن الاسيرين. وكانت مهمة صعبة بشهادته فقد قال لأهل أطار أنه جرب فرنسا منذ ٣٠ سنة فما عرف منهم إلّا الصلاح «فلما سمع الطلبة والعلماء بما قلت قالوا [للأمير] لا يجوز في الشرع أن تطلقهم. ومنهم من يقول : هذا الرجل الذي جاء ينتصر لهم لا ينبغي إلّا قتله، وشنعوا له جدا».

وقد نجح الشيخ سعد بوه، بعد شهر من المفاوضات في مهمته، فأطلق سراح الاميرين مقابل فدية مالية.

وكان الشيخ سعد بوه يعلل تدخله بأن البعثة دخلت بأمان. ومن دخل بأمان من المسلمين لم يجز غدره. وكان الفرنسيون قد أقنعوه غير ما مرة أنهم قوم مسالمون لا يريدون إلّا الخير للبلاد.

كتب اليه مارتين R. Martin سنة ١٨٧٩ (وفيها كانت رحلة ابن المقداد الثانية) يطمئنه :

«نحن لسنا غزاة ولا رجال حرب، وإنما نحن تجار، رغبتنا وهدفنا الوحيد وهدف فرنسا اقامة علاقات ودية مع جميع هذه البلاد».

ورغم الصعوبات التي اعترضت سبيل ابن المقداد في الرحلتين الاخيرتين، فقد حقق بعض النجاح، وأمد الادارة الفرنسية بمعلومات جديدة عن الأرض والسكان، يتضح منها أن الشناقطة لا يرحبون بالاستعمار.

فقد عرض في أحد تقاريره معلومات دقيقة حول كبريات قبائل آدرار وعدد مقاتليها وما لديها من الأسلحة.. وقال أن «هذه القبائل أعماها التعصب الديني ولا أمل في المفاوضات معها والاستفادة منها. فالعلماء والشيوخ الدينيون أقنعوهم بأن الفرنسيين لا يستهدفون الاحتلال وإنما يريدون القضاء عليهم». ولكنه أشار الى امكانية الاستفادة من التجارة في التعامل مع بعض هذه القبائل..

وتضمن التقرير معلومات حول العلماء والشيوخ تلبية «لطلب مؤكد» من قبل السلطات الفرنسية وجاء فيه بهذا الخصوص :

«من واجبي أن أنكر خصومنا الألداء من العلماء وعلى رأسهم مجموعة السماسيد في آدرار وادوا على في شنقيط. ومنهم ولد أعبيدنا وولد حبت الذين تميزا بكراهة الفرنسيين بالاضافة الى زعيمين من زعماء السماسيد وهما : سيدي أحمد بن عبد الرحمن وأخوه محمد بن السجاد اللذين أقسما أن يذهبا في هذه السنة الى المغرب ليطلبا من السلطان بسط نفوذه على آدرار وتزويدهم برجل مخلص مشهود له بالكفاءة في قيادة الجيوش»(٧٣).

والحق أنه لم يكتب لمستطلع فرنسي من النجاح مثل ما كتب لكزا فيه كابولاني Xavier Coppolani، الذي صار ـ جزاء عمله ـ أول حاكم فرنسي في البلاد.

كان كابولاني ملحقا اداريا فرنسيا في الجزائر. وبها درس العربية والدين والتصوف منه خاصة دراسة معمقة توّجها بنشر كتاب عن «الطرق الصوفية الاسلامية» كلفته السلطات الفرنسية بمهمة استطلاعية في منطقة الحوض لقي فيها نجاحا، ووضع عنها سنة ١٨٩٩ تقريرا يقترح فيه اقامة دولة (اقليم ضمن المستعمرات الفرنسية) باسم «موريتانيا الغربية» تمتد من نهر السنغال جنوبا الى الطرفاية (جنوب المغرب) شمالا، ومن المحيط الأطلسي غربا

الى تمبكتو شرقا لتغطي ما يعرف «بلاد البيضان». واقترح أن يدخل الفرنسيون هذه البلاد تحت شعار «حماية الزوايا المظلومين من بني حسان»(٧٤).

وعزز كابولاني مهمته في الشرق بمهمة ثانية أنجزها مطلع القرن في منطقة الترارزة. وقد أخذت السلطات الفرنسية العليا باقتراحاته وكلفته بدخول البلاد، فمهد لذلك باتصالات ودية مع بعض الماشيخ الأجلاء، أقنعهم فيها ـ وكان يلقب «صاحب المسلمين» ـ بانه انما يدخل من أجل نصر المظلوم وردع الظالم وحقن الدماء وإيقاف الحروب والغارات وعمليات النهب، التي اشتكى منها «الزوايا» كثيرا، وكانت أوجه أسباب دعوتهم لنصب الامام واقامة الدولة.

وهكذا، بذكاء ودهاء، وضع كابولاني علماء البلاد وسكانها بين خيارين أحلاهما مر : استمرار الغارات والحروب القبلية مع رفض الاستعمار، أو قبول الاستعمار الذي يعد بفرض السلام والعدل...

الفصل الثالث

مقاومة الاحتلال

١ ـ النصارى* والسلم... أم الفوضى والظلم ؟

استثمر كابولاني ثقافته الدينية ودبلوماسيته وشعاراته وتعهداته ليضع العلماء الشناقطة في هذا الامتحان العسير : أيختارون السلم والأمن والاستقرار مع الخضوع لادارة نصرانية، أم يرفضون هذه الادارة ويختارون ما هم عليه من تمزق وتناحر وفوضى بلا حدود.

وقد كتب كابولاني الى الفقيه بابا ابن الشيخ سيديا (ت ١٣٤٢ هـ) مستفتيا بدهاء : هل يجوز للمسلمين أن يجاهدوا النصارى والحال أن هؤلاء لا يمنعونهم من تطبيق شعائرهم بل يعينونهم عليها بتنصيب القضاة ونحو ذلك، خاصة وقد علم المسلمون في هذه البلاد أنهم لا يملكون من القوة ما يملكه المسلمون جنوبي المغرب؟

أمام سؤال بهذه الصيغة لم يكن من الشيخ سيديا الثاني إلّا أن أجاب : ان على المسلمين في هذه الحال أن يجنحوا للسلم(٧٥).

وكان ذلك أيضا موقف الشيخ سعدبوه (ت ١٣٣٥ هـ). وقد اضطر الشيخان وفي مواجهتهما رأي عام معارض لكتابة رسائل مطولة، يشرحان موقفهما ويعرضان ما له من الأدلة الشرعية، فذكر بابا أن الفرنسيين لا يتعرضون للدين، وأن الدخول في طاعة السلطان المخالف في الدين، اذا لم يتأت العدل إلّا به أولى من الخروج عليه. وقال ان جهاد المحاربين أفضل من جهاد الكفار عزوا الى المنتقى وتبصره ابن فرحون. واستطرد قول الفضيل جورستين سنة خير من هرج سنة (وفيه موافقة غريبة، فقد مكثت فرنسا ٦٠ سنة في البلاد).

* اعتمدنا عبارة «النصرانية» والنسبة اليها، بدل «المسيحية» تأصيلا للخطاب اللغوي واحالة على الاطار الثقافي والتاريخي الخاص للحديث، علما بأن «المسيحية» نسبة الى المسيح كلمة استوردناها أو استحدثناها بعد أن لم تكن، وانما ورد في القرآن ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا.. الذين قالوا إنا نصارى، وقالت اليهود والنصارى وقد استخدم الشناقطة في عاميتهم المصطلح نفسه واعتمدوه بديلا للجنسية والوطن.

وحرر الشيخ سعد بوه رسالته «النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة» ذكر فيها ما عليه الناس في البلاد من الفقر والفاقة والتناحر، وان الجهاد لا يتأتى إلّا بوحدة الصف واجتماع الكلمة. وعرض لقوة فرنسا، مستشهدا بانتصاراتها في مناطق أخرى وقهرها لأمراء السودان الأقوياء كالساموري وابن الحاج عمر وابن المامي وابن عالي دند(٧٦).

وهكذا اعتبر الشيخان أن الصمود في وجه فرنسا غير ممكن وأن دخولها عون على الأمن والاستقرار والعدل، فاطمأنا الى هذا المنطق، وأسسا عليه موقفهما. كانت العافية وسيادة الاستقرار والامن في ربوع البلاد الهم الأكبر لهذا الجيل من الفقهاء ، الذي اعتبر أن سيطرة الفرنسيين على البلاد هي أخف الضررين، وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، والدولة تستقيم على الكفر ولا تستقيم على الظلم، «والعافية لا يعدلها شيء» والمصلحة تأتي كرها.

وبعبارة أخرى، فان العلامة بابا بن الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه ومن وقف معهما لم يكونوا يعتبرون ان البلاد تخضع لاحتلال أجنبي بدخول الفرنسيين. كانوا يتصورون على العكس في ذلك أن الفرنسيين هم الذين يخضعون لارادة أعيان البلاد وأنهم مسخرون لمساعدتهم في تحقيق الهدف الأسمى الذي يصبون اليه : الأمن والسلم الاجتماعي.

كان الفرنسيون يعتقدون وهم على صواب أنهم يوظفون بعض أعيان البلد في خدمة مصالحهم الاستعمارية بأسلوب ذكي. وكان هؤلاء الأعيان ـ وهم على جانب من الصواب ـ يعتقدون مخلصين أنهم يوظفون الفرنسيين في خدمة مصالحهم ومصالح البلد بوجه عام. وكان بابا بن الشيخ سيديا يقول عن الفرنسيين «انصيرتي اللي اعطاني مولانا» وهي عبارة عامية تعكس حقيقة نظرته الى هؤلاء الغزاة الأذكياء، فهو يصغر اسمهم (النصارى) ويضيفهم الى نفسه اضافة المملوك لمالكه، ويعتبرهم منحة من الله.

ولعل بابا كان قد استخلص درسا من تجربة والده (الشيخ سيدي محمد) وجده الشيخ (سيديا الكبير). فقد كان الجد داعية سلم واصلاح من طراز فريد. وقد سخر نفوذه لاصلاح ذات البين ولمِّ شتات المسلمين في بلده، واتخذ مبادرة الاصلاح والدعوة للتنسيق بين الامارات الثلاث (الترارزة ـ آدار ـ لبراكنه)، ولم تنجح المبادرة وطلب السلاح من سلطان المغرب فاعتذر بلباقة. وسار الشيخ سيدي محمد وان لم يعمر على خطوات والده، وتميز بصرخته المدوية في قصيدته الرائية الشهيرة، فحذر من شبح الاستعمار الذي كان يلوح في الأفق، وصور النتائج الخطيرة التي قد تترتب على سيطرة النصارى على البلد، وشكا شكوى مريرة من الفوضى والاضطرابات والحروب القبلية المنتشرة، ودعا الى استنفار جيش لهام تغص به السباسب والصحاري يدرأ الخطر قبل وقوعه، ويرد كيد الظلمة في نحورهم ويجمع شمل البلاد والعباد ودعا إلى اقامة الدولة في هذا القطر، فلم يجد آذانا صاغية لدعوته. ولم تلتئم كلمة الزوايا فضلا عن غيرهم.

لا بد أن هذه الاخفاقات المتتالية تركت أثرا في نفس الابن الحفيد بابا الذي عاش هو نفسه عصر اضطرابات ساخنة. فقد خاضت قبيلته على أيامه حربا شرسة ضد قبيلة من قبائل الزوايا المجاورة (اجيجبه) وكانت امارة الترارزه التي تليه مرجلا يغلي باستمرار، فقد تعاقب على زعامتها ١٨ أميرا خلال ٥٠ سنة، كلهم اغتاله أقرب الناس اليه غدرا(٧٧).

وللحق، وعلى أن الاستعمار مرفوض لذاته، فقد تحقق بعض ما أراده بابا والشيخ سعدبوه في ظل الاستعمار. كان الاستعمار شرا لا بد منه أو شرا مفيدا وكان من الخير أن تحولت فوهات البنادق الى المستعمر في بعض المناطق والفترات، فشغل الناس بالعدو المشترك عن الصراع فيما بينهم، وتوفرت في ظل الاستعمار ـ في جميع المناطق وجميع الفترات ـ الظروف المواتية لنمو الوعي الوطني وتماسك كيان المجتمع والاعداد لمشروع الدولة الجامعة. وهي حسنات لم يصنعها الاستعمار الذي حرص كل الحرص على تقسيم البلد، فظل يضرب بعض الأمراء ببعض وبعض الزعماء ببعض، منطلقا من مبدأ «فرق تسد» حتى في رسم خريطة البلاد، فقد اتخذ لها «سان لويس» عاصمة خارج الحدود وفصل شرقها عن غربها فألحق المناطق الشرقية بالسودان، قبل أن تضطره الظروف الأمينة والضرورات العملية لتفصيل الخريطة على نحو آخر. وفعل غير ذلك، وتمكن ـ بعد جهد جهيد ـ من تجريد القبائل من السلاح حتى لا يظل عدة للمجاهدين ضده، فكان لهذا الوضع ثمرتان : ثمرة لصالح الاستعمار، وثمرة لصالح السكان الذين أصبحوا في مواجهة عدو جامع ولم يعد لديهم ما يقتتلون به فيما بينهم. ولهذا السبب بالذات (اقرار الامن وإنهاء الحروب القبلية) عاد الشيخ المجاهد أحمد بمب، بعد مواجهة طويلة مع الفرنسيين، فقبل التعايش معهم وأثنى عليهم خيرا، نظما ونثرا، باقرارهم السلام، في رسالة وجهها اليهم سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م(٧٨).

والجدير بالملاحظة أنه كتب رسالته هذه بعد عودته من منفاه في جنوب بلاد شنقيط. وكان للشيخ سيديا الثاني دور كبير في إقناع الفرنسيين باعادة الشيخ أحمد بمب من منفاه الأول في الغابون ثم من من منفاه الثاني، وكان ضيفا عليه فيه، فلعله اقتنع عنده بضرورة مهادنة الفرنسيين.

ورغم مكانة الشيخ سيديا الثاني والشيخ سعدبوه العلمية والاجتماعية ونفوذهما السياسي فان وجهة نظرهما لقيت معارضة كبيرة تدرجت من الكلمة الى الفعل.

فقد أفتى كثير من فقهاء البلد بحرمة التعامل مع الغزاة وحثوا على أداء فريضة الجهاد وشاركوا فيه.

وفي هذا المعنى ألف سيدي محمد (الصغير) ابن حبت رسالة «في حكم من غلب على وطنه النصارى»(٧٩).

وكتب سيدي المختار بن محمد عينين بن أحمد بن الهادي التمدكي رسالة بعنوان «ارشاد الضال الى وجوب جهاد كبلان وحرمة مساكنته الموجبة للفسق والعصيان»(٨٠).

وأفتى محمد الأمين بن أحمد زيدان سنة ١٩٠٥ بان حكم المسلمين وقد احتلت بلادهم قصر الصلاة(٨١).

وألف محمد حبيب الله «مزيل الحرج في رد ما عند من اسقط الهجرة من الحجج»(٨٢) فأفتى بوجوب الهجرة، ونظم قصيدة يرجح فيها الوضع القائم على ما يعد به الفرنسيون من عدل واستقرار :

والجور والاسلام في بلادنا ... خير من العدل مع الكفر الجلي
مصلحة الدين على الدنيا يرى ... تقديمها حتما مراعي الأفضل(٨٤)

وكان ممن هاجر سيدي المختار بن سيدي بن الشيخ القاضي وكان يقول : «أنا ثامن سبعة في مراكس» فتوفى بها سنة ١٣٢٨ ودفن بجانب الامام السهيلي(٨٥).

وهاجر أبناء مايابي : محمد العاقب، وقد توفي بفاس في العقد الثالث من القرن الهجري ومحمد الخضر ومحمد حبيب الله الذي حل بطنجة ضيفا على السلطان عبد الحفيظ فأكرم نزله، ثم واصل سيره الى الحجاز ومنها الى مصر حيث توفي سنة ١٣٦٣ هـ.

وهاجر سيدي محمد بن حبت فانضم الى المجاهدين الذين التأموا حول الشيخ ماء العينين، ومكث معهم خمس سنوات(٨٦).

وهاجر محمد عبد الله بن احمنيه ابان الاحتلال والتحق بصفوف المقاومة ولم يعد الى بلده، إلّا سنة ١٩١٠ م(٨٧).

أما الهجرة الأكبر فهي هجرة الشيخ محمد الأمين بن زيني القلقمي الذي خرج على رأس ٦٠٠ رجل ترافقهم عائلاتهم، انطلقوا من الحوض سنة ١٩٠٨ م، وتركوا أثرا طيبا في ليبيا والاردن وتركيا(٨٨).

وكان من الباقين في البلاد قوم هاجروا وان لم يظعنوا...

مقاطعة وازدراء

كان من المقاومين، قوم لم يجدوا في الأرض مراغما أو يستطيعوا سبيلا للهجرة، فاتخذوها هجرة أرواح وهم مقيمون، يقاومون بصمت، يعتزلون رجال الادارة الاستعمارية وينظرون اليهم بازدراء.

وقد دعا الفقيه محمد عبد الجليل بن الشيخ المصطفى الى الجهاد وأقنع به وبالهجرة أمير البراكنة أحمد بن سيد علي، ومارس في حيه المقاومة الصامتة، بمقاطعة الفرنسيين واعتزالهم، مما أثار غضب كابولاني فكتب الى الشيخ وقومه رسالة يقول فيها : «عندما أعلنت لكم، قبل خمسة أشهر نيابة عن الحكومة الفرنسية من أجل سلامة الجميع وأمن التجارة، اننا سنتولى الادارة الفعلية لبلاد البيضان التي كلفنا العلي القدير بحمايتها من أي هجوم وخاصة ضد النهابين ذوي النوايا السيئة، رأيت فيكم رجال خير، جعلتني صفاتكم كرجال دين وآداب آمل أن أكون غير مخطيء في الاختيار، وكنت مقتنعا أن ولاءكم سيكون خالصا وأن حرصكم على العيش في أمن مشرفين ومحترمين كان كذلك.

«ويبدو أن كل هذا كان خطأ، فأثناء غيابي لم تحاولوا فحسب توحيد المحاربين ضدنا، بل كنتم الدليل والسند لأدوعيش وذوي النوايا السيئة والعدوانية تجاهنا، وآمل أن يكون كل هذا غير صحيح رغم أن امتناعكم عن المجيء وتحية الحاكم العام يعتبر على ذلك دليلا لا يقبل الشك.

«لقد آن الاوان لمعرفة الحقيقة. ومواصلة لمهمة السلام التي أسندتها الحكومة الي فانني أتوجه الى الشمال بغية تنصيب الفرق وأخذ الاجراءات اللازمة لتوفير سلام دائم لاصدقائنا ومعاقبة أعدائنا.

«واذا كنتم ـ كما أرجو ـ تنتمون الى المجموعة الأولى فاتصلوا بي فورا لتتسلموا مكانكم في بلد لبراكنه، وتزرعوا أرضكم، ولتتنازلوا غدا عن علاقتكم مع أعدائنا، وستنالون جزاء ذلك خيرا.

«وفي الحالة المعاكسة، فسأكون مضطرا مع أسفي العميق، الى اعتباركم عدوا، والى أخذ الاجراءات الخطيرة المترتبة عن ذلك»(٨٩).

وفي البراكنة أيضا نزل الفرنسيون بحي الزينبيين وكان فيه محمذ ابن النحوي، وهو كما يقول بول مارتي شيخ يحظى باحترام كبير وعالم ذائع الصيت يدرس العلوم القرآنية والمعارف العليا، وكان الزعيم التقليدي للقبيلة، فتشاغل عنهم ليلة كاملة، لم يقابلهم ثم لقيهم ولكنه رفض التعامل معهم كزعيم للقبيلة وقدم اليهم أحد الموالي بوب بن انغاري مدعيا أنه هو شيخ القبيلة، وقد اكتشف الفرنسيون بعد ثلاثة أشهر أن الشيخ محمذ خدعهم وأعادوا محاولة الاتصال به فأقر بزعامته ولكنه انسلخ منها رفضا للتعامل معهم، رغم الامتيازات التي يعدون بها الزعماء التقليديين(٩٠).

وفي التقرير السياسي عن الفصل الثاني من سنة ١٩٢٠، يعلن حاكم دائرة تكانت أن زعيم احدى المجموعات لسعه ثعبان وجن فاضطر الحاكم لعزله عن الناس لأنه كان حليفا له خاصة وان أهل تكانت وأهل تجكجة بالذات فرحوا بجنون هذا الرجل فرحا شديدا، شماتة به وسخطا عليه لولائه لفرنسا(٩١).

وقد أدرك رجال الاستعمار أهمية الامتزاج العرقي في إحكام السيطرة على البلاد. وكان كابولاني ـ كما يروي رفيقه راندو ـ قد نصح رجاله منذ دخوله تجكجة بالسعي للزواج من مواطنات بل أنه مضى أبعد من ذلك، فقال أن المسلمين متفوقون عليهم لسماحهم بتعدد الزوجات وان على رجال فرنسا في البلد أن يسعوا الى تعزيز مراكزهم الاجتماعية باتباع هذا الأسلوب.

وفي مواجهة مطامح الاستعماريين هذه، حرص الشناقطة على الاحتماء بالتقاليد وكتب جماعة بني ديمان رسالة الى السلطات الفرنسية بهذا الشأن تقول فيها :

لله الامر من قبل ومن بعد،

«وبعد، فاننا جماعة بني ديمان نريد من أهل الدولة الفرنساوية أن يكتبوا لنا كتابا ويجعلوا عليه طوابعهم فيه أنه لا يتعرض أحد منهم لنسائنا بقليل ولا بكثير ولا بطلب ولا خطبة فذلك مؤذ للزوايا كلهم ومنفر».

وتذرعت الجماعة بدعوى أن بني حسان لا يطلبون ذلك من الزوايا «فالدولة الحسانية التي كانت على الزوايا قبلهم (الفرنسيين) لا يمكن في عرف الزوايا أن واحدا منهم ولو سلطانهم يجد سبيلا الى زاوية ولو حقيرة، ففي ذلك عند الزوايا من المعرة والشين أمر كبير»(٩٢).

ولم يكتف الشناقطة بهذه المقاومة السلمية، فقد حملوا السلاح وشهروه عشرات السنين في وجه الجيش الاستعماري.

٢ ـ الجهاد المسلح

دخل الفرنسيون البلاد محتلين منذ مطلع القرن العشرين، واعتبارا من سنة ١٩٠٣ بشكل خاص. وقد واجههم السكان بضروب شتى من المقاومة، مقاطعة لهم واعراضا عنهم وهجرة من البلاد.. وقد أشرنا الى طرف من ذلك. لكن المواجهة لم تقتصر على هذه الانماط السلبية أو السلمية، بل كانت، ولعشرات السنين، جهادا ضاريا بالحديد والنار.

ورغم أن ثقل الجهاد كان في مناطق الوسط والشمال وبعض المناطق الشرقية حيث توفر تضاريس الأرض ظروفا أفضل لحرب العصابات، فان الجنوب ـ ومنه دخلت فرنسا قادمة من السنغال ـ كان سابقا بالمقاومة. وفيه على ضفاف النهر، وعبر الصحاري، كانت للمجاهدين معارك بطولية مع القوات الغازية في عهدي التجارة والاحتلال.

ففي سنة ١٩٠٤، قاد براما (ابراهيم) ديانكو وديرويكو فوليل (فضيل) حركة مقاومة في غيدي ماغا، ضد الفرنسيين. وكان هؤلاء المقاومون يسممون الآبار والأطعمة ويحرقون المراعي في وجه الغزاة ومواشيهم.

وبهذا السلاح مات عدد من الفرنسيين وهلكت مواشيهم. وكان جيرانهم من الزوايا المسلحين (أهل سيدي محمود) يعينونهم في جهادهم هذا(٩٣).

وعلى ضفة النهر أيضا، قاد علي يوروديا حركة جهاد ضد المستعمر. سافر إلى السودان (مالي) يبث دعايته هناك، فاعتقل في باماكو، ونفي من المنطقة واحتجز شهورا في تيواون بالسينغال.

وحين أفرج عنه توجه الى انتيكان في جنوب «موريتانيا» فواصل الدعوة الى الجهاد. وانطلق يوم ١٥ مارس ١٩٠٨ بفرق من المجاهدين، فعبر النهر وهجم على المركز الفرنسي في دكانه. واحتدمت المعركة بين الطرفين، فاستشهد علي يورو وثلاثون من رفاقه(٩٤).

ومن منطقة الجنوب أيضا علماء شاركوا في الجهاد، نذكر منهم الشيخ محمد عبد الله بن أحمذيه الذي التحق بصفوف المجاهدين في الشمال، فقاتل مع المقاتلين سنتين ومدح القادة شعرا، وعندما عاد ظل متمسكا بموقفه، مرابطا على الجبهة الثقافية. وقد دعا الى عدم نجدة فرنسا في الحرب العالمية الأولى، فصادفت دعوته هوى عند علماء البلاد وكان لهم ما أرادوا(٩٥).

وقد هب المواطنون من جميع المناطق لمواجهة الاستعمار.. وتنادت قبائل البلاد، فقررت ارسال ركب الى الشيخ ماء العينين بمقره في السمارة (بالصحراء)، ومنه الى سلطان المغرب لطلب النجدة بالعتاد وعدة الحرب.

وكان ركب المجاهدين مكونا من ممثلي قبائل : الاغلال وأدوعيش وأهل سيدي محمود وتجكانت ومشظوف والسماسيد والرقيبات وتكنه وأولاد بالسباع وأولاد دليم والعروسيين ومسومة وادوعلي وأولاد عامني والطرشان وادا بلحسن وأولاد ابييري وادييسات وأهل بوحبيني وأولاد اللب واد يشلي وتاكاط واجيجبه وغيرهم(٩٦).

وقد حل الركب بمراكش سنة ١٩٠٦ فأعطاهم السلطان عبد العزيز كمية من العتاد وبعث معهم ابن عمه مولاي الحسن ابن مولاي ادريس الذي شارك في معركة انيملان المظفرة وفي حصار تجكجة.

وكان للشيخ ماء العينين دور قيادي في حركة الجهاد، فقد تبادل المراسلات مع أعيان البلاد حول الموقف من الاحتلال، فكان يحث على الجهاد، مستعرضا أدلة وجوبه وبسعيه استطاع أن يقنع الزعيم الكنتي محمد المختار بن الحامد بالانضمام الى المقاومة(٩٧).

وقد عهد الشيخ الى أبنائه بتأطير الجهاد والمشاركة فيه فكان لأبنائه : سيدي الهيبة ومربيه ربه والشيخ الولي والشيخ محمد الأغظف وابن عمهم محمد المأمون بن الشيخ محمد فاضل بن عبيدي أدوار خالدة في تاريخ المقاومة، وكذلك كان ابنه الشيخ الحسن الذي انتدب

لمساعدة أمير تكانت المجاهد بكار بن سويد أحمد، وحضر معه سنة ١٩٠٥ معركة بوقادوم التى استشهد فيها(٩٨)

وفي حضرة الشيخ ماء العينين ومحضرته تربى أمير أدرار المجاهد الشهيد سيد أحمد ابن سيدي أحمد بن عيده، فقد مكث هناك خمس سنوات. وعاد فتقلد مهام الامارة سنة ١٩٠٤، فقاوم مشاريع الاستعمار لاجتياح ادرار وخاض عدة معارك، فجرح في تيشيت وأسر سنة ١٩١٣.

ويومئذ كتب العقيد باتي والى فرنسا في «أراضي البيضان» رسالة الى سكان ادرار يخبرهم فيها بأسر الامير المجاهد، ويقول : «والسبب في ذلك كونه اتبع كلام أجلاء «الطلبة» الذين اعتمدوا على حداثة سنه وعدم تجربته للامور حتى غروه ومنعوه مما فيه له المصلحة حقيقة، وهو المكاتبة، اذ لا يشك من له عقل في أن الله تبارك وتعالى لما قضى بارسال الفرنسيين الى الاراضي البضانية لاثبات العافية فيها والذب عن الضعفاء ونشر العدل والترقي أعطاهم من القوة ما يبلغون به مرادهم ومقصودهم رغم أنف كل متعرض لهم»(٩٩).

كتب الحاكم الفرنسي رسالته هذه للفت في عضد المقاومة، فقد كان أسر الامير حدثا كبيرا وضربة للمقاومة، وكان فرصة أخرى لنشر الدعاية الاستعمارية القائمة على استغلال العامل الديني أبشع استغلال، خاصة وهو العامل الاكثر خطرا على الاستعمار والأقوى تأثيرا في الجمهور.

ويتضح احساس المستعمر بأهمية العامل الدينيفي حركة المقاومة من اقراره في الرسالة بأن الامير اتبع كلام أجلاء الطلبة. والطلبة مصطلح يعني في العامية الحسانية الفئة العليا من الزوايا الذين لهم بسطة في العلم ونصيب وافر من النفوذ الديني.

ووعيا بهذا الامر، تحدث المستعمرون بمنطق الدين، مصورين الاستعمار قضاء الاهيا ينبغي الرضى به، بل هو منة فالفرنسيون حملة رسالة حضارية، بل ودينية على الخصوص، هدفها نصرة المظلوم والذب عن الضعفاء. وقد هيأهم الله لأداء هذه الرسالة بما منحهم من قوة...

ورغم خطوة المنطق الذي استخدمه الفرنسيون مضافا الى نجاحهم في تسديد بعض الضربات الى المقاومة، فقد استمر الجهاد.

وعاد الأمير الى ساحة الجهاد بعد أن أطلق سراحه ومكث سنوات في ادرار يغالط السلطات الفرنسية الى أن استشهد عند وديان الخروب في ١٩ مارس ١٩٣٢ م.

وكان من دأب امراء ادرار أن يكون لهم قضاة يرافقونهم في الحلة عاصمتهم البدوية المتنقلة، فكان محمد المختار بن اندي قاضيا لدى الامير سيدي أحمد ورافقه في هجرته، وقاتل معه حتى استشهد أمامه في نفس اليوم(١٠٠).

وقد خلد المجاهدون بطولاتهم وبطولات قادة المقاومة في شعر طافح بالحماس، نستطرد منه نتفا.

يقول محمد محمود بن أحمذيه مادحا البطل أحمد بن الديد بمناسبة انتصاره في معركة لكويشيشي ضد الفرنسيين.

ومأزق من مجر الحروب كلكلها ... يوم الكليكل إذ غال الرجال وغل
في كفه متئم تلتاح نقبته ... مجرب ماله غير المنون عمل
لم تعد ان طفقت تترى صواعقه ... وليس إلّا النجا من دركهن بدل
والخيل مقبلة قب اياطلها ... تنجاب عنها من النقع المثار ظلل
من كل منجرد نهد مراكله ... ونهدة وردة تعدو بكل بطل
لذاك يوم له ما بعده ولهو ... يومعلىالعزةالقعسا لاحمد دل(١٠٤)

وللشيخ محمد عبد الله بن أحمذيه قصيدة في مدح مولاي الحسن بن مولادي ادريس الذي شارك في قيادة المقاومة ضد الاستعمار في بلاد شنقيط وفيها يقول :

فكم شن في أرض العدى من مغيرة ... تسيل لها القريان بالموت والدم
يقود الأسارى في الأداهم عنوة ... ويأتي بسبي من يتيم وايم
وكم خاض لله المهالك مسهدا ... جفون الليالي ليله لم يهوم
يقود العناجيج الجياد كأنها ... رئال القطا من كل جرداء صلدم
ومنجرد سامي القذال محنب ... طويل القرا رحب اللبان مسوم
يثرن على الحزان نقعا كأنه ... دخان حريق وسط غاب مضرم
عليها الصناديد الكماة مغذة ... رقاق المواضي والوشيج المقوم
يسوسهم يقظان لا واهن القوى ... ولا جزع أن ناب دهر بمعظم(١٠٥)

ومن شعره أيام كان على الجبهة :

لو شاهدت سلمى الغداة دوني ... شم الجبال ومراد العين
والعيس في مشتبهات جون ... عائمة تزحف كالسفين
قد جال منها جائل الوضين ... وغار منها حدق العيون
تزور عن زال وعن تورين ... وهي تباري رنة الرنين
سيرها في الخمس عن يمين ... لاصبحت سلمى على يقين
ان لا أقيم بديار الهون(١٠٦)

وقد شهد المستعمرون أنفسهم ـ والحق ما شهدت به الأعداء ـ بما لهؤلاء الرجال من شجاعة وبسالة.

يقول الجنرال غورو «ليس باستطاعة من لم ير البيضان يقاتلون أن يدرك مدى بسالتهم.. انهم لا يلبسون الا ثوبا فضفاضا خفيفا يحسرونه عن سيقانهم في حالة الحرب. ولا يملكون من السلاح إلا بنادقهم العتيقة ورصاصها والخناجر... تراهم بشعورهم الطويلة وعيونهم البراقة يقفزون من صخرة الى صخرة، يختفون خلف أبسط حاجز، يطلقون الرصاص، يغيرون مواقعهم، تماما كما تفعل الوحوش»(١٠٧).

استمر الجهاد المسلح نحو ٣٤ سنة، منيت فيها القوات الفرنسية بهزائم كثرة وباع المؤمنون أنفسهم لله غير هيابين ولا متقاعسين.. لكن المقاومة واجهت مصاعب متزايدة وصلت بها وان بعد لأي، الى طريق مسدود.

فقد صادف اجتياح الفرنسيين لادرار فترة جفاف شديد. وكانت الأوبئة منتشرة، وخصوصا الجدري، وانسدت طرق التموين بالسلاح. وكان الفرنسيون مصدره الأول كما يتضح من قصائد الشناقطة في القرن الثالث عشر الهجري.. كانوا يبيعون الأسلحة وهم في السنغال، فلما أخذوا يستعدون لدخول البلاد فرضوا حظرا على بيع السلاح لأهلها، بل فعلوا ذلك، من قبل في فترات صراعهم مع الامارات الحسانية خلال القرن التاسع عشر.

وكان المغرب المصدر الثاني للسلاح قبل أن يخضع للحماية الفرنسية. أما وقد دخلت فرنسا شنقيط من الجنوب، ودفعت السلطان عبد الحفيظ الى توقيع معاهدة حماية معها وتوفي الشيخ ماء العينين وأدت القوات الفرنسية حركة السلطان الأخضر، فقد انطبق الحصار على بلاد شنقيط وانقطع المدد العسكري عن المقاومة.

ولم تكن البنادق البسيطة التي يركبها الصناع المحليون مؤهلة لمواجهة المدفعية الفرنسية والعتاد الحربي المتطور، ومع ذلك، فقد استخدم المجاهدون اسلحتهم البسيطة وسطروا بها أروع الملاحم السنين تلو السنين.

وقد كان الحصار تجاريا أيضا، حيث انسدت طرق التجارة مع الشمال فكانت البلاد، بما فيها المناطق الشمالية النائية مرتبطة تجاريا بالسنغال، حيث ازدهرت التجارة الفرنسية.

وهكذا دخلت المقاولةالمسلحةفي مازق حرج لم تستطع الافلات منه، إلا وهي تتخذ القلم بندقية والمحضرة رباطا، فتواصل كفاحها وصمودها على الجبهة الدينية، الثقافية والسياسية.

٣ ـ المقاومة الثقافية

رابط الفرنسيون طيلة ثلاثة قرون على مشارف بلاد شنقيط، فلم يستطيعوا أن يعبروا النهر الى الشمال ولا المحيط الى الشرق.

وحين تقدموا لاحتلال البلاد مطلع القرن العشرين، كانوا يعون خطورة المغامرة التي انساقوا فيها، مدفوعين بالحرص على الربط بين مستعمراتهم الجنوبية (بلدان غرب افريقيا) ومستعمراتهم الشمالية (بلدان المغرب العربي وخصوصا الجزائر انذاك).

وقد انبهروا وهم يجتاحون البلاد بحصانة المجتمع الدينية وحضارته العلمية وصلابته.

كتب الحاكم الفرنسي العام لغرب افريقيا، في تقرير الى وزير المستعمرات عن مهمة كابولاني في الترارزة (دجمبر ١٩٠٢) يبرز الخصوصية الثقافية للشناقطة : «وجدنا شعبا له ماض من الأمجاد والفتوح لم يغب عن ذاكرته بعد ومؤسسات اجتماعية لا نستطيع أن نتجاهلها. ان علاقات تضامن وثيق تسود بينهم رغم بداوتهم وتمزقهم. ومن الخطأ أن نقارنهمْ بالشعوب السوداء ذات التقاليد الأضعف والشعور الوطني الخافت.

«ومن العجيب أننا وجدنا لدى الزوايا ثقافة رفيعة أكثر تطورا من الثقافة التي لاحظناها لدى مثقفي افريقيا الشمالية».

«ان نفوذ بعضهم يمتد من غامبيا الانجليزية الى مناطق المغرب الأقصى».

«إن أحياءهم حرم آمن لا يستباح، يلجأ اليه المغلوبون فيأمنون»(١٠٨).

كان لا بد من اتخاذ الحيطة والحذر إزاء شعب هذا شأنه واعداد العدة الكافية لاكتساح قلاعه الدينية والثقافية وتطويع مؤسساته الاجتماعية العريقة.

وقد عمدت السلطات الاستعمارية في هذا السبيل الى فرض حصار ثقافي على البلاد عززته بزرع المدرسة الاستعمارية ووضعها في مواجهة حادة مع المحضرة.. وقد صممت خريطة البلاد ونظمت ادارتها على نحو يكفل تحقيق ما يرمي إليه الحصار الثقافي من عزل بلاد شنقيط عن محيطها العربي ـ الاسلامي، فقد شذبت أطراف بلاد البيضان كما تصورها كابولاني في خريطته الأولى، وحولت مسالك التجارة من الشمال الى الجنوب، وحشرت بلاد شنقيط في منطقة افريقيا الغربية الفرنسية. واتخذت مدينة سنغالية عاصمة لهذه البلاد.

يقول لكرتوا : ان السلطة الاستعمارية «زجت بموريتانيا في افريقيا الغربية الفرنسية واتخذت مدينة سان لويس (اندار) السنغالية مقرا لحكومتها. وبذلك فرضت على هذا الشعب الانبتات من جذوره»(١٠٩).

وقد امتد الحصار الى مراقبة المشاييخ والدعاة والحجاج في حلهم وترحالهم، ومنع تداول الصحف العربية الصادرة في بلاد لا تخضع للرقابة الفرنسية، وكان هذا الحظر عاما في منطقة افريقيا الغربية الفرنسية، ولكنهم يرقبون أيضا ما يدور خارجها...

فقد لاحظ أحد المخبرين الفرنسيين، في تقرير له، أن بعض البياضين «يطلعون على هذه الصحف المحرمة عندما يزورون غينيا التي كانت خاضعة للاستعمار البرتغالي وغامبيا التي كانت تحت سيطرة الانجليز، وخصوصا أدوعلي فهم على اطلاع تام بما يجري بين الأوروبيين والدول الاسلامية»(١١٠).

وقد قاوم الشناقطة هذا الحصار وغالبوا المستعمر، بجلد كبير، على الصعيدين : الديني العام والثقافي العلمي الخاص.

أ ـ الاسلام والنصرانية

اقتضى احتلال بلاد شنقيط مراجعة السياسة الاستعمارية تجاه الاسلام في غرب افريقيا بمزيد من العناية.

ولهذه الغاية انشئت «مصلحة الشؤون الاسلامية» سنة ١٩٠٦ في عهد الحاكم الفرنسي روم، وكانت مصلحة ملحقة بمكتبه، أسند رئاستها إلى أرنود ثم إلى بول مارتي، وكلاهما موظفان فرنسيان من شمال افريقيا (المغرب العربي) لهما تجربة غنية في الادارة الاستعمارية بالبلاد الاسلامية، ولهما خبرة واسعة باللغة العربية والدين الاسلامي، وقد دون مارتي ثمرة عمله الاستخباري في غرب افريقيا في ١٣ كتابا.

أما سلفه الذي كان رفيقا لكابولاني وصديقا حميما له، فقد نشر سنة ١٩٠٦ كتابا عن بلاد البيضان Pays Maure de la Rive Droite du Sénégal ضمنه الخطوط العامة للسياسة الاستعمارية تجاه الاسلام والمسلمين في هذا البلد(١١١).

وتتلخص السياسة الاستعمارية تجاه الاسلام في مبدئين اثنين : أولهما التحكم فيه وتوجيهه حيث كان موجودا وثانيهما محاصرته ومنعه من الانتشار حيث لا يوجد أو حيث يكون سطحيا مشوبا غير نقي(١١٢).

وفي ضوء المبدأ الأول، أعلن الفرنسيون في بلاد شنقيط أنهم سيحترمون الدين ومؤسساته ورجاله. وكان حاكمهم الأول كابولاني يلقب نفسه «صاحب المسلمين»، لكن الشناقطة لم ينخدعوا بوعود الفرنسيين، بل لجأوا الى الاسلام يستمدون منه المنعة والعزة في وجوه «النصارى» الغزاة، واتبعوا الهجوم سبيلا للدفاع فنشطوا في الدعوة الى الاسلام واستلهام روحه وبث علومه داخل بلادهم وفي افريقيا السوداء(١١٣).

يقول دشاسي : ان مقاومة الاستعمار الثقافي اقترنت بحماس ديني عارم، فقد ازداد البيضان تمسكا بالاسلام وتطبيقا لشعائره خلال فترة الاستعمار.

وكانوا في حماسهم يقظين لا يخدعون بسهولة. كتب حاكم «بلاد البيضان» الى الحاكم العام لمستعمرات غرب افريقيا رسالة بتاريخ ١٩٢٢/١٠/٢٠ يحذر فيها من جمع التبرعات على البيضان لبناء جامع باريس، لأنهم سيعتبرون ذلك ضريبة لبيت مال فرنسا تفرض عليهم. وقال ان تجربة جمع التبرعات للحرب تؤكد ذلك. واقترح توزيع مطبوعات عربية عن المسجد ليتأتى كسب ثقة البيضان. وقد طبق الاقتراح(١١٤).

وقد قاد المتصوفة حركة المقاومة الدينية الثقافية، كما قادوا المقاومة في مرحلة الجهاد المسلح، فخيبوا ظنون كابولاني الذي درس تاريخ الطرق الصوفية وكتب عنها وهو في الجزائر. وكان يتصور أن المتصوفة المسلمين ستطغى عليهم نزعة الرضى بالقضاء فاذا بالاسلام كما يقول أحد رجال الاستعمار قد ظهر بوجهه الآخر «نضالا مستميتا لا هوادة فيه».

وفي مواجهة الاسلام المناضل، بادر الفرنسيون الى مراقبة المتصوفة... ففي سنة ١٩٠٧ كتب الحاكم العام الفرنسي لافريقيا الغربية من مقره في جزيرة «غوريه» السنغالية الى مندوبه في بلاد «البيضان» المقيم في «اندر» يحذره من نشاط الطرق الصوفية ودورها السياسي في البلاد(١١٥).

والواقع أن هذه التحذيرات لم تجد نفعا، ولم يفتأ دور المتصوفة في مقاومة الاستعمار يتعاظم منذ أيام الشيخ ماء العينين، ويتسع ليشمل تيارات واسعة. يقول دشاسي :

«هناك تيارات دينية أثارت قلق السلطات الاستعمارية وأفلتت من سيطرتها، منها على سبيل المثال : الجماعة الغظفية في ادرار وتكانت وأتباع الشيخ ابراهيم أنياس في موريتانيا وأتباع الشيخ حماه الله».

وقد اتهمت السلطات الفرنسية الجماعة الغظفية بتدبير عملية اغتيال كابولاني فنشطت في مراقبتها خاصة بعد الهجرة الجماعية التي قادها الشيخ محمد الأمين بن زيني القلقمي.

وأعلن الشيخ أحمد حماه الله الجهاد بدون سلاح، فبث الدعاية ضد المستعمر، وقصر الصلاة سنتين معتبرا أن البلاد في حالة حرب، وتحدى كبرياء رجال الادارة الفرنسيين وهم يستجوبونه، فاعتقلوه ورحلوه الى المذرذرة بغرب البلاد سنة ١٩٢٥، ولكن الاقبال عليه هناك دفعهم الى نفيه الى ساحل العاج سنة ١٩٣٠، حيث مكث خمس سنوات واصل فيها دعوته الى الله، قبل أن ينفى الى فرنسا، حيث انقطعت صلته بالبلاد الى اليوم.

وكان للشيخ ابراهيم نياس الدور الأكبر في مواجهة حركة التنصير ونشر الاسلام على مرأى ومسمع من أعدائه، فقد دخل ملايين الأفارقة الاسلام بجهوده وجهود اتباعه، وامتد نشاطه الديني والعلمي من نيجيريا الى الولايات المتحدة الامريكية، حيث يرعى سبطه الشيخ حسن سيسي اليوم عشرات الزوايا للمسلمين الجدد. وقد خاض الشيخ ابراهيم، الى ذلك نضالا نقابيا، فنظم نقابات المزارعين في سين سالم (بالسنغال) للضغط على السلطات الفرنسية.

ورفض التعامل مع رجال فرنسا والاستفادة من خدماتهم الخاصة، فسحبوا جوازه ومنعوه من السفر فترة من الوقت، وكانت أجهزتهم تراقبه واتباعه في بلاد شنقيط.

وفي السنغال ذاتها، دخل الشيخ أحمد بمب في مواجهة غير مسلحة مع السلطات الفرنسية. وكان العلماء الشناقطة سندا له في هذه المواجهة. وقد بذل بابا ابن الشيخ سيديا الذي كان له رأي آخر، مساعي حميدة لاعادته إلى بلده عندما نفاه الفرنسيون إلى الغابون، وعندما نفوه مرة ثانية الى جنوب بلاد شنقيط. وكانت اقامة جبرية، لا نفيا بالمعنى الصحيح لأن الشيخ السنغالي كان هناك بين أحبابه واخوانه.

وكان العلماء والشعراء الشناقطة يتوافدون بكثرة على الشيخ الخديم (احمد بمب) ويبالغون في الثناء عليه بما بدا لهم من حميد خصاله. وقد مدحه عبد الله السالم ابن حنبل بجهاده :

ومعتد مرتد أثواب عزته … يختال بين قباءيه وزناره
تمشي ألوف ألوف تحت سطوته … لم يعن قط بناهيه وأماره
انزلتموه حضيض الذل منكسرا … بسيف نصر حديد النصل بتاره[١١٦]

ولم تقف مواجهة الاسلام للنصرانية عند هذا الحد، بل أن الشناقطة مضوا بعد ذلك فاستغلوا بذكاء وجرأة واقدام «وحدة الأراضي الفرنسية» وظروف «الأمن التي سادت مع هيمنة الاستعمار ووسائل المواصلات السريعة «وعلمانية» الدولة الفرنسية لفتح افريقيا دينيا وثقافيا، فانبثوا في أرجاء القارة يدعون الى الاسلام بالقدوة الحسنة والكلمة الطيبة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، فسجلوا في ذلك نجاحا باهرا، ضيقوا به الخناق على المستعمر[١١٧]. ففي سنة ١٩٤٤ لاحظ الحاكم العام لغرب افريقيا كورناي بقلق أن عدد المسلمين في المنطقة قد تطور بسرعة مذهلة، حيث ارتفع من ٣.٨٧٥.٠٠٠ نسمة سنة ١٩٢٤ الى ٦.٢٤١.٠٠٠ سنة ١٩٣٦ م، وتحدث عن انهيار سمعة فرنسا وهيبتها. وقال أن المستقبل ينذر (يبشر) بانتشار الاسلام في عموم المنطقة[١١٨].

ولندرك أهمية هذا التطور ينبغي أن نذكر بأنه حصل وقد بسط المستعمر هيمنته وحاصر البلاد وراقب الدعاة الشناقطة وغيرهم، ونفى وسجن وسحق المقاومة المسلحة، وأطلق العنان للهيئات التنصيرية تباشر نشاطها بحرية واقتدار مادي.

وقد فرضت السلطات الاستعمارية رقابة مشددة على العلماء الشناقطة والمشايخ وفتحت لكل منهم ملف استخبارات وأخضعت جميع تحركاتهم لتسريحات خاصة، محدودة الامد، لا تسلمُ اليهم إلا بعد التحري والتحقيق. وكانت الملفات الخاصة تتضمن بيانات مفصلة عن الشخصية : عدد طلبته ومريديه، وعلاقاته الخارجية، وصلته بالشيوخ الآخرين وممتلكاته وأسفاره والكتب التي بحوزته، وما اذا كان قد حج في السابق أم لا، بالاضافة الى ما يصل من تقارير ومعلومات حول المعني، من أجهزة الادارة والاستخبارات.

وهذه نماذج اقتطفناها من الوثائق الاستعمارية :

فقد تابعت السلطات الفرنسية تحركات الشيخ محمد هادي من مناطق البلاد الشرقية إلى غينيا، حيث حل بقرية سانديا، وأقام فيها يدعو إلى الاسلام ويحرض السكان على انتخاب زعيم مسلم، فاعتقلته السلطة يوم ٢١ يوليو ١٩١٢ وحكمت عليه بالسجن، فمكث فيه ٣ أشهر، تم ترحيله في نهايتها من المنطقة، ورفع الحكام الفرنسيون في المناطق التي مر بها تقارير عنه[١١٩].

وفي سنة ١٩١٥ أجلت السلطات الاستعمارية الشريف سيدي محمد حيدره من بلاد ديولا الوثنيين «حتى لا يسيء الى تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية والدينية» ذلك أنه جاء الى المنطقة لنشر الاسلام[١٢٠].

وكان يسوء المستعمرين أن يقيم أحد الدعاة في منطقة غير اسلامية، يخشون أن ينشط فيها لنشر الاسلام، بل كان مجرد عبور هذه المناطق مصدر ازعاج لهم. وقد حدث عن طريق الخطأ ان سمحوا للشيخ المحفوظ بن محمد فاضل بالاقامة في احدى هذه المناطق، ثم أدركوا «خطأهم» وسعوا الى تصحيحه.

يقول بول مارتي أنه لمن المثير للغضب أن يسمح للشيخ المحفوظ باتخاذ موطىء قدم في بلاد ديولا الوثنية خصوصا وأن سكان المنطقة كانويقبلون نحو المستعمر بخطى ثابتة، فلا ينبغي أن يترك بينهم هذا «المرابط الذي يصيد في المياه العكرة» وذكر مارتي أنهم وجدوا في بيت زعيم من زعماء المنطقة أدعية وأحجبة عربية كتبت من أجل انتصار المجاهدين وموت الفرنسيين[١٢١].

ويدعو مدير مصلحة الشئون الاسلامية الى الاستفادة من هذا الدرس بفرض رقابة مشددة على الشيخ المحفوظ، ومنع طلبته واتباعه من التجول في المنطقة[١٢٢].

وكان البرتغاليون من قبل قد ضاقوا ذرعا بنشاط الشيخ المحفوظ في غينيا بيساو، فحظروا عليه الاقامة في بعض المناطق أولا، ثم وضعوه رهن الاقامة الجبرية، وتحت رقابة مشددة في احدى القريات الصغيرة بعد أن ثار عليهم الزعيم الغيني مودي سلو كايادا الذي كان على صلة بالشيخ[١٢٣].

وفي سنة ١٩٣٧ طلب الشيخ اب بن الشيخ الحضرمي السماح له بالسفر من شرق البلاد الى ضواحي المذرذرة في غربها، ودارت مراسلات بين الحكام الفرنسيين انتهت برفض الطلب.

وفي سنة ١٩٣٧ تابعت السلطات الاستعمارية وفدا قدم من سيراليون لزيارة الشيخ التراد بن العباس وصادرت رسالة وهدايا كان يحملها. وكتب حاكم النعمة رسالة الى والي السودان (مالي) مفصلة بالواقعة في ١٩٣٧/٤/٢٣.

وفي سنة ١٩٣٩ طلب والي السودان الفرنسي من حاكم النعمة (الرسالة رقم ٨٣ بتاريخ ١٩٣٩/١١/٢١) مراقبة محمد بن زين العابدين ومتابعة نشاطه في قبائل المنطقة، مبينا أنه كان في مصر أيام الحرب العالمية الأولى وانتقل منها الى المغرب أيام الظهير البربري (١٩٣٢) وكان على صلة هناك بالمكي الناصري المعارض لفرنسا.

وفي ٢٣ سبتمبر ١٩٤٢ كتب حاكم ابيدجان رسالة الى الحاكم العام الفرنسي لغرب افريقيا يشكو فيها من جولات الصلحاء والمشايخ البيضان في ساحل العاج بما فيهم الشيخ سيديا وسيدي محمد بن داداه، وقال أنه لا يرى «أي فائدة سياسية لاكثار جولات الشيوخ «المرابطين» في البلاد الوثنية» وطلب ابلاغه سلفا بالبرنامج التفصيلي لزيارة أي شيخ حتى يبدي رأيه في الموضوع، وان من يأتي منهم بعد ذلك التاريخ دون ابلاغ برنامج زيارته مسبقا، سيسفر فورا ولو كان مزودا بتسريح مرور.

وفي هذا الاطار طاردت عيون السلطات الاستعمارية سيدي أحمد بن حدمين الملقب الشيخ بوي، على امتداد رحلته في افريقيا وتم استجوابه أكثر من مرة[١٢٤].

وقد فرض الفرنسيون قيودا مشددة على أداء فريضة الحج باعتباره موسما دينيا ثقافيا جامعا للمسلمين، فكان على الراغب في أداء فرضه أن يتقدم بطلب خطي الى السلطات الفرنسية التي تدرس الطلب وترد عليه بعد مراجعة ملف المعني واستقصاء المعلومات عنه من مظانها لترى ما اذا كان يمكن السماح له بحضور هذا الملتقى الاسلامي الكبير أم لا.

وكان من الاحتياطات المتخذة لمراقبة الحجاج ـ وان وضعت تحت عنوان «تسهيلات» ترحيلهم بالبواخر الفرنسية عبر مرسليا للحد من عدد البلاد العربية والاسلامية التي يمرون عليها.

ولم ينج من هذه الاجراءات أي حاج، حتى أولائك الذين لم يرفعوا عقيرتهم ضد المستعمر، سواء في بلاد شنقيط أو في غيرها من بلاد افريقيا المسلمة. ففي السنغال مثلا، نلاحظ أن عدد الحجاج في خمس سنوات من أوائل القرن لم يتجاوز ما مجموعه ١١ فردا (معدل حاجين للسنة)[١٢٥].

ب ـ المحضرة والمدرسة

الحرب على المحاضر :

اهتم الفرنسيون باذلال المدارس العربية واخضاعها لرقابتهم وهم بعد في السنغال، ففي سنة ١٨٧٥ منعوا افتتاح أي «مدرسة عربية» (هكذا يسمونها) إلا بعد الحصول على تصريح رسمي، قابل للسحب لأبسط الأسباب، وقرروا الزام الأطفال بابراز بطاقة الانتساب الى

المدرسة الفرنسية، حتى يسمح لهم بالالتحاق بالمدارس القرآنية، واقتطعوا من وقت الكتاب ساعتين اجباريتين يوميا لتعلم الفرنسية.

وقد تعزز هذا الاتجاه القمعي مع احتلال بلاد شنقيط، ففي سنة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م، عمدت السلطة الاستعمارية الى ممارسة مختلف الأساليب للضغط على المدارس القرآنية، من تهديد باغلاقها «حفاظا على الأمن» الى ارغام المدارس هذه على اجراء امتحانات للمعلمين بها، الى انشاء لجان للمراقبة وطرد التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و١٦ سنة في أوقات افتتاح المدرس الفرنسية لينصرفوا اليها[١٢٦].

ولم تؤت سياسة العصا الغليظة النتائج المرجوة، فعززها المستعمر باستخدام أساليب الترغيب، أملا أن تكون أجدى في اختراق جدار المحضرة المنيع، فأصدر في ١٢ يونيو ١٩٠٦ م مرسوما يقضي بصرف منحة تشجيعية شهرية قدرها ٣٠٠ فرنك قديم (٦٠ أوقية) لكل شيخ محضرة أو كتاب يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعلم اللغة الفرنسية.

ورغم ظروف المحضرة الصعبة، وحاجتها الماسة، فان أي شخص لم يتقدم للاستفادة من هذه المنحة. وبذلك ولد المرسوم ميتا، واستمرت صيغ الرقابة والحصار التقليدية.

وفي سنة ١٩٠٧ كتب الحاكم العام لغرب افريقيا الى مندوبه في بلاد البيضان يحضه على مراقبة المتصوفة ويأمره بجمع كل المعلومات عن «المدارس القرآنية» (المحاضر) «التي تبث مذاهب دينية ومواقف سياسية» وعن المشاييخ الذين يتولون التدريس في هذه المحاضر : أصولهم، ثقافتهم، وسائلهم ومواردهم، مدى نفوذهم، علاقتهم بمشايخهم، وعن الطلبة الذين يرتادون المحاضر[١٢٧].

وكان كابولاني على جانب من الدهاء، عندما كتب سنة ١٩٠٥، قبيل مصرعه الى الحاكم العام لغرب افريقيا يشرح العواقب السلبية للسياسة الاستعمارية تجاه المحاضر، لأنها تحرض السكان المسلمين وتوغر صدورهم على الفرنسيين بدون مقابل.

لكن الموقف كان موقفا استراتيجيا لا سبيل للتراجع عنه. فقد ظل الفرنسيون يراقبون المحاضر ويطاردونها وهي تنتقل من منتجع الى منتجع. وكانت «الكحلاء» وهي من أعرق محاضر البلاد ـ قد رحلت من «امشتيل» الى منطقة «الرقيبة»، يطاردها الفرنسيون. وكان يوم اجتياحها يوما أسود، ما ان انتهكوا حرمها حتى نعاها أحد طلبتها بالشعر العامي :

الكحل كانت للحسين   وأولاد الناس المطبوعه
واليوم ادخلها كابتين   وبرتزام وكلموعه[١٢٨]

وفعلا كان دخول الاستعمار بداية النهاية لهذه المحضرة التي صارت اليوم احدى ذكريات الماضي المجيد.

وشملت اجراءات المضايقة المدارس الخصوصية التي تنتهج نهج المحضرة في تعليم اللغة العربية والدين، ففي سنة ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م، أسس الحاج محمود با جمعية المسلمين لتعلم القرآن فكانت قلعة للجهاد الثقافي أزعجت المستعمرين فاستدعوه الى باماكو (عاصمة مالي) حيث أبلغته السلطات الفرنسية أن حرية نشاطه مشروطة بما يلي :

١ ـ أن لا يتناول في مدرسته التاريخ العام،
٢ ـ أن لا يدرس بها التاريخ الاسلامي والجغرافيا،
٣ ـ أن لا يدرس بها الحساب.

وبقي الحاج محمود محاصرا بهذه اللاءات، لكنه تمكن بعد ٤ سنوات من تهريب بعثة طلابية الى الأزهر ولقي في ذلك عنتا من السلطات الفرنسية التي حظرت عليه ارسال الطلبة الى الجامعات الاسلامية العربية وحذرته من عواقب هذا التصرف.

وفي سنة ١٩٥٢ استطاع الحاج محمود أن يخرج ويهرب ١٧ طالبا تسللوا مع قوافل الحجاج فالتحقوا بالأزهر. وعاد الحاج سنة ١٩٥٤ فأوقفته السلطات الفرنسية للاستجواب ووجهت اليه تهمة تسفير الطلبة بدون اذن من الدولة، بل واتهمته ببيعهم، والنيل من سيادة فرنسا في مصر. وسمحوا له باستئناف نشاطه التعليمي بشرط اعادة الطلبة من مصر، فاضطر بعضهم للعودة ورفض آخرون. وقد استجوب العائدون وانذروا بسجن آبائهم ان هم عادوا الى الأزهر. لكن الانذار لم يفت في عضدهم فقد اغتنموا فرصا لاحقة لمواصلة دراستهم هناك(١٢٩).

وبرغم كل التحديات، استطاع هذا الثغر الثقافي الذي حمل اسم «مدارس الفلاح» أن يصمد ويتطور فيخرج مئات الطلبة ويتفرع الى عشرات المدارس في شتى أقطار غرب افريقيا.

المدارس الأولى :

بدا المستعمر يحاول فرض لغته وثقافته في السنغال ـ جسره الى بلاد شنقيط ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر. ومر غزوه الثقافي لهذا البلد المجاور بمحطات أبرزها :

ـ ارسالية مسيحية تعليمية سنة ١٢٥٦ هـ/١٨١٤ م
ـ مدرسة لأبناء الأعيان سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٥ م
ـ اعلان مجانية التعليم سنة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م(١٣٠).

وقد رسمت الادارة الاستعمارية هدفا للتعليم : تكوين الموظفين الضروريين للادارة ونشر اللغة الفرنسية وزرع محبة فرنسا في قلوب الشعوب المستعمرة(١٣١).

وهكذا «فعلى مدرسي التاريخ والجغرافيا أن يبرزوا كيف أن فرنسا أمة غنية قوية قادرة على انتزاع الاحترام ولكنها أيضا قمة في نبل المشاعر ورقتها، سخية لم تتقاعس أبدا عن

التضحية بالرجال وبالمال لتحرير الشعوب المظلومة ولتحمل الى الشعوب المتوحشة السلام وثمار الحضارة»(١٣٢).

واقتضت السياسة التعليمية الاستعمارية فرض الفرنسية لغة وحيدة للتعليم الرسمي بدءا من السنة الأولى. وجاء في قرار صادر بتاريخ ١٩٢٤/٥/١٠ تأكيد جديد على هذا المبدأ : «الفرنسية هي وحدها اللغة المستعملة في المدارس. ويحظر على جميع المعلمين التحدث مع التلاميذ باللهجات المحلية» (وقد اعتبرت اللغة العربية لهجة محلية).

وجاء في تعميم استعماري لاحق :

«ينبغي أن تفرض الفرنسية على أكبر عدد ممكن من السكان المحليين لتكون لغة الاتصال وأداة التفاهم على امتداد الاقليم. وقد أصبح لزاما على الشيوخ، أن يتعلموا الفرنسية (...) من غير المقبول، بعد ٤٠ سنة من الاحتلال، ان نجد جميع الشيوخ غير قادرين على التحدث معنا مباشرة بدون ترجمان، رغم أن علاقات عمل منتظمة تربطنا وإياهم.

«يجب نشر اللغة الفرنسية الجارية. يجب أن يكون في استطاعتنا، وفي أقصى القرى، أن نقابل شيخ مجموعة وعددا من السكان يفهمون الفرنسية ويتحدثون بها.

«ان الفرنسية هي اللغة الوحيدة التي ينبغي أن نعني بها ويتعين علينا نشرها».

وفي نفس الاتجاه، صدرت توصية عن مؤتمر برازافيل في ٨ أبريل ١٩٤٤ م، باقتراح من الحاكم العام «ابويه» وورد في النقطة الثالثة من التوصية : «يجب أن يكون التعليم باللغة الفرنسية. ويمنع بتاتا استخدام اللهجات المحلية لأغراض تربوية، سواء في المدارس الخصوصية أم في المدارس العمومية»(١٣٣). تلك هي فلسفة المستعمر التي درج عليها وغايته التي سعى اليها، منذ استقراره بالسنغال حيث زرع مدارسه الأولى في المنطقة.

وقد واجه سكان هذا البلد المسلم (أو المسلمون منهم) المدرسة الفرنسية اما بالرفض أو بالقبول على خجل واستحياء من الضمير، بل من الله وعلى خوف من رجال فرنسا وملائهم.

ويصور الشيخ حامد كان الموقفين في هذا الحوار بين معلم ومدير افريقي لمدرسة فرنسية وشيخ قرية يرفض ارسال أبنائه الى المدرسة :

ـ المعلم : «ألا تزالون ترفضون، أيها الشيخ ارسال أبنائكم الى المدرسة الأجنبية؟

ـ الشيخ : «نعم وأنا مصر على الاستمرار في رفضي ما دام الخيار بيدي».

ـ مدير المدرسة : انني معكم أيها الشيخ، وأنا لم أرسل ابني الى المدرسة إلّا تحت الضغط والإكراه.

رفضنا أكيد.. ومع ذلك فالمسألة شائكة.. اننا نرفض المدرسة لنظل كما كنا.. ليظل الله حاضرا في قلوبنا.. ولكن أما تزال لدينا القوة الكافية للصمود في وجه المدرسة، ثم لنحتفظ بهويتنا الخاصة؟»(١٣٤).

يجيب الواقع عن هذا التساؤل، فقد لقي المستعمر بعض النجاح في السنغال، فتطلع الى أن يبسط لواءه الثقافي في بلاد شنقيط أيضا.

في سنة ١٩٠٣ كان الفرنسيون قد تبوأوا من الأرض في منطقة الترارزة، وأخذوا عدتهم لاجتياح تكانت وادرار. حينئذ بدأوا ـ ولما يفرغوا من بسط سيطرتهم على البلاد ـ في ارساء قواعدهم الثقافية في المناطق التي احتلوها، بدءا بضفة نهر السنغال فافتتحوا سنة ١٩٠٥ مدرسة بكيهيدي، تبعتها أخرى في بوغى سنة ١٩١٢، لكن جميع تلاميذ هاتين المدرستين كانوا من الزنوج باستثناء اثنين من قبيلة العلويين، أثار وجودهما في المدرسة سنة ١٩٠٨ الاستغراب.

وقد بعث بعض التلاميذ البيضان الى مدرسة أبناء الأعيان في ندر بالسنغال، لكنهم لم يستقروا بها، ولم تجد فيهم زيادة المنح شيئا. وقد أول تهرب البيضان من المدرسة بانهم «لا يحتملون مناخ ضفة النهر والسنغال ولا يحبون العيش بين الولف (سكان السنغال الافارقة) وهم يدعون أن ابتعادهم من ذويهم يفسد أخلاقهم»(١٣٥).

وهكذا لم تكن البداية موفقة، واضطر الفرنسيون للبحث عن صيغة يستدرجون بها البيضان الى لغتهم وثقافتهم فكانت مدرسة من نوع آخر.

المدرسة الفرنسية من وراء حجاب

أدرك الفرنسيون أن اجراءات الرقابة والاغراء غير كافية لزعزعة أركان المحضرة وكان لا بد من التنازل عن مسطرة المبادىء القاضية بالعمل على تعميم تعليم اللغة الفرنسية اذا أرادت فرنسا أن تجد أرضية حوار مع المواطنين.

وهكذا فكر حاكم غرب افريقيا سنة ١٩٠٥ في انشاء مدرسة اسلامية لأبناء المرابطين (العلماء)، تكون لطلبتها منح مالية وذلك لمكافحة المحاضر التي تنتشر هنا وهناك وتفلت من عين الرقابة.

ولانجاز فكرته كتب الى مدير التعليم في تونس يستأنس برأيه في ضوء التجربة القائمة هناك. وكتب الى القنصلية الفرنسية بالقاهرة ليطلع على سياسة الانجليز بهذا الشأن. وانتدب أحد معاونيه للسفر الى الجزائر سنة ١٩٠٦ فعاد بتقرير مطول حول المدارس ونظام التعليم الفرنسي ـ الاسلامي هناك.

وفي ضوء هذه الاستشارات تم سنة ١٩٠٨ تحويل مدرسة اندار **Saint-Louis** بالسنغال لأبناء الشيوخ الى «مدرسة» تحمل هذا الاسم العربي (مدرسة) بدل الاسم الفرنسي «**Ecole**» وتستلهم أساليبها ومناهجها من التجربة الجزائرية. وتم افتتاح مدرستين مماثلتين في مالي في مدينتي جنة وتنبكتو.

وتقع المدارس الثلاث في مدن وثيقة الصلة جغرافيا وبشريا وتاريخيا واداريا ببلاد شنقيط. ولهذا كان افتتاح المدارس بها تمهيدا لا بد منه لتطبيق التجربة في أرض البيضان حيث تم افتتاح مدرسة بوتلميت سنة ١٩١٣(١٣٦).

وكان منهاج مدرسة اندار متنوعا فهو يضم :

- في الأدب والقصص : حكم لقمان، كليلة ودمنة، ألف ليلة وليلة، المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي، المعلقات، بردة البوصيري، بانت سعاد لكعب ابن زهير، مقتطفات من ديوان المتنبي ومن الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، لامية العرب للشنفري، لامية العجم للطغرائي، مقامات الحريري، رحلة ابن بطوطة، مجاني الأدب، مروج الذهب للمسعودي، مقدمة ابن خلدون.
- في الفقه والعقيدة : رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تحفة ابن عاصم، الرحبية، مختصر خليل، صحيح البخاري، عقائد الأخضري، العقائد السنوسية.
- في النحو : مختصر ابن اجروم، الفية ابن مالك، لامية الأفعال، مبادىء العربية للشرتوني، الخزرجية في العروض.

ونلاحظ بوضوح غياب السيرة النبوية ومصادر التاريخ الاسلامي وأدب البطولات من هذا المنهاج فالفرنسيون لا يريدون بطبيعة الحال أن يربوا الأطفال على الاستلهام من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وفتوحات المسلمين وبطولاتهم التي تذكر الأحفاد بمآثر الأجداد ومالهم من نعم في أعناقهم.

وكان الهدف من هذه المدارس مثلما هو في الجزائر تكوين رجال القضاء الشرعي وأعوان الادارة واستقطاب الرعايا المسلمين بتوفير تعليم شبه أصيل مغربل مجرد من كل عوامل العداء للاستعمار، مشبع بروح جديدة منافية للروح السائدة في تعليم المحاضر(١٣٧).

وقد طوعوا مناهج المدرسة ونظمها على النحو الذي يحقق لهم هدفهم منها، فالبسوها زيا عربيا ـ اسلاميا لئلا ينفر منها الناس، وقرروا منذ سنة ١٩٢٢ ان لا تسند ادارتها الا الى جزائريين متشبعين بالثقافة الاسلامية (فضلا عن رصيدهم من الثقافة الفرنسية) فكان السيد النقلي الجنيدي أول مدير جزائري لمدرسة بوتلميت(١٣٨) وتبعه بوالعالم ولد الرويس (١٠٢٩) ثم مصطفى بن موسى (١٩٣٨) ثم جاء تفاحي مراد، فكان الجزائريون الأربعة

يتعاقبون ادارة المدارس في بلاد شنقيط. واكتسب الفرنسيون بهذه الطريقة وللغرض ذاته بعض علماء البلد مدرسين، فعززوا بذلك الثقة بالمؤسسة الجديدة.

وقد حدد بول مارتي مبررات الأخذ بصيغة «المدرسة» في تقرير له سنة ١٩١٧ فقال ان «مبدأ المدرسة مبدأ رائع، وأنه يفرض نفسه خاصة في بلاد البيضان (العرب) وفي مدن أخرى مثل اندار السنغالية وتنبكتو حيث يتكلم الناس اللغة العربية ويقرؤونها بل حيث يرضعونها وينطبع بها تفكيرهم، وحيث توجد أعداد كبيرة من المثقفين والعلماء».

وليست الغاية من انشاء المدارس - يقول بول مارتي - «تطوير الدراسات الاسلامية العليا» وإنما الغاية التحكم في هذا التعليم ما دام موجودا، وتوجيهه ومحاولة المواءمة أو التقريب بين العلم والدين»! واضح أنه يعني بالعلم هنا كل مظاهر الحضارة الأوروبية يومئذ وفي مقدمتها الظاهرة الاستعمارية، بينما يعني بالدين الاسلام خاصة.

وهكذا فليس صراع العلم والدين الذي يشير اليه مارتي الا صراع الوطنية والاستعمار ومواجهة المسلمين لمؤسسات التنصير.

ويتضح ذلك حيث يفسر بول مارتي هدف المدرسة بعبارة أوضح فيقول : انه «التقريب بين ايمان أبناء الرسول (عليه الصلاة والسلام) وحضارة الفرنسيين» على حساب الطرف الأول طبعا.

وبذلك تكون المدرسة أداة لتحقيق «المهمات السياسية» للاستعمار(١٣٩). وذلك ما أكده وليام بونتي William Ponty منذ سنة ١٩٠٦ حيث قال : «ان انشاء المدرسة (الاسلامية) هو قبل كل شيء عملية سياسية. انها تسعى مع المدرسة الابتدائية (الفرنسية) الى نفس الهدف»(١٤٠).

«وبعبارة أخرى فان المدرسة الابتدائية الفرنسية هي أداة نقل الحضارة، أما المدرسة الاسلامية فهي أداة تنفيذ سياسة حكيمة».

وقد تجلت ازدواجية الهدف والوسيلة هذه في نظام العطل، فقد كانوا يعطلون الخميس ويقفزون الجمعة والسبت ليعطلوا يوم الأحد(١٤١).

لقد كانت المدرسة العربية تمهيدا لا بد منه لخلق جو من الثقة والاتصال الوثيق بين المستعمر والسكان، اذ بدون ذلك لا يتأتى استدراج هؤلاء القوم إلى المدرسة الفرنسية.

وكانت المدرسة العربية وسيلة لاخماد المقاومة المسلحة وعضل الناس أن يهاجروا، خاصة وقد جعلت خالصة لأبناء الأعيان، ولتبدو وكأنها مرقاة للمجد وسبب للنفوذ.

جاء في تقرير رئيس مصلحة التعليم الاستعمار باندار سنة ١٩٣٤ ان من فوائد هذا الاختيار أن «الوجهاء الذي سيكون لهم أبناء في المدرسة سيترددون في الخروج للمقاومة» خوفا على أبنائهم(١٤٢).

وكان قصر المدرسة على أبناء الأعيان وسيلة أيضا لزيادة حدة الفوارق الاجتماعية ووضع جيل جديد من الأعيان، وهم علية القوم، تحت رحمة المستعمر، يخضعون له فيخضع عامة الناس بخضوعهم.

وقد أدرك الشيخ ابراهيم نياس الكولخي مرامي المستعمر من هذا الاختيار ومن مناهج الدراسة النظرية، فطالب بانهاء الصبغة الارستقراطية للمدرسة وفتح أبوابها أمام الفئات الدنيا من المجتمع وادماج التكوين المهني في برامج التعليم العام.

ورغم المبادىء الديمقراطية التي تقوم عليها الثورة الفرنسية، فقد رفض بيري هذا الاقتراح آنذاك(١٤٣).

وكان من الأهداف الهامة للأخذ بنظام المدرسة صرف أنظار الشباب عن التطلع الى الدراسة في الجامعات الاسلامية العريقة في المغرب وتونس ومصر، بل وفي مدارس الجزائر، بحجة أن لهم مدرسة عربية اسلامية حديثة في بلادهم تغنيهم عن الاغتراب.

وليكون هذا المنطق مقنعا، فكر الفرنسيون في الحاق مرحلة جامعية بالمدرسة.

كتب حاكم بوتلميت «دبيه» في تقرير نهاية الدراسة لسنة ١٩٣٩ يشيد بذكاء أحد الطلبة وتفوقه(١٤٤)، ولكنه يسجل عليه رغبته في متابعة دراسته على حساب الادارة الاستعمارية أو على حساب اسرته في المدرسة العليا بالجزائر أو في القرويين بفاس. ويتساءل الحاكم : لماذا اختار التلميذ الذكي هذه المدارس بدل مدارس السنغال ؟ ويقول أن التلميذ يدعي تارة أن ذلك هو اختيار محيطه (اسرته) وتارة أنه يهوى السفر بعيدا وانجاز دراسات عليا.. ويخلص دبيه الى القول : اننا «لا نستطيع أن نؤيده في رغبته هذه».

ويزيد الحاكم من شكواه، فيقول أن مرشحا وحيدا تقدم للالتحاق بمدرسة داكار للمعلمين وأن بقية الطلبة يتذرعون بان مناخ السنغال لا يناسبهم.

وقال الحاكم الفرنسي أنه يقترح **من جديد** تنظيم مرحلة دراسات عليا في «موريتانيا» (لئلا يبقى هناك ما يبرر تطلع الطلبة للدراسة في الجامعات العربية)، ويرشح مدينة روصو (القوارب) مقرا لهذه المرحلة بدل بوتلميت لان «روصو» الواقعة على ضفة النهر قريبة من السنغال، مما يضمن الاحتكاك بالوسط السنغالي ويسهل ارسال دفعات من الطلبة الى داكار(١٤٥).

ولم تأخذ الادارة الفرنسية بهذا الاقتراح الذكي لأنه يناقض هدفا آخر هو الحدّ من الاطر العربية العليا والاكتفاء بتخريج قضاة صغار وموظفين يخدمون الادارة الفرنسية من قريب (مترجمين، كتاب...).

ولئن حققت فرنسا بعض مراميها من خلال المدرسة، فلقد عانت في ذلك، وظلت المدرسة تتعثر حتى اذا وضعوا الحصيلة، بعد عشرات السنين الفوها أدنى بكثير ما يتوقعون.

بطء.. وتعثر

رغم كل الاحتياطات التي اتخذها المستعمر وضمانات النجاح المادية والمعنوية التي وفرها، فقد تقدمت تجربة «المدرسة» ببطء شديد، وتعثرت طويلات في مسيرتها.

لقد مضت سنوات عشر من الاحتلال قبل أن يتمكن الفرنسيون من وضع الحجر الاساسي لهذه التجربة. وبعد تأسيس مدرسة بوتيليت سنة ١٩١٣ ولتعثرها، انتظر الفرنسيون ٢٠ سنة، استخدموا خلالها ذكاءهم ودهاءهم ووسائلهم المادية والمعنوية وفاقة السكان ليتمكنوا من افتتاح مدرسة جديدة في تمبدغه سنة ١٩٣٣ وثالثة في اطار سنة ١٩٣٦ ورابعة في كيفه سنة ١٩٤٠ م(١٤٦).

وكان وراء كل مدرسة جديدة صراع طويل، وأمامها تعثر متواصل حتى ولو سجلت المدرسة نجاحا نسبيا كما حدث في بوتيلميت.

لم تكن مدرسة بوتلميت عند حسن ظن الفرنسيين في كل الأحوال... فقد انتهز علماء المدينة فرصة النجاح النسبي لمدرستهم والتقدير الخاص الذي كانت تحظى به عند السلطات الفرنسية فطلبوا منها تزويد «المدرسة» بكمية من الكتب العربية النادرة منها :

ـ في القرآن : تفسير ابن عطية والقرشي (ابن كثير) والبحر المحيط لأبي حيان،

ـ في الحديث : التمهيد لابن عبد البر، والأحوذي على جامع الترمذي، واكمال العلم على كتاب مسلم والمستدرك للحاكم والعزيزي على الجامع الصغير والقبس على موطأ مالك بن أنس، ومرقاة الصعود على متن أبي داود ووسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم لأبن جزي.

ـ في الفقه : توضيح خليل على مختصر ابن الحاجب والموازية والعتبية وكتاب ابن يونس وتبصرة اللخمي وجواهر ابن شاس ووثائق ابن العطار والبيان والتحصيل لأبن رشد وكتاب المازري والقلشاني على الرسالة ومقدمات ابن رشد وذخيرة القرافي.

ـ في العقائد : النور المبين في قواعد الدين لأبن جزي المالكي.

ـ في التاريخ : مغازي موسى ابن عقبة وعيون الاثر لأبن سيد الناس.

ـ في النحو : المساعد على التسهيل وشرح الدماميني على التسهيل أيضا وشرح الكافية لأبن مالك وشرح كتاب سيبويه للسيرافي.

ـ في الأدب : صحاح الجوهري وحاشية ابن بري عليه والمزهر للسيوطي ولسان العرب لأبن منظور.

وهكذا حاول العلماء، وكثيرا ما فعلوا ذلك، أن يسخروا المستعمر لخدمة أهدافهم المنافية لأهدافه، مستغلين «نجاح» مدرسة بوتيلميت العزيز عليه وسيلة خفية للضغط.

لكننا لا نجد في الوثائق ما يشير الى أن السلطات الفرنسية اهتمت بتلبية الطلب(١٤٧).

وفي سنة ١٩٣٥، طلب العلماء تحويل مدرسة بوتلميت الى محضرة حقيقية، أي الغاء المدرسة والعودة الى منهج المحضرة وأساليبها في التدريس، ولكن مدير المدرسة يقول في رسالة رفعها الى الادارة الاستعمارية بالمناسبة أنه شرح للعلماء تفوق المناهج الفرنسية «وضرورة تخليهم (العلماء) عن مناهجهم عديمة القيمة معنويا واجتماعيا»(١٤٨).

وقد شهدت مدرسة بوتلميت اضرابات ومظاهرات للتلاميذ في ٣٠ مارس ١٩٣٦، قال حاكم المدينة في تقرير عنها بتاريخ ١٩٣٦/٤/٢٧ ان طلبة من كل الولايات تقريبا شاركوا فيها.

وقد فرضت السلطات الفرنسية على التلاميذ عقوبات شملت طرد أربعة منهم. ثم ادرك الحاكم الفرنسي أن هذا الاجراء مخاطرة تهدد المدرسة بالشلل، لأن نجاحها النسبي عائد الى سياسة الاستقطاب المرنة والمعاملة الحسنة التي انتهجها الفرنسيون لانتزاع الأبناء من الآباء، فتراجع الحاكم عن قراره وسعى جهده لأقناع الطلبة المطرودين بالعودة الى المدرسة ولكنهم رفضوا(١٤٩).

أما مدرسة أطار، فقد كان مخاضها صعبا.. وكانت السلطات العليا في المستعمرات الافريقية تريدها مدرسة مزدوجة، لكن الامر بدا مستحيلا لحكام اقليم موريتانيا، فتقرر أن يكون التعليم الفرنسي «اختياريا» في المدرسة، يستفيد منه من يرغبون فيه ودعت السلطات علماء المنطقة الى التدريس في المدرسة، سعيا الى كسب ثقة السكان، ولكن العلماء ترددوا طويلا في تلبية الطلب الفرنسي.

يقول باشمان Bataillon Bachman حاكم دائرة آدرار انذاك في رسالة الى حاكم الاقليم :

«ان افتتاح المدرسة يواجه صعوبات، ذلك أن الأساتذة المقترحين : الشيخ سعد بوه شيخ أولاد غيلان وسيدي محمد بن الحبيب بن عبد الحي العالم الجلبل ذا النفوذ لدى الرقيبات

وسكان الشمال ومحمد ناجم ونوبيه والبار كلهم تعللوا بمختلف الأعذار لرفض التدريس رغم الراتب المغري ورغم ترحيب السكان مبدئيا بجامعة اسلامية».

ويخلص الحاكم الى القول أنه لا بد من مجهود «لاقناع البيضان»(١٥٠).

وفعلا، اقتنع القوم في النهاية عندما أيقنوا أن المدرسة ستكون عربية خالصة، لا أحد يتقدم فيها لدراسة الفرنسية، رغم اعلانها «اختيارية» من الناحية النظرية(١٥١).

ونشرت جريدة La Nouvelle Depêche في ٢٢ فبراير ١٩٣٦ خبر تأسيس مدرسة أطار، وذكرت أن مدة الدراسة فيها ٤ سنوات، ولا يدخلها إلّا أبناء الأعيان البيضان، والفرنسية اختيارية ولن تفرض عليهم. وذكرت ان الادارة الفرنسية تكفل للمنتسبين اليها السكن والغذاء والملابس(١٥٢).

لقد كان الأخذ بمبدإ المدرسة ـ بغض النظر عن غاياتها ـ تكريسا لهزيمة المستعمر على الجبهة الثقافية فقد استطاع أن يسيطر عسكريا منذ سنة ١٩٣٤، ولكنه ظل يشعر بعد ذلك بأنه مهزوم ثقافيا، فانحنى بذكاء أمام الصخرة التي تحطمت عليها محاولات التغريب والاستلاب وقرر التعامل مع الواقع الصلب بقبوله مؤقتا لا برفضه، ريثما يتاح له كسب قسط من ثقة الشعب يمكنه من انجاز خطوة متقدمة.

لقد انبهر رجال الاستعمار باصالة الشناقطة وصلابتهم وحصانتهم الروحية والثقافية، ولم يخفوا انطباعهم هذا، ولم يستطيعوا التنكر كليا للحقائق التي اكتشفوها، فقابلوها «بالتفهم»، واعترفوا بعضهم أمام بعض بقوة خصمهم الدينية والثقافية.

يقول شانيو Chaigneau رئيس مصلحة التعليم الابتدائي في تقرير له سنة ١٩٣٤ :

ان «البيضان المسلمين منذ قرون كان لهم وما زال علماء وفقهاء وأدباء معرفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية. ونتفهم كونهم، لغيرتهم على ماضيهم، لا ينظرون الى حضارتنا بحماس»...

«ان الثقة معدومة بيننا الآن»(١٣٥).

ويقول الحاكم الفرنسي لموريتانيا «لغريه» C. Laigret :

«لقد عالجنا مشكلة التعليم فور دخولنا موريتانيا. ولكنها مشكلة حادة. لقد وجدنا أنفسنا في مستعمرات أخرى في ساحة فارغة، أمام شعوب متلهفة الى محاكاتنا. أما في موريتانيا فان المقاومة الاسلامية لنمو نفوذنا عن طريق التعليم الفرنسي بدت مقاومة صلبة.

«ان البيضان الذين أسلموا منذ قرون، وكان لهم ـ ومازال ـ فقهاؤهم وعلماؤهم لا يمكن أن يروا حضارتنا بعين الاعجاب التي ينظر اليها بها السود. ثم ان موريتانيا من البلاد التي تمثل الثقافة فيها قمة المجد. وبها توجد مدارس كثيرة ومكتبات تمثل شواهد حية، كمكتبة شنقيط»...

«وهكذا انتصب في مواجهتنا عدو قديم وقوي هو : تعليم المحاضر. وللتغلب على هذا المنافس القوي تعين انتهاج سياسة مدرسية حكيمة وتطلب الامر جهدا كبيرا».

ولاحظ الحاكم الفرنسي أن «المحاضر منتشرة في موريتانيا، وتكاد تكون موجودة في كل حي بدوي حتى في احياء القبائل المحاربة (بني حسان ومن نحا نحوهم) والفئات الغارمة. وفي جنوب البلاد تتعدد المحاضر في الحي الواحد»(١٥٤).

وفي تقرير وضع عن «التطور الثقافي والاجتماعي» في البلاد سنة ١٩٣٧ يقول الاداري الفرنسي بيري Beyries :

«لقد لاحظت أنه لا يوجد أي مجتمع بدوي يبلغ مبلغ البيضان في العلم بالعقيدة والتاريخ والأدب والفقه وعلوم العربية...

«انهم يتحدثون العربية الفصحى بطلاقة ويسر أحسن مما يتحدث بها سكان تونس والقاهرة»...

«ولا يندر أن تجد فيهم راعي ابل من أبسط الرعاة يترنم بالشعر الجاهلي»(١٥٥).

في ضوء ملاحظاتهم الميدانية هذه، اضطر الفرنسيون لحمل قناع «المدرسة» وهم يسعون لكسر شوكة المقاومة الثقافية.. ولم يلبث هذا القناع ان سقط حين آنسوا من أنفسهم بعض القوة، وظهرت المدرسة الاستعمارية بوجهها الصحيح سافرة، غير محتجبة.

المدرسة الفرنسية... سافرة

شيئا فشيئا، أخذت السلطات الفرنسية تزيح عن مدرستها قناع اللغة العربية والاسلام فكانت كلما استوثقت من نجاح زائد وهيمنة صاعدة تحدث حصصا فرنسية جديدة أو تزيد في وقتها، حتى اذا ظنوا أنهم قادرون على املاء ارادتهم كما يشتهون كشفوا النقاب وأزاحوا الستار عن نواياهم، فأخلوا الجو للغة الفرنسية. وقد بدأت مسيرتهم هذه سنة ١٩١٣، واستمرت عشرات السنين متبعة سياسة «الخطوة.. خطوة»، أو كما يقول المثل الشنقيطي «قطرة.. قطرة يسيل الواد».

ففي سنة ١٩١٣، كانت مدرسة بوتيلميت الوليدة تقدم لتلاميذها ١٢ ساعة في الأسبوع من المواد العربية (تفسير، فقه، توحيد) مقابل ١٣ ساعة للفرنسية.

وفي سنة ١٩٢٢، انخفضت حصة العربية الى ٩ ساعات ونصف مقابل ١٩ ساعة للفرنسية وحتى لا يثير هذا الاجراء حفيظة السكان، تم بنفس المناسبة تنويع مواد العربية، تعويضا عن نقص حصتها الزمنية، فادمج في البرنامج الدراسي ديوان الستة الجاهليين ودروس من السيرة النبوية الشريفة والعروض.

وفي سنة ١٩٢٩ انخفض العدد الاجمالي لساعات الدراسة الى ٢٤ ساعة وتقلصت نسبة الدروس العربية الى الثلث : ٨ ساعات مقابل ١٦ ساعة من الدروس الفرنسية.

وفي أطار قويت المجابهة حتى انقسم فيها رجال الادارة الاستعمارية، فقدهم حاكم اقليم موريتانيا سنة ١٩٣٦ باعلان العربية لغة وحيدة في مدرسة أطار حتى لا يفشل المشروع لكن الحاكم العام لغرب افريقيا Brevie اعترض على هذه الصيغة، ثم قبل مضطرا صيغة لا تختلف إلّا من حيث الشكل، فأعلنت الفرنسية لغة اختيارية في المدرسة واشترط الحاكم العام أن يكون ذلك لفترة انتقالية لا تتعدى ٤ سنوات. ولكن ما ان مضت سنتان فقط حتى أصبحت الفرنسية لغة اجبارية.. ومرت سنتان أخريان ليكتشف المستعمر أنه تسرع في قراره فنسخه سنة ١٩٤٠ بقرار جديد يعيد الى تعليم الفرنسية طابعه الاختياري في مدارس البلاد، باستثناء مدرسة بوتلميت (١٥٦). وكان القرار الجديد اعلانا ضمنيا بفشل تجربة التعليم الفرنسي لعزوف السكان عنه.

وبعد ٧ سنين توهم المستعمر أن الفرصة أصبحت سانحة لتعميم التعليم الفرنسي، فأعلن سنة ١٩٤٧ توحيد نظام التعليم في مستعمرات غرب افريقيا بما فيها اقليم موريتانيا. وتم بمقتضى هذا القرار تقليص وقت الدراسة العربية الى ٦ ساعات محسومة من الوقت المخصص للعمل اليدوي والنشاطات الحرة، وهي مادة لم يعن بها المستعمر في بلاد شنقيط.

وأمام مصاعب الاكتتاب المدرسي وتحفظ السكان «قبل» المستعمر العودة من نافذة ضيقة الى نظام المدرسة، وبشكل غير مباشر، فرعى سنة ١٩٥٣ تأسيس معهد أبي تيلميت الاسلامي في صيغة مدرسة حرة يديرها الشيخ عبد الله بن الشيخ سيديا. وكانت السلطة الاستعمارية بقبولها هذه الصيغة تتوخى ارضاء السكان الذين يرفضون المدرسة الفرنسية واستقطاب الطلبة الذين يرغبون في متابعة دراسات عربية ـ اسلامية ـ نظامية حتى لا يتوجهوا الى البلاد العربية الأخرى، حيث تتعذر مراقبتهم ومتابعتهم(١٥٧).

وكان تعليم العربية يومئذ أملا لعموم المسلمين في غرب افريقيا، الذين طالب ممثلوهم السياسيون بان تكون العربية مادة للدراسة في جميع مدارس المنطقة اعتبارا من الخمسينات. وقد رفضت الادارة الاستعمارية هذا الطلب، مؤكدة أن دراسة العربية محظورة في المدارس النظامية إلّا في المناطق التي تتحدث أغلبية سكانها لهجة عربية (موريتانيا). وعلل بيير سمير Pierre Messmer حاكم اقليم موريتانيا يومئذ (ر ئيس وزراء فرنسا فيما بعد) هذا الرفض

بعلمانية الدولة الفرنسية وبان تعليم العربية في المناطق الاسلامية غير العربية ينافي هذا المبدأ!!(١٥٨).

وهكذا فرضت اللغة الفرنسية بديلا للعربية على الشناقطة كما فرضت على غيرهم بعد أن راوغ المستعمر نصف قرن ليصل الى هدفه هذا. وقد بلغ غروره بنجاحه حد احلال الانجليزية محل اللغة العربية في المرحلة الاعدادية من ثانوية روصو (القوارب»(١٥٩).

ومرة أخرى، وبعد ثلاث سنوات، أدركت السلطات الفرنسية خطأ حساباتها واكتشفت أن المجتمع الشنقيطي لم يصبح بعد ثمرة يانعة لمن يريد اقتطافها، فقد قابل السكان الاجراءات التعليمية الفرنسية بالتحفظ والتحدي والتهرب من المدرسة، حتى انتزعوا قرارا جديدا صدر في ٢٨ سبتمبر ١٩٥١ يرخص في تعليم العربية في المدارس النظامية الفرنسية بشرط استلام طلب خطي من أسرة التلميذ. وكان شرطا ارهابيا يعين استخبارات المستعمر على تصنيف المعارضين ومتابعتهم، ويثير الرعب في قلوب الأسر التي سينظر اليها بعين الريبة. ولذلك قابل السكان القرار الجديد أيضا بالرفض والسخط، فاضطر المستعمر بعد ٥ أشهر الى نسخه باصدار التعميم رقم ٥٩ بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٢ القاضي برفع قيد الكتابة والاكتفاء باعراب الاسر شفهيا عن رغبتها في تعليم أبنائها العربية.

وقد أوضح بيير مسمير في هذا التعميم أن تعليم العربية مجرد اجراء استثنائي الغرض منه تشجيع ارتياد الأطفال للمدرسة الفرنسية، بتوفير قسط من «التعليم التقليدي الذي يتشبث به البيضان»(١٦٠).

وتلك حقيقة أدركها السكان الذين جعلوا المدرسة نازلة فقهية، فطرحوا على بساط الجدل الفقهي مسألة حكم ارسال الأبناء الصغار الى مدارس الكفار.

وكان من المستفتين شعرا محمد بن محمد المصطفى البارتيلي، من أهل بوتيلميت الذي قال :

ملح البلاد ما جواب سائل ... عن حكم أمر في البلاد نازل
اسلامنا أولادنا الصغـرا ... طوعا الى مدارس النصارى

اعتبر بعض العلماء الاستفتاء من باب السؤال عن المعلوم و«السؤال عن المعلوم مذموم» وواجه بعضهم بالصمت خوفا أو تقية، وأجاب بعضهم تلميحا فوق التصريح، كما فعل الشيخ عبد الله بن داداه المتوفي سنة ١٣٩٣ هـ/١٩٧٤ م الذي قال :

الصمت دون ما يخاف جنه ... وقال في اضاءة الدجنه
(الحق لا يخفى على ذي عين ... والله أرجو عصمة من مين)

وصرح محمد الأمين بن محمد مولود الموسوي بالحكم وفصل فيه، فقال :

جاز تعلم خطوط الكفره   لبالغ عند الملاح المهره
ومنعوا اسلام نجله الاب   لكافر يبعثه في المكتب
بإثمه بعد اذا تنصرا   على الذي أعطاه فيما اشتهرا
ذكر ذا العلامة الشوشاوي   بحر المعارف الخضم الراوي[١٦١]

وكان الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الرحمن ابن فتى الشقروي من فرسان هذا الميدان، فقد قاوم المدرسة الفرنسية، وظل يرفضها حتى بعد استقلال البلاد. وله في ذلك شعر كثير، نستطرد منه هذه الأبيات :

لا علم، لا دين، لا تقوى يؤمل من   علم قرين عذاب مولم بيس
ولا مزيج من الأجناس في حجر   تبني لغي وتفسيق وتمجيس
ولا خطوط قرى كالنمل صورها   من زوروها بشكل غير ادريسي
... باعوا الحواميم فيها بالحمام كما   باعوا الطواسين فيها بالطواويس

والى تحريم المدرسة الفرنسية ذهب المختار بن بلول المتوفي سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م في فتوى منثورة، صرح فيها بمنع ارسال الأطفال الى المدرسة الفرنسية، منكرا بأن كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما جاء في الحديث وعلى أبوي الطفل ومعلميه حراسة عقيدته ورعايتها، فقد نهي الرجال البالغون عن مجالسة أهل البدع، فكيف بالصبيان.. ونقل المختار كلاما في المعنى عن ابن الحاج في كتابه «المدخل» وعن النبهاني في كتابه «ارشاد الحيارى في تحذير المسلمين من مدارس النصارى»[١٦٢].

وهكذا وقعت المدرسة الفرنسية على الشناقطة وقع الصاعقة وكانت تفتح في الأحياء والقرى بقرار مركزي لا يستأمر السكان فيه ولا يعذرون في عدم تنفيذه. فنفرت من العلماء طائفة تطلب النجدة من المدرسة ـ الكارثة.

من ذلك أن الادارة الاستعمارية قررت في الخمسينات فتح مدرسة في حي «أولاد اعمر اكداش» الحسنيين، فهب الشيخ محمد حامد ابن آلا المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م لاجهاض القرار، فاستنجد بزعيم قبيلته محمد بن ابراهيم بن الشيخ الحسن وبالشيخ عبد الله بن الشيخ سيديا، وكان مسموعي الكلمة عند الفرنسيين.

وهذه رسالة الشيخ محمد حامد بن عبد الله بن آلا، صرخة استغاثة من قلب مهموم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين مجيب دعوة المضطرين وكاشف كرب المكروبين من أيد الدين بنصره وبالمؤمنين. والحق بزكاة المال زكاة الجاه وجعل من مصارف الزكاة سبيل الله والصلاة والسلام على نبيه الكريم الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم وعلى آله وأصحابه الأشداء على الكفار الرحماء بينهم وعلى خلفائه الذين تجردوا لنصر الدين وتدبير مصالح المؤمنين.

أما بعد، فمنا اليكم سلام لا يشاكله طيبا وحسنا وكمالا إلّا طيب أخلاقكم ومحاسن أقوالكم وأفعالكم وكمال ظاهركم وباطنكم موجبه اعلامكم بان مادهم الناس اليوم من طلب دفع الصغار للمكتبة (الفرنسيسة) مما ليس لنا به طاقة ولا يطيب معه عيش ولا يقر معه قرار ولا تساعد عليه النفوس ولا يسامح فيه الشرع، فاستوى الفكر فيه على مواطننا فشغلنا بما شغل به المؤمنين من أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم ثم تمثلنا بقول سيدي عبد الله بن أحمد دام :

ناجيت فكري وقد أمعنت من نظري   ثم استمر بي الرأي الذي اكتسبه
أن يممت شرف الدين الكمال بنا   علياء تعتسف الآكام والهضبه

فقد ضربنا، أكباد نجب خواطرنا اليكم والقينا عصا سيرها لديكم فقوموا لنا لا معنا في هذا الأمر ولا تكلوه الينا كما هي العادة منكم والمرجو فيكم والموثوق به لديكم لأنكم الخريتون لبيدائه والطبيبون لأدوائه. والعارفون بمسالكه والواقون بحول الله من مهالكه.

وانا لنضن بكم بالسعي في غير هذا المجال من نصرة الدين وانقاذ المسلمين من الضلال. كما أننا نضن به لكم من بين أماثل الرجال، لأنه جهاد في سبيل الله وأداء الفريضة زكاة الجاه. وإنه لهجرة وحجة وعمرة تامات. وانه لمن أعظم القربات. فما كان لله لا يخيب آتيه ولا يحرم مسديه. وانا لنعلم أن هذا كله اغراء في الوسط «اذ كيف يظمأ على وبيده أعنة الخيل وهو ينظر الى الفرات» (يا خيل الله اركبي).

وهذا هو نص القصيدة :

منى لمن ليس منه البعد ينسيني   وليس عنه جميع الأهل يسليني
تحية كثمار الذكر تشربها   روح المكاشف في أيام تكوين
تجدد العهد بين الأهل ساحبة   ذيل المودة في خفض وفي لين
عن موجب أننا كانت لنا بكم   حماية الدين اذ خفنا على الدين
لسنا على الدين من سيد ولا أسد   نخشى لديكم ولا ذل ولا هون
ولا غوي عنيد في تجبره   ولا مريد من أشرار الشياطين
بل لم يزل ديننا منذ استقام بكم   في سالف الدهر في عز وتمكين
واليوم أصبح لا ترضوا وحاشى لكم   يسام خسفا على مرّ الأحايين
فبادروا الدين ان الدين منذ زمن   ما لم تلافوه في دار من الهون

فالدين مبقاه أن تأتي الصغار به	وحيث لا فإذن لم يبق من دين
والناس اذ أفسدوا دين الصغار رضوا	بالمحو للدين من كل الدواوين
وليس يرضى بمحو الدين غير فتى	عن نهج الايمان والاسلام مفتون
لموتهم عندنا خير من أن يلجوا	فيما به طلبوا من أهل سجين
كم بين موتهم في دين ربهم	ورفضهم عندنا للدين من بون
ان كان في ذاك للدنيا سياستهم	فالدين أولى بتأسيس وتحسين
سياسة الدين أحظى ما يكون له	صرف العناية ممن ليس بالدّون
يا للحماة لدين الله أن ندبوا	يا للأباة ويا شم العرانين
لا يعلم الله مولاكم توانيكم	عن الديانة في نصر وتزيين
وليعلم الله مولاكم تنافسكم	في الاحتماء لمحمي النبيئين
لهم صلاة وتسليم حكى معها	على دوامهما ريا الرياحين
ما ان تصدت لدين الله طائفة	تعلو عليه بتعليم وتدوين(١٦٣)

وقد آتت جهود الشيخ محمد حامد أكلها، فتقرر الغاء المدرسة وتلقى الحي التهاني بهذا النصر العظيم، فحمد الله عليه بلسان الشيخ أحمد ابن أحمذيه :

الحمد لله علـــى ما نفسه	من الكروب وسقوط المدرسه
مدرسة الروم عن أبناء الحسن	وقد يراها غيرهم أمرا حسن
وهم يرونها بعين الأرمـد	ليس بها هاد ولا من مهتد(١٦٤)

وقد شكا شيخ محضره علب ادرس محمد ابن أحمد فال المتوفي سنة ١٤٠٠ هـ من المدرسة النظامية ضرة المحضرة العنود، حتى بعد الاستقلال، لأنها ظلت تدرس الفرنسية :

ومن عجب أن ملة الكفر أدبرت	وأبقت لسانا عند قومي كالأنجم
يخاطب منه الربع يا ربع عزة	ألاعم صباحا أيها الربع وأسلم
وإن قلتم قد أوجبتها سياسة	فهلا كفت منها تحلة مقسم(١٦٥)

وهكذا لم تجد المدرسة الفرنسية التربة الصالحة لنموها في هذا الوسط المشحون بالغيرة على الدين والثقافة العربية الاسلامية.

لقد افتتح المستعمر بعض المدارس، بقرارات سياسية ـ ادارية، كانت تفرض على السكان، فرضا، ولكنه ظل يواجه مقاومة عنيفة في كل الأطوار. فاذا لم تعصف هذه المقاومة بالقرار قبل تنفيذه كما حدث في الواقعة الآنفة الذكر، فانها تزرع الشوك في طريق تنفيذه، حتى اذا ما نفذ بشق الأنفس ظلت المدرسة تتعثر، فلا تصل الى النتيجة المرجوة.

ويعلل دشاسي رفض المدرسة النظامية، من وجهة نظره فيقول أن عوامل عديدة تكمن وراء موقف السكان. فهناك من جانب السمات المميزة للمجتمع الشنقيطي وهي البداوة والثقافة (مجتمع بدوي ذو ثقافة رفيعة) والغيرة الدينية والاباء (رفض التبعية).

وهناك من جانب آخر غياب أي استثمارات استعمارية لصالح السكان(١٦٦).

ولسنا نرى العامل الاقتصادي دورا يستحق الذكر في مواجهة السكان للهيمنة الثقافية الفرنسية، فلو كانت الاغراءات المادية تطوع آباء التلاميذ وتعطل صمودهم لسارعوا بأطفالهم الى المدرسة، ففيها منح ونفقة وكسوة للأبناء وهدايا وتسهيلات للمشاييخ والآباء.

لقد رفض السكان المدرسة لأسباب غير مادية، ونظروا اليها نظرة عداء حاول دشاسي تشخيصها دون أن يتحرر من عقال المادة :

«كان من الطبيعي أن تعتبر الشعوب المستعمرة (بالفتح) المدرسة النظامية نمطا من أنماط العدوان مثل / وأكثر من بقية الاجراءات الاستعمارية. لقد نظر السكان الى تسجيل أبنائهم في المدرسة النظامية كما ينظرون الى التجنيد الاجباري وجباية الضرائب وغصب الابل لنقل البريد الاستعماري. وعندما ألغي الاجراء الاخير بعد الحروب العالمية الثانية ظن الناس وأشاعوا ذلك أن عهد المدرسة النظامية الفرنسية قد ولى أيضا والحال أن الدراسة النظامية ستصبح منذ ذلك التاريخ ـ على عكس ما تصوروه ـ اجبارية في حدود طاقات الاستيعاب»(١٦٧).

وفي مواجهة هذه الشائعات، وجه المفوض السامي الفرنسي بغرب افريقيا تعميما الى حكام الأقاليم بتاريخ ١٩٤٧/٦/٢٦ يقول فيه :

«ان التهرب من المدرسة أخذ في بعض المناطق شكلا مثيرا للقلق. والغالب أن يتعلل الناس بالغاء العمل القسري وبأن ذلك يقتضي الاعفاء أيضا من ارتياد المدارس. ولست بحاجة الى بيان الخطر الذي يكن وراء انتشار هذه الفكرة».

توقف العمل القسري.. ولكن المدرسة استمرت وبذلت الأجهزة الاستعمارية ما في طوقها لاقناع السكان بايجابياتها واغرائهم بمزاياها، ولكن بدون طائل. فقد تعود الشناقطة مواجهة الدعاية الاستعمارية اما بالصمت ـ أو بالتظاهر بعدم الفهم أو ـ في أحسن الأحوال ـ بالموافقة الشفهية والكف عن الاستجابة العملية أو اختلاق المعاذير المختلفة الميسورة خاصة للبدو الرحل(١٢٨).

وقد اربكت هذه الأساليب رجال الادارة الفرنسية الذين بدوا أغبياء جاهلين بالبلد رغم طول مكوثهم فيه.

فبعد ٥٠ سنة من الاحتلال، لم يكن المستعمرون قد تمكنوا بعد من استيعاب عقلية المجتمع الشنقيطي واستكناه أبعاد مواقفه وتصرفاته. وكان سلوك السكان حربا على أعصابهم. ففي فترة الكفاح المسلح رفع قادة الحرب الفرنسيون عقيرتهم بالشكوى من هؤلاء البياضين، الذين أعجزهم التفاهم معهم وادراك حقيقة مواقفهم، فكثيرا ما كانوا يتظاهرون بمسالمة «دعاة السلام» (الغزاة لفرنسيين) والرضى عنهم ثم ما تلبث أن تجدهم يواجهونهم بالسلاح وربما وصل ببعضهم «الولاء» للفرنسيس حد الانخراط في جيشهم، لكن معركة من المعارك اللاحقة تبين أن قلبه كان مع المقاومين وأن دمه وسلاحه في خندق دمائهم وأسلحتهم.

وحين سيطر الفرنسيون عسكريا، وتركز ثقل المقاومة على الجبهة الثقافية واصلوا الشكوى من البياضين، فكثيرا ما خدعوهم بأساليبهم الدبلوماسية الهادئة : الاصغاء بأدب، إظهار الرضى والقبول، شفهيا أو بهز الرؤوس ولكن دون أن يتعدى الامر حد الكلام أو الاشارة الى الفعل.

لقد انتدب مفتش فرنسي لمهمة تعبئة في الحوض سنة ١٩٥٠ فعاد منها متفائلا سعيدا بنتائج جولته. وكتب في تقريره :

«كنت متشائما أتوقع أن أواجه باللامبالاة بل الرفض والعداء ولكنني استقبلت بحفاوة في كل مكان.. وشرحت فوائد المدرسة (النظامية) : «موريتانيا» جامدة والعالم من حولها يتحرك «...» ينبغي أن تفهموا ما يقوم به نوابكم ومستشاروكم في المجالس الاقليمية «...» اذا لم تدخلوا المدارس فان جميع الموظفين سيكونون من الجنوب (منطقة النهر حيث تقيم قبائل زنجية)».

وبهذا المنطق عزف المفتش الفرنسي على كل الأوتار الحساسة حتى «الوتر» العرقي، وخيل اليه أن السكان قد اقتنعوا، لأنهم قالوا له «هذه أول مرة نسمع فيها كلاما صريحا مباشرا عن هذه الأشياء».

ويمضي المفتش بحماس فيدعو الى عدم اكراه الاباء على إرسال أبنائهم لأن الثقة مضمونة، وسيكون هناك العدد الكافي من المتطوعين، بل أنه يقترح تحميل الآباء جزءا من أعباء الدراسة بدل إغرائهم بالمنح والتعويضات، اذ يكفي في نظره اقناع المواطنين بالفائدة الثقافية للمدرسة».

لكن المفتش نفسه أصيب بخيبة أمل كبيرة، عندما عاد في جولته الموالية ليباشر تسجيل الأطفال في المدارس، فكتب في تقريره الجديد يقول :

«ان البيضان يخيبون الآمال. انهم لا يظهرون أي اعتراض على التعليم (النظامي) ولكنهم بذرائع مختلفة يتهربون منه أو يتهاونون به تهاونا كبيرا وهذا مثال من ردودهم

النموذجية : «بما أنك قلت أن دخول المدرسة (الفرنسية) من مصلحتنا، فينبغي أن تكون صادقا فيما تقول. ما عليك إلّا أن تقدم النصيحة فقط» (...).

ويقول المفتش أنه حين يتحدث اليهم عن المدرسة يتحدثون له عن المعونات الغذائية فيقابلون مطالب الاستعمار بمطالب أخرى.

وعليه «فلا يمكن في الوقت الحاضر الاعتماد على تفهم السكان وتطوعهم في اكتتاب التلاميذ. لا بد من دعاية ذكية. ولكن ضغط الادارة ما زال ضروريا».

ويتمثل «الضغط» المقصود في وسائل ترغيب ووسائل ترهيب.

أما الترغيب فيكون باهداء قطع قماش النيلة الى أسر الأطفال الذين يلتحقون بالمدرسة وبتعويضات مادية تشجيعية تمنح للشيوخ والوجهاء كل بقدر عدد الأطفال الذين تبعث بهم جماعته الى المدرسة(١٦٩).

أما وسائل الترهيب أو الضغط والاكراه، فمنها ما نص عليه تعميم المفوض السامي الفرنسي الصادر في ٢٦ يونية ١٩٤٧ تحت رقم ٢٣٥ :

«بالنسبة لأبناء الشيوخ، وفي حالة عدم اقتناع آبائهم بجدوى المدرسة، ينبغي أن تدرج في استمارات التقويم السنوية بيانات حول الكيفية التي يتصرف بها كل واحد من هؤلاء (الشيوخ) فيما يتعلق بتعليم أبنائه (في المدرسة الفرنسية). فاذا علم الشيوخ أن تقدمهم مَرْهون جزئيا بدرجة اهتمامهم بالمدرسة، فانهم سيترددون في منع أبنائهم من الالتحاق بالمدرسة».

واذا لم تجد جميع هذه الاجراءات نفعا، وتلك هي القاعدة العامة في احياء البيضان تعمد الادارة الاستعمارية الى المعاقبة المباشرة، عن طريق تعليق الشيوخ أو إقالتهم أو قطع المنح والتعويضات المخصصة لهم أو فرض غرامات على الأسر أو السجن لفترة معينة(١٧٠).

والعادة أن ينتدب حرس الدوائر لمهمة الاكتتاب، فيقيم الحرسي في أحد الأحياء على نفقة السكان حتى يسلموا اليه العدد المطلوب من أبنائهم ليتولى «مرافقتهم» الى حيث تكون المدرسة.

ويذكر النائب بونا مختار أن اكتتاب تلاميذ المدرسة النظامية سنة ١٩٥٢ في ولاية الترارزة، وهي أقدم أقاليم البلد استعمارا، لم يتأت إلّا بالضغط عن طريق استخدام الحرس في البحث عن التلاميذ(١٧١).

لا غرابة اذا أن ينظر الشناقطة، والحال هذه، الى الاكتتاب المدرسي كما ينظرون الى جباية الضريبة بالقوة. ولا جرم أن يلجأوا الى كل الوسائل المتاحة لمواجهة الادارة الاستعمارية، فاذا لم تسعفهم المعاذير لجأوا الى انكار الولادات واخفاء الأبناء كما كان بنو اسرائيل يفعلون

على عهد فرعون سنة مولد موسى عليه السلام.. كان أولئك يخافون أن يعتقل أبناؤهم، وكان هؤلاء يخافون عليهم الاستلاب، القتل الثقافي ـ الروحي.

ويذكر أحد التقارير الفرنسية أن حيا من أحياء تكانت مكونا من ٦٠٦ نسمة مكث أربع سنوات لم يعلن فيها إلّا سبع ولادات فقط(١٧٢).

وكان من الأساليب التي لجأ إليها المستعمر «لتموين» مدرسته أن يفرض على الأسر الوجيهة في الحي ضريبة ابن أو ابنين يلتحقان بالمدرسة. فكانت الاسر تتدافع مسؤولية تسديد هذه الغرامة البشرية، كل أسرة تريد أن تتخفف من العبء على حساب أختها، فاذا تعذر الاتفاق بالتراضي عمدوا أحيانا الى القرعة.

وقد يغالط شيخ الحي الادارة الاستعمارية، فيبعث أطفالا من الفئات الدنيا فداء لأبناء الفئات العليا. وقد يتخذ المدرسة أداة لتصفية الحسابات الشخصية، فيقع اختياره على أسر بينه وبينها إحن، يبعث أبنائها الى المدرسة الفرنسية شفاء لغيظه.

وبنفس الأسلوب يقوم رب الأسرة أحيانا بتأديب الزوج الناشز فيسجل أسماء أبنائه الذين بقوا معها في سجل المدرسة.

وربما استخدم السكان الرشوة للافلات من قبضة المدرسة، ففي سنة ١٩٥٠ كتب شيخ حي بدوي يشكو معلم المدرسة الذي «يطلب من الوجهاء هدايا كبيرة ليترك لهم أبناءهم».

وكان الآباء، في حالات أخرى، يشترون من المعلم ساعات الدراسة النظامية ليصرفها أبناؤهم عند مدرس القرآن أو شيخ المحضرة.

ويتحدث نقيب فرنسي عن مهمة اكتتاب مدرسي قام بها سنة ١٩٥٠، فيذكر أن النساء كن يأتينه، يناشدنه، وهن يبكين، أن يترك لهن أبنائهن(١٧٣).

وكان لا بد من إسناد هذه المهمة الى ضابط عسكري فرنسي حتى لا يقع تحت طائلة العاطفة.

وكان من عادة المجتمع الشنقيطي، وهو يواجه محنة المدرسة الفرنسية أن ينظر بعين الشفقة والرحمة الى الاسر التي ينتزع أبناؤها ليلتحقوا بالمدرسة فهي أسر منكوبة تستأهل عطف الآخرين ورعايتهم. وقد قامت احدى القبائل في منطق الاق سنة ١٩٥٢ بجمع مبلغ ٣٠,٠٠٠ فرنك مواساة للأسر المتضررة من المدرسة.

* * *

تلك بعض العقبات التي كان المجتمع يضعها في طريق المدرسة الفرنسية. فاذا استطاع المستعمر اجتيازها وفتحت المدرسة أبوابها لم تتوقف المقاومة، بل تستمر بأشكال وصيغ شتى :

هرب التلاميذ وكثرة التغيبات المؤقتة واهمال الدروس مما يترتب عليه اعادة السنة مرات أو الطرد من الدراسة(١٧٤). وربما نشبت اصطدامات بين الطلبة والمدرسين، خاصة الأوربيين منهم.

وهكذا لم يؤت التعليم الفرنسي أكله في بلاد شنقيط، فقد ظلت نسبة الذين يدخلون المدارس الاستعمارية (بما فيها المدرسة العربية ـ الاسلامية أيام كانت) نسبة منخفضة قياسا الى الدول الافريقية المجاورة.

ففي سنة ١٩٣٢ قدرت نسبة تلاميذ المدارس في اقليم موريتانيا بـ ١,١٪ من الأطفال مقابل ٣,٧٪ لعموم المستعمرات الفرنسية في غرب افريقيا.

وفي سنة ١٩٤٨ كانت النسبة ١,٦٪ مقابل ٤٪ للمجموعة كلها.

وكان مجموع تلاميذ المدارس النظامية في موريتانيا سنة ١٩٣٢ : ٤٣٨ تلميذ موزعين على ٧ مدارس.. وقد علق مفتش فرنسي في تقرير له على هذا العدد، قائلا انه أقل من عدد تلاميذ مدارس بودور وحدها، الواقعة على الضفة الأخرى من نهر السنغال(١٧٥).

وقد وضع Dubié حصيلة ٢٥ سنة من التعليم في مدرسة بوتلميت، فذكر أن العدد الاجمالي لمن مروا بالمدرسة خلال ربع قرن لم يتجاوز ٣٥٠ تلميذا تخرج ثلثاهم (٣/٢) في السنوات التسع الاخيرة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩(١٧٦).

وكان لأزمة المدرسة الفرنسية في بلاد شنقيط طابع عرقي، سلط الفرنسيون الضوء عليه، فشكوا مقاطعة العرب لمدارسهم وضآلة عدد المنتسبين منهم اليها، قياسا الى اخوتهم السود في جنوب البلاد.

ويجب أن نذكر بأن هؤلاء قاوموا الاستعمار الثقافي أيضا كما سنرى من بعد في تصريحات صارنداور ولكنهم احتكوا بالمستعمر على ضفاف النهر في وقت مبكر. وكانت قواعد التعليم التقليدي أرسخ وأقوى في مناطق البلاد الأخرى منها في الجنوب، خصوصا بعد سقوط الدول الاسلامية المجاهدة في فوته ومنطقة النهر، (دولة الأئمة، دولة الشيخ عمر بن سعيد... الخ).

وإذ أوضحنا ذلك، فمن الحق أن العرب أمعنوا في النفور من المشروع الثقافي الاستعماري. وقد استغل الفرنسيون المنطق العنصري في محاولة لم تنجح لكسر طوق المقاطعة العربية ففي سنة ١٩٢٩ صدر تعميم الى الحكام الفرنسيين لدوائر البراكنة وتكانت وآدرار يلاحظ قلة أبناء البيضان في مدرسة المذرذرة مع إقبال السود عليها. ويطالب التعميم الحكام ببذل جهودهم لتسجيل ٤ أو ٥ أطفال من أبناء الأعيان في السنة القادمة. ويوصي التعميم الحكام أن يستعينوا في انجاز هذه المهمة بمنطق عنصري أساسه اثارة الغيرة في نفوس

«البيضان» والحديث لهم عن قيادة المستقبل مع طمأنتهم على حسن معاملة أبنائهم واغرائهم بالمنح المادية(١٧٧).

وفي نفس السنة كتب النقيب «لاهور» حاكم دائرة تكانت الى والي اقليم موريتانيا يخبره أن علماء المنطقة ومشايخها يرفضون ارسال أبنائهم طواعية الى المدرسة، متذرعين بحجج مصطنعة مثل صغر سن الأطفال، وأنهم يتعللون بان مدرسة المذرذرة للسود وحدهم (فلا ينبغي أن تفرض مدرسة تجكجه على البيضان) وان اغلاقها أمر محتمل(١٧٨).

ويبرز تقرير احصائي عن حالة التعليم في موريتانيا سنة ١٩٣١ المعطيات التالية :

ـ مجموع التلاميذ : ٤١٥

ـ العرب : ١٠٩ منهم ٦٠ في مدرسة بوتيلميت وحدها.

وفي سنة ١٩٤٦ لفت الجانب العرقي نظر المفتش Beart بعد جولة عمل، فكتب :

«هناك ظاهرة تثير الاستغراب وتنذر بعواقب خطيرة.. إنني حين أرى التلاميذ مجتمعين في ساحة المدرسة لا أشعر بأنني في مدرسة للبيضان، بل في مدرسة سوداء»(١٧٩).

والحق ان الاستعمار كان سببا مباشرا في ابراز التمايز العرقي في المنطقة، فقد كان أهلها أمة واحدة يؤلف الاسلام بينها وتلم ثقافته شتاتها، فتتعانق الأرواح وتختلط الدماء، ويلتقي العرب والعجم على صعيد واحد، لا تمايز فيه بعرق أو لون. وكانت اللغة العربية ـ كما اعترف بذلك سنغور ذات مرة ـ (أداة وحدة لا في موريتانيا وحدها بل في غرب افريقيا المسلم كله).

ولم تكن الفرنسية لتحفظ للسكان تلك الروح، فمن طبيعة الاستعمار أن يفرق ومن طبيعة الاسلام أن يوحد. لذلك كان لا بد أن تفشل الفرنسية في استقطاب السكان وكسب ثقتهم. وكذلك حدث، فذهبت جهود المستعمر ادراج الرياح، إلا ما كان من نتائج ضئيلة لم تلق رضاه.

وبينما كان الفرنسيون يستعدون لمغادرة البلاد، لخص أحدهم نتيجة نصف قرن من الصراع بين المدرسة والمحضرة فقال :

«ان التعليم التقليدي راسخ الجذور، وانه ينال كل السكان، وأن اجراءات دمجه في المدرسة الفرنسية (من خلال مواد عربية) لم تلق رضى السكان»(١٠٨).

٤ ـ المقاومة السياسية

كان من دلائل اخفاق المدرسة الفرنسية في بلوغ أهدافها أن تخرج منها جيل يتحدث لغة المستعمر، لكنه يفكر باللغة العربية كما يتحدث بها أيضا، ويسعى لصالح شعبه ووطنه.

لقد قاد هذا الجيل أو غذى المقاومة السياسية التي جاءت، منذ أربعينات القرن العشرين، نعزز المقاومة الثقافية، من خلال حركات الشبيبة والأحزاب والهيئات السياسية.

وكان من أبرز المجاهدين على الجبهة السياسية الزعيم أحمد بن حرمه الملقب حرمه بابانا العلوي، الذي أخذ من الدراسة الفرنسية بنصيب، لكنه كان محصنا بثقافة محضرية نقية وقد فاز أحمد على منافسه الفرنسي رازاك سنة ١٣٦٥/١٩٤٦ م في الانتخابات النيابية الفرنسية. وكانت له داخل البرلمان الفرنسي وخارجه مواقف مشهودة في نصرة القضية العربية ودعوة فرنسا للتخلي عن مساعدة الدولة الصهيونية مهددا بتنظيم المقاومة ضدها ان هي لم تفعل.

وكان من ثمرات كفاحه على الصعيد المحلي الغاء بعض الاجراءات الاستعمارية المجحفة بالسكان مثل العمل القسري.

وقد ساءت العلاقة بين النائب المجاهد والسلطة الفرنسية التي غاظتها مواقفه التحررية فعملت على اسقاطه في الدورة الانتخابية الموالية.

وكان للزعيم أحمد بن حرمة سند قوي في علماء البلاد الذين محضوه الود وناصروه ومدحوه، ومنهم محمد محمود بن احمذيه القائل فيه :

وذكر الكتب من عمل النصارى   وناس صار مشربهم سرابا
الى ناس شرابهم زلال   فظلوا مستلذين الشرابا
هنات لا تليق بشيب شيخ   جليل طالما قرأ الكتابا
اذا ما معشر حنقوا علينا   لنصرة أحمد ومضوا غضابا
فإنا ناصروه وما صحبنا   وعضدنا على زلل صحابا(١٨١)

وكذلك كان من أنصاره الشيخ محمد عبد الله بن أحمذيه. وقد صوت هذا العالم ضد البقاء في المجموعة الفرنسية في الاستفتاء المعروف عند أهل البلاد باستفتاء «لا ونعم» الذي نظمته فرنسا في مستعمراتها الافريقية الغربية سنة ١٩٥٨.

ونظم الشيخ محمد عبد الله لاءه شعرا، فذكر المغاني العزيزة عليه وقال :

... غنينا بها دهرا بعز مشيد   بعزة دين راسخ لم يزلزل
فلا الخوف والأطماع عنه تزلنا   كما زلت الصفواء بالمتنزل

ولا نلبس الحق المبين بباطل ... ولا نكتم الحق الذي هو منجل
لنا قوة في الدين لم يك مثلها ... لكهلان ذي الهضبات لم يتحلحل
لنا أنف أن نستقيد لمن دعا ... الى الآل يستهوي به كل زُمّل
فمن ينس ذاك العهد عن بعد عهده ... فما أنا بالناسي ولا المتبدل(١٨٢)

وقد ساهم رجال المحضرة في أنشطة المقاومة السياسية واهتدوا الى أساليب من النضال السري فمارسوها.. ولعلهم أول من علق المنشور السياسي السري في البلاد حدث ذلك في الخمسينات عندما زارت بعثة استعمارية مدينة بوتلميت، فأصبحت قصيدة بدون توقيع معلقة على المسجد، وقد انفرط عقد البعثة وفشلت في مهمتها عندما قرأ الناس هذه القصيدة :

فلا أكرم الرحمن ذا الوفد من وفد ... لقد جاء للاسلام بالحادث الإد
غدا سائرا في الأرض شرقا ومغربا ... ليطفىء نور الله فسقا على عهد
ويهدم من ديـــن الالـــه قواعـــدا ... ليصبـــح بنيـــان الديانـــة ذاهـــد
يرد كلام الله بالافك جرأة ... فلانال من حوض الرسول سوى الرد
وينفي حدود الله في الشرع جملة ... فلا كف عنه الحد من كل ذي حد
ويمنـع للبـيض الحرائـر عفـة ... ويجمع بين الحر في الحكم والعبد
ويزجـر عن علـم وعن عمل به ... ويدعو الى غي وينهي عن الرشد
يذم ذوي العلم الشريـف خساسة ... ويوليهـم أقصى النهاية في البعد
ويزعـم أن العلـم خسر لأهلـه ... وشغل وفي أمر السياسة لا يجدي
وأن الفتى يكفيـه علـم جرائـد ... ويغنيه خبر الفار والهر والقرد
يفـرق شمل المسلميـن خيانـة ... ويجمع شمل الشرك بالنهج والود
لقد حاز من سود المساوي شواردا ... تفوت الورى حصرا وتربو عن العد
فلا زال نجم النحس طالع برجه ... ولا زال منكوس العزائم والجـد
ولا زال ذا حط من الخير سهمه ... ولا زال في بؤس شديد وفي جهد
ولا سد مولانـا الكريـم بفضلـه ... مفاقره عنـد المصادر والـورد
ولا ستـر السوءات منـه بستـره ... ورحمتـه حتى يغيب في اللحد
ولا زال مطرودا عن الخير كله ... يلقى لدى كل المشاهد بالطـرد
ومـن كان ذا نصر له ومؤيـدا ... على نصره لا نال نوعا من القصد
بجـاه رسول الله والآل كلهـم ... مع الصحب والأتباع طرا مع الجد
عليهـم صلاة الله ثم سلامـه ... يدومان ما دام الجديدان في مد
وما لم تخف في الله لومة لائم ... ذوو العلم من قوم زعانفة لد(١٨٣)

وكان الساسة المنضوون تحت لواء الأحزاب والحركات والهيئات السياسية حلفـاء للعلماء في جهادهم الثقافي، فقد تبنت المقاومة السياسية مطالب المحضرة ودافعت عنها دفاعا عن الشعب.

وكانت مسألة التعريب مدار مناقشات ساخنة في الجمعية الاقليمية لموريتانيا، وخصوصا في اجتماع لجنتها المكلفة بالتعليم المنعقد يوم ٤ أبريل ١٩٥٣. ففي هذه الجلسة طالب عدد من المستشارين، بالتخلي عن فرض الفرنسية والعودة الى نظام المدرسة القائم على أولوية التعليم العربي ـ الاسلامي. واتهم المتشار بونا مختار السلطات الفرنسية بأنها تتعمد تجاهل العربية وترفض تعليمها. وقال ان اكتتاب تلاميذ المدارس في ولاية «الترارزة»، وهي أقدم أقاليم البلد استعمارا، لم يتأت في السنة الماضية (١٩٥٢) إلا باستخدام حرس الدائرة الذين كانوا يطاردون التلاميذ ويقتادونهم الى المدرسة. فالأسر لا تثق بالتعليم الفرنسي. ودعا بونا مختار للعودة الى نظام «المدرسة» مهدئا من روع الفرنسيين بأنه لا مبرر للخوف من اتجاه الشعب الموريتاني الى «القومية العربية»(١٨٤).

وكان لصار دياوار موقف مشرف في الدعوة الى التعليم العربي، فقد ذكر في جلسة الجمعية الاقليمية بتاريخ ١٩٥٣/١٢/٣١ اقتناعه بضرورة التعليم العربي وتعميمه في موريتانيا كلها (بما فيها المناطق الجنوبية حيث يكثر الأفارقة)، وذكر بأنه بذل جهدا في هذا الصدد منذ سنة ١٩٤٤، ذلك أن أهل بوغى (من مدن ضفة نهر السنغال) رفضوا توجيه أبنائهم الى المدرسة ما لم يكن فيها درس عربي.

ووضع صارديا‌وار الادارة الاستعمارية أمام اختيار دقيق : اما أن تدمج التعليم العربي في المدرسة النظامية أو يهجر الطفل الأسود هذه المدرسة ويتوجه الى «مرابط» محضرة يلقى عنده التعليم العربي(١٨٥).

وفي تقرير حول تعليم العربية، صدر من تجكجه في ٢٠ مايو ١٩٥٢ يذكر الاداري الفرنسي باكيه Paquet ان السكان غير راضين عن الادارة الفرنسية، وان النواب والزعماء السياسيين : أحمد ابن حرمه وسيدي المختار ابن يحي انجاي وأحمد سالم بن هيبه عبروا له عن قلق السكان، وأوضحوا أن «لموريتانيا حضارة عربية تريد أن تحافظ عليها»، بل أن «مترجم اللجنة المدرسية أعلن ـ في غمرة النقاش ـ أسفه على إرساله ابنه الى مدرسة لا تعلم القرآن»(١٨٦).

ويبدو أن هذه المقاومة الثقافية المنطلقة من معاقل السياسة اتسعت لتشمل الأسرة الافريقية المجاورة التي كانت بلاد شنقيط ملحقة بها. فقد طالب النائب سنغور، الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لجمهورية السنغال، بتعليم اللغة العربية في مدارس افريقيا الغربية معللا هذه الرغبة بان العربية عامل وحدة في المنطقة. وبذلك ذهب سنغور أبعد من المستشار الموريتاني صارديا‌وار الذي أكد أن موريتانيا بلد ذو ثقافة عربية وأن اللهجة الحسانية لهجة عربية(١٨٧).

وتضمنت مطالب المعارضة البرلمانية الافريقية افتتاح مدارس عربية في البلاد ذات الأغلبية الاسلامية (السنغال، مالي، النيجر) وتدريس اللغة العربية في المرحلة الثانية بمعهد

دكار العالي وتوفير منح للطلبة الأفارقة لدراسة العربية في شمال افريقيا وتخصيص ساعة يوميا لدراسة العربية حيث توجد أقلية اسلامية.

وقد أول المفوض السامي الفرنسي بغرب افريقيا هذه المطالب بانها ترجمة لرغبة المثقفين المسلمين في التقارب مع العالم العربي وذريعة «للمتطرفين» لمحاربة الوجود الفرنسي، وقال انها دعاية انتخابية تسعى الأحزاب السياسية بواسطتها لتوسيع قاعدتها الشعبية.

وبهذه التحفظات رفع المفوض السامي الفرنسي المطالب الى وزير المستعمرات الذي رد عليها بالرفض. وقال في رده أنه يمنع منعا باتا ارسال الطلبة الافارقة الى الجامعات الاسلامية التقليدية : الزيتونة والقرويين والازهر ونحوها.(١٨٨).

وأكدت السلطات الاستعمارية من جديد منع تعليم العربية في كافة مستعمرات فرنسا بغرب افريقيا، ما عدا موريتانيا وبشرط توفر أغلبية عربية من التلاميذ في المدرسة(١٨٩).

ومراعاة لهذا القيد رفضت الادارة الفرنسية اقتراح الأستاذ محمد المختار ابن أباه الذي طالب في تقرير له سنة ١٩٥٦ بجعل العربية لغة الزامية في مدارس ضفة نهر السنغال لموريتانية. ذلك أن المستعمر كان حريصا على زرع بذور التجزئة في البلد عن طريق اللغة والثقافة، ولم يكن التعليم العربي في مناطق البيضان إلّا وسيلة لتدجينهم واستدراجهم نحو اللغة الفرنسية، التي يريد لها أهلها أن تحتكر حق توحيد الشعب وتثقيفه دون اللغة العربية.

* * *

لقد كانت المقاومة السياسية كما رأينا رافدا من روافد المقاومة الثقافية. وبها توافرت الأدلة على فشل الاستعمار في تحقيق ما كان يصبو إليه من مسخ الشخصية الشنقيطية وطمس معالم دينها وثقافتها.

يقول محمد يوسف مقلد :

«الشيء الرائع في حياة الموريتانيين أن التأثير الفرنسي ظل تأثير محدودا لم يستطع رغم كل المحاولات أن يضعف فيهم الروح العربية الاسلامية، فبرهنوا بذلك عن مناعة قوية يستحقون من أجلها أعظم الاعجاب والاحترام»(١٩٠).

وما كان للتأثير الفرنسي في بلاد شنقيط أن يظل محدودا لولا جهاد المحضرة.

يقول لكرتوا :

«لقد استطاعت المحاضر بوجه عام أن تصمد في وجه الغزو الثقافي الأجنبي وتؤدي مهمتها في صيانة ميراث ثقافي هو لها مدعاة فخر واعتزاز»(١٩١).

فقد «شكلت هذه المحاضر في عهد الاستعمار قلعة حصينة للصمود والمناعة الثقافية»(١٩٢).

هوامش وتعليقات الباب الرابع

(١) انظر ص ١٢٢ Vincent Monteil : L'Islam Noir.

(٢) بابا بن الشيخ سيديا : تاريخ الامارات الحسانية.

(٣) محمد المختار بن أباه : الشعر والشعراء في موريتانيا.

(٤) ابن الحاج ابراهيم : صحيحة النقل، انظر أيضا أحمد بن الأمين الوسيط ص ٤٢٦.

(٥) أحمد بن الحسن : حركة الامام ناصر الدين ومنزلتها من الاسلام في غرب افريقيا وقد اعتمدنا في معطيات هذا البحث أيضا على :
- محمد اليدالي : أمر الولي ناصر الدين
- المختار بن حامد : حياة موريتانيا
- محمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية على «شرببه»
- P. Marty : Etudes sur l'Islam au Sénégal.

(٦) انظر مارتي المصدر السابق، المجلد الداني - ص ٦٩ ، ٧٠.

(٧) أحمد بن الطلبة : مساهمة الموريتانيين في نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا.

(٨) يميل محمد اليدالي، ويقفو اثره في ذلك أحمد بن عبد القادر وأحمد بن الحسن ومحمد المختار بن السعد من المعاصرين الى أن «شرببه» كلمة بربرية، مكسورة الشين المعجمة، مضمومة الموحدة التحتية الأولى، وهي اسم صوت يطلقه الرجال في الحرب عند المبارزة أو التحدي، يقابل زغردة النساء، ويسمى بالعامية الحسانية «اتيربير» أي البربرة.

أما أحمد بن الأمين فيرى أنها عربية نسبت بها الحرب (شر) الى ببّ، الذي كان سببها المباشر، وعليه تكون الشين مفتوحة، وكذلك الباء الأولى وفي الحالين تنتهي الكلمة بباء موحدة مفتوحة مشددة.

(٧) انظر البحث القيم للأستاذ محمد المختار السعد في رسالة : «نظرة تاريخية على شرببه».

(١٠) أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ - ص ١٨٤.

(١١) أحمد بن الأمين، ص ١٧٤ - ١٧٥.

انظر أيضا أحمد بن الحسن : أسلوب محمد بن الطلبة.

(١٢) د. محمد المختار بن اباه : الشعر والشعراء في موريتانيا.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) أحمد بن الأمين - ص ٢٩.

(١٥) محمد المختار السعد : نظرة تاريخية على شرببه.

(١٦) مارتي مصدر سابق Marty. p. 7, 8

وبالامام عبد القادر المذكور سمي الشيخ محمد العامي، وهو ممدوح حرمه بن عبد الجليل حيث يقول :

... ففقت كل ملوك الأرض قاطبة   وفقت في العلم والعرفان كل ولي
ما سار سيرك في شأو التقى رجل   إلا سميك عبد القادر الجيلي

(١٧) رواية عن حفيده والدنا الشيخ محمدُ النحوي.

(١٨) احمد بن الطلبة : مساهمة الموريتانيين في نشر الاسلام.

(١٩) انظر «الكفاف» للناظم، وكذلك : محمد المختار بن اباه ص ٧٥ Littérature Juridique.

(٢٠) محمد المختار بن أباه : المصدر السابق - ص ٩٤.

(٢١) انظر نص القصيدة ومثيلاتها في باب الموثبات.

(٢٢) حامد بن محفوظ بن بوبكر سيره : القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٣.
(٢٣) د. سامي النشار (تحقيق) : كتاب السياسة للامام الحضرمي ـ ص ١٦.
(٢٤) دراسة عن الطرق الصوفية بالوثائق الوطنية بنواكشوط الملف E٢/٦٧/٦٨.
(٢٥) احمد بن الحسن (تحقيق) كتاب التكملة لمحمد فال بن باله ـ ص ٣٧.
(٢٦) قال محمد بن سعيد اليدالي مشيرا الى فتوى الفاضل بن باب أحمد : «وقع في زمان ابن عرفة سنة ٧٧٦ هـ ما يشبه أمر شربب في كون أهله على الحق واتفاق العلماء عليه إلا واحدا كما في المعيار. قال الونشريسي في المعيار : كان عرب المغرب الأوسط طبعهم الله على الفساد في الأرض وكثرة الغارات وقطع الطريق فهذا دأب سلفهم وخلفهم (...) فاجتمع الناس على حربهم وجهادهم بما قال مالك في اعراب قطعوا الطريق. فال جهادهم أحب الي من جهاد الروم» انظر «أمر الوالي ناصر الدين».
(٢٧) من رسالة الى حاكم الترارزة.
(٢٨) ابن سيد أمين الشقروي : مخطوط في الأنساب بالوثائق الوطنية السنغالية.
(٢٩) أحمد بن الأمين ص ٢٢٣.
(٣٠) المصدر السابق ص ٤٠.
(٣١) حتوت بن عبد الله : امارة أولاد يحي بن عثمان ص ٢٨.
(٣٢) غيثي بن أمم : امارة أولاد يحي بن عثمان ص ٢٧.
(٣٣) محمد المختار بن اباه ص ٢٦٣ Littérature Juridique.
(٣٤) البرتلي : فتح الشكور ص ٦١.
(٣٥) احمد بن الأمين ص ٣٤٣.
(٣٦) رواية عن مريم بنت العلامة محمذ بن محمذ النحوي.
(٣٧) أحمد بن الامين ـ ص ٢٤١.
(٣٨) المصطفى بن علي بن طالب : الارستقراطية الدينية والأوضاع السياسية في موريتانيا ص ٨١.
(٣٩) المصدر السابق ص ٣٦.
(٤٠) المصدر السابق ص ٣٥.
(٤١) المصدر السابق ص ٣٦.
(٤٢) المصدر السابق ص ٣٧.
وقد ظلت الصلة وثيقة بين الامارة وأسر آل الشيخ سيديا، فيما بعد... ومن مظاهر هذه العلاقة أن سيدي وأحمد الديد قد لجئا بعد اغتيال أبيهما الامير محمد فال بن سيدي الى حي أهل الشيخ سيديا فاحتميا به وتربيا فيه. انظر محنض بابه بن المختار : مدخل الى تاريخ الطرق الصوفية في موريتانيا ص ٥٦.
(٤٣) وصلت دعوة الشيخ سيديا للعدل واصلاح ذات البين أقاصي البلاد، فقد كتب الى محمد بن المختار بن الأعمش الجكني يطلب منه السعي في اصلاح ذات بين قبيلتي تجكانت والرقيبات المتحاربتين في تندوف. انظر المصطفى بن علمبي طالب ص ٣٨.
(٤٤) دار جدل بين الفقهاء حول مسألة تطبيق الحدود فكان بعضهم يدعو اليها، ومنهم من طبقها، وبعضهم يردها ويأباها خوف اثارة الفتنة.
وكان محمد فاضل بن الشيخ سيدي عبد الله الجكني ممن دعا لاقامة الحدود فألف ابن عمه محمد الأمين بن أحمد زيدان رسالة معارضة (انظر : يحي ابن البراء في الألفية وتأثيرها في الثقافة الموريتانية ص ٦٢).
وقد أفتى البشير ابن مباريكي بمثل ذلك، فقال نقلا من الكتب :
«قال ابن زكري في شرح النصيحة ما نصه : التعرض للأمور الجمهورية كالجهاد والظلامات

وتغيير المنكر بطريق القهر والاقتدار دون يد سلطانية أو ما يقوم مقامها من الخطط الشرعية مفتاح باب الفتنة والهلاك بغير حق فقد كان في بلدنا رجل من الصالحين يحوم حول ما ذكرناه فجاءه من أخبره عن بعض جهات الروم انها خالية مقدور على أخذها فمشى اليها بجماعة من المسلمين فخرج عليهم النصارى، فلم يجدوا فئة يرجعون اليها ولا ملجأ يستندون اليه فتمكن منهم العدو حتى أتى على جماعة بالقتل فهلكوا في ذمته» (انظر تحقيق محمد مبارك بن الطالب عبد الرحمن لرحلة البشير، ص ١٨).
(٤٥) البرتلي ـ ص ٢٠.
(٤٦) البرتلي ـ ص ٤٨.
(٤٧) يحي بن البراء : الألفية وتأثيرها في الثقافة الموريتانية ص ٥٩.
(٤٨) محمذ بابا بن عبد الله : القضاء في موريتانيا قبل دخول الاستعمار ص ١٧.
(٤٩) محنض بابه بن المختار : مدخل الى تاريخ الطرق الصوفية ص ٤٥.
(٥٠) محمذ بابا عبد الله ص ٢١.
(٥١) بدي : نزهة المستمع واللافظ.
انظر أيضا أحمد بن سيدي : القبائل الدول في المجتمع الموريتاني «الشعب» الموريتانية ١١٣١ بتاريخ ١٣/٤/١٣٩٩ ـ ١٤/٣/١٩٧٩.
(٥٢) المصدر السابق.
(٥٣) أحمد بن الأمين ص ١٥.
(٥٤) أحمد بن الحسن (تحقيق) : كتاب التكملة لمحمد فال بن بابه ص ٣٩ و٢٨.
(٥٥) أحمد بن الأمين ـ ص ٨٠.
(٥٦) رواية عن الشيخ محمد بن النحوي وعن بنت أخيه الفاضلة مريم وقد أقام العلامة محمذ ابن النحوي أشهرا مع الامير ابن عبده، فكان يؤمه في الصلاة ويعلمه النحو، وطلب منه التوسط عند بني حسان الذين يفرضون مغارم قاسية على قبيلة ادغ زينب اذ كانت من أبرز القبائل دورا في حركة ناصر الدين. وقد فعل الامير ونجح مسعاه.
(٥٧) محمد فال بن بابا : كتاب (التكملة، تحقيق الأستاذ أحمد بن الحسن) ص ٥٧.
(٥٨) المصدر السابق ص ٦٥.
(٥٩) أحمد بن الأمين ص ٣٣٠.
(٦٠) عجز بيت للشاعر، والبيت بتمامه :
رفقا بنا يا ذوات الأعين النجل ينال بالرفق ما بالعنف لم ينل
(٦١) أحمد بن الحسن (تحقيق) : كتاب التكملة لمحمد فال ابن بابه ص ٥٠ ونجد في الوثائق الفرنسية اشارة الى فقيه اسمه محمدا عمر جاهد الفرنسيين في نفس الفترة كان في بلاد شنقيط سنة ١٨٢٨ وأعلن الجهاد وسيطر على مركز بودور على نهر السنغال وهجم على المؤسسات الفرنسية هناك، ثم اتجه الى دكانه في ١٠ دجمبر ١٩٣٠، لكن الفرنسيين هزموه وقتلوه رميا بالرصاص في لساطور، راجع :
— Edouard Barthelemy : Notice sur les établissements Français;
— P. Marty : L'Islam au Sénégal. T2. p. 18
(٦٢) وردت قصة اختطاف الامير مفصلة في P. Marty : Les Brakna p. 54, 57.
(٦٣) Bulletin Ifan - Tome XIV, Juillet 1952
(٦٤) حامد بن محفوظ بن بوبكر سيره ص ١٢.
(٦٥) حتوت بنت عبد الله ص ٣٩.
(٦٦) احمد بن الحسن (تحقيق) كتاب التكملة ص ٢٠.
(٦٧) انظر القصيدة في باب الموثبات وكذلك قصيدتي جدود وابن الشيخ سيديا المشار اليهما فيما بعد.

(٦٨) أوردنا نص الرسالة الجوابية من السلطان المغربي في المخدل.
(٦٩) أحمد بن الامين ص ٧٧.
(٧٠) الوثائق الوطنية السنغالية ـ دكار الملف : 9 G1.
(٧١) الوثائق السنغالية ـ الملف 9 G3.
(٧٢) تحدث ولد كيجه ـ كما سماه الشناقطة ـ عن اقامته في احياء البراكنه، وذلك في كتابه : Voyage à Tombouktou وقد ادعى أنه أسلم وجاء يتعلم الدين، فرحب به القوم وان ظلوا يراقبون تصرفاته وتحدث عن علم النساء الشنقيطيات وذكائهن وقد دخل هذا الرجل عالم الامثال الشنقيطية، فهم يقول «مرسول ولد كيجه»، مثلا للمبعوث اذا أبطأ كثيرا.
(٧٣) انظر محمد المصطفى الندى في دور المحاضر في موريتانيا ص ٤٨ ـ ٥٠، انظر أيضا : **Jules Gros : Les voyages et decouvertes de Paul Soleiller dans le Sahara et le Soudan**
ـ رسالة الشيخ سعد بوه الى الحاكم الفرنسي في اندر حول امر البعثة في ادرار.
(٧٤) حامد بن محفوظ ص ١٦.
(٧٥) انظر :
ـ الندى ـ ص ٦٦
ـ Dechassey : La Mauritanie, p. 146.
(٧٦) الندى ص ٦٤ وما بعدها.
(٧٧) راجع رسالة محمد بن محمذن : امارة الترارزة.
(٧٨) انظر : P. Marty : E. S. L'Islam au Sénégal, T1, p. 329.
(٧٩) سيدي محمد بن بناهي : نماذج من تاريخ أسرة آل حبت ـ ص ٥٧.
(٨٠) الندى ـ ص ٦٥.
(٨١) Beyries : تقرير في الوثائق الوطنية السنغالية بدكار ص ٥٣ الملف 9 G 78.
(٨٢) الندى ص ٦٩ وما بعدها.
(٨٣) الندى ص ٦٨.
(٨٤) انظر القصيدة كاملة في باب الموثبات.
(٨٥) السبعة الصلحاء المدفونون بمراكش هم : يوسف العلوي، عياض السبتي، أبو العباس المرسى، عبد العزيز التابعي، محمد الجزولي، الشريف الغزواني والامام السهيلي.
(٨٦) سيدي محمد بن بناهي ـ ص ٤٢.
(٨٧) الوثائق الوطنية بنواكشوط ـ للملف E ٢/٤٤.
(٨٨) محمد محمود بن ودادي (تعريب وتعليق) : البرابيش لبول مارتي ص ٨٠.
(٨٩) الندى ص ٨٥ وما بعدها.
(٩٠) رواية عن والدنا الشيخ محمد النحوي ومطعلة في : Paul Marty : Les Brakna, p. 308, 309.
(٩١) الوثائق الوطنية بنواكشوط ـ الملف E٢/١٢٢.
(٩٢) غيثي بن امم ص ٢٠ ويقول بابا بن الشيخ سيديا في تاريخه للامارات كلاما يؤيد هذا المعنى : «الزوايا عند العرب أكفاء. والزوايا لا يريدون لذلك من العرب إلّا من تاب وحسنت حاله. وأفاضل العرب يجعلون أفاضل الزوايا شيوخا لهم ويقلدونهم يرجون بذلك صلاح أمورهم في العاجل والأجل ولا يستنكفون منه، بل يرونه فخرا لهم وأجرا وذكرا».
(٩٣) محمد بن الطلبة : مدخل الى تاريخ الاستعمار في موريتانيا ص ٥٠.
(٩٤) انظر ـ عبد العزيز سي القاضي أبو بكر مي بن الامام ابراهيم ص ١٠.
(٩٥) محمد عبد الله بن محمد محمود (تحقيق) : ديوان الشيخ محمد عبد الله بن احمذيه ص ١٠ وما بعدها.

(٩٦) عبد الله بن محمد الأمين : مساهمة في ابراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين ـ ص ٧١.
(٩٧) المصدر السابق ص ٧٠.
(٩٨) المصدر السابق ـ ص ٦٩.
(٩٩) غيثي بن امم ـ ص ٥٩.
(١٠٠) المصدر السابق ص ٩٧.
(١٠١) المختار بن حامد : حياة موريتانيا، ج ١.
(١٠٢) عبد الله بن محمد الأمين ص ٦٥ وما بعدها.
(١٠٣) المصدر السابق ص ٧٨.
(١٠٤) محمد محمود بن محمد سالم : جمع وتحقيق غرض المديح من ديوان محمد محمود ابن احمذيه ص ٩٦، الكليكل، تصغير كلكل : الصدر والمقصود به هنا تفصيح «لكويشيثي»، وهي علم على مكان، و«الكاشوش» في اللهجة الحسانية : الصدر ـ متئم : بندقية ذات فوهتين، نقبته : لونه، قب : ضامرة ـ أياطلها مفردها الأيطل : الخاصرة، منجرد : قصير الشعر، نهد : قوي ضخم، مراكله : حيث يركله الفارس من جنبه وقد جرت معركة الكويشيثي سنة ١٣٢٤ هـ/١٩٠٨ م على بعد ١١٠ كم الى الجنوب من نواكشوط.
(١٠٥) محمد عبد الله بن محمد محمود ص ٨٣، القريان جمع قري : مسائل الماء، يهوم : يهز رأسه نعاسا، صلدم : صلب شديد الحافر، محنب : محدود، اللبان : الصدر.
(١٠٦) المصدر السابق ص ١٠٤.
الوضين : بطان عريض من جلد يشد به الرحل وغيره على الراحلة. وجولانه كناية عن ضمور العيس، زال : جبل وتورين : ماء. وهما بمنطقة تيرس زمور من شمال البلاد.
(١٠٧) انظر Christine Garnier : Désert fertil, un nouveau Etat : la Mauritanie, p. 98-
(١٠٨) الوثائق الوطنية بنواكشوط ـ الملف E١/٨.
(١٠٩) Le Courtois : Etudes s. l'enseignement Is et Tr en Mauritanie, p. 4
(١١٠) الوثائق السنغالية، داكار الملف 9 G3.
(١١١) Dechassey : La Mauritanie, p. 126.
(١١٢) نفس المصدر ـ ص ١٣٧.
(١١٣) نفس المصدر ـ ص ١٤٣، ١٤٤.
(١١٤) الوثائق الوطنية، نواكشوط ملف E٢/٤٤.
(١١٥) الرسالة بتاريخ ١٩٠٧/٤/١٦ الملف E٢/٤٤.
(١١٦) محمد المختار بن اباه : الشعر والشعراء في موريتانيا.
(١١٧) P. Marty : E. S. L'Islam au Sénégal, T1, p. 18.
(١١٨) Dechassey p. 136!
(١١٩) الوثائق الوطنية ـ نواكشوط E2/67/68.
(١٢٠) مصدر سابق Marty, p. 51.
(١٢١) المصدر السابق ـ ص ٤٦.
(١٢٢) المصدر السابق ـ ص ٤٧.
(١٢٣) المصدر السابق ـ ص ٣٩، ٤٠.
(١٢٤) لملاحقة المشايخ والعلماء انظر الملفات E1/99 et E2/67/68.
(١٢٥) عبد العزيز سي ص ١١.
(١٢٦) أحمد بن سيدي : تحقيق وفيات الأعيان لمحمد بن البراء ص ٧٢.

(١٢٧) الوثائق الوطنية نواكشوط الملف E2/44.
رسالة بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٠٧.

(١٢٨) الندى : طرق وأساليب التدريس المحضري في الكحلاء، الحسين المذكور في الملحون : الحسين بن الوديعة، عالم خرج مهاجرا الى الحجاز إبان احتلال البلاد.
ـ «برتزام» كلمة فرنسية : Partisans تعنى حاشية الحكام الفرنسيين ورجالهم
ـ «كابتين» : كلمة فرنسية تعني النقيب، أرسلها الشناقطة علما على ضباط الجيش الفرنسي وضربوا بهم المثل في الكفر (اكفر من كابتين).
ـ «كلموع» : يبدو أنه اسم زوجة الضابط الفرنسي مصحفا على عادتهم في نطق الأسماء الأجنبية.

(١٢٩) Le Courtois, p. 49.

(١٣٠) عبد العزيز سي ص ١٤.

(١٣١) Dechassey, p. 105.

(١٣٢) المصدر السابق ص ١٠٧.

(١٣٣) المصدر السابق ص ١٠٨، ١١٠.

(١٣٤) مقدمات C.H. Kane, Aventure, p. 67.

(١٣٥) الوثائق الوطنية، نواكشواط ملف E2/44.

(١٣٦) Dechassey p. 133.

(١٣٧) المصدر السابق الصفحة ذاتها.

(١٣٨) المصدر السابق ص ١٥٤.

(١٣٩) المصدر السابق ص ١٣٥.

(١٤٠) المصدر السابق ص ١٣٧، ١٣٨.

(١٤١) الوثائق الوطنية نواكشوط الملف E2/44.

(١٤٢) المصدر السابق نفسه.

(١٤٣) المصدر السابق.

(١٤٤) الطالب المذكور في التقرير هو محمد بن محمود بن داداه.

(١٤٥) الوثائق الوطنية، المصدر السابق.

(١٤٦) المصدر السابق.

(١٤٧) المصدر السابق.

(١٤٨) المصدر السابق ـ الرسالة بتاريخ ١٩٣٥/١٠/٢٦.

(١٤٩) المصدر السابق.

(١٥٠) المصدر السابق ـ الرسالة بتاريخ ١٩٣٦/٤/٤.

(١٤٩) المصدر السابق.

(١٥٠) المصدر السابق ـ الرسالة بتاريخ ١٩٣٦/٤/٤.

(١٥١) Dechassey, p. 156.

(١٥٢) الوثائق الوطنية نواكشوط الملف E2/44.

(١٥٣) المصدر السابق ـ التقرير رقم ٧٩٥ بتاريخ ١٩٣٤/١٠/١.

(١٥٤) المصدر السابق تقرير الى الحاكم العام لغرب افريقيا بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٤٥.

(١٥٥) نسخة من تقرير بيري المطول في الوثائق السنغالية، داكار الملف 9G 78.

(١٥٦) Dechabssey, p. 154, 156.

(١٥٧) المصدر السابق ص ١٨٤.

(١٥٨) المصدر السابق ص ١٨٣.

(١٥٩) راجع تصريح المستشار دمبلي تيكورا في محضر مداولات لجنة التعليم بتاريخ ١٩٣٥/٤/٤ الوثائق الوطنية، نواكشواط ـ الملف G3.

(١٦٠) الوثائق الوطنية، المصدر السابق.

(١٦١) الندى : دور المحاضر في موريتانيا ص ١١٩، ١٢٠.

(١٦٢) احمد سالم مولاي علي : المختار بن بلول ص ٤٨.

(١٦٣) عبد الله السالم بن الشيخ أحمد : دراسة شخصية الشيخ محمد حامد بن عبد الله بن آلا ـ ص ٢٢ وما بعدها.

(١٦٤) الندى ـ ص ١٢٣.

(١٦٥) الندى ـ ص ١٢٥.

(١٦٦) Dechassey, p. 139.

(١٦٧) المصدر السابق ـ ص ١٣٨.

(١٦٨) المصدر السابق ـ ص ١٣٩.

(١٦٩) المصدر السابق ـ ص ١٤١.

(١٧٠) المصدر السابق ـ ص ١٤٢.

(١٧١) راجع محضر اللجنة الخاصة بالتعليم في الجمعية الاقليمية لموريتانيا ـ الوثائق الوطنية، نواكشوط ـ ملف G3.

(١٧٢) Dechassey, p. 142.

(١٧٣) المصدر السابق ص ١٤٢، ١٤٤.

(١٧٤) المصدر السابق ص ١٤٣.

(١٧٥) المصدر السابق ص ١٥٦.

(١٧٦) المصدر السابق ص ١٦٢.

(١٧٧) الوثائق الوطنية نواكشوط ـ الملف E2/44.

(١٧٨) المصدر السابق نفسه.

(١٧٩) Dechassey, p. 164.

(١٨٠) الوثائق الوطنية، نواكشوط ـ ملف G 3.

(١٨١) محمد محمود بن محمد سالم ص ٢٠.

(١٨٢) محمد عبد الله بن محمد محمود ـ ص ١١.

(١٨٣) الندى ـ ص ١٢٥، ١٢٦.

(١٨٤) الوثائق الوطنية، نواكشوط G3.

(١٨٥) المصدر السابق، انظر محضر الاجتماع.

(١٨٦) المصدر السابق.

(١٨٧) المصدر السابق ـ رسالة الحاكم العام لغرب افريقيا الى وزير المستعمرات، رقم ١٠١٥ بتاريخ ١٩٤٩/١١/٢٥.

(١٨٨) المصدر السابق ـ الرسالة بتاريخ ١٩٥٠/٣/١١.

(١٨٩) المصدر السابق.

(١٩٠) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون ص ٩٥.

(١٩١) Le Courtois, p. 11.

(١٩٢) Le Courtois, p. 32.

الباب الخامس

موثبات في الأدب الشنقيطي

هذه الموثبات

هذه الموثبات التي وددنا أن نفرد لها بابا خاصا هي شذرات من الأدب الشنقيطي المجاهد : قصائد كتبها شعراء كلهم أو جلهم شيوخ محاضر ورجال حضرات، يشكون فيها واقعا مريرا عاشه مجتمعهم ويستنهضون الهمم ويستثيرون العزائم لرأب الصدع واصلاح الخلل.

انها صور من الجهاد الذي سطر العلماء الشناقطة صفحات منه بالدم، وصفحات أخر بالحبر المتوهج اخترنا منها هذه النماذج، لما تفصح عنه وتشهد به من توقد جذوة الجهاد في مجتمع المحضرة، ولأنها بعض العطاء الثقافي الشنقيطي المغمور الذي لم يطبع بعد في كتاب منشور، وان عني به بعض الطلبة الباحثين عناية حميدة[١].

لقد عاش المجتمع الشنقيطي ظروفا قاسية بعد انفراط عقد دولة المرابطين، فقد تفرق القوم أحزابا وشيعا، قبائل متناحرة يذوق بعضها بأس بعض، فانتشرت الغارات والثارات والحروب والمناوشات القبلية على النحو الذي أسلفناه. وساد الظلم والجور، في غياب دولة جامعة وإمام مطاع، فحز ذلك في نفس سيدي عبد الله بن محمد (ابن رازقه) الذي قال :

الى كم وهذا الجور يبرم حكمه   ولم يتعقبه من العدل ناقض
ولم يبق الا مغمض متباصر   يخاف اذاه مبصر متغامض
يروح جراب الباطل الفعم جهده   وما في جراب الحق إلا نقائض
اذا ما اللحى لم تسع في النفع أهلها   لأهليهم فلتسع فيها المقارض

ولم تلبث أن انضافت الى الفوضى والاضطرابات القبلية هموم أخرى «توجها» الاستعمار.

حول هذه الهموم تدور الموثبات التي اخترناها قائمة على محاور ثلاثة :

- محور جامع يلم شتاتها وينسج خيوطها هو الغيرة للاسلام والدعوة لحماية بيضته والذب عن حماه.

- محورين فرعيين يصوران كيف أحدق الخطر بالاسلام والمسلمين وبلادهم، وهما : الدعوة لاقامة الدولة الراشدة والنداء الى مواجهة الاستعمار ورده على أعقابه.

وقد كانت الغيرة للدين وراء دعوة محمد بن الطلبة للجهاد، حين نظر نظرة فاحصة الى سلوك الناس من حوله فوجدهم لا يعبأون بالدين، يصلون متيممين ويختصمون على الدنيا «ويبكون ان ضل البعير سفاهة»، ولا يحرك الدين ساكنا في ضمائرهم، فهو ضحية فريقين أحدهما يعاديه والثاني يخذله :

تظاهر أقوام عليه فطمسوا   هداه، فهم عاد عليه وخاذل

فدعا الى نجدة الدين والذود عن حياضه لا بالدموع ولكن بالجهاد في سبيل الله :

فلا تعولوه بالدموع فانه   بذلك تستشفى النساء الثواكل
ولكن بأطراف العوالي فانها   شفاء الصدور والمذاكي القوابل
وكل فتى صعب الكريهة ماجد   مجد محق ليس يثنيه باطل

وفي هذا السياق تندرج قصيدة بابا بن أحمد بيبه التي يشكو فيها حال الدين، مركزا على ما يعانيه الزوايا من ظلم القبائل الحسانية التي تجبى عليهم «الجزية» بعد الاسلام!

يستحضر بابا في قصيدته هذه جهاد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، وجهاد الزوايا في حركة ناصر الدين، مذكرا بأنهم هزموا خصومهم مرارا وأن لا ضير عليهم اذا كانوا قد هزموا من بعد فكل نفس ذائقة الموت. «وليس في الموت من عار ومن عجب»، والجهاد فريضة ليس المتقاعسون عنها اليوم بأهدى سبيلا من جيل الصحابة المجاهدين. ويتمنى بابا لو أن قومه سمعوا نداءه فابتدروا الى حماية الدين :

من لي بقوم اذا ما نال دينهم   ممن يعاديه توهين واذلال
قاموا إليه ليحموه كأنهم   مزعفرات لها بالغيل أشبال

ويستثير الشيخ سيدي محمد في همزيته الحمية الدينية وقيم النخوة والاباء وهو يشكو سيادة الظلم والفوضى في البلاد، ناقما على المسلمين (الزوايا) رضاهم بالمذلة واحتمالهم الظلم :

لا حر يرضى ما رضيتم أنتم   من نهب أموال وسفك دماء
وهجوم دور وابتزاز ملابس   وقران شيب واستباء نساء
وأليم ضرب باليدي وبالعصـ   ـي على المحيا أو على العلباء

وليس من علاج لهذا الواقع إلّا الجهاد، فلماذا وضعوه بعد أن فرضه الله وهم يدعون الاسلام؟

بلّغ لمن لاقيت ممن يدعي   ان لم يضن عليك بالاصغاء
ان اتباع المصطفى وصحابه   ومن اقتدى بهم من القدماء
في وضح أسلحة بها عزوا على   من سامهم خسفا من الجهلاء
مني التحية والسلام، وأنه   تالله أكذب من على الغبراء!

فما وضع النبي عليه الصلاة والسلام ولا الصحابة السلاح، بل جاهد وجاهدوا في الله حق جهاده فما هي حجة المتقاعسين عن حمل السلاح الراغبين عن الشهادة في سبيل الله :

من أين ويحكم أخذتم ما به   غادرتم البيضاء كالسوداء
من أي قرآن أو أية سنة   أم أي اجماع من العلماء؟!

وفي الدعوة الى الجهاد ضد الظلمة عند الشعراء الثلاثة دعوة ضمنية الى اقامة دولة الزوايا، المشروع الذي استشهد ناصر الدين في سبيله ولم ينهض به الناس من بعده.

لكن الدعوة الصريحة لم ترد في هذه القصائد، وإنما وردت في شعر الشيخ محمد المامي ومحنض بابه والفغ (الفقيه) سيدي أحمد.

فقد حزَّ في نفس الشيخ محمد المامي ما حزَّ في نفوس الشعراء الثلاثة من استضعاف الزوايا، وكثرة الغارات والنهب والتقتيل، على وهن من أهل العلم واسترخاء وتشتت، فكتب يدعو لنصب الامام مبشرا بما في ذلك من الخيرات : اجتماع الكلمة ونبذ الخلافات والحكم بالعدل واقامة حدود الله لتطهير العصاة من ذنوبهم، ودعا بقوة إلى الجهاد، إما بامام أو بدونه حتى يتهيأ نصب الامام.

وهو يستعرض في قصيدته نبذا من تاريخ الفتوحات الاسلامية في عهدها الزاهر، ويشير الى أن للزوايا ثأرا يجب أن يدركوه كما أدرك بنو العباس ثاراتهم.

ويضرب الأمثال من بطولات العرب الأولين ومن مآثر الشناقطة أنفسهم، ليعيب على الرجال خنوعهم وقعودهم مع النساء :

وضاعت نسوة نكحت رجالا   بفعل الغانيات مكلفينا
فلم يكتب عليهم من قتال   ولا قتل على ما يزعمونا
وهل فيكم نساء محصنات   وما كنتم لها أبدا حصونا
وهل حظيت نساء تحت بعل   اذا كان الرجال مخنثينا؟!

وكأنه توقع إعراض الشيب عن دعوته الشابة فتصورهم أطفالا رضعا ساعة الفطام :

ترى للشيب صدا عن دعائي   كأنهم ولائد يفطمونا
وما عمرو بن كلثوم بأوهى   عدى منكم وأكثر ناصرينا

وقد تلقى محنض بابه بأذن واعية دعوة الشيخ محمد المامي، فرد عليه برسالة شعرية يحرضه فيها على المضي قدما في دعوته :

حرض على نصب الامام فانه   بدوائه يشفي من الاسقام

ووافقه على ضرورة الامر مستدلا بأن القضاة صاروا يجورون في الأحكام خوفا على أنفسهم، وأن أحكامهم لا تنفذ لتهاون الناس بها وبهم وسيادة الصالحين على الطالحين، وذكر بأن الجهاد فرض كفائي ان لم يقم به بعض الناس أثم الجميع.

فاغدوا على نصب الامام بقرعة   وابغوا بذاك نصيحة الاسلام

ولقيت دعوة الشاعرين العالمين صدى طيبا عند الفغ سيدي أحمد الذي كتب قصيدة مؤيدة لهما، يدعو فيها الى أن يكون الامام المرجو من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام إلّا أن يستعصي ذلك :

ان كان من قوم النبي فنعمها   أولا، فذو عدل من الحكام

ويبين الصفات التي ينبغي أن يتسم بها الامام ومضمون البيعة :

فابغوه محمود الخصال مبرأ   من وهم حظ النفس أخبث ذام
ثم اتبعوه وبايعوه على الذي   نزل الكتاب به من الأحكام

وقد كانت الدعوة لاقامة الدولة، في جوهرها دعوة للثورة على الامارات والقبائل الحسانية التي تهيمن على مناطق البلاد وتصطرع فيما بينها وتستضعف الزوايا وتفرض عليهم مغارم يؤدونها بانتظام بمقتضى عهود «شربية».

ثم طرأ عنصر جديد، وفي نفس الفترة تقريبا (القرن ١٣ هـ) فاذا بالبلاد تواجه تحديا خارجيا يتمثل في السلطة الاستعمارية التي تمركزت في السنغال وبدأت تحاول فرض هيمنتها على بلاد شنقيط، بالتدخل في شؤون الامارات والتحريش بينها وفرض حضورها التجاري وإرسال مستطلعيها يتسقطون لها الأخبار ويدرسون أوضاع الأرض والسكان.

عندئذ شعر القوم بأنهم صاروا بين فكي مقصلة، عدو من الداخل، قوم من بني جلدتهم، يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، وقوم أغراب كفار يتربصون بهم الدوائر،

فعلا نداء الجهاد. وكان الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي النذير العريان بصرخته المؤثرة التي يستنهض فيها الناس للجهاد في سبيل الله، لانقاذ الدين من خطرين داهمين يتهددانه :

حماة الدين ان الدين صارا	أسيـــرا للصوص وللنصارى
فان بادرتمـــوه تداركـــوه	وإلّا يسبق السيف البـدارا

وهو يحلل أسباب الهجمة الاستعمارية المرتقبة، فيقول ان «الروم» عاينوا ما عليه الناس من تهاون بدينهم وضعف وتشتت فأغراهم ذلك بهم :

وروم عاينوا في الدين ضعفا	فرامـوا كل ما رامـو اختبـارا
فان أنتم سعيتـم وانتدبتـم	برغم منها ازدجـروا ازدجـارا
وان أنتـم تكاسلتـم وخمتـم	برغـم منكم ابتـدروا ابتدارا
فالفوكـم كمـا يبغـون فوضى	حيارى لا انتـداب ولا ائتمـارا
ومـا ظنـوا لعظـم جابـروه	كسارى بعـد هيضتـه انجبـارا

ويستثير الهمم بتصور الفتيات حور المدامع وقد سباهن علوج النصارى واحتملوهن في البواخر يلطمونهن على الخدود ويضعون القيود منهن محل الأساور والقلائد والخلاخل.

ويشارك في حملة التعبئة هذه جدود بن اكتوشني، رافعا عقيرته بالتحريض على المتربصين بالدين من داخل البلاد وخارجها، مصدرا نداءه ومركزا على الدعوة لمواجهة النصارى.

وقد أطلق صرخته هذه أيام حرب الصمغ بين الفرنسيين وأمير الترارزة محمد الحبيب، فقدر للأمير جهاده واعترف بامامته، ودعا الناس لنصرته :

لا تخونـوا امامكـم وانصروه	ان في خونـه لذلا وعـارا

ودعاهم لفرض حصار اقتصادي على الفرنسيين :

لا تعينوا بالعلك حزب الاعادي	أتعينـون آثمـا كفـارا؟!
فاقطعـوا عنهـم الشراء حذارا	أن يصروا علـى الأذى اصرارا
فاذا ما أعنتموهـم أساؤوا	وأصروا واستكبـروا استكبـارا

وهو ينقم على الناس الجبن ويدعوهم للقتال بكل سلاح يجدونه ولو بالعصي :

ما لكـم ليس فيكـم من سلاح	للعدى ما عدا سلاح الحبارى
فخذوا النبل والرمـاح وراموا	والمدى العصل والعصي الكبارا

وسيوفـا صوارمـا ليس تنبـو	ورعـودا تقصر الأعمـارا
لا تكونـوا بآخـر الدهـر عزلا	من يكن أعزلا يكـون حمـارا

ويقترح جدود في موثبته هذه الهجوم على النصارى في مواقعهم وعبور نهر السنغال اليهم لاستئصال الخطر من جذوره :

أيهـا المسلمـون شدوا عليهـم	وانزلوا «الزير» وانزلوا «كنارا»(٢)
... واعبروا البحر في مواخر فلك	أحكم العجم لوحهـا والـدسارا

وفي هذه الفترة نجد لبابا بن أحمد بيبه دمعة شعرية حرى على عالم جليل وقوم معه أسرهم النصارى واحتملوهم في سفينة بعيدا عن الوطن(٣). وفي هذه الدمعة نبرة أسى وحزن انتهت بها صرختا سيدي محمد وجدود، فكلاهما لا يرى في الأفق ما يدعو للتفاؤل بأن في البلاد معتصما يصغي اليه.. وكذلك كان الامر، فقد أنذر هؤلاء قومهم ولما يدخل العدو البلاد ونخلوهم النصح، وفي الامر سعة، «فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد» بعد نصف قرن تقريبا، عندا أوجف المستعمر بخيله ورجله على البلاد فاقتحم منها مناطق وتقدم ليجتاح البقية.

عندئذ حمل المجاهدون السلاح، وكثير منهم شارك في الجهادين، فحمل القلم والسيف معا. وكان من دعاة المقاومة محمد العاقب بن ما يابي وماء العينين بن العتيق، كلاهما استعان بالشعر لاستنهاض الهمم واستثارة العزائم.

يتفاءل محمد العاقب في قصيدته بهزيمة الغزاة متطيرا لهم بأسمائهم وألقابهم ورتبهم، فيرى «كابولاني» من خلال اسمه مكبلا و«الخوبة» (القلعة) خيبة و«الكابتين» (النقيب) مكبوتا :

أسماؤهـم تنبـىء عن تدميرهـم	فمـا لهـم بحربنـا من قبل
خيبتهم في «خوب» والكبت «لكا	بتيـن» والتكبـيل للمكـبل

وهم قوم كفار غزاة، فلا بد من جهادهم ولو بلا سلاح ولو كان المجاهدون فئة قليلة، فان لم يكن جهاد فهجرة الى ديار الاسلام.. الجهاد على القوي، والهجرة على الضعيف، ونية الهجرة متى صارت ممكنة على المستضعف. ولا سبيل لمسالمة النصارى أو مساكنتهم، فضلا عن التعامل معهم والثقة بعهودهم ووعودهم :

تا لله ما لكافـر عهـد ولا	له أليـة اذا ما يأتلـي
... وعد النصارى كذب وعدلهم	جور وميرهـم وخيـم المـأكل
فالضيغم الضيغم يا من رام أن	يسري في الليل البهيـم الاليـل
وسلمهـم حرب وبـذل مالهـم	تغلب بالكيـد والتحـيل

وهو يرى أن مساكنتهم تقدح في عدالة المرء فلا تقبل شهادته ولا يصلح للقضاء ولا تجوز امامته.

ولأن النصارى هم العدو الأكبر ولأن مصلحة الدين مرجحة على مصلحة الدنيا، فالجور دونهم خير من العدل بهم :

والجـــور والاسلام في بلادنـــــا   خير من العدل مع الكفر الجلي

أما ماء العينين العتيق، فيذكر بما ورد في كتاب الله من الوعيد بحق الذين يوادون من حاد الله ورسوله وما فيه من حث على الجهاد في سبيل الله، ويدعو الناس الى أن لا يبيعوا دينهم بالدنيا :

فيا أخوة الايمان دعوة مشفـــق   نصوح دجا مما دهاكـم نهــاره
ألا هل لدين الله منكـم مشيـــد   فقد كاد أن ينـقض أصلا جداره
أبعتم بدنيـــا دينكـم واعتصمتـم   بحبل من الشيطان واه مغاره؟!

وهو يهنيء الشيخ ماء العينين على جهاده ويدعو سكان البلاد المحتلة الى الهجرة التي كانت سبيلا للجهاد :

فيا عجبا من مدع ملة الهـدى   وبين ديـــار المشركيـن ديـــاره
وأحكامهم تجـــري عليـــه وأمـــره   علـــى ترة الأهـــواء منهـــم مداره
فلو كان في دعواه الاسلام صادقا   لكـان مقيمــا حيث تحويـــه داره

ولم يكن هناك وتر أكثر حساسية من الاسلام في تاريخ البلاد، ولا عامل تثوير وتفجير لمواجهة الظلم والفوضى، ولمقارعة الاستعمار ولتشييد أركان الدولة الراشدة أيام كانت حلما يداعب مخيلات الفقهاء والأدباء.

ولم يكن هناك وتر أكثر حساسية من الاسلام في تاريخ البلاد، ولا عامل تثوير وتفجر أبعد منه أثرا في النفوس فقد انصهرت فيه جميع القيم الوطنية والخلقية، لم تبق منها شاذة ولا فاذة إلا وهم يرونها من خلال الدين، فاصطبغت جميع القصائد الموثبة بصبغته أيا كانت مناسبتها واتجاه دعوتها...

وهكذا يجد القارىء دفقا من الحماس الديني حادا حارا في جميع هذه القصائد ويجد فيها، وان اختيرت لموضوعها لا لقيمتها الأدبية، مفاتن أدبية وتاريخية تستوقف نظره.. ولعله عندئذ يعذر الشيخ محمد المامي، عندما يذكر مآثر هؤلاء المرابطين على ثغور الثقافة العربية الاسلامية في فخر رزين أمين :

ألـــم تر أننـــا نفـــر قلـــيل   ونعـــدل ان وزنـــا الاكثرينـــا
فامـــا لوذعـــي أو خطـــيب   وامـــا عالـــم جمـــع الفنونـــا

واما سيد سمـــح السجايـــا   ولـيس من الرجـال مهذبونـا
كما في النـــاس كليهـم عنيـــر   ولـيس من الرجـال مهذبونا
ولسنـــا للمنـــاضل في جواب   ولا حقـــد من المتكلفينـــا
ونـــدرك ما نشاء، ولا ترانـــا   علـــى آثـــاره متشددينـــا
... وكنـــا خاطبيـــن بكل مهـــر   لابكـــار العلـــى ومخبيينـــا
ليألفهـــا أعيلمـــة صغـــار   كما قومت في اللين الغصونـــا

ألا يا أنصار الاله*

محمد ابن الطلبه

أهاجك رسم «بالغشيواء»[٤] ماثل   كما لاح جفن السيف والسيف ناصل
ومغنى بميثاء «القرارة» بعثرت   معالمه، مرّ الرياح، الجوافل
كخط زبور في عسيب يمده   يمان يداني بينه ويزايل
وقفت بها فاستجهلتني رسومها   وما الجهل الا ما تهيج المنازل
فدع ذكر أيام الشباب فذكره   أخيرا وقد ولى ضلال وباطل
ولكن الى الرحمن فاشك مصيبة   ألمّت بنا ما ان اليها المعاضل
مصيبة دين الله أمسى عماده   كمنفوس حبلى طرقته القوابل
تظاهر أقوام عليه فطمسوا   هداه فهم عاد عليه وخاذل
فحسّان عاد والمهدّي بهديه   وجلّ الزوايا فيه عنهم يجادل
يجادل عنهم ذلة وطماعة   ألا لحيت تلك اللحى والحواصل
فهم يدعون الدين، والدين منهم   مناط الثريا رامها المتنازل
يصلون لا يأتونها بطهارة   وعند الأذان نوؤهم متكاسل
يصلون دأبا بالتراب جهالة   بأفواههم ترب الحصى والجنادل
يصلون طرا بالتراب وانهم   ألوف شعوب جمة وقبائل
يقولون مرضى، هل سمعتم بأمة   بها مرض قد عمها لا يزايل ؟
نعم مرض القلب المعد لأهله   به درك النار الحرار الأسافل
وأما تكاليف الرجال التي أتت   من الله آيات بهن نوازل
فقد أهملوها مستحلين تركها   وقد أغفلوها فهي منهم بواهل
لخانوا أمانات الاله وعهده   وما الله عما يفعل القوم غافل
ويبكون أن ضل البعير سفاهة   وأن تظمأ الشول الجوازى الا وابل
وان تقف البيقور عند ورودها   هناك التبكي منهم والتقاتل

فهذا وذا ما قد علمتم فشمّروا   ولا ترفع الرجس الاماني الا باطل
فهلا على الدين الحنيف بكيتم   فلا رقئت تلك الدموع الهوامل
ليبك لدين الله من كان باكيا   فقد عريت أفراسه والرواحل
ليبك لدين الله من كان مؤمنا   فقد قطعت منه العرى والوسائل
ليبك لفقد الدين من كان فقده   عزيزا عليه اذ جفته الا راذل
ولا تعولوه بالدموع فانه   بذلك تستشفي النساء الثواكل
ولكن بأطراف العوالي فانها   شفاء الصدور والمذاكي القوابل
وكل فتى صعب الكريهة ماجد   مجدّ محق ليس يثنيه باطل
بأيمانهم مأثورة أندريّة   فرنسية للمعتدين قواتل
تروح بأيديهم كأن شعاعها   مصابيح أنكاها مع الليل شاعل
اذا ما امتروا أخلافها كان درها   صواعق فيها أنؤر وزلازل
وتخطاف أبصار العدى وقلوبهم   كما رعدت دهم السحاب الجوافل
ولم يحم دينا مستباحا حريمه   من المعتدى إلا القنا والقنابل
وفتيان صدق صابرون لربهم   يحامون عنه وهو عنهم يجادل
يحشون حومات الوغى بنفوسهم   اذا هابها الليث المحش المباسل
ألا يالأنصار الاله لدينه   إلام التواني منكم والتكاسل
فلما بدا لي غير شك، من الذي   قد أنذرنا الهادي الأمين، المخايل
نصحت لقومي فازدروني وانني   وان فندوا نصحي لقومي ناخل
فلما محضت النصح صموا وأعرضوا   فما منهم للنصح مني قابل
وقالوا لقد سفهت جهلا حلو منا   واني لهم نصحي على ذاك باذل
وما بي لعمري أن أكون أعيبهم   ولكن اشفاقي لقومي غائل
فقلت لهم لا تأمنوا مكر ربكم   فليس عليه بالاماني كافل
لخبرنا الهادي الأمين بأنه   سيدرك هذا الدين غي وباطل
وأنا سنقفو بعده سنن الردى   كما سن من قبل الكفار الأوائل
وأن سيعود الدين غربا كما بدا   وأمر بقايا الناس للكفر آئل
وأنتم على هذا فريقان : مبطل   وآخر عن أهل الضلال يخاتل
هبوا أنكم جادلتم اليوم عنهم   فمن عنكم يوم الحساب يجادل
وانكم والموت، اذ تتقونه   بأنكم عزل ضعاف أراذل
لكالغرق المكتوف في البحر يتقي   به بللا هل هو من ذلك وائل
وليس الفرار للجبان بمخلد   ألا كل ذي نفس به الموت نازل
فهلا تمسكتم بما قال خالد   ففي قوله وعظ لمن هو عاقل
وهلا بقول الحارثي ائتسيتموا   غداة تحاماه العدو المباسل
ولم ندر إن حصنا من الموت حيصة   كم العمر باق والمدى متطاول

أجزية بعد اسلام؟؟

بابا بن أحمد بيبه

لآل أسماء «بالجفرين» أطلال   ألوى بها من رياح الصيف مجفال
ألوت بها عصف الأرواح تنسجها   ومدجن من روايا المزن هطال
دع ذا ففيما أصاب الدين من وهن   عن الصبا لذوي الألباب أشغال
أقول للنفس اذا أعيت مذاهبها   ولم يجبها من الاخوان بطال
دعيهم وابتغي نصر المهيمن لا   نصر الذين هم عزل واكفال
لعل ذا الدين يوما أن يتاح له   قوم عليه لهم حرص وإقبال
يا للاله لعهد الدين خاس به   خلف تولاه يا رباه أنذال
يأيها الناس قوموا فأنصروه فما   من بعده لكم أهل ولا مال
إن تنصروا الله ينصركم، فلا تهنوا   وافى بذاك له في الوحي انزال
تعذرون بلا عذر وعندكم   زعما حلوم وإيمان وأموال
كم عندكم عند جمع المال من عدد   وكم عليه لكم شح واقبال
وكم لديكم الى الاطماع من سرع   هلع ووقع وايضاع وايغال
ولو تشاؤون عن عز لكان لكم   للخيل ربط وللمرّان إعمال
وعندكم لو على الاسلام غيرتكم   حزم وعزم وللأعداء تقتال
وتحكمون بلا حكم لأنفسكم   بقول من قوله غي واضلال
قد أكمل الله دين المؤمنين فما   ذا ينظرون وفيم القيل والقال
فليس بعد كتاب الله من عذر   وليس بعد رسول الله ارسال
أبعد تحقيقه في أي محكمة   جهلا لكم، بعد تخفيف واهمال
كلا وربي، فحكم الله ليس له   معقب وسوى ما قال تضلال
لكن في نصره النصر العزيز لمن   يحيا وغنم وأسلاب وأنفال
وفيه للميت عمر لا نفاد له   وحور عين وجنات وأظلال
فقاتلوا من عدو الله مثلكم   لهم بنون وأموال وآمال
ويالمون كما قد تالمون كما   لهم نفوس وأعمال وآجال
بل ليس يولم قد قال النبي سوى   كالقرص في الله تقطيع وتختال
من لي بقوم اذا ما نال دينهم   ممن يعاديه توهين واذلال
قاموا اليه ليحموه كأنهم   مزعفرات لها بالغيل أشبال

كمن مضى من «تشمش» الأولين فقد   حامي عن الدين من «تشمش» أبطال(٥)
قوم اذا نازلوا قوما رأيتهم   لهم الى الموت تبغيل وإرقال
أفنى نفوسهم والمال بذلهما   في الله، كل فتى في الله بذال
فان أصيبوا بغدر من عدوهم   نالوا به من جزيل الذخر ما نالوا
وقبل ذلك أجلتهم كتائبنا   يرمي بهم جال أرض مجهل جال
حتى ازارتهم أرض البرابر عن   قسر خيول لنا في الحرب تختال
كم من قتيل قتلنا منهم حنق   وكم أفيء لهم سبي وأنفال
وليس في الموت من عار ولا عجب   بل كل حي له ذا الموت مغتال
وهل على المجد إلا ذاك يعرفه   «الجود يفقر والاقدام قتال»
يا لهف أمي لهفا دائما أبدا   ولهف نفسي وويل لي وأعوال
علام تعطونهم رغما مقاتكم   وهم أذلاء أوغاد وأنذال
قد حاربو الله والهادي فشأنهم   للدين هدم وتوهين وإبطال
أجزية بعد اسلام لهم ضربت   في كل شهر لهاعل وانهال
ألستم أنتم بالمؤمنين فهم   أهل الهدى وسبيل الرشد ما قالوا
أليس يعدل يوم «البير» غدرتكم   أم لم يكن بعد يوم «البير» قيتال
أم هم أشد أم القوم الالى غدروا   بهم فقد مسهم قتل واذلال
أم لم يبلغكم الهادي رسالته   أم أنتم برسول الله جهّال
أم في شعار رسول الله منقصة   وما قد استثمر الاصحاب والآل
أرينكم اذ سلكتم غير منهجهم   أمهتد أنتم والقوم ضلال
لبيس ما اعتضتم من دين ربكم   ذل ودين من الأديان معطال
عوجاء لم تك منهاجا لاولكم   فتركبوها كما الكفار قد قالوا
ولم تكن في أصول الشرع جائية   وما لها من فروع الشعر ادخال
فدى لأولكم يا قوم آخركم   فانهم لعدو الله اقتال
أحيوا بتقتالهم نهج النبي لهم   نهج عليه خيار الصحب دلال
نهج النبي وأصحاب النبي ومن   عهد النبي ـ كذاك ـ الناس ما زالوا
يحي الهدى بعده قوم ويطمسه   قوم فيغلب ما كادوا وما احتالوا
كما مسيلة الكذاب رام، وكم   من بعده رامه في الناس دجال
فيدمغ الحق اذ ناووه باطلهم   ويكذب الله ما ظنوا وما خالوا
اذ جا مسيلمة في جمعه سدما   قد آده محكم منهم ورجال
فاستأصل الله بالصديق شأفتهم   في معشر ما هم للدين خذال
منهم أبو حفص المرهوب صولته   والقرمُ عثمان من في الحق لم يال
ومن أولاك علي وابن عمته   وخالد من لهم في الحرب ادلال
في جمع غاب ليوث من مهاجرة   والغر الأنصار فعالين ما قالوا
قوم يجودون في الحرب العوان بما   به الكماة لدى الهيجاء بخال

لا حر يرضى ما رضيتم

الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا

مزج الدموع بمسبلات دماء   متلهفا متنفس الصعداء
مما رأى سجف الحبيبة قوضت   زوج السحائب من سنا الجوزاء
وجرى البهاء على الصفاء كما جرى   ذهب الاصيل على لجين الماء
لما رأى ماشفه من بينها   كل من الأحباب والنصحاء
أغروه بالصبر الجميل وصبره   مهما توقع رحلة الحسناء
حلت عراه فكاد أن يلقى الذي   لاقاه عروة من هوى عفراء
لا شيء أبرح من نوى أسماء   إلا انطماس الملة البيضاء
وتهدم الأركان منها بعدما   قد شادهن متمم الرّسلاء
يا راكب الوجناء في البيداء   تطوى له البيداء بالوجناء
تخدى به في بطن كل تنوفه   دوّيه مغبرة الارجاء
تسم الرغام كأنما تخشى متى   تمسسه لدغ الحيّة الرقطاء
بمناسم تدع الحصى متفللا   نيطت بكل عجاية سمراء
ان آنست ظل القطيع مروحا   زفت زفيف الهيقة السقفاء
ولربما وخدت موافقة لما   في نفس راكبها بلا إيماء
فكأن مطلعا على أسراره   في سرها ينبى بما هو شاء
وكأن سنورا بمجرى ضفرها   تخشاه حين تهم بالابطاء
بلغ لمن لاقيت ممن يدعى   ان لم يضن عليك بالاصغاء
ان اتباع المصطفى وصحابه   ومن اقتدى بهم من القدماء
في وضع أسلحة بها عزوا على   من سامهم خسفا من الجهلاء
مني التحية والسلام وأنه   تالله أكذب من على الغبراء
ما صان أحمد والصحابة دينهم   إلا بعز الله ذي الالاء
وبواتر وموارن مسنونة   وسوابغ وسوابق وإياء
ومدججين كريمة أحسابهم   شمّ الانوف أعزة شجعاء
من كل أبلج خائض غمر الوغى   متأنيا بسكينة وحياء
يلقى العدى في كثرة متبسّما   صوب الصفوف تبّسم استهزاء
يسطو على ساط جموح سابح   كالسيد بادر غفلة الرقباء
أوصافن جرداء سالمة الشظى   تعدو هويّ القوة الفتخاء
بمهند عضب كأن بريقه   ومض البروق بثرة وطفاء
واذا الكماة الصيد داجوا أكوسا   مملوءة من علقم الهيجاء
وتهاوت القنبان في رهج الوغى   بيضا هوي الشهب في الظلماء
واستكت الاذان من ضجيج الظبى   وتدحرجت مقطوعة الأعضاء

تلفيه أطيب خاطرا منه لدى   أهليه في جدة له ورخاء
في ظل مرتفع العماد ممرّد   متوسدا يد خدلة هيفاء
واذا المنيّة قد رآها غيره   صابا، رآها هو كالصهباء
ليقينه أن المجاهد، ميتا   أو قاتلا، قطعا من السعداء
فبذا يكون الناس ناسا لا بما   من ذلة ألف الأوان أولاء
لا حر يرضى ما رضيتم أنتم   من نهب أموال وسفك دماء
وهجوم دور وابتزان ملابس   وقران شيب واستباء نساء
وأليم ضرب باليدي وبالعصي   علي المحيا أو على العلباء
وترى جماعة مسلمين بمسجد   شم الأنوف أعزة الآباء
وقرا كأن الطير فوق رؤوسهم   هماتهم في النجم والجوزاء
وإذا تقول لبعضهم : لم؟ كاد أن   يرميك بالنسرين والعوّاء
فتخال أن الضيم في أكنافهم   مستودع مستودع العنقاء
حتى اذا نظروا الى متقلص   أهدامه ذي وفرة شعثاء
ولدته أم بيسما جاءت به   وأبيه راع ونجل رعاء
قاموا اليه مبادرين كأنما   قاموا لبعض أجلة الأمراء
واذا أشار إليهم بمعلب   متضمخ بالرين والأصداء
أعمى الزناد، جعابه قد شققت   غلق العناكب جوفه ببناء
طفقوا يثيرون العجاج كأنما   أغريت قسورة بسرب ظباء
فلدى القوي هم ذئاب مفازة   ولدى الضعيف هم أسود «كراء»
هيهات هذا من طريق محمد   وصحابه وقفاته الكرماء
لم تمسكوا من دينهم إلا القوا   عد خمسها مسدوفة برياء
ولربما منعوكموها عنوة   حتى افتديتم منهم بفداء
ان كان ما بكم كراهة موتكم   فالموت قطعا لا محاله جاء
ولموت من هو هكذا خير له   لو عاش أزمانا من الأحياء
ليس امرؤ من ذا استراح بميت   الميت حقا ميت الأحياء
وكفى القتيل مدافعا عن ماله   عد النبي له من الشهداء
أو كان حب المال ما بكم فهلا   صنتموه اذن من الأعداء
وحبوتم من كان أحوج منهم   من عالة القرباء والصدقاء
أو كان صونا للديانة ما بكم   فالذّل من صون الديانة ناء
من أين ويحكم أخذتم ما به   غادرتم البيضاء كالسوداء
من أي قرآن أم أية سنة   أم أيّ اجماع من العلماء
أقسمت بالبيت الذي في مكّة   تهوى اليه سواهم الانضاء
بأهلة منها عليها أنجم   من ركبها في سبسب كسماء
أو أسهم ترمي بها الهم الفلا   عن قوس كل شملة هوجاء

للموت خير والاتاوة والجزى   من مثل ذا من ذلة الحنفاء
لا يردع الجهال عنك كضربة   بمهند أو طعنة نجلاء

أثيروا الغرب

الشيخ محمد المامي بن البخاري

على من ساد أمرد أو جنينا   وأجمل من كسا التاج الجبينا
صلاة متيم حوراء تضحي   صلاة العاشقين لها قطينا
تلقى بالقبول أوان تهدى   يشيعها السلام لها قرينا
على مقدار من تهدى اليه   لكي تكسي به الدر الثمينا
والال الغرّ والأصحاب طرّا   وتابعهم وتالي التابعينا
والأزواج الطواهر والموالي   والاصهار الحماة الامجدينا
فأما بالنهار فأسد غاب   ورهبان اذا ما يظلمونا
من القوم الذين لبست فيهم   ونحن مع النبي مجاهدونا
شعارا أحمرا لمّا استجابوا   لأحمر مثله مستشعرينا
فهمت بمن رأيت ورب رؤيا   تعادل رؤية المستيقظينا
أبي طيف الأحبة أن يبينا   وقلبك للعواذل أن يلينا
لأن المرء قد يمسي غريبا   بأرض غير بلدته رهينا
وما يسليه إعمال النواجي   وإلقاء العصا في الحاضرينا
ولا نظر الدفاتر زينتها   أنامل حذق للناظرينا
ولا أزهار روض ترتعيه   جآذر يتقين بها العيونا
ولا طلل يمر به حزين   ولا متربّع يشفي الحزينا
ودمع يصبغ الخدّان منه   اذا ما سال فوقهما سخينا
ولا ثقة بصبر يوم صدّت   جبال «السّقب» معرضة عزينا
كأن بياضها تحت اسوداد   ثعالب طين متبسمينا
أو الظلمان فزعها لوجه   من الاعراب حي ظاعنونا
أو السّقبان للمرح أبذعرت   أمام العوذ تتبعها حنينا
وأغرقها السراب فشبهتها   سفين الروم فيه الناظرونا
تحاذينا مواخر اذ مررنا   على ريع الرخام مصممينا
من «الجمّاء» «فالجماء» الأخرى   الى «الأجواد» مجراها اليمينا
كأن جبالها وسمي غيث   بأوله الأواخر يهتدينا
بلاد العامري لنا اصطفاها   فبارك ربه فيها وفينا
نزور بها قبورا دارسات   على قدم العهود مخلدينا

معادن حكمة وسداد رأي   وأسرار بها متصرفينا
من البيت الحرام لهم ملاذ   بأستار بها متعلقينا
تخبرنا الأباعد ما جهلنا   من الخير الذي هم فاعلونا
لهم همم علت فوق الثريا   بها شادوا لنا برجا مبينا
وعابونا بها فمتى نزلنا   سوى زحل عددنا عابثينا
هي الحسب المضيء لنا لو أنا   على الآثار منهم مقتدونا
فنعمرها مطرقة ولسنا   بعروة طبل قوم آخذينا
نواسي كل طاغية أتانا   ومسكين بعيد الاقربينا
ونعرض عن جهول نال منا   قرينة جهله للسامعينا
ونكرم من أهان اذا اقتدرنا   ونعطي الحاسدين فيخجلونا
ولو شئنا الظلامة لم تفتنا   ولكن أن يكون لنا لدونا
ألم ترأننا نفر قليل   ونعدل إن وزنا الاكثرينا
فإما لو ذعى أو خطيب   وإما عالم جمع الفنونا
وإما سيد سمح السجايا   ومنا دون ذلك يعذرونا
كما في الناس كلهم عذير   وليس من الرجال مهذبونا
وإنا خمسة الحفاظ منا   مضاعفة وغير مضاعفينا
تيامن من تضاعف وانفردنا   بثغر لا يقال به : منونا
تخبّ ركابنا في كل أرض   قعودا في نحور الديلمينا
بأقرب منزل نزداد منه   قرى بطحاء مكة فالحجونا
فلا زالت لنا أبدا قرارا   ولا زلنا بها متأثلينا
ففرع بالدراسة مستقل   وفرع بالرئاسة فائزونا
يقوم بأمرنا منا أصيل   ينازعه عليه الاقربونا
نزاع سلاسة لا خرق فيه   ويغلب بالاناة الغالبونا
ولم يبرح لدى فحلين منا   شقاق في علوم العالمينا
ونخذل من أتى منا بأمر   له أهل الشريعة منكرونا
والافوه قبل لم ينكر علينا   مصير بلادنا حرما أمينا
فصارت في جزيرتها حجازا   ونحن لها معد آخرونا
لنا الهمم العلية قد تواصت   بها أحلافنا ومطيبونا(٦)
فمن يعزب تأبد أو تسرى   أو ارسل في المناكح عاقدينا
مخافة أن يزن كريم قوم   فتفضح همة الحر الهجينا
ومن يملق يداين أو يتاجر   ولسنا للسؤال بمقتنينا
يقينا ذاك خلق شنفري   على العلات مصطحبا بقينا
وتتكوّنا بنات الدهر، أي   من الأقوام لم تنكأه حينا
وإن تنزل بنا تنزل بشعب   لأنواع الخطوب مجربينا

فأكرم بلدة ومجاوريها   رجال حول مكة مستتونا
والاشرم فيله رهبت قريش   فلم يشرف عليها الاشرمونا
وما زالت أعاجم كل قطر   على عرب الجزيرة غالبينا
أكاسرة ومملكة وجند   فراعنة وبيت القيصرينا
الى فتح العراق ومصر قهرا   وفتح الشام حمص وقنسرينا
نصون نجارنا بالفخر صونا   ونأنف بالتهاجي أن نصونا
وإن تفخر على ذي المجد يفخر   بأحسن ما يقول القائلونا
وان تفخر على ذي اللؤم يركن   الى العوراء منطقة ركونا
الى ذاك الضرورة الجأته   أيحبس في الديون المعدمونا
ولسنا بالقريض وان أخذنا   ولا بالمال من جدة حظينا
ولسنا للمناضل في جواب   ولا حقد من المتكلفينا
وندرك ما نشاء ولا ترانا   على آثاره متشددينا
ترد زمامه أيدي رجال   عليهم قد رددنا ما يلينا
وكنا خاطبين بكل مهر   لابكار العلى ومخببينا
نيألفها أعيلمة صغار   كما قومت في اللين الغصونا
فلا تنسوا معالي من أبيكم   تراثا كل عام ترذلونا
وحزنا أن تتابعت الايادي   هل أنتم يا عبادي شاكرونا
ونعلم أن بعد الخير شرا   وبعد الشر خيرا ما بقينا
ونعلم أنه سينام جدّ   كما نامت جدود الأوّلينا
وأن لا شيء إلّا الله باق   وأن الدهر يفني منجنونا[٧]
وليس الاكرمون على الليالي   ولا وقع القنا بمحرّمينا
وقد حرموا التعّزز يعتليهم   من الاعراب أسفل سافلينا
وضاعت نسوة نكحت رجالا   بفعل الغانيات مكلفينا
فلم يكتب عليهم من قتال   ولا قتل على ما يزعمونا
وهل فيكم نساء محصنات   وما كنتم لها يوم حصونا
وهل حظيت نساء تحت بعل   اذا كان الرجال مخنثينا
عطابيل الانام جفوتموها   بطبع في الخنازر لن يزينا
فما وجدت ممنعة لديكم   حلائل أسودين وأحمرينا
ويقرأ كلكم كيما تكونوا   سواء للجهاد معطّلينا
فويل القارئين وما استقاموا   وويل من كتاب الكاتبينا
وقال الله تحسبهم جميعا   من اوصاف اليهود الغادرينا
وقلتم لاجهاد بلا إمام   نبايعه فهلا تنصبونا
وقلتم لا إمام بلا جهاد   يعززه فهلا تضربونا
اذا جاء الدليل وفيه دور   كفي رذّا لقوم يعقلونا

فيا «تاشمش» أهل الذكر منكم   سلوا ان كنتم لا تعلمونا
تعين ذاك وليسأل سواكم   سواهم من يجيب السائلينا
كحرمة أو كباب بني علي   فإني منهما في الداخلينا
وآل الحاج أنصار كرام   الى أولاد جفنة ينسبونا
أصبرا بعد عبّاد بن بشر   وقوم في الجهاد مجدعينا
بنو العباس ما زالوا كراما   يقتل جمعهم ويصلبونا
الى أن أدركوا ثأرا لقرن   وما أدركتم ثأرا قرونا
الى كم قولكم مستضعفونا   وأنتم للمعاصي فارغونا
أثيروا الغرب قبل قيام عيسى   لعل الله ينعشه سنينا
ويبد لكم مكان الذل عزّا   ودينا غير دين الاعزلينا
ترى للشيب صدا عن دعائي   كأنهم ولائد يفطمونا
وما عمرو بن كلثوم بأوهى   عدى منكم وأكثر ناصرينا
فكم من مومن جلد قوى   أضيع بلاؤه في المومنينا
ترى البطل الشجاع وذات طفل   مملأة الدمالج والبرينا
سواء فى النكاية غير طرف   تروع به قلوب الناظرينا
منعتم من صعالككم دثورا   أو اجرا مثل أجر السابقينا
حذارا من مفارقة الغواني   والأنعام السوائم والبنينا
فساووا في المحبة بين عين   تفارقكم وأخرى توعدونا
بوعد الصدق في جنات عدن   فهل أنتم له بمصدقينا
ولكني رأيتكم جميعا   لحنظلة الغسيل مخالفينا
ورب ملاعب طرفي نهار   من الدارين أبكارا وعونا
أما تدرون كل بني تميم   من الصخر العظيمة يحملونا
ويعجز بعضهم عنها وليسوا   اذا اجتمعوا عليها يعجزونا
كذلك أنتم حيث اجتمعتم   على نصب الخليفة تقدرونا
فينفي ظلم بعضكم لبعض   وبالحد المقام تطهرونا
وينصب حاكما بالعدل يقضي   فلستم بعده تتنازعونا
ويضحى أمركم شورى لديكم   وتتفقون فيما تصنعونا
وتعرض عنكم حسان لمّا   رضيتم ملّة الاسلام دينا
وان لم يعرضوا عنكم رجعتم   على بعض الفرائض حاصلينا
فان شئتم هناك فتمّوها   فان الله عون الصابرينا
والا فليقم منكم خطيب   صريح عن شباه تشنئونا
لتمتثلن أو لاكفرنكم   كحسان الأولاء تكفرونا
وإلا يجد شيئا فلتكونوا   ثلاث طوائف كالسابتينا
لتسلم فرقة وتضل أخرى   وينظر في سكوت الساكتينا

ولست معارضا إنذار جدى ... من اللذكان خيفة أن يكونا(٨)
لأمر باطني حاد عنه ... من أنكره وكل فائزونا

حرض على نصب الامام

محنض بابا بن عبيد

تبليغ كلّ تحية وسلام ... مني الى ذي المحتدين السامي
أهديهما نحو الحبيب محمد ... نجل الشيوخ السادة الاعلام
لن ينسيا ما حال بينك والكرى ... من ذلّ ناصر بيضة الاسلام
قد هالني وأهمّني أن قد غدت ... فقعا بقاع مالها من حام
وغدا لدى المتأهلين لنصرها ... تحريضهم سفها من الأوهام
وتقاصروا عن نصرها لتخاذل ... وتكاسل وتهيب وتحام
وأهم لي من كل ذلك ما أرى ... من ضيعة الأحكام والأحلام
فترى القضاة تجور فيهم خشية ... من لوم لائمها من الأقوام
واذا قضوا يوما على متحاكم ... بالشرع لم ينقد له بزمام
فاذا زجرت مجاهرا عن منكر ... لم ينزجر وهذى بسوء كلام
فتقيهم وصفيهم من لم تقع ... يوما عليه كبائر الاثام
لا ينكرون على سفيه قوله ... ان المقال كما تقول حذام
ويقام طالحهم مقام كرامة ... ويقام صالحهم بشر مقام
قوم أضاعوا دينهم وبغوابه ... دنيا سواهم ملة الأحكام
جعلوا بني حسان أسوتهم فهم ... يقفونهم بالسن والاقدام
وتخلقوا بطباعهم يحجونها ... رتبا على كل الانام نوام
ان الهوان لملة الاسلام ... ينسى الهوان لبيضة الاسلام
أمحمد الأفعال والأقوال بل ... ومحمد الأخوال والأعمام
لا زال سعيك في الأمور موفقا ... يبدو برشد البدء والاتمام
حرض على نصب الامام فانه ... بدوائه يشفي من الأسقام
فرض الجهاد على الانام فريضة ... يعصى اذا تركت جميع الانام
وأرى أخي عند التحقق تركها ... أصلا لذي الأدواء والأسقام
كيف الجهاد وكيف كف محارب ... من معشر فوضى بغير امام
أم كيف يقهر من أبى عن حكمة ... إلّا بسطوة ناصر الحكام
فلعا لكم يا معشري من عثرة ... عمت على الآفاق بالاظلام
أنتم «تشمش» المهتدى بمناركم ... ما ان لكم في الامر قط مسام
قوموا لهذا الدين وابنوا ما وهى ... بتطاول الأيام والأعوام

درست منازل دينكم حتى وهت ... لم يبق منها اليوم غير أسام
درست فآن لكم اذن تجديدها ... بمجدد حلف التقى مقدام
لا يختشي في الله لومة لائم ... ذي خبرة بالرأي والأحكام
فاغدوا على نصب الامام بقرعة ... وأبغوا بذاك نصيحة الاسلام
هذي نصيحة من بها يبغي غدا ... من ربه زلفى وحسن مقام

من لي بهم؟؟

الفغ سيدي أحمد العلوي

أمر تنوسي غابر الايام ... خلف المحلة ما له من حام
أمسى وقد رفع البغاة طموسه ... وأذلّ أهل الفضل والأحلام
يدعو له بدر الهداة محمد ... ومحمد حرصا على الاسلام
تجديد دين الحق بعد دروسه ... وشروعه المشهورة الاعلام
لدعوتما للعز والمجد الذي ... يعلو به دين النبي السامي
واهاله حزما وعزما لو رأى ... قوما عن أمر الحق غير نيام
قوما يبيعون النفوس لربهم ... بشهادة تنجي من الاثام
أو يرجعون لأهلهم بغنيمة ... أو يرجعون بنيل أمر نام
قد صدقوا قول الرسول ووعده ... وتكفل الرحمن بالاكرام
قوما يرون البر أنفس مالهم ... ويرون هذا العرض غير مدام
عضوا على الدين القويم فأصبحوا ... لم يشغلوا عنه بجمع حطام
نظروا العواقب في الأمور وقدروا ... ما غيرها حلما من الأحلام
لا يرتضون ضياع دينهم اذا ... ما أصلحوا دنياهم بالذام
بذلوا نفوسهم لنصر الدين لا ... في جمع مال في البغاة حرام
من لي بهم؟ من لي بهم؟ من لي بهم؟ ... يا ليتهم يلقون في ذا العام
أمحمدا ومحمدا لا زلتما ... بحرين كلكما خضم طام
لله دركما اسعيا ولتجهدا ... في نصر دينكما لنصب امام
حكم مراع للحقوق مهذب ... في الله لا يخشى أذى اللوام
ان كان من قوم النبي فنعمها ... أو لا فذو عدل من الحكام
لا تجعلا ما قلتما قولا بلا ... فعل لكي لا تأتيا بملام
ولتنبذا ما كان شغلا شاغلا ... حتى تعزز ملة الاسلام
حضا «تشمش» على الجهاد فانهم ... قوم لهم جلد على الأقوام
ثم اندبا من ينتمي للدين من ... غرر الزوايا من ذوي الابرام
فحر اذا استنجدتما أن تنجدا ... ويطاع أمركما مدى الأيام
فلكم مجيب مسعد منا اذا ... ناديتما من للجهاد محام

لسنا ننافسكم اذا في أمره … لكن نحالفكم على الاقدام
لا يستقيم الدين دون مؤمر … تأبى زواجره على الاجرام
ينهى الغواة اذا بغوا ويردهم … قسرا بحد الصارم الصّمصام
ويعز أهل الدين والعلم الأولى … يجلى بهم في الأرض كل ظلام
فابغوه محمود الخصال مبرّأ … من وهم حظ النفس أخبث ذام
ثم اتبعوه وبايعوه الى الذي … نزل الكتاب به من الأحكام
إلّا يكن في قطركم من هكذا … فلقد يقام الدين بالظلام
ثم الصلاة على النبي وآله … أهل الهدى وصحابه الأعلام

حماة الدين

سيدي محمد بن الشيخ سيديا

رويدك إنني شبهت دارا … على أمثالها تقف المهارى
تأمل صاح هاتيك الروابي … وذاك التل أحسبه «أنارا»
وتان الرملتان هما «ذواتا … عليان» وذا «خط الشقارى»
وان تنجد رأيت بلا مثال … جماهير «الكناوين» الكبارا
هنالك لا تدع منهن رسما … بدا إلّا مررت به مرارا
ولا تقبل لعين في رباها … تصون دموعها الا انهمارا
وذْرِبين «الميامين» العوالي … فان على معاهدها المدارا
اذا كنت الوفي فعلت هذا … فراعيت الذمامة والجوارا
والإخلني، وخلاك ذم … فان لدي أحداقا غزارا
وقدني من اعانتك انتظاري … أنيا ريثما أبكي الديارا
وان كنت الخلي ولا وفاء … لديك فتستطيع لي انتظارا
فبله اللوم، ثم اليك عني … فلا ضررا أريد ولا ضرارا
ولا عار عليك فأنت مرء … ترديت السكينة والوقارا
ولكنا رجال الحب قوم … تهيج ربا الديار لنا ادكارا
ترى كل الهوى حسنا علينا … اذا ما الجاهلون رأوه عارا
وأحرار النفوس نذوب شوقا … فنأتي كلما نأتي اضطرارا
ومن يأتي الامور على اضطرار … فليس كمثل آتيها اختيارا
ترانا عاكفين على المغاني … لفرط الشوق نندبها حيارى
أسارى لوعة وأسى ننادي … وما يغني النداء عن الأسارى
ولو في المسلمين اليوم حر … يفك الأسر أو يحمي النمارا
لفكوا دينهم وحموه لما … أراد الكافرون به الصغارا

حماة الدين إن الدين صارا … أسيرا للصوص وللنصارى
فان بادرتموه تداركوه … وإلا يسبق السيف البدارا
بأن تستنصروا مولى نصيرا … لمن والى من طلب انتصارا
مجيبا دعوة الداعي مجيرا … من الأسواء كل من استجارا
وأن تستنفروا جمعا لهاما … تغص به السباسب والصحارى
تمر على الاماعز والثنايا … قنابله فتتركها غبارا
تنى ربد النعام بحافتيه … وتعيي دون معظمه الحبارى
يلوح زهاؤه لك من بعيد … كما رفع العساقيل الحرارا
تخال سلاحه شهبا تهاوى … وتحسب ليله النقع المثارا
ولو لا النقع ان يلمع بليل … لصور ضوءه الليل النهارا
بكل طليعة شهباء تبدي … اذا طلعت من الصدإ اخضرارا
وتخفق فوقها بالنصر راي … فتحسبها بها روضا أنارا
وفتيانا يرون الضم صابا … وطعم الموت خرطوما عقارا
أحبوا الملة البيضا فكانوا … عليها من مراودها غيارى
سطاة فوق متني كل ساط … قليل من ينال له عذارا
بما يحويه من وصف حميد … على أحزان فارسه أغارا
وسلهبة مفاصلها ظماء … قوائمها رواء لا تجارى
عليها من محاسنها شهود … على أن لا تباع ولا تعارا
بأيديهم مذربة طوال … ترى الأقران أعمارا قصارا
وبيض مرهفات جردوها … وردّوها من العلق احمرارا
تفرّى الاهب قبل الضرب عنها … ولا عظم يفل لها غرارا
وكل أخى فمين أبى اعتدالا … وتقويما عن الغرض ازورارا
مسلّ شطيبة في المتن منه … الى تسديد شارته أشارا
حذاه بكالهلال موشحوه … بكالجوزاء صوغا وازدهارا
بوشي حبروه وأودعوه … تصاويرا ترى فيها اعتبارا
من العدد الالي آلى «سماك» … بروح الله عيسى لن تبارى(٩)
تلظى النار في الكانون منه … اذا ما صافح الزند الشفارا
وليس لناره شرر ترى ما … به إلا الموقعة الحرارا
جموعا تنطح الأعداء جهرا … فتتركهم جديما أو وبارا
جموعا لا يقوم لها مناو … ولا يخشى الصديق لها مغارا
تصوب على بلاد السلم غيثا … وتوقد في بلاد الحرب نارا
بنصر الله واثقة يقينا … فلا تدري من الخلق الحذارا
لها اعلاء كلمته مرام … فلا غنما تروم ولا افتخارا
فمن يك هكذا يحي حميدا … ويستحلي بموطنه القرارا

ومن لا فالممات به جدير ... ولو للنار بعد الموت صارا
فيا للمسلمين لها أمورا ... لها الأكباد تنفطر انفطارا
تهاونتم بموقعها وما ان ... تهاونتم بها الا اغترارا
لصوص لا تخاف البأس منكم ... ولا العقبى فترضى أن تدارى
ولا ينجو مقيم من أذاهم ... ولا ابن تنائف اتخذ السفارا
ولا شيب عكوف في المصلى ... ولا عون النساء ولا العذارى
فبينا الحي خيم ذا طلال ... تبوأ من فسيح الأرض دارا
بساحته محافل حافلات ... بأشياخ مهذبة طهارى
وكل فتى يجر الذيل تيها ... وتفتر الملاح له افترارا
إلى نسب لهم بلغوا ادعاء ... به أنواء حمير أو نزارا
الى أن يبصروا شعثا كساهم ... لباس الجوع والخوف اغبرارا
رعاء الشاء حتّا من رآهم ... يقول : هم الرعاء، وما تمارى
هنالك لا ترى شيئا نفيسا ... ولا مستهجنا الا موارى
ولم يك قدر لمح الطرف إلّا ... وقد سلبوا العمامة والخمارا
أجدكم بذا يرضى كريم ... وهل حر يطيق له اصطبارا
وروم عاينوا في الدين ضعفا ... فراموا كل ما راموا اختبارا
فان أنتم سعيتم وانتدبتم ... برغم منهم ازدجروا ازدجارا
وان أنتم تكاسلتم وخمتم ... برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فالفوكم كما يبغون فوضى ... حيارى لا انتداب ولا ائتمارا
وما ظنوا لعظم جابروه ... كسارى بعد هيضته انجبارا
وقالوا ان للفرص انتهازا ... وثاروا كي ينالوا منه ثارا
ولم أعرف وسوف ترون عما ... قليل ليل صبحكم استنارا
مها حور المدامع عاطفات ... تخوض بها القراقير البحارا
اذا التفتت لجانبها تلافت ... حذار الموت لوحا أو دسارا
لئن كانت مراكبها المهارى ... وان كان مراودها القفارا
تلطمها العلوج على خدود ... كسا ألوانها الفزع اصفرارا
يدرن لهم عيونا حائرات ... يغرّق فيض عبرتها احورارا
فلا هم يرحمون لها بكاء ... ولا يخشون أن تجد اقتدارا
وحلوها خلاخل من قيود ... وقد كانت لجينا أو نضارا
وأغلالا بأجياد وأيد ... تعودت القلادة والسوارا
تكلفها بنات الروم قسرا ... بخدمتها رواحا وابتكارا
وكانت كلما مشت الهوينا ... لكسر البيت تنبهر انبهارا
فيشددن الحبال بكل خصر ... رقيق الريط كان له ازارا
ويحملن الجذوع على رؤوس ... غدائرها تضل بها المدارى

وتكره للذي كانت تراه ... حلالا وهي طائعة شنارا
فيا للمسلمين لما دهاكم ... الى كم لا تردون الحوارا
أجيبوا داعي المولى تعالى ... أو اعتذروا ولن تجدوا اعتذارا
أجيبوه بدنياكم تعزوا ... وتدخروا من الاجر ادخارا
فاحدى الحسنيين لكم أعدت ... حمالة قادر حاز اليسارا
بجنة اشترى منكم نفوسا ... وما لا يا ربا حكم نجارا
وهذا ما أشرت به عليكم ... ولو لم تجعلوني مستشارا
فان أنتم توليتم فحسبي ... وجارى الله نعم الله جارا
ومن يك جاره المولى تعالى ... كفاه فلن يضام ولن يضارا
وربي شاهد وكفى شهيدا ... به أني دعوتكم جهارا
وكم من ناصح قبلي دعاكم ... جهارا بعدما يدعو سرارا
وكل حين يدعو لم يزدكم ... دوام دعائه الا فرارا
فرب اغفر لنا ولوالدينا ... ومن جعلوا هداك لهم منارا
وزدنا ملة الاسلام عزا ... ولا تزد العدى الا تبارا
وصل على الذي حازت قريش ... بنسبته الزعامة والفخارا
الى آل وصحب معه قاموا ... وساروا حيث قام وحيث سارا
خذوها من بنات الفكر بكرا ... تغير الغانيات ولن تغارا
لها عن رائد الافهام خدر ... حماها قبل هذا أن تزارا

أيها المسلمون شدوا عليهم

جدود بن اكتوشني

هل ترى أربعا بساحة «زارا» ... هجن للقلب لوعة وادكارا
هجن شوقي فبت حلف هموم ... لا أذوق الرقاد الاغرارا
أربع كن معهدا للغواني ... وفتي تناشدوا الاشعارا
فمحا الدهر آيها فاستحالت ... كزبور ترى به أسطارا
ظلت أستنبيء الربوع عساها ... بعد لأي تحدث الاخبارا
فسقى الله قاعها ورباها ... من حيا المزن ديمة مدارارا
أسبل الدمع من جفوني نهرا ... نكر حي كانوا بمربع «زارا»
حمل القلب مذ تحمل عني ... من أسى الهم ما يعز اصطبارا
قوضوا للرحيل مسيا بيوتا ... أعتدت للنوى خفاقا صغارا
فاستقلت بهم صباحا جمال ... بازلات تؤم «هضب الحبارى»
حدن عن حقف «ذا النصيف» عشيا ... وألمت «بالتوأمين» نهارا
وسرت تخبط الظلام «لفاي» ... تارة عن يمينها ويسارا

فأتته والصبح أسفر عنها   والدجى أزورّ عن سناه ازورارا
فألمت «بذات أمن» وسارت   تعسف الوعر والتلال الكبارا
فأنيخت بذي «الحبارى» فألقت   بعصا السير لا تريد سفارا
ما لذا الهم ليس يعزب عني   كلما خلت أن يغيب استدارا
ألخسف به الشريعة سيمت   فانمحي الحق والضلال استنارا
كلما عاب منكرا من رآه   ظن عن مهيع الشريعة جارا
يالاهل الهدى لعز هداهم   من جهول يفر منه نفارا
حاصر المسلمين جند النصارى   بيد الله أن يزيل الحصارا
ويبير العدى وينصر قوما   أكثرت فيها النصارى البوارا
فلقد قامت القيامة فيهم   ولقوا من أذى الحصار كثارا
فترى الناس في الحصار سكارى   لا لعمري وما هم بسكارى
أثخنوهم وأوثقوا وأغاروا   ربّ فانصرهم على من أغارا
وسبوا منهم النساء الغواني   والأيامي واستعبدوا الاحرارا
أيها المسلمون شدوا عليهم   وانزلوا «الزير» وانزلوا «كنارا»
سارعوا للجهاد بعد التواني   واجعلوا خشية الاله شعارا
فاتقوا الله ما استطعتم وكونوا   اخوة في التقى وفكوا الاسارى
واستعينوا بالله في كل أمر   وتواصوا بالجار واحموا الذمارا
جاهدوا في الاله حق جهاد   ولتكونوا لربكم أنصارا
وانفروا للوغى خفافا ثقالا   لا يثبّطكم اللعين اغترارا
لا تخونوا امامكم وانصروه   ان في خونه لذلا وعارا
قد دعاكم فلم يزدكم دعاه   لجهاد العدو الا فرارا
طالما حاول الجهاد وحيدا   أوحيد يروم فتح النصارى؟
فانصروه ينصركم الله طرا   واقتلوا المشركين والفجارا
يا «حبيبا» أو جف عليهم بخيل   وبرجل يهدم الامصارا(١٠)
صابروا واصبروا على الجهاد وشبوا   لحروب العدى الكثيرين نارا
رابطوهم بكل ثغر مخوف   بعناجيج شزبا ومهارا
وأعدوا من القوى ما استطعتم   واشتروا الخيل والقلاص المهارا
قلص «شدقمية» لا تبارى   تصل السير ليلها والنهارا
أو «بنات الجديل» كوم ذراها   أمنا كالقصور هوجا عشارا
لا تشكى الكلال، من برح وخد   بالغ الجهد تنجل الاحجارا
لا يباري زفيفهن هجف   جافل لويشا المطير لطارا
أو خنوف من وحش «وجرة» جون   ضل عن سربه بليل فحارا
بات يربا على المرابئ خوفا   ثم يجري حتى يثير الغبارا
فاستفزته بالصباح كلاب   ضاريات ينشنه اين سارا

فغدا يعسف الحزون دريرا   كلما أدركته جدّ وخارا
فتمطرن واطلبن قفاه   طمعا في ادراكه فأغارا
لاحها طرده فأقصرن عنه   فطوى الشأو واستمدّ الفرارا
فتساقطن بالظلال لغوبا   عاويات تشكو الطّوى والاوارا
أبن حسرى بعد النشاط، فكاب   أو جريح من التراب توارى
قاتلوهم ينصركم الله ربي   ان ربي ليخذل الكفارا
يعلم الله أن فيكم لضعفا   فيقوي ضعيفكم حيث صارا
يقذف الرعب في قلوب عداكم   لا تظن النجاة الا الفرارا
لا تعينوا بالعلك حزب الأعادي   أتعينون آثما كفارا
فاقطعوا عنهم الشراء حذارا   أن يصروا على الأذى اصرارا
فاذا ما اعنتموهم أساؤوا   وأصروا واستكبروا استكبارا
ما لكم ليس فيكم من سلاح   للعدى ما عدا سلاح الحبارى
فخذوا النبل والرّماح وراموا   والمذى العصل والعصى الكبارا
وسيوفا صوارما ليس تنبو   ورعودا تقصّر الأعمارا
لا تكونوا بآخر الدهر عزلا   من يكن أعزلا يكون حمارا
فلئن جرّ للهلاك بأذن   ليس يأبى ولا يطيق انتصارا

...

قاتلوا الكل واحتموا من اذاهم   بحمى الشرع واطلبوا الأوتارا
وأمدّوا أميركم بلهام   ذي عديد تضيق عنه الصحارى
مكفهر كالليل أرعن مجر   يتغنى وينفخ المزمارا
لجب الصوت ليس يخفض رزّا   في دجى الليل مفزعا مذعارا
مرجحن مثل الجبال الرواسي   واسع السرب جحفلا جرارا
فتخر الجبال في الطرق هدا   وترى الصخر ينكسرن انكسارا
وترى الطير فوقه قابضات   موقنات أن سوف يدرك ثارا
وترى الوحش في الرحال أسيرا   لا يطيق الثّوار ان هو نارا
فاذا ما غزوتم أرض حرب   فاهزموا أهلها وهدّوا الديارا
واعبروا البحر في مواخر فلك   أحكم العجم لوحها والدّسارا
غشيت بالرصاص ظهرا لبطن   محكما نسجه وعولي قارا
ليس يخشى ملجّج البحر فيها   غرقا أن طغى عليه وفارا
فلك بالغلان تجري فساعا   صاعدات أو ينحدرن انحدارا
تتغالى والموج يرجف منه   غارب البحر خشية وحذارا
يجذب السفن مرة لشمال   ويمينا يرمي بهن مرارا
صاح إما ترى القتير برأسي   لائحا وخطه يمينا يسارا
وترى الدهر عن عشيري عداني   وتنقلت في القبائل جارا

لبمـا كنت في العشيـر قطينـا　　لست أرضى مذلـــة أو عارا
أصحب الشيخة الامـاثل منهـم　　وذوي العلـم والشبـاب الخيـارا
فترانـــي قريــن كل معـــم　　مخـول طاب محتـدا ونجـارا
حسن الخلـق والطبـاع مفـدى　　عف عينـا ومسمعـا وازارا
كل يوم يباكـــرون نديـــا　　يدرسون الكتـاب والاثـــارا
ينشرون العلـوم فيهـا نهـارا　　ويبيتـون ليلهـم سمـــارا
بين شيخ شهـم الجنـان بليـغ　　ان تحـاوره لا تمـل الحـوارا
فاذا خاض في عويص علـــوم　　مشكـلات أسدى بهـا وأنـــارا
وفتـــى كامل القريحــة يروي　　جيّد الشعـر مطعمـا منحـارا
فلئـن خانهـم زمـان غدور　　فلقـــد كان خائنـــا غدارا
وعلـــى أفضل الانـــام صلاة　　من الهـى تستـوعب الانصارا
تجمع الشمل بعد طول افتراق　　وتحـط الذنـــوب والاوزارا

خـطـب جليـل

بابا بن أحمد بييه

ان من فادح الأمـور الطـوارى　　والكروب العظام أسر «البخاري»
ان أسر «البخاري» خطب جليل　　قد أثـار الهمـوم كل مثـــار
حسرتـي.. حسرتـي عليه امامـا　　صار بين الكفـار حلـف اسار
حسرتـي.. حسرتـي عليه حنيفـا　　قانتـا بيـن أظهـر الكفـــار
أخذتـه قسرا علـوج النصارى　　ولقـد كان منهـم ذا ازورار
أدخلـوه بيـوت نار فأمست　　أشرقت من سنـــاه بالانـــوار
ضيعوا العلم ـ ضيّعوا ـ فبكته　　مقفـلات الحـديث والاثـــار
شتتـوا شمل طالبـي كل علـم　　شتت الله شملهـم بالبـــوار
عمروا من ذوي الحلـوم سفينـا　　عمـرت منهـم بخشب النـــار
يا له من سفيـن مكـر وغـدر　　عذبت فيـه أنـفس الابـــرار
مثل ذا الخطب منه تنفطر الار　　ض ويسود منه وجـه النهـار
قدر نافـذ أصاب.. وهل يغنـــ　　ـــي احتيال من نافـذ الأقـدار

أففي العيش بعد أسر البخاري　　طيب؟.. لا والبيت ذي الاستـار
نفس لا تجزعي فان مع العســـ　　ـــر ليسرين صحّ في الأخبار
ربّ نعمـاء أدمـجت في بلاء　　وبـلاء في مثل نعمـــاء جار
وبـلاء للصالحيـن ارتقـــاء　　فيه من لطـف عالـم الاسرار
فعسى بالايـــاب تذهب عنـــا　　ترحـات الذهـاب ذي الاكـدار

يا معشر الاسلام لا تسالموا

محمـد العـاقب بن مايابــي

مني الى من في حمى «المكبّل»　　من «قرقل» لما وراء «العقل»
أعيذكـم بالله من فضيحـة الـد　　نيـا ومـن رأيكـم المفـيّل
لا تشتــروا دنيّـــة بدينكــم　　لا يرضها غير الدنـيّ الأرذل
ترجـون أمن الكافريـن بعدمـا　　نفـاه نصّ المحكـم المنـزّل
قد أخـذ الله عليهـم عهـــده　　أن يومنـوا بالعربـي المـرسل
فنـــقضوا ميثاقـــه وأنتـــم　　ترجـون منهـم وفـا السّموأل
تالله ما لكافـــر عهـــد ولا　　له ألّيـــــة اذا ما يأتلي
هيهـات أن يومـن كافـر وهل　　ترجو سخال الضّأن أمن الجيئل
فعلهـم في من مضى مهيمـــن　　وواعـظ من قبلـه لم يغـفل
عتـق العبيـد ولـزوم مغـرم　　دنيا وتسخيـر المعـمّ المخـول
والويلة الكبرى طموحهم الى البيـ　　ـض ذوات الغنـج والتـدّلّل
ومـن يحكّـم كافـرا في نفسه　　لا غرو إن باء بشرّ مقـــتل
بل قصة الأسد مع ثيرانـــه　　فيها لهـم ذكـرى وضرب مثل
وعد النصارى كذب وعـد لهـم　　جور وميرهـم وخيـم المـأكل
فالضيّغم الضيغم يا من رام أن　　يسري في الليل البهيم الاليل
وسلمهـم حرب وبـذل مالهـم　　تغلب بالكيـــد والتحـــيّل
والسمّ في جوارهـم وقربهـــم　　ومسلـم بنارهـم لا يصطلـــي
لا يلـدغ المؤمـن مرّتيـن من　　جحـر حديثا سار سيـر المـثل
يا عجبا لحـازم يخشى الـعصى　　ولا يبالـــي بالظبـــى والاسل
يظل لا ينـال أمـــن يومـــه　　وهو يرجي الامن في المستقبل
ومتـرب مخـــوّل ممّـــا يشا　　يرضى بأن يكون بعض الخـول
يا معشر الاسلام لا تسالمـــوا　　فتنشبـوا في كفـــة المحتـــبل
كونوا علـى العـدّو في الله يدا　　ففـــي التنـــازع لزوم الـــفشل

وما على المسكين اثم انما الا … ثم علـى كل عريـف مقـــول
عليكـم الفرقـــان فهـــو فارق … كي لا تضلــوا باتبـــاع السبل
على القويّ كتب الجهـاد لكـــ … ـن هجرة على الضعيف الأعزل
ومـــا لقــــوة السلاح عبــــرة … لا فرق بيـــن صعـــدة ومنصل
وكلتم الديــن الـــى من دونكـم … من اللصوص بيس شأن الــوكل
ان الجهـــــاد ذروة السنــــام لا … يبغى به باغي الهـدى من بدل
هل تكرهون في الجهاد غير احد … ى الحسنييــن : جنـــة أو نفل
كم فيكــــم من عدد وعـــــدد … في الحـرب دأبا بيتها في شغل
من نكل يصول فوق نكل … وجحفل يسطــو أمـام جحـفل
لو حاربوا العـدى كمـا بينهـم … لثلّ عشر الكفـــــر دون مهل
بـل انمـا تكفيهـــم شرذمـــة … لسنـــة الله التــــي لم تحل
ما حارب الله امرؤ الا اكـــتسى … مخافـــة وذلـــة لا تنجلـــى
أسماؤهـم تنبـــيء عن تدميرهـم … فمـا لهـــم لحربنـــا من قبل
خيبتهم في «خـوب» والكبت لَكا … بتيـــن «والتكبيـــل» للمكـــبل
وعدنــــا الله بنصره ومــــا … لكلمـــــات الله من مبــــدل
أمـا المقـــام تحتهـــم فانـــه … بسل باجمـــاع القـــرون الأول
لا تتـــراءى نار مسلـــم وكـــا … فر نهى عن ذاك خيـر مرسل
ومن يوالي الكافريـن فهـــو من … ولايـــــة الله له بمعـــــــزل
ومـــن يكثــــر سواد مشرك … فمنـــه أو يرضى له بعـــمل
وجرحـــة المقيـــم ثم منعـــه … إمامة من الـقضا أمـر جلـي
والعـذر للمستضعفيـن قد أتـى … لكن مع العـزم علـى التنقل
وهـــو مع العـــزم بكل حالـــة … كمقعـــد أو ذي سقـــام معضل
والمـال والاهلـون كلّ منهمـــا … لغو فلا تسمـع لقـول مبـطل
والجـوع والعــطش نزر جلل … في جانب الدين العظيم الــجلل
والجـــور والاسلام في بلادنـــا … خير من العدل مع الكفر الجلي
مصلحة الدين على الدنيا يرى … تقديمها حتمـا مراعـي الافضل
فالسرعـــة السرعـــة قبل أن يهـا … ض العظم أو يقصّ ريش الأجدل
قبل اللحـاق ينفـع الفـــرار لا … من بعده فالحـزم رأي العـجل
كيف خلاص الصيد في افتراسه … من بين أنياب السبنتى العـصل
وان تخافوا عيلـة فالله يغنيكـــ … ـم كمـن لرزقهـا لم تحـمل
والله ضامن لمـــن هاجــر في … سبيلــــه سعـــة عيش مخضل
ضمــــان قادر كريـــم موسر … هو وفـــيّ العهـــد ذو تفضّل
وهـــارب بدينـــه شبـــرا له … في جنة الفـردوس خيـر نزل
فان يمت فضمـــرة سلفـــه … وإهـــا له من راغب ممتـثل

والموت خير للفتـى من مقعـد … بيـن الأفاعـي والأسود الـبسل
وكونـــه تحت خبــيث مشرك … علـج عنيـف أعجـم مستثـقل
منــــتسب لربّـــه مثلث … مجسّم مشبّـــــه معــــــطّل
لا يتقي النجس ولا يستـاك من … خبث ولا يديـن ديـن الـرّسل
يسومـــه سوء العــذاب كلمـا … خالفـــه في نيــــة أو عمل
وان دعـا لبّـى وقـام ماثـــلا … بيـن يديـه مظهـر التـذلل
هذا هو البلاء نرجـو عصمـــة … ممـن يعافـى من يشا ويبتلـى
تأبـى المـروءة لأهلهـا ويـا … بي العقل والشرع بذاك المنـزل
ها انّ ذي نصيحـــة، من ربّنـا … نرجـو قبولهـا، اذا لم تقـبل
صلـى وسلـم علـى محمـــد … وآلــه أهل المقـــام الأكـــمل

دعوة مشفق

ماء العينين بن العتيق

كفى المرء غيّا للغـواة صغـاره … كذا بكبار الاثم تغري صغـاره
ويوشك أن يغشى الحمى الراتع الذي … رعى حوله والجار يعديـه جاره
وأن الرضى بالذنب ذنب. وان يقع … عذاب يعـمّ الفرقتيـــن تبـــاره
ودين الهدى للشرك ضد فمن يرم … مقارنة الضدين يبـدو ابتهـاره
ومن ليس يبدي نصرة الدين مخطيء … فكيف ببـاد للنصارى انـتصاره
وينتاب من والى العدى ما ينوبهم … وتعدوه سيما المهتـدي ووقـاره
فيا إخوة الايمان، دعوة مشفق … نصوح دجا مما دهاكـم نهـاره
الا هل لدين الله منكـم مشيّـد … فقد كاد أن ينقضّ أصلا جداره
أبعتـم بدنيـا دينكـم واعتصمتم … بحبل من الشيطـان واه مغـاره
جعلتـم سبيـلا للعـدو عليكـم … فلـم يعدكـم توهينـه واحتقـاره
وديدنـه يسرى اليكـم ودينـه … وبـاق عليكـم عاره وشنـاره
فلو في أولـى القربى مظنة ذلة … لكان حر بالحـرّ منهـم نفـاره
فكيف بدار المسلم الحر عاصيا … ذليـلا الـى الأعـداء بئس بداره
فمن يرض ذا منكم لخفض معيشة … ففي الناس أولى خفضه وانحداره
ومن ينظر الطاغوت نظرة آمل … فللنظر المأمول كيـف انتظـاره
أما لكم في محكم الذكر زاجر … وبالذكر من لم ينزجر ما ازدجاره
فتالى ولن ترضى ومن يتولهم … وان يثقفوكـم أيـن عنهـاازوراره
وقاريء قل ان كان آباؤكم ومن … يهاجر بأرض الكفر كيف مزاره

وسامع آيات الجهاد وما دعت   له من فلاح كيف عنه اصطباره
الى غير ذا مما به النور صادع   من الوعظ ذكرى للمرجيّ اذكاره
وهلا ائتسيتم بالرسول وذا دكم   عن أيدي العدى أبعاده وانتهاره
أواليتـــم ويكـــم عداه وان في   تولي العدى ما ليس يخفي كباره
ألم تذكروا ما من جهاد وهجرة   شرائعـه تجلوهمـا وشعـاره
إذ أخرجــه الكفــار والله ناصر   واذ يحتويـه ثانـي اثنيـن غاره
واذ جاهدوا في الله حق جهـاده   وليل الهوى والشرك يدجو اعتكاره
واذ هاجرت نحو النجاشي صحبه   وطيبة حيث الشرع يعلو منـاره
فأضحى بهم نور الهداية واضحا   سنـاه يعـمّ الخافقيـن انـتشاره
بنقص من الاموال والانفس ابتلوا   والاثمار والايمـان تنمـو ثمـاره
وبالجوع والخوف امتحانا فلم يزد   فتى منهم غير اليقين اختبـاره
عدى الله عادوهـا فهـو وليهـم   وشتان ما جار الاعادي وجـاره
أولئك أعلام الهدى لمن اهتدى   وحسب ولـيّ التّابريـن تبـاره
ومن لم يكن في شرعة الحق عبرة   له فليكن في الغابريـن اعتبـاره
من الفرق اللاتي احتوى الروم ليتها   فحاق بها الخزي المبين خساره
فلم يرم الرومي بالكيد رائمـا   طموس هداهم ما استبان انحساره
الى من بدا بالفكر والقهر آيـة   فأمسى ظلاما في القلوب نيـاره
وكانوا لأفاكين أسرى بأسرهـم   فمـا غيـر أفـاك يفك إساره
لاسرارهم ذات السّوار ومن أبى   يصيـر من قيـد الحديـد سواره
وفي البيع الولدان يتلون قسّهم   تباعـة مقتـاد القطـار قطـاره
وتستعبد العبدان سادتها بهـم   فأحقر من في الحيّ فيهم خياره
ومن رام عند القاسط القسط ضلّة   تبدّى لعمـري خبلـه واغتـراره
أحفظ الضروريات يسطاع تحته   وفي حفظهـا إحفاظـه وضراره
فمن ذا يقيم الدين في حكم مشرك   فينفذ ما فيه اقـتضاه انتظـاره
ومن صان من يوتى المعادى نفسه   اسيرا فأنـى تومـن الهـزّ فاره
ولا عقل للمهتـوم ممـا ينيلـه   رضى البوهة الضل الكفور افتكاره
ومن ليس يحمي من مناويه نفسه   على أيّ حال منه تحمى ذماره
ولا مال معصور بذمـة كافـر   بقبضته مهمـا أريـد اعتصاره
وليس نقيّ العرض من ليس معرضا   عن النـجسي المعتريـه عواره
فمن يستطع من بلدة الكفر هجرة   ويدبر ففي الادبار عنها دبـاره
ولم تنقطع، والعرض بالفتح ساقط   ولا قيد حيث الكفر يحبو استعاره
كما كان في أمّ القرى بعد فتحها   وذا غير خاف في الحديث اشتهاره
ولا عذر في الاهلين والمال انّ ذا   بجنب اعتبار الدين يلغى اعتباره
فمدركه في هجرة الموت سالم   ولو كان حيا في الثـواء بواره

ويخشى على الانسان يبقى مجاورا   اذا مات من يرضيه حيا جواره
فيا عجبا من مدّع ملة الهـدى   وبين ديـار المشركيـن ديـاره
وأحكامهم تجـرى عليـه وأمـره   علـى ترة الأهـواء منهـم مداره
فلو كان في دعواه الاسلام صادقا   لكان مقيمـا حيث تحويـه داره
فقد بريء المختار من كل مسلم   ترى بين ظهران العلوج قـاره
وإيّـاه ينهـى أن يقيـم ببلـدة   تراءى بهـا نار العـداة ونـاره
فما بال من يسعى اليهم مهانة   ليرمـى بلا عذر اليهـم عذاره
يسرون حسوا في ارتغاء لدينـه   وينسيه يوم الديـن فيهـم يساره
عن الهجرة الدينية الضعف يدّعى   وان تك للدنيـا تبـدّى اقتـداره
وخاطـره لم ينـكسر لخطيئـة   وان أخطأ المالوف يلفى انكساره
يرى الفقر في دار القيّامة هيّنا   اذا قل في دار الغرور افتقـاره
وليس بتجـر لا يبـور مباليـا   اذا لم يبر في البائريـن تجـاره
وللمعتديـن اعتـاد دون ضرورة   ولم يدعه للمهتديـن اضطـراره
وبالمشرك العشار يرضى بطانة   لتلفـى بطانـا شولـه وعشاره
وقد صيّرته صائر العنق في رضى   كفـور النصارى أرضه وعقـاره
وعن نضرة التنعيم في العرض عارض   لدان لهـــاه عرضه ونضاره
ويزهوه عن منحى ذوي الحق ان لدى   ذوي الزهو تزهو بكره وبكـاره
يخال الغنى المغتر في مستقرّهم   ولا شيء شاء المستقـر وقـاره
وخلف العدى ان درّ لا درّ درّه   فعمّـا قريب يستبـان غراره
وذو العقل لا يخفاه ما يضمرونه   ولا الوعد منهم يزدهيه ضمـاره
وذو الدين تنهاه المروءة والتقّى   وينهى كريم الأصل عنهم نجاره
وطبع أبيّ النفس يأنف منهـم   ويمنع منهم ذا الفخار افتخـاره
ولا تأل جهدا في الجهاد ومن جلت   معـاذره فلينـأ عنهـم مزاره
فما العذر في نبذ الجهاد لقادر   فلـو خذلتـه النـاس فالله جاره
فلا تنس ثأر الدين ممن أماتـه   فللديـن أولـى ما تطلب ثاره
ولـم يكـن إلّا بالجهـاد بقـاؤه   وما فيه غيظ المعتدي ودمـاره
ومن أين يرضى الله من جل همه   اذا كان عنه راضيا «جلناره»(١١)
فياجيرة العادي استندتم لركنـه   وذا وسمـه باد عليكـم ونـاره
ركنتم لمن تأسيس أركانه على   شفا جرف في النار ينهار هاره
هي العروة الوثقى فمن تاب مخلصا   الى الله يرجـى أن يقل عثـاره
ومن يعتذر للناس يوما بباطل   فلله يوم الفصل كيف اعتذاره؟
هنيئا لمولانا الامـام فكـم غزا   وشنّ على الشرك الاغارة عاره(١٢)
بكل هزبر في السبيل مجاهـد   تعاطيـه تيـه المنتجـى وقفـاره
على كل نهـد شيظمـيّ مقتص   أقبّ سبـوح لا يشق غبـاره

هوامش وتعليقات الباب الخامس

(*) لم يعتد الشعراء قديما عنونة قصائدهم، وانما اتبعنا في العنونة سنن المتأخرين.

(١) انظر على سبيل المثال رسالتي :

ـ عثمان بن محمد فال : جدلية السيف والقلم، دراسة في الشعر الحربي الموريتاني خلال القرن ١٣ هـ

ـ المختار بن أحمد : الشعر السياسي الاصلاحي الموريتاني في القرن ١٣ هـ.

(٢) «الزير» و«كنار» مواقع جغرافية في جنوب البلاد.

(٣) وقعت أحداث من هذا القبيل في عهود التجارة الأوروبية فقد اختطف أمير لبراكنة المختار بن سيدي كما أشرنا الى ذلك في محله من باب الجهاد.

وتقول الروايات الشعبية أن بعض رجال الصحراء كانوا قد أسروا أحد الفرنسيين، فبقي في البلاد ثم كان من ذريته عشير كبير بها. وأن الفرنسيين أسروا بالمقابل بعض «البياضين» واحتملوهم عبر البحر الى بلادهم.

(٤) الكلمات الواردة في القصائد بين مزدوجين هي أعلام جغرافية أو بشرية.

(٥) «تشمشه» مجموعة قبلية من الزوايا، منها ناصر الدين قادت حركة «شرببه» وقد تناولنا شأنها في مواقع متفرقة وخصوصا في باب الجهاد (مشروع الدولة الراشدة).

(٦) الاحلاف والمطيبون احالة الى واقعة تاريخية، فقد رغب بنو عبد مناف (قبل الاسلام) أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية. فأبوا عليهم ذلك، فتعاقد كل قوم حلفا على ما يريدون، فغمس المنافيون أيديهم في الطيب ومسحوها بالكعبة فسموا «المطيبين»، بينما سمي بنو عبد الدار «الأحلاف».

(٧) المنجنون الدولاب يسقى عليه. وفيه اشارة الى قول الشاعر :

ومـــا الدهـــر الا منجنونـــا لأهلـــه ومـــا صاحب الحاجـــات الا معذبـــا

(٨) يشير الى ما هو معلوم من معارضة بارك الله بن يزيد لحركة ناصر الدين.

(٩) اشارة الى أن هذه الاسلحة من صنع فرنسي، فـ «سماك» علم على نصراني عندهم. وكانوا يشترون السلاح من الفرنسيين على الحدود في السنغال أو على مراكز التجارة في المحيط الأطلسي.

(١٠) يخاطب محمد الحبيب، أمير الترارزة، الذي كان يخوض الحرب في أواسط القرن ١٩ ضد الفرنسيين، المنطلقين من السنغال.

(١١) تحريف لكلمة «جنرال»، الفرنسية، المعربة عن رتبة عسكرية سامية.

(١٢) يهنىء الشيخ ماء العينين قائده في الجهاد وشيخه في التربية الصوفية.

الباب السادس

حاضر المحاضر وآفاق مستقبلها

المحاضر حية

المحاضر تحتضر

هل من سبيل لحماية المحضرة

الفصل الأول

حاضر المحاضر

١ ـ المحاضر حية

لا تتوفر الدولة الموريتانية حتى الآن على معطيات احصائية دقيقة حول محاضر البلاد، رغم جهود بذلتها في هذا السبيل.

فقد أنجزت تحقيقات جزئية في بعض مناطق البلاد، وعلى فترات متفاوتة، سمحت باحصاء بعض مدارس القرآن والمحاضر العليا واحصاء التلاميذ والطلبة أحيانا. لكن الأرقام التي أسفرت عنها التحقيقات تبدو متضاربة، غير دقيقة عند امعان النظر.

ففي سنة ١٩٧٣ أجرت ادارة الشؤون الدينية تحقيقا حول المحاضر في «٥» ولايات (من أصل «١٣» ولاية) تضم نحو نصف السكان هي : ولايات الحوض الشرقي والحوض الغربي والعصابة وغورغول والبراكنة.

ووصلت الادارة الى الارقام التالية :

- ١٠٧ محضرة
- ٣٥٠٠ الى ٥٠٠٠ طالب بمعدل ٣٦ طالبا للمحضرة الواحدة.

وتتوزع هذه المحاضر بين الفئات العمرية على النحو التالي :

أ ـ ٥٣ محضرة لأطفال دون العاشرة،
ب ـ ٢٢ محضرة يرتادها تلاميذ تتراوح أعمارهم بين ١٠ و٢٠ سنة،
ج ـ ٤٦ محضرة لمن تجاوزت سنهم العشرين.

وحاصل هذه الأرقام ١١١ بدل ١٠٧، فليتأمل.. وتشير الفئات العمرية عادة الى المستويات الدراسية، فالمجموعة (أ) ليست محاضر بالمعنى الصحيح، بل هي كتاتيب تحفظ القرآن عادة والمجموعة (ب) هي محاضر متوسطة والمجموعة (ج) هي محاضر عليا تلقن المتون الكبرى و«المتمات».

وفي احصاء قام به الخبير الدولي لكرتوا Le Courtois لصالح مشروع تطوير التعليم التقليدي، في الولايات الخمس ذاتها، ونشر نتائجه سنة ١٩٧٨، نجد الأرقام التالية :

- ٥٠٠ محضرة
- ١٠,٥٣٣ طالب.

وتتوزع هذه المحاضر بين المستويات الدراسية على النحو التالي :

- مستوى ابتدائي : ٣٣٠ محضرة أو مدرسة قرآنية
- مستوى متوسط : ١٠٠ محضرة
- مستوى عال : ٧٠ محضرة

تثير أرقام الاحصائين بعض الملاحظات :

١ ـ هناك فرق كبير بين معطيات الاحصائين (١٠٧ ـ ٥٠٠)! رغم أنهما أنجزا في نفس العقد. وحسبك أن (١٠٧) التي تمثل مجموع المحاضر في الاحصاء الأول لا تكاد تتجاوز عدد المحاضر المتوسطة ولا تبلغ ثلث المحاضر الابتدائية في الأحصاء الثاني.

٢ ـ ليس هناك ما يمنع ازدياد الفئة الأولى من المحاضر (مدارس القرآن) بمرور الزمن، فالواقع أنها تزداد بازدياد عدد الأطفال، ولا تكاد تتأثر بمتغيرات العصر، ولكن الفرق مذهل لا تستوعبه سنوات معدودات (٥٣ ـ ٣٣٠)، والحق أن الرقم (٥٣) غير معقول في ذاته بالنظر البسيط الى واقع التعليم القرآني.

أما الفئتان الاخريان فازديادهما، وخصوصا المحاضر العليا، أمر غير طبيعي ولا معهود في سنوات الجفاف العصيب والمدنية الهوجاء، فالمألوف أن تظل المحاضر في تناقص سنة بعد سنة، بينما تظهر المقارنة بين الاحصاءين تطورا بينا في الأعداد :

- المحاضر المتوسطة من ٢٢ الى ١٠٠
- المحاضر العليا من ٤٦ الى ٧٠.

٣ ـ العادة أن يسير عدد المحاضر في خط معاكس لتطور مستوياتها الدراسية، فالكتاتيب هي الأكثر دائما تليها المحاضر المتوسطة ثم تأتي المحاضر العليا في المرتبة الدنيا عددا.

وقد جاء الاحصاء الثاني منسجما مع هذا الترتيب، بينما جعل الاحصاء الاول عدد المحاضر العليا أكثر من عدد المحاضر المتوسطة. وقد يشفع لهذه الزيادة كون المحاضر العليا تقدم التعليم المتوسط الى جانب التعليم العالي.

٤ ـ انطلاقا مما سبق، ولضآلة أرقام الاحصاء الأول قياسا الى ما هو معلوم بالنظر البسيط في واقع الحياة الثقافية في المناطق المدروسة، يبدو أن أرقام هذا الاحصاء بعيدة من الدقة. وقد لا تكون أرقام الاحصاء الثاني دقيقة ولكنها أوجه وأشبه من سابقتها.

وينبغي أن نذكر بأن موسمية عدد كبير من المحاضر تقف عائقا دون تدقيق الاحصاء سواء من حيث عدد الطلبة، الذين يقلون ويكثرون حسب المواسم والفترات أم من حيث عدد المؤسسات التي يرتبط نشاطها أحيانا كثيرة بحضور شيوخها. وقد يتغيب الشيخ فتتعطل الدراسة الى أن يعود.

وكذلك فان المحاضر التي لا يرتادها طلبة آفاقيون قد لا تثير كبير انتباه.

وها هي جداول الاحصاء الثاني مفصلة[1].

١ ـ منطقة النعمه (الحوض الشرقي)

المستويات	عدد المحاضر	عدد الطلبة
مستوى عال	١٣	٤٠٠
مستوى متوسط	٢٠	٥٢٣
مستوى ابتدائي	٨٥	١٦٠٠
المجموع	١١٨	٢٥٢٣

٢ ـ منطقة العيون (الحوض الغربي)

المستويات	عدد المحاضر	عدد الطلبة
مستوى عال	١٥	١٠٦
مستوى متوسط	٢	٦٧٤
مستوى ابتدائي	٦٠	١١٠٢
المجموع	٧٧	١٨٨٢

٣ ـ منطقة كيفه (العصابة)

المستويات	عدد المحاضر	عدد الطلبة
مستوى عال	٢٠	١٠٥
مستوى متوسط	٣٥	١٠٩٠
مستوى ابتدائي	٧٠	١٦٠٥
المجموع	١٢٥	٢٨٠٠

٤ ـ منطقة كيهيدي (غورغول)

المستويات	عدد المحاضر	عدد الطلبة
مستوى عال	١٣	١٤٠
مستوى متوسط	٢٠	٥٠٤
مستوى ابتدائي	٦٥	١٢٠٠
المجموع	٩٨	١٨٤٤

٥ ـ منطقة ألاق (البراكنة)

المستويات	عدد المحاضر	عدد الطلبة
مستوى عال	٩	١٠١
مستوى متوسط	٢٣	٣٠٣
مستوى ابتدائي	٥٠	١١٠٠
المجموع	٨٢	١٥٠٤

ولعل الاحصاء الوطني للسكان، الذي أنجز سنة ١٩٧٧، يساعد رغم نواقصه على تصحيح تقديرات ادارة الشؤون الدينية ومشروع تطوير التعليم التقليدي، خصوصا فيما يتعلق باعداد الطلبة، لأن الاحصاء يتناول الأفراد وليس المؤسسات.

وبالعودة اليه نلاحظ فرقا كبيرا نستنتج منه أن تقديرات «لكورتوا» جاءت دون الحقيقة، فضلا عن تقديرات ادارة الشؤون الدينية لسنة ١٩٧٣.

فلنأخذ الولايات الخمس التي استعرضنا جداول أرقامها مبرزين الآن تقديرات الاحصاء الوطني :

المنطقة : المستوى الدراسي	الحوض الشرقي	الحوض الغربي	العصابة	غورغول	لبراكنة
ابتدائي قرآني	٦٢,٥٠٩	٤٢,٤٩٢	٢٥,٣٠١	٥٨,٤٣٦	٦٥,٣٥٣
قرآني (حفاظ)	٥,٤٨٣	٥,٧٩١	٥,٨٦٨	٢,٦٥٥	٤,٧٧٧
محضري متوسط	٢,٠٠٢	١,٤٤٩	١,٩٦٤	٥٠٧	١,٦٩٣
محضري عال	٢٢١	١,١١٥	٢,٣٢٠	٣٨١	٢,٣١٨

وهكذا نجد الأرقام الاجمالية التالية لرواد التعليم التقليدي في المناطق الخمس :

الحوض الشرقي	الحوض الغربي	العصابة	غورغول	لبراكنة	المجموع العام
٧٠,٢١٥	٥٠,٨٤٧	٣٥,٤٥٣	٦١,٩٧٩	٧٤,١٤١	٢٩٢,٦٣٥

واذا نظرنا الى مستويات التعليم الأربعة وجدنا الأرقام الاجمالية التالية :

مستوى ابتدائي	قرآني (حفاظ)	محضري متوسط	محضري عال	المجموع العام
٢٥٤,٥٩١	٢٤,٥٧٤	٧,٦١٥	٦,٣٥٥	٢٩٢,٦٣٥

وبديهي أن هذه الأرقام لا تمثل عدد الطلاب الفعليين الذين يزاولون الدراسة أو ان انجاز الاحصاء، وانما تمثل المستفيدين من التعليم التقليدي بما فيهم الذين فرغوا لبعض مهام الحياة الاخرى. ولكن الأرقام كافية لتبرير الاعتقاد بقصور التقديرات السابقة لحالة التعليم التقليدي في المناطق الخمس.

وقد رأينا لكرتوا يقدر العدد الاجمالي لتلاميذ مدارس القرآن في موريتانيا بـ ٤٠,٠٠٠ نسمة، موزعين على ١,٦٠٠ مدرس، أو مدرسة، لكل ٥ ـ ٣٠ تلميذا. والظاهر، بالعودة الى أرقام الاحصاء الوطني أن هذه التقديرات منخفضة، وهي ـ لا شك ـ كذلك.

وسوف نعمد استكمالا للفائدة الى عرض أعداد المستفيدين من التعليم التقليدي في عموم البلاد، حسب تقديرات الاحصاء الوطني، الذي قدر عدد السكان إجمالا بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة.

قرآني (أجزاء من القرآن)	قرآني (الحفاظ)	محضري متوسط	محضري عال	المجموع
٤٩٧,٢٨٢	٥٤,١٢٨	٢٥,٩٣٦	٢٠,٤٢٧	٥٨٨,٥٤١

وفي سنة ١٩٧٩، نشرت وزارة الشؤون الاسلامية أسماء مجموعة من أبرز المحاضر الجامعية الحية بلغ عددها ٥٧ محضرة موزعة بين دوائر البلاد المختلفة.

وهذه أسماء الشخصيات أو الأسر التي تنسب اليها المحاضر المذكورة*.

الحوض الشرقي :

- أهل شيخنا محمد بن سيدي عثمان بولاتة(٢)
- آب بن الطالب عبد الله في باسكنو
- محمد فضل الله آيد في لكطار
- يطول أيامه بن حادين في النعمة
- محمد محفوظ بن دهمد، متنقله
- محمد عبد الوهاب بن دهمد،...
- محمد غلام

الحوض الغربي :

- حماه الله بن سيدي ببكر
- حمود بن المرابط

* صدرت أواخر ١٩٨٦ قائمة جديدة بأسماء مشايخ المحاضر الحية، نوردها في الملاحق.

- عبد الرحمن بن القاسم وأخوه سيد ابراهيم، في مكانت
- سيدي بن الطالب علي البصادي بضواحي تامشكط
- محمد بن حبيب البصادي في سكو
- محفوظ في المصطفى البصادي في لملحيس

العصابه :

- سيدي المختار المسومي في الغرد
- الصحة بن ديدي في غرو
- الناجي بن محمود(٣)
- محمد بن البنى في بامّير
- محمد احيد بن عبد الرحمن في دورات
- الشريف اج بن حبّدي في تامورة المعيز
- محمد بن البخاري بن السباعي في الفيعي
- السالك فال بن الطالب
- احمد بن محمد عبد الله في انضاوض
- آب بن سيدي محمد القلقمي بضواحي باركيول
- سيدي محمد بن الطالب علي

تكـانـت :

- محمد بن عبد القادر في تجكجة
- سيدي عبد الله بن خيري
- بدين بن عبد الرحمن في نواشيد
- محمد بن المرابط عبد الفتاح في لتفتار
- الحاج بن فحف في دلّاك

البراكنة :

- محمد الحسن بن محمد فال
- محمد يحيى بن المنجي
- محمد البشير با في بوغي

الترارزة :

- آل عبد الودود
- آل عدود

- آل محمد سالم بن آلما
- عبد الله بن داداه (خلفه فيها يحيى بن سيدي المختار بن الشيخ سيديا)(٤)
- محمد عالي بن فتى(٥)
- اباه بن عبد الله
- عبد الحي بن التاب
- المختار باب الحاجي
- أهل احويب الله
- محمد فاضل بن افاه
- أحمد بن محمذ فال
- محمد الأمين بن الداه(٦)

غورغول :

- الحاج محمد ببكر(٧) بكهيدي
- الحاج نين، أحمد بن عبد الله(٨)
- محمد بن أوبليف بمونغل
- محمد سالم بن الامام اللمتوني
- محمد شيخنا بن اباه بن محمد الأمين

اينشيري :

- محمد الأمين بن حمد الله
- محمد الأمين ابن أبوه
- النات بن عبد القادر

آدرار :

- محمد الأمين بن أحمد بن البشير في أطار
- منّ بن الشيخ بن حامني في شنقيط
- آل بوي في ودان

نـواذيبو :

- محمد بن امات

نواكشوط :

- ـ الامام بداه بن البصيري
- ـ محمد الأمين بن الحسن(٩)

وقد قدم لكرتوا أرقاما ومعطيات عن الطلبة الذين يرتادون بعض المحاضر التي زارها نستطرد منها ما يلي :

محضرة مسجد الشرفاء (نواكشوط) (١٠)

- ـ ٣٠ طالبا تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٣ سنة
- ـ ٢٤ بين ١١ و١٨ سنة
- ـ ١٢ بين ٨ و ١١ سنة
- ـ دون الثامنة
- ـ مجموع الطلبة والتلاميذ : ٨٢ شخصا

محضرة أحمد بازيد بن حياني (أكجوجت)(١١)

- ـ ٢٨ طالبة
- ـ ٨ طلاب تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٤ سنة
- ـ ٨ بين ١٤ و١٥ سنة
- ـ ٦ بين ١٨ و٢٠ سنة
- ـ ١٨ بين ٢٠ و٢٦ سنة
- ـ يصل مجموع طلاب المحضرة ببقية الفئات العمرية وأدناها ١٠ سنوات الى ١٠٠ طالب.

محضرة محمد سالم بن محمد الأمين (١٢)

٢٥ تلميذا طفلا تتراوح أعمارهم بين ٥ و١٠ سنوات
- ـ ٣٠ طالبا بين ١٢ و١٥ سنة
- ـ ٢٢ بين ١٦ و٢٢ سنة
- ـ يرتفع مجموع تلاميذ المحضرة وطلابها الى ٨٠ فردا.

هذا ومن مقتضيات الامانة التذكير بأن قائمة المحاضر التي أوردناها هي قائمة جزئية غير كاملة، انما تصلح للتدليل على أن هذه المدارس العتيقة ما تزال منتشرة في أرجاء البلاد، وتلك حقيقة، لكن يجب أن لا نغتر بعدد هذه المدارس ولا بانتشارها، فالحياة المحضرية اليوم في جزر وتقلص مستمرين، والثغور الثقافية الصامدة قليلة نادرة قياسا الى ما كان موجودا،

وهي على ندرتها، تواجه خطر الاندثار الذي لم تفلت منه عشرات، بل مئات المحاضر العريقة القوية، بعد أن كانت حية نشطة بالأمس القريب.

لقد صمد بعض المحاضر، ولكن محاضر كثيرة قد ماتت والشيخوخة تلاحق البقية. فالمحاضر ما تزال حية.. لكنها تحتضر.

٢ ـ المحاضر تحتضر

ليس من شك في أن المحضرة هي أهم قلاع الصمود ومراكز العطاء العلمي والاشعاع الثقافي في بلاد شنقيط.

لقد أعطت الكثير وصمدت في وجه عواصف عاتية.. قارعت الطبيعة القاسية والعزلة الخانقة والاستعمار الحاقد، وخرجت أجيالا من العلماء والشعراء، أجيالا من المؤمنين المجاهدين.

لكن المحضرة اليوم غيرها بالأمس.. لقد كان جل ما عرضنا له في الفصول السابقة ذكريات من الماضي، وصورا لحضارة المحضرة المشرقة، استحضرناها من التاريخ، فوجدنا فيها ـ ولا غرو ـ مدعاة فخر وزهو واعتزاز بدون غرور.

اما اليوم، فقد ذوى غصن المحضرة الرطيب وتلاشت نضرتها أو كادت.. لا نقول ان المحضرة بادت ولكن يجوز أن نقول أنها اليوم في حالة احتضار. لكأن الشيخوخة قد أخذت منها بالقب والأطراف. فالحديث عن واقعها حديث ذو شجون يثير مشاعر الاشفاق والقلق عليها، أو على المجتمع الذي أرضعته بلبانها.

لقد تراجعت المحضرة تحت ضغط مجموعة من العوامل يجملها التحول الحضاري الكبير الذي انتقل به المجتمع الشنقيطي من طور الى طور نقلة سريعة عنيفة خلخلت كل البنى والقيم والمفاهيم. فاذا أردنا أن نفصل وجدنا المحضرة ضحية عوامل أربعة :

- الاستعمار الذي حاصرها ستين سنة أو تزيد،
- الاستقلال الذي صالح بين أجهزة الدولة (بما فيها المدرسة) والمواطنين،
- الجفاف الذي قوض أركان الحياة الاقتصادية البدوية،
- الانقلاب الديمغرافي ـ العمراني المترتب على العوامل السابقة، والذي تحول به المجتمع الشنقيطي، خلال عشر سنوات فقط، من مجتمع بدوي سيد في مضاربه الى مجتمع حضري طفيلي.

وسنقف عند كل من العوامل الأربعة وقفة عجلى في غير اخلال.

أ ـ الاستعمار :

صمدت المحضرة في وجه الاستعمار صمودا عجبا، لا غبار عليه. لكن من الحق أيضا أنها لم تتطور بل تراجعت في حالات كثيرة وتضررت بالاجراءات والمتغيرات التي حدثت في العهد الاستعماري.

وكنا عرضنا لاجراءات المراقبة التي اتخذها المستعمر فضيق بها الخناق على المحاضر، مؤسسات وأشخاصا، ملوحا بالعصا (بل البندقية) حينا وناثرا الحب حينا آخر، لعل المعوزين يلتقطونه.

وقد رأينا أن عددا من شيوخ المحاضر وعلمائها حملوا السلاح يقاتلون في سبيل الله، ومنهم من قتل. ومنهم من هاجر ولم يعد، فكان الجهاد والهجرة طاقة محسومة من طاقة المحضرة التربوية.

وقد جاءت المدرسة الفرنسية في لبوسها العربي ـ الاسلامي الأول، ثم كشفت قناعها من بعد وهتكت أستارها. وكانت في الطورين تبرز مفاتنها المادية (منح، سكن، نفقة، كسوة...) والمعنوية (نفوذ سياسي...) لتصرف الناس عن المحضرة وحياتها الخشنة.

لقد كان لهذه العوامل وعوامل أخرى اصطنعها المستعمر، أو حدثت فاستغلها تأثير بين على الحياة الثقافية في البلاد، فت في عضد المحضرة على صلابة في عودها ومنعة في ركنها، فاذا هي تعاني من بعد قوة ضعفا وشيبة. وما أكثر ما يؤول الضعف والشيبة بالكائن الى فناء وخراب.

لقد اختفت خلال هذا القرن، محاضر كثيرة منها محضرة «الكحلاء» المعمرة التي أنهكتها الهجرة ونال منها الجهاد، وطاردها المستعمر، فلفظت أنفاسها الأخيرة، بوفاة آخر شيوخها سنة ١٣٦٨ هـ.

وكان المستعمر يسعى لمحاصرة المحضرة سعيها، ويرقب تطور عمله في البلاد. وقد أسند الى الاداري الفرنسي (بيري J. Beyries) مهمة وضع الحصيلة في الثلاثينات فأعد تقريرا عن «التطور» الاجتماعي والثقافي في أوضاع البدو الشناقطة، سجل فيه ما أصاب المحضرة من وهن خلال ٣ أو ٤ عقود من الاستعمار، وقال ان جل الاسر التي كانت منذ ١٠ أو ١٥ سنة مشهورة بالعلم فقد فقدت هذه السمعة. وضرب مثلا بعدد من بيوتات العلم الكبرى في البلاد، مثل أهل بونه وأهل متالي وأهل سليمان وأهل حمدي وأهل بابا في جنوب البلاد.

وفي شنقيط لم تعد تجد عالما من مستوى محمد بن المختار بن الأعمش والشيخ البخاري وأحمد بن حبت[١٣].

وفي تكانت والعصابة لم يعد هناك عالم من مستوى محمد الأمين بن أحمد زيدان.

وكما تناقص عدد العلماء الكبار فقد تناقصت أعداد الطلاب تدريجيا منذ ١٠ سنوات سلفت، فانخفض عدد طلاب جامعة أهل محمد سالم العريقة الى النصف. ولم يعد في مدينة شنقيط إلّا عشرة طلبة في المستوى الجامعي!

وبالجملة، فان أغلب علماء البلد لا يدرسون إلّا ثلاثة أو أربعة طلبة في المراحل العليا[١٤].

ومن الغريب أن نجد برقية لحاكم تشيت الفرنسي سنة ١٩٣٦ يعلن فيها عدم وجود أية محضرة في هذه الحاضرة الثقافية العريقة خلال تلك الفترة[١٥].

وكان حكام الدوائر يضعون في نهاية كل سنة تقريرا احصائيا مفصلا يتضمن وضع المحاضر الموجودة بالدوائر وأسماء شيوخها وشيوخهم، وأعمارهم وقبائلهم، وموقفهم من الاستعمار وعدد طلابهم، وعدد كتبهم وموضوعاتها والمواد التي تدرس بالمحضرة ونحو ذلك من البيانات.. وهو تقليد لم تركه الدولة المستقلة فيما ورثت من تقاليد الادارة.. (راجع القوائم).

وقد عثرنا على بعض تقارير العهد الاستعماري هذه، فوجدنا فيها شاهدا على حالة التردي التدريجي في وضع المحاضر. وهذه منها أرقام جزئية عن سنتي ١٩٣٧ و١٩٤٥ :

- كان في النعمة سنة ١٩٣٧ : ١٣٤ محضرة بالمفهوم الواسع ينتسب اليها ١,٣٥٠ تلميذ. وكان في تمبدغه ١٥ محضرة ينتمي اليها ١٧٠ تلميذ[١٦].
- في سنة ١٩٤٥ قدر عدد المحاضر في جميع أنحاء البلاد بـ ٦٩١ محضرة، منها ٥٦٠ للبيضان (العرب) و٨٦ للتكارير و٣٠ للسراغلة و١٥ للفلان و١٠ للولف[١٧].

وكان مجموع التلاميذ حسب الاحصاء الفرنسي ٥٦٧٥، منهم ٤٥٠٠ من «البيضان» و٧٠٠ من التكارير و٣٠٠ من السراغله و٧٥ من الفلان و١٠٠ من الولف.

ولم نتمكن من معرفة نصيب مركزي النعمة وتمبدغه في احصائيات ١٩٤٥، لكننا نستطيع أن نستنتج بيسر أن هنالك تدنيا بينا في حالة المحاضر خلال السنوات الثمان، فلو احتفظنا بأرقام سنة ١٩٣٧ لوجدنا أن للنعمة وحدها نحو ربع (١/٤) محاضر العرب وأكثر من ربع عدد الطلبة سنة ١٩٤٥. وهذه حصة أكبر من المعتاد اذا أخذنا في الاعتبار كثرة مراكز الثقافة العربية وانتشارها في عموم أرجاء البلاد، وخصوصا في مناطق الجنوب التي يذكر تقرير استعماري متأخر سلفت الاشارة اليه أن المحاضر تتعدد في الحي الواحد من أحيائها البدوية. فلا بد أن تكون محاضر النعمة وتمبدغة قد تناقصت في هذه الفترة، وتناقصت عامة محاضر البلاد.

ولنا شاهد احصائي أدق على تدهور التعليم المحضري في تقارير سنتي ١٩٣٤و ١٩٥٢ ففي احصاء ميداني قام به بيري سنة ١٩٣٤/٣ تم تقدير عدد طلاب المحاضر بنحو ٨٠٠

طالب وبعد نحو ٢٠ عاما (سنة ١٩٥٢) توصل احصاء آخر الى تقديرهم بـ ٥٠٠ طالب[١٨] (والمقصود في الرقمين طلاب المحاضر دون الكتاتيب).

ولنتبين أهمية الفارق ينبغي أن ننبه الى أن الرقم الأخير (٥٠٠) زعموا أنه لعموم البلاد، بينما تقتصر الـ ٨٠٠ التي تم احصاؤها سنة ١٩٣٤ على ما تمكن المستطلع الفرنسي من ملاحظته في مناطق الترارزة وآدرار فقط، ذلك أنه لم يزر البراكنة ولا العصابة ولا الحوض ولا تكانت[١٩].

ويعالج بيري في تقريره أسباب هذا «التطور»، فيذكر مجموعة من العوامل التي تشكل كلها أو جلها نتائج مباشرة للهيمنة الاستعمارية.

من ذلك ميل الناس للسهولة في الحياة وعزوفهم عن مكابدة المشاق، وانتشار الزواج المبكر واحتماء الأبناء الراغبين عن الدراسة التقليدية بالادارة الاستعمارية في وجه الآباء الذين تضاءلت سلطتهم، وانقلاب هرم القيم الاجتماعية، فقد حل الثراء والنفوذ السياسي محل العلم الذي لم يعد وسيلة لابتناء المجد وأدرك الناس ـ كما يقول الاداري الفرنسي ـ أن «الثقافة العربية لا تطعم»[٢٠].

لم يكن باستطاعة المحضرة أن تنافس المدرسة الفرنسية على هذا الصعيد، فقد كانت المحضرة رباطا يعيش أهله فيه حياة المجاهدين، حياة كلها عناء وفقر وفاقة بينما كان تلاميذ المدرسة الاستعمارية ينعمون بظروف مغرية لم يألفها القوم. كانت المدرسة، خلال الدراسة وبعدها، بابا للكسب، فهي تطعم أهلها وذويهم حين تستقبل التلاميذ فتوفر لهم السكن والغذاء والكساء ولذويهم الهدايا والهبات وهي تطعم الخريجين فتوفر لهم وظائف تدر دخلا منتظما وجاها ونفوذا في أوساط الادارة.

والى جانب المنافسة المادية، نافست المدرسة الاستعمارية المحضرة بدهاء على الصعيد التربوي، حين تبنت في المراحل الأولى مناهج عربية ـ اسلامية، فزاحمت المحضرة على بعض المتون والمصنفات.

بذلك كان التعليم المدرسي ـ رغم ضآلة نتائجه كما أسلفنا ـ عامل بلبلة وتشويش على التعليم المحضري. ولم تقم المدرسة حيث قامت إلا على أنقاض محضرة أو محاضر عديدة، فلا غرو أن تجد شاعرا يعتبر بالتحولات الاقتصادية والثقافية التي عاشها، موطئا للتحولات المدرسية بما حدث من تغيير في الساحة الاقتصادية كان له أثره على صحة المدرسة ونشاطها.

يقول محمد فال بن عينين :

سبحان من قلب الاشيا ويصرفها ... له بما شاء تصريف وتغيير
باب «النميلة» مفتوح جوانبه ... وكل باب من «المفتول» مهجور
وكانت «الكحل» للتعليم مدرسة ... واليوم مدرسة التعليم «لكور»[٢١]

وكان وراء انهيار المحضرة عوامل اقتصادية أخرى[٢٢]، ذكر بيري منها انخفاض قيمة المواشي، وهي عماد الحياة المحضرية ـ البدوية.

فقد انخفض سعر الجمل من ١٧٠٠ ـ ١٢٠٠ فرنك الى ٣٠٠ ـ ٢٠٠ فرنك خلال سبع سنين فقط.

وهبط سعر البقرة من ٤٠٠ ـ ٦٠٠ الى ٣٠٠ ـ ١٢٥ فرنك.

وانهار سعر الصمغ العربي فنزل من ٣,٥٠ فرنك الى ٠,٧٥ للكيلوغرام.

وانضاف الى ذلك كله ارتفاع الضرائب التي فرضها المستعمر على الماشية وارتفاع تكاليف المعيشة سنة بعد سنة.

وهكذا لم يعد باستطاعة الشاب، والحال هذه، أن يتفرغ لطلب العلم نظرا لالحاح ضرورات المعيشة عليه وعلى أسره. ولم يعد باستطاعة «مرابط» المحضرة، وقد افتقر، أن يتحمل نفقة الطالب المعدم[٢٣].

وفي عهد الاستعمار، مرت بالبلاد دورات جفاف عديدة أضرت بالزرع والضرع، دعامتي الاقتصاد البدوي، ووقعت الحربان العالميتان فسحبتا ذيولهما على البلاد. وما بينهما وقعت الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩)، فكان لهذه الزوابع كلها أثر سيء على المجتمع التقليدي ومؤسساته المختلفة، وفي مقدمتها المحضرة راعية ميراثه الثقافي والروحي، خصوصا وأن دخول الاستعمار وازدهار التجارة عبر المحيط والنهر مع الاوربيين، اضافة الى التجارة مع المغرب بدرجة ثانوية... كل ذلك أجد لسكان الصحراء حاجات استهلاكية أسرتهم وعودتهم حالة من «الترف» لا تنسجم وحياة الزهد والتقشف التي قامت عليها المحضرة.

فقد دخل الشاي وافتتن به أهل الصحراء. ومن قبله دخل التبغ فانتشر انتشار الشاي وإنْ بزهو أخف وأبهة أقل. وقد أثارت هاتان المادتان جدلا عريضا طويلا بين فقهاء البلد فانقسموا بين محرم ومحلل ومستهجن.

ولم ينجح المتحفظون في اعتراض سبيل المادتين اللتين أخذتا بمجامع قلوب الناس، ودخلتا في حظيرة العادات الاستهلاكية من باب واسع.

وبتأثير التجارة الاستعمارية تطورت كذلك وتيرة استهلاك القماش وغيره من المواد التي فاضت بها سوق المستعمر.

ويخلص الباحث الفرنسي في تحليله الى القول :

«ان كثيرا من الشبان اليوم صاروا يهتمون بالربح المباشر على حساب الثقافة ولم يعد الشاب يصغي الى نصائح الأب».

وعلى هامش هذا الكلام علق أحد رجال الادارة الاستعمارية، لعله الحاكم العام لغرب افريقيا، فكتب بقلم رصاص : «تطور» Evolution(٢٤).

لقد تكالبت على المحضرة عوامل معادية متنوعة، سياسية، ادارية، ثقافية، اقتصادية واجتماعية، لكن العنوان الأكبر الذي لم شتات هذه العوامل هو الاستعمار الذي أعمل جهده، فكان بذاته عامل تحول وتحلل واستغل متغيرات الطبيعة ليطعن المحضرة في القلب.

ان كلمة وجيزة حكيمة، رد بها بعض الشيوخ على استجواب الاداري الفرنسي توجز هذه الحقيقة وتبرزها.

سألهم : لماذا تدهورت الثقافة التقليدية في نظركم؟ فأجابوه :

ـ «لأننا لم نعد نملك زمام أمرنا»(٢٥).

لقد لبس الاستعمار أيما تلبيس على الروح البدوية النقية وأربك النفسية المتزنة المصابرة التي كان ينمو فيها وبها حب العلم والاباء والشموخ والشمم.

واذا كنا قد سجلنا من قبل ـ وتلك حقيقة شهد بها الأعداء ـ ان المحضرة نجحت في مواجهة المستعمر وافشال مخططاته فلم يتسور عليها الجدار الثقافي المنيع ولم يستبح بيضتها رغم محاولاته الشرسة، فان علينا الآن أن نسجل ـ وللحق أيضا ـ أنه استطاع أن يحدث شرخا في جدارها وخرقا في ثوبها، اتسع على الراقع.

لقد خرجت المحضرة من معركتها مع الاستعمار منتصرة عليه، ولكن منهكة القوى مثخنة بالجراح. ولم يكن الاستقلال، العزيز عليها، سبيلها إلى الخلاص.

محاضر لعصابة ١٩٣٥

(احصائيات فرنسية)

شيخ المحضرة	عمره	مقر المحضرة	شيخه	مقر دراسته	المادة الأساسية	عدد الكتب	عدد الطلبة
سيدي عبد الله بن أحمد	٣٩	حلة أهل سيد محمود	أحمد بن الشيخ	تكانت	فقه	١٠	٥
عبد الرحمن بن داهي	٤٥	»	محمد بن السالك	الركيبة	فقه	٢٠	١٢
محمد محمود بن عاشور	٤٥	»	محمد كابر بن عليون	الركيبة	فقه ونحو	٣٠	١٢
محمد بن داهي	٤٦	»	محمد بن أحمد أوبات	تكانت	فقه	١٠	١٠
محمد بن سيدي محمود	٤٧	أهل محمد المختار	محمد بن سيد مختار	الركيبة	قرآن	١٥	١٣
عمر بن المصطفى	٧٠	مسومة	محمد بن أهل	الركيبة	قرآن	٢٠	١٥
محمد عابدين قرشي	٤٦	»	الطالب بن عبد الله	الركيبة	فقه ونحو	٢٠	٢٠
محمد عبد الله بن حويه	٧٥	أولاد ابراهيم (لمحاظر)	محمد الامين بن أحمد زيدان	تكانت	فقه وقرآن	٣٠	٢٩
محمد الأمين بن آوليل	٦٠	»	محمد لحبيب	تكانت	فقه	٣٨	١٥
محمد المصطفى بن السالك	٤٥	»	محمد المصطفى بن سيديحي	تكانت	قرآن	١٥	٣٠
محمد المختار بن الطالب	٢٧	»	»	تكانت	فقه ونحو	١٠	١٠
محمد محمود بن الشيخ أحمد	٤٠	»	»	تكانت	فقه	٦٠	١٦
سيدي بن سيدي	٦٧	أهل بومالك	محمد عبدالله بن الشيخ	تكانت	فقه وقرآن	٤٠	٢٠
محمد فال بن جد	٥٥	أولاد بويا حمى	سيد بن المختار	الركيبة	فقه وقرآن	٣٠	٣٠
محمد الامين بن تقي	٤٧	ايديشف	محمد الامين بن آي	الركيبة	فقه	١٢	٦
محمد الطالب بن سيد أحمد	٤٥	»	محمد بن صالح	لعصابة	قرآن	٢٥	١٢

(تابع)

شيخ المحضرة	عمره	مقر المحضرة	شيخه	مقر دراسته	المادة الأساسية	عدد الكتب	عدد الطلبة
محمد المصطفى بن سيدي يحي	٤٢	مسومة أهل عيسى بابا	»	لعصابة	قران وفقه	٤٠	٣٠
السالك بن البشير	٣٥	أهل الطالب اخيار	محمد بن صالح	لعصابة	قرآن وفقه	١٥	٢٠
لمام بن المان	٤٠	اديقب	محمد المصطفى بن السالك	تكانت	فقه	١٢	١٠
محمد محمود بن محمد بن سيدي	٤٥	رماظين أهل كباد	أحمد بن محمود	تكانت	قرآن	١٠	٦
سالم بن الطالب أحمود	٥٠	أهل عيسى محمد	محمد بن السالك	الركيبة	فقه ونحو	١٠	٦
سيد المختار بن عبد	٥٧	أولاد بوبادي	محمد لحبيب	الركيبة	قرآن	٢٠	١٠
حماد وجوب	٥٠	كيفة	محمد احيد	الركيبة وتكانت	قرآن ونحو	٢٠	١٠
محمد بن حسن	٥٥	أهل بليل	محمد أحيد	»	قرآن	٣٠	١٥

محاضر تكانت عام ١٩٣٨

شيخ المحضرة	عمره	مقر المحضرة	شيخه	مقر دراسته	عدد الكتب	عدد الطلبة	المادة الأساسية	قبائل الطلبة
الزين بن سيدي بن المختار	٦٢	تجكجة	بن عبد القاضي		١٠	٢٠	قرآن	أولاد بوهم
الشيخ أحمد بن آدب	٦٤	اغلمبيت	الشيخ سيد المختار	لبراكنة	٤٠	١٥	قرآن/فقه/لغة	كنات ـ أولاد بوسيف
محمد محمود بن صالحي	٦٠	تجكجة	سيدي بن محمد الامين	تجكجة	٤٠	٢٠	قرآن	أهل لمام
محمد الأمين بن الوقفي	٦٧	بادية	الطالب الوقفي		٥	٥		»
أحمد طالب بن محمد زر	٦٢	القدية	محمد حسن بن عبد الرحمن			١٠	قرآن	أهل المقري
السالك بن المصطفى	٦٢	جلو	الشيخ بن بوبكر	شنقيط	١٥	٦		أهل محم عاشور
خطري بن لغظف	٥٢	القدية	محمد بن سيدي بن آب		١٠	١٠		أهل المقري
عبد الله بن عبد الرحمن	٧٦	واد الأبيض	الشيخ بن حمنى	شنقيط	١٠	٤		أهل محم عاشور
باب سيد بن الهادي	٦٢	تكانت	محمد حسن بن قاد	سبط	١٠	١٠		أولاد سيد ببكر
سيدي عبد الله بن الطالب	٥٢	القدية	محمد بن عبد الرحمن		١٠	١٠		أهل المقري
محمد بن اعمر بن سيد احمد	٥١	الرشيد	سيدي بن محمود	ولاته	٥		قرآن/فقه	أولاد سيد ببكر
الزين بن المختار	٥٢	»	»	»	٢	١٠	»	»
عابدين بن سيد المين	٥٠	تكانت	عابدين بن حبيب الله	لوديات	٩	١٠		أهل مزيد
أحمد بن الزين	٥٤	تجكج	محمد بن مبارك	تجكج	١٠		سيرة/فقه/لغة	شيخ تميل
محمد عبد الله بن حاوبيب	٤٤	»	الطالب محمد بن خليفة		١٥	١٥	قرآن	أهل المقري
محمد أحمد بن الحاج سيدي	٥٤	»	أحمد بن مولود	الترارزة	١٠	١٠	فقه/لغة/سيرة	أهل المقري
سيدي بن مولود	٦٥	»	سيدي بن المين	تجكج	١٢	٢٠	قرآن/فقه	أهل تميل
الجا بن أحمد بوسيف	٤٥	البادية	الشيخ أحمد بن اد	تكانت	٣٠	٥	قرآن	كنته

المحاضر في ناحية المذرذرة (أبريل ١٩١٥)

شيخ المحضرة	عمره	شيخه	المواد الدراسية الأساسية	عدد كتبه	عدد الطلبة المعلن أوان الاحصاء	قبائل الطلبة
محمد فال بن أحمد فال الديماني	٧٥	والده	القرآن/العقيدة/لغة نحو	٢٠٠	١٢	أولاد ديمان/تاشدبيت أولاد الحاج وسنغاليون
حامدين بن محمذ وأخوه بارك الله الديمانيان	٤٩ ٤٤	»	الفقه/والمنطق	٢٠٠ الى ٢٥٠	٨ ـ ٦	أولاد ديمان والسنغاليون
البراء بن بك الديماني	٥٩	»	القرآن/العقيدة/لغة/ نحو	٦٠	٤	أولاد سيد الفالي
سيدي بن محمد بن الامين الديماني	٤٤	أهل محمد سالم (مدلش ـ آدرار)	فقه	٤٠	١٠	أولاد سيدي الفالي والطلابين
عمر بن ابن عبدم الديماني	٥٤	»	»	٥٠	٣	أولا سيدي الفالي
المصطفى بن محمد ابن المصطف الديماني	٤٠	محمد فال بن أحمد فال	»	٣٠	٣	أدكوجي
محمد المختار بن أحمد فال الديماني	٦٤	جدود بن اكتوشن	»	١٥٠ الى ٢٠٠	٤	إدوعل
السالك بن باب بن أحمد بيب العلوي	٦٤	والده	»	١٥٠	٤	»
محمد بن المختار بن حيمد التاشدبيتي	٤٩	»	»	٨٠	٦	تاشدبيت ـ لبيدات ـ تندغ
الشريف بن الصبار المجلسي	٣٩	هل الشيخ القاضي	»	٥٠	٥	مدلش

(تابع)

شيخ المحضرة	عمره	شيخه	المواد الدراسية الأساسية	عدد كتبه	عدد الطلبة المعلن أوان الاحصاء	قبائل الطلبة
أحمد بن محمد سيد الألفغي	٤٩ـ	(اجيكبة) أهل محمد سالم	خصوصا اللغة والنحو	٨٠	١٥	أولاد الف حبيب الله وأولاد ديمان
محمد المحبوبي اليدالي الديماني	٤٩	يحظيه بن عبد الودود (الكنتاني)	قرآن/عقيدة/فقه	٦٠	٦	
أحمد بن بوي ادكوجي	٤٤	»	»	٦٠	١٢	ادكوجي ومدلش
أحمد بن الصوفي أدكوجي	٦٤	أهل محمد سالم	قرآن/عقيدة/فقه لغة/ونحو	٦٠	٤	ادكوجي
محمد بن أمين الشوكاني التندغي	٦٤		»	١٠٠	١٤	اشوكان
عبد الكريم بن أحمد المثلوثي	٤٤	أبوه	قرآن/عقيدة/فقه /لغة/نحو	٦٠	٣	المثلوثة وانتابة
آب بن عبد الله بن الامام المثلوثي	٣٩	»	»	٤٠	٣	المثلوثة
الحبيب بن انتيفي البوحبيني	٦٥	حبيب بن عبد الكريم	»	١٠٠	١٢	تندغة والسنغاليون
حبيب بن زايد الاكدبيجي	٦٠	عبدالرحمن بنمتالي	»	٤٠	٦	تندغة ـ أهل عمر ـ اكدبيجة

محاضر ناحية بوتلميت (مايو ١٩١٥)

شيخ المحضرة	عمره	مقر المحضرة	شيخه	مقر دراسته	المادة الدراسية	عدد الطلبة	قبائل الطلبة
سيد بن الفالي	٤٠	تجكانت	أحمد بن الفالي	تاجكانت	القرآن	٢٦	تجكانت
أحمد فال بن محمذو	٢٩	»	أحمد بن سيدي	»	»	٢٥	»
محمد بن حامد	٦٢	أولا ابييري	»	أولاد أبيري	»	٣٩	أولاد أبييري
أحمد بن الفغ	٢٦	تجكانت	يحظيه بن عبد الودود	تاكنانت	الفقه	٣٤	تجكانت
مختار السالم بن حمى الله	٥٥	ادغماجك	محمد بن متالي	تندغة	»	٣٧	ادغماجك
محمد بن حرمة	٤١	»	محمد بن سيد أحمد	ادغماجك	»	٣٦	»
أحمد بن البشير	٣١	»	يحظيه بن عبد الودود	تاكنانت	»	٣٤	»
محمد عبد الرحمن بن أحمد	٢٥	»	أحمد بن المختار	ادغماجك	»	٢٣	»
ماب بن هاشمي	٢٦	تجكانت	أحمد يعقوب	امبود	قرآن	٢٥	تجكانت
الشيخ عبد الله	٥١	ادا بلحسن	أهل محمد سالم	آدرار	فقه	٣٨	ادابلحسن
عبد القادر بن سعيد	٣٢	»	الشيخ عبد الله	ادابلحسن	»	٢٧	»
محمد حامد بن آلا	٣٦	»	»	»	»	٢٢	»
عبد العزيز بن أحمد	٧١	»	ابن عبدم	»	»	٢١	»
سيد الفالي بن محمد	٣٨	»	داونا بن حبيب	البراكنة	»	٢٠	»
عبد الكريم بن مايا	٢٨	»	محمود بن حبيب	ادابلحسن	»	١٥	»
أحمد بن الفغ	٥١	»	»	»	»	١٨	»
حبيب الله بن الفغ	٥١	»	الكورى بن محم	»	»	٢٠	»
المين بن الخراش	٤١	»	»	»	»	٢٧	»

(تابع)

شيخ المحضرة	عمره	مقر المحضرة	شيخه	مقر دراسته	المادة الدراسية	عدد الطلبة	قبائل الطلبة
يوسف بن آي	٥١	ادابلحسن	الشيخ الحسن	ادابلحسن	فقه	١٦	ادابلحسن
أحمد السالم بن زين	٤١	»	»	»	»	٤٤	»
احمد بن الشيخ	٤١	»	الشيخ بن محمد دي	»	»	٢٧	»
يحظيه بن عبد الودود	٥١	تاكنانت	محمد بن محمد سالم	آدرار	»	١٠٥	تاكنانت
محمد عبد الله بن سيدي	٣٨	»	»	»	»	٢٤	»
سيد المين بن أحمد بن محمد	٣٧	أولاد أبييري	أحمد بن سيد عبد الله	أولاد أبييري	قرآن	٢٥	أولاد أبييري
ابراهيم بن أحمد	٣٥	»	»	البراكنة	»	٢٥	»
سيد محمد بن داداه	٥٨	»	أهل محمد سالم	آدرار	فقه	٢٤	»
محمد يحظيه بن الكوري	٣٦	»	لمين بن أحمد جدو	أولاد أبييري	قرآن	٢٩	»
احمد بن خطارى	٣١	تجكانت	محمد النقي	تجكانت	»	٢٢	تجكانت
محمد بن محمد المصطفى	٦١	تاكنيت	محمد بن	تاكنيت	»	٢٦	تاكنيت
محمد بن بيد	٣٥	تجكانت	أحمد بن الفالي	تجكانت	»	٢٠	تاجكانت

ب ـ الاستقلال

كانت المحضرة في عهد الاستعمار تحديا. فكان تستمد قوتها من قوة التحدي الاستعماري، لا يزيدها صلف الأغراب وعنجهيتهم إلّا تحفزا وتحصّنا وتمنعا، وان أصابتها بعض ضرباتهم. لقد رأى المجتمع في المدرسة النظامية الاستعمارية صورة العدو الشرس الذي يريد ابتلاع المحضرة، فتمنع ضده بها، وصان للمحضرة مكانتها لتصون له دينه وهويته.

أما بعد الاستقلال، فقد بدأ الناس ينظرون الى المدرسة النظامية باعتبارها مدرسة وطنية، فلا يرون فيها الخطر الذي كانوا يرون. ويدأوا يبعثون بأولادهم الى المدرسة، ومنها الى العمل في الدوائر الحكومية والخصوصية.

وهكذا انقطع المدد البشري أو تقلص كثيرا، فلم تعد المحضرة تلقى الاقبال الذي عهدته من قبل.

وقد رافقت الاستقلال موجة من الحماس وصحوة سياسية كبيرة شدت أنظار الناس الى بناء الدولة وعصرنة الحياة والخروج من واقع التخلف وارتياد آفاق المجد الذي صارت المسؤوليات الادارية والسياسية مرقاة من مراقيه.

ومع تنامي الجهاز الاداري، الذي وضع المستعمر أسسه، انسدت أمام طلاب المحضرة وخريجيها الأبواب الفسيحة التي كان المجتمع يفتحها لهم، وسلبوا ذلك الاعتبار الذي كان يتوجهم أمراء على الامراء، فانحطت منزلتهم في سلم القيم الاجتماعية. فلو أن شيخ محضرة طرق باب احدى المؤسسات الكبيرة في العاصمة ـ وكثيرا ما يحدث ذلك ـ لما وجد أفضل من وظيفة بواب أو حارس أو فراش أو حامل بريد، ذلك أن نظم الوظيفة العمومية وطرق العمل ومناهجه ولغته ـ وهي أشياء موروثة عن المستعمر ـ لا تضع في حسابها هذه الفئة من المواطنين التي لا تحمل مؤهلات ورقية ولا تنابز بالألقاب العصرية. وكان المستعمر يسم علماء المحاضر في أوراق الحالة المدنية بالأمية. فالأمي في عرفه ـ وكذلك هو في أي مؤسسة تعتمد لغته أوتركزعلى نظمه ـ وهوذلك الذي لايقرأ بالفرنسية ولا يكتبها،كائنا من كان.

وهكذا أقبل شباب المحاضر على الدولة، يطلبون في كنفها لقمة العيش وماء الوجه.

وكانت الدولة الفتية بحاجة ماسة الى كفاءات بشرية جاهزة. ولم تكن مدارس التعليم العصري قادرة على الوفاء بهذه الحاجات لما كانت عليه من قصور سلفت الاشارة اليه، فالتقت حاجة رجال الدولة وحاجة رجال المحضرة... أولئك يريدون عونا في المهام الكبرى المنوطة بهم وهؤلاء يريدون ارتياد آفاق الحياة الحديثة والمساهمة في بناء «الجمهورية الاسلامية الموريتانية» الفتية.

وبذل رجال المحضرة المجهود الأكبر في هذا المساق، فسعوا الى الادارة التي لم تستطع أن تتحرك في اتجاههم لثقل بناها وصرامة نظمها. فكان من خريجي المحاضر موظفون بسطاء من جميع الفئات، خصوصا في الحرف الذهنية والقلمية، وسعى كثير منهم الى المشاركة في الامتحانات الدراسية والمهنية واطلاب الشهادات النظامة ليشرعوا رصيدهم المعرفي، فيدخلوا به دائرة الوظيفة العمومية. وقد نجحوا في مسعاهم، فكانت المحضرة بهم «أهم رافد بعيد الاستقلال للاطر الوطنية الجاهزة ـ والتي لم تتكلف الدولة في سبيل تكوينها أي جهد مادي ـ خصوصا في مجال الاعلام والتعليم والقضاء بجميع هياكله، ناهيك عن مجالات الوعظ والارشاد والفتوى»[٢٦].

وكمثال، فان نسبة تتجاوز ٩٨٪ من المعلمين قد مرت في دارستها بالمحاضر، طبقا لما ورد في الكتاب الاحصائي الصادر عن وزارة التخطيط سنة ١٩٧٧.

وقد ازدادت الالفة بين المحاضر والدولة (على حساب المحاضر) عندما خطت الدولة خطوات على طريق التعريب. فقد مهد تعريب التعليم والقضاء، السبيل أمام آلاف من رجال المحضرة للعمل في هذين القطاعين.

وهكذا أخذت الدولة المستقلة من المحضرة ما لم تعطها. وكانت المراكز الحضرية الادارية التي نمتها الدولة عونا للتصحر والجفاف في استنزاف البادية معقل المحضرة وحصنها الذي كان حصينا ولم يعد.

ج ـ الجفاف والتصحر :

ابتدع الشناقطة المحضرة، بنية ثقافية طوعوها لبيئتهم الاقتصادية والاجتماعية، فكانت خلية في نسيج حضاري (وان لم يكن حضريا) شامل متكامل.

ولهذا كان اهتزاز الاركان الاقتصادية والاجتماعية للحياة البدوية يؤثر تأثيرا مباشرا على هذه المؤسسات الثقافية، وان كانت مناعتها ضد البؤس والجوع عالية متينة.

كانت المحضرة تستمد قوتها المادي من ثمرات الاقتصاد البدوي (التنمية الحيوانية ثم الزراعة) فاذا نضبت هذه الموارد أو شحت انعكس ذلك على صحة المحضرة.

وتذكر حوليات تشيت وغيرها من مصادر التاريخ المحلي أن البلاد تعرضت في العهود الاخيرة لدورات جفاف كثيرة أثرت سلبا على الحياة العلمية، في سنين عجاف منها، ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ ـ ١٨٦٦ م)، و١٢٩٠ (١٨٧٣ ـ ١٨٧٤ م) و١٣٠٧ (١٨٨٩/١٨٩٠ م) و١٣٦٢ (١٩٤٣).

وتعرضت البلاد لطواعين وأوبئة فتكت بالبشر وبالماشية، فكان من سنوات الأوبئة البشرية (الجدري وغيره) : ١٢٠٧ (١٧٩٢ ـ ١٧٩٣ م) في ولاتة و١٢٣٨ (١٨٢٢ ـ١٨٢٣م)

في تكانت و١٢٨٦ (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) في تشيت. وتوفي بها في شهر واحد أكثر من ١٠٠ شخص بينهم علماء منهم الشريف الامام أحمد بن الفاضل ابن محمد بن الامام الطالب أحمد ومحمد بن محمد بن نبوي الشريف ومحمد بن حماه الله.

وانتشر الجدري في شنقيط وتشيت وغيرهما سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧ ـ ١٩٠٨).

وكان للأوبئة البقرية أثر سيء على الحياة العلمية، لاعتماد المحضرة على لبن البقر كما أسلفنا، وقد تعرضت منطقة الحوض لوباء بقري سنة ١٢٨٦ (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ م). وتعرضت البلاد كلها لدورات من الوباء البقري نذكر منها في القرن الرابع عشر الهجري : بومرارة (١٣٠٩ ـ ١٨٩١/١٣١٠ ـ ١٨٩٢)، وبودمعة (١٣٣٤ ـ ١٩١٦/١٣٣٥ ـ ١٩١٧) والهوفة (١٣٦٢ ـ ١٩٤٣).

لقد تأثرت المحضرة بالمجاعات والأوبئة في هذه السنين وغيرها، ولكنها استطاعت أن تصمد وتواصل مسيرتها، لأن الأخطار التي واجهتها كانت أخطارا موسمية لا تكاد تمضي شهور أو سنة أو سنتان حتى يمن الله بالخصب ويرفع الوباء.

انما استباح الجفاف وآثاره حريم المحضرة في العقود الأخيرة، وخصوصا منذ أواخر الستينات وأوائل السبعينات، فقد تتابعت سنون كسني يوسف ولما يتوقف الجفاف بعد.

لم تعرف البلاد في تاريخها المحفوظ دورة جفاف أطول في الزمان ولا أوسع في المكان من الدورة التي أوعبت حتى الآن ١٦ سنة، جف فيها الزرع ويبس الضرع فنفقت الماشية وانمحت الغابات وغارت العيون وطمرت الآبار وتحولت الأرض الخضراء الى تيهاء تنوفة قاحلة مخوفة، يغطيها بحر مائج هائج من الرمال التي انطلقت كالمارد يخرج من قمقمه، فهي تتقد كل سنة نحو ١٢ كم، وتبتلع مظاهر الحياة من عمارة وزراعة وطرق وواحات وغيرها..

وقد كان للتصحر ما كان للجفاف ـ وهما رضيعا لبان ـ من حضور سابق في البلاد، فالصحراء وطنه ومثواه من قديم، وهي بنته تحمل اسمه وسيماه. وبتأثيره اندثرت فيها مدن كانت مزدهرة، مثل أوداغست، وانهارت مدن أخرى شاخت وضعفت كالشواهد الثقافية الأربعة : ولاتة وتشيت وودان وشنقيط.

وبسبب التصحر تباطأت حركة العمران في البلد، فظلت المراكز الحضرية محدودة في عددها وفي عدد سكانها، وكان السواد الأعظم من أهل البلد بدوا رحلا يتنقلون في أرجاء الصحراء الفيحاء يطلبون الكلأ والماء.

ومع ذلك لم تكن للتصحر في الماضي صولة كصولته اليوم.

لقد كان له وللجفاف في السنين الاخيرة أسوأ الآثار على موارد البادية والاقتصاد الريفي : الزراعة وتنمية المواشي وعلى الطبيعة بوجه عام.

لم تفتأ كميات المطر تتناقص وزحف الرمال يتزايد، فتقلصت نتيجة للعاملين المساحات الزراعية وتدني الانتاج تدنيا مطردا.

ففي سنوات الستينات كان انتاج البلاد من الذرة يقدر بـ ٩٠ ـ ١٠٠ ألف طن سنويا. وقد إنحط هذا الانتاج الى ٣١ ألف طن سنة ١٩٨٠. وازدادت، مقابل ذلك، حاجة البلاد الى الحبوب وتضاعفت مستورداتها منها. ففي سنة ١٩٧٥ كانت موريتانيا تستورد ٩٩ ألف طن من الحبوب. وبعد ٤ سنوات فقط (سنة ١٩٧٩) ارتفع رقم الاستيراد الى ١٥٢ ألف طن.

كذلك نتج عن التصحر تدهور في الغطاء النباتي للأرض، فاختفت الغابات، إلّا بقية منها قليلة على ضفاف نهر السنغال وكانت أشجار القتاد تغطي مساحة ١٦٥ ألف كم مربع، أيام كان الصمغ العربي أحد الصادرات الرئيسية للبلد، كانت انتاج البلاد من هذه المادة التي تنافس عليها الأوروبيون طيلة ٥ قرون مرتفعا الى عهد قريب. ففي سنة ١٩٧٠ بلغ ٧٣١٨ طنا. وبذلك كانت موريتانيا ثاني بلد منتج للصمغ في العالم. لكن سنوات قليلة من الجفاف قضت على هذه الثروة، فقد كانت أشجار القتاد من أول ضحايا الجفاف والتصحر.

ولم تكن المراعي، بطبيعة الحال، أحسن حظا من الغابات، فقد اقشعرت الأرض وصوح نبتها ثم عريت حتى من الهشيم.

وهكذا تضررت الثروة الحيوانية بالغ التضرر، فقد كان عدد الأبقار سنة ١٩٦٩ نحو ٢,٤٠٠,٠٠٠ رأس. وبعد ٦ سنوات (١٩٧٥) انخفض العدد الى النصف (١,٢٠٠,٠٠٠ رأس) واستمر في الانخفاض سنة بعد سنة.

وقد طغا التصحر فعطل الطرق وطمر العيون والآبار (١٢ بئرا في ولاية العصابة خلال ٣ سنوات) وحاصر القرى والمدن فهدم المنازل وشرد السكان، ورافقه انخفاض في مستوى البحيرات الجوفية (من ٤ الى ١٠ ملم خلال ٧ سنين»(٢٧).

لقد تحول التصحر الى غول شرس يطارد الناس وكابوس يقض مضاجعهم. ومنه استوحى زميلنا الأديب أحمد بن عبد القادر قصيدته «السفين» التي أثارت جدلا في أوساط المثقفين لأنها رأت في التصحر خطرا يهدد كيان البلاد ويعصف فيها بجميع أسباب الحياة، حتى لا يبقى للسكان من أمل إلّا أن يركبوا السفن مهاجرين، فيرحلوا كما كان آباؤهم يرحلون..(٢٨) (ولكن إلى أين؟).

وقد زاوج زميلنا محمد فال بن عبد اللطيف مزاوجة لطيفة بين التصحر الطبيعي والتصحر الثقافي الذي رافقه، فاستحضر طيف ألفية ابن مالك التي كانت تدرس، وتكميل ابن بونه لها في المحاضر. وكانت أبيات الألفية تكتب بالحبر الأسود، بينما تكتب استدراكات ابن

بونه بينهما بالحبر الأحمر لتتميز من الأصل. ورأى صاحبنا كيف عريت الرمال والسهول، فقال :

يا رب ذا الحي أضحى ... بغيـــــر دار قرار
«فالكود» أصبح جدبا ... ما فيه قوت حمار
ألفيـة الجـدب فيـه ... مكتوبـة بالغبـار
و«العلب» تبدو عليه ... شواهـد الاحمـرار[٢٩]

لقد تنكرت البادية لأهلها، فلاذوا منها بالفرار الى المدينة والقرية.

د ـ استقرار البدو

أوضحنا من قبل كيف أن المحضرة مؤسسة بدوية اختارها أهل الصحراء لأنفسهم جهازا مرنا يرافقهم في الحل والترحال.

لقد كانت للحواضر محاضرها. ومنها انبثقت أهم روافد الحركة العلمية في بلاد شنقيط. لكن المحضرة لم تأخذ زخرفها وزينتها ولم تفصح عن عبقريتها ولم ترفع أركان دولتها المكينة ومجدها الأثيل إلا في رحاب البادية. فاذا اقتلعت المحضرة من البادية اقتلعت من التربة الطيبة التي تنبت فيها نباتا حسنا وأمست بين خطري المسخ والنسخ. وهذا ما حدث مع ضمور شأن البادية في العهد الأخير.

كان المجتمع الشنقيطي القديم مجتمعا بدويا يأنف الاستقرار، وكان أهل الحواضر، وقليل ما هم، يجددون عهدهم بالبادية فيخرجون إليها في مواسم عديدة، لكن تيارا معاكسا هبَّ على البلاد منذ مطلع القرن العشرين.

بدأ هذا التيار مع دخول المستعمر الذي ضاق ذرعا بحرية البدو وضربهم في فجاج الأرض حيث تستعصي رقابتهم، فأنشأ أو عزز مراكز حضرية أحاطها بقدر من المغريات، وحاول اجتذاب السكان اليها، مثل مدن فديرك وبيرام قرين وكيفه وبوغي وسيلبابي ونواذيبو والزويرات وأكجوجت، التي كانت قواعد عسكرية وادارية واقتصادية في عهد الاستعمار، ومع ذلك كان تيار التمدين أو التقري بطيئا خلال العهد الاستعماري، وتقدم قليلا مع ظهور بعض المراكز الحضرية في عهد الاستقلال، وخاصة مدينة نواكشوط التي تأسست لتكون عاصمة الدولة المستقلة.

لكن الانقلاب الأكبر في المستوطنات السكانية لم يحدث إلّا مع انتشار الجفاف حيث تحول التصحر الذي كان قديما عامل بداوة الى عامل استقرار وعمران حضري.

وماكان للتصحر أن يؤدي هذا الدور العكسي لو لا ظهور دعائم اقتصادية تحولت بها المدن الى مراع ومنتجعات لمن لا يملكون الماشية أو لا يجدون لها انتجعة في البادية، زيادة على استفحال خطر الجفاف وتنامي عدد السكان. فبهذين العاملين أصبح الضرب في الأرض لانتجاع المراعي ضربا من العبث. ولم يبق للبدو من ملجإ إلّا المدينة، فاقبلوا اليها يتسابقون، أفواجا، كأنما يلاحقهم سيل العرم.

لقد انخفضت نسبة البدو الرحل الى السكان من ٦٤ ٪ سنة ١٩٦٥ الى ٣٢٪ سنة ١٩٧٧[٣٠]، ونشأت خلال ١٠ سنوات فقط ٤٠ قرية جديدة[٣١].

ويمكن اعتماد تطور العاصمة (نواكشوط) ميزانا لقياس درجة الانقلاب الديمغرافي السكاني وما ترتب عليه من تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية، عصفت في عقد من الزمن بميراث ٤ قرون أو تزيد.

فقد تأسست نواكشوط سنة ١٩٥٧ لتكون عاصمة للدولة المنتظرة، خلفا لمدينة اندر (سين لويس) السنغالية عاصمة الاقليم في العهد الاستعماري كله.

وفي سنة ١٩٦٢ كان عدد سكان العاصمة الفتية ٥٨٠٧ نسمة، وارتفع هذا العدد سنة ١٩٧٥ الى ١٠٤،٠٠٠ نسمة، بحيث بلغ معدل النمو السنوي خلال هذه الفترة نحو ٢٣٪. ويقدر عدد سكان المدينة اليوم بأكثر من نصف مليون (٥٠٠،٠٠٠) نسمة.

وقد سئل عدد من الأسر في المخيمات النازحة من البادية الى نواكشوط عن سبب هجرتهم، فعللوها بالأسباب والنسب التالية :

- ٤٩،٣٣٪ : البحث عن العمل
- ٨٪ : المرض (البحث عن العلاج)
- ٨٪ : فقدان الثروة الحيوانية.
- ٩،٣٣٪ : زيارة أحد الأقرباء.
- ٥،٣٤٪ : مرافقة معلم أو قريب أو صديق.
- ١،٣٣٪ : متابعة الدراسة.
- ٨،٥٠ ٪ : مقيمون (نواكشوط موطنهم الأصلي).
- ١٠،١٧٪ : ردود أخرى[٣٢]

ويتضح من هذه الأرقام أن ٩١،٥٪ من المستجوبين هم من النازحين وأن جلهم من مشردي الجفاف والمجاعة والمرض. فليس في البادية مراكز علاج حتى يستقر بها المرضى، وقد انهار الطب التقليدي أو لجأ الى المدينة في غمرة التحولات. ومن المحتمل أن يقع القادمون للتداوي في شرك المدينة فلا يعودون الى البادية.

ولم تعد في البادية محاضر تنافس المدارس المعاصرة، وليس فيها مدارس ثانوية، بل ولا ابتدائية تنافس مدارس المدن، لذلك يتركها الطلبة الى نواكشوط وأخواتها حيث يقيمون، أو يمكثون جل فصول السنة، حتى اذا عادوا كانوا غرباء في مساقط رؤوسهم، معلقة قلوبهم ببهرج المدينة وزخرفها، وان لبست مسوح البؤس واختمرت بالغبار.

أما الباقون من النازحين فكلهم من الباحثين عن لقمة العيش سواء طلبوها بعملهم أو بعمل غيرهم أو تكففوا الناس أو استدروا منح الدولة.

وليست «زيارة الأقرباء» أو «مرافقة الأصدقاء» في الغالب الأعم إلّا قناعا يجيد القوم استخدامه فيغطون به ما أفصح عنه الآخرون (البحث عن العمل، الفقر أو هلاك الماشية).

وقد كان سقوط المحضرة تحت تأثير شح الطبيعة البدوية وجاذبية المدينة مصدر الهام للكتاب والأدباء، كما نجد عند الزميل الكاتب يحي بن سيدي المصطفى في أقصوصته «الضمائر المستترة»، فهو يتحدث عن شيخ محضرة أقام ولده مقامه، وقد آنس منه رشدا، فكان الولد يؤم الصلاة في المسجد ويعلم الناس. ثم نزل بالحي القحط وحدثهم القادمون والعابرون عن المدينة ومغرياتها، وقيل لهم أن بها محاضر تدر رزقا حلالا، فقرر الشيخ أن يجرب حظه في احدى محاضر المدينة. ولم يلبث أن انتدب ابنه لادارة محضرة في حي آخر من أحياء المدينة. وكان الابن أول عهده هذا تقيا مستقيما، كثيرا ما يرفع عقيرته اذا سكن الليل بالذكر ومديح النبي عليه الصلاة والسلام. وكان يعلم الناس وفيهم غانيات لم تلبث خيوط الألفة أن امتدت بينه وبينهن.

وينتهي المطاف بالمحضرة حينما تتحول إلى ملهى ليلي «للألفة والالاف» ويتحول شيخ المحضرة الى «راع أمين» وساعي بريد بين «الالافة»[٣٣].

ترى أيكون مستقبل المحضرة مسكونا بمثل هذه الردة القاتلة؟

الفصل الثاني

آفاق المستقبل

١ ـ الأزمة والحل بين المدرسة والمحضرة

حين نمجد ماضي المحضرة ونأسى لحاضرها فليس ذلك منا مجرد رومانسية وبكاء على الأطلال الداثرة والعهود الغابرة، وانما نأسى في الواقع على موقف حضاري وحركة تاريخية، نندب فيها الابداع والاصالة وشرف الانتماء وشموخ البناء ونقاء الروح.

لقد عصفت التحولات الحضارية الجديدة ـ وقد اجتاحت العالم كله ـ بالمجتمع الشنقيطي فأفقرت ذاته المبدعة وأضوت عبقريته الفياضة ولم تعطه من ثمرات المدينة الحديثة ما يعوض خسارته، وهيهات...

لقد تحول نسيج حضاري متكامل، أو هو في طور التحلل منذ عقود قليلة وتائر متسارعة يوما بعد يوم، ففقد المجتمع عوامل قوته وأسباب منعته وتناغم حياته دون أن يكسب عوامل قوة ومنعة وتناغم جديدة.

وحسبنا أن نأخذ المحضرة مثالا على ذلك، فقد كانت ـ على بساطة في بنيتها وضآلة في وسائلها ـ ينبوعا ثرا لا يغيض لحركة العلم في البلاد. كانت تفي باحتياجات المجتمع المعرفية وتفيض عنها، حتى رأى الناس أن لا حاجة لشد الرحال في طلب العلم وضربوا لذلك مثلا : «لقرايه في الراس ما هي في فاس ولا مكناس». وكان الذين ينهلون من معين المحضرة ويعلون اذا هم ضربوا أكباد الابل من بعد الى القرويين أو الزيتونة أو الازهر، يحلون في رحاب هذه المراكز العلمية شيوخا وأساتذة يفيء اليهم الطلبة والعلماء للاستمداد منهم.

ترى، وقد جنحت شمس المحضرة للغروب، هل سدت المدرسة العصرية هذا الفراغ الكبير، لا من حيث نوعية العطاء الثقافي فحسب بل أيضا ـ وخاصة ـ من حيث شمولية العطاء وعموم الاستفادة منه وعمق تأثيره وتواضع كلفته؟

لنستعرض أرقاما عن تطور التعليم العصري في البلاد منذ سفور المدرسة الفرنسية لنتبين طريق الاستنتاج.

تطورت أعداد تلاميذ المرحلة الابتدائية في ربع قرن على النحو التالي :

- ١٩٥١/١٩٥٠ : ٢,٣٠٠ تلميذ
- ١٩٥٦/١٩٥٥ : ٥,٠٠٠ تلميذ
- ١٩٦٠/١٩٥٩ : ٨,٦٤٣ تلميذ
- ١٩٧٤/١٩٧٣ : ٤٢,١٤٧ تلميذ
- ١٩٧٥/١٩٧٤ : ٤٧,٠٠٠ تلميذ
- ١٩٨٦/١٩٨٥ : ١٤٠,٨٧١ تلميذ

وقد كانت نسبة الأطفال المسجلين في المدارس ٨,٥٪ من مجموع الذين هم في سن الدراسة سنة ١٩٦٦/١٩٦٥. وارتفعت النسبة الى ١٧٪ سنة ١٩٧٥/٧٤(٣٤).

وهي اليوم بحدود ٤١٪.

وكان عدد مدرسي التعليم الابتدائي ابان الاستقلال (١٩٦٠) ٤٠٠ مدرس، وقد بلغ العدد نحو ٢٠٠٠ سنة ١٩٧٥/١٩٧٤(٣٥) وبلغ ٣١٩٥ سنة ١٩٨٦.

وفي سنة ١٩٦١/٦٠ كان عدد تلاميذ المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك ٥٢٨، منهم ٢٨ فقط في المرحلة الثانوية والباقون في المرحلة الاعدادية. وقد ارتفع هذا العدد سنة ١٩٧٥/٧٤ الى ٦٨٣٣ منهم ٥٦٦٠ في المرحلة الاعدادية و١١٧٣ تلميذ في المرحلة الثانوية، وتضاعف العدد فبلغ ٣٣,١٤٨ تلميذا سنة ١٩٨٦.

ولم يكن لموريتانيا سنة ١٩٦٠ إلّا أستاذان يحملان شهادة جامعية، وتطور العدد من بعد على النحو التالي :

١٩٧٠ : ٣٢ أستاذا
١٩٧٢ : ١٠٥ أستاذا
١٩٧٤ : ٢٠٠ أستاذ(٣٦)
١٩٨٦ : ١٣٨٦ أستاذا.

لتصل الدولة الى هذه الأرقام، في فترة رخاء وازدهار نسبي، كان عليها أن ترصد ربع ميزانيتها (٢٥٪) لقطاع التعليم، يضيف اليه السكان جهدا ذاتيا تطوعيا، فيتولون بناء المدارس وشراء الأدوات المدرسية لأبنائهم في حالات كثيرة.

وهكذا، ورغم أهمية المجهود المبذول في التعليم العصري (ربع ميزانية الدولة وزيادة، فان نتيجة ضئيلة جدا قياسا الى التعليم التقليدي - المحضري الذي لا يستفيد من ميزانية الدولة ولا يكلف القائمين عليه إلّا نفقات خفيفة.

وقد أبرز احصاء السكان لسنة ١٩٧٧ هذه الحقيقة من خلال الأرقام التالية :

- أعلن ٦٠٧,٠٠٥ شخص أنهم تلقوا تعليما ما (من مجموع ١,٠٥٠,٨٢٤ تتجاوز أعمارهم العاشرة).
- ٥١٠,٦٦٩ شخصا تلقوا تعليما تقليديا خالصا.
- ٩٦,٣٣٦ تلقوا تعليما عصريا بالاضافة الى التعليم التقليدي.
- ٩,٢٣٢ من العدد الأخير تلقوا تعليما عصريا خالصا.

ويتضح من هذه الأرقام أن ٨٤,١٣٪ من المعلمين تلقوا تعليمهم في المؤسسات التقليدية دون أن يرتادوا أي مؤسسة تعليم عصري، بينما لا يتعدى عدد الذين انفردت المدرسة العصرية باستقبالهم نسبة ٠,٩٪(٣٧).

وهكذا فإن التعليم النظامي، وهو - أيا كانت فوائده - صنيعة استعمارية، قد أدى بطبيعه نظمه وقواعد عمله الى تقليص عدد الذين يصلون الى الدراسة، فحرمت من العلم فئات كثيرة كانت تجده ميسورا في ظل التعليم التقليدي، وانتشرت الأمية وازدادت سنة بعد سنة أفواج المحرومين من التعليم، والمطرودين منه.

وينطبق على «موريتانيا» من ذلك ما ينطبق على مثيلاتها من البلدان التي شهدت فجوة حضارية فاصلة بين ماض ثقافي مزدهر وحاضر تسحب عليه الأمية ذيولها باطراد.

يقول الدكتور محي الدين صابر :

«ليس من شك في أن التعليم النظامي ما يزال عاجزا في كثير من بلدان العالم المتخلف عن الوفاء بالحاجات التربوية للمجتمع، فهو مرفق من المرافق الكثيرة التي تقوم عليها الدول الفقيرة.

«ولأن موارد هذه الدول محدودة، ولأن الأولويات كثيرة، ثم لأن هذه الأولويات تنصرف الى انشاء الهياكل والبنى الاساسية للبناء الاقتصادي المادي، فان الوفاء بالحاجات التعليمية كاملة للسكان الذي يتزايدون بمعدلات كبيرة نتيجة لظروف الحياة الجديدة، صحيا وغذائيا، أصبح عسيرا، على الرغم مما يبذل، وذلك لسعة مساحة هذه الحاجات»(٣٨).

ويتخبط التعليم العصري، فضلا عن ذلك، في مجموعة من المشاكل المعقدة تزداد بها أزمته حدة سنة بعد سنة، فهناك انخفاض المستويات العلمية عند المدرس والتلميذ والطالب. وهناك تدني مكانة العلم في النفوس وهون مؤسساته وهوان رجاله وانعدام الثقة بينهم والتلاميذ وضعفها بين المؤسسات التربوية والمجتمع.

قديما، كان الطلبة يقطعون مئات الأميال، وربما الالاف سعيا وراء المحضرة يطلبونها بشوق ورغبة ولهفة. أما اليوم فالمدرسة تطاردهم وهم عنها هاربون حتى اذا أدركتهم عاشوا معها عيشا ضنكا ملؤه الدلال والتمنع والغيظ لأبسط الأسباب، فلا تفتأ ترى الطلبة يخاصمون أساتذتهم وادارتهم ويهجرون قاعة الدرس ويضربون كأنما هم في سجن يودون لو أفلتوا منه.

لقد تميز التعليم المحضري بانعتاقه من اسار المادة ورغبات النفس الجامحة، وميلها الى الدعة والسكون وحبها للعاجلة، فكان ذلك من أسرار نجاحه.

وقد زار «لكرتوا» محضرة مسجد الشرفاء بمدينة نواكشوط، فلاحظ أن الطلبة الخمسين الموجودين بها يومئذ يعيشون في ظروف مزرية، ولا يكادون يجدون قوت يومهم، ولكنه وجد أن هؤلاء الطلبة لا يعيشون أزمتهم المادية، فتلك عندهم مشكلة ثانوية لا تستحق الاهتمام. وتذكر الخبير الدولي شأن طلبة التعليم النظامي، ومدى صعوبة فرض النظام في المراقد المدرسية.

انها لمفارقة غريبة تستحق وقفة تأمل واعتبار : طلبة من نفس البلد وربما من نفس المحيط القروي أو الاسري يعيشون ظرفين متناقضين، ويتصرفون ازاء حياتهم المادية بعقليتين مختلفتين : الذين يتجهون الى التعليم النظامي يجدون السكن المدرسي، والماء والكهرباء والغذاء وبذلة أو بذلتين، دون عوض، كل ذلك وهو مستاؤون متذمرون يشكون سوء أوضاعهم ويطلبون المزيد من التسهيلات، ويضربون عن الدراسة للضغط على الادارة حتى تلبي مطالبهم المادية، فاذا هي لبتها أعلنوا مطالب جديدة لا يترددون في الاضراب كرة ثانية في سبيل تحقيقها.

أما الذين يتجهون الى التعليم المحضري، فهم قوم مرت بنا صفتهم

يبيتون لا كن لديهم سوى الهوا ولا من سرير غير أرمدة غبر

«شعث الرؤوس، خلقان الثياب، خمص البطون، ذبل الشفاه، شحب الألوان، نحل الأبدان قد جعلوه الهم هما واحدا ورضوا بالعلم دليلا ورائدا، لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ ولا يملهم منه صيف ولا شتاء».

بل انهم بانتقاص الموارد وازدياد الفقر والبؤس يزدادون حرصا على العلم وطلبا له، لا يضربون طمعا ولا يعتصمون احتجاجا...

فما السر يا ترى في هذا التناقض الغريب بين فئتين تعيشان تحت سقف واحد؟

ما السر في ترف أولئك ومطلبيتهم وبؤس هؤلاء وقناعتهم (بل تضحيتهم)؟.

يعلل «لكرتوا» هذه المفارقة بأن تلاميذ المدرسة النظامية، منبتون من جذورهم، مفتقرون إلى حياة جماعية في سبيل مثل مشتركة».

ذلك أمر واقع، فالمدرسة النظامية، في غالب شأنها، فأس تقع على الغصون الطرية فتفصلها عن الجذور القوية الراسخة. ولكن الطلبة يأتون هذه المدرسة، وهم على الفطرة، ثم يحيون فيها حياة جماعية خصوصا الذين يقيمون في السكن المدرسي، إلّا أن هذه الحياة لا تضمن حيوية الود وحرارة الالفة التي تقع بين طلبة المحاضر.

يبقى عنصر حاسم، هو عنصر المثل، فللمدرسة مثلها المهلهلة، ومطامح شبابها، ولكن هذه المثل والمطامح، وان كانت نبيلة لا تعارض، بل تشجع أحيانا، المطلبية و«الدلال» على العلم والمعلمين.

وهنا فرق جوهري بين المدرسة والمحضرة، ولو استبدلنا المثل بالدوافع لتبينا ملامح الفرق بوضوح.

ان الدراسة النظامية بنيت في أساسها على روح الانتفاع، فالتلميذ يُسأل في المدرسة الابتدائية عن رغبته، فاذا لم يفصح عنها لقن هذه الرغبة.. انه يريد أن يكون ضابطا أو وزيرا أو مهندسا... الخ.

وبعبارة أدق، يريد الطفل أن يكون صاحب نفوذ اجتماعي، وصاحب دخل نقدي وفير مضمون. وليست المدرسة إلّا سلما لهذه الغاية، وما درجات السلم إلا الامتحانات التي يجتازها الطالب للحصول على شهادة تزين جدران بيته مستقبلا وتدخل ملفه الوظيفي فاذا هي مورد رزق اضافي.

المدرسة النظامية هي مدرسة مادية الدوافع، ولذلك يهتز الارتباط بها ويتخلخل كلما اهتزت الظروف المادية.

والطالب في هذه المدرسة كائن غريزي يضخم انفعالاته ويسعى لاشباع رغباته ويهيمن عليه الاحسان بالزمن الحاضر، فلا يذكر المستقبل ويتطلع اليه إلا اذا كان حاضره منعما رخيا..

أما طالب المحضرة، فيتجه إليها ولا مطلب له إلّا العلم، وقد أدرك أن العلم والثراء نقيضان في غالب الأحوال فاختار العلم طوعا ورآه مجدا له وساعده في ذلك ما يلقاه به المجتمع (وان صغر) من تقدير وإكبار.

لا يتوقع طالب المحضرة شهادة ولا ينتظر لقبا، ولا يتطلع الى راتب مقتطع، ولا يحمل في قلبه عبء سنوات محددة العدد عليه أن يمضيها، ولا هو يخشى من معلمه عقوبة بدنية أو «سجنا» لأنه أحرص من معلمه على حياته العلمية.

طالب المحضرة راهب علم أو صوفي ثقافة، فالمحضرة بالنسبة له غاية لا مجرد وسيلة، بينما المدرسة لصاحبها وسيلة لا غاية.

المحضرة اختيار في ذاتها بينما المدرسة أداة اختيار لاعينه.

المحضرة مؤسسة روحية الدوافع، فليس لسلطان المادة عليها من سبيل. والطالب فيها، رغم ما يشيعه منظرو «أزمة التراث»، كائن عقلاني – روحاني، لا غريزي يطغى عنده الاحساس بالمستقبل (وصولا الى اليوم الآخر) طغيانا مهيمنا على الاحساس باللحظة الراهنة، وهو لذلك يقبل بسهولة مكابدة المشاق وتحمل التضحيات وتجشم الكلف ما دام ذلك شرطا أو عونا في ادارك طلبته، وتراه يردد :

كأنك لم توتر من الدهر ليلة   اذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

وقد اعترفت الادارة الاستعمارية بتفوق التعليم التقليدي (المحضري) على التعليم النظامي (المدرسي). ففي تقرير مفصل حول حالة التعليم صدر في ١٠/٢/١٩٥٢ ورد أن السكان لا ينظرون بعين القبول الى التعليم العربي في المدارس النظامية. ويرد التقرير موقف السكان الى انخفاض كفاءة مدرسي العربية في المدرسة النظامية. «فالمدرس النظامي لا يجد حافزا لرفع مستواه ما دام له طلبة مضمونون لا يزاحمه عليهم غيره، خلافا لشيخ المحضرة الذي يسعى دائما للرفع من مستواه، اذ لا سبيل غير ذلك لمنافسة غيره من الشيوخ في استقطاب الطلبة». فالكفاءة هي وحدها الاساس الذي يختار عليه طالب العلم شيخ المحضرة(٣٩).

وجاء في مذكرة من رئيس المكتب السياسي الاداري المساعد في كولوبا بالسودان (مالي) أن التقرير التفتيشي الذي جرى في مدرسة تمبدغه سنة ١٩٣٩ (وكانت يومئذ تابعة لمالي قبل اعادتها الى موريتانيا) أظهر تحفظ السكان ازاء تعلم العربية والقرآن في المدارس الفرنسية ٤٠).

وما ذلك إلّا أنهم يضنون بمعارفهم أن تبتذل وتهان في مدارس غير مؤهلة للنهوض برسالة المحضرة.

والواقع أن التعليم المحضري متفوق في جوانب كثيرة على كافة أشكال التعليم النظامي، الرسمية والأهلية بما في ذلك مؤسسات التعليم العربي – الاسلامي الحديثة والعتيقة.

يقول الاستاذ محمد سالم ابن عبد الودود :

«ان ما يتناول من العلم في المحاضر أعلى من جميع درجات التعليم العصري المألوف. والمتعلمون على هذا الأسلوب قد جابوا البلاد وطوفوا الآفاق وخالطوا العلماء الذين تعلموا على الأساليب العصرية وأفحموهم في الحجاج والمناظرة»(٤١).

ويصدق ذلك أيضا على التعليم العربي الحر (ومنه التعليم المحضري) اذا قورن بالتعليم النظامي العتيق، في مدارس العراق القديمة والأزهر والزيتونة والقرويين ونحوها من المؤسسات العريقة التي قيدت نفسها بنظم وضوابط دقيقة.

يقول د. بشار عواد معروف أن الاحصائيات التي أجريت على العلماء في كتب التراجم والسير بعد ظهور المدارس (في القرن الخامس الهجري) تشير بكل وضوح الى أن الذين تلقوا علومهم في المدارس كانوا قلة قليلة قياسا الى من تلقى العلم خارجها»(٤٢).

ويدلل على استنتاجه بأن الخطيب البغدادي ألف ١٤ مجلدا في تاريخ بغداد عرض فيها لالاف العلماء، ليس فيهم عالم واحد تلقى علمه في المدرسة.

ولعل من أسباب تفوق التعليم الحر على التعليم المنظمة، أيا كان، كون التعليم الحر «يوفر فوائد جمة حيث يستطيع المدرس (نضيف نحن الدارس) فيه أن يدرس ما يشاء وما يراه ضروريا وأن يقبل عليه الطلبة بسبب منزلته العلمية فقط، فيعتني بتطوير معلوماته ومعارفه»(٤٣). وذلك على عكس المدرس الذي اتخذ التدريس مهنة له.

وقد روى عن بعض العلماء أنهم لما بلغهم تأسيس المدارس، ببغداد «أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العليا والأنفس الزكية يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم. وإذا صار عليه أجرة تداعى اليه الاخساء وأرباب الكسل فيكون (ذلك) سببا لارتفاعه»(٤٤).

وبالجملة فان التعليم الحر، بوجه عام، ومنه التعليم المحضري، كان على مر التاريخ أنجح وأبعد شأوا في نشر المعرفة من التعليم النظامي، الذي تقوم عليه مؤسسات ذات موارد ومناهج وأساليب مضبوطة، حتى وان كانت هذه المؤسسات أصيلة مثل مدارس العراق والجامعات الاسلامية القديمة (الزيتونة والقرويين والازهر).

«ان الاستاذ والكتاب» (واللوح بدل الكتاب في بلاد شنقيط) «هما الدعامتان اللتان قامت عليهما مجمل الحركة الفكرية العربية قبل تأسيس المدارس وبعدها»(٤٥).

* * *

وقد عالجت اليونسكو أزمة النظام التعليمي المعاصر في موريتانيا، فجزمت في تقرير لها سنة ١٩٧٢، بأن النظام المدرسي عاجز عن الوفاء بالحاجات التربوية للمجتمع لأنه يستهلك ٢٥٪ من ميزانية الدولة ولا يستوعب من أبنائها الصغار إلا نسبة ٢٢٪. وهو الى ذلك تعليم ذو محتويات ونظم لا تستجيب لظروف البيئة وحاجاتها(٤٦).

واقترحت اليونسكو، في ضوء تحليلها، الاستعانة بمؤسسات التعليم التقليدي (المحاضر) لعلاج الأزمة وحل المشكلة(٤٧).

وليتأتى ذلك دعا بعض أهل الشأن الى أن تلبس المحضرة ثياب العصر.

٢ ـ المحضرة في لبوس العصر

الذين درسوا بتمعن أزمة التعليم المعاصر في موريتانيا وقارنوا بينه وبين التعليم المحضري وصلوا الى نتيجة واحدة لا يختلفون فيها وان اختلفوا عنها :

ليس الا المحضرة من ملاذ أو ملجإ لعلاج أمراض الجهاز التربوي الجديد وسلسلة أزماته المتكاثرة :

- أزمة المناهج
- أزمة المستويات
- أزمة الاسيتعاب
- أزمة الموارد... الخ.

ولكن كيف تتم الاستفادة من المحضرة في هذا السبيل؟

خلص الخبير الدولي لكرتوا من دراسته التي استغرقت سنوات الى اقتراح تحسين ظروف التعليم المحضري واصلاح مناهجه أو اغنائها دون المساس ببنيته وجوهر برامجه. ووضع لهذا الغرض دليلا يتضمن خطوات منهجية لتطوير عملية تلقين المعارف. ودعا الى دمج بعض الفروع العلمية في الدراسة المحضرية، مثل الحساب والجغرافيا حتى يكون باستطاعة الطلبة اذا خرجوا من المحضرة أن يندمجوا بيسر في تيار التعليم النظامي أو الحياة العملية الحديثة.

ورغم أن هذه الاقتراحات طبقت في عدد من المحاضر، فانها لم تدخل بعد في صميم الحياة العلمية التقليدية. ولعل جل المحاضر القائمة لم تحط بها علما الى اليوم.

وعلى صعيد آخر عنيت الدولة وبعض الخواص «بتطوير» المحضرة و«صيانتها» فرأى الطرفان أن الحل يكمن في انشاء مؤسسات مدرسية ذات لبوس عصري ومحتوى محضري مزيد أو منقح.

تحمل هذه المؤسسات رسالة المحضرة في الأوساط الحضرية وتوفر لطلبة المحاضر العتيقة فرص الالتحاق بمدارس نظامية تقدم لهم شهادات يندمجون بها في الحياة العلمية والعملية الحديثة دون أن ينسلخوا من روح المحضرة.

وقد أنشئت لهذا الغرض جمعيات ومعاهد ومدارس تحاول جهدها أن تكون سفينة نجاة التعليم التقليدي، ونذكر من هذه الهيئات :

- مدارس الفلاح
- مدارس ابن عامر
- الجمعية الثقافية الاسلامية بموريتانيا
- الجمعية السنية السلفية
- الجمعية الخيرية الاسلامية المشرفة على معهد أبي تيلميت
- التجمع الثقافي الاسلامي المشرف على معاهد الفتح.
- الجمعية الخيرية الاسلامية بأكجوجت
- معهد عبد الله بن عباس في نواكشوط
- معهد أبي بكر الصديق في نواكشوط
- معهد الفاروق في نواكشوط
- معهد احياء التراث الاسلامي في أكجوجت
- المدرسة العربية في غازة
- مدرسة آل الشيباني في الركيز
- مدرسة أبي بن كعب في بابابي
- مدرسة العون في نواكشوط
- مدرسة الاحرار في نواكشوط (تجربة لم تعمر).

اضافة الى المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية الذي أسسته الدولة.

لقد اتبعت هذه المؤسسات منهجا توفيقيا، فأخذت من نظم العصر ومناهجه، ومن روح المحضرة وبرامجها. ولم يكن لها أن تحيد عن هذا السبيل، فقد قام على انشائها وادارتها في الغالب مثقفون مخضرمون تكونوا في أجواء محضرية ولم ينسوا نصيبهم من الثقافة والحياة المدنية الحديثة.

ويكفي أن نذكر، على سبيل المثال ثلاثة من هؤلاء : سليمان ابن الشيخ سيديا مؤسس الجمعية الخيرية الاسلامية بأبي تيلميت، وعبد الله بن بيه مؤسس المدرسة العربية بغازة ومحمد الحافظ النحوي مؤسس التجمع الثقافي الاسلامي، فثلاثتهم رجال دولة سابقون : رئيس جمعية وطنية (برلمان) ووزيران.

ولنتبين ملامح هذا المنهج التوفيقي على نحو أفضل نعمد الآن الى بعض «المحاضر» العصرية نلم بجانب من مناهجها وأدوارها التربوية :

مدارس الفلاح :

هذه أقدم مدرسة (بل شبكة مدارس) حرة في البلاد، من الفئة التي تطمح الى وراثة المحضرة وخلافتها في أداء دورها العلمي وحمل رسالتها الاسلامية.

وقد بدأت مدارس الفلاح بمدرسة صغيرة أسسها الحاج محمود با، بعد عودته من الحج، في قرية «جول» في جنوب البلاد، وكان تأسيس هذه المدرسة في ١٥ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م.

وأخذت مدارس الفلاح من «المحضرة» ترحالها، وكانت مدفوعة الى ذلك دفعا بسبب ضغوط السلطات الفرنسية ورقباتها الشرسة... وهكذا حول الحاج محمود با مدرسته الى دكار وارتحل بطلابها المائة والخمسين في موكب مشاة يقودهم علي محمد با، الذي أصبح فيها بعد (سنوات السبعينات) سفيرا لموريتانيا في دولة قطر.

وبعد سنتين حملت مدارس الفلاح عصا التسيار من جديد وحطت رحالها بمدينة خاي في مالي مرتحلة بمئات الطلبة من موريتانيا والسنغال ومالي وغينيا.

وتنحصر مهمة مدارس الفلاح في نشر الاسلام والثقافة العربية في الدول الافريقية وقد سجلت نجاحا باهرا في مهمتها هذه رغم العنت الذي لقيته على عهد الاستعمار.

واليوم تنتشر مدارس الفلاح في موريتانيا (فروع في ٩ مدن من مراكز ضفة نهر السنغال بالاضافة الى العاصمة) والسنغال (٣٢ مدرسة) ومالي (٥ مدارس) وغينيا (٣ مدارس) وليبيريا (مدرسة واحدة) والكاميرون (٤ مدارس) وزايير (مدرسة واحدة) والكونغو (مدرسة واحدة).

ويلتحق سنويا بهذه المدارس ٥٠٠٠ تلميذ، منهم ١١٠٠ تلميذ يلتحقون بفروع المدرسة في موريتانيا.

وتقتصر الدراسة حتى الآن على المرحلتين الابتدائية والاعدادية، بعدها تسعى المدرسة في الحصول لصفوة تلاميذها على منح لمتابعة الدراسة.

ويساعد مدارس الفلاح في مهمتها الدينية ٨٩ مسجدا أسسها المرحوم الحاج محمود با[٤٨] ويخلفه في مهمته اليوم الأستاذ محمد الغالي با.

مدارس بن عامر :

تحمل هذه المدارس اسم أبي بكر بن عامر أبرز أمراء الدولة المرابطية الأولى وأطولهم يدا في الجهاد، ويديرها الأستاذ محمد الأمين الشيخ، وقد تأسست في ٢١ يوليو ١٩٦٣، لتنشىء شبكة من المراكز التعليمية تجمع بين تلقين المعارف الاصلية - وهي الأساس - والعلوم العصرية. وتدرجت في مسيرتها التربوية من المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية، ففي سنة ١٩٨٤ - ١٩٨٥، حصل ١٥ طالبا على اجازة الثانوية للعلوم الاسلامية.

وقد غطت المدارس جل المراكز القروية والحضرية، واعتمدت البساطة في أساليب الادارة مستنيرة بنهج المحضرة، فكانت تكتتب في كل حي تفتح فيه فرعا جديدا مدرسا أو مدرسين من أهل الحي ومديرا مشرفا غير متفرغين توفر لهم مبالغ رمزية زهيدة تشجيعا على عمل كان عليهم أن يقوموا به على سبيل التطوع. ولا تسلم هذه المبالغ إلّا دفعة واحدة في ختام السنة الدراسية، وبعد استلام التقارير، فيحد ذلك من تعقيدات التسيير.

وبهذه الطريقة يتم اكتتاب جميع موظفي المدارس باستثناء موظفي الادارة العامة محدودي العدد، فجهاز المدرسة البشري هو في الواقع جهاز شبه متطوع ولكنه منضبط في أداء مهامه.

ويبين الجدول أدناه تطور أعداد المدارس وموظفيها وتلاميذها الى سنة ٤ - ١٩٨٥.

المدارس	المراكز التي توجد فيها	عدد المدارس الاجمالي	عدد الفصول	فصول القرآن	فصول الحديث والفقه	فصول الثقافة العامة
	١٥٧	١٧٣	٢٠٢	١٤٧	٣٠	٢٥
العمال	عدد العمال الاجمالي	المفتشون	المديرون	الاساتذة	المراقبون	موظفو الادارة العامة
	٤٠٧	١٥	١٧٣	٢٠٥	٩	٥
التلاميذ	عدد التلاميذ الاجمالي	الناجحون	الراسبون	حفاظ القرآن	حفاظ مائة حديث	النسبة المئوية للنجاح
	٥١٩٨	٤٠٩٠	١١٠٨	٤٤١	١٢٠	٧٨,٦٨٪

مدرسة الاحرار :

أسس هذه المدرسة، بمدينة نواكشوط شاب خريج محاضر، قدم من الحوض الشرقي وعمل خياطا وتاجرا، قبل أن يباشر العمل في مدرسته هذه.

كان في المدرسة خلال أحد المواسم الدراسية :

- ٢٠٠ تلميذ تتراوح أعمارهم بين ١٢ و٢٠ سنة.
- ٢١ طفل بين ٦ و٩ سنوات.
- ٢٥ فتاة بين ١٢ و١٥ سنة.

وكان للمدرسة منهج متنوع جمعت به بين مقررات المحاضر المتوسطة والمدارس النظامية، وتم توزيعه على حصص زمنية بالشكل التالي :

- القرآن والتفسير : ساعة واحدة.
- الحديث النبوي : نصف ساعة.
- الفقه : ساعة.
- الأدب : ساعة.
- النحو : ساعة.
- الاملاء : نصف ساعة.
- التاريخ : نصف ساعة.
- الجغرافيا : نصف ساعة.
- اللغة الفرنسية : ساعة كاملة.
- العلوم الطبيعية : نصف ساعة.
- الهندسة : ساعة كاملة.

وقد استعانت المدرسة بطلبتها القدماء وبخريجي مدارس الدولة لتدريس المواد الحديثة.

وكان لكل فئة من التلاميذ وقت محجوز :

- الأطفال : من الثامنة الى العاشرة صباحا.
- البنات : من العاشرة الى الثانية عشرة.
- الشباب : من الخامسة عصرا الى السابعة.

وكانت المدرسة تساعد طلبتها في تحضير الامتحانات الحرة التي تنظمها الدولة، وقد نجح بعض هؤلاء الطلبة في الالتحاق بالدرك والجمارك والحرس وتمكن بعضهم من الالتحاق بمدارس الدولة الثانوية أو مدرسة المعلمين.

لقيت هذه المدرسة نجاحا بينا، ولكنها أغلقت أبوابها في النهاية لأن مديرها نجح في امتحان الاعدادية في المدارس النظامية، وأصبح معلما في سلك الوظيفة العمومية!(٤٩).

معهد عبد الله بن عباس للدراسات الاسلامية :

أسست هذا المعهد لجنة من المحسنين في فاتح ديسمبر ١٩٨٤ م، واسندت ادارته الى الاستاذ محمد فاضل بن محمد الأمين وورد في أهدافه أنه «يسعى في حدود امكاناته الى اعادة الاعتبار الى المحاضر واعطاء تلامذتها فرصها لتركيز معلوماتهم في مجالات علمية تخصصية تجعلهم جديرين بممارسة الوظائف وتحمل المسؤوليات وإبلاغ كلمة الله تعالى وتشجيع التعليم الاصلي وتطويره بما يتلاءم ومقتضيات العصر».

ويندرج المعهد في اطار المؤسسات الجامعية، فهو يقبل الطلبة الفائزين في مسابقته ويكونهم ٤ سنوات يتخرجون في نهايتها بشهادة الليسانس في أحد اختصاصين : القرآن والحديث أو الفقه وأصوله..

وفي كل من الشعبتين مواد عصرية وثقافة عامة يوسع بها الطالب دائرة معارفه.

وهذا لاكتمال الصورة منهاج المعهد(٥٠) :

أولا : شعبة القرآن والحديث :

١ ـ في التفسير : تفسير آيات الأحكام تفصيلا وغيرها اجمالا مع التركيز على المحاور واستخلاص العبر.

٢ ـ في المقرا : اتقان رسم القرآن وضبطه وقراءة الامام نافع برواية الامام حفص وأخذ السند في القراءات السبع.

٣ ـ في علوم القرآن : دراسة شاملة لعلوم القرآن اعتمادا على الاتقان للسيوطي.

٤ ـ في الحديث : حفظ وتفسير ألف (١٠٠٠) حديث موزعة كما يلي :

أ ـ أحاديث الأحكام (٦٠٠) حديث اعتمادا على عمدة الاحكام فيما اتفق عليه البخاري ومسلم.

ب ـ أحاديث الترغيب والترهيب (١٠٠) حديث مختارة يدور معظمها حول دعائم الاسلام وكبائر الذنوب.

ج ـ أحاديث التوجيه الاسلامي (٣٠٠) حديث موزعة على المحاور المهمة في كل محور منها ما بين (٢٠ ـ ٣٠) حديثا ومن أمثلة المحاور :

١ ـ الايمان ويشمل (الايمان والاسلام والاحسان والكفر والنفاق ومرض القلب).
٢ ـ العلم والعمل
٣ ـ الدعوة والجهاد
٤ ـ الاخلاق الحميدة
٥ ـ اضدادها
٦ ـ طرق اكتساب المال وصرفه والحث على الاكتساب وذم السؤال (تعريف الزهد والتوكل الصحيح).
٧ ـ اشراط الساعة ومشاهد القيامة.
٨ ـ جوامع الكلم.
٩ ـ الخطب والامثال.
١٠ ـ الادعية والأذكار.

٥ ـ في علوم الحديث دراسة شاملة لعلوم الحديث مع الاعتماد على طلعة الأنوار لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

٦ ـ في الفقه : أبو محمد (نظم عبد الله بن الحاج حماه الله لرسالة ابن أبي زيد القيرواني).

٧ ـ في أصول الفقه : نظم ورقات امام الحرمين للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي.

ثانيا : شعبة الفقه وأصوله :

١ ـ في الفقه : مختصر خليل بن اسحاق.

٢ ـ في أصول الفقه : مراقي السعود لأبن الحاج ابراهيم.

٣ ـ في قواعهد : المنهج للزقاق.

٤ ـ في القرآن الكريم :

أ ـ في التفسير : تفسير آيات الأحكام والالمام بالمحاور الأخرى بايجاز.

ب ـ في المقرا : اتقان رسم القرآن وضبطه وقراءة الامام نافع برواية الامام حفص.

٥ ـ في علوم القرآن : دراسة موجزة لعلوم القرآن.

٦ ـ في الحديث حفظ وتفسير (١٢٠) بمعدل (حديث للأسبوع) موزعة كما يلي : (٥٠) للأحكام، (٥٠) للتوجيه الاسلامي، (٢٠) للترغيب والترهيب مختارة من برنامج شعبة القرآن والحديث.

٧ ـ دراسة موجزة لعلوم الحديث.

ثالثا : المواد المشتركة بين الشعبيتين :

١ ـ في بقية العلوم الشرعية : دراسة أحد العلوم التالية على التدريج :

أ ـ العقيدة : دراسة موسعة للعقيدة الاسلامية انطلاقا من القرآن والحديث والبراهين العلمية.

ب ـ قواعد اللغة العربية : تطبيق القواعد من خلال النصوص اعتمادا على التآليف التالية :

ـ في النحو : خلاصة ابن مالك.
ـ في الصرف : اللامية باحمرار الحسن بن زين.
ـ في البلاغة : النقاية لعبد الله بن الحاج حماه الله.
ـ في العروض : مجمل ابن عبد م.

ج ـ المنطق : السلم باحمرار عبد السلام العلوي.

٢ ـ في المادة العصرية : دراسة شاملة لمحاورها الاساسية مع التركيز على ماله علاقة أكثر بالانسان. وهي على التوالي :

أ ـ العلوم الطبيعية (سنة).

ب ـ الرياضيات (سنة).

ج ـ الفيزيا والكيميا (سنة).

د ـ الفكر الاسلامي والفلسفة (سنة).

٣ ـ في اللغة الأجنبية الحية : احدى اللغتين على التوالي :

أ ـ الفرنسية (أربع سنوات)

ب ـ الانجليزية (أربع سنوات).

٤ ـ في مواد المطالعة : وهي المواد السهلة التي تكفي فيها المراجع تعطي محاضرة شهرية ومذكرة نصف سنوية وهي قسمان :

أ ـ قسم مستمر طيلة السنوات الاربع وهو :

١ ـ الدعوة الى الله تعالى
٢ ـ الأدب العربي.

ب ـ قسم سنوي وهو :

١ ـ السيرة النبوية (سنة).
٢ ـ التاريخ والحضارة الاسلامية (سنة).
٣ ـ التربية وعلم النفس (سنة).
٤ ـ الجغرافيا والتكنولوجيا (سنة).

معهد خالد للمعارف الاسلامية :

أسست هذا المعهد أيضا لجنة من المحسنين سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م، وهو يمتاز عن معهد ابن عباس بانطلاقه من المرحلة الثانوية، وشموله المرحلة الجامعية.

وقد نص المعهد على أن من أهدافه تكوين شباب «يعتز بانتمائه الاسلامي والمحضري ويدرك ادراكا كاملا حق الاسلام والمحاضر نحوه».

ويتخصص خريجوه، بعد أن ينهلوا من شتى المعارف الأصلية والعصرية في احد شعب خمسة هي علوم القرآن، والفقه، واللغة العربية، والدعوة والارشاد.

وهذا منهج الشعب على التفصيل :

أ ـ **برنامج شعبة القرآن الكريم :**

مادة التخصص الأولى :

١ ـ التفسير بتوسع على أساس المحاور الرئيسية الثلاثة (القصص والتوجيه والأحكام).

مادة التخصص الثانية :

١ ـ القراءات العشر
٢ ـ رسم وضبط العشر
٣ ـ أسباب النزول وبقية علوم القرآن بتوسع.

بقية المعارف :

١ ـ العقيدة (الشبه ودحضها)
٢ ـ الحديث (١٢٠) حديثا، (٥٠) منها في الأحكام و(٥٠) منها في التوجيه و(٢٠) في الترغيب والترهيب.
٣ ـ السيرة (أحداث وعبر).
٤ ـ الدعوة (النظرية والتطبيق).
٥ ـ الفقه (١٥٠) حصة (٥٠) منها للعبادات ومائة منها للمعاملات.
٦ ـ أصول الفقه (التركيز على المقاصد والقواعد الكلية).
٧ ـ الصرف : لامية ابن مالك باحمرار الحسن بن زين.
٨ ـ البلاغة : النقاية لعبد الله بن الحاج حماه الله.
٩ ـ العروض : مجمل ابن عبدم.
١٠ ـ العلوم الطبيعية.
١١ ـ الرياضيات.
١٢ ـ التاريخ.
١٣ ـ الجغرافيا.
١٤ ـ المنطق الصوري (قواعد المغيلي وسلم الأخضري).
١٥ ـ المنطق الرياضي.

مادة البحث (النظرية والتطبيق)

ب ـ **برنامج شعبة السنة الغراء**

١ ـ الحديث : ألفا حديث : ألفا وخمسمائة منها في الأحكام وثلاثمائة منها في التوجيه ومائتان منها في الترغيب والترهيب.

٢ ـ مصطلح الحديث وعلومه بتوسع.

بقية المعارف والبحث : نفس برنامج شعبة القرآن باستثناء مادة الحديث وبزيادة مادة التفسير.

ج ـ **برنامج شعبة الفقه الاسلامي :**

مادة التخصص الأولى :
ـ الفقه : مختصر خليل بن اسحاق.
ـ مادة التخصص الثانية :

١ ـ الفقه المقارن : بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد.

٢ ـ أصول الفقه : مراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

بقية المعارف : نفس برنامج شعبة القرآن الكريم باستثناء مادة الفقه وبزيادة مادة التفسير.

د ـ **برنامج شعبة اللغة العربية :**

مادة التخصص الأولى :

١ ـ النحو : احمرار المختار ابن بون على الخلاصة بالحواشي.
٢ ـ الصرف : اللامية باحمرار الحسن بن زين.

مادة التخصص الثانية :

١ ـ البلاغة : نور الاقاح لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.
٢ ـ العروض : مفصل ابن عبدم.
٣ ـ الفقه : الدريدية والشمقمقية ومختارات من الديوان الستي والأدب العربي.
٤ ـ الأدب وتاريخه : يختار من برامج كلية الاداب العربية.

بقية المعارف والبحث : نفس برنامج شعبة القرآن الكريم باستثناء (الصرف والبلاغة والعروض) وبزيادة مادة التفسير.

هـ ـ **برنامج شعبة الدعوة والارشاد :**

مادة التخصص الأولى والثانية :

١ ـ العقيدة : العقيدة بتوسع مع التركيز على مسيرة الانسان ومصيره.
٢ ـ التفسير : التركيز على القصص والتوجيه والأحكام بالترتيب.
٣ ـ الحديث : التركيز على التوجيه والترغيب والترهيب والأحكام بالترتيب.
٤ ـ السيرة : التركيز على العبر.
٥ ـ الفكر الاسلامي : التركيز على رد الشبه.
٦ ـ التاريخ : التركيز على العبر.
٧ ـ الحضارة : التركيز على العبر.
٨ ـ أصول الفقه : التركيز على حكمة التشريع اجمالا.
٩ ـ الفقه : التركيز على حكمة التشريع تفصيلا.
١٠ ـ الدعوة والارشاد : (النظرية والتطبيق)

المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية :

أسست الدولة هذا المعهد سنة ١٩٧٩، وقررت أن يكون مفتوحا أمام حملة الثانوية العامة العربية، وأمام طلبة المحاضر بعد اجتياز مسابقة.

ويخرج المعهد بعد ٤ سنوات، القضاة والاساتذة (المدرسين) والدعاة، مزودين بشهادة الليسانس.

ويدير المعهد منذ تأسيسه الأستاذ أسلم بن سيدي المصطف، وهو مخضرم الثقافة. ويتكون منهج المعهد من المواد التالية :

١ ـ التفسير : آيات الأحكام لأبن العربي محاذ لابواب الفقه.

٢ ـ علوم القرآن : أسماؤه ـ تنجيمه، نزوله على سبعة أحرف ـ المكي والمدني ـ أسباب النزول ـ الناسخ والمنسوخ ـ جمع القرآن ـ التفسير والمفسرون بالدراية وبالرواية ـ مراتب التفسير ـ أوجهه.
الكتاب المقرر : هو علوم القرآن للدكتور صبحي صالح، ولمناع القطان.

٣ ـ الحديث : موطأ الامام مالك رضي الله عنه.

٤ ـ علوم الحديث : أنواع الحديث : الصحيح ـ الحسن وأنواعه ـ أنواع الضعيف ـ رجال الحديث ـ ودرجات الصحة ـ درجات الضعف ـ التعديل والترجيح ـ أنواع الرواية.. والكتاب المقرر في هذه المادة مختصر علوم الحديث لأبن كثير.

٥ ـ الفقه المالكي : كل العبادات والمعاملات بما يتماشى ونص خليل. والكتاب المقرر هو حاشية الدرديري علي خليل.

٦ ـ أصول الفقه ـ وتشتمل على :

أ ـ مقدمة في المنطق وتعريف هذا الفن، والحكم، والخطاب تكليفا ووضعا وموانع، واللغة ثبوتا وحقيقة ومجازا، واشتقاقا واشتراكا ومعربا ومجملا ومبينا ـ والامر والنهي والظاهر والمؤول والدلالات. والعام والخاص. والمطلق والمقيد وكتب مرتبة كما يلي :

ب ـ كتاب القرآن / وقوع النسخ ـ نسخ الكتاب بالسنة ونسخ السنة بالكتاب وما يتعين به النسخ.

ج ـ كتاب السنة / تعريفها ـ أنواعها ـ مكانتها من الكتاب الكريم ـ الخبر وما يتعلق به وما يقيده وأنواعه وشروط قبوله، والرواية وتعريفها وتعريف الصحابي.

د ـ الاجماع / معناه ـ تعريفه ـ امكانية قطعيته وحجيته.

هـ ـ القياس لغة وشرعا، أركانه والخلاف حوله، العلة تعريفا وشروطا، الفرق بين العلة والحكمة، المسالك وقوادح العلة.. الادلة المختلف فيها : قول الصحابي ـ الاستصحاب ـ شرع من قبلنا ـ الاستحسان ـ المصالح المرسلة ـ العرف ـ التعارض والترجيح ووسائله ـ الاجتهاد شروطه وأنواعه، ومناقشة غلق بابه، ثم التقليد تعريفا وحكما وأنواعا، والافتاء تعريفا وشروطا وآدابا. ثم المقاصد والقواعد الخمسة التي أسس عليها الفقه. والكتاب المقرر هو جمع الجوامع.

٧ ـ العقيدة / التعريف بها ومفهوم الايمان ـ وجوب الايمان بما ثبت به العلم ـ درجات الاعتقاد ـ التفكير فرض اسلامي ـ تعطيل العقل ـ العلم قبل الايمان ـ صفاته تعالى وأدلتها من الكتاب ـ الذات الالهية لا تدرك ـ العجز عن ادراك الشيء لا ينفي وجوده ـ الصفات الثبوتية (المعاني) صفاته تعالى وصفات خلقه ـ القضاء والقدر ـ البرزخ ـ البعث ـ اليوم الآخر ـ الحساب ـ الشفاعة ـ أخذ الكتاب ـ الحوض ـ الصراط ـ الجنة والنار ـ شبهات يثيرها أعداء الاسلام. الكتاب المقرر عقيدة ابن أبي زيد القيرواني.

٨ ـ السيرة النبوية / مقدمة عن المناخ والارهاصات / وفاة أبويه صلى الله عليه وسلم، ورضاعه ـ شق صدره وكفالته ـ رعيه الغنم وسفره الى الشام ـ حلف الفضول ـ زواجه بخديجة ـ بناء الكعبة ـ غار حراء ـ سيرته قبل البعثة ـ البعثة وبدء الوحي ـ فترة الوحي ومراحل الدعوة الاربعة ـ أول من أسلم ـ موقف أبي طالب ـ الايذاء ـ اسلام حمزة واسلام عمر، والهجرة الى الحبشة ورجوع المهاجرين ـ كتابة الصحيفة ـ الهجرة الثانية ـ الزواج بسودة ـ نقض ما أثير من غبار حول زواجه ـ ذهابه الى الطائف ـ الاسراء والمعراج ـ العقبتان ـ هجرة المسلمين الى المدينة ـ المؤتمر الفاشل في دار الندوة ـ هجرته صلى الله عليه وسلم وطريقه ـ أول جمعة صلاها ـ اخوة الاسلام ـ وضع أسس الدولة ـ بناء المسجد ـ الغزوات والسرايا ـ تحويل القبلة.. وكل نواحي سيرته صلى الله عليه وسلم، والكتاب المقرر سيرة ابن هشام.

٩ ـ اللغة العربية :

أ ـ النحو ــ لمحة تاريخية ـ أقسام الكلمة ـ موانع المركبات واعرابها ـ علامات الاعراب وموانع النيابات وملقحاتها ـ ما لا ينصرف وشروطه ـ التعريف والتنكير ـ الموضوعات من الاسماء، دراسة في المبتدأ والخبر وما يدخل عليها من عوامل ككان، وان وظن وأخواتها ولا ولات ـ مواضع فتح الهمزة وكسرها من (أن) ـ الفاعل ـ واحكامه ـ نائب الفاعل وأحكامه، منصوبات الأسماء ومجروراتها والتوابع ومباحث الفعل ومعاني الحروف، وما يلحق بذلك من مباحث وتكملات.. والكتاب المقرر هو ابن عقيل على ألفية بن مالك، الصوتيات

والالسنيات، ونحو الجمل الحديث. وليست مقررة على الشعبة الشرعية، بدءا من الاختصاص.

ب ـ الصرف : مدخل الى علم الصرف ـ تقسيم الاسم تجريدا وزيادة ووزنا وجمودا واشتقاقا ـ مصادر الثلاثي ـ المصدر الدال على المرة أو الهيئة ـ اسم الفاعل والمفعول ـ الصفة المشبهة باسم الفاعل ـ اسم التفضيل ـ أسماء الزمان والمكان ـ والالة ـ المقصور والمدود القياسي والسماعي ـ الصيغ والجموع ـ الأوزان ـ التصغير ـ النسبة.. الخ. أقسام الفعل ـ وأوزان الرباعي المزيد ـ معاني صيغ الزوائد ـ الرباعي المجرد والثلاثي المزيد ـ الفعل جمودا وتصرفا وتعديا ولزوما ـ أحرف الزيادة ـ همزة الوصل ـ الاعلال والابدال ـ قلب الياء والواو همزة ـ وقلب الهمزة والواو والالف ياء أو واوا ـ فاء الافتعال وتاؤه ـ ابدال الميم من الواو أو النون ـ الاعلال نقلا وحذفا ـ الادغام ـ مخارج الحروف ـ التقاء الساكنين ـ ثم الامالة والوقف. ويسير برنامج الصرف بمحاذاة شذى العرف في فن الصرف.

ج ـ البلاغة : وتستكمل فيها علوم المعاني والبيان والبديع خلال السنتين الأوليين.

١٠ ـ الأدب العربي : العصر الجاهلي ـ العصر الاسلامي في الصدر، والعصر العباسي والأندلسي، وعصر الانحطاط والنهضة والعصر الحديث شعرا ونثرا.

١١ ـ التاريخ والحضارة الاسلامية والنظم : العرب قبل الاسلام ـ عصر النبوة ـ عصر الراشدين ـ الدولة الاموية ـ النظم الادارية والمالية ـ النظم القضائية ـ الدولة العباسية والدويلات الاسلامية ـ المغرب والأندلس ـ الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين والمغول ـ الاسلام في افريقيا ـ الحياة الفكرية ـ العمارة وفنون المسلمين ـ أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الأوروبية.

١٢ ـ الفرق الاسلامية : الحديث الوارد في الافتراق طرقه وإعلاله ومعناه الجامع للفرق الاسلامية كلها، ومتى بدأ الخلاف وكيف تطور الى أن وصلت الفرق الى هذا العدد، ثم تحصيل الفرق الثلاثة والسبعين من الفرق الخمس : (أهل السنة ـ المرجئة ـ الشيعة ـ الخوارج ـ المعتزلة). ثم دراسة كل فرقة فرعية على حدة، وتحليل آرائها ومقارنتها بعضها ببعض، ثم وصف الفرقة الناجية وتحقيق النجاة لهم.

السنتان : الثالثة / والرابعة / للشعبة الشرعية

ينقسم الفقه في هذه الشعبة الى مجموعة من القوانين على النحو التالي :

المواد	**الكتاب المقرر**
١ ـ القانون الجنائي	ابن عاصم وتبصرة ابن فرحون
٢ ـ الاحوال الشخصية	ابن عاصم ومختصر خليل
٣ ـ القانون المدني	« «
٤ ـ القانون العقاري	« «
٥ ـ الاجراءات القضائية	لامية الزقاق والعاصمية
٦ ـ الاجراءات القضائة في الجمهورية الاسلامية الموريتانية	
٧ ـ الفقه المقارن	
٨ ـ أصول الفقه	اعادة لبرنامج السنتين الأولين
٩ ـ قواعد الفقه	المنهج للزقاق
١٠ ـ مدخل الى القانون الوضعي	
١١ ـ تدريبات عملية في محاكم نواكشوط	

في السنة الرابعة.

١٢ ـ اجراء مذكرة بحث للتخرج.

السنة الثالثة والرابعة / شعبة الأساتذة :

١ ـ الفقه	حاشية الدرديري
٢ ـ أصول الفقه	
٣ ـ قواعد الفقه	
٤ ـ النحو	
٥ ـ الادب العربي	
٦ ـ الفقه المقارن	بداية المجتهد
٧ ـ التربية	بداية المجتهد
٨ ـ علم النفس التربوي	« «

بالاضافة الى التطبيق العملي في السنة الرابعة في المؤسسات الدراسية في نواكشوط. ومذكرة لبحث للتخرج.

* * *

الآن وقد استعرضنا نماذج من تجارب تحديث المحاضر ووراثتها في اطار عصري، ينبغي أن نسجل أن المؤسسات المحضرية المعاصرة لم تصل بعد الى كلمة سواء في مناهجها أو نظمها.

لقد استفادت كلها من نظم العصر، في برمجة المواد وادارة المؤسسة، واستفادت كلها من المحضرة في العناية بالمعارف الأصلية، لكنها تفاوتت في مقدار الاستفادة من الطرفين.

وهذه بعض نقاط الاختلاف البارزة بين «المحاضر» العصرية :

١ ـ تشكل مدارس الفلاح وابن عامر مؤسسات مدرسية اعدادية وثانوية، بل وابتدائية، بينما ترقى المعاهد الثلاثة المذكورة الى المستوى الجامعي، وهذا اختلاف لا ضير فيه لأنه أدعى الى التكامل والتعاون على تغطية الاحتياجات التربوية في مختلف المراحل.

٢ ـ تختلف المؤسسات في نظمها المالية اختلافا بينا، فالمعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية يقدم لطلبته (أو لفئة منهم) منحا دراسية كالمنح التي توفرها المدارس المهنية النظامية العليا، أما معهد ابن عباس ومعهد خالد فيوفران منحة رمزية بحدود ١/٨ من منحة المعهد الرسمي الذي ترعاه الدولة.

ومن الطبيعي أن لا يكون للتلاميذ منح في مدارس الفلاح ومدارس ابن عامر..

وتشترك المعاهد الثلاثة الأولى في اكتتاب الأساتذة، متفرغين، أو التعامل معهم بالحصص المدرسية على أساس متفق أو متقارب.

٣ ـ وكأن الاختلاف في النظم المالية يؤشر درجة القرب أو البعد من المحضرة، فيما يتعلق بالمناهج، ففي معهد ابن عباس ومعهد خالد نجد تركيزا واضحا على المتون التي ألفها علماء شناقطة، بينما لا نكاد نجد أثرا لهذا الاتجاه في منهج المعهد العالي للدراسات الاسلامية.

٤ ـ وفرق آخر هو أن معهد ابن عباس (وكذلك معهد خالد) يحرص على احياء سنة الحفظ التي قامت عليها الدراسة المحضرية، فهو يرى أن «اعطاء الشهادة لمن لا يحفظ شيئا مما درس ضرب من شهادة «الزور»»، ولكنه ينحني لكبرياء العصر المتفلت من عقال الذاكرة، فيكتفي بحفظ نسبة ٢٥٪ من المواد الشرعية المقررة.

أما في المعهد العالي، فلا تجد اشارة في هذا الاتجاه.

وهكذا فلو لا أن في نفوس الشباب بقية مما ترك الأولون، ولولا ضيق المسلك الى المعهد العالي للدراسات الاسلامية، وغيره من مؤسسات التعليم التي ترعاها الدولة، لما وجدت دور التربية الاخرى التي ترث المحضرة، موطأ قدم لها في رحاب المدينة.

وحين نقول أن هذه المدارس والمعاهد «ترث المحضرة» فاننا نعني ما نقول فليست مهمة هذه المؤسسات صيانة المحضرة، بل خلافتها ووراثتها.

وبعبارة أخرى تبدو هذه المؤسسات الحنون المشفقة على المحضرة وتراثها وكأنها صديق أناني أو عدو رحيم للجامعة البدوية العتيقة.

ان معاهد نواكشوط والمدارس الاصلية الحديثة تشكل أكبر منافس لجامعات البادية الصامدة، فالقلة من الطلبة الذين كانوا يلوذون بمحاضر القرى والبوادي، منصرفين عن المدينة وضبابها الروحي والثقافي، أصبحوا اليوم ينسحبون تدريجيا الى هذه المؤسسات التي تقدم لهم تعليم المحضرة وتوفر لهم ظروفا معنوية ومادية أفضل وتسقط عنهم تهمة «البداوة» و«التخلف» التي يواجههم بها الحضريون المتزايدون.

ان المعاهد الاسلامية الحديثة تمتص دماء المحاضر وان كانت لا تهدرها.

* * *

في نفس الاتجـاه (التحديث والوراثة بخير) تنصب سياسة الدولة وتوصيات الملتقيات الاسلامية في البلاد.

ففي المؤتمر الأول للجمعية الثقافية الاسلامية، لا نجد تصورا دقيقا لسبل حماية المحضرة، ولكننا نجد توصيات عامة من منطقة الحرص عليها :

١ ـ التشجيع المعنوي لشيوخنا وطلابنا وتقديم الدعم المادي لهم.

٢ ـ العمل على تطوير أساليب التدريس في «المحاضر» تطويرا يجعلها تختار الطرق الاكثر اقتصادا في الوقت والجهد والامكانات الاكثر انتاجا.

٣ ـ تأهيل خريجي وطلاب هذه «المحاضر» للاندماج في المجتمع العصري من أجل التأثير المتبادل لينتفع الناس بهم وذلك بمنهجم شهادة مماثلة لشهادات زملائهم في المدارس الرسمية.

٤ ـ تشجيع المحسنين الراغبين في الخير على اقامة المزيد من الأوقاف الاسلامية التي يغطي ريعها جانبا من تكاليف المعيشة لهؤلاء الطلبة.

٥ ـ العمل على الاتجاه نحو المسجد لجعله محلا للتدريس والافتاء إحياء لرسالته العلمية التي كان يتمتع بها في صدر الاسلام.

٦ ـ انشاء حلقات خاصة لتدريس العلوم الاسلامية للنساء في المحاظر والاستفادة من التجارب التي انشئت في بعض الأماكن مل «بارين» و«النباغيه» و«اكجوجت» و«اطار».

٧ ـ العناية الكافية بالدراسات القرآنية ودراسات الحديث وعلومه والعقائد الصحيحة السهلة الاستيعاب.

٨ ـ توجيه المحاظر الى المحافظة على الاخلاق ونشر الوعي الاسلامي بين طلابنا وتعويدهم على الدعوة الى الله(٥١).

وقد تقدمت الدولة الى مؤتمر وزراء خارجية الـدول الاسلامية المنعقدة بالمغرب في شهر سبتمبر ١٩٨٥ بمشروع انشاء مجمع ثقافي اجتماعي في مدينة نواكشوط يتولى الاشراف على المحاضر «وتنظيمها وتطويرها في عموم البلاد».

ووضعت الدولة خطة أولية «للنهوض بالمحاضر» تقتضي انشاء جهاز خاص مكلف بما يلي :

«أ ـ النهوض بالمحاضر والتنسيق فيما بينها وبين المصالح المعنية.

ب ـ انشاء محاضر نمونجية في أماكن منتقاة كانشاء محاظر جديدة في العاصمة وفي البيئات الزراعية حيث يمكن انشاء وحدات انتاجية زراعية تابعة للمحاظر.

ج ـ انشاء بنك للمعلومات والاحصاء عن هذه المحاظر.

د ـ الاشراف على اعداد الكوادر المحظرية ضمن خطة للتنمية الشاملة، وبرمجة هذا الاعداد في اطار علمي منظم يؤدي الى تلبية حاجات البلد من العاملين في مجال التدريس وامامة المسجد والوعط والمجالات الدينية الاخرى.

كما يلبي حاجة المساعدة الفنية الموريتانية الى الأقطار العربية والدول الافريقية والمنظمات الاسلامية العالمية حيث نشهد طلبا متزايد من هذه الجهات على الكادر المحظري للعمل في ميدان امامة المساجد والوعظ والارشاد والافتاء والبحث والقضاء...

هـ ـ تصور ووضع وتنفيذ خطة تطويرية تجمع بين الأصالة وأحداث أساليب العلوم التربوية في الحفاظ على التراث والحداثة كأمر ضروري وحاسم في التصدي للتحديات التي تواجهها المحاظر. هذا على أن يكون لهذا الجهاز ادارة مستقلة تتبعها مصالح وأقسام تتناول : المحاظر بفئاتها المختلفة ـ التخطيط ـ المناهج ـ المشاريع ـ الدورات التربوية ـ المكتبات ـ المخطوطات ـ التوثيق ـ هندسة المساجد والمباني المحظرية ـ المنح ـ المشاريع ـ معادلة الشهادات ـ التبادل الثقافي ـ العلاقات الخارجية.

و ـ دراسة امكانية انشاء بنى جهوية لمساعدة معلمي المحاظر بالاستعانة بمراكز التكوين التابعة للمعهد التربوي والمفتشيات الجهوية التابعة للتعليم الأساسي.

ز ـ العمل على انشاء مصلحة للتعليم المحظري المعصرن بالمعهد التربوي الوطني.

ح – الاعداد الواعي لبرامج تكوين تربوي وتدريب لمشايخ المحاظر والقيام بملتقيات وندوات لمنتسبي المحاظر ضمانا لاستفادتهم من الأساليب الحديثة في مجال التربية.

ط – العمل على دعم وانشاء مشاريع حرفية ووحدات انتاجية صغيرة تابعة للمحاضر تكون اليد العاملية فيها والجهة المسيرة للمشاريع من الطلبة على أن يتم الترشيد والاشراف من قبل الادارة المركزية.

ى – العمل على ايجاد مشاريع وقفية استثمارية لمصلحة المحاظر يتم من خلالها تحمل مساعدات مالية وتجهيزية للمحاظر».

تنطلق هذه الخطة الأولية من احساس ضمني بأن على المحضرة أن تتكيف مع الظروف الجديدة، فترسم السبل المعينة على تحقيق هذا الهدف.

ولكن يبقى سؤال يجب أن نجيب عليه : هل أمام المحضرة فرصة للبقاء عن طريق التكيف؟ هل يضمن لها التحديث الحماية؟ وهل هو سبيلها الوحيد للبقاء؟

٣ – هل من سبيل لحماية المحضرة ؟

بين كل مؤسسات المجتمع التقليدي الشنقيطي تبدو «المحضرة» شاهدا شبه يتيم على ابداع السلف ووفاء الخلف له. فرغم ما تعرضت له هذه المؤسسة الثقافية من هزات ونكبات فانها لم تمت بعد، وان كانت قرائن الأحوال توحي بأنها في حالة احتضار.

ومن الطبيعي أن لا تظل المحضرة سليمة محتفظة بصحتها ونقائها، حيث تعصف المتغيرات بكيان حضاري واجتماعي عام، المحضرة بعض مكوناته.

هكذا يبدو للبعض، فيجزم بأن المحضرة ظل حائل ودولة دائلة ولا يجد غير هذه النصيحة للمرابطين على ثغورها اليوم :

«ليفهم شيوخ المحضرة أن مؤسستهم لن تعيش إلا بالتكيف مع المجتمع الجديد، وإلّا فانها ستموت كما مات المجتمع القديم»(٥٢).

تبدو على هذا الانذار مسحة شفقة ويأس وحرص على أن لا تموت المحضرة رغم الحكم بأنها لن تبقى، بمعنى أن أمامها فرصة للحياة اذا هي لبست لبوس العصر وانسلخت من ثيابها «الرثة» القديمة. ولكن كيف يكون هذا التجدد والى أي حد يسمح لهذه المؤسسة بالاستمرار في أداء رسالتها بعد تغيير نمط حياتها وأساليب عملها؟

ذلك سؤال حاولت هيئات ومعاهد ومدارس عرضنا لها في الصفات السابقة أن تجيب عليه، مجتهدة في اجراء بعض الاصلاحات تراها ترميما لبناء المحضرة، وكفالة لميراثها في عصر متقلب.

والواقع أن هذه الاصلاحات تجدد المحضرة أو تحدثها، لكنها لا تصونها ولا تحميها. وسنرى فيما بعد ان كانت الحماية مطلوبة أم أن في التجديد كفاء منها.

قديما كان المستعمر حريصا على اذابة المحضرة وصهرها في التعليم النظامي بدافع الحقد والعداء.

أما اليوم فان نخبة من أبناء المحضرة وأصدقائها المخلصين يريدون كذلك تحديثها، ولكن بدافع الشفقة والحرص عليها. وهم لا يعنون في واقع الامر بصيانة هذه المؤسسة وحمايتها وانما بتجديدها وحمل مشعلها ووراثتها بخير لأنهم يرون أن المحضرة لن تبقى حية. كما كانت قبل هذا العصر، ولن تموت اذا هي قبلت أن تتبدل بعض التبدل.

يبقى أن فئة من المشفقين على المحضرة ترى رأيا آخر. ينبغي أن نسجل بدءا أن هذه الفئة هي أساسا شريحة من شيوخ المحضرة وخريجيها، أرضعتهم بلبانها ولما يسر الوهن في عروقها، فانحازوا اليها انحيازا صادقا في مواجهة ضرتها : المدرسة النظامية الحديثة التي قلما ينظرون اليها بعين الرضى.

نستطيع أن نفهم اذا، بسهولة، ما هو رأي هذه الفئة في مستقبل المحضرة، انها لا تتكلف عناء التحليل كثيرا ولكنها تقول حقا حين تجزم بأن كل دعوات «اصلاح» التعليم المحضري أو «تطويره» هي دعوات لمسخه أي أنها تدعو الى مشاريع مؤسسات جديدة هي شيء آخر غير «المحضرة» كما عرفها الناس، وان كانت مختلفة أيضا بعض الاختلاف عن المؤسسات المدرسية النظامية.

ان وجود المحضرة عند هؤلاء يساوي بقاءها بكامل بنيتها وأساليبها ومناهجها في الدراسة. ولعل الصيغة المثلى أن يظل الطلبة يقيمون تحت الأعرشة أو الخيم وأن يوقدوا النار يصطلون بها ليلا ويقرأون عليها ألواحهم أو كتبهم وأن يكتبوا بأقلام الثمام وسعف النخيل، وأن تظل حرية الطالب المسؤول مكفولة في اختيار ما يدرس ومع من يدرس ان اقتضى الامر. ففي ظروف مادية ومعنوية كهذه فقط، تستطيع المحضرة أن تؤدي رسالتها كمؤسسة للرهبنة المعرفية يفرد الطالب فيها وجهته للعلم لا ينبغي سواه ولا تصرفه عنه متع الحياة وملذاتها، ويجد طمأنينة وسكينة نفسية لا تتوفر مع ضجيج المدينةلا ولا في ظروف الحياة المترفة التي تثبط الهمم فيخلد بها طلبة العلم والعلماء الى الأرض.

ولا ينظر هؤلاء القوم الى بقاء المحضرة بكامل قيمها وتقاليدها من حيث الامكان أو الاستحالة وإنما من حيث الضرورة والوجوب، فهم يكتفون بالدعوة الى صيانة المحضرة كما هي ويجاهدون في سبيل ذلك أيما جهاد.

ولعل السبيل الى ما يريدون أن تصان بيئة المحضرة، فلا سبيل الى صيانة المؤسسة إلا بسياج عريض يصون الأنسجة الاجتماعية والاقتصادية التي ترتبط بها ارتباطا عضويا.

لا بد اذا من صيانة «البادية». وسبيل ذلك الحد من الهجرة الى المدن وتشجيع الاقتصاد الريفي وترغيب الناس في أن يدرجوا مدرج الأولين من الاقامة في مرابع الصحراء الفيحاء وانتجاع مراعيها والنأي عن المراكز الحضرية ما أمكن ذلك. فاذا أمكن ذلك، وهو الى اليوم واقع، وان ندر، أمكن الاحتفاظ في اطار البادية بمؤسسات محضرية نموذجية هي صورة طبق الأصل أو نحو ذلك من سابقاتها.

ولكن ماعسى أن تكون، في هذه الحالة، مردودية «المحضرة» ودورها في حياة بلد متخلف «ينمو ويتطور»؟

ستكون المحضرة عنصرا في حالة الأزدواج التي يعيشها البلد بين مجتمعين واقتصادين وثقافتين، قليلة سبل الانسجام بينهما، وانما هما في صراع دائما يحقق فيه «الجديد» دوما مزيدا من الانتصارات. وما نظن أن المحضرة ستشذ عن هذه القاعدة.

سيظل خريجوها يواجهون، كما هو شأنهم الآن، أزمة آفاق.. الى أين يذهبون اذا هم «مسحوا أفواههم» من فنون المعرفة؟ أي مؤسسة توفر لهم ظروفا معاشية مناسبة؟ أي اعتبار يجدونه في بيئتهم ومحيطهم؟ لم يعد للزعامات التقليدية الدور الذي كان. وهي، فوق ذلك، مرفأ صغير لا يوفر ان وجد الا فرصا قليلة لكم كبير من الرجال. أما التعليم، فتفرغ المزيد من «المرابطين» له يقتضي زيادة مطردة في عدد المحاضر ذاتها (وعدد روادها بالطبع) وليس ذلك بالامر المتوقع. ولقد أصبحت الدولة تعين القضاة من خريجي المعاهد والكليات الحديثة، وحل «المثقف» محل «الفتى» و«ولد الزوايا» فاختفت القيمة الاعتبارية التي كان المجتمع يزن بها فئة عريضة من أعضائه الصالحين الذين يحفظون القصائد ومقطعات الشعر، يضربون منها الأمثال ببديهة حاضرة ويستطردون بها الحكم في أحاديث الحياة اليومية، ويتحدثون في النوازل والنوادر الفقهية ويتبادلون الاحاجي والألغاز والمساجلات الأدبية باقتدار ويضربون بسهم في كل موضوع علمي أثير، فهم منعشو حلقات السمر ومجالس الشاي، واجتماعات الحي صباح مساء.

يوشك اذا أن يأتي يوم، واذا بخريج المحضرة يحرق الأرّم أسفا على حظه، يود لو استقبل من أمره ما استدبر، وقد انتابه شعور خانق بأن جهده ذهب هباء ووقته ضاع سدى. فهل باستطاعتنا أن نتفاءل للمؤسسة المحصنة في بادية محصنة محتملة؟.

لقد تحدثنا عن أزمة الافاق، بناء على افتراض يجب أن نقرر الآن أنه ليس مسلما، وهو استمرار الحياة البدوية على ما عليه كانت في مناطق ذات قيمة من البلد، ومناعة هذه المراكز البدوية في وجه طغيان الحياة الحضرية.

ففي وجه هذا الاحتمال تقوم عوائق طبيعية لا سبيل الى قهرها الا برحمة من الله، فما من سبيل للقضاء على اثار الجفاف (ومنها شيخوخة المحضرة واحتضارها) إلا بمواسم موصولة من الأمطار تزهو بها الأرض وتربو وتهتز وتنبت من كل زوج بهيج. واذا حدثت دورة خصب نتمناها من الأعماق، فان عوائق نفسية ستظل قائمة في وجه انتعاش المستعمرات البدوية المتنقلة.

فقد رأينا البدو الذين هجروا الريف الى المدينة، يرفضون العودة الى مناطقهم اذا وقعت الأمطار وأصبحت التربة صالحة لاحتضان البذور، ولهذا لجأت الدولة الى نوع من الضغط الذكي على هؤلاء، فوفرت لهم شاحنات تنقلهم مجانا ووعدتهم اذا هم استعملوا أرضهم وزرعوا ونموا ماشيتهم، كما كانوا يفعلون، بمساعدات غذائية مجانية تنضاف الى ثمرة مجهودهم الزراعي والتنموي، وعجلت لهم بعض هذه المساعدات لتطمئن قلوبهم. ومع ذلك ظلت النتيجة محدودة، خاصة وأن العائدين الى البادية في شاحنات الدولة لا يلبثون أن يكروا الى المدينة فارين من الريف بعد «اجازة» محدودة الامد...

لقد عزفت النفوس عن الحياة البدوية، إلّا ما كان منها «تغيير جو» وفسحة وقت ونزهة عابرة تسمح بالعودة الى حياة المدينة بجد ونشاط. ولجاذبية المدينة بمغرياتها، دور واضح في تكوين هذا العائق النفسي، ولعله أكبر العوائق وأخطرها شأنا.

ثم ان الذين يعمدون الى البادية يرتضونها سكنا لهم لا يملكون اليوم، لأسباب أسلفنا بعضها، أن يعشوا من مواردهم الخاصة، بل لا بد أن يأتيهم رزقهم رغدا من المدينة، فاذا لم يأتهم أتوه. لقد أصبحت البادية، وان شطت ديارها، مجرد ضاحية من ضواحي المدينة، فكيف يستطيع سكان الضاحية أن يبقوا بمنأى عن تأثيرات المركز؟ كيف يستل هؤلاء شعرة الغذاء والملبس والمركب من عجين الحضارة وفيه الأخلاط الثقافية المتجددة بنية ومادة وأسلوبا؟.

قد نبدو متشائمين، ولكن هكذا يبدو الواقع بضبابه وغيوم آفاقه فليس من الواقعية أن نتوقع خروج ٥٠٠,٠٠٠ نسمة من مدينة نواكشوط وعودتهم الى مضارب البادية، وقليل من القرى التي كانوا فيها قبل ١٠ سنوات أو ٢٠ سنة لا أكثر. وليس باستطاعتنا أن نحرر النفوس من الاستعمار الاستهلاكي المدني الذي يهيمن عليها ولا أن نقنع الشباب بأن الكتابة على الألواح خير من الكتابة على الدفاتر ولا بأن صفاء البادية ونقاء جوها وبساطة حياتها خير من أضواء المدينة ومياهها ومطاعمها ومراكبها وأسواقها ودور السينما، وأجهزة التلفزيون والفيديو...

لقد انقطع خط الرجعة، وهكذا هي سنة الحياة، ينتقل الناس من طور البداوة الى طور التقري والتحضري. أما العكس فسبئية نادرة الوقوع.

ليس من أمل إلّا في الحفاظ على البقية الباقية من أهل البادية حتى يرعوا عهدها حق رعايته وقد رأينا أن هذا الامل ضئيل.

ومع ذلك فمدار التشاؤم هو أساسا : أن تبقى المحضرة حية محتفظة بقيمها وتقاليدها وخصائصها المميزة، كما كانت منذ قرن من الزمن، ذلك ـ بغض النظر عن العوامل الأخرى ـ أن وظيفتها التربوية لم تعد تلبي احتياجات المجتمع الجديد، فهي لا تخرج أساتذة التعليم المعاصر بله الأطباء والمهندسين والطيارين والضباط والصيادين والاقتصاديين ومصممي الأزياء ورجال الأعمال.. الخ.

ان محضرة الامس لن تكون اليوم وغدا المدرسة الجامعة التي بها قوام الحياة الثقافية للمجتمع، ولكن باستطاعتها وان أصبحت أوهن من ذي قبل، أن تحتمي في جيوب بدوية (وان جلت المدينة) قابلة للبقاء الى أمد غير قصير، فتواصل رسالتها مع فرق في النتيجة كما وكيفا.

أما الفرق الكمي فهو على حساب الحاضر اذ أن رسالة المحضرة لن تنال النسبة التي كانت تنال من الناس في عهود سابقة.

وأما الفرق الكيفي فهو لصالح المجتمع الراهن، لأن دور المحضرة أصبح أخطر من ذي قبل وأهم في تحصين القيم وصيانة التراث وامداد الانسان بنسغ روحي يطعم به حضارته المادية.

ومن هذا المنطلق تكون حماية «المحضرة» ضرورية لأنها حماية، وأن بقدر محدود لقيم المجتمع وتدعيم لمؤسسة لا أجدر منها برعاية هذه القيم.

قد يكون من المناسب تشجيع المبادرات التي يقوم بها خريجو المحاضر والمثقفون على ميراثها لانشاء معاهد ومؤسسات دراسية أهلية ذات اهتمامات محضرية وأساليب عمل عصرية، فذلك اتجاه العصر، وما من سبيل لايقاف حركة التاريخ، وان لم نرض عن بعض مسالكها..

لكن تجديد «المحضرة» يختلف عن «حمايتها»، التجديد مطلوب، وهو واقع وان لم نطلبه. أما «الحماية» فضرورية وان لم تطلب، وهي عمل صعب بالطبيعة، لأنها مقاومة قاسية لسيل جارف من المتغيرات التي تتحدى...

يجب أن تبقى «المحضرة» حية، تعمل كما كانت بيناها وأساليبها ومناهجها ونظم حياتها، لا لتكون معالم أثرية وسياحية، يتفرج عليها الناس، ولكن لتؤدي دورا، لا أجدر منها به، في رفد الحركة العلمية والثقافية في البلاد وتعميم القراءة والكتابة وتحصين القيم.. لتكون سارية من السواري التي يقوم عليها وبها توازن الصرح الحضاري حتى لا ينهد أو يختل توازنه.

وفي هذا السبيل، يمكن أن تؤدي المحضرة خدماتها للمجتمع الجديد كمجمع للمعارف الاصلية (علوم الدين واللغة العربية)، وكمركز اعداد مدرسي ومهني يحضر الطلبة للعمل أو لمتابعة الدراسة في مراحل أخرى من المعاهد والمدارس النظامية، وكجهاز للتربية المستمرة.

١ ـ فالمجتمع يحتاج باستمرار الى طائفة من بنيه تنفر لدراسة الدين ودراسة أصلية متعمقة والتبحر في علوم اللغة العربية.

والمحضرة لاعداد هذه الفئة من الفقهاء والعلماء أكثر أهلية وأعلى كفاءة من المدرسة المعاصرة.

وسيظل المجتمع بحاجة الى أئمة ومفتين وعلماء وشيوخ تدريس محليين، هم جنود مجهولون، قد لا تعرفهم الدولة ولا يعرفونها، ولكنهم من مواقعهم المغمورة يؤدون رسالة حضارية لا يجوز اهمالها ولا التقليل من شأنها.

٢ ـ والمحضرة أهل لتزويد الطالب بقاعدة من الثقافة اللغوية والدينية عريضة بها ويصبح مؤهلا لاجتياز امتحانات مهنية (للقضاء، أو التعليم أو التحرير في الصحف والاذاعة، أو الكتابة ونحو ذلك). فاذا اجتاز الطالب الامتحان بنجاح استطاع أن يلتحق بسلك مهني بعد الالتحاق بحلقة دراسة أو دورة تدريبية تمده بالمنهج والمعطيات اللازمة لمزاولة مهنته الجديدة.

وقد أثبتت المحضرة كفاءتها لهذه المهمة في تاريخ موريتانيا الحديثة، لأن خريجيها استطاعوا بسهولة أن يندمجوا في أجهزة الدولة ويقدموا لها الخدمات الجلى.

٣ ـ وفي حالة أخرى، يستطيع طالب المحضرة أن يعد نفسها فيها، للالتحاق بالمعاهد والكليات والمدارس الحديثة، ومتابعة دراسة نظامية تمكنه من الحصول على مؤهل ورقي يضفي على معلوماته صبغة الشرعية في نظم العمل والوظيفة العامة ـ ولهذه الغاية، أنشئ المعهد العالي للدراسات الاسلامية. وتوجد مؤسسات أخرى، تستطيع أن تستقبل شيوخ المحضرة كأساتذة مدرسين وطلبتها كطلبة دارسين، وان بعد اختبار مستوياتهم.

وقد سلك عدد كبير من طلبة المحاضر هذا السبيل فهم اليوم مخضرمون يجمعون الى ثقافة الآباء قسطا من ثقافة العصر. وهؤلاء «المخضرمون» خير من يسير اليوم في دروب الدولة الحديثة، لأنهم أكفاء متفتحون مستنيرون لا يرفضون العصرولكنهم يقظون لا تجتالهم شياطين المسخ الفكري والاستلاب.

٤ ـ ولعل الدور الأهم الذي تستطيع المحضرة أن تؤديه هو دورها كمؤسسة تربية مستمرة، فينبغي أن يعتاد الناس، طلبة وعمالا وموظفين، اذا هم فرغوا من دراستهم أو عملهم ولو

في اجازة أسبوع أن يقفلوا عائدين الى المحضرة يجددون (أو يقتنون) فيها معارفهم الدينية واللغوية، ويأخذون بالعيش فيها وفي رحابها حماما يخلصهم من أدران المدينة وهموم العصر، ويجددون بها العهد مع الذات النقية.

أليس من المجدي النافع أن يضرب الموظف بسهم في اجازته السنوية للمحضرة؟ ان نمط الحياة فيها وان بدا شاقا لن يكون إلا تجربة ممتعة لمن يصلون اليها وقد أرهقهم ضجيج المدينة واحتوشتهم همومها.

وليست الرياضة النفسية المعنوية في رحاب المحضرة بأصعب أو أقسى من الرياضيات الحسية التي ينفق فيها الغربيون اجازاتهم وأوقات فراغهم، فاذا هم يستمتعون بتسلق قمم الجبال الشاهقة أو عبور متاهات الصحراء الموحشة، يجدون في ذلك من اللذة ما يجدون، وهم القوم المترفون.

أليس من المجدي النافع أن تضرب المخيمات الصيفية للطلبة والتلاميذ مرة أو مرتين في رحاب المحضرة، على أن تتوجه مرة أو مرات أخرى الى هذه المدينة أو تلك... هذا المركز السياحي أو ذاك.

ان حماية «المحضرة» وتدعيم مركزها في المجتمع، تقتضي ميلاد تقاليد جديدة تقوم عليها الدولة والمؤسسات المختصة وترعاها.. فعلى الجامعات والمدارس والمؤسسات أن تنظم رحلات جماعية للطلبة أو العمال نحو المحاضر، تقسمهم مجموعات كل مجموعة تتجه الى محضرة معينة، فتندمج فيها، تقتسم الأعرشة والخيام مع طلبتها، تطعم مما يطعمون، وتحضر حلقات الدراسة ومجالس السمر المضري، فذلك ضرب من ضروب التربية المستمرة وفيه تأصيل مستمر لكيان حضاري متجدد.

هوامش وتعليقات الباب السادس

(١) راجع Le Courtois : Etude expérimentale sur l'enseignement Islamique traditionnel en Mauritanie, p. 30.

(٢) أسست هذه المحضرة في القرن العاشر الهجري.

(٣) عمل هذا العالم في السنوات الاخيرة استاذا بالمعهد العالي للدراسات الاسلامية بنواكشوط. وقد توفي رحمه الله سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م. ومن شيوخ المحاضر البارزين في هذه الولاية ممن لم يذكروا محمد محمود بن نقي الله في مدينة بومديد.

(٤) هذه أيضا من المحاضر المعمرة، اذ يعود تأسيسها الى سنة ١١٠٠ هـ.

(٥) توفي العلامة محمد عالي بن فتى سنة ١٣٩٤ هـ/١٩٤٧ م، ويدير محضرة بارينا (حيث كان المرحوم) حاليا العلامة سيدي محمد بن محمد آب.

(٦) من المحاضر البارزة التي لم ترد في القائمة محاضر آل القاضي في علب آدرس، وآل فتى الشقرويين في تنقادوم ومحمد الحسن بن أحمد الخديم في النيسير، ومحمد عالي بن نعمه في لفريوة ونافع حبيب في واد الناقة.

(٧) تعرف هذه المحضرة العريقة بـ «المحمدية»، وتضم حاليا نحو ١٥٠ طالبا. وقد توفي عميدها وخلفه فيها ابنه السيد أحمد النجاني.

(٨) هذه فرع من سابقتها وتعرف بالأحمدية، وهي موروذة، اذ تضم نحو ٣٠٠ طالب وتلميذ، فعلها أكثر محاضر البلاد المعاصرة روادا.

(٩) اعتمدنا في القائمة السابقة ما ورد في محاضرة للأستاذ المختار الشاعر، رئيس مصلحة التعليم التقليدي سابقا، كان قد ألقاها في ملتقى عبد الله بن ياسين للفقه الاسلامي، المنعقد بنواكشوط سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

(١٠) Le Courtois, p. 36.

(١١) نفس المصدر ص ٣٧.

(١٢) نفس المصدر ص ٣٩.

(١٣) زرت مدينة شنقيط في شهر شعبان ١٤٠٦ هـ/مايو ١٩٨٦ م، ولقيت عميد علمائها وشيخ محضرتها من ابن الشيخ بن حمني، فسألته وقد وجدت المدينة شبه مهجورة ودار التلاميذ خالية ان كان هناك طلبة يدرسون عليه، فأجاب : تلميذ تان فقط، منذ أسبوع لم أرهما!!

(١٤) راجع ص ٤٧١ ـ ٤٧٤ من تقرير بيري في الوثائق الوطنية السنغالية، دكار ـ الملف ٩ 9G 78.

(١٥) الوثائق الوطنية، نواكشوط ـ الملف ٢/٤٤ E.

(١٦) راجع تقرير النقيب Thibaudet بتاريخ ٢ مايو ١٩٣٧ ـ المصدر السابق.

(١٧) راجع برقية حاكم مورينانيا Laigret الى الحاكم العام لغرب افريقيا بدكار ـ المصدر السابق، وكلامه المنقول في باب الجهاد (المدرسة والمحضرة).

(١٨) Dechassey : La Mauritanie - p. 144, 145.

(١٩) راجع تقرير بيري في وثائق دكار ـ الملف ٩ 9G 78.

(٢٠) المصدر السابق ـ ص ٤٠٤.

(٢١) «النميلة» ضرب رديء من الشاي يقابل «المفتول» وهو النوع الجيد عندهم منه، وكان قد انقرض أيام الحرب العالمية الثانية. و«لكور» : المدرسة الفرنسية، فهي تصحيف لكلمة «Ecole». و«الكحل» المذكورة هي المحضرة العريقة سابقة الذكر التي اختفت في عهد الاحتلال الفرنسي.

(٢٢) بدأ تدني الوضع الاقتصادي للمدارس التقليدية في السنوات الاولى للاستقلال، وكان أول ضحاياه مدرسو القرآن الذين يتميزون عن شيوخ المحاضر بأنهم يتلقون أجرا معلوما محددا بحكم الأعراف والتقاليد المرعية.

ففي عهد كابولاني الذي قتله المجاهدون سنة ١٩٠٥ خفض ما يتلقاه معلم القرآن في بعض المناطق، من ١٨٠ شاة، مقابل التحفيظ الكامل الى ٦٠ شاة (الثلث)!. انظر ص ١٤٢ C. Garnier : Désert fertile.

(٢٣) انظر تقرير بيري ص ١٤ ـ الوثائق السنغالية، دكار، الملف ٧٨ ج ٩. 9G 78.

(٢٤) المصدر السابق ـ ص ١٦.

(٢٥) المصدر نفسه ـ ص ١٦.

(٢٦) مذكرة حكومية الى مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية المنعقد بالمغرب، سبتمبر ١٩٨٥.

(٢٧) الشعب الموريتانية عدد ٢٦٥٠ بتاريخ ١٩٨٦/٦/٢١ م.

(٢٨) شارك في الحوار على صفحات الشعب الموريتاني، عدد من كبار مثقفي البلاد مثل محمد هيبتنا بن سيدي هيبة مدير الجامعة ومحمد الناجي بن محمد أحمد مساعد مدير الجامعة سابقا وآخرين.

(٢٩) في الأبيات كلمتان عاميتان «الكود» والكاف تقرأ جيما مصرية وهو السهل، الأرض المنخفضة المستوية المشدودة.. و«العلب» هو التل أو ما ارتفع من الأرض مع غلظ فيه. وفي معاجم اللغة العلب الشيء الصلب، وعلب الشيء غلظ. وردت الأبيات في : الالفية وتأثيرها في الثقافة الموريتانية ص ٥٣.

(٣٠) راجع نتائج الاحصاء الوطني لسنة ١٩٧٧. و Le Courtois, p. 8.

(٣١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الجمهورية الاسلامية الموريتانية ـ دراسة مسحية شاملة ـ ص ٧٧٤.

(٣٢) راجع لمزيد من المعلومات J.R. Pitte : Nouakchott, Captiale de la Mauritanie.

(٣٣) الشعب الموريتانية ٢٦٤٦ بتاريخ ١٩٨٦/٦/١٦.

(٣٤) وزارة التعليم : أضواء على التعليم في موريتانيا ـ ص ١٩.

انظر أيضا : ج أم دراسة مسحية ـ ص ٥٠٨.

(٣٥) أضواء على التعليم في موريتانيا ـ ص ١١.

(٣٦) المصدر السابق ـ ص ١١ و٢٢.

وقد تطورت وضعية التعليم في السنوات الاخيرة نتيجة لتأسيس الجامعة الموريتانية التي فتحت أبوابها سنة ١٩٨٢/٨١، وتوجد في البلاد مؤسسات جامعية أخرى : المدرسة العليا للمعلمين والمفتشين، المدرسة الوطنية للادارة، معهد تكوين الاساتذة المساعدين، المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية ومعهد عبد الله بن عباس الحر.

(٣٧) المجلد الأول من نتائج الاحصاء الوطني لسنة ١٩٧٧ ـ ص ٥٩. ويتضح من الاحصاء (ص ٦١، ٦٣) أن عدد الذين تلقوا تعليما محضريا جامعيا بلغ ١٨,٨٨٥ شخصا مقابل ١١٣١ شخصا تلقوا تعليما جامعيا عصريا..

(٣٨) د. محي الدين صابر : المواجهة الشاملة جذورها الفكرية وتطورها التاريخي ـ ص ٧.

(٣٩) الوثائق الوطنية، نواكشوط ـ الملف ٣ G3.

(٤٠) المصدر السابق ـ الملف ٢٤٤ E2/44.

(٤١) الندى : دور المحاضر في موريتانيا ـ ص ١.

(٤٢) حضارة العراق ٦٥/٨.

(٤٣) المصدر السابق ٥٩/٨ وما بعدها.

(٤٤) المصدر السابق ٦٤/٨ عزوا الى كشف الظنون ٢٢/١.

(٤٥) المصدر السابق ـ ٦٦/٨.

(٤٦) Le Courtois, p. 35.

(٤٧) المصدر السابق ص ١.

(٤٨) المصدر السابق ص ٤٩.

(٤٩) المصدر السابق ص ٤٦، ٤٧.

(٥٠) راجع كراس لجنة المساجد والمحاضر في مناسبة توزيع الجوائز على المتفوقين من طلاب السنة الأولى من المعهد.

(٥١) راجع كراس أعمال المؤتمر الأول للجمعية المنعقد في نواكشوط بتاريخ ١٧ ـ ١٨ شوال ١٤٠٣ هـ/ ٢٧ ـ ٢٨ يوليو ١٩٨٣.

(٥٢) Le Courtois, p. 25.

الملاحق

مشاييخ المحاضرة الحية

مشاييخ المحاضر القديمة وخريجوها

تراجم الأعياد

فهرس المؤلفين الشناقطة

الملحق الأول

قائمة بأسماء بعض مشاييخ المحاضر الحية (كما وردت في وثيقة لوزارة التوجيه الاسلامي بتاريخ ١٩٨٦/٩/٢٧)

الحوض الشرقي

- **باسكنو**
  - مولاي عبد الرحمن بن سيدي محمد بن الذهبي
  - محمد الأمين بن أحمد
  - اعل الشيخ بن اماه (ازيدنا بيه)
  - الداه بن آب عين
  - محمد نذير بن باتى
  - أحمد بن أحمد بن عمر
- **ولاته**
  - آب بن الشيخ محمدي بن سيدي عثمان
  - محمد عبد الله بن عبد الرحمن
  - الشريف أحمد بن شيخنا حماه الله
- **تمبدغه**
  - محمد عبد الوهاب بن سيدينا
  - محمد غلام بن الشيخ بن دهمد
  - إسلم بن أيد
  - لفقيه بن عبدي
- **عدل بقرو**
  - إطول عمرو بن مولاى الكبير
  - الناجي بن أحمد بن يب

- أحمد بن بوه
- محمد بن محفوظ بن دهمد

ج

- يب بن وواه
- محمد مولود بن عبد الله

- **النعمه**
  - أحمد بن خليل
  - الشيخ أحمد فال بن أحمدو
  - آلما (أغوينيت)
  - سيداتى بن محمد المحفوظ
  - شيخنا بن سيدي عثمان
  - إطول أيامُ بن حادينُ
  - محفوظ بن خينا
  - يربان بن بوه
  - حد معلوم بن ويس

الحوض الغربي

- **العيون**
  - محمد بن تروجي
  - حمودى بن المرابط
  - محمدٌ بن الشيخ بن ابوه
  - محمد بن بم
  - احماه الله بن سيدى بوبكر
  - حمود بن سيدى بوبكر
- **الطينطان**
  - محمد فال بن اسحاق
  - ابراهيم بن محمد محمود بن جادامُ
  - محمد محفوظ بن محمد احيد بن الطالب اعلي

الملحق الأول

قائمة بأسماء بعض مشاييخ المحاضر الحية (كما وردت في وثيقة لوزارة التوجيه الاسلامي بتاريخ ١٩٨٦/٩/٢٧)

الحوض الشرقي

- **باسكنو**
  - مولاي عبد الرحمن بن سيدي محمد بن الذهبي
  - محمد الأمين بن أحمد
  - اعل الشيخ بن اماه (ازيدنا بيه)
  - الداه بن آب عين
  - محمد نذير بن باتى
  - أحمد بن أحمد بن عمر
- **ولاته**
  - آب بن الشيخ محمدي بن سيدي عثمان
  - محمد عبد الله بن عبد الرحمن
  - الشريف أحمد بن شيخنا حماه الله
- **تمبدغه**
  - محمد عبد الوهاب بن سيدينا
  - محمد غلام بن الشيخ بن دهمد
  - إسلم بن أيد
  - لفقيه بن عبدي
- **عدل بقرو**
  - إطول عمرو بن مولاى الكبير
  - الناجي بن أحمد بن يب

- **جكني**
  - أحمد بن بوه
  - محمد بن محفوظ بن دهمد
- **آمرج**
  - يب بن وواه
  - محمد مولود بن عبد الله
- **النعمه**
  - أحمد بن خليل
  - الشيخ أحمد فال بن أحمدو
  - آلما (آغوينيت)
  - سيداتى بن محمد المحفوظ
  - شيخنا بن سيدي عثمان
  - إطول أيامُ بن حادينُ
  - محفوظ بن خينا
  - يربان بن بوه
  - حد معلوم بن ويس

الحوض الغربي

- **العيون**
  - محمد بن تروجي
  - حمودى بن المرابط
  - محمدّ بن الشيخ بن ابوه
  - محمد بن بم
  - احماه الله بن سيدى بوبكر
  - حمود بن سيدى بوبكر
- **الطينطان**
  - محمد فال بن اسحاق
  - ابراهيم بن محمد محمود بن جادامُ
  - محمد محفوظ بن محمد احيد بن الطالب اعلي

العصابة

- **كنكوصه**
  - محمد محمود بن محمد حرمة
  - مالك بن عبد الله سى
- **كيفه**
  - محمد بن بخارى
  - عبد الله بارى
  - أحمد بن الطالب بن اعلى
  - سيد المختار بن محمد عبدى
- **غرو**
  - محمد بن الداه بن حبدي
  - محمد عبد الله بن الامام
  - محمد المصطفى بن أحمد معلوم
  - الصحه بن ديدى
  - محمدُو بن محمد محمود (البني)
- **بومديد**
  - محمد محمود بن تقي الله
- **باركيول**
  - سيدي محمد بن الطالب اعل

تكانت

- **تجكجه**
  - عبدى بن الامام أحمد
  - سيدى عبد الله بن كانى
  - سيدى بن الطالب
  - آمنة بنت اباه
  - أحمد سيدى محمد
  - الحاج بن محمد عبد الرحمن
  - محمد بن عبد القادر

  - الناجى بن مختار الشيخ
  - المصطفى بن حوبت
  - محمد زيد بن باه
- **المجرية**
  - الحاج بن فحفو
  - سيدى بن سيدى
  - محمد العاقب بن ادو
- **الرشيد**
  - محمد ودادى
- **تيشيت**
  - عبدي بن الامام

كيدى ماغه

- **ولدينجى**
  - إبراهيم بن مكي
  - عثمان مغالى
  - الحاج ابراهيم
  - شيخنا بن بوبكر
- **سيلبابي**
  - محمد كيتا
  - بوبكر هاديا
  - الحسين فودى سولى
  - فولى دراما
- **غابو**
  - عاشور بن ابراهيم
- **غوراي**
  - تيرنو خالد عمر لى
  - صامبا درامى

غورغول

- **امبود**

- عبد القادر بن عبدى

- **مقامه**

- زكريا كونتي

- **كيهيدى**

- أحمد التجانى كان
- آتي ابراهيما أليمان
- عبد الله الملقب نَينى با
- تيرنو الملقب دمب صمب
- بابا صمب تورى
- الحاج الحسن ماريكو
- محمد شيخنا بن محمد الامين

الراكنه

- **آلاق**

- محمد الحسن بن محمد فال
- محمدُو آلفاصو
- الناجي بن محمدا
- الحاج أحمد بن منجى
- محفوظ بن منجي

- **مقطع الحجار**

- عبد الرحمن بن اواه
- الشيخ محمد احيد بن يعقوب
- جعفر بن الشيخ أحمد أبي المعالى
- أحمد فال بن ابراهيم

- **بوغى**

- تيرنو أحمد سى

- عبد الله ادياه
- با محمد البشير
- سيدو اديولدى لى

- **بابابي**

- أحمد تيجان اديا
- با بوبكر عالى
- عبد الله نَذير بال
- با أحمد تيجاني

الترارزة

- **القوارب**

- المختار بن بابا
- موسى باه
- محمد فاضل بن فال

- **المذرذرة**

- قراي بن احمد يوره
- الشفيع بن المحبوبي
- بدى بن القاضي (تكند)
- حامد بن اماه
- التاه بن آلما
- البشير بن جنكي
- محمد الحسن بن أحمدُ الخديم (تكند)
- باها بن ابا بن ميسن

- **الركيز**

- اباه بن عبد الله
- سيدى محمد بن آب
- انْدياى ادياه (انتيكان)
- الحسن بن اباه
- عمر تومبو
- عبد الله بن احويب الله

- **كرمسين**

  - محمد سالم بن أَبَتّي
  - بدين بن أحمد وبابا

- **وادى الناقه**

  - التاه بن يحظيه
  - أحمدو بن محمذ فال
  - محمذ فال بن عبيد
  - محمد سعيد بن ابياه
  - محمد يحظيه بن نعمه
  - نافع بن حبيب بن زايد
  - محمد اليدالى بن زين

- **يتلميت**

  - أحمد بن عبد القادر
  - محمذ فال بن أحمد فال
  - الشيخ سيدي محمد
  - عبد الله بن حامد
  - المفيد بن الربانى
  - محمد أحمد بن شوت
  - سيد محمد بن سيد المختار بن احمد ادم
  - المختار أم بن بابا
  - محمد بن احمد بن الشيخ سيديا
  - اسحاق بن محمد بن الشيخ سيديا

إنشيرى

- **أكجوجت**

  - محمد الأمين بن حمى الله
  - كادناتو بن محمد الأمين
  - محمد الأمين بن عبد الودود

آدرار

- **أطار**

  - سيد أحمد بن البشير
  - محمد الأمين بن السميع

- **وادان**

  - عبد الله بن بابا بويه

- **شنقيط**

  - منه بن الشيخ بن حامنى

- **أوجفت**

  - محمد عبد الرحمن بن باها

تيرس زمور

- **الزويرات**

  - أحمد بن أبات

داخلة انوذيبو

- **انواذيبو**

  - محمدن بن أمات
  - تيرنو بوبكر با
  - محمد بن عبدنا

- **لغويرة**

  - احمد بن عبد القادر

الملحق الثاني

بعض شيوخ المحاضر وخريجيها

نظرا لاستحالة الاحاطة بأسماء المحاضر التي نشأت في البلاد، عبر القرون، فضلا عن خريجيها، اخترنا أن نكتفي.. بسرد نماذج ممثلة لحركة العلم وتداول المعرفة بين الأجيال، فانتقينا ٢٤ شيخا من شيوخ العلم، من مختلف أرجاء البلاد، ومن فترات متدرجة تمتد من القرن الحادي عشر الهجري الى أواسط القرن الرابع عشر.

وقد أوردنا أسماء **بعض** الخريجيخ البارزين الذين تصدروا عن كل شيخ من الشيوخ المذكورين.

واعتمدنا في وضع هذه القائمة مصادر شتى منها :

الوسيط، لأحمد بن الأمين الشنقيطي، وفتح الشكور، للطالب محمد البرتلي وحياة موريتانيا، للمختار بن حامد، ودراسات في تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد المختار ابن أباه، ورسالة ابن البراء عن الألفية.

الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي (١١٠٧)

- محمد بن أبي بكر الهاشمي الغلاوي (١٠٩٨)
- عبد الله بن أبي بكر بن علي بن الشيخ الولاتي (١١٢٢)
- محمد بن الحاج عثمان ابن السيد بن الطالب صديق الجماني
- سيدي عثمان بن عمر الولي (١١٢٨)

الحاج الحسن بن آغبد الزيدي التشتي (١٠٦٥ ـ ١١٢٣)

- الشريف أحمد بن فاضل الشريف (١١٥٣)
- الطالب أحمد بن محمد.. ابن الطالب صديق الجماني (١١٥١)

- بابا عمر بن بابا بن علي بن اند عبد الله بن سيدي أحمد الولاتي (١١٤٥)
- الشريف محمد بن فاضل (١١٦٠)

سيدي عبد الله ابن رزاقه بن محمد بن القاضي (١١٤٤ هـ)

- سيدي أحمد بن محمد بن موسى بن ايجل الزيدي
- عبد الرحمن العلوي، جد سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
- المختار بن بونه الجكني

الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي (١١٤٦ هـ)

- ابنه الفقيه الطالب محمد (١١٧٩)
- محمد بن علي الولاتي
- البشير بن الحاج الهادي
- سنبير بن القاضي سيدي الوافي الارواني (١١٨٠)
- الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشي (١١٦٦)
- أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن الطالب علي بنان البرتلي (١١٤٩)
- حسن بن الطالب أحمد بن علي بن دكان البرتلي (١١٧٣)
- الخضر بن محمد بن الحاج عثمان بن الطالب صديق الجماني (نحو ١١٥٥)
- الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمدنا الله البرتلي (١١٦٥)

منيره بن حبيب الله الشمشوي (نحو ١١٦٣)

- الحاج أبو بكر بن الفقيه الطالب محمد بن عمر البرتلي (١١٧٩)
- الحسن بن الطالب احمد بن علي البرتلي (١١٢٨ ـ ١١٧٣)
- أحمد بن سيدي عثمان بن مولود الغلاوي
- الامام عمر مم بن محمد بن أبي بكر الولاتي الاحمدي (١٢٠١)

الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشي (١١٦٦)

- سيدي محمد بن سيدي عثمان بن سيدي عمر الولى (١١٣٢)
- الفقيه محمد بن علي
- القاضي اند عبد الله بن أحمد
- عمر بن محمد بن أبي بكر الولاتي
- محمد البشير بن الحاج بن الهادي الديلبي
- محمد بن الحاج محمد محمود

- محمد بن الحاج أبي بكر بن عيسى الغلاوي
- سيدي علي بن الطالب عمر البرتلي
- سيدي الحسن بن أحمد
- عابد بن الطالب سيد القلقمي
- الطالب أحمد بن أبي بكر بن الحاج عبد الرحمن البرتلي (١٢٠٨)
- أبو بكر بن عبد الله بن محمد البرتلي (نحو ١١٤٩)
- الحاج أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي (١١٧٩)
- الطالب احمد بن الطالب محمود البرتلي (١١٩٣)
- محمد الامين بن الشيخ الطالب أحمد بن عمر بن الوافي المحضري (١٢٠٥)
- الطالب أحمد بن عمر بن الوافي المحضري (١١٩٤)
- الحاج صالح بن عبد الله بن الطالب أبي بكر بن محم بن أبابك الديلبي (١٢٠٥)
- الطالب محمد بن أبي بكر بن الشيخ بابا بن محمد الولاتي (١١٩١)
- اند عبد الله بن أحمد بن اند عبد الله بن الشيخ الولاتي المحجوبي(١١٧٢)

المختار بن بونه الجكني (١٠٨٠ ـ ١٢٢٠ هـ)

- ابن مقامي الجكني، الشاعر
- احمد مولود بن الشيخ الجكني
- المختار بن سيدي أحمد بن سيدي الهادي التمدكي
- العبد بن النحوي بن المختار بوب
- ابن عبدّ الجكني
- سيدي عبد الله بن الفال الشمشوي (١٢٠٩ هـ)
- سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني
- فحفو المسومي
- بلا بن مكبد الشقروي (ت ١٢٧٣)
- حرمة بن عبد الجليل العلوي (ت ١٢٤٣)
- المامون اليعقوبي
- المجيدري بن حبيب الله اليعقوبي
- قاضينا بن الأمين التندغي
- محمد مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي (١٢٤٣)
- الامام بن محمذ الفغ الجكني
- سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (ت ١٢٣٣ هـ)

الشيخ سيدي المختار الكنتي (١١٤٢ ـ ١٢٢٦ هـ)

- الشيخ سيديا الكبير (١٢٨٤)
- الشيخ سيدي عبد الله العلوي
- الشيخ المصطفى بن العربي الأبيري
- الشيخ القاضي بن الحاج الفغ (الفقيه) اديجبي
- الشيخ المصطفى بن الحاج الفغ
- الشيخ سيدي أحمد بن عويسي التاقاطي
- الشيخ ابن منى المجلسي الزينبي
- الشيخ بابا الحي بن محمود بن الشيخ عمر الأبدوكلي
- الشيخ المختار السباعي الدميسي
- الشيخ ابات بن الطالب عبد الله ادقجملي
- الكوري بن المختار السالم (من أهل سيدي أحمد بوحجار)
- ويقى بن سيدي الامين البوسيفي
- الشيخ محمد الأمين بن عبد الوهاب القلقمي
- شماد المتغمبري الكنتي
- عيد بن سيدي أحمد البوبكري
- أحمد بن امينوه البوبكري

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (ت ١٢٣٣ هـ)

- عبد الله بن سيدي محمود الحاجي
- محمد ابات الجكني
- سيدي محمد بن محمد الحبيب التنواجيوي
- سيدي محمد بن علي بن المختار العلوشي
- أحمد بن المختار الجكني
- أخوه سيد أحمد لحبيب
- الأمين بن سيدي أحمد بن سيد الهادي الجكني
- أخوه سيدي المختار
- سيدي أحمد بن محمد الجكني
- السالك بن أحمد مولود بن الشيخ سيد الامين
- الحبيب بن محمد بن الحاج الجكني
- سيدي أحمد الحبيب بن محمد بن أحمد الحبيب الجكني
- السالك بن عمر العلوي

- عبد الرحمان بن الطويلب العلوي
- أحمد بن الطالب ابراهيم الجماني
- الحبيب بن الطالب ابراهيم الجماني
- سيدي محمد بن عبد الرحمن بن الطالب سيدي أحمد الكنتي
- الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي
- اخوه التقي
- أخوهما محمد محمود
- عبد الله بن محمد بن بحمد الحاجي
- سيدي المصطفى بن عبد الرحمن بن الناه التنواجيوي
- سيدي بن عبد الرحمن التاقاطي
- اعمر بابانا التاكاطي
- أحمد بن سيدي المختار بن الحبيب المسومي
- عبد الرحن بن المختار بن الحبيب المسومي
- ابراهيم بن الطالب بياه المسومي
- محمد بن الطالب ابراهيم البصادي
- الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن حبيب العلوي
- محمد بن محم عاشور العلوي
- محمد بن الطالب أحمد بن اعمر كينه التاكاطي
- بوب بن أحمد مولود المحجوبي
- عبد الوهاب بن الطالب اعلي الفلالي
- أحمد بن محمد البلالي
- محمد بن سيدي الديماني
- الطاهر بن اخيار انتاج السوداني
- محمد بن علي بن المعلوم السيداوي
- سيدي ابراهيم بن الطالب جد الغلاوي
- سيدي عبد الوهاب القلقمي
- المختار بن الطالب عبيد الجكني
- سيد النافع الدليمي
- عبد الرحمن بن محمد بن عبيد التركزي
- محمد بن أحمد جد الصانع
- كواد بن الشيخ المختار بن خليفة الغلاوي
- لمخيطر بن محم بن بركة المهاجري
- أخوه أحمد جدو
- أخوهما سيدي المختار

حرمة بن عبد الجليل العلوي (ت ١٢٤٣)

- الشيخ محمد الحافظ العلوي (ت ١٢٤٧)
- محنض بن سيدي عبد الله الشقروي
- الامين بن الحاج الشقروي
- الشيخ سيديا (الكبير) ابن المختار بن الهيبه (ت ١٢٨٤)
- أحمد بن البخاري التندغي (ت ١٢٧٧)

ابن عبدم الديماني الفاضلي (١٢٥٨)

- الحارث بن محنض الشقروي
- محمد فال بن محمد بن باليل الديماني الفاضلي
- سيدي بن محمد الديماني الفاضلي
- البراء بن بك الفاضلي (١٣٣٦)

عبد الودود بن عبد الله الألفغي (١٢٦٥)

- محمد عالي بن سعيد (١٣١٠)
- الحسن بن زين (١٣١٥)
- الشيخ سيديا بابا (١٢٧٨ ـ ١٣٤٢)

بلا بن مكبد الشقروي (ت ١٢٧٣)

- عبد الودود بن عبد الله الألفغي (ت ١٢٦٥ هـ)
- زين بن الأمين اليدالي (١٢٩٠)
- الشيخ محمد بن احمذيه الحسني (١٣٢٠)
- جدود بن كتوشني العلوي (١٢٨٩)
- ابن عبدم الديماني (١٢٨٥)
- حبيب الله بن الامين الشقروي (١٢٧٠)
- الشيخ محمد بن حنبل الحسني (١٣٠٢)

محنض بابه بن عبيد الديماني (١٢٧٧ هـ)

- الخرشي بن عبد الله بن محمد من أهل الحاج المختار(١٢٦٣)
- عبد الله بن مختارنا الحاجي

- اوفى بن الفغ منصر الشمشوي الالفغي
- آدو الجكني
- سيدي بن عبد الله بن محمذ فال بن المختار بن الفال (الفاضل) ابن باب الشمس ادو الحاجي
- المختار بن اغلميت
- محمد آغربط بن أحمد ميلود بن المختار بن محمذ اغربط ادو لحاجي
- احمد بن ابلا الحسني
- محمذ بن الفاضل بن بدر الدين الحسني
- محمذ بن محنض بابه بن عبيد (ت ١٣١٩ هـ)
- المختار بن ابيه الجكني
- الشيخ المختار بن أحمد بن الزوين التنواجيوي
- محمد بن أحمد بن احبيب بن محمذ بن خير بن ابهنض.. ابن يدمس
- محمذ بن الهاشمي بن الأمين بن أحمذ بن ابهنض
- محمد فاضل اليعقوبي
- اباه الشريف بن الشريف سيدي محمد الصعيدي المجلسي
- المختار بن آلما اليدالي (ت ١٣٠٩)
- ابن حنبل بن البشير
- مولود بن اغشممت المجلسي
- عبد الله بن البدوي المجلسي
- الحسن بن أحمد بن أحمدنا الله المجلسي
- المختار بن محمدا (ابت)
- السعد بن الصبار
- سيدي أحمد بن الصبار حمادي
- احمد محمود بن الفغ خيري التندغي
- المصطفى بن المازري
- المصطفى بن أحمد محمود
- أمين بن أحمد بن محمذ فال
- محمد يوسف بن عبد الحي البربوشي الرقيبي
- الحاج البشير بن عبد الحي البربوشي
- مولود بن داداه بن المختار بن الهيب
- المختار بن داداه بن المختار بن الهيب
- سيدي أحمد بن مخم الخاجيلي
- غلام بن همرن الاعمر الكدبجي
- المختار بن حب الله امجار

- ميلود بن المختارخي
- الحارث بن محنض بن سيدي عبد الله الشقروي

الشيخ سيديا الكبير ابن المختار بن الهيبة (ت ١٢٨٤ هـ)

- سيدي محمد بن الشيخ سيديا (ت ١٢٨٦)
- الشيخ أحمد بن سليمان الديماني (ت ١٢٩٩)
- الشيخ أحمد بن الفاضل الديماني (ت ١٣١٩)
- الشيخ الحسن الحسني
- الشيخ حمدي مولود
- محمد مبارك اللمتوني

الشيخ محمذ فال بن متالي التندغي (١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ ـ ١٢٨٧/١٨٧١ م)

- المختار بن الما اليدالي (ت ١٣٠٩)
- الطبيب الشهير أوفى بن الفغ منصر (ت ١٣٣٠)
- عبد الله مختار بن الحاجي (١٣٣٠)
- أحمد بن المختار المالكي (١٣٣٠)
- حيمد بن انجبنان (١٣٢٩)
- أبو بكر بن أحمد باب اجواجي (١٣٣٧)
- ابنه عبد الرحمن
- صلاحي بن الشيخ محمد المامي
- لكبيد بن جب اليحيوي
- محمذ فال بن بوفره الحاجي
- سيدي أحمد بن حماد
- محمد بن حماد الكمليلي
- أحمد بن امغر اليحيوي
- غلام بن أحمد بن عمر
- أحمد بن الحسن بن ماد
- محمذ بن حبيبنا بن الوافي
- سيدي أحمد الغلاوي
- سيدي محمد بن أحمد سالم التاكاطي
- الشيخ أحمد حامد بن محمذ بن مختار الله
- الفقيه بن احمد بن ابراهيم
- محمذ بن سيدي أحمد المالكي (ت ١٣٠٧ هـ)

جدود بن اكتوشني العلوي (١٢٨٩)

ـ الشيخ احمد (منّا) بن الشيخ محمد الحافظ العلوي
ـ محمد محمود بن التلاميد التركزي
ـ حبيب بن عبد الجليل الابيري
ـ باباه بن سيد أحمد بن محم الابيري (من أولاد خاجيل)
ـ محمدُ بن محمدي العلوي
ـ اباه محمذ ابن النحوي الزينبي
ـ أحمد بن محمد عينين بن الهادي التمدكي
ـ محمد لحبيب بن المرابط الغلاوي

محمد عالي بن سيدي بن سعيد «معي» الالفغي (١٣١٠)

محمد الخضر الباركلي
ـ محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي
ـ سيدي بن عبد الله الالفغي
ـ محمد سالم بن أحمد الانتابي
ـ أحمد بن ابن عبدم الديماني (١٣٥٥)
ـ أحمد بن معي
ـ محمد بن أبياه الالفغي (١٣٦٨)
ـ أحمد بن الداهي الفاضلي (١٣٨٠)

الحسن بن زين القناني (١٢٢٥ ـ ١٣١٥)

ـ الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن حبيب الرحمن التندغي
ـ يحظيه بن عبد الودود (١٣٥٨)
ـ أحمد بن أمين التندغي
ـ محمد اليدالي بن سيدنا الابييري (١٣٤٣)
ـ محمد حامد بن عبد الله بن آلا الحسني (١٣٧٩)

الحارث بن محنض الشقروي (ت ١٣١٩)

ـ ابنه الامين
ـ المختار السالم بن محمد المنى الحسني
ـ الامين بن الغزالي
ـ أحمد مختار آن المعروف بـ «يوروبال»

ـ الحاج أحمد مختار ساخو
ـ أبو بكر بن فتى الشقروي (١٣٢٤)

احمد مختار آن الفوتي

ـ الحاج مالك سي
ـ تيرنو مودي بوكر
ـ الشيخ محمد بابا بن الصديق تله
ـ الامام محمد عبد ربه
ـ الفاكي سيسي

المرابط محمد الامين بن أحمد زيدان (١٢٣٥)

ـ أحمد بن مود الجكني
ـ محمد بن صالح
ـ أحمد الافرم بن التا
ـ محمد الحسن بن سيدي ابراهيم
ـ باب بن آد
ـ محمد الأمين بن سيد المصطف
ـ محمد النعمة بن الطالب زيدان
ـ العبقري بن الامين
ـ الطالب جد بن عبد الباقي
ـ أحمد فال بن محمد بن اعيمر
ـ الشيخ محمد بن سيد
ـ يوسف بن آو ليل
ـ الطالب بن عبد الله المسومي
ـ المصطفى بن عبد الله
ـ السالك بن فحفو المسومي
ـ سيدي بن امات
ـ سيدي بن الطالب عبيد
ـ حمادي بن المصطف
ـ احمد سالم بن الطالب أحمد الحاجي
ـ محمد المصطفى بن علمبيطالب التنواجيوي
ـ محمد بن محمد رار
ـ سيدي المختار بن محمد عينين اللمتوني

- محمد كابر بن الحسن البصادي
- سيدي ابن سيد بن الغلاوي
- البشير بن محمد بن القاسم

محمذ فال بن أحمد فال التندغي (١٣٤٥)

- محمد بن فتى العلوي
- محمد القاضي بن محمذ فال بن أحمد فال
- اباه محمذ ابن النحوي
- ابد بن محمود
- محمد بن محمد المختار بن أحمد فال
- محمد عبد الرحمن بن الحاج
- محمد محمود بن الحاج
- احمد بدي بن محم
- محمد بن محم

يحظيه بن عبد الودود (١٣٥٨)

- أحمد بن الامين العلوي (١٣٣١ هـ)
- محمد بن المحبوبي اليدالي (١٢٨٢ ـ ١٣٣٥)
- أحمد بن كداه الكمليلي (ت ١٣٤٠)
- سيدي أحمد بن أمين المجلسي (١٢١٢ ـ ١٣٤٢)
- محمد بن أمين التندغي (١٣٣٥)
- محمد عبد الله بن سيدي بن زين القناني (١٣٥٩)
- محمد نوح بن الفغ المختار القناني (١٣٥٩)
- أبو المعالي بن امين اليعقوبي
- الحسن بن أبا الجكني
- أحمد محمود بن عيدو الملقب «ممّ» الجكني (١٣٦١)
- أحمد بن البشير المالكي (١٣٦١)
- أبي بن حيمود الجكني (١٣٦٢)
- سيد الامين بن امام اليدالي (١٣٦٣)
- محمد عبد الله بن البشير (١٣٢١ ـ ١٣٧٣)
- محمد بن الداهي الديماني (١٣٧٥)
- أحمد دكن بن الحسين الجكني
- عينين بن محمد فال بن عبد الرحمن بن متالي

- محمد الامين بن أحمد البشير الغلاوي
- بدين بن عبد الرحمن الجكني
- عبد القادر الجكني
- الحسن بن الحسين الجكني
- ابي بن الزائد التندغي (١٣٧٧)
- حبيب بن الزائد التندغي
- محمد بن أمين الديماني (١٢٨٢ ـ ١٣٨٢)
- محمد بن عبد الصمد المالكي (١٣٠٥ ـ ١٣٨٢)
- محمد سالم بن آلما اليدالي (١٣٠١ ـ ١٣٨٣)
- محمد بن محمد النابغة بن حبيب الرحمن (١٣٨٣)
- محمذ بن محمذ ابن النحوي (١٣٠٤ ـ ١٣٨٩)
- أحمد بن محمد محمود بن فتى الشقروي (١٢٩٨ ـ ١٣٩٠)
- المختار بن المحبوبي اليدالي (١٣١٠ ـ ١٣٩١)
- محمد بن أبي مدين الديماني (١٣٢٢ ـ ١٣٩٦)
- محمد بن محمد بن المحبوبي (١٣١٥ ـ ١٣٩٩)
- التاه بن يحظيه بن عبد الودود
- محمد يحي بن أبوه اليعقوبي
- محمد أحمد بن عبد القادر الغلاوي
- الشيخ محمد عبد الرحمن بن فتى
- محمد الحسن بن محمد العلوي
- عبد الرحمن بن بويعدل التندغي
- محمد عبد الله بن الفغ المختار القناني
- محمد بن احويب الله الحسني
- محمد عالي بن نعمة المجلسي
- اكليكم بن متالي التندغي
- سيدي بن أمين الديماني
- أحمد بن محمذ فال الحسني

الملحق الثالث

تراجم بعض الأعيان

لم تمتد عناية مؤرخي الحركة العلمية ومدوني سير الاعلام في البلاد العربية الى الشناقطة، رغم ما كان لهم من ابداع وعطاء ثقافي وجهد علمي جاد.

فباستثناء أسماء قليلة في مصادر محدودة مثل الموسوعة المغربية للاعلام لعبد العزيز بن عبد الله، والاعلام للزركلي، وشجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف، وكشف الحجاب للحاج سكيرج، لا نكاد نجد في كتب السير العلمية العربية ذكرا للشناقطة، إلّا ما ندر.

ولا تعطينا هذا المراجع إلّا صورا باهتة غير دقيقة عن الأعيان الذين تعرض لهم. ولا عتب على المؤرخين في ذلك، فقد بعدت الشقة، وانقطعت أخبار الشناقطة أو كادت، ولم يكن أهل البلد أنفسهم يعنون بالترجمة لأعيانهم إلّا قليلا.

وقد أشرنا في متن الكتاب الى بعض ما بذله الشناقطة من جهد في الترجمة لأعيانهم، وباستطاعة القارىء أن يستوفي الصورة من خلال فهرس المؤلفين الملحق.

وتنقسم التراجم المحفوظة الى ثلاث فئات محدود ما نشر في كل منها :

١ ـ كتب مستقلة تؤلف في الترجمة لأحد الأعيان، مثل الشيخ سيدي المختار الكنتي ومحمد اليدالي الديماني، والشيخ محمد الحافظ العلوي، والشيخ ماء العينين القلقمي واضرابهم.

ويمكن أن تلحق بهذه الفئة الدراسات، وتحقيق الدواوين التي قام بها الطلبة في السنوات الاخيرة، وورد ذكر عدد هام منها في متن الكتاب وفي مراجعه.

٢ ـ منظومات ومصنفات نثرية تتناول وفيات الأعيان وحوادث السنين، كآثار والد بن خالنا وبابا بن أحمد بيبه وبابكر بن حجاب ومحمد بن المحبوبي ومحمد فال بن بابا.

وليس من شأن هذه الفئة أن تتوسع في الترجمة وانما تحدد في الغالب تاريخ الوفاة.

٣ ـ مصنفات تعنى بأعلام البلد بشكل جماعي، مثل :

أ ـ فتح الشكور في الترجمة لأعيان علماء التكرور لابن بنان البرتلي، وفيه تراجم

لنحو ٢٠٠ من أعلام المنطقة من القرن العاشر الهجري خاصة الى سنة ١٢١٦ هـ.

ب ـ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد ابن الامين، وفيه تراجم لـ ٨٢ أديبا من القرنين ١٢ و١٣ هـ خاصة، وقد طبع هذان الكتابان.

ج ـ الشعر والشعراء في موريتانيا للدكتور محمد المختار بن اباه وقد تضمن ٩٤ ترجمة وجيزة.

وتشترك المراجع الثلاثة في بعض الأسماء وينفرد كل منها ببعض.

د ـ حياة موريتانيا للمختار بن حامد، وهو أهم المراجع باعتبار وفرة مادته وتنوعها، ولكنه لم يطبع بعد، وما زالت بعض أجزائه بحاجة الى ترتيب على أن في جزء الثقافة (وهذا تحت الطبع حاليا) قائمة بأسماء مئات العلماء (على امتداد نحو ١٠٠ صفحة) لم يلتزم المؤلف الترجمة لهم، إلّا أن تراجم بعضهم توجد في أجزاء أخرى من الكتاب.

هـ ـ وقد عني الباحثون، أصحاب الرسائل الجامعية بالترجمة للعدد من الأعيان في أعمالهم ولعل من أبرز النماذج في ذلك :

ـ اطروحة الاستاذ أحمد بن الحسن، عن الشعْر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ.

ـ رسالة يحي بن البراء عن ألفية ابن مالك، وتأثيرها في الحياة الثقافية الموريتانية.

وبطبيعة الحال، فان هذه المراجع لا تسد الحاجة الى معرفة أعيان البلد، فليس منها ما يروم الحصر، ولا سبيل اليه، وفي تراجمها، أحيانا نقص لا مناص منه، وفي المعطيات التي تدلى بها تضارب (تواريخ الوفيات مثلا) قد لا ننجو من الوقوع فيه خاصة وقد حاولنا أن نستفيد منها جميعا، وأن نضيف جديدا، اعتمادا على ما يرويه أهل الشأن من مشاييخ البلد وعلمائه.

وقد توخينا في هذه التراجم الايجاز وحصرناها في اطارين :

ـ أن تكون لأعلام ورد ذكرهم في غضون الكتاب.

ـ أن يكون هؤلاء الأعلام شناقطة أو رجالا اتصلوا اتصالا مباشرا وثيقا بالحياة الثقافية في بلاد شنقيط، وأعرضنا عن الترجمة لكثير من الأعيان، الذين تتوفر تراجمهم في جم غفير من مراجع السيرة والتاريخ والاداب العربية المنشورة.

ولم نتكلف عناء الترجمة لكل الشناقطة الذين ورد ذكرهم في الكتاب، اذ لو رمنا ذلك لاقتضى تصنيفا مستقلا.. ثم ان المادة المعرفية التي بأيدينا، ونحن نعد هذا العمل، لا تسعفنا بكثير مما نحتاج اليه لتوسيع اطار هذا المجهود.

لقد فاتنا من تراجم الأعيان الشيء الكثير، ولكننا أدركنا منها ما نرجو أن يكون مفيدا للقارىء مقبولا.

ابراهيم (اباه) بن امانة الله (محمد الأمين) اللمتوني (ت ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م).

عالم جليل متنوع المعارف، صاحب محضرة له مؤلفات كثيرة منها نظم في الفقه (١٢٠٠٠ بيت) وشرح عمدة الطبيب لاوفى.

آبه (الشيخ أحمد) بن بدي (محمدي) بن سيدينا العلوي (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م). من أكابر مشايخ الطريقة التجانية. خليفة بعد والده بدي.

من آثاره : الدرع والمغفر في الذب عن الشيخ عمر. الف فيه الشيخ محمد الامين ابن بدي «نزهة الغيب والجلاس في مناقب شخينا ابي العباس».

ابن رازقة سيدي عبد الله بن محمد بن القاضي عبد الله العلوي (١٠٦٠ -/١٦٥٠ م – ١١٤٤/١٧٣١) علامة شاعر ورجل دولة. أخذ عن الطالب محمد بن المختار بن الأعمش في شنقيط، وعن علماء ودان، وأخذ في القبلة عن والده وعن مينحن بن مودي مالك. سافر الى المغرب فكسب ثقة السلطان مولاي اسماعيل وصداقة ابنه محمد العالم وأعجب به عاد بمكتبة وجند مع زميله علي شنظورة، أمير الترارزة.

يعتبر عميد الشعراء الشناقطة المحفوظ شعرهم. وله مؤلفات في المنطق والأصول والبيان وغير ذلك. ذكر المقري في نفح الطيب أنه التقى به.

حقق محمد سعيد بن دهاه ديوانه وشرحه (طبع في الدار البيضاء سنة ١٤٠٦/١٩٨٦).

ابن عبدم الديماني : محمد بن عبد الله بن الأمين بن محم (١٢٣٢ -/١٩١٧ م – ١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م) فقيه نحوي وقاض جليل معروف بالورع درس على بلا الشقروي. له مؤلفات منها طرة على الالفية في العروض.

ترجم له أحمد بن الامين (ص ٢٣٨) والمختار بن حامد.

أبو بكر سي (القاضي) – (١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م – ١٣٦٦/١٩٤٧) فقيه قاض مقاوم.

وضع الأستاذ عبد العزيز سي رسالة عن شخصيته وحياته.

أبو بكر بن عمر اللمتوني : (ت ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م) أمير المرابطين بعد أخيه يحى بن عمر. بلغت الدولة في عهده أوج اتساعها، فتح أجزاء من بلاد السودان وبسط سيطرته على المغرب وأناب ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي انفرد من بعد بالجزء الشمالي من الدولة.

استشهد بعد اصابته بسهم في الجهاد. وقبره الآن معروف في «مفسم بن عامر» على بعد نحو ٤٠ كلم من تجكجة.

الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي : (ت ٥ شوال ١١٤٦ هـ/١٧٣٣ م) فقيه قاض. كان يقال له «مالك الصغير» أخذ عن الفقيه الحاج عثمان المجاور ابن محمد ابن الوافي. وأخذ عنه خلق كثير. حج سنة ١١٢١. وصحب في رحلته سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي وأخذ عنه الورد.

أحمد بن أمين بن الفراء بن المازري التندغي (ت ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م) عالم شاعر. أخذ عن الحسن بن زين القناني.

كان صاحب حظوة عند ملوك السودان. له مؤلفات منها حاشية على فيض الفتاح على نور الاقاح لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

ترجم له أحمد بن الامين الشنقيطي (ص ٣٤٧) والمختار بن حامد، ويحيى بن البراء في «الألفية وتأثيرها».

أحمد بن الامين الشنقيطي (١٢٨٠ هـ/١٨٦٤ م – ١٣٣١/١٩١٣) سفير من سفراء بلاد شنقيط في مراكز العلم بالشرق. تضلع من معارف المحضرة في بلاده وسافر للحج وزار عدة بلدان واستقر بمصر وترك عدة مؤلفات من أبرزها «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط». الممنا في متن الكتاب بمزيد من المعلومات عنه.

أحمد باب التمبكتي : ابن الحاج أحمد المسك بن الحاج أحمد ابن عمر بن محمد اقيت... ابن أبي بكر بن عمر الصنهاجي عالم جليل. أخذ عن عمه أبي بكر ومحد بغيغ وعن والده وغيره. أسره السعديون سنة ١٠٠٢ هـ ونقلوه الى مراكش لرفضه التسليم بسيطرتهم على تمبكتو. أفرج عنه عام ١٠٠٤ هـ، وأقبل عليه العلماء وطلبة العلم فكان يدرس بجامع الشرفاء بمراكش نحو ١١ سنة. له عشرات التصانيف منها «الكشف والبيان في حكم أصناف مجلوب السودان حول مسألة الرق» و«نيل الابتهاج بالذيل على الديباج» وكفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج (انظر فتح الشكور ٣١ ـ ٣٧ وتاريخ السودان للسعدي).

أحمد البدوي المجلسي (ت ١٢٠٩ هـ /١٧٩٣ م) ابن محمد بن أبي أحمد : عالم نظامة، أحيا أنساب العرب بنظمه عمود النسب، ونظم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم. وهما من المتون المعتمدة في المحضرة.

شرح الشيخ محمد حسن المشاط مغازيه ونشرها، ونشرت ادارة احياء التراث في قطر شرح حماد لنظمه في الأنساب مع تكلمة لأحمد بن المختار الشنقيطي.

أحمد بن دامان بن عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز (ت ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م) جد قبيلة أولاد أحمد بن دامان، مؤسس امارة الترارزة. كان حفيا بالزوايا. انتصر وحلفاؤه من المغافرة على أولاد رزق في معركة انتتام سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م وقع اتفاقا تجاريا مع هولندا سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م.

راجع المختار بن حامد في الجزء السياسي من حياة موريتانيا وكذلك محمد فال بن بابا في التكملة بتحقيق أحمد بن الحسن.

أحمد بن حرمه (حرمه بابانا) العلوي (١٣٣٠ هـ/١٩١٢ م - ١٣٩٩/٦ يوليو ١٩٧٩) زعيم وطني. انتخب سنة ١٩٤٦ م ممثلا لموريتانيا في البرلمان الفرنسي، فجاهد لتخفيف وطأة الاستعمار على بلاده ولحمل فرنسا على وقف مساعداتها للكيان الصهيوني. لجأ في أواسط الخمسينات الى المغرب فواصل من هناك جهاده لتحرير بلده. عمل من بعد مستشارا لرابطة العالم الاسلامي في السعودية ثم مستشارا لرئيس الغابون الحاج عمر بونغو بعد اسلامه.

عاد الى موريتانيا سنة ١٩٧٥ بعد أن صفا الجو بينه وبين رئيسها المختار ابن داده. وبها توفي ودفن في تم بويعلي في منطقة الترارزة.

أحمد بن دهاه العلوي (ت ١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م) عالم شاعر، عني كثيرا بالحديث والسيرة فترك فيهما عددا من المنظومات والمؤلفات منها شرح على الفية السيوطي في الحديث و«مشارق الدجنة في وفيات علماء السنة».

أحمد بن سيد علي بن أحمد بن سيد علي بن المختار بن اغريش أمير لبراكنة بعد وفاة أبيه (١٣١١ هـ/١٨٩٣ م). هاجر الى المغرب حين دخل الفرنسيون البلاد سنة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م).

كان على علاقة طيبة بمحمد عبد الجليل شيخ محضرة الكحلاء. انظر كتاب التكملة لمحمد فال بن بابا وتعليق أحمد بن الحسن (ص ٢٧).

أحمد الصغير المسلمي (ت ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م) عالم مؤلف غزير الانتاج. جمع ابنه محمد فوائد كنانيشه في كتاب ثمين سماه «منن العلي الكبير في فوائد أحمد الصغير».

أحمد بن الطلبة : أحمد بن المرابط بن محمد بن الشيخ أحمد (من) ابن الشيخ محمد الحافظ العلوي (ولد سنة ١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م) من بيت علم ومشيخة دينية. درس في بلاده وفي تونس وعمل مفتشا للتعليم شغل منصب وزير الثقافة، وتنقل سفيرا لبلاده عدة سنوات.

يعمل حاليا خبيرا بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

أحمد بن عبد القادر (ولد سنة ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م) رائد الشعراء الشباب في البلاد، منذ أواخر الستينات. شاعر قاص، عاش الأحداث السياسية في وطنه وخارجه وتابعها شعرا. دخل السجن لمواقفه في بداية السبعينات.

معلم ثم كاتب في صحيفة الشعب ثم باحث في وزارة الثقافة، فالجامعة الموريتانية، مستشار ثقافي فرئيس للمحكمة العليا. صدر له : أصداء الرمال (ديوان شعر) والأسماء المتغيرة، والقبر المجهول (روايتان).

الحاج أحمد بن عمر بن محمد اقيت بن عمر بن علي بن يحيى كداله الصنهاجي (ت ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م عن نحو ٨٠ سنة) جد أحمد بابا التمبكتي، فقيه نحو لغوي عروضي، حج عام ٨٩٠ هـ ولقي جلال الدين السيوطي والشيخ خالد الأزهري امام النحو.

(انظر فتح الشكور - ص ٢٧، ٢٨)

أحمد بن كداه : أحمد بن محمد بن أحمد باب الكمليلي (ت ١٣٤٠ هـ/١٩٢٢ م) عالم تخرج من محضرة يحظيه بن عبد الودود.

له المحبوك (كناش في الفقه) جمع أنظاما في النحو لمعاصريه : الحسن بن زين ومحمد بن المحبوبي ومحمد نوح بن الفغ المختار. وعرفت هذه المجموعة باسم «الكداهية».

أحمد بن العاقل : بن محنض بن الماحي بن المختار بن عثمان الديماني (١٢٤٤ هـ/١٨٢٨) : عالم متبحر، من بيت علم وصلاح. أخذ عن أخته خديجة بنت العاقل. وأخذ أسرار الحروف عن الشيخ ألفا ابراهيم الفوتي. وأخذ عنه أبوابي ابن سعيد والنابغة محمد بن اعمر الغلاوي، ومحمد فال ابن العاقل (ابن أحمد) وغيرهم. له طرة على الكبرى للسنوسي في العقيدة وفتاوي فقهية ترجم له المختار بن حامد ومحمد (بدنا) بن سيدي في صحيفة الشعب الموريتانية (٨ رمضان ١٤٠٦ هـ/١٧ مايو ١٩٨٦).

أحمد بن محمد عبد الله بن الحسن : ولد سنة ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م. أستاذ شاعر وباحث لامع. انجز دراسته الجامعية في تونس حيث حصل على شهادة الكفاءة للبحث (سنة ١٩٨٠) برسالة عن أسلوب محمد بن الطلبة اليعقوبي.

وضع سنة ١٩٨٦ اطروحة دكتوراه دولة حول الأساليب في الشعر الشنقيطي خلال القرن الثالث عشر الهجري.

صدر له سنة ١٩٨٦ عن بيت الحكمة في تونس تحقيق كتاب التكملة في تاريخ الترازة ولبراكنة لمحمد فال بن بابا.

أحمد بن محمد عينين بن أحمد الهادي اللمتوني التمدكي (١٢٤١ هـ/١٨٢٥ م – ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م) فقيه نحوي أجازه محمد محمود بن حبيب الله في القضاء وأقام في محضرته «الكحلاء» أكثر من ٢٠ سنة.

من مؤلفاته «المغنى» على مختصر خليل. ترجم له يحيى ابن البراء في «الالفية وتأثيرها».

الحاج أحمد المسك بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد اقيت (١ محرم ٩٢٩ هـ/٢٠ نوفمبر ١٥٢٢ م – ٢٧ شعبان ١٥٨٣/٩٩١) والد أحمد بابا التمبكتي، فقيه، محدث، أصولي بياني منطقي، كان مكينا عند سلطان السونغاي اسكيا داود. أخذ عن عمه محمود بن عمر. وتوجه للحج سنة ٩٥٦ هـ واجتمع في رحلته بالناصر اللقاني والشريف يوسف تلميذ السيوطي والجمال ابن الشيخ زكريا والاجهوري والتاجوري وعبد العزيز اللمطي وعبد المعطي السخاوي وعبد القادر الفاكهاني ومحمد البكري.

أحمد بن هيبة بن نغماش بن محمد بن عبد الله بن كروم (ت ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م) أمير البراكنة بعد أخيه محمد كان على صلة طيبة بمحمد اليدالي الذي أشاد به وبقومه في قصيدته الرائية :

قضت حكمة الجبار بالفتح والنصر   لأولاد أم العز بالعز والظفر

انظر الوسيط لأحمد بن الامين والتكملة لمحمد فال بن بابا بتحقيق أحمد بن الحسن وحياة موريتانيا للمختار بن حامد.

الاحول محمد بن عبد الله بن محم بن الفك الحسني من فخذ أولاد عمر أكداش (١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ – ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م) شاعر مجيد. درس على علماء قومه وعلى بابا بن أحمد بيبه ويوسف بن المختار العلويين.

شارك بقلمه وسلاحه في الحرب بين قبيلته والعلويين. وتوفي يوم تنوجة في احدى وقعات الحرب.

حقق ديوانه أحمد بن المطفى. وترجم له أحمد بن الأمين والمختار بن حامد ومحمد المختار بن اباه وأحمد بن الحسن وغيرهم.

اديجه بن عبد الله الكمليلي (ت ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م) عالم شاعر. دخل في مساجلات شعرية حول مسائل في الفقه والتصوف مع عدد من علماء العلويين.

من أثاره : سالة في علم الفلك.

ترجم له أحمد بن الأمين في الوسيط (ص ٣٦٨)

اعمر آكجيل بن هدى بن أحمد بن دامان (ت ١١١٤ هـ/١٧٠٢ م) أمير الترارزه بعد أبيه. احسن سيد عبد الله بن محمد رثاءه في قصيدته :

هو الموت عَضب لا تخون مضاربه   وحوض زعاق كل من عاش شاربه

وقع اتفاقيات مع الالمان سنة ١٦٨٩ م، قتله أولاد دليم في شهر رمضان.

راجع التكملة والوسيط وحياة موريتانيا

اعمر بن علي شنظوره بن هدى : امير الترارزة (١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م – ١٧٥٧/١١٧٠) كان على صلة طيبة بعلماء وقت ومنطقته

اعمر بن المختار بن الشرقي بن على شنظورة، المعروف باعمر بوكعبه، امير الترارزة (١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م – ١٨٢٩/١٢٤٥) احبط محاولات الفرنسيين للاستعمار الزراعي على الضفة الجنوبية من نهر السنغال.

راجع محمد فال بن بابا : التكملة بتحقيق أحمد ابن الحسن (ص ٥٠ وما بعدها)

الامام المجذوب (ت ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م) شخصية ظهرت في اطار من منطقة ادرار. اعترض عليه الطالب محمد بن المختار بن الأعمش لما روي انه يدعي ملاقاة الحضرمي. وأن يده تتورم حتى يكتب ما في صدره. راجع عبد الودود بن الشيخ :
Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maurepré-coloniale

اند عبد الله بن أحمد بن اند عبد الله بن الشيخ الولاتي المحجوبي (ت ١١٧٢ هـ/ ١٧٥٩ م) كان قاضيا بولاتة. قال عنه القاضي سنبير قاضي اروان انه عالم محقق وقاض مدقق.. لو أدرك الأشياخ المتقدمين لادوا حقه.

أخذ جل علمه بالمطالعة، وبرع في الكلام والفقه والاصول والنحو والمنطق. له «فك الوثاق على لامية الزقاق» وغيره.

(انظر فتح الشكور – ص ١٦٧، ١٦٨)

أوفى (المصطفى بن عبد الله) بن الفغ منصر الشمشوي (ت ١٢٩٩ –/١٨٨٢ م) طبيب تقليدي شهير. درس على محنض بابا الديماني له مؤلفات في الطب أبرزها الفية (العمدة).

بابا بن أحمد بيبه العلوي (١٢٠٧ هـ/١٧٩٣ م – ١٨٥٩/١٢٧٦) عالم جليل، شاعر، متصوف. نبغ في العلم صغيرا، وبرز في الفتيا. كان محمد بن محمدي يعرض عليه شعره.

له مؤلفات منها منظومة في وفيات الأعيان حقق محمدي بن خبري ديوانه ودرس حياته في رسالة جامعية.

بابا بن محمذ بن حمدي بن الطالب أجود الحاجي (١٢٥٣ هـ/١٨٣٧ م – ١٨٩٨/١٣١٦)، عالم مدرس ذو نفوذ نشط في السنغال. وحاول اقامة الحدود. له مؤلفات في العقيدة والفقه والنحو، منها شرح على نظم المجرجات لمحنض بابه.

ترجم له المختار بن حامد، وكذا ابن البراء في رسالته.

بداه بن البصيري التندغي : علامة جليل، كبير علماء مدينة نواكشوط وامام جامعها العتيق.

له مؤلفات كثيرة، منها : القول السديد في الرد على أهل التقليد.

طبع له كتاب أوضح المسالك في أن من عمل بالراجح لم يخرج عن مذهب الامام مالك.

بدي بن سيدينا (محمدي بن عبد الله بن الفغ سيد أحمد ابن محم بن القاضي العلوي (١٢٠٢ هـ/١٧٨٨ م – ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م) عالم وشاعر وخليفة بارز من خلفاء الطريقة التجانية في بلاد شنقيط. أخذ عن والده وعن صهره حرمه بن عبد الجليل.

الف في مناقب الشيخ محمد الحافظ، ومسائل من التصوف والفقه.

ترجم له وحقق ديوانه الأستاذ محمد الأمين ابن محمدي ابن بدي.

البراء بن بكي بن سيدي بن حرمه الديماني (١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م – ١٩١٨/١٣٣٦)، شاعر مؤلف له طرة على الفية ابن مالك. ونظم بالوفود التي وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ترجم له يحيى ابن البراء في رسالته عن الالفية.

البرتلي : الطالب محمد بن أبي بكر الصديق بن عبد الله بن محمد بن الطالب علي بنان البرتلي الولاتي (١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م – ٢٣ ذي الحجة ١٨٠٥/١٢١٩). عالم صوفي مؤرخ. له كتاب «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور».

ترجم فيه لنحو ٢٠٠ من علماء المنطقة (انظر كتابه فتح الشكور ص ١٧ – ٢٣).

البشير بن عبد الله بن محمذ فال بن مباركي اليدمسي (١٢٤٨ هـ/١٨٦٧ م – ١٩٣٥/١٣٥٤) عالم شاعر. أخذ عن خاله ابن حنبل بن البشير وعن محمذ بن محنض بابه ومحمد فال بن محمذن.

خرج حاجا سنة ١٣٠٦ هـ، ونظم رحلته. وترك مؤلفات اخرى منها اختصار القاموس.

ترجم له أحمد بن احبيب في كتاب الاعداد (٨٨/١) ويحيى ابن البراء في رسالته عن الالفية.

بكار بن سويد أحمد ابن محمد بن محمدشين (ت ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م). امير تكانت نحو نصف قرن مجاهد ذو نفوذ واسع، استشهد في وقعت تن قادوم مع الفرنسيين. وكان قد عمر.

بكار (الغول) بن اعلي بن عبد الله بن كروم بن ملوك بن بركني (ت ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م)، أمير البراكنة واحد قادة حرب المغافرة ضد الزوايا أيام حركة ناصر الدين. وهو والد خناثة زوج السلطان العلوي المغربي مولاي اسماعيل.

ذكره محمد فال بن بابا والمختار بن حامد.

بوفمين المصطفى بن بوحمد المجلسي : شاعر معاصر لأبن رازقه (سيدي عبد الله بن محمد) عاش في القرن ١٢ هـ. وكان مداحا هجاء، فذلك مصدر لقبه.

راجع الوسيط (ص ٣٨٢) والشعر والشعراء في موريتانيا لمحمد المختار بن اباه والشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ لأحمد بن الحسن (ص ١٤٥).

التجاني الكبير بن بابا بن احمد بيبه العلوي (بعد ١٢٦٠ هـ) عالم متصوف من بيت علم عريق.

خرج حاجا، ومرّ بعين ماضين بالجزائر فأقام بها زمنا ثم توجه الى المغرب، فصحبه سيدي محمد العربي السائح الذي شرح له منظومته «منية المريد» وترجم له في شرحها بغية المستفيد (ص ١٠٠).

توفي بالمدينة المنورة فدفن بالبقيع.

جدود (عبد الوهاب) بن اكتوشني بن السيد العلوي (ت ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م) عالم شاعر شيخ محضرة.

كان من دعاة الجهاد المسلح ضد الفرنسيين.

له مؤلفات منها جامع المعاني (منظومة في التصريف وشرحها).

ترجم له أحمد بن الامين (ص ٨١) والمختار ابن حامد.

الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب التواتي الغلاوي (توفي بفزان ١١٥٧ هـ/ ١٧٤٤ م) من العلماء العاملين، حج مرات، وانتفع على يديه بعض المهاجرين والتائبين من المغافرة.

بنى قرية قصر السلام وبنى بها دارا لطلبة العلم.

الحاج البشير بن عبد الحي البربوشي (ق ١٣ هـ)، عالم أخذ عن محنض بابه ولزمه ثمانية أعوام وأشهرا. حج ولقي السلطان العثماني وجال في البلاد، ثم عاد فتوفي في مراكش.

له مؤلفات منها تفسير للقرآن الكريم. ترجم له المختار بن حامد، ويحيى ابن إلبراء في رسالته.

الحاج الحسن بن اغبد الزيدي (١٠٦٥ هـ/١٦٥٥ م - ليلة الأحد ١٢ رمضان ١١٢٣ هـ/١٧١١ م) فقه مفت، قال عنه البرتلي : «عليه مدار الفتوى في الفقه في بلادنا» وأنه «افقه أهل عصره بالاتفاق. أخذ عن الفقيه أحمد الولي والفقيه سيدي أحمد بو الأوتاد الحنشي. له مصنفات. (فتح الشكور ٨٧، ٨٨).

الحاج سيدي محمد بن السالك بن الشيخ بن فحفو المسومي، ولد في العقد الرابع من القرن ١٤ هـ شيخ محضرة موروده، أخذ عن أحمد فال بن آدو الجكني. تستقبل محضرته المتنقلة بين تكانت والعصابة أعدادا كبيرة من الطلاب.

له مؤلفات منها شرح على الألفية وآخر على المقصور والممدود لابن مالك.

الحاج عبد الله بن بو المختار أو ابن محمد بن أحمد بن عيسى البوحسني، عالم جليل، وشاعر. كان ضد حركة ناصر الدين وأفتى أمير الترازة هدي بن أحمد بن دامان بجواز محاربة الزوايا.

حج وأخذ عن أبي مهدي مفتي الحزمين له ترجمة في فتح الشكور (ص ١٦٠) عاش في القرن الحادي عشر الهجري.

انظر : أمر الولي ناصر الدين.

الحاج عبد الله بن محمد المشري (ولد سنة ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م) من أكابر خلفاء الشيخ إبراهيم نياس في موريتانيا له : انذار وافادة الى بائع دينه بشهادة.

الحاج عثمان المجاور ابن محمد بن الطالب الوافي الغلاوي (ت رمضان ١١٢١ هـ/١٧٠٩ م) كان يدرس مختصر خليل وانتفع الناس بعلمه. أخذ عنه الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى. حج ثلاث مرات وأقام بالمدينة المنورة مجاورا وبها توفي.

(فتح الشكور ١٩١)

الحاج مالك سي (ت ١٣٤٠ هـ/١٩٢٢ م) أبرز مشايخ الطريقة التجانية في السنغال مطلع القرن العشرين. أخذ عن محمد عالي بن محنض. ويتصل سنده بالشيخ عمر الفوتي ثم بالشيخ محمد الحافظ الشنقيطي بواسطة سيدي مولود فال.

الحاج محمود با (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ - ١٣٩٨/١٩٧٨ م) : عالم بولاري. درس على لمرابط عبد الفتاح التركزي وحج فواصل دراسته هناك. عاد الى البلاد فأسس جمعية دراسة القرآن الكريم ثم «مدرسة الفلاح» التي توسعت شبكتها الى العديد من الدول الافريقية. كان له دور بارز في تعميم التعليم العربي الاسلامي وانشاء المساجد رغم مضايقات السلطات الفرنسية له.

الحارث بن محنض بن عبد الله الشقروي (ت ١٣١٩ هـ/١٩٠١ م) نحوي لغوي ضليع. أخذ عن محنض بابه وابن عبدم الديمانيين وحبيب الله بن الامين الشقروي. وأخذ عنه أحمد مختار آن.

له مؤلفات منها اختصار المواهب النحوية.

ترجم له أحمد بن الأمين ويحيى بن البراء (ص ٦١).

حبيب الله بن القاضي الاجيجبي (ت ١٢٤٠ هـ/١٨٢٥ م) عالم فقيه شيخ محضرة «الكحلاء» العريقة في عهده له المعين (في الفقه).

ترجم له محمد المصطفى الندى في بحثه أساليب وطرق التدريس المحضري في «الكحلاء».

حرمه بن عبد الجليل بن الحاج العلوي (١١٥٠ هـ/١٧٣٧ م - ١٢٤٣/١٨٢٨) : شيخ محضرة كبيرة، عالم شاعر، أخذ عن المختار بن بونه وأخذ عنه جمع من العلماء منهم الشيخ سيديا الكبير.

حقق محمدي بن التجاني ديوانه في رسالة جامعية.

الحسن بن زين بن سيدي سليمان القناني (١٢٢٥ هـ/١٨١٠ م - ١٣١٥/١٨٩٨) عالم نحوي لغوي، شيخ محضرة. أخذ عن عبد الودود بن عبد الله ومحمد مولود بن أحمد المباركي.

عاشت محضرته ٤٠ سنة. أخذ عنه يحظيه بن عبدالودود له احمرار على لامية الأفعال لابن مالك.

ترجم له أحمد بن الأمين (ص ٣٧٧) والمختار بن حامد ويحيى ابن البراء (٧٤).

الامام الحضرمي أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٤٨٩ هـ/١٠٩٤ م)، فقيه، متكلم ومنظر سياسي وشاعر، درس في الأندلس. وكان باغمـات وريكة عندما مرّ الأمير أبو بكر بن عامر عائدا من المغرب الى الصحراء فاصطحبه. استشهد ودفن بازوكي قرب اطار.

له كتاب «السياسة» أو «ألاشارة في تدبير الامارة» طبع في بيروت والدار البيضاء سنة ١٩٨١.

خناثة بنت بكار بن علي بن عبد الله : سيدة شنقيطية من بيت الامارة البركني تزوجها السلطان المغربي العلوي مولاي اسماعيل سنة ١٠٨٩ هـ/١٦٧٩ م، فأنجبت له مولاي عبد الله، الذي ولى الحكم من بعده.

موصوفة بالعلم. لها تقييدات على هامش الاصابة وكانت تناظر العلماء.

ترجم لها الناصر السلاوي في الاستقصا وعباس الجراري في «ثقافة الصحراء» والزركلي في الاعلام.

خديجة بن محمد العاقل بن محنض بن الماحي بن المختار ابن عثمان بن يعقوب الفغ بهنض بن يحيى بن ابهنض امغر الجد الجامع لبني ديمان (ق ١٢ هـ) عالمة جليلة، شيخة محضرة. أخذت عن والدها وأخذ عنها علماء أجلاء منهم أخوها أحمد والمامي عبد القادر زعيم دولة فوتا الاسلامية والمختار بن بونه.

لها شرح على سلم الأخضري في المنطق وشرح على «ام البراهين» في العقيدة.

ترجم لها المختار بن حامد، ومحمد (بدنا) بن سيدي في صحيفة الشعب (٨ رمضان ١٤٠٦ ـ/١٧ مايو ١٩٨٦).

سليمان بن الشيخ سيديا حفيد الشيخ سيديا الكبير (ولد سنة ١٩٢٤) شخصية وطنية معاصرة. شغل منصب رئيس الجمعية الوطنية الموريتانية، وعمل مندوبا دائما لبلاده في الأمم المتحدة.

سيدي أحمد بن هك الكلادي : عالم كان يدرس التفسير والحديث والفقه واللغة كان حيا في العقد الثاني من القرن ١٢ هـ له ترجمة في «فتح الشكور» ص ٧٠، ٧١.

سيدي عبد الرحمن بن أحمد الشنقيطي الصديقي (ت شوال ١٢٢٤/١٨٠٩). من أكابر العلماء في فاس. أخذ عن سيدي أحمد التجاني. ترجم له سيدي العربي بن السائح في بغية المستفيد وكذلك الحاج أحمد سكيرج في «كشف الحجاب» (ص ٣٦٦) قال عنه شيخ الشيوخ في علمي المعقول والمنقول وقال سيدي العربي «كان امام جليلا في سائر العلوم. وكان يدرس

بفاس العليا. وكان نجباء وقته يأتون من فاس الادريسية على أرجلهم لحضوره مجلسه. وتخرج منهم على يده جماعة».

سيدي عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي (ت ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م) عالم بالقراءات والفقه والنحو. رحل الى سيدي أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي فأخذ عنه القراءات وجاء بالجيم الشديدة فأخذ بها كثير من أهل بلده في قراءة القرآن. قال البرتلي : «انتهت اليه رئاسة الاقراء ببلاد التكرور». (فتح الشكور ٢٠٨، ٢٠٩).

سيدي عبد الله بن أحمد دام بن عبد الرحمن بن الفغ البنعمري الحسني (١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م ـ بعد ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م) عالم شاعر أخذ عن المختار بن بونه وانتسب الى القادرية على يد الشيخ سيديا ودافع في شعره عن الطريقة التجانية. له مؤلفات ضائعة في العقائد والحديث والفقه.

ترجم له أحمد بن الأمين وكذلك أحمد بن الحسن في الشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ (ص ٢١٢).

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم بن عبد الرحمن العلوي (١١٥٢ هـ/١٧٣٩ ـ ١٢٣٣/١٨١٨) عالم متبحر، وصف بأنه مجدد، مكث ٤٠ سنة يطلب العلم. أخذ عن المختار بن بونه الجكني وسيدي عبد الله بن الفاضل الباركي. ورحل للحج فلقي العلماء وأخذ عن محمد البناني الفاسي. شارك في الجهاد ضد البرتغاليين في المغرب. تخرج عليه عشرات العلماء. وترك مؤلفات كثيرة كتب لها القبول، منها «مراقي السعود» في الأصول وقد طبع في المغرب مرتين مع شرحه «نشر البنود» وطبع له في تونس يسر الناظرين على روضة النسرين.

ترجم له أحمد بن الأمين ومحمد المختار بن اباه والمختار بن حامد وغيرهم.

سيدي بن محمد الحبيب بن اعمر بن المختار امير الترارزة (١٢٧٧ هـ/١٨٦٠ م ـ ١٢٨٨ هـ/١٨٧١ م) بعد أبيه. عرف بالعدل والتدين والعناية بالعلماء. قاوم النفوذ الفرنسي. مدحه الشيخ محمد بن حنبل الحسني واثنى عليه محمد فال بن بابا. قتله أخوه أحمد سالم. ودفن في بوركبه جنوب غربي المذرذرة.

راجع التكملة لمحمد فال بن بابا بتحقيق أحمد بن الحسن وكذا الوسيط.

سيدي محمد بن داده الابييري (١٢٧٠ ـ/١٨٥٤ م ـ ١٣٦٠/١٩٤١) : عالم. أخذ عن سيدي محمد بن الشيخ سيديا وأهل محمد سالم.

من آثاره رسالة في وظيفتي المفتي والقاضي. ترجم له يحيى بن البراء في رسالته عن الالفية (ص ٤١).

سيدي محمد بن سيدي أحمد بن الامام أحمد (حبت) الغلاوي (ت ١٢٨٨ هـ/١٨٧١ م عن ٩٥ سنة) من علماء شنقيط البارزين. اسس كبرى مكتباتها الى اليوم. حج عام ١٢٦١ هـ. كان من دعاة اقامة الحدود.

له مؤلفات منها «المواهب النحوية على الخلاصة والألفاظ البونية» ترجم له المختار بن حامد، وكذا يحيى ابن البراء.

سيدي محمد بن اعلي العلوشي الداودي (١١٧٩ هـ/١٧٦٥ م ـ ١٢٥٩/١٨٤٣) عالم عابد متصوف. أخذ عن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي.

الشريف أحمد بن فاضل الشريف (ت ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م) أخذ عن الحاج الحسن بن آغبد الزيدي. له فتاوي مجموعة (فتح الشكور ٤٧، ٤٨).

الشريف سيدي محمد بن فاضل الشريف (١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م) : فقيه محقق، قال عنه البرتلي «ما رأيت أخصر ولا أحسن من فتواه»، له حظ في النحو واللغة. له ولأخيه فتاوي مجموعة. (فتح الشكور ١٤٤، ١٢٥).

الشريف الشاب : فقيه أصولي صوفي متفنن من فاس، ذكر له البرتلي شعرا ونظما في الوعظ والفتاوي ومراسلات مع علماء البلاد، وأنه زار ولاتة، وذكره صاحب «الوسيط» باسم الشاب الشاطر، فعزا اليه بعض الكرامات، وقال أنه لقن العلم أربعة من أهل شنقيط، منهم الطالب محمد بن المختار بن الأعمش. كان حيا سنة ١٠٤٥ هـ. (فتح الشكور ٢١٣، ٢١٤ ـ الوسيط).

الشيخ ابراهيم بن الحاج عبد الله انياس الكولخي (١٣١٩ -/١٩٠١ م - ١٣٩٥/١٩٧٥). أكبر مشايخ الطريقة التجانية في افريقيا خلال القرن العشرين. علامة فقيه قارىء مفسر، نشر الاسلام في مناطق كثيرة، وخصوصا في نيجيريا. كان عضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي وعدد من الهيئات الاسلامية الأخرى. له دواوين شعر وعدد كبير من المؤلفات في التصوف والفقه وتفسير القرآن. أخذ عن عدد من العلماء الشناقطة وأخذ عنه جم غفير. وضع النعمة بن عبد الله رسالة جامعية حوله.

الشيخ أحمد بمبا (الخديم) : (ت ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م) من أعيان المشايخ في السنغال. أخذ عن الشيخ سيديا قبل أن يستقل بطريقته «المريدية».. قاوم المستعمر، فنفاه الى الغابون ثم فرض عليه الاقامة في موريتانيا فترة. كان محط رحال عدد كبير من العلماء والشعراء الشناقطة الذين امتدحوه.

الشيخ أحمد حماه الله : ولد في ولاتة لأب عربي وأم فلانية.. ظهر سنة ١٩٢٥، شيخا من مشايخ الطريقة التجانية واشتد اقبال الناس عليه وانتشر اتباعه في القارة الافريقية.

كان يبث دعاية مضادة للاستعمار، فتم ترحيله الى المناطق الغربية من البلاد (المنذرذرة) ثم نفي الى ساحل العاج ثم الى فرنسا، حيث قالت المصادر الفرنسية أنه توفي يوم ١٦ يناير ١٩٤٣ (٩ محرم ١٣٦٢ هـ) في مستشفى. نشر حوله كتاب : Alioun Traoré
Cheikh Hamahoullah, homme de foi, et résistant

الشيخ أحمد بن سليمان الديماني (ت ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م) من أعيان قبيلته وعلمائها البارزين. أخذ عن الشيخ سيديا الكبير له عدد من المؤلفات منها كتاب الأنساب، ونظم في الحساب العددي.

الشيخان (أحمد محمود) الملقب من آب بن محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الحافظ (١٣٢٥ هـ/١٩٠٧ م ـ ١٩ شوال ١٤٠٦/١٩٨٦) عالم شاعر. من أعيان المتصوفة في البلاد.

أخذ عن الشيخ ابراهيم أنياس. وهو أكثر خلفائه اتباعا في موريتانيا. دفن في قريته «بارينا». نشر الأستاذ الداه بن محمد عبد الرحيم الطلبة ديوانه (طبع في الدار البيضاء).

الشيخ التراد بن العباس القلقمي (١٣٠٦ هـ/١٨٨٨ م ـ ١٣٦٥/١٩٤٥) من أعيان مشاييخ التصوف في البلد. أخذ عن الشيخ سعدبوه بن الشيخ بن محمد فاضل. وانتسب اليه كثيرون منهم الشيخ محمد عبد الله بن آده.

توفي عائدا من الحج ودفن في دكار. له عدة مؤلفات وديوان شعر جمعه وقدم له الأستاذ محمد بن سيدي (بدنا).

الشيخ سعدبوه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي (هـ/ ـ ١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م) من أعيان البلد. أحد مشاييخ الطريقة القادرية البارزين. له اتباع كثيرون في السنغال وغيره.

الشيخ سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي (ت ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م). عابد صالح قيل أنه كان كثير البكاء لأن الصلاة في المسجد فاتته مرة، فلقب «البكاي» مر بولاتة فرأى الناس من بركته ورغبوا اليه في البقاء معهم، فأقام بها. وقبره بجبلها معروف اليوم.

(انظر حياة موريتانيا للمختار بن حامد وكنته الشرقيون تعريب محمود ابن ودادي).

الشيخ سيدا عمر بن الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي (ت ٩٥٩ هـ/١٥٥٢ م). لقي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، فأخذ عنه الطريقة القادرية.

انظر : كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ابن ودادي.

الشيخ سيديا بابا بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الكبير (ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م) : عالم جليل، فقيه ومحدث وأصولي ومؤرخ وشاعر له دور سياسي كبير في أوائل القرن العشرين. كان يميل للاجتهاد في الفقه. وله مصنفات منها : «ارشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين» وتاريخ أدوعيش ومشظوف.

الشيخ سيديا بن الشيخ أحمد بن سليمان الديماني (١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م - ١٣٦٣/١٩٤٤) عالم صوفي أديب. أخذ عن يحظيه بن عبد الودود. خرج مهاجرا الى الشمال عند دخول الفرنسيين البلاد. من آثاره تعليق على الالفية. ترجم له المختار بن حامد. وكذا يحيى بن البراء.

الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة بن أحمد دوله بن أبابك ابن انتشايت الابييري (١١٩٠ هـ/١٧٧٧ م) ـ ١٢٨٤/١٨٦٧) قطب من أقطاب العلم والتصوف والسياسة في البلاد. أخذ عن حرمه بن عبد الجليل العلوي وحبيب الله بن القاضي الاجيجبي وابنه محمد محمود والشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد. وعاد فنشر الطريقة القادرية واتسع نفوذه فكان أمراء البلاد يأتمرون بأمره. سافر الى المغرب أيام السلطان عبد الرحمن لشراء الكتب. وكان شاعرا.

عني بدراسة اثاره أحمد بن الامين في الوسيط ومحمد المختار ابن أباه في «الشعر والشعراء» والمختار بن حامد في «حياة موريتانيا» وأحمد بن الحسن في «الشعر الشنقيطي» ودرس المصطفى بن عليبيطالب دوره السياسي في رسالته «الارستقراطية الدينية» وتناوله : C.C. Stewart : Islam and Social Order in Mauritania.

الشيخ بن سيدي محمد بن سيدي أحمد بن الامام أحمد (حبت) الغلاوي (ت ١٢٩٩ هـ/١٨٨٢ م)، عالم أخذ عن والده سيدي محمد، ووضع اختصارا في ٤ أجزاء لكتابه «المواهب النحوية». طبع جزاءان من كتابه هذا بفاس، مع حاشية للسلطان المغربي مولاي عبد الحفيظ. توفي غرقا وهو حاج. ترجم له المختار بن حامد، وكذا يحيى ابن البراء.

الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الكبير الابييري الانتشائي (١٢٤٧ هـ/١٨٣٢ م - ١٢٨٦/١٨٦٩ م) رباه والده وعلمه وأخذ اللغة والدواوين عن محمد بن حنبل، فكان ضليعا في العلم مجليا في الشعر. انذر في شعره بخطر الاستعمار ودعا لمواجهته ولما يدخل البلاد.

حقق ديوانه عبد الله بن سيديا في رسالة جامعية (راجع الوسيط - ص ٢٤٣، والشعر الشنقيطي - ٢٢٢).

الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (١٢٤١ هـ/١٨٢٦ م) عالم صوفي جليل. أخذ عنه علماء منهم الشيخ سيديا الكبير. له عدة مؤلفات منها الطرائف والتلائد

في مناقب الوالدة والوالد. ترجم له محمد محمود بن ودادي زيادة على ترجمة بول مارتي في «كنته الشرقيون».

الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي (١١٤٢ هـ/١٧٣٠ م - ٤ جمادى الاولى ١٢٢٦/٨ مايو ١٨١١) من أبرز علماء البلد ومشايخه نشر الطريقة القادرية وتتلمذ عليه كثيرون وكان على صلة بال عثمان دان فوديو مؤسسي دولة «سكوتو» الاسلامية بنيجيريا. راسله المرتضي الزبيدي من مصر. ألف ابنه الشيخ سيدي محمد كتابا ضخما في مناقبه «الطرائف والتلائد» له قصائد ومصنفات كثيرة.

الشيخ عمر بن سعيد تال الفوتي (ت ١٢٨٠ هـ/١٨٦٤ م) عالم وصوفي ومجاهد كبير. أخذ الطريقة التجانية بواسطة سيدي مولود فال الشنقيطي وحج فلقي سيدي محمد الغالي ومر بنيجيريا حيث ربط علاقة طيبة بآل عثمان فوديو، خاض جهادا مريرا لاقامة دولة مركزية في فوته وقاوم الفرنسيين. وترك اثارا منظومة ومنثورة منها كتابة «رماح حزب الرحيم».

وضعت عنه كتب منها «الدرع والمغفر» للشيخ أحمد بن بدي وسلطان الدولة التجانية للشيخ محمد الحافظ المصري وكتاب لأبي بكر خالد با.

الشيخ ماء العينين (محمد المصطفى) بن محمد فاضل ابن مامين القلقمي (٢٧ شعبان ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١ ـ ٢١ شوال ١٣٢٨ هـ/أكتوبر ١٩١٠ م) من أعيان البلد : عالم وشيخ صوفية ومجاهد كبير. درس في مدينة شنقيط واتخذ من السمارة بالصحراء مقرا له. وربط علاقات طيبة بسلاطين المغرب. وانتشر أتباعه في المنطقة كلها. قاد الجهاد المسلح في المغرب وبلاد شنقيط ابان دخول الاستعمار الفرنسي. ترك ما يقدر بمئات الآثار العلمية.

له ترجمة في الوسيط (ص ٣٦٥) وحياة موريتانيا. وقد درس عبد الله بن محمد الأمين أدواره الفكرية والسياسية في رسالة جامعية.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (أب بن اخطور) الجكني (ت ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م) عالم جليل. هاجر من بلاده أيام الاستعمار، وأقام بالحجاز فكان من أساطين الحركة العلمية هناك له كتاب «أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن» توسعنا شيئا ما في الحديث عنه في متن الكتاب.

الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي (ت ١٢٤٧ هـ/١٨٣٢ م) من أبرز العلماء وماشييخ التصوف. درس على سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم وحج ومرّ في عودته بفاس حيث أخذ عن الشيخ سيدي أحمد التجاني (ت ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م) نشر الطريقة التجانية في بلاد شنقيط ونشرها أتباعه في غرب افريقيا. ترجم له سكيرج في كشف الحجاب والف فيه محمدي بن سيدينا الملقب «بدي» كتابه نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ قبره مزور عند «انفني» على بعد نحو ٦٠ كم من بوتيلميت.

الشيخ محمد حبيب الله بن مايابي الجكني (ت ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م) عالم جليل. خرج مهاجرا ابان الاحتلال الفرنسي للبلاد، فلقي حظوة في المغرب ومصر التي استقر بها بعد أن حج. له عشرات المؤلفات منها «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» (طبع في ٤ مجلدات). ترجم له الزركلي في الأعلام.

الشيخ محمد بن حنبل بن محم بن الفك الحسني، من أولاد اعمر أكداش (١٢٣٩ هـ/١٨٢٤ م - ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م) شيخ محضرة. كان يدرس القرآن قراءة وتفسيرا وعلم الكلام واللغة. درس على بلا بن الفاضل الشقروي ومحمد بن لحظان الحسني، وانتسب الى القادرية على الشيخ سيديا. له مؤلفات منها «ري الظمآن في تفسير القرآن» و«الناموس في حل الفاظ القاموس» وله ديوان شعر حققه في رسالة جامعية أحمد بن أحمد.

راجع أحمد بن الحسن : الشعر الشنقيطي - ص ٢١٥.

الشيخ محمد الخضر بن مايابي الجكني (ت ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م) عالم مؤلف. حج وأقام حينا، فكان مفتيا للمالكية بالمدينة. اشتهر بخلافه مع العلماء التجانيين في البلاد. ترك عدة مؤلفات منها رسالة في زكاة الأوراق البنكية ترجم له صاحب الاعلام.

الشيخ محمد عبد الله بن آده البصادي (ت ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م) من مشاييخ التصوف في البلاد. أخذ عن الشيخ التراد بن العباس. اتخذ من بومديد بين تكانت والعصابة مقرا له فأقبل عليه الناس. لمجموعته تجربة نموذجية في العمل الجماعي (الزراعة خصوصا). هاجر في بداية الستينات وأقام بالمدينة المنورة الى أن توفي.

الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي (١١٩٧ هـ ١٧٨٠ م - ١٠ محرم ١٢٨٨ هـ/ ٢ أبريل ١٨٧١ م). شيخ صوفية والد المشاييخ الاعلام الشيخ ماء العينين والشيخ سعد بوه وسيدي الخير.

الشيخ محمد المامي بن البخاري اليعقوبي من أهال باركالله (١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م - ١٢٩٢/١٨٧٥) عالم كبير، شاعر وصوفي يقال أن مؤلفاته بلغت ٤٠٠، تكلم في كروية الأرض. ودعا لاقامة الدولة ونصب الامام والف «كتاب البادية» بروح اجتهادية عرض فيه لأحكامها وشؤون أهلها. وتميز بعنونة قصائده ذات العبارة الكثيفة والنفس الطويل، منها على سبيل المثال - الجرادة الصفراء والزعفرانية والدلفينية.

نشر المرابط بن عبد العزيز كتابا وجيزا عن حياته وحقق بن عمر ابن فتى والسيد بن احمد ابن أباه منظومته الصداق في رسالة جامعية.

الشيخ محمد محمود الخلف البصادي (ت ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م) من مشاييخ الجماعة الغظفية البارزين.

الشيخ المصطفى بن العربي الابييري (ت ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠ م) عالم متصوف أخذ عن الشيخ سيدي المختار الكنتي له مؤلفات عديدة منها شرح على دواوين الشعراء الهذليين.

الشيخ محمذ ابن النحوي (ولد سنة ١٣٣٠ هـ/١٩١٢ م) شخصية علمية ودينية واجتماعية، ذو صيت واسع في موريتانيا والسنغال وغامبيا وغيرها. أخذ عن والده محمذ الملقب أباه، وغيره من علماء منطقته. سافر الى السنغال حيث اتصل بالشيخ ابراهيم بن الحاج عبد الله نياس الكولخي، فواصل دراسته عنده، وأخذ عنه الطريقة التجانية فكان عميد خلفائه الشناقطة.

الطالب أحمد بن طوير الجنة الوداني الحاجي (ت ١٢٦٥ هـ/١٨٤٨ م) عالم درس على سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم فمكث معه ٢٠ سنة حج وأكرم السلطان المغربي نزله في الطريق. دون رحلته، وقد نشرها ستيوارت بالانجليزية.

الطالب أحمد بن محمد رار التنواجيوي (ت ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م) قارىء فقيه ذو خبرة بالمنطق والبيان. أخذ عن سيدي محمد بن عبد الله ابن بابا التنواجيوي والشيخ سيدي المختار بن الطالب والفقيه أحمد ابن سالم المسومي.

له شروح وجيزة على مختصر خليل والفية ابن مالك وأم البراهين للسنوسي.

لفتح الشكور ص ٥٩ - ٦١).

الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشي (١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م) شيخ محضرة تدرس الفقه والعقائد وغيرها. متصوف عابد، أخذ عن والده وعن الطالب عمر بن محمدنالله البرتلي والطالب محمد البلوي والحاج سيدي ابن الطالب الوافي والحاج ابن أبي بكر بن عيسى الغلاوي وغيرهم. وأخذ عنه خلق كثير.

(فتح الشكور ص ٦٤ - ٦٨).

الطالب البشير بن الحاج الهادي : (ت ١١٩٧ هـ/١٧٨٣ م) قارىء، فقيه مفت، محدث، نحوي.

قال عنه البرتلي : «أحيا العلم في بلاده» لكثرة طلاب محضرته وما يرد عليه من النوازل. أخذ عن الطالب عمر بن محمد بن بوه الايديلبي والشيخ سيدي أحمد بن السيد صالح وغيرهما له فتاوي مجموعة.

(فتح الشكور ٧٨ - ٨١).

عبد الله بن سيدي محمود بن المختار بن عبد الله بن ابج الحاجي (ت ١٢٥٠ هـ). عالم شاعر ذو شوكة. أخذ عن والده المرابط سيدي محمود وعرف بالطموح. حج وعاد. فكانت في

أيامه وبزعامته حرب أدولحاج مع كنته. نقم عليه الشيخ سيدي محمد الكنتي فألف حوله الرسالة الغلاوية. ترجم له أحمد بن الأمين (ص ٣٦١).

الشيخ عبد الله بن الشيخ سيديا (بابا) بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الكبير (المتوفى ٢٨ جمادى الثانية ١٣٨٤/١٩٦٤). ورث مجد والده العلمي والديني والسياسي. أسس معهد بوتلميت الاسلامي.

صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت ١٢٧١ هـ/١٨٥٤ م) علامة مؤرخ شاعر له عدة مؤلفات في فنون شتى، منها «الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية» حققها في رسالة جامعية الأستاذ أحمد بن محفوظ.

عبد الله بن الطالب أحمد بن الحاج حماه الله الغلاوي (ت ١٢٠٩ هـ/١٧٨٥ م) عالم باللغة والبلاغة والنحو والعروض. أخذ عن خاله سيدي عبد الله ابن الفاضل الشمشاوي اليعقوبي وعن المختار بن بونه. اربت مؤلفاته على الأربعين. ومنها نظم للرسالة، ونظم في العروض. قال الشنقيطي : «لم يكن في أرض الحوض مثله في زمنه».

(انظر فتح الشكور ص ١٧٠ والوسيط ص ٩١).

عبد الله العتيق بن ذي الخلال اليعقوبي (ت ١٣٣٩ هـ/١٩٢١ م) عالم، شيخ محضرة مكينة في اللغة وغيرها.

عبد الله بن مولاي اسماعيل (ت ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م)، ابن السلطان العلوي من خناثة بنت الامير البركني بكار بن علي بن عبد الله. ولي المغرب أربع مرات، في فترات اضطراب بعد وفاة والده.

عبد الله بن ياسين الجزولي (٤٥١ هـ/١٠٥٩ م) فقيه ومجاهد، استقدمه يحيى بن ابراهيم الكدالي عودته من الحج، من منطقة السوس. أقام في البلاد يعلم الناس ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فاستعصوا عليه فاعتزلهم في رباط مع الامير يحيى بن ابراهيم وجماعة لم تفتأ تزداد حتى آنس الفقيه فيها القوة، فخرج بها مجاهدا، فكان ذلك منطلق دولة المرابطين. استشهد في جهاد برغواطه.

المامي (الامام) عبد القادر كان : زعيم دولة فوتة السنية التي قامت على ضفاف نهر السنغال. حكم من ١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م الى ١٢٢١ هـ/١٨٠٦ م) درس على خديجة بنت العاقل وتلقى الشاذلية من عبد الجليل بن الحاج. ومدحه ابنه حرمه بن عبد الجليل :

قد فقت كل ملوك الأرض قاطبة	وفقت في العلم والعرفان كل ولي
ما سار سيرك في شأن العلى أحد	إلّا سميك عبد القار الجيلي

وبه سمي الشيخ محمد المامي.

عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي (ت ١٣٣٧ هـ/١٩١٩ م) عالم فقيه من بيت علم يقوم على محضرة عليا للدراسات الفقهية.

له مؤلفات عديدة منها «ثمان الدرر» شرح على مختصر خليل في ثماني مجلدات.

ترجم له المختار بن حامد، وذكره محمد المختار بن أباه في «دراسات عن تاريخ التشريع الاسلامي» (ص ٥٨).

عبد الودود بن عبد الله بن انجبنان الفغي من أولاد الفغ حبيب الله (١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م ـ ١٢٨٦/١٨٦٩). عالم نحوي، شيخ محضرة، أخذ عن بلا الشقروي.

له «روض الحرون من طرة ابن بون»، حققه في رسالة جامعية محمد الأمجد بن ابات ومحمد الأمين بن محمد محمود.

عبيدة بن أحمد بن محمد الصغير التشيتي (ق ١٣ هـ). عالم، فقيه متصوف. له ميزاب الرحمة الربانية، في الطريقة التجانية (مطبوع) والوابل الهاطل في دفع القيمة الزائدة على المماطل.

عثمان دان فوديو (١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م) عالم مصلح ديني، صوفي مجاهد، التف حوله الهوسا في نيجيريا فأسس دولة سوكوتو الاسلامية. كان على صلة بالعلماء الشناقطة مثل الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد.

ومدحه وقومه الشيخ سيديا الكبير.

علي شنظورة بن هدي بن أحمد بن دامان : أمير الترارزة (١١١٤ هـ/١٧٠٣ م ـ ١١٣٩/١٧٢٦) أمير قوي أرسى دعائم الامارة بالتخلص من أولاد دليم والبراكنة وفلول أولاد رزق. صديق سيدي عبد الله بن محمد، سافر معه الى المغرب، فأمدهما السلطان مولاي اسماعيل بمحلة (جند) ساعدته في تدعيم سلطانه.

أول من أقام علاقات تجارية منتظمة مع الدول الأوروبية مستفيدا من تناقضها.

تحدث عنه احمد بن الامين ومحمد فال بن بابا والمختار بن حامد وكذلك محمد بن محمذ في «مدخل الى دراسة أزمة امارة الترازة في ق ١٩ م».

عمر بن الخطاط الملقب الخطاط ابن محمدنالله بن الطالب جبريل الأنصاري البرتلي الولاتي، «شيخ علم الكلام في زمنه»، كان يذهب الى النظر وترك التقليد : أخذ عنه الطالب الأمين بن الحبيب وآخرون.

ولد في ٨ شعبان سنة ١٠٢٨ وتوفي ليلة الأحد ١٤ ذي القعدة سنة ١١٠٧ هـ.

(فتح الشكور ١٨١، ١٨٢).

غالي بن المختار فال البصادي (ت ١٢٤٠ هـ/١٨٢٤ م) عالم، لغوي، شاعر. من أعيان علماء مدينة شنقيط. من اثاره نظم لأمهات المؤمنين شرح وطبع في الحجاز.

القاضي عبد الله بن محمد بن حبيب العلوي (ت ١١٠٣ هـ/١٦٩٢ م) يعرف بقاضي شنقيط وقاضي البراكنة. عالم بارز. قاد هجرة طائفة من قومه الى منطقة القبلة، لما قامت الحرب بين العلويين في شنقيط (نحو ١٠٧٠ هـ/١٦٦٠ م)، كان لمحضرته في الجنوب دور كبير في نشر العلم. حج ولقي عليا الأجهوري بمصر. وقدم بمكتبة.

راجع لمحمد المختار ابن اباه دراسات في تاريخ التشريع الاسلامي في موريتانيا، وكذلك تحقيق محمد سعيد بن دهاه لديوان سيدي عبد الله ابن محمد بن القاضي المذكور.

القاضي محمد بن محمذ فال بن أحمد فال التندغي (١٣١٣ هـ/١٨٩٥ - ١٤٠٠/١٩٨٠ م). عالم جليل، شيخ محضرة عريقة. أخذ عن والده وأخذ عنه علماء منهم محمد عبد الرحمن بن الحاج ومحمد فال بن القاضي ومحمد يحيى بن محمد الدنبجة ومحمد يحيى بن محمد الحافظ والشيخ محمد المشري والشيخ محمد النحوي.

ترك اثارا كثيرة تناهز المائة منها نظم مطول مشروح في الأنساب.

المامون (أحمد المامون) بن محمذ الصوفي بن عبد الله المجاور اليعقوبي من فخذ الأخوال (١١٤٠ هـ/١٧٢٩ م - ١٢٣٥/١٨٢١) شاعر عالم.

أخذ عن المختار بن بونه ثم وقف مع المجيدري ضده وساجله شعرا. له شرح للالفية وتعليق على امالي ابي علي القالي وشرح على قرة الابصار للمطي. وله ديوان شعر حققه محمد بن ماء العينين في رسالة جامعية.

انظر ترجمته عند أحمد بن الحسن - ص ٢٣٥ وكذلك أحمد بن الأمين - ص ٢١٧ ومحمد المختار ابن اباه.

المجيدري : محمذ بن حب الله اليعقوبي (ت نحو ١٢٠٥ هـ/١٧٨٨ م). فقيه سلفي. اشتهر بخلافه مع المختار بن بونه، وبعض أعلام البلاد الآخرين في مسائل كلامية. وكان ذلك بعد رحلة حج، مرّ فيها بمصر والمغرب فلقي علماء أجلاء مثل المرتضى الزبيدي وأخذ عنه.

(انظر الوسيط - ص ٢١٤) وحياة موريتانيا.

الحاج محمد بن أبي بكر الكيهيدي : عالم كان شيخ محضرة كبيرة في كيهيدي. توفي سنة ١٤٠١ هـ. أخذ عن محمد بابا بن الصديق تله. من أعماله : نظم الأجرومية.

محمد بن أبي مدين بن الشيخ أحمد بن سليمان الديماني، سبط الشيخ سيديا الابيري (١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ - ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م) فقيه محدث جليل.

أخذ عن يحظيه بن عبد الودود كان مدرسا بمعهد أبي تلميت للدراسات الاسلامية.

له آثار عديدة، منها «الصوارم والاسنة في الذب عن أهل السنة» (طبع في المغرب) ونظم في أحكام الشعر في الاسلام. وضع عنه ابنه أحمدْ رسالة جامعية.

محمد بن أحمد الصغير بن مبوجه التيشيتي العلوي (ق ١٣ هـ). عالم نظامة متصوف. أخذ الطريقة التجانية عن بانم بن حم ختار له مؤلفات عديدة منها في الفقه كتاب الانتصار لخليل ومقلديه وفي التصوف : النفحة القدسية والجيش الكفيل (مطبوع).

محمد بن أحمد يوره الديماني (١٢٥٧ هـ/١٨٤١ م - ١٣٤٠/١٩٢٢). عالم شاعر لامع، صاحب مدرسة شعبية وجدانية. أخذ عن أبي بكر بن حوبك واحبيب بن حمدا بن البخاري. من آثاره «اخبار الأحبار بأخبار الآبار» ومنظومة في التركة وقد جمع محمد (بدنا) بن سيدي ديوانه وقدم له.

الشيخ محمد ابن احمذيه الحسني (ت ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م). عالم صوفي شاعر، بيته بيت علم وأدب. أخذ عن بلا الشقروي، له مؤلفات منها طرة على الفية ابن مالك.

محمد الحافظ بن أحمد بن الشيخ محمد أحمد (ولد سنة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥ م). ظاهرة شعرية. أغزر الشعراء الشباب انتاجا وأطولهم نفسا، ينحت من صخور اللغة كأنما يغرف من بحر.

له قصائد مطولات كثيرة وله بحوث ومقالات عن الأدب والثقافة منشورة في صحيفة الشعب وفي مجلة «الفكر التونسية».

محمد الحافظ بن فتى بن الحاج العلوي (ت ١٣٦٩ هـ/١٩٤٨ م). عالم شاعر متصوف. أخذ العلوم التقليدية في محيطه. وانتسب الى الشيخ ابراهيم نياس الكولخي، فكان من أكابر أصحابه. له كناش ومجموعة شعرية.

محمد الحافظ النحوي (ولد سنة ١٣٧١ هـ/١٩٥١ م) داعية معاصر. أمين عام التجمع الثقافي الاسلامي. سبق أن شغل منصبي وزير ومفوض سياسي سام في الحكومة الموريتانية.

الشيخ محمد حامد بن عبد الله بن آلا الحسني (١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م). عالم فقيه شاعر قاوم بحزم مشاريع الاستعمار الثقافية فرفض افتتاح المدرسة الفرنسية في حيه.

اعد عبد الله السالم بن الشيخ أحمد رسالة جامعية عن شخصيته.

محمد الحبيب بن اعمر بن المختار بن الشرقي بن أعلى شنظوره بن هدي بن أحمد بن دامان. أمير الترارزة (١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م ـ ١٢٧٧/١٨٦٠) قال عنه أحمد بن الحسن «أعظم امراء الترازة باطلاق» جاهد الفرنسيين ومال ميزان القوة لصالحهم فانتهت الحرب سنة ١٢٧٤ هـ/١٨٥٨ م بتوقيع معاهدة تجارية أملو فيها ارادتهم عليه.

كان على صلة طيبة بعلماء منطقته.

اغتاله أبناء أخوته في أواخر صفر ١٢٧٧ هـ، دفن في الدواره شمال شرقي نواكشوط.

(انظر كتاب التكملة لمحمد فال بن بابا).

محمد سالم بن آلما اليدالي الديماني (١٣٠١ هـ/١٨٨٤ م ـ ١٣٨٣/١٩٦٣). عالم جليل، فقيه نحوي، شيخ محضرة. أخذ عن يحظيه بن عبد الودود.

محمد سالم بن محمد عالي بن عبد الودود (ولد ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م). علامة، حافظة، شاعر، من أبرز علماء البلاد المعاصرين. نشأ في بيت علم عريق، وعزز ثقافته التقليدية بدراسة حقوقية في تونس.

رئيس للمحكمة العليا ثم وزير للثقافة والتوجيه الاسلامي في موريتانيا. له عدد من المؤلفات منها نظم في القانون الدولي، ونظم لأبواب تبصرة ابن فرحون ورسالة في الاجتهاد وعدد كبير من المحاضرات.

محمد بن الشيخ عبد الله : كاتب شاعر ومؤلف معاصر. تربى ودرس في حضرة والده الشيخ عبد الله، أحد أعيان الطريقة التجانية، من خلفاء الشيخ ابراهيم نياس.

عمل رئيس تحرير لصحيفة الشعب الموريتانية (١٩٧٩ ـ ١٩٨٠). له مؤلفات في التصوف منها «الردود السنية» وقد جمع ديوان والده وعلق عليه.

محمد العاقب بن مايابي الجكني : عالم جليل «أكثر أخوته العلماء الاثني عشر علما» (ابن حامد). هاجر ابان الاحتلال الفرنسي للبلاد وتوفي بفاس في العقد الثالث من القرن ١٤ هـ.

ترجم له المختار بن حامد وأبو القاسم بن محمد التواتي الليبي في شرحه لنظم نوازل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

انظر رسالة محمد المصطفى الندى عن دور المحاضر (ص ٨٢).

محمد العالم ابن مولاي اسماعيل (ت ١١١٦ هـ/١٧٠٥ م). أمير مغربي من أهل العلم. صديق حميم لسيدي عبد الله بن محمد الشنقيطي بادله المديح شعرا.

كان واليا لوالده على منطقة السوس فثار عليه. فأمر السلطان مولاي اسماعيل بقتله.

محمد عالي (معي) بن سيدي بن سعيد الالفغي (١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م ـ ١٣١٠/١٨٩٢). عالم شيخ محضرة مختصة في الدراسات النحوية. أخذ عن ابن عمه عبد الودود ابن عبد الله.

له شرح على احمرار ابن بونه.

ترجم له يحيى ابن البراء في «الالفية وتأثيرها».

محمد عالي (باباه) بن محمد ابن فتى العلوي (١٣١٦ هـ/١٨٩٨ م ـ ١٣٩٤/١٩٧٤) قاض اعر. كان شيخ المحضرة في بارينا.

صحب سيدي بنعمر حفيد الشيخ التجاني، ودون رحلة له معه. وأقام مع القاضي أحمد سكيرج العياشي فترة في المغرب. أخذ عنه جل المعاصرين من أهل بلده.

له ديوان شعر ومنظومات فقهية.

الشيخ محمد بن الغزالي الشقروي (١٢٧٧ هـ/١٨٦٠ م ـ ١٣٦٢/١٩٤٣) عالم نحوي لغوي. أخذ عن يحظيه بن عبد الودود. له «عقل الشوارد على شرح الشواهد» خرج فيه شواهد طرة ابن بونه فشرحها والقصائد والقطع التي وردت فيها، وذلك في أربع مجلدات.

انظر الألفية وتأثيرها ليحيى بن البراء.

محمد فال (اباه) بن بابا بن احمدبيبه العلوي (١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م ـ الخميس ٢٨ رجب ١٨/١٣٤٩ دجمبر ١٩٣٠) رجل علم ودين وشاعر بارز. أخذ عن المصطفى ابن أحمد فال العلوي والمختار بن ابيه الجكني وابن عبدم الديماني والشيخ أحمد (ابه) بن محمدي (بدي) العلوي وعنه أخذ الطريقة التجانية. حج سنة ١٣٠٦ هـ/١٨٨٧ م في رفقة منها محمد الكبير ابن العباس العلوي. ومرّ بمصر والمغرب وبها لقي سيدي العربي بن السائح. له مؤلفات عديدة في الفقه وأصوله والتصوف وله كتاب التكملة في تاريخ امارتي الترارزة البراكنة حققه أحمد بن الحسن وألف عنه محمد عبد الرحمن بن السالك ترصيع اللثال في مناقبه وحقق السيد بن أحمد ديوانه ومحمد فال بن شماد رحلته كلاهما في رسالة جامعية. وترجم له محمد المختار بن اباه.

محمد فال (اباه الثاني) بن عبد الله بن محمد فال (اباه) بن بابا أحمد بييه العلوي (ولد سنة ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م) عالم جليل من أجل علماء بلاد شنقيط المعاصرين. صاحب محضرة موروودة في النّباغيه أخذ عن محمد ابن محمد المختار بن أحمد فال العلوي والامين بن سيدي الفاضل الديماني.

له تفسير للقرآن الكريم وشرح على احمرار بن بونه.

محمد بن المصطفى بن فتى (محمد المختار) بن سيدينا (سيدي عبد الله) العلوي (١٢٧٨ هـ/١٨٦١ م ـ ١٣٣٧/١٩١٩ م) عالم شاعر. والد العلامة محمد عالي (باباه) ابن فتى.

له شرح على ديوان الشماخ بن ضرار، وديوان شعر.

محمد مبارك اللمتوني ابن حبيب الله بن الامين (ت ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣ م عن نحو ٩٠ سنة). أجازه الشيخ سيديا في العلوم الظاهرة والباطنة. له ما يربو على ١٠٠ تأليف.

ترجم له المختار بن حامد (انظر أيضا رسالة يحيى بن البراء الالفية وتأثيرها).

محمد (ابن الطلبة) بن محمد الأمين بن محمذن (ابه) بن المختار بن الفغ موسى اليعقوبي (١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م ـ ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م). عالم من بيت علم وقضاء كما يشير الى ذلك لقبه (ابن الطلبة). غلبت شهرته بالشعر. صاحب مدرسة قاموسية وله مطولات عارض بها شعراء قدامى. له مؤلفات ضائعة في الفقه والنحو والأدب. درس أحمد بن الحسن أسلوبه في رسالة جامعية منفردة وترجم له في الشعر الشنقيطي. في ق ١٣ هـ.

انظر أيضا : الوسيط والشعر والشعراء في موريتانيا لمحمد المختار بن اباه.

محمد بن محمد سالم المجلسي (ت ١٣٠٢ هـ/١٨٨٠ م) عالم جليل ووالد علماء أجلاء. شيخ محضرة مجلية في الدراسات الفقهية، ذائعة الصيت.

له مؤلفات سباعية : تفسير للقرآن في ٧ مجلدات ومثله في شرح البخاري وفي شرح مختصر خليل في الفقه.

محمد بن محمد شين بن بكار بن اعمر بن محمد بن خونا (ت ١٢٣٦ هـ/١٨٢١ م). أمير تكانت القوي. وصف بالعدل. وكان يدين بالولاء الروحي للعلامة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي. توفي اثر انفجار بارود كان يعالجه.

ترجم له بابا بن الشيخ سيديا في تاريخ ادوعيش وقال انه من افضل الملوك وأعدلهم وأعظمهم ملكا وأشدهم صولة.

محمدُ بن محمدي (بدي) بن سيدينا (١٢٤٢ هـ/١٨٢٦ ـ ١٢٧٢/١٨٥٦). نشأ في بيت علم وأدب وتصوف وتألق في الشعر أخذ عن والده بدي وبلا بن الفاضل الحسني وجدود بن اكتوشني وبابا بن أحمد بييه العلويين وأحمد بن البخاري التندغي.. خرج حاجا سنة ١٢٧١، وتوفي بعد أن أدى مناسكه وزار، ودفن قرب الحديبية على الطريق بين مكة وجدة.

له شرح على مختصر خليل وديوان شعر حققه محمدي بن محمد المختار ابن بدي.

راجع أيضا : الوسيط، والشعر والشعراء في موريتانيا والشعر الشنقيطي ص ٢٨).

محمدُ بن محمذ ابن النحوي الزيني الزينبي العلوي (١٣٠٤ هـ/١٨٨٨ ـ ١٣٨٩/١٩٦٩ م). علامة شاعر جليل عابد معروف بعلو الهمة. أخذ عن والده وعن يحظيه بن عبد الودود. وأخذ عن حامد بن محنض بابه البيان فأخذ عنه حامد النحو. له ديوان شعر مخطوط وكتاب في الأنساب.

محمد محمود بن حبيب الله الاجيجبي (ت ١٢٧٧ هـ/١٨٦١ م). عالم جليل. شيخ محضرة «الكحلاء» العريقة بعد أبيه. له مؤلفات منها أجوبة فقهية و«دعوة الفلاح في النكاح» ترج له الندى في «أساليب وطرق التدريس المحضري في الكحلاء».

محمد محمود بن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (ت ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م) فقيه لغوي له منظومة في تكفير بني حسان بظلمهم.

محمد مولود بن اغشممت المجلسي (١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م). عالم فقيه شاعر من بيت علم. أخو محمد عثمان صاحب الألغاز الموجهة الى أهل فاس. ترجم له أحمد بن الأمين (ص ٣٥٦). من آثاره : منظومة في مخارج الحروف وتعليق عليها.

الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي (١٠٣٦ هـ/١٦٢٥ م ـ ١١٠٧/١٦٩٦). مفتي مدينة شنقيط وعلامتها الشهير. أخذ عن عمر الولي بن الشيخ المحجوبي والحاج المختار بن سيدي محمد والحاج عبد الله البوحسني، وأحمد بن أحمد بن الحاج والقاضي الحاج عبد الله وغيرهم، وذكر أحمد ابن الامين أنه أخذ عن «الشاب الشاطر» الذي زار شنقيط. ولا نجد له ذكرا في اجازاته. وأخذ عن عالم المدينة المنورة أبي اسحاق ابراهيم بن حسن بن شهاب الدين. تحفظ ازاء حركة ناصر الدين.

له نوازل فقهية وله شرح على اضاءة الدجنة للمقري وعلى الفريدة للسيوطي في النحو.

لم يفرد له صاحب فتح الشكور ترجمة ولكنه ذكره مرارا في تضاعيف كتابه.

(انظر فتح الشكور والوسيط وحياة موريتانيا ودراسات في تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد المختار ابن اباه).

محمد المشري بن عبد الله (تياه) بن الحاج (١٣٣٥ هـ/١٩١٦ م - ١٣٩٥ هـ). عالم شاعر محبة وأذواق من أعيان الطريقة التجانية في بلاد شنقيط.

أخذ عن الشيخ ابراهيم بن الحاج عبد الله نياس، ينتشر أتباعه في مناطق عديدة من موريتانيا.

حقق عبد الله بن الهادي بن السيد ديوانه في رسالة جامعية.

يوجد ضريحه في قرية معط مولانا من منطقة الترازة.

محمد المصطفى بن سيدي محمد بن الندى : باحث معاصر، تخرج من المعهد العالي للدراسات الاسلامية بنواكشوط. عمل في قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي.

له رسالة عن «دور المحاضر في موريتانيا» وبحث مطول عن «أساليب وطرق التدريس المحضري في «الكحلاء».

محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي الموسوي (١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م - ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م). عالم جليل، فقيه نظامة، صاحب مدرسة اخلاقية. أخذ عن الشيخ محمذ فال بن متالي ومحمد مختار بن حبيب الله (أبوه) وأخذ النحو عن محمد عالي ابن سعيد الملقب «معي».

ترك نحو ٦٠ اثرا علميا (بعدد سنوات عمره) في علوم القرآن والحديث والفقه. وعنى عناية خاصة باداب المعاملة والأخلاق الفاضلة، فترك في ذلك عدة منظومات منها «محارم اللسان» و«اداب الضيافة» و«مطهرة القلوب»، واهتم بفقه البادية خاصة من خلال نظمه «الكفاف».

تناوله محمد المختار بن اباه في «دراساته في تاريخ التشريخ الاسلامي» والمختار بن حامد في «حياة موريتانيا».

محمد الناته بن المعلى الحسني (ت ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ عن نحو ١٠٠ سنة) من اساطين الشعر في البلد.

لقب «امير الشعراء» صاحب موقف جهادي ازاء المدرسة الفرنسية.

محمد يحيى بن سيدي بن سليمة الدواودي اليونسي (ت ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م). عالم جليل، كثير التأليف.

انكب على اختصار المصنفات وكان يميل للاجتهاد. كان بينه ومحمد يحيى الولاتي خلاف في ذلك.

خلف ما يربو على ١٦٠ تأليفا.

ترجم له المختار بن حامد ويحيى بن البراء.

محمد يحيى (الفقيه) بن محمد المختار بن الطالب عبد الله الولاتي (١٢٥٩ هـ/١٨٤٣ م - ١٣٣٠/١٩١٢) من أكابر علماء البلاد وسفرائها العلميين. حج، وكانت له صلة طيبة بالعلماء في طريقه، وخصوصا في تونس، وألف كتابا عن رحلته. له عشرات المؤلفات. وتوجد بالمكتبة الوطنية التونسية بعض مخطوطاته.

له ترجمة في «شجرة النور الزكية» وفي «الاعلام».

محمد اليدالي بن المختار بن محم سعيد الديماني (١٠٩٦ هـ/١٦٨٥ م - ١١٦٦/١٧٥٣). عالم شاعر متصوف طيب الذكر. أخذ عن الفقيه مينحن وغيره. وأخذ عنه كثيرون كان مكينا عند أمير البراكنة أحمد بن هيبة بن نغماش، له عدة مؤلفات منها «أمر الولي ناصر الدين وشيم الزوايا وخاتمة التصوف والحلة السيرا في السيرة والذهب الابريز في التفسير.

ترجم له البرتلي (ص ١٢٢) وأحمد بن الأمين (ص ٢٢٣) والمختار بن حامد ومحمد المختار بن اباه.

محمدي بن القاضي محمد بن محمذ فال بن أحمد فال (١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م - ١٤٠٣/١٩٨٢) من أبرز الشعراء الشباب في السبعينات.

نشأ في بيت علم عريق وجمع بين الثقافتين، فتدرج في الدراسة النظامية الى أن تخرج أستاذا من المدرسة العليا للمعلمين.

له أبحاث ومقالات أدبية منشورة في صحيفة «الشعب الموريتانية» وله ديوان شعر حققه عبد الله بن محمد عبد الرحمن في رسالة جامعية.

محمذ (اباه) بن محمدي بن عبد الله بن النحوي بن جدانا بن المختار بن أحمد بن محمد بن سيد أحمد بن امغر بن عبد الله بن محمد الزينبي (١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م - ١٣٥٥/١٩٣٦) عالم صوفي شاعر. مكث ١٦ سنة يدرس على المختار بن أبيه الجكني واستزاد من العلم في محاضر جدود بن اكتوشني والمصطفى (ففا) بن أحمد فال ومحمذ فال (يحي) بن أحمد فال. استقر في احياء العلويين، وكان بها شيخ محضرة. ممن أخذ عنه : ولداه محمذ ومحمذ والشيخان بن محمد ابن الطلبة والشيخ المختار بن محمد بن عمي وسيدي محمد بن السالك وأحمد بن خيار. له ترجمة في : P. Marty : Les Brakna, p. 308.

محمذ بن السالم بن ميلود المجلسي نسبا الحسني البنعمري وطنا (نحو ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م) من الشعراء المجيدين. أخذ عن أحمد بن حبيب الله البنعمري وانتسب الى الشيخ سيديا وأبدع في مدحه.

حقق ديوانه محمذ بن عبد الله في رسالة جامعية.

(انظر الوسيط ص ٣٩٩ والشعر الشنقيطي – ص ٢١٧).

محمذ فال بن متالي التندغي (١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ م – ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠ م). عالم وصوفي جليل وشاعر. كانت حضرته حرما يلوذ اليه الخائفون. وقد تصدر عليه عدد كبير من العلماء. داعية كبيرة من دعاة العلم واللغة بالذات، أفتى بتفضيل تعلم اللغة على العبادة. له آثار كثيرة. أعد عنه الب بن محمذ بن زين رسالة جامعية.

محنض بابه بن عبيد الديماني (١١٨٥ هـ/١٧٧١ م – ١٨٦٠/١٢٧٧). عالم جليل كان قاضيا أيام أمير الترارزة محمد الحبيب. طبق الحدود ودعا مع الشيخ محمد المامي لنصب الامام وإقامة الدولة.

أخذ عن محمد بن التاه والأمين بن الماح وخاله حمدي بن المختار بن الطالب أجود وأخذ التصوف عن سيدي مولود فال اليعقوبي وعن غيرهما وهو شيخ محضرة كبيرة دامت ٦٠ سنة، فدرس فيها الرجل وابنه وحفيده. وتخرج منها نحو ١٠٠ من الاعلام. له «الميسر» شرح لمختصر خليل متداول ومصنفات أخرى (راجع حياة موريتانيا لحفيده المختار بن حامد وتاريخ التشريع الاسلامي في موريتانيا لمحمد المختار ابن اباه).

المختار بن آلما اليدالي (ت ١٣٠٨ هـ/١٨٩٠ م). شيخ محضرة. أخذ عنه أحمد بن الأمين وترجم له فقال أنه «برع في النحو والعربية».

(الوسيط ص ٢٣٩) له مكتوب في منع تفريق الزكاة.

المختار بن بلول الجكني (ت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م). عالم فقيه، أفتى في عهد الاستعمار بعدم جواز ارسال الأطفال إلى المدرسة الفرنسية.

درس أحمد سالم بن مولاي على شخصيته العلمية والاجتماعية في رسالة جامعية.

المختار بن بونه الجكني (١٠٨٠ هـ/١٦٦٩ م – ١٢٢٠/١٨٠٥). عالم جليل متبحر، يعتبر أبرز النحاة في بلاد شنقيط. أخذ عن المختار بن بابا حونن والفغ المختار الحسنيين والمختار بن حبيب الجكني ومحمد ابن بوحمد المجلسي وابنه البدوي وخديجة بنت العاقل وغيرهم. وأخذ عنهم خلق كثير.

له مؤلفات في العقيدة والمنطقة والبلاغة والأصول والنحو. ومن أشهر مؤلفاته الوسيلة في العقيدة واحمرار الالفية وطرتها في النحو.

ترجم له أحمد بن الأمين (ص ٢٧٧) والبرتلي (ص ١٢٩) والمختار بن حامد ويحيى بن البراء ووضع الشريف ابن محمد محمود رسالة عن حياته واثاره وشعره. يوجد قبره في «تباريت» قرب «المجرية».

المختار بن حامد (ولد سنة ١٣١٥ هـ/١٨٩٨ م) حفيد محنض بابا الديماني. علامة شاعر مؤرخ جليل. لقبه الباحثون «ابن خلدون موريتانيا» لما بذل من جهد في احياء تاريخها وتدوينه. عكف على اعداد موسوعة عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلاد شنقيط وأنجز منها ١٢ مجلدا، مجلدان منها تحت الطبع والبقية تنتظر النشر يعيش منذ سنوات في المدينة المنورة.

المختار بن محمد بن المختار بن داداه : رئيس الجمهورية الاسلامية الموريتانية منذ استقلالها (٢٨ نوفمبر ١٩٦٠) الى سنة ١٩٧٨.

كان أول موريتاني يحصل على شهادة الباكلوريا، تابع بعدها دراسته الجامعية في فرنسا فتخرج محاميا ضربت في عهده العملة الوطنية الأوقية (١٩٧٣)، واممت مناجم الحديد (١٩٧٤) والنحاس (١٩٧٥) ووقعت حرب الصحراء (دجمبر ١٩٧٥). أطيح به في انقلاب عسكري أبيض في ١٠ يوليو ١٩٧٨.

المختار بن محمد بن سيدي محمد بن المختار بن آغريش : أمير البراكنة بعد أحمد الأول بن سيدي علي (١٢٥٦ هـ/١٨٤١ م) أضر بالمصالح التجارية للفرنسيين فاختطفوه سنة ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣ م ونفوه الى الغابون حيث كان له دور في نشر الاسلام. توسعنا في الحديث عن واقعة نفيه في متن الكتاب.

ذكره محمد فال بن بابا في التكملة، وتحدث عنه بول مارتي.

المرابط محمد الأمين بن أحمد زيدان بن محمد بييه بن المختار ابن سيدي الأمين بن المختار بن أحمد بن الطالب محظرة الجكني (ت ١٣٣٥ هـ/١٩١٦ م عن نحو ٩٠ سنة). عالم جليل اشتهر بالحفظ والذكاء. أخذ عن الديه ابن المختار ومحمد الأمين ابن أحمد بن المختار وسيدي محمد العلوشي.

ترك نحو ٣٠ أثرا علميا منها نظم في غريب القرآن (نحو ٥٠٠٠ بيت) ترجم له أحمد بن المختار في مقدمة «اعداد المهج للاستفادة من المنهج» ودرس شغالي بن المصطفى حياته وآثاره في رسالة جامعية.

مريم بنت الامين بن الماحي الحسنية (ت ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م). عالمة. لها شرح على الكافية لأبن مالك.

المصطفى بن أحمد فال بن سيدي بن احمدان العلوي (ت ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ م). فقيه عابد ورع جليل. أخذ عنه محمد فال بن بابا. له نظم مقتنص الشوارد في الفقه.

مم (أحمد محمود) بن عيد الجكني (ت ١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م). عالم شاعر، تخرج من محضرة يحظيه بن عبد الودود.

منيره بن حبيب الله الشمشوي الألفغي (ت ١١٦٥ هـ/١٧٥٢ م). نحوي لغوي، فقيه وشاعر. هاجر من منطقة «القبلة» بعد حرب شربب، فاستقر في ولاتة زمنا ينشر العلم ثم عاد الى منطقته.

له شرح على الألفية (الدلاصة على الخلاصة) مفقود في موريتانيا، توجد منه نسخة في المكتبة الوطنية بباريس. ترجم له البرتلي (ص ١٢٦) والمختار بن حامد وكذا يحيى بن البراء في «الألفية وتأثيرها».

مودي مالك بن عبد الله جنغ، منحدر من أصول عربية قديمة، فهو ينتسب الى الشريف سيدي الياس التمبكتي. كان بالسنغال الى أن سمع شأن الزوايا على عهد ناصر الدين فارتحل الى بلاد شنقيط وأقام بها يدرس القرآن ويعلم الخط. وهو والد الفقيه مينحن.

عاش في القرن الحادي عشر الهجري ودفن في تن بليل ـ اغورط، من جنوب بلاد شنقيط.

(انظر كتاب الأنساب للشيخ أحمد بن سليمان).

مولود بن أحمد الجواد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن هنض اليعقوبي من فخذ الأعمام (حوالي ١١٧٠ هـ/١٧٦٨ ـ ١٢٤٣ هـ/١٧٢٧ م). عالم شاعر. أخذ عن المختار بن بونه وخاصمه مع المجيدري. له مديحيات نبوية مطولة بديعة وله مؤلفات في أصول الفقه وفي النحو والتصريف. وقد شرح «الوسيلة» في علم الكلام لشيخه وخصمه ابن بونه.

حقق محمد بن السبتي الجزء الأول من ديوانه في رسالة جامعية. وترجم له أحمد بن الأمين ومحمد المختار بن أباه وأحمد بن الحسن.

سيدي مولود فال بن محمذ فال اليعقوبي (ت ١٢٦٨ هـ/١٨٥٠ م) من مشاييخ التصوف البارزين. أخذ عنه العلامة محنض بابا الديماني. وانتشرت الطريقة التجانية بواسطته في افريقيا، فاليه ينتسب كل من الشيخ عمر الفوتي والحاج مالك سي الذي بنى عليه ضريحا في «تم بويعلي».

النابغة محمد بن اعمر الغلاوي (ت ١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م). عالم وشاعر. جال في طلب العلم وتتلمذ على أحمد بن العاقل. وأخذ عن خاله عبد الله ابن الحاج حماه الله. من آثاره منظومة «بوطليحية» في الافتاء والكتب المعتمدة. و«السند العالي في مناقب اليدالي».

ترجم له أحمد بن الأمين (ص ٩٣).

ناصر الدين : اوبك (أبو بكر) بن ابهم (أبوهم) بن الفغ بهنض (الفقيه أبو محمد) الشمشاوي (ت ١٠٨٥ هـ/١٦٧٤ م). زعيم الزوايا وقائد حركتهم الشهيرة لاقامة الدولة. استشهد في موقعة ترتلاس من أيام «شرببه».

ترجم له المختار بن حامد. ودرس محمد المختار بن السعد حركته في رسالة جامعية. وكتب عنه استقلالا : محمد اليدالي ووالد بن خالنا من الأقدمين وأحمد بن الحسن من المعاصرين.

وقد تناولنا حركته في متن الكتاب.

النح (محمد عبد الرحمن) بن السالك بن بابا بن أحمد بيبه العلوي (١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م) علامة، قاض وشاعر، من بيت علم وقضاء، وأدب وتصوف.

له عدة مؤلفات منها : عون المحتسب بشرح ما يعتمد في المذهب من الكتب.

الهادي بن السيدا بن مولود فال (١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م ـ ١٤٠٢/١٩٨٢) من سلالة الشيخين : الشيخ محمد الحافظ بن المختار العلوي وسيدي مولود فال اليعقوبي. أحد أكابر خلفاء الشيخ ابراهيم نياس الكولخي، وناشري الطريقة التجانية في نيجيريا.

مدفون في تم بويعلي من منطقة الترارزة.

هدي بن أحمد بن دامان أمير الترارزة وأحد القادة البارزين للمغافرة في حرب «شرببه» توفي بعد انتهاء هذه الحرب (أواخر القرن ١١ هـ) بعشر سنوات على ما عند والد بن خالنا.

راجع محمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية على شرببه.

والد بن خالنا (محمد والد بن المصطفى) بن الفاضل بن المختار بن عثمان الديماني (ت ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م) فقيه وشاعر، أخذ عن محمد اليدالي ومحمد العاقل ابن عمه.

له مؤلفات منها منظومة في الحوادث وفيات الأعيان وكتاب «كرامات أولياء تشمشه» ونبذة عن حياة الامام ناصر الدين، حديثة الاكتشاف.

ترجم له المختار بن حامد ومحمد (بدنا) بن سيدي في صحيفة الشعب الموريتانية (٨ رمضان ١٧/١٤٠٦ مايو ١٩٨٦).

يحظيه (اباه) بن عبد الودود بن اوبك الجكني القناني (١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م ـ ٢٧ ذي القعدة ١١/١٣٥٨ دجمبر ١٩٣٩) من أبرز علماء شنقيط في القرن ١٤ هـ.

أخذ عن الحسن بن زين وأهل محمد سالم وتكونت عليه محضرة ذائعة الصيت موروده انزله علماء البلاد منزلة سيبويه في النحو. ولم يكن له وقت للتأليف لانصرافه الى التدريس.

تلقت محضرته وساما من المملكة التونسية. وقد عاشت هذه المحضرة ٧١ سنة، وتخرج منها عدد كبير من العلماء.

يحيى بن ابراهيم الكدالي : أمير صنهاجي يرجع اليه الفضل في تأسيس دولة المرابطين، اذ مر بالقيروان عائدا من الحج فشكا لأبي عمران الفاسي جهل أهل بلده بالاسلام، فبعث الى وكاك بن زلو اللمطي الذي أصحبه الفقيه عبد الله ابن ياسين. وكان مروره بالقيروان سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م على ما عند ابن أبي زرع وابن عذارى وابن خلدون.

راجع أيضا : الشعر الشنقيطي في القرن ١٣ هـ للأستاذ أحمد ابن الحسن (ص ٥٨) وكذا حياة موريتانيا للمختار بن حامد.

يحيى (محمذ فال) بن أحمد فال التندغي (ت ١٣٤٥ هـ/١٩٢٦ م) : علامة جليل. شيخ محضرة موردة. كان يتبع فيها نظاما ثابتا لبرمجة الزمن. والد العلامة القاضي محمد.

له عدة مؤلفات فقهية منها فتاوي ومنظومة فيما تجوز به الفتوى.

يحيى بن عمر اللمتوني (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) : أمير دولة المرابطين بعد يحيى ابن ابراهيم الكدالي. كان يدعى أمير الحق.

يقوى (محمد يقوى) بن محمذ بن أحمد ميلود بن سيد المختار ابن الفغ الأمين الديماني الفاضلي (١٢٣٠ هـ/١٨١٦ م - ١٣٠٤ هـ/١٨٨٨ م). شاعر مجيد. درس على جده لأمه أحمد بن العاقل وخاله محمد بن أحمد وابن عمه بكى بن سيدي بن حرمه.

حقق ديوانه ابن بن الهلال. وترجم له محمد المختار ابن اباه والمختار بن حامد وأحمد بن الحسن.

يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠ هـ/١١٠٧ م) : رجل دولة المرابطين القوي ومؤسس جزئها الشمالي. انفرد بالمغرب في عهد ابن عمه الامير أبي بكر بن عمر. وأسس مدينة مراكش فكانت قاعدته. أنقذ الأندلس من الأسبان في معركة الزلاقة الشهيرة (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م).

الملحق الرابع

فهرس المؤلفين الشناقطة

يمثل دليل المؤلفين هذا ثمرة جهاد كبير وسعي حميد قام به العلامة المختار بن حامد ذاكرة تاريخ بلاد شنقيط بمساعدة الخبير هيمو فسكي سنتي ١٩٦٥/١٩٦٦ لاحصاء التراث الشنقيطي المخطوط.

وقد أفضى بهما هذا الجهد الى فهرسة أكثر من الفي تصنيف (٢٠٥٤) لنحو أربعمائة (٣٩٤) مؤلفا شنقيطا. وهو عمل يستحق التقدير ويستأهل التوثيق. ولذلك نعمد الى نشره مبرزين به صورة من صور العطاء الثقافي الشنقيطي. على أن لنا ملاحظات ينبغي أن نضع القارىء منها على بينة :

١ ـ أهمل الدليل مصنفات عدد هام من المؤلفين، خصوصا الذين طبعت لهم أعمال فلا ذكر فيه، مثلا لأحمد ابن الامين ومحمد محمود بن التلاميد الشنقيطيين اللذين كانا مطلع القرن من دعائم الحياة العلمية في المشرق العربي ـ الاسلامي، وخصوصا في القاهرة.

فالفهرس بذلك دليل لمخطوطات المؤلفين الشناقطة لا لمؤلفاتهم بوجه عام.

٢ ـ ومع أنه دليل للمخطوطات، فقد وردت فيه كتب وجدت الى النشر سبيلا من قبل أو من بعد، مثل احمرار ابن بونة ومراقي السعود لأبن الحاج ابراهيم وتحفة الودود للشيخ سيدي المختار الكنتي، ونحو ذلك مما أشرنا الى بعضه في باب الحصاد الثقافي للمحضرة.

ولكن ايراد هذه المصنفات مناسب لأن جلها صار في حكم المخطوط لنفاد طبعاته القديمة وخلو أيدي الناس منه. وكان من حق مصنفات «سفراء المحضرة» أن تدخل من هذا الباب. فكتاب «الوسيط» لأحمد بن الأمين مثلا لم يعد يوجد في الأسواق. وقد أصابت دار الكتب الوطنية التونسية التي رأت فيه سمتي الندرة والقيمة المتميزة، فأودعته في قسم المخطوطات.

٣ ـ تناول الدليل المخطوطات في مجال جغرافي أضيق من المجال الذي اعتبره صاحب فتح الشكور وأقرته السلطات الفرنسية أول عهد الاستعمار فلا ذكر مثلا لمصنفات أحمد باب

التمبكتي واضرابه، خاصة وأن الاوقيتيين انطلقوا من وادان أصلا وفاؤوا وكثير من علماء تمبكتو الى ولاتة.

٤ ـ لا يمكن اعتبار هذا الدليل فهرسا كاملا للمخطوطات الشنقيطية في اطاره الجغرافي المحدود بل هو صورة جزئية حاول صاحباها بجهد جهيد أن يقدما نبذا من التراث الشنقيطي، من مختلف المناطق، في مختلف الموضوعات، فنالا حظا كبيرا من التوفيق. وفاتهما الكثير. ولا مناص من ذلك. وقد أشرنا في باب الحصاد الثقافي الى ما وصلت اليه عملية حصر المخطوطات التي ترعاها الدولة في موريتانيا، حيث تم اقتناء ضعف العدد الوارد في الدليل أو ضعفيه، وذكرنا ـ بحق ـ ان العملية ما تزال في بدايتها.. والجهد المبذول قاصر حتى الآن ولأسباب لا نطيل بالعودة اليها هنا، عن مقاربة الصورة الحقيقية للموروث الثقافي المحفوظ.

وحسبنا أن نذكر كمثال أن ذوي الشيخ محمد المامي (ت ١٢٨٢ هـ) يقدرون آثاره العلمية بنحو الأربعمائة. ولئن افترضنا في الأمر مبالغة، فاننا لا نستطيع إلّا أن نستقل العدد الذي أورده الدليل (٤٧ فقط).

كذلك ترك القاضي محمد بن محمذ فال (ت ١٤٠٠ هـ) نحو ١٠٠ تصنيف لم يذكر الدليل منها، على قرب العهد إلا معشارها (١٠ مصنفات).

ولسنا نريد، وليس باستطاعتنا سد هذا النقص، فذلك يتطلب من الجهد الجماعي والجهد الحثيث ما نرجو أن يوفق له أولو الامر وحاملوا هموم الثقافة العربية الاسلامية. ولكننا سنذيل الدليل بنماذج من المصنفات (والمصنفين) لم ترد في الفهرس الأصلي. وقد استفدنا في ذلك من دليل مخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي ومصنفات المختار بن حامد ومحمد المختار بن اباه، وبعض رسائل الطلبة، خاصة رسالة يحي ابن البراء عن «الفية ابن مالك» اضافة الى معلومات شخصية أخرى.

أبا المختار بن حبيب الله الحسني (١٢٠٠هـ)	نظم الشتات في الشوارد من المهمات
أبا بكر بن الطفيل المسلمي التشيتي (١١١٦هـ)	نظم في النحو عقد به قطر الندى لجمال الدين عبد الله بن هشام.
اباب بن الطالب أحمد جد النزاري	أجوبة فقهية تعليق على مراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (١٢٣٣ هـ)
ابراهيم بن امانة الله اللمتوني (١٣٨٠)	حاشية على المغنى لأحمد الهادي التمدكي رسالة في بيان لحوق الولد الراقد في بطن أمه رسالة في تحريم الشاي « في تحريم الشاي « في حكم خلع الناشر « في حكم قطع المصير وانتشار الحشوة. رسالة في ماذونية العبيد المستقبلين بمدينتهم. رسالة في المعية « في منع قصر الرباعية لحاضر البادية. شرح عمدة الطب لأوفى الشمشوي شرح منظومة المغيلي في المنطق الفردوس (منظومة في الفقه) ١٢٠٠٠ بيتا. قصيدة في علوم الشرع مرشد المتشوف في نظم خاتمة التصوف لمحمد اليدالي وشرحه. مكتوب في تحريم الخنزير البري منظومة في أحوال من دنا أجله « بيان مذهب السلف في المتشابه « مسائل العول والانكسار من الفرائض
ابراهيم فال بن المصطف التاشدبتي الغلاوي	بدر التمام في ليل التمام (منظومة توحيد) وشرحها
ابن حنبل بن البشير اليدمسي	تعليق على الفية ابن مالك منظومة في البدع نظم المواطن (حوادث سنى الهجرة)
ابن عبدم الديماني (١٢٨٦)	احمرار نظم الانساب للبدوي تعليق على الفية بن مالك منظومة في العروض
ابن عمر بن سيد المصطف التندغي	نظم في التوحيد تأليف في النحو

أبو بكر بن أحمد باب التندغي (١٣٥٨)	استدراك على لامية الافعال لابن مالك رسالة في ذم الشاي احمرار اللامية وشرحه
أبو بكر بن سيد أحمد الديماني (١٣٦٣)	منظومة في تفسير بعض غريب القرآن « في التصوف « في أسماء الله الحسنى « في الحيض « في خصائص النبي (ص) « في الفرايض
أبو بكر بن فتى الحسني (١٣٢٤ هـ)	قصيدة في مطالع منازل أول الليل رسالة في المعية
أبو بكر بن محنض بن هايت الديماني (ق ١٣ هـ)	دواء السكتة في شرح دواوين الشعراء الستة (بلغ صدر ديوان طرفه) مثلث استدرك به على مثلث ابن مالك في اللغة نظم في تنبيهات الميسر وفروعه وخاتمته مع شرحه
الفقيه الخطاط	طرة علي خليل
اجدود بن اكتوشن العلوي (ق ١٣)	نظم باب البيع من نوازل الكصري النعماوي جامع المعاني (منظومة في التصريف) وشرحها. منظومة فيما يحل من الحايض
أحمد بن ابات النزاري (١٣٥٢)	غرة الفجر في فاسد العقد والمهر (منظومة وشرحها) منظومة فيما يشتبه على الناس نظم أدوات النحو « في التوحيد « الحلقي من الأفعال « خيار النقيضة وشرحه
أحمد بن آبله الحسني	نظم في الفرايض
أحمد أجود بن البار الحسني	شرح الاخضري

أحمد بن احبيب اليدمسي	٤٠ حديثا في الأدعية المأثورة أنظمة القيود أيام السنة (منظومة ٣٦٠ بيت في موضوعات شتى) شرح نظم البشير للرسل المذكورين في القرآن ديوان شعر كتاب الأعداد مجموعة أنظام في الفقه المالكي منظومة في ذرية عبد المطلب « في الصرف والنحو وتعليق « في كلمات من ثمان لغات « في نظم الجغرافية المطول ١٢١٠ بيتا.
أحمد بن أحمد الديماني (صدر القرن ١٢)	أنظام في النحو نظم في التوحيد
أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكني	ازالة الطلب والعطب عمن أدى الزكاة من البسر والرطب رسالة في أحكام المستريبة بالحمل « حرمة الشاي لعوارضه
أحمد بن أمين التندغي (١٣٢٧)	تأليف في السيرة النبوية حاشية على نور الاقاح لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم شرح الفية بن مالك شرح تبصرة ابن بونه في البيان شرح همزية البصيري كتاب في مسألة الخلود نظمان في العروض وشرحان عليهما نظم الصفة المشبهة وأنظام أخرى في النحو.
أحمد بابا بن حامدتو التندغي	تأليف في السيرة النبوية نظم أسماء الله الحسنى « أسماء النبي (ص) « وشرح في الأخلاق وأنساب العرب

أحمد بن بدي العلوي (١٣٢٢)	الدرع والمغفر في الرد عن الشيخ عمر العضب اليماني في الرد عن التجاني مكتوب في أحكام الزوايا فيما بينهم « في المعية
أحمد البراوي بن عبد العزيز الديماني (١٣٤٢)	مجموعة من مسايل الفقه.
أحمد بن البشير الغلاوي (١٢٧٧)	موارد النجاح (فقه) مفيد العباد سواء العاكف فيه والباد شرح ابن عاشر محيي موات ميت الأحكام (نظم)
أحمد بن بوي الحسني (١٣٨١)	نظم فتوحات الخلفاء الاربعة « عقد به أبوابا من مختصر خليل من اللعان الى الحضانة. نظم في التركة رسالة في الزكاة
أحمد الجيد البرتلي الولاتي (١٢١٨)	بزوغ الهلال على لامية الأفعال لأبن مالك شرح الجرومية
أحمد بن الحاج حماه الله الغلاوي (١١٩٣)	فوايد الاتقان لجلال الدين السيوطي كتاب متشابه القرآن كتاب في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. المعينة في الموضوع والمحمول
أحمد بن حامدتو التندغي	تأليف في الحساب
أحمد بن حبت الغلاوي	تأليف في البدع المستحسنة حلية الوفاء في الذب عن سادتنا الشرفاء شرح تحفة الودود في المقصور والممدود لأبن مالك. شرح همزية البصيري كاشف الأستار عن زكاة الثمار مكتوب في حكم معادن الأرض نثر في السيرة

محمد بن حبيب الله بن عبيد الحسني (١٣٥٠)	شرح قصيدة في الرسم نظم أسماء النبي (ص) نظم في الباب وشرحه نظم في التوحيد نظم سفر خليل
أحمد بن دهاه العلوي (١٣٦١)	اتحاف ذوي الرسوخ بالناسخ من المنسوخ فرايد المنح على الفية السيوطي في الحديث (مصطلحه) مشارق الدجنة في وفيات علماء السنة منظومة أهل الصفة من الصحابة منظومة تراجم رجال حلية الأولياء لأبي نعيم منظومة في رواة الحديث وشرحها منظومة السرايا والوفود في عهد النبي (ص)
أحمد سالك بن محمد بن عباس التندغي	طرر في المنطق
أحمد بن سيد أحمد بن الهادي التمدكي	شفاء العليل في شرح خليل
أحمد بن الشريف المختار بن محمد التيشيتي (١٣٦١)	شرح على الرباني (نظم في النحو لعبد الله ابن الحاج حماه الله الغلاوي)
أحمد بن الشيخ محمد بن أحمد بن الحسني	تعليق على «بانت سعاد» لكعب بن زهير شرح الفية زين الدين العراقي في السيرة شرح حد بن عرفة للنكاح شرح ديوان الحماسة شرح شواهد تفسير الطبري شرح قافية رؤبة (وقاتم الأعمال خاوي المخترق) شرح قصيدة لبيد (ان تقوى ربنا خير نفل) شرح قصيدة لبيد (عفت الديار محالها فمقامها). شرح ميمية حميد بن ثور الهلالي منظومات منها مذيبة القلوب البديعة الاسلوب

الموعظة النافعة والنصيحة الناجعة (في الوعظ)
نظم البيان لمشكل القرآن.

أحمد الصغير التشيتي (١٢٧٢)

أجوبة أجاب بها أحمد بن البشير الغلاوي
وقاية الجسم والعرض في اثم من ترك زكاة العرض
نصايح الاقران في التنبيه على قبايح مغران (لعبة معروفة)
نزهة أفكار أهل الانصاف السالمين من التعصب والانصاف
منة الوهاب في نفي تأثير الأسباب (منظومة)
منة العلي في مسألة القطع بما أخبر به الولي
منن العلي الكبير بفوائد أحمد الصغير
منظومة طويلة في النحو
منظومة في البيان
المفيد في تصرف العبيد
منظومة فتح المجيد في دفع وساوس التوحيد
فتح الكريم على الموات والحريم
منظومة فتح الكبير المتعال في شرح توحيد الافعال.
فتح القدوس في ابطال اسوس المكوس
منظومة شرح الصدور في البعث والنشور
شرح على بعض الجامع المعروف بريشان خليل.
شرح على بعض روضة الفهوم لنقلية العلوم
نظم جلال الدين السيوطي
كشف الجهالة في التوحيد والرسالة (نظم وشرح فتح ذي الجلاله)
مصباح الفقيه من كل بؤس يقيه
فتح المولى في حكم المولى
فتح المقيت في أحكام أهل تشيت
تنوير القلوب، في الصلاة على النبي

المحبوب
فتح المغيث

أحمد بن عبد الله بن أحمد بن بوها البرتلي (١٣٢٣)

شرح نظم الغزوات للبدوي

أحمد بن فاضل الشريف التشيتي (١١١٥)

فتاوي فقهية

أحمد بن سيد أحمد الجكني (١٣٧٢)

منظومة في التوحيد
منظومة في الصرف
نظم خليل

أحمد فال بن المصطفى بن أحمد فال العلوي (١٣٣١)

شرح منظومة فتى بن سدين في الصوم
منظومة وشرحها في الأنكحة

أحمد بن كداه الكمليلي (١٣٤٠)

الكداهية في النحو
المجمع أو المحبوك في الفقه وغيره

أحمد بن الكوري بن سيد أحمد الديماني

شرح قرة الأبصار
شرح نظم الغزوات للبدوي
قصيدة ذكر فيها منازل النبي في سفره وحضره.

أحمد بن محمد الحاجي (١٣٥١ هـ)

نظم الضبط (في القرآن)
نظم في الفقه حاذى به خليلا
منظومة الوسيلة في المحول
نظم التنزيل في القرآن
نظم البيان
نصيحة في أدب الاخلاق
المقنع في القرآن
منظومة المبين وتعليق في رسم القرآن
منظومة القول المعد فيما في الرسم لا اللفظ يعد وتعليق
قصيدة عقد بها جمع الجوامع في أصول الفقه لأبن السبكي.
قصيدة حسانية في السيرة
قراءة قالون
منظومة عون الطالبين في النحو
شرح الشاطبية في قراءات القرآن لأبي

القاسم الشاطبي
رسالة في الفقه
رسالة في التوحيد
رسالة في الأدب مع الله (تعالى)
الدرة البيضاء (نظم في التوحيد)
منظومة الجوهر المنظم في رسم الكتاب المعظم وشرحها.
منظومة جوهرة الاملا فيما يخفي من الاملاء وتعليق
تحفة الوليد في أحكام التجويد.
منظومة تحفة الأصاغر في ذكر ما يخفى من النظائر وتعليق
قصيدة ايضاح المرام في الرد على حجج الاعجام.
منظومة أصول طريق التصوف
منظومة الطريق الموصلة الى أعلى منزلة (تصوف).
منظومة في النحو
منظومة الجوهرة في أوقاف القرآن.

أحمد بن محمود الحسني
نظم (٩٠٠٠ بيت) في الفقه

أحمد محمود بن يداده الحسني
تحفة الصغار شرح عبيد ربه
شرح على تحفة الودود في المقصور والممدود لابن مالك
شرح حديث أم معبد في صفة النبي (ص)
شرح قصيدة بانت سعاد
شرح النصف الأول من تحفة الحكام لأبن عاصم.
مفيد الطلاب (شرح نظم الانساب للبدوي)

أحمد بن المختار بن الأمين التندغي (١٣٢٤)[1]
شرح حكم ابن عطاء الله
شرح همزية البصيري
شرح وسيلة ابن بونه
مفتاح مقفل المعاني
منهل الصادي (شرح المغازي للبدوي)

أحمد بن المختار بن السالم المسومي (ق١٣)
أجوبة فقهية

أحمد بن المعمر التندغي (١٢٧٥)
الفية في النحو.

أحمد المقري بن عينينا الحسني
تأليف في حرف الجيم.

أحمد بن الأمين الكمليلي (١٣٥٥)
إخبار الصبية بمسألة الزبيه
اعانة المعاني كلام أهل في المعاني (علم الكلام)
مكتوب في الاستلحاق
نظم رجال الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري.

أحمدين بن أبهوه الكمليلي (١٣٦٤)
تاريخ السنغال وموريتانيا
جغرافية مصورة
شجرات أنساب العرب
شرح جزء قحطان من أنساب البدوي
نظم في اللغة (٣٠١٣)

أحمدين بن محمد الكمليلي (١٣٥٣)
رسالة في التصريف
شرح لامية المجرادي في اعراب الجمل

أحميدتي (أحمد بن الطالب محمود بن اعمر ايدوعيشي (١٢٥٧)
الأخذ (منظومة في التجويد)
ارشاد القارىء والسامع لكتاب الدرر اللوامع على مقرا الامام نافع لأبن بري.
شرح الفريدة في النحو للسيوطي
منظومة في علم الفلك
المواهب السنية في شرح الالفية لأبن مالك.
هداية الأمين في شرح المرشد المعين لأبن عاشر.

اديبجه الكمليلي (١٢٧٠)
رسالة في الرد على مكفري بن حسان
رسالة في علم الفلك
منظومة عمدة الأديب في صناعة الشعر والبلاغة وشرحها.
منظومة مبلغ المرام في العلم بالحلال والحرام.
مكتوب في مراجع الاحباس

	منظومة في التوحيد منظومة موضح الخوافي من علمي العروض والقوافي وشرحها.
اعمر لولي بن الشيخ محمد عبد الله المحجوبي (١٠٧٠)	تأليف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. قصيدة في شرح أسماء الله الحسنى قصيدة في علم الكلام مقدمة في الفقه
اعمر بن محم بوبه الجكني	منظومة في مقرا الامام نافع
الب بن عبدي بن الجيد الغلاوي (١٣٨٣)	فتح القهار على منظومة الانكسار لسيد محمد بن أحمد معلوم السباعي. كتاب المقلد والمجتهد منظومة مشتهرات الضم وشرح غير كامل منظومة في أنساب العرب.
الامام بوبكر بن محمد المحجوبي (١٢٦١)	كتاب اللفائف في الحديث والسيرة
الامام مالك بن أحمد الافرم الجكني	شرح الدرر اللوامع لابن بري شرح النظم الزاهي في النحو لمحمد الأمين ابن الشيخ أحمد الجكني.
الامام بن محمد بن عبداو اللمتوني	تأليف في التوحيد رسالة في تطليق الناشز
الامام بن مكي اللمتوني	طرة علي خليل
امني بن العويلم التندغي	شرح نظم الفرايض لمحمد سالم بن المختار بن آلما اليدالي
الامين بن الحاج الحسني	شرح أم البراهين
الامين بن الغزالي الشقروي	رسالة في خلع الناشر وغير ذلك شرح على جامع ابن بونا في النحو
انبوي اعمر بن الامام محمد عبد الله المحجوبي (١٢٦٠)	أجوبة. أجوبة احميدتي ادو عيشي البرد القشيب على كتب المشيب

	جمانة الاعراب في معاني الحروف ديوان السعادة في مدح صاحب السيادة شرح سلم الأخضري في المنطق شرح الفريدة في النحو للسيوطي شرح منظومة سيدي محمد بن أحمد الاسود في العقايد منظومة العقلية البهية في النحو وشرحها عمدة السالك على خلاصة ابن مالك المنايح الصمدية في المدايح الأحمدية المنهج المساعد وشرح القواعد في التوحيد نزهة الالباب في علم الحساب نزهة الجلاس في مدح خير الناس.
انبوي عبد الرحمن بن باب أحمد المحجوبي (١٢٧٧)	بلوغ الغاية منظومة في المذاهب مجموع النوازل.
انبيرك بن ميلود الحسني (١٣٥٥)	شرح الاضاءة شرح ديوان الستة شرح الأخضري شرح ديوان السيد عبد الله بن أحمد دام النفحة القرنفلية على الرملية الحنبلية (شرح قصيدة : أضرم الهم) نظم في ضبط الفاظ حديث بدء الوحي.
اند عبد الله بن أحمد بن عبد الله المحجوبي (١١٧٢)	امداد الضياء (شرح عقيدة محمد بن علي ابن الشيخ المحجوبي) لم يتم. والسهام المثلة في النهي عن التعرض لأحكام الملة. فك الوثاق عن لامية الزقاق شرح الجرومية.
انموه التنواجيوي	نوازل الردة
أوفى الشمشوي (١٣٠٠	قواعد التدبير عمدة الطبيب علاجه
بابا الحي بن محمد بن الشيخ عمر الابدوكلي	أجوبة فقهية فقه الأعيان.

بابا محمد بن البشير البرتلي

رسالة في أحكام زكاة البقر
رسالة في بيان ان الام الوصي بالنص أو بالعرف تصح حيازتها لأبنها الصغير ما وهبته.

بابكر بن احجاب الديماني (١٣٢٢)

مواهب الوهاب في سيرة النبي (ص) والاصحاب.
نظم في تاريخ بعض الحوادث والوفيات في بلاد الترارزة.
نظم الحوادث الشهيرة من سني الهجرة
نظم في الصحابة

بابه بن حمدي الحاجي (١٣١٦ هـ)

شرح لامية الافعال
مقدمة في النحو
البحور الزاخرة شرح نظم محنض بابه في المجرحات.
شرح الاضاءة للمقري
شرح نظم ابن الجزري
تعليق على نظم البدوي في أنساب العرب
شرح على بردة البصيري
فتح المالك شرح ألفية ابن مالك
كنز الحياة والأمن في الممات في الصلاة على من ختمت به الرسالات.
نظم في التوحيد (سلم الوليد)
نظم وشرح في أحكام المتعلم والتعليم

بابه بن محمودا الديماني

منظومة قانص الفوائد في شوارد الفقه وشرحها.
نظم في تحكيم الشرع للعادة
نظم في وفيات علماء المذاهب

بارك الله بن محمذ الديماني (١٣٦٢)

تقاييد في النحو منها زيادة على مقدمة ابن بونة
شرح على نظم محنض بابه (وكل ما على الامام قد بطل)
شرح على نظم محنض بابه لمفوتات البيع الفاسد.

نظم في أنساب بني يعقبنلل بن ديمان
نظم في حكم مال العبد
نظم في كسب الأشعري.

بداه بن البصيري التندغي

منظومة تحفة ذوي الرسوخ بعلم الناسخ من المنسوخ.
تحفة الولدان في سيرة المشفع العدنان
تعجيل المنفعة في جواز نقل الجمعة
حاشية علي خليل
رسالة في التصوف
رسالة في حكم الاشتغال بعلم الكلام
رسالة في الرد على القائلين بارسال اليدين في الصلاة.
فوايد القسطلاني
القول السديد في الرد على أهل التقليد
القول المفيد في ذم فادح الاتباع وفادح التقليد.
كناش الفقه (الباب)
كناش الفقه (السفر)
اللمع في رفع الجمع
مبادىء الرسوخ في علم الناس والمنسوخ
مكتوب في الاشياء التي أجمع على اخراج الزكاة منها.
مكتوب في الرد على القائلين بالاذان الثالث للجمعة.
مكتوب في نكاح السر
منظومة في ترتيب البعوث والسرايا النبوية.
منظومة في السيرة وتاريخ الخلفاء
نظم الانتصار للسنة.

البدوي المجلسي (١٢٠٨)

نظم غزوات الرسول (ص)
نظم الأنساب
نظم تاريخ الخلفاء والملوك
نظم فتوحات (الاسلام)

بدي بن سيدين العلوي (١٢٦٤)	الدرع الدلاص في سور القرآن ومالها من الخواص. كشف الغشا في فضل تأخير العشا نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ. نفحة المنان في تاييد اعتقاد الاخوان.
البراء بن بكي الديماني (١٣٣٦)	رسالة في شجعان العرب كتاب الشواهد في مفردات العربية وشواهدها من شعر العرب. نظم في وفود العرب على رسول الله (ص)
البشير بن مباركي اليدمسي (١٣٥٤)	تعليق على المقصور والممدود لأبن مالك تعليق على الالفية لأبن مالك حاشية علي خليل الذب عن مالك منظومة «رحلة الى الحرمين» كشف الأسرار عما في القرآن من ايجاز الأخبار. مايدة النفوس في علم القاموس جمع فيها ما في كل مادة من فقه، نحو، طب، حكايات، نوادر. منظومة في التوسل بالرسل المذكورين في القرآن وعدد تكرار أسمائهم نظم مهاجري أهل بدر نظم نسب الانصار نظم مهاجري الحبشة منظومة وصية ابنه محمد
البشير بن البخاري القلاوي (١٣٣٥)	نقلة في حكم الزوجة ذات الشروط. نظم في حقوق شيخ التربية نظم في حكم الجهر بالذكر نظم قاعدة ظل الزوال
بلا (عبد الله بن الفاضل الحسني) (١٢٢٣)	تأليف في غريب القرآن عجالة الراكب في اللغة

البناني بن اعلى بن المصطفى الغلاوي	رسالة يباحث بها أحمد زيدان الجكني
بوبه بن أحمد مولود الزعيمي (١٢٠٨)	هبة اللطيف (شرح منظومة المكودي في التصريف)
بوتنيه بن ذي القرنين	نظم أسماء الله الحسنى
بوننه بن الشيخ الطالب اخيار القلقمي	تأليف في الموارث
بيدار بن الامام الجكني	تفسير القرآن طرد الهمل عن الركوع في حياض العمل عجالة المجود في التجويد (منظومة) منثور في غريب لغة القرآن نظم فتاوي عليش نظم ألقاب الحديث
جعفر بن المهدي النعماوي (١٣١١)	تحفة الظرفاء في أسماء الملوك والخلفاء.
الحاج أحمد بن أند عبد الله (١١٤٠)	تعليق على دلائل الخيرات نظم في العقائد نظم أسماء النبي (ص) نظم فرائض خليل.
الحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي (١١٥٧)	كشف الغمة شرح منظومة ابن سعيد السوسي المفيد – شرح عبادات عبد الرحمن الأخضري
الحاج البشير بن عبد الحي الرقيبي دارا (ق ١٤ هـ)	شرح الاضاءة للمقري شرح ألفية ابن مالك
الحاج الحسن بن آغبد الزيدي (١١٢٢)	أجوبة فقهية تحفة الصبيان في التوحيد الرد على الخرشي روضة الأزهار في مصطلح الحديث وشرحها منظومة في ضبط أسماء المتشبهين من رجال الصحيحين نظم أم البراهين

الحاج عبد الرحمن بن الحاج الامين القلاوي (ق ١٢ هـ)	«منارة الهداة» في التوحيد.
الحاج الفاضل بن ابا أجود الحسني :	طرة على خليل
الحاج بن فحفو المسومي	دليل لطلاب على ما قصدوا من ظاهر الاعراب شرح ألفية ابن مالك شرح نظم الجرومية
حامد بن اسمه الديماني	شرح قرة الأبصار ومؤلفات في الأنساب
حامد بن آمزغزغ الحسني	نظم في السيرة واسطة النظام (شرح قصيدته المديحية ألاهل لشيخ دائم الهيمان)
الحامد بن أمينو الكنتي	منظومة في مطالع منازل القمر
حامد بن محمذ الديماني (١٣٦٣)	تأليف في التاريخ والمنطق رسالة في أجناس المعاصي رسالة المناكر التي جرى بها العرف في القطر شرح أبيات الشيخ ابن متالي في مسألة سواد حلاوة مكاتيب في مسألة المعية نظما ونثرا يميل فيها للتفويض منظومة في الحض على السنة منظومة في محل تحكيم الشرع للعادة
حبيب الله بن الامين الحسني (١٢٧٠)	تفسير القرآن نظم في الإعتذار عن موهم المعصية في حق الرسل نظم البرهان في الاجماعيات رسالة في طلاق الثلاث دفعة نظم كشف الجهل في التوحيد الهبة الجزيلة في شرح الوسيلة
حبيب الله بن القاضي ايديجبي	المعين
حبيب الله بن محمد بن الأمين الحسني	نظم في التوحيد (٥٠٠ بيت)

حبيب الله بن المقري الحسني	شرح ديوان غيلان
الحبيب بن الحسين بن عبد الحي الرقيبي دارا (١٣٢٩)	رسالة في الدفاع عن أموال من احتلت بلادهم ولم يقدروا على الهجرة مناقضات في أحكام الدماء ضد أحمد بن محمد بن عبد السمسدي نظم خليل
الحسن بن زين القناني (١٣١٥)	احمرار اللامية (استدراك على لامية الأفعال لأبن مالك)
حماد بن الامين المجلسي (ق ١٣ هـ)	روض النهاة في شرح الغزوات رسالة في حوادث سنى الهجرة نظم بعوث الرسول (ص) شرح نظم الأنساب للبدوي
حمدي بن المختار بن الطالب أجود الحاجي (١٢١٩)	طرة على الكوكب الساطع في أصول الفقه
حمى الله بن محمد بن المختار الشواف المسلمي التيشتي (١٢٠٠)	الحكم القاطع بتبيان الحق الواقع ارشاد الحكام الى الاحكام فيما يزعم بعض أهل تيشيت من الخصام
حمى الله المعروف بانباله التيشتي	منظومة عقد بها باب الفرائض من خليل
حيمده بن انجبنان التندغي	الاقتصاد البدوي الروضة الغناء، شرح نصيحة ابن متالي مزيل الشك في قفا نبك (شرح) نظم صغرى الصغري للسنوسي
حيمد بن حمدان التاشدبيتي الغلاوي	نظم أسماء الله الحسنى
الخليل بن الحبيب بن عبد الحي الرقيبي (١٣٢٨)	شرح عبادات الاخضري
زين بن اجمد اليدالي (١٣٥٩)	بديعية حلية الافادة شرح وسيلة السعادة (نظم أهل بدر للشيخ محمد المامي) خليل الأبيض شرح تكميل المنهج لمياره

	العسل المصفى في حكم مدح النبي (ص) مسألة التربية مكتوب في حرف الضاد مكتوب في حلية الشاي المواهب الربانية في التماس أحسن المذاهب للتجانية نظم أجوبة عبد القادر الفاسي نظم أجوبة محنض بابه نظم هبة المنتطق في علم المنطق لمحمد فال بن العاقل نظم أهل الصفة نظم ترتيب سور القرآن بحسب عدد الاي نظم ترتيب سور القرآن بحسب عدد النزول نظم تفسير مبهمات القرآن نظم شهداء المعارك، تكملة لنظم ابن متالى نظم القراءات السبع وتعليقه نظم أصحاب النبي وآبائهم.
زين بن سيدي الشريف التيشتي (١٢٨٨)	نظم في الفقه نظم في علم المعقول
السالم بن أحمد السالم الحسني	شرح قرة الأبصار
سيد أحمد بن اسمه الديماني (١٩٧١)	تأليف في علوم القرآن رسالة في ترجيح السدل رسالة في ترجيح علم الهيئة (بلوغ الغاية بمجرد الحكاية) رسالة في المعية كتاب في العلوم الرياضية معجم في علم العروض مقامة في الرد علي دين التثليث النصح الاعم والصلح والسلم في التوفيق بين الصوفية والفقهاء نظم في ميزان الشعر الحساني
سيد أحمد بن أيد القاسم (١٠٨٦)	أجوبة فقهية

سيد أحمد محمد بن أبي كفه المحجوبي (١٢٤٠)	روض المنى لمن بها اعتنى (منظومة في الصلاة على النبي) (ص) شرح الرسالة لمحمد بن أبي زيد القيرواني منظومة في أدلة مذهب مالك
سيد أحمد بن المختار بن أمين الديماني (١٣٥٠)	نظم مناقب الأنصار
سيدي أحمد أمحمد بن معلوم السباعي	نوازل الانكسار والعول (نظم) كتاب الارداف ـ تجويد ـ
سيد الامين بن أيد الامين الجكني	رسالة في انتقاد الجيم المنعقدة
سيد الامين بن المختار الجكني (ق ١٢)	عقود الجمان في وجوب حرب ايجمان
سيدي عبد الله بن أحمد أم الحسني (١٣٢١)	نظم في المنطق نظم في أئمة الحديث أجوبة في الفقه
سيدي عبد الله بن سيدي بوبكر المسومي	منظومة فيما يكتب بالواو أو غيرها من القرآن
سيد الفاضل بن محمد بن محمود الحسني	تأليف في القراءات
سيدي المختار بن أحمد بن الهادي	شرح منظومة محمد الأمين بن أحمد زيدان في بيع الغائب.
سيدي المختار بن المأمون القناني	تعليق في العقائد فتاوي فقهية
سيداتي بن بابا عينينا النعماوي (١٩٦٠)	كتاب الرد على دعوى ابن تكدي في أفضلية الرسول كتاب شعب الايمان مركز اصابة الائمة المرشدين بكون الصحابة كلهم مجتهدين
سيدي بن أحمد بن حبت الغلاوي (١٩٥٤)	ربا اللبنى في أسماء الله الحسنى (منظومتان وشرحهما) سرعة النهوض في شرح العروض شرح سلم المنطق للأخضري غاية المراد شرح بانت سعاد

فتح الشكل (نظم وشرحه في صفة الاتاي وحكمه وفوائده)
فيض المنان في خواص الحروف وبعض القرآن
مضيء الآفاق على نظم شمس الاتفاق للشيخ ماء العينين
نظم وشرحه في الحساب
منارة الحيارى في حكم من غلب على وطنه النصارى

سيدي بن خليل السمسدي (١٣٦٥)
نظم غيث النفع في القراءات السبع وشرحه
نظم النكرة والمعرفة

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (١٢٣٣)
تحرير المقالة في تحريم ونكالة
منظومة رشد الغافل في علوم الشر
منظومة روضة النسرين في الصلاة على سيد الكونين وتعليقه
صحيحة النقل في علوية أودعلي وبكرية محمد غلي
طرد الضوال والهمل
منظومة طلعة الأنوار في مصطلح الحديث وشرحها
طيب المرعى في حقيقة الاسترعاء
منظومة غرة الصباح في اصطلاح البخاري
منظومة فيض الفتاح على نور الاقاح
منظومة مراقي السعود في أصول الفقه
مطالع التنوير في آفاق التطهير
نظم في رجوع الوالد في هبته لابنه
نشر البنود على مراقي السعود في أصول الفقه
نظم الأجناس العالية
نظم الاربعين السادة وشرحه
نظم مسوغات الفطر للصائم
نظم مكفرات الذنوب وشرحه

النوازل
نور الاقاح نظم في البيان وشرحه نيل النجاح

سيدي عبد الله بن رازكة العلوي (١١٤٤)
أجوبة
تأليف في المنطق
رسالة في أحكام البادية
السيدية في الأصول
نزهة المعاني في البيان

سيدي عبد الرحمن سيدي بوبكر المسومي
حملة المسومي

سيد عثمان بن أعمر بن سيداتي اليونسي (١٢٢٧)
باكورة مذهب مالك شرح مطول للرسالة
شرح الجرومية المطول
شرح الجرومية الموجز
شرح لامية العجم للطغرائي
معين التلامذة شرح موجز على الرسالة

سيدي عيسى ابن أحماد الجعفري الولاتي
شرح نظم محمد بن آب الغلاوي التواتي المعروف بعبيد ربه

سيدي عالي بن أحمد زيدان الجكني
حاشية على النصيحة لوالده

سيدي محمد بن أحمد الأسود
منظومة في العقائد

سيدي محمد بن باي بن الشيخ سيدي محمد الكنتي (١٣٥٩)
رسالة في الرد على الابات التلميذ للشيخ باي في مسائل
شرح منظومة الشيخ سيدي محمد في الأصول.

سيد محمد بن حبت الغلاوي (١٢٨٨)
تأليف في اتفاق الائمة واختلافهم
تأليف في علم الحساب
شرح المقصور والممدود لأبن مالك
منظومة في أحكام التقاء الساكنين
منظومة في اباحة خرقة الرأس للنساء وشرحها
منظومة في علم المنطق وعلم الكلام
منظومة في المهم من العروض والقوافي
المواهب النحوية على الالفية والاحمرار

سيدي محمد بن حبيب الله الجكني الرمظاني	نظم خليل ج (١) بالعربية ج (٢) بالحسانية نظم الجرومية
سيدي محمد بن سيد عبد الله العلوي (١٢٥٠)	سواطع الجمان، منظومة في التصريف وشرحها مجدد العوافي من علمي العروض والقوافي نظم اضاءة الادموس بشرح خطبة القاموس للهلالي
سيدي محمد بن الشيخ محمد بن أحمذي الحسني	نظم في بيان معاني كل أمر في القرآن للوجوب أو الندب أو الاباحة.
سيدي محمد بن علي بن الطالب بوبكر المحجوبي (١١٣٧)	أجوبة فقهية شرح الفريدة في النحو للسيوطي منظومة في العقائد المنن الالهية على العقيدة القلاوية لمحمد بن أبي بكر القلاوي
سيدي محمد بن محمد النجمري	تأليف في الرد على متأولي القرآن بالرأي والقائلين بمعية الذات وغير ذلك.
سيدي محمد بن موسى بن ايجل (١١١٧)	منظومة الأدوات في الجمل النحوية
سيدي محمد بن ميتار الجكني	شرح المغازي للبدوي
الشريف أحمد بن فاضل التشيشتي (١١٥٣)	أجوبة فقهية
الشريف حمى الله التشيتي (١١٦٩)	منظومة في التوحيد البيان والافادة، شرح منظومة الاوجلى في العقائد فتاوي فقهية
الشريف بن سيد أحمد بن الصبار المجلسي (١٣٤٠)	تعليق على عقود الجمان في البيان للسيوطي طرة على لامية الافعال، لأبن مالك فيض الجليل على مختصر خليل قصيدة في المشهور بالضم أو الفتح من مضارع فعل مفتوح العين منظومة في أوزان بحور الشعر

الشريف محمد بن الامام أحمد التشيتي (١٢٠٨)	شرح على البسط والتعريف للمجرادي في التصريف شرح على نظم أبي بكر بن الطفيل المسلمي في النحو تعليق على ديوان الوسائل المتقبلة في الامداح النبوية، لابن مهيب. شرح على حكم ابن عطاء الله الاسكندري
الشيباني بن محمد بن أحمد النجمري	بداية تدريب الصبي في اللسان العربي الدروس المفيدة في العربية الاكيدة (على المنهج الجديد) منظومة في تاريخ الأدب العربي على مر العصور منظومة في التعريف بالمجتهدين والمحدثين
الشيخ أحمد بن سليمان الديماني (١٣٠٠)	تأليف في القرآن نظم في الحساب
الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الحافظ (١٣٢٥)	شرح تحصيل المنافع لأبن بري شرح الشمائل للترمذي منظومة في العروض منظومة في الفرائض وشرحها منظومة في قواعد الرسم العربي منظومة في أسماء الله الحسنى نظم حكم ابن عطاء الله وشرحه نظم مفيد العباد لأحمد بن البشير الغلاوي نظم نوازل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (١٣٣٧)	أجوبة في مسائل منها تقبيل اليد رد على القائل ان الدابة هي السيارة سراج الظلم فيما ينفع المعلم والمتعلم سرادقات الله الدافعات للبلايا.
الشيخ أحمد بن محمد المختار بن الافضل الحسني	خلاصة الكلام في نصيحة أهل السلام
الشيخ البناني العلوي	نظم في الحساب

الشيخ التراد بن العباس القلقمي (١٣٦٥)

ادخال السرور
ازالة الرين عن معنى البيتين
منظومة نصيحة الصديق
تنبيه المريدين على ما نحن عليه من الدين
حكم الوقت وتثبيت الخائف من المقت
دقائق الحقائق ـ تصوف
رسالة في حكم الهجرة عن البلاد المحتلة
رسالة في ذم البدع
رسالة في حكم الفرائض
رسالة في المعية
رسالة في حكم وجوب الجمعة على أهل القرى الموريتانية
كشف الأستار عن نسب آل أجيه المختار
كشف العذل واللوم
الكنوز المخفية في التوقف عن العلوم الكشفية
مشارب الأرواح

الشيخ بن حبت الغلاوي (١٢٩٩)

اختصار المواهب النحوية لسيدي محمد بن حبت الغلاوي
تأليف في الفقه
شرح رقم الدول لأبن الخطيب
شرح نظم عبد الرحمن بن الامام القلاوي في القراءات السبعة
منظومة في التجانية وشرحها

الشيخ حبيب الله بن حرمة التاكنيتي (١٣٣٧)

تأليف في الأصول
تأليف في البيان
تعليق على مختصر خليل
حاشية على ألفية بن مالك
رسالة في التصريف

الشيخ سيد أحمد البكاي بن الشيخ سيد محمد الكنتي

بغية الالف جواب يرك تلف (المختار بن وديعة الله) من كتابه تبكيت البكاي في الانتصار للتجانية
جواب أسئلة الامير أبى لبو الفلاني
رسالة الى أحمد الفلاني ينعى عليه سجن

الانجليزي والسائح ويبين أنه معصوم دم
رسالة الى أحمد بن الحاج عمر الفوتي
فتح القدوس في جواب اكنسوس المراكشي ردا على كتابه الجواب المسكت

الشيخ سيد المختار الصغير الكنتي (١٢٦٣)

اختصار الخزرجية في العروض والقوافي لضياء الدين الخزرجي.

الشيخ سيد المختار الكنتي (١٢٢٤)

الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة
الفية في العربية
البرد الموشى في قطع المطامع والرشى (جزءان)
بلوغ الوسع على الآيات التسع
تفسير البسملة
تفسير الفاتحة ـ جزء
جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار
الجرعة الصافية والنصيحة الكافية
جنة المريد
الرسالة في علم التصوف
الروض الخصيب في شرح نفح الطيب
زوال الالباس في طرد الشيطان الخناس
الشموس المحمدية ـ توحيد ـ
فاتحوا افريقية وقبائلها وملوكها
فتح الودود، شرح المقصور والممدود
قصيدة شغف الفؤاد بحب ذات الواحد، وشرحها
كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة
كشف اللبس فيما بين الروح والنفس
الكوكب الوقاد في فضل المشايخ والأوراد
الممزوج بين الشريعة والحقيقة
نزهة الراوي وبغية الحاوي (جزءان)
نصيحة المنصف
نضار الذهب في كل فن منتخب (٣ أجزاء)
نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب

	هداية الطلاب في الفقه وشرحها (٤ أجزاء) يتيمة اللئالي في إفحام علماء تنيالي
الشيخ سيداتي بن الشيخ ماء العينين (١٣٢٠)	معين الاخوان، شرح سقاية الظمآن في تصريف الأفعال لمولود اليعقوبي.
الشيخ سيد محمد بن سليمان الديماني (١٣٣٩)	تأليف في رسم القرآن رسالة في حكم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر رسالة في الفقه كتاب يحتوي على كلمات القرآن المفردة والمتكررة
الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا (١٢٨٦)	ديوان شعر أجوبة وصية
الشيخ سيدي محمد الكنتي (١٢٤٤)	ارشاد السالك رسالة الى الشيخ سيديا الكبير شرح الصلاة التي أولها اللهم صل على طلعة الذات العقد النظيم على أقوال العلماء في الاسم الاعظم الغلاوية الفوائد النورانية والفرائض السنية الرحمانية في شرح الاسم الاعظم منهج الفعال على الورقات لأبي المعالي في الأصول
الشيخ سيديا باب (١٣٤٢)	أجوبة على أسئلة شتى ارشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين (طبع بتونس) تاريخ قبائل البيضان وامارتي أدوعيش ومشظوف رسالة في اجزاء القيمة في الزكاة رسالة في أرجحية التفويض في آيات الصفات

	رسالة في بيان اعجاز القرآن رسالة في حرف الضاد رسالة في حكم الهجرة عن البلاد المحتلة رسالة في سنية رفع اليدين والقبض رسالة في الزكاة المتفق على اجزائها رسالة في كيفية الصلاة التي لا تبطل في أي مذهب عقيدة مختصرة منظومة في أهل الصفة
الشيخ سيديا بن الشيخ أحمد بن سليمان الديماني (١٣٦٤)	تعليق على الفية مالك
الشيخ سيديا الكبير (١٢٨٤) آخر يوم	أجوبة بغية الخائض في حكم المتمتع بالحائض تحفة الاطفال بحل لامية الافعال جواب المختار بن حبيب الله الديماني خلاص النفس من الحبس ديوان شعر رسالة في امتناع تمثل الشيطان بالنبي (ص) رسالة الى ايديجب رسالة في جواز التنفل بالخبث رسالة في حكم تعليم النساء رسالة في النكاح وفوائده رسالة في خواص البسلمة والفاتحة رسالة في رقية السحر والسوام رسالة في القبض والبسط رسالة في المال المدفوع للاكابر أو لمداراة الظلمة شذور الاذكار الماحية للأوزار شرح باب الفرائض من خليل شرح الصغرى للسنوسي شرح مقصورة ابن دريد شرح المقصور والممدود الفرق السديد والتتميم المفيد – تصوف –

	العلق الثمين ـ تصوف ـ كتاب القصد والتسديد حكم نازلة اللحن والتجويد الكلام المقنع في مسألة المستمع مجمع الطي والنشر في جواب المسائل العشر مرآة النظر في وجوه خبايا المختصر الميزان القويم والصراط المستقيم في الحسبة النفحة القيومية بتفسير الجرومية شرح حول أم البراهين
الشيخ سيدي محمد بن سيدي الجكني	الاعانة الجواب المفحم رسالة في جواز قسم الحبس اللجام الميزان النصيحة الهادية
الشيخ سيدْ الفاضل بن أبي الفاضل الحسني	حاشية على مختصر خليل
الشيخ ضياء الدين الجكني الكمليلي	النهج القويم والصراط المستقيم ـ تصوف ـ
الشيخ الطالب خيار بن الشيخ ماء العينين	تفريج الكروب في الصلاة على النبي المحبوب نظم أسماء الله الحسنى نظم أهل بدر
الشيخ عبد الله بن حمين الحسني	أنظام في اللغة وغيرها
الشيخ عبد الله بن صلاحي التندغي (١٣٤٦)	مائدة ابن جدعان النفحة الوهبية حول المعية، و١٠ مؤلفات فقدت
الشيخ عبد الرحمن بن بلال الجملى	تأليف في المتشابه شرح على الاضاءة نظم في الأصول
الشيخ ماء العينين (١٣٢٨)	ابراز اللئالي أجوبة رد بها على محمد فاضل الجكني أجوبة عبد القادر بن الطلبة

أجوبة فيما جرى بين العرف من معاملة البنات لأزواجهن
أجوبة محمد بن الفاضل الحسني
أجوبة محمد محمود بن عبداوه
أجوبة في مسائل الفطرة
الأحكام والحكم
الأدعية الاستسقائية
الادعية النافعة في الأمور القريبة والشاسعة
«اسمع ولا تغترر» وشرحها
افادة الاقلام المعينة في الأوراق الأبجدية
افادة الامير والرعية والوزير بأسرار فاتحة الكتاب المنير
الايضاح في بعض الاصطلاح
تأليف في بيان الأوزان الصرفية التي يبنى فعل الامر منها على حرف واحد
تأليف في صالحات النساء وعكسهن
تبيان الحق
تبيين أنواع المطالع
تبيين السعد والنحس من الحروف والمنازل
تعمير بيت الداعي
تفسير في آداب مخالطة اليتيم
تفسير في حكم خرقة الرأس للنساء
التوسل بأسماء الله تعالى
التوسل بالحسبلة
التوسل بلا إلّا أنت سبحانك...
تنوير السعيد وشرحه
ثمار المزهر
جامع المهم في أسرار النكاح
جواهر الاسرار وفوائد الفوائد
جواهر الاسرار وقرة العينين في الكلام على الرؤية في الدارين
حزب الخيرات وأسبابها
حزب الملك والفتح
حزب النصر والحفظ

الخير الجسيم في سر سلام قولا من رب رحيم
دعاء جلب الخير ودفع الضر
دعوات الفاتحة
دعوات الهمزة
الديوان الكبير في الأدب
ديوان في المحامد الربانية والمدائح النبوية
رسالة في أحكام الطلاق
رسالة في جواز الدعاء للأشياخ والأدعية بعد الصلاة في المسجد
سبب الخيرات والحفظ من الافات
سلم المراد
سهل المرتقى في الحث على التقى
سيف الأولياء
سيف السكت للمتعرض لنا في أول الوقت
السيف والموسى في قضية الخضر وموسى
الشذروانية وهداية من حار في أمر النصارى
شرح الاسم العجمي
شرح خواص الأسماء الحسنى
شفاء الأنفاس فيما ينفع الاسنان وخصوصا الاضراس
شهية الداعي
صلة المترحم في صلة الرحم
ضبط الاخوة والاخوات لمن يعرفهم من البنين والبنات
ضوء الدهور في الحساب الزمني
طاردة بيت الافات
الفوائد السرمدية للطلبة الأحمدية
قصيدة الأنماط
قصيدة راتق الفتق في التصوف وشرحها فاتق الرتق
قصيدة المطالع
القطري في أسرار الحروف
الكبريت الاحمر وشرحه

كتاب أحكام التقليد
كتاب أحكام الضيافة
كتاب الصلات في فضائل الصلوات
كتاب في معاني أسماء الله الحسنى
كتاب في معرفة أوقات الصلاة
كتاب مفسدات الصوم
كتاب النصيحات لمن ترتدع من المسلمات
كفاية النبيه
اللؤلؤ المعوز في الحديث المحوز
مجمع الخيرات
مذهب الخوف على دعوات الحروف
مرهم الزمان فيمن جال من الرجال أو يريد الجولان وشرحه
مزيل العتب فيمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب
مزيل النكد عمن لا يجب الحسد
المشرب الزلال في الصلاة على النبي (ص)
مظهر الدلالات المقصودة من الفاظ التحيات
مظهر النهمة والاهم وما توصل اليه من القصد الاعم
مفرج الكروب
مفيد الاصدقاء
مفيد الحاضرة والبادية على شرح الأبيات الثمانية
مفيد السامع والمتكلم في أحكام التيمم والمتيمم
مفيد المواريد
مفيد النساء والرجال فيما يجوز من الابدال
مقر الناظر والسامع على تعلم العلم النافع
ملذة الحبيب في الصلاة على النبي الحبيب
ملذة الحبيب في عد أسماء الحبيب
المناضل في كل فج
منتخب التصوف وشرحه
منظومة في الاسم الاعظم الاعجمي والعربي
منظومة في أوزان الفعل وتصريفه

منظومة في سيرة النبي (ص) مع بناته ونحوهن
منظومة في الطب
منظومة في العقائد
منظومة في مخارج الحروف وصفاتها
منظومة في مدح البكر والثيب وذمها
منير البشير فيمن يظلهم الله بظل العرش
ناصرة الاصدقاء كابتة الأعداء
نصرة المغرور في شرط النساء مدى الدهور
نعت البدايات (طبع)
نعت العروض وشرحه
نقلة في أحكام الايمان منها نظم ونثر
نقلة فيما ورد في قوله (ت) انما يخشى الله من عباده العلماء
نقلة معنى ربنا آتنا في الدنيا حسنة
نقلة معنى لا إله إلّا الله والتعبد بها
نظم الأنفس وشرحه في الأصول
نظم : اني مخاو لجميع الطرق.. وشرحه
نظم البروج وشرحه
نظم في : أن التوحيد مندرج في صفة المخالفة
نظم التوحيد
نظم التوسل بأسماء النبي (ص)
نظم التوسل بحسبي الله لا اله إلّا هو، عليه توكلت
نظم حكم بن عطاء الله
نظم حكيم الأحكام في الفقه
نظم شمس الاتفاق في مذاهب الائمة وشرحه
نظم الفرج
نظم قواعد أبي حنيفة
نظم اللغز الفقهية وتبيينها
نظم في معرفة دخول شهور العرب
نظم الوافق في الأصول وشرحه
هداية المبتدئين في النحو

	وصيدة لمريده الطالب أعمر ياقوتة البلدان في فن البيان وشرحها يانع الاستفادة في ذكر من ذاته وصفاته متعالية
الشيخ محمد أحمد بن الرباني التندغي	أجوبة فقهية نظم أسماء الله الحسنى نظم في السيرة نظم في سور القرآن وناسخها ومنسوخها نظم الشهداء نظم غريب القرآن نظم في الفقه نظم مصطلح الحديث نظم في النحو
الشيخ محمد بن أحمذي الحسني (١٣٢٣)	طرة على الالفية
الشيخ محمد الامين الجكني (١٣٨٠)	كتاب في سنية القبض
الشيخ محمد الأمين الحجاجي	نظم اضاءة الادموس على خطبة القاموس
الشيخ محمد الأمين بن عبد الوهاب الفلالي (١٢٥٤)	أرجوزة في الوعظ التلخيص : شرح موجز للرسالة منظومة التنزيه والكفاية في التوحيد شرح خليل شرح مطول للرسالة كتاب في الصلاة على النبي «صلى الله عليه وسلم»
الشيخ محمد تقي الله بن الشيخ ماء العينين (١٣٢٠)	التبيين شرح الخلاصة لابن مالك والاحمرار لابن بونة شرح على نظم الطالب عبد الله الجكني في الرسم شرح مقصورة ابن دريد نظم سراج الساري في سيرة والده، مذكر الموارد في سيرة والده

الشيخ محمد الحافظ العلوي (١٢٤٥)

تعليق على ألفية السيوطي في مصطلح الحديث
الرسالة التيشيتية
شرح النصف الاخير من مختصر خليل

الشيخ محمد حبيب الله بن مايابى الجكني (١٣٦٤) القاهرة

ابراز الدر المصون على الجوهر المكنون للاخضري الجزائري، في البيان
اتمام القربة بشرح النخبة
ازالة الحرج في رد ما عند من أسقط الهجرة من الحجج
اضاءة الحالك في اختصار تبيين المدارك للمؤلف
٤٠ حديثا من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر
ايقاظ الاعلام في اتباع مصحف الامام
تحفة المجيد في وجوب التجويد
التحفة المجازة في أحكام الاجازة وشرحها
تزيين الدفاتر في مناقب الشيخ عبد القادر
تيسير العسير من علوم التفسير وشرحه
الجامع لاثباء العلماء وهو الثبت الوسط
حاشية على البهجة المرضية، شرح ألفية السيوطي
حلية المعاصم في رواية جعفر عن عاصم
منظومة دليل السالك الى موطىء مالك (٩٢٢ بيت) وشرحها
رسالة في اباحة الشاي
رسالة في شروط النكاح
رسائل في مسائل من الصلح
رسالة في أحكام الحجر
رسالة في أخبار عيسى والمهدي المنتظر
رسالة في أسباب الموت على الايمان
رسالة في تحريم المتعة
زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم وشرحه

منظومة سلم القضاة الى سلوك طريق النجاة
السلك البديع المحكم على سلم الاخضري – منطق –
شرح التحفة الوردية في النحو للوردي
شرح سواطع الجمان في التصريف، لسيدي محمد بن سيد عبد الله
شرح الكافية، لأبن مالك
شرح مثلث خالي الوسط...
شرح نظم الجرومية، «عبيد ربه»
شرح نظم حسن السوقي، لخليل
ظهير المحدثين باتصال كتب العشرة المجتهدين وهو الثبت الكبير
المقدمة العلمية وهي الثبت الكبير
منظومة فاكهة الخوان في علم البيان (٥٠٠ بيت)
الفتح الباطني والظاهري في الورد القادري
فتح القدير المالك، شرح موطأ مالك
كشف اللثام عن لقطة البلد الحرام
كمال المنة في اتصال المصافحة المدخلة للجنة
كنز المطالع في شرح الفاظ الدرر اللوامع في مقرأ نافع، لأبن بري
مسامرة الأحباب، شرح نظم اللباب، لمحمد بن أحمد بن بيه الجكني
منظومة في آداب العلم وحسن الاخلاق
منظومة في أحكام الأرداف في قراءة نافع
منظومة في أحكام بيع الغائب وشروطه
منظومة المعاني والبديع (٥٠٠ بيت)
نظم السير لأبي عمرو الداني في القراءات
منظومة النصائح الدينية
هدية المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث (منظومة وشرحها)

الشيخ محمد بن حنبل الحسني (١٣٠٢)

الأجوبة المباهية في الفقه
تسهيل الوصول، شرح قصيدة : يا رب عبد

قد دعا متوسلا
تنبيه المغمور على جل ضروريات الامور
حلية الألباب ونظم وسطى السنوسي في التوحيد
ري الظمآن في تفسير القرآن
شرح مديحية : الى العلى شكوت مابي..
شرح على نظم سيدي عبد الله البنعمري في التوحيد
ضرب الجنن والأسداد دون المشايخ والاوراد
قصيدة المعجزات
الناموس في شرح خطبة القاموس
نظم المعرب في النحو

الشيخ محمد الخضر بن مايابي الجكني (١٣٥٤)

ابرام النقض في مسألة القبض
استحالة المعية بالذات
ايضاح مختصر خليل بالمذاهب الأربعة بأصح دليل
الرسالة الحاوية لأحكام الخلافة والباغية
رسالة في زكاة الأوراق البنكية
رسالة في الطعن على التجانية
رسالة في الطعن على الوهابية
سلم الأرواح ـ تصوف ـ
السيف والموسى في ذب البهتان عن عيسى
قمع أهل الزيغ والالحاد عن الطعن في تقليد أئمة الاجتهاد
كوثر المعاني في كشف خبايا البخاري
مشتهى الخارف
لزوم طلاق ثلاث دفعة بما لا يستطيع العالم دفعه

الشيخ محمد الخليفة بن محمد النجمرى

رسالة في التصبير
رسالة في الحبس
رسالة في حكم من أحنث زوجها لقصد التطليق
رسالة فيما تدفع منه الدية في موريتانيا

رسالة المشرف على وصيى المحجور
مختصر في غوامض الفقه

الشيخ محمد العاقب بن بيه الجكني

منظومات شتى

الشيخ محمد العاقب بن مايابي الجكني

تأليف في الذكر
رغم الحفاظ المقصرين على المحتوى الجامع المعين ضبط ورش وقالون
السيف المنتضى في الكلام على القضاء
قصيدة في الحض على الجهاد والهجرة عن البلاد المحتلة
منظومة كشف العمى وشرحها في رسم القرآن
كفاية السعيد في حكم السجود على غير الصعيد
مجمع البحرين في سيرة الشيخ ماء العينين
منظومة وتعليق في اعراب الجمل
منظومة في قواعد الفقه (٢٠٠٠ بيت)
منظومة في نشر الطرف في أحكام الشرف
نظم نوازل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
التزامات الحطاب «هداية الحكام» وشرحه

الشيخ محمد عبد الله بن أحمذي الحسنى

افعام الغلان من شرح ديوان غيلان
شرح قصيدة زروق في صفة النبي : لقد كان خير الخلق أبهر طلعة
طرة على الجوهر المكنون للأخضري في البيان
العقد الفريد في التوحيد
قرة العين في تمييز فرض العين
كتاب في اثبات سنية القبض
مزيل الأوساخ عن معاني ديوان الشماخ
المعتمد في شرح بعض شعر محمد بن الطلبة اليعقوبي
الفصل والمقسم في شرح نظم القسم من

الاحمرار
نظم في حكم مال العبد

الشيخ محمد عبد الرحمان بن أحمد بن الهادي تمدكي
شرح نظم العروض لابن عبدم الديماني

الشيخ محمد عبد الرحمن بن فتى الحسنى (١٣٦٣)
رسالة في تخفيف الصلاة

الشيخ محمد فاضل القلقمي (١٢٨٦)
أجوبة فقهية
رسالة فى معنى الهيللة وفضلها
الستر الدائم للمذنب الهائم في الصلاة على النبي (ص)
سيف السكت في الصلاة في أول الوقت
سيف المجادلة
منظومة مطية المجد ـ تصوف ـ
منظومة النور الساطع في أسماء الله الحسنى

الشيخ محمد المامي الشمشوي (١٢٨٢)
الاجم (نحو، بيان، أصول، منطق)
الارمديات (قصائد في أصول الفقه)
اغراء الضوال والهمل على الكروع في حياض العمل ضد طرد الضوال لسيدي عبد الله
الاقرن (نحو، بيان، أصول، منطق)
ألفية السيرة
بلاغة (تكميل لذيذة معاني الحروف)
تذكرة النجاة في عقد دلائل الخيرات
حاشية على باب القياس من أصول الفقه لأبن السبكي
الخراج الأول في قواعد الفقه
الخراج الثاني في عقد خليل (١٠٠٠٠ بيت)
الدلفينية (قصيدة في الفقه وغيره)
الدولاب
ديوان شعر
الذب والنصر بالشريعة عن العشيرة في أحكام

هذه الشعيرة، يعني زكاة مال الاتباع
رسالتان في حكم مال الأتباع ضد محمد بن محمد سالم
رسالة الاطلاق في الأصول
زبدة الأنساب
الزبدْة في معاني الحروف
الزحلية (قصيدة في الاجتهاد ـ أصول الفقه)
الزعفرانية (قصيدة اختصر فيها مذهب محمذ المجيدري)
زهر الرياض الورقية في عقد الأحكام الماوردية (السياسة المدنية الشرعية)
سفينة النجاة ـ توحيد ـ
منظومة السلطانية كخاتمة للخراج الثاني
منظومة الصداق في قواعد الفقه (٤٠٠ بيت)
قصيدة في ترتيب السور المكية والمدنية وما فيه ناسخ أو منسوخ
قصيدة تقريب عدد ذرات الارض بالقاعدة الحسابية
قصيدة في مسألة حوادث لا أول لها ـ علم الكلام ـ
كتاب البادية
منظومة كتاب المذاهب
منظومة ـ نظم أهل بدر المختصر ـ
منظومة المفتاح (مصطلح الحديث)
مكتوب في القبلة
مكتوب في قرآن الاحاد
مكتوب في نبوة الملائكة
مكتوب في تاريخ وفيات الأعيان
قصيدة الميزابية في الجدل
نظم أجداد النبي (ص)
نظم أسماء الله الحسنى
نظم الحروف النحوية والكلمات المبنية
نظم السبعة المطالب (كلام)
نظم القوادح ـ أصول ـ

	نظم مقدمة تفسير بن جزى نظم المشهور من الأفعال بالفتح والكسر نظم الوحدات نظم ورقات امام الحرمين عبد الملك - أصول - نظم أهل بدر - وسيلة السعادة - نظم وظائف الامام منظومة الياقوت - لغة وتصريف -
الشيخ محمد محفوظ بن الشيخ أحمد تاج العارفين	شرح الالفية والاحمرار
الشيخ محمد محمود بن بيبه المسومي (١٣١٦)	كفاية المعتر ونصيحة المغتر - تصوف قرآن - منظومة في الناسخ والمنسوخ
الشيخ المصطفى بن العربي الابييري (١٩٢٠)	أجوبة فقهية رسالة على حياة القراء العشرة شرح دواوين الشعراء الهذليين شرح قرة الأبصار شرح بانت سعاد مجلد في التصوف الصحيح نظم أهل بدر
الشيخ المعلوم البصادي	منظومة في التوحيد والسيرة
الشينع النعمة بن الشيخ ماء العينين (١٣٣٩)	الابحر المعينة الجام المعترضين تعليق على مثلث ابن مالك تنبيه معاشر المريدين كتاب الفواكه نور الغسق في الاسم هل هو مرتجل أو مشتق
الشيخ باي بن الشيخ سيدي محمد الكنتي	شرح الاخضري شرح بعض الأحاديث النبوية شرح الجرومية

	نظم مبطلات الصلاة
صالح بن عبد الوهاب الناصري (١٢٧٢)	أسماء البلدان حاشية على شرح الورقات للنيسابوري - في الأصول - الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية ديوان شعر منظومة سوط عذاب على كل كذاب (ضد القضاة الجائرين) زخارف السلوك غوامض الحديث فتح الالقاب كتاب الاعلام المشهورة منظومة في أوليات التاريخ وشرحها النبذة في حوادث السنين
الطالب بن ابات الخرشي (١٢٠٨)	منظومة في شتى العلوم
الطالب أحمد بن عبد الرحمن البرتلي الولاتي (١٢٠٨)	شرح لامية الزقاق مؤيد الطالبين (شرح الرسالة)
الطالب أحمد بن محمد بن الحاج الطيب الجماني (١١٥١)	أجوبة فقهية
الطالب أحمد بن محمد رار التنواجيوي (١٢١٠)	شرح أم البراهين للسنوسي شرح ألفية ابن مالك طرة خليل
الطالب البشير بن الحاج الهادي الايديلبي (١١٩٧)	أجوبة فقهية
الطالب بوبكر بن أحمد المصطفى المحجوبي (١٣٣٥)	أنساب المحاجيب حياة الشيخ محمد فاضل القلقمي شرح العاصمية فيض الجليل، شرح خليل أجوبة رتبها «تلميذه» أحمد بن عبد الله البرتلي شرح خليل - الى باب الحج -

الطالب الحبيب بن ايدلمين الجكني	رسالة في بطلان الشرط المعلق ان أساءت الناشز
الطالب عبد الله الجكني	منظومة ضبط القرآن الكوكب في متكررات القرآن : ثمانية فأكثر المحتوى الجامع على رسم الصحابة نظم اعداد الراء، والعين، والصاد، والسين في القرآن نظم الحملة نظم المشدد من الواو، والياء في القرآن
الطالب عبد الله بن الحاج محمد الرقيق العلوشي (١٢٢٠)	أجوبة فقهية البدر الساطع على الدرر الوامع لابن بري الرفقة في بعض مسائل الصفقة شرح تحفة الأصحاب شرح الفريدة في النحو شرح المنهج للزقاق في القواعد مكتوب في بطلان الشرط المعلق للزوجة الناشز مكتوب في العقوبة بالمال يعارض فيه سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم منظومة في البدع
الطالب عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد شلة البلوي (١٢٠٨)	أجوبة فقهية رسالة في بطلان شرط الناشز
الطالب محمد بن الطالب اعمر الخطاط الولاتي (١١٦٥)	أجوبة فقهية تأليف في علم الحساب جوهرة الارشاد – توحيد – شرح باب التربيع في نظم السراج في علم الفلك للأخضري شرح أبيات : وقف الهوى بي حيث أنت على طريق الصوفية قصيدة في نقل الهمز ووصله نظم في الحيض وشرحه

الطالب محمد بن الطالب بوبكر الصديق البرتلي الولاتي (١٢١٩)	شرح أسماء الله الحسنى شرح الجرومية الصغير شرح الجرومية الكبير شرح الجرومية الوسط شرح الربع ١ و٢ من الرسالة شرح السلم شرح صغرى السنوسي فتح الرؤوف، شرح قصيدة معاني الحروف لعبد الله بن الطالب بوبكر المحجوبي فتح الشكور في علماء التكرور نسب آل مولاي الشريف الولاتيين
الطالب بن سيدي التنواجيوي	الأجوبة الشافية في وجوب زكاة الأوراق المالية
عبد الله بن أبي ميجة الشقروي	طرة خليل
عبد الله بن أحمد أبه الحسني	نظم أمثال الميداني نظم في مكارم الأخلاق
عبد الله بن أمين الديماني	أرجوزة وعظ خلاصة ما تفرق في الصحف المنتشرة من سيرة أهل البيت والعشرة منظومة في اصطلاح الميسر منظومة في ما خص الله به أمة محمد (ص) منظومة في يجب له الوضوء، ويندب منظومة في الاشهر والأيام التي يجب أو يندب فيها الصوم منظومة في اصطلاح الجزري منظومة في أهل بدر منظومة في الحج منظومة ذيل بها حلل المقنع للسنوسي في الفلك منظومة في معنى الأداء والقضاء ومحلهما

منظومة الوارث من أهل الفروض وموانع الارث

عبد الله بن أبيبه الديماني (١٣٢٨)

تأليف في الأوفاق
تحفة الأخوان في تجويد القرآن
تحفة الأطفال في تصريف الأفعال
ترتيب تبصرة الحكام لبرهان الدين ابن فرحون
الثمار شرح الكوكب الساطع في الأصول للسيوطي
جامع السيرة شرح الفية العراقي وقرة الأبصار والأنساب والغزوات للبدوي
السلم والمعراج في اختصار السراج (تفسير القرآن للشربيني)
شرح أنساب البدوي
منار الحائر في ترتيب النوادر، يعنى أمالي اسماعيل القالي
منحة الوارث في اختصار المباحث، لعبد القادر في علم الكلام
منظومة في الأشياء التي استعاذ منها النبي (ص)
منظومة في النحو
شرح الفية العراقي
اختصار كتاب أبيجوري ـ علم الفلك
اختصار دواء السكتة لأبي بكر الديماني في شرح دواوين الستة
شرح حرز الاماني (الشاطبية في القراءات)

عبد الله بن الحاج حماه الله الغلاوي (١٢٠٩)

اختصار خليل
اختصار الدرر اللوامع لابن بري
أرجوزة في النحو
تأليف في القراءات
تأليف في اللغة، مطول
تأليف فيما اتفق خليل والرسالة فيه (نظم)
تعليق على الدرر اللوامع، لأبن بري

تعليق على الشواهد النحوية
تعليق على صحيح البخاري
تقرير المنة، شرح اضاءة الدجنة
رفع الضرر في تحريم الطور (ذم الاكثار)
الرباني (أجوزة في النحو)
شرح الفية ابن مالك
شرح حائية سيدي عبد الله بن محمد (دع العيس)
شرح الدائرة الشافية في العروض والقافية (الخزرجية)
شرح السّيدية في الأصول لسيدي عبد الله بن محمد
شرح فائية سيدي عبد الله (ابن رازكة) هو الاجل الموقوت لا يتخلف
شرح القصيدة الدالية للحسن اليوسي المراكشي
شرح الكافية لابن مالك (نحو)
شرح لامية العرب للشنفري
شرح منظومة ابن البناء، للتصوف
شرح منظومة سيدي عبد الله ابن محمد في البيان
قصيدة رملية في النحو
مقدمة في النحو
مكتوب في جامع الايمان
منظومة في اعراب منصوبات القرآن
منظومة في البيان
منظومة في الحذف (رسم القرآن)
منظومة في الرخص
منظومة في الرد على المجيدي
منظومة في العروض
منظومة في المسلسلات
منظومة في المشتبه من القرآن
منظومة في المنطق

	نظم عبادات الاخضري نظم مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لأبن هشام نظم نقاية الفنون للسيوطي
عبد الله بن محمذ بن حب الله التامكلاوي	تكميل دواء السكتة
عبد الرحمن بن الشيخ بن متالي التندغي	الزرقاء : شرح تبصرة ابن بونة واحمراره شرح الطيبية في المنطق نظم درر اللئالي في البيان نظم في مصطلح القرآن والحديث
عبد الرحمن بن محمد الأمين بن الطالب سيدي أحمد الغلاوي	سلم الاماني على الرسالة
عبد الرحمن بن بلال الجملي	نظم في الرد على المتصوفة الغالين نظم في عقيدة الملائكة نظم في القرآن نظم في نسب ايد كجمله
عبد الرحيم بن احمد الولي المحجوبي (١١٣٠)	مقدمة في الفقه
عبد السلام بن محمد بن عبد الجليل العلوي (١٣٤٣)	شرح دواوين الستة منظومة فيما اختلف فيه الأشعرية والماتردية منظومة في المنطق وشح بها السلم، للأخضري
عبد القادر بن الامين الكمليلي (١٣٦٤)	القول الأسد في الساقطين على الاسد (مسالة الزين)
عبد القادر بن محمد سالم المجلسي (١٣٣٧)	توضيح طريق أهل السنة، شرح الاضاءة ثمان الدرر على المختصر شرح منطق الرسالة شرح عقود الجمان في البيان للسيوطي العقيدة الصغرى منظومة الفائق في البديع قرة العينين في شرح غزوات البدوي

	المباحث الجليلة في تحرير مقاصد الوسيلة نزهة الأفكار، شرح قرة الابصار منظومة الواضح المبين وشرحها في التوحيد العقيدة الكبرى (سلم القاصد الى أشرف المقاصد) المشرب الروي في الرد عن الجانب النبوي
عبد الكريم ابن الشيخ محمد الحسني	شرح على رسالة النفزاوي
عبد الملك بن النفاع الداودي (١٢٥٢)	الحاشية (شرح مختصر خليل من الزكاة الى آخر الوصايا)
عبد الودود بن الحضرمي المجلسي (١٣٦٢)	منظومة في أحكام الرد منظومة في تصريف الفعل منظومة في حوادث سني النبي (ص) منظومة في العروض منظومة في الفرائض منظومة في فقه اللغة منظومة في القضاء منظومة في التآخي بين المهاجرين والانصار نظم أهل بدر
عبيدة بن أحمد الصغير التشيتي	الوبل الهاطل في دفع القيمة الزائدة على المماطل
عثمان بن الطالب مؤمن البوفائدي	عون ذي المنة على الاضاءة
عثمان الكبير بن الحاج اعمر اليونسي	أجوبة فقهية
عثمان بن محمد يحي بن سليمة اليونسي (١٣٣٧)	الكوكب المنير في عقد رسالة الامير نظم مختصر الامير الكبير (لم يكمل) نظم نوازل القصرى النعماوي (لم يكمل)
علي بن محمد الأمين التندغي	نظم أسماء الله الحسنى نظم المهاجرين الى الحبشة
عمر بن عبدم الديماني (١٣٣٣)	شرح على استدراك أبيه على نظم البدوي في الأنساب

	شرح صغرى السنوسي شرح المعلقات
العم بن أحمد فال العلوي (ق ١٣هـ)	احمرار اللامية وشرحه
غالي بن المختار فال البوصادي (١٢٤٠)	نظم البعوث والسرايا وشرحه وسيلة الرواج في ذكر أزواج النبي (ص)
محمد بن أبي مدين الديماني (١٣٩٦)	الصوارم المنتضاة على من كره القبض والرفع في الصلاة نظم في الجهر بالذكر
محمد بن أحمد بن ابات النزارى (١٣٥٢)	شرح نظم والده في التوحيد
محمد بن أحمد بن حبيب اليدمسي (١٣٠٢)	المسخر في نظم خليل والميسر
محمد بن أحمد الشهير بالفاالفوتي (المدينة ١٣٤٩)	رسالة في أنساب الفلان
محمد أحمد بن البخاري الغلاوي (١٣٣٥)	نظم في الحساب العددي
محمد بن أحمد الصغير بن امبوجه التشيتي (ق ١٣ ه)	البحر المحيط في ألفاظ القرآن (المعدود، والمتشابه، والمحمول، والمحدود) تعليق على الجرومية تعليق على مختصر خليل منظومة الجيش في الانتصار للتجانيين منظومة السرية في الانتصار للتجانيين كتاب الانتصار لخليل ومقلديه المصباح في العربية النفحة القدسية في التصوف نظم أدوات مغنى اللبيب، لأبن هشام وشرحه نظم بعض أبواب الاحياء للغزالي نور القلب والعين في جواز بيع الغائب بالدين
محمد بن أحمد الصغير المسلمي التشيتي (١٣٢٤)	انارة المبهم والمظلم من أخبار عبد المؤمن ومحمد مسلم تنزيه أهل البيت عن أخذ ما حرم عليهم من الصدقات

	منظومة ضوء الظلام في فضل الصلاة على النبي (ص) قرة عين ذي النظر السديد في مناقب علماء التجديد مكتوب في الجمعة منة الوهاب في جواز التوسل بالصالحين نزهة أبصار ذوي الأفكار، شرح تنوير القلوب لوالده وسائل الاصطفاء في دلائل المصطفى
محمد بن احميدا	رسالة في انساب الشقراويين تأليف الصداق
محمد أحيد بن سيدي عبد الرحمن المسومي	تعليق على الدرر لأبن بري منظومة في رسم القرآن نظم آيات القرآن وشرحه
محمد بن اغشممت المجلسي	شرح وسيلة السعادة في علم الكلام لابن بونة عقيدة وشرحها
محمد الأغظف بن أحمد مولود الوسري	منظومة شرح الفصيل في العروض لعبد الله بن الحاج حماه الله شـرح منظومة السلطان المغربي عبد الحفيظ لمغنى اللبيب لابن هشام
محمد مبارك اللمتوني	تحريرات لمسائل فقهية منظومة التوسعة في الفقه رسالة في أنساب لمتونة شرح الفية ابن مالك شرح تحفة الحكام لأبن عاصم الغرناطي شرح تكميل المنهج للزقاق (لميارة) شرح مختصر خليل شرح المنهج للزقاق شرح نظم السملالي وذيله للرسموكي في علم الحساب

شرح نظم العمريطي لورقات امام الحرمين في الأصول
منظومة آداب المعلم المتعلم
الوسيلة في الفرائض (٤٠٠٠ بيت)

محمد الأمين بن أحمد بن بابانا العلوي (١٣٢٨)

تأليف في الأنكحة
تقييد في الفقه
رسالة في الحبس

محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني (١٣٣٥)

تعليق على نور الاقاح في البيان لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
التلخيص، شرح تكميل ميارة للمنهج
منظومة حافظ الايمان في الردة وشرحها
الرجز المفيد في غريب القرآن
رسالة في بيان أن لاولاد البنت حظا من الحبس
رسالة في جواز قسم الحبس بتا
رسالة في حكم الجهاز اذا حصل موت أو طلاق قبل خروجه
رسالة في منع اقامة الحد في البلاد السائبة (ضد محمد الفاضل بن الشيخ سيدي عبد الله الجكني)
رسالة في وجوب جبر من خيف عليها الفساد
شرح الاحمرار لابن بونة
شرح الاضاءة المقري
شرح تبصرة الاذهان في البيان لابن بونة
شرح تحفة المحقق في المنطق لابن بونة
رسالة عون الرحمن في حكم قصر المسافر بعياله
مراقي الصعود الى مراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
منظومة المرشدة في التصوف وشرحها
مكتوب في جواز بيع رقاب الحبس للضرورة
مكتوب في مراجع الاحباس

مكتوب في منع الحج على أهل الصحراء وشرحه
مكتوب في النكاح
منظومة في اداب تلاوة القرآن
منظومة في بيع الغائب
المنهج الى المنهج الى أصول المذهب للزقاق
النصيحة، شرح خليل
نظم أسماء الله الحسنى وخواصها وشرحه
الوظيفة في الأدعية المأثورة
نظم في الأصول وشرحه

محمد الأمين بن عبيدي الجكني

شرح مدائح ابن مهيب
نظم فرض العين من علم الحساب

محمد الأمين بن الرباني الغلاوي

التحصيل المنقول من صحاح الفروع والأصول
تقريب المنافع في الطب
الجامع على الضروري من علوم الشريعة (جزءان)
ديباجة في التوحيد
نثر الدر الظريف في مبهمات النحو والتصريف

محمد الأمين بن سيدي محمد بن علي بن ناجي

تأليف في فروض الأعيان
مقام التفسير في شرح حسن التحرير لمحمد يحيى بن سليمة اليونسي
مكتوب في الرد على الحمويين في القصر

محمد الأمين بن الشيخ أحمد الجكني

الأجوبة الصوفية
تحقيق الصوفية بالاسم والمعنى
التنزيه الاعلى في التفويض والتأويل في ايات الصفات
جواب السائل عن أغرب المسائل
الدرس الابتدائي
ديوان شعر
رسالة في تحرير أدلة وجوب الجمعة

	شرح منظومة عبد القادر الفاسي في النكاة شرح نصرة الوقت المنجية من المقت النظم الزاهي في النحو نظم كتاب الاقتصاد للغزالي منظومة في ياقوتة الاعراب
محمد الأمين بن عبد الله بن محمد سالم المجلسي	شرح الاضاءة
محمد بن انبويه المسلمي	الفية في البيان
محمد بن باباه القناني (١٣٨٢)	ترجمة الصداق وغيرها تعليقات على فقرات من المختصر شرح علي الأخضري شرح لامية العرب شفاء العليل، شرح سهو خليل نظم في العروض، شرح به منظومة الشيخ ماء العينين
محمد بدر الدين بن عمار السمسدي (ق ١٤)	تحرير الحكمين في نفي الكفر عن من ينطق بالشهادتين كتاب في ذم التقليد نظم في سنية القبض والرفع نظم ناصر السنة نظم يرد على من قصر في الحضر
محمد بن البراء بن بكى الديماني (١٣٦٢)	استدراك وشرح على نظم أبيه لوفود العرب استدراك على نظم الغزوات للبدوي قصيدة في الألغاز نظم في وفيات بعض الأعيان
محمد البشير بن سيد أحمد المحجوبي الولاتي	المنظومة الأدبية
محمد البصيري بن سيد المختار الجكني	شرح الجرومية منظومة وشرحها في الفرائض
محمد بلو الفلاني الهوصي	انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور
محمد بيب بن المقري العلوي	كتاب في الطب

محمد الجكني	نظم النصف الأول من خليل
محمد بن الحاج حمد بن اند عبد الله المحجوبي (١٠٧٠)	تعليقات على كتب والده وجده لامه عمر الولي المحجوبي
محمد حامد بن آلا الحسني	شرح قرة الأبصار والغزوات
محمد بن حبيب الله الحسني	منظومة في الصداق
محمد حبيب الله بن حموه الحسني	طرة على تأليف الطالب عبد الله الجكني في الرسم
محمد الحسن بن الامام الجكني	نظم طرد الضوال
محمد بن الخراشي التندغي	منظومة المفيد للمنتهي والمبتدىء البليد في الفقه
محمد سالم بن الامام اللمنوني	شرح نظم عبد الله بن الحاج حماه الله لنقاية البيان للسيوطي
محمد سالم بن المختار بن آلما اليدالي (١٣٨٣)	منظومة في استدراك على محفوظات الجموع لمحنض بابه منظومة الامنية في تصحيح النية تحفة النبلاء في كيفية القضاء تعليق على الكوكب الساطح للسيوطي في الأصول حفظ المهج (اذكار الصباح والمساء) الحكم في التصوف سبائك اللجين في الصلاة على النبي (ص) شافي السرائر في حصر الضمائر (نحو) شرح الكوكب الساطع للسيوطي شرح النصف الاخير من الزواجر عن اقتراف الكبائر للعسقلاني شرح نظم الطالب عبد الله الجكني فيما يشدد من الواو أو الياء في القرآن منظومة الشفاء فيمن برىء على يد المصطفى وشرحها صحيح المباني في البيان

	كشف الحجاب عن طرة الاعراب (نحو) لوامع الأنوار السنية في صحاح الانكار السنية منظومة المجتبى في النهي عن الغيبة والربا المسائل المستطرفة من كلام الفقهاء والمتصوفة المنيفة، شرح الوظيفة لزروق الفاسي نظم عكوس المواجهات (منطق) نظم في الفرائض
محمد سالم بن يا محمذ الحسني	نظم في الاسترعاء نظم في البيان
محمد سيدينا بن برو السمسدي (١٢٦٠)	مجمع الحكام على عوائد الخصام نظم عقد كتاب التيسير والتسهيل فيما أغفله خليل
محمد بن الشيخ التندغي	رسالة ضعفاء الامة الى أقوياء الامة نظم كشف العمى في مصطلح الحديث نظم في التاريخ
محمد بن صالح الجكني (١٣٤٨)	أجوبة فقهية ارشاد المغرور طرد البدع
محمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي (١٣٧٠)	الدر النظيم (ديوان شعر كبير) نزهة النديم في سيرة خلفاء الخديم نظم الأنيس المطرب في أخبار صحراء المغرب نظم بلوغ المرام في الانتصار للسنة النفحات المسكية في السيرة البكية
محمد عبد الله بن عوينات الجكني	منظومة في القرآن
محمد عبد الله بن اغشممت المجلسي	شرح بصائر التالين في التوحيد لمحمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي شرح الدرر اللوامع لابن بري

	شرح قصيدة الالغاز الفقهية لمحمد فال بن العاقل
محمد عبد الله بن انبوي المحجوبي (ق ١٣ هـ)	منظومة في التوحيد وشرحها
محمد عبد الله بن البشير المالكي (١٣٧٥)	الجام الأفواه عن الطعن في أهل الله شرح السلم في المنطق للأخضري شرح سلم الطالبين في قواعد النحو لأبن بونة شرح فصول من خليل شرح الكفاف لمحمد مولود شرح منظومة محنض بابه في البيان كشف الغمة في بيان ان المفوض في المعية متبع لأهل السنة مكتوب في الصفة المشبهة باسم الفاعل المنزع النبيل في التفويض في ايات الصفات نظم النصف الاول من الزواجر للعسقلاني
محمد عبد الله بن الشيخ أحمد الجكني	منظومة طويلة في تتمة خليل شرح بانت سعاد شرح المحتوى الجامع في الرسم للطالب عبد الله منظومة وشرحها في زكاة الفطر منظومة في الطهارة
محمد عبد الله بن الطالب أحمد بن أبي بكر البرتلي (١٢٦٣)	شرح الرسالة شرح عقيدة السنوسي
محمد عبد الله ابن القاضي الطالب عبد الله المحجوبي (١٢٢٠)	أجوبة فقهية تاريخ علماء تمبكتو تأليف في علم الحساب التوفير، تعليق على فتح الرب اللطيف في تخريج بعض ما في المختصر من الضعيف شرح الأربعين حديثا النواوية شرح تحفة الحكام شرح مختصر ابن أبي جمرة للبخاري مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني

محمد بن عبد الله القناني	تعليق على لامية الافعال لابن مالك واستدراك على نظمها شرح على نظم الغزوات للبدوي المقصد المحمود على المقصور والممدود
محمد بن عبد الله ابن اندوض المحجوبي (١٢٨٨)	شرح العاصمية
محمد عبد الله بن محمد المختار الولاتي	منظومة في ناسخ ومنسوخ السنة
محمد عبد الله بن يحظيه القناني (١٣٤٧)	فتح الجليل على شرح خليل منظومات شتى في الفقه منظومة في ناسخ القرآن ومنسوخة وأسباب نزوله نظم أسماء الله الحسنى نظم الشمائل النبوية لجسوس منظومة واضح المسالك لمذهب مالك وشرحها
محمد عبد الرحمن ابن أبي بكر الحسني (١٣٦٣)	اتفاق المذاهب الاربعة واختلافها جالب الاخلاص في التحذير من علماء السوء رسالة في تخفيف الصلاة بالنسبة للامام رسالة جمع فيها الأحاديث الواردة فيما يحب الله رسالة في الرد ورفع اللوم عن أئمة القوم نظم في البديع نظم في قراءة ابن كثير
محمد عبد الرحمن ابن مبارك القناني (١٣٤٧)	تاليف في التوحيد تأليف في السيرة تعليق على رسالة ابن أبي زيد نظم وشرحه في أصول الحلال
محمد بن عبد الصمد المالكي (١٣٨٢)	بلغة المحتاج في السيرة شرح الكفاف لمحمد مولود
محمد عبد الودود ابن انتهاه السمسدي	تاريخ السماسيد

محمد عثمان بن اغشممت المجلسي	الكوكب الوقاد في ذكر أحكام الكتاب منظومة في حوادث سنى الهجرة
محمد بن الغزالي الحسني (١٣٦٢)	تأليف في أنساب ايد اشغرة تأليف في أهل بدر تأليف في الصحابة تأليف في المعية يرجح تأويلها بالعلم السيف الصارم يرد على المتصوفة شرح قصيدة حميد الهلالي (الاهيما) شرح السفر من خليل عقل الشوارد على شرح الشواهد نظم أسماء الله الحسنى
محمد بن فاضل الشريف التشيتي (١١٦٠)	فتاوي فقهية
محمد فال بن آبنى التامكلاوي (١٣٠٩)	شرح للبقية من انساب البدوي تكميلا لشرح حماد شرح نظم أخلاق النبي لمحمذ فال بن متالى مع تكميله لزين بن الجمد اليدالي شرح نظم الشهداء لأبن متالى معجم في تفسير غريب القرآن وشواهده من شعر العرب نظم حوادث سنى الهجرة الاولى نظم الصحابة المذكورين في القاموس
محمد فال بن بابا العلوي (١٣٤٩)	امارة الترازة والبراكنة ولمحة عن أولاد مبارك ديوان شعر شرح باب البيوع من خليل شرح باب القياس من مراقي السعود شرح مرتقى الوصول الى علم الاصول لأبن عاصم منظومة في التجانية منظومة في الحبس منظومة وشرحها في موات الارض
محمد فال ابن العاقل الديماني (١٣٣٤)	أهبة المنتطق في علم المنطق تحفة الأطفال في توكيد الأفعال (بالنون)

	ترياق اللسع في المسائل التسع دمية المحراب فيما للقرآن من تصريف واعراب رسالة في حرف الجيم رسالة في الصحابة رواة الحديث مع مروياتهم رسالة في الصحبيات روايات الحديث ومروياتهن شرح محاجاة ابن بونة لمولود اليعقوبي قصيدة في الألغاز الفقهية مختصر في النحو المسائل العشرة في التوحيد المواهب الأحدية في ذكر الشمائل المحمدية نفحة الياسمين في الصلاة على سيد الكونين صلى الله عليه وسلم نظم جدات النبي (ص) نظم حوادث سنى الهجرة النبوية نظم شمائل النبي (ص) للترمذي نظم فواصل سور القرآن نظم ما انفرد به نافع عن سائر القراء السبعة
محمد فاضل بن الشيخ سيدي عبد الله الجكني	رسالة ببيان من له الحق في قتل اخيه لقرابته ردا على محمد الأمين ابن احمد زيدان الجكني
محمد بن الفرا التندغي (١٣٤٥)	الافادة، شرح وسيلة ابن بونة في التوحيد تيسير الملامس في الفقه رسالة في ثبوت الأحكام بالتلغراف نظم الركونية في الولاء نظم في المأمورات والمنهيات نهج الفلاح
محمد بن الفغ الفاضل بن أبي سفيان الحسني	تأليف في الفقه شرح ديوان الستة

محمد بن كداه الجكني الكمليلي	شرح الاضاءة (علم الكلام) للمقري شرح نظم مكفرات الذنوب لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
محمد الكرامي بن ما يابي الجكني	رسالة في جواز استعمال مثلث الغزالي، ضد محمد يحي الولاتي رسالة في حلية الشاي رسالة في مسائل الردة منظومة قيد الشوارد ـ فقه ـ منظومة في القضاء
محمد المحجوب بن الطالب الفاضل المسومي	منظومة في القرآن
محمد محفوظ بن الشيخ محمد الحسني (١٣٧٣)	حل الأوكية، يعارض به محمد الغزالي الشقروي المنكر لبعض أحوال المتصوفة النزل قبل النزال فيما أصله من الانكار لاهل الاعتزال
محمد بن محمد المختار بن الافضل الحسني	منظومة في الفرائض
محمد بن محمد سالم المجلسي (١٣٠٢)	الريان في تفسير القرآن لوامع الدرر على المختصر النهر الجاري على صحيح البخاري
محمد بن محمد المختار العلوي (١٣٤٩)	جامع في الحديث رسالة في ذم التقليد رسالة في منع وصل الشعر شرح قصيدة ساعدة (يا ليت شعري ولا منجأ من) شرح قصيدة لبيد (ان تقوى ربنا) شرح لامية الحاج محمد الكولخي في المغازي شعب الايمان فضائل الاعمال منة المنان (حديث)

منظومة نبراس أهل السنة في تفسير غريب القرآن والحديث وشرحها
نظم شهداء المعارك
نظم قواعد الفقه

محمد بن محمد النابغة التندغي (١٣٨٣)
أحاديث فضل العلم
شرح الاضاءة
شرح فرائض خليل
شرح مغازى البدوي
مكتوب في حكم الاجتهاد والتقليد
مكتوب في القضاء

محمد بن محمد فال التندغي
تأليف في موات الأرض
توشيح لقرة الأبصار
رسالة في مسألة التصبير
مجتهد الترجيح
نظم توشيح الغزوات للبدوي
نظم في حرف الجيم
نظم في حوادث سنى الهجرة
نظم في المعية وشرحه
نظم في ضبط كلمات من العربية
نظم في الفقه

محمد محمود بن أحمد الواثق التندغي
انظام في الفقه وأجوبة فيه مدونة
تعليق على الطيبية (الجواهر لأبن طيب)
تعليق على الالفية
تعليق على مختصر خليل
طرة على منهج الزقاق (قواعد)

محمد محمود بن حبيب الله ايد يجبى (١٢٧٧)
أجوبة كبرى وصغرى ووسطى
دعوة الفلاح في النكاح
شرح منظومة المفيد في الفقه لمحمد بن الخراش
مفتاح المرتج من الفاظ المنهج

محمد محمود بن سيدي أحمد بن الهادي التمدكي
شرح احمرار بن بونة
شرح تكميل ميارة لمنهج الزقاق
شرح المنهج للزقاق

محمد محمود بن الشيخ احمد الحسني
ارشاد الحائر في التاريخ السائر

محمد محمود بن الشيخ محمد بن سيدي الجكني (١٩٢٤ م)
تفسير القرآن
شرح المحتوى في الرسم
نظم حكم ابن عطاء الله

محمد محمود بن عبد الفتاح الابيري (ق ١٤)
الارشاد في كيفية الاعتقاد
رسالة في عروض الحسانية
شرح أقسام الدين المجهول
شرح نظم سيدي محمد بن سيدي عبد الله العلوي لاضاءة الادموس للهلالي
فتح الوهاب (نحو)
منظومة في السيرة
منظومة في مصطلح الحديث

محمد محمود بن محمد الأمين اللمتوني
بيان البغية في شرح الحملة المسومية
تبصرة المبتدئين في الدرر لأبن بري
ثمرة الجوامع في قراءة نافع
منظومة جامع الشتيت في القرآن
شرح منظومة النابغة الغلاوي (دليل الحيران في حكم تعليم الصبيان)
شرح منظومة الادغام
شرح منظومة محمد احيد المسومي في الرسم
الفوائد المهمة، شرح مقدمة ابن الجزري
مبين الأحكام، شرح ضبط القرآن للطالب الجكني
مقربة البعيد في قراءة نافع
منظومة في القراء العشرة وشرحها
نظم جامع الدر النثير في مقرأ ابن كثير وشرحه

محمد المختار بن اجميل الجكني	شرح لامية ابن مالك شرح نظم الجرومية نظم نسب الموجهات (منطق)
محمد المختار بن أحمد فال العلوي (١٣٤١)	تعليق على شرح يوسف الشنتمري لدواوين الستة الفوائد الصغرى في فضائل الأعمال الفوائد المهمة في بعض المسائل الملمة كتاب المسائل (فقه المعاملات) مقدمة في الاصول مكتوب في مسائل المعية منظومة في رسم القرآن منظومة في متجانسات القرآن منظومة في وجوب نية الامامة على من أم النساء وتعليق
محمد بن المختار بن الاعمش العلوي (١١٠٧)	الاجوبة الاطارية أجوبة في الدماء غير الاجوبة الفقهية أجوبة فقهية تأليف في البيان تأليف في النحو رسالة في مطلوبية اختلاع الناشر من زوجها روضة الأفكار في علم الليل والنهار (قصيدة وشرحها) شرح الاضاءة قصيدة عقيدة الفرائض قصيدة في المنطق قصيدة لب العقائد وبيان المقاصد المنن العديدة، شرح الفريدة للسيوطي نظم مغنى اللبيب لأبن هشام
محمد المختار بن انباله التشيتي	شرح لختصار محمد يحى اليونسي لتكميل مياره لمنهج الزقاق
محمد بن المختار بن حميد التاشدبيتي الغلاوي	منظومة زورق الخائض في علم الفرائض مرشد الفقير، نظم حكم بن عطاء الله

	موضح الشهادة نظم شهية السماع
محمد المختار بن الشيخ أحمد اللمتوني	نظم الشمائل النبوية
محمد المختار بن كبد الجملي (١٢٨٥)	نخبة الاعراب (نحو)
محمد بن المختار بن محمد الكريم الديماني (١٣٢٤)	نظم نوازل عليش رسالة في الفرائض نظم أسماء الله الحسنى وشرحه نظم تبصرة ابن فرحون
محمد المختار بن محمد يحى الولاتي (١٣٥٢)	أطواق السنة في الانتصار للتجانية درة الغائص في الرد على أهل الهاء الخالص (يعني تسهيل الهمزة بالهاء) شرح نظم عبد الرحمن بن الامام الغلاوي في القراء مسرة الاخوان في الانتصار للتجانية مكتوب في الانتصار للتجانية رد فيه على محمد يحي بن سليمة اليونسي نظم الجرومية
محمد بن المصطفى بن آجة التاشدبيتي الغلاوي	شرح أربعين حديثا صحيحة منظومة في التوحيد
محمد المصطفى بن الشيخ أحمد الجكني	رسالة في احكام الاستحقاق منظومة في عقيدة السلف وشرحها
محمد بن المصطفى بن فتى العلوي (١٣٣٧)	شرح ديوان الشماخ شرح نظم شهداء المعارك لأبن متالى منظومة اللئالي المنتثرة في أقارب العشرة (المشهود لهم بالجنة)
محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي (١٣٢٣)	منظومة آداب التلاوة وشرحها أحكام المقال في أحكام السؤال منظومة أدبة الادب في مأكل ومشرب الادبة الصغيرة اشراق القرار في تجنب الخبار أو الشكشارية

	بصائر التالين في تجويد القرآن تعليق عل الدرر لابن بري تنمية النية منظومة حرمات المساجد وشرحها رسالة في احكام تعليم الاطفال وحقوقه رسالة في احكام رفع الصوت بالذكر رسالة في احكام الضيافة رسالة في بيان سعة وقتي الصبح والمغرب رسالة في التصوف رسالة في عيادة المريض واحكام التداوي رسالة في مسائل قد تخفى على القارىء رسالة في النهي عن الطهارة «بأمازير» رسالة في النهي عن مس الأطفال لألواح القرآن والامر بتجليدها رسالة في النهي عن مس المصحف بغير طهارة رسالة في النهي عن النقش على القبور رسالة في واجب الأداء السلم والوسيلة الى اسقاط شهادة أهل بديله منظومة الظفر بالمراد في البر وشرحها كتاب الرحمة في الفقه منظومة الكفاف في الفقه وتعليق (مجلد) منظومة مأدبة الانداب فيما للانفاق من الآداب وشرحها مفتاح الظفر، شرح مختصر نظم في الخشوع نظم «الصربة» في الانتصار للسنة نظم في غريب القرآن نظم في محارم اللسان وشرحه نظم مطهرة القلوب في التصوف نظم المترادف من القرآن وشرحه
محمد مولود بن أغشممت المجلسي (١٣٢٧)	سلم الاظهار في الفرق بين الليل والنهار في الطهارة

	نظم الرعاة في أحكام الاجارة منظومة في مخارج الحروف وصفاتها وتعليق
محمد مولود بن الناهي اليعقوبي	نظم طبقات الشعراء
محمد النابغة التندغي (١٣٨٣)	٤٠ حديثا في الصدقة وذم السؤال شرح البسملة والفاتحة القائد الى الجنان في السنة نبذة في التعلق
محمد الهيبة بن الشيخ سيد الخير القلقمي	تبيين الغوامض على المعين في الفرائض
محمد بن يا متالى اليدمسي (ق ١٣)	منظومة في التوحيد
محمد يحي بن أبوه اليعقوبي	شرح الاضاءة
محمد يحيى بن سليمة اليونسي (١٣٥٤)	الأجوبة المقنعة عن الاسئلة العربية أحاديث في الرد على المتصوفة اختصار ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن للسنوسي اختصار بداية المجتهد لمحمد بن رشد الحفيد اختصار التبشير والتسهيل على خليل لعبد الملك الداودي اختصار تكميل المنهج للزقاق ومنظومة وشرحها اختصار جواهر المعاني لعلي حرازم الفاسي اختصار حاشية محمد بن عرفة الدسوقي اختصار خليل اختصار الزقاقية (منظومة وشرحها) اختصار صحيح البخاري اختصار طرد الضوال لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم اختصار العاصمية اختصار مطول لموطأ مالك اختصار منظومة الشيخ ماء العينين في الاجماعيات

اختصار المنهج المنتخب في القواعد
اختصار موجز لموطإ مالك
اختصار نصيحة محمد يحي الولاتي لاولاد الزوايا والطلبة
اختصار نوازل الكصرى النعماوي
أنوار الجنان على عقود الجمان في المعاني والبديع والبيان للسيوطي
البدر الطالع (نصيحة)
بهجة الاخيار على الفية الاحمرار
منظومة التهذيب، اختصر بها مراقي السعود وشرحها
منظومة التوسعة في الفقه وشرحها
التيسير والتسهيل لمعرفة أحكام التنزيل
تيسير الصعود الى مراقي السعود
جواب ابى الخير قاضي أروان
منظومة حسن التدبير في النحو (أو حسن التعبير)
خاتمة في أحكام الموطأ
منظومة ذيل سيد عبد الله الغلاوي لرسالة القيرواني
رسالة في الرد على الحمويين
رسالة في شروط التجانية
منظومة السراج في التوحيد والفقه وشرحها (طبع في تونس)
السعادة الصغرى في الفقه
السعادة الكبرى في الفقه (منظومة)
السعادة الوسطى في الفقة (منظومة) وشرحها
شرح الفية ابن مالك واحمرارها لأبن بونة
شرح الفصيل في العروض لعبد الله بن الحاج حماه الله
شرح ابن عاشر
شرح منظومة ابى الحسن على الماوردي
شرح منظومة سيدي محمد بن حبت، في

أحكام التقاء الساكنين
شرح منظومة عبد الحميد الشرنوبي في التوحيد
شرح منظومة ابنه عثمان لرسالة الامير في الفقه
شرح منظومة عبد الله القلاوي للرسالة
شرح منظومة عبد الله القلاوي لعبادات الاخضري
شرح منظومة عبيد ربه (محمد بن آب التواتي) للجرومية
شهود العيان في تحريم الشم والدخان
منظومة طهارة الأنفاس في أدلة المذهب وشرحها
منظومة غبطة الابرار وشرحها في الفقه
منظومة خليل وشرحه
محزن الشيطان في الرد على مسرة الاخوان لمحمد يحي الولاتي
مقدمة فتح الجليل بنظم خليل
منظومة في الأصول (١٠٠٠ بيت) وشرحها
منظومة البيان
منظومة التجانية
منظومة الحساب
منظومة في علم النجوم
منظومة في الفرائض وشرحها
منظومة في الفقه (٤٠ بيتا) وشرحها
منظومة في مصطلح الحديث
منظومة في الناسخ والمنسوخ من القرآن
نتائج الفطنة على شرح منظومة محمد بن الشحنه الحلبي
منظومة نحو الشهرين وشرحها المطول
منظومة نحو الشهرين وشرحها الموجز
نزهة الألباب في شرح تحفة الأحباب
نصيحة التجانيين
نظم اجماعات ابن المنذر

نظم الميزان للشعراني وبعض تعليق
نظم قواعد النحو وشرحه
نظم متمات الجرومية للحطاب
نظم نقاية العلوم للسيوطي وشرحه

محمد يحيى بن عبد الله بن الدنبجة التندغي

نظم أمهات النبي
نظم في تفسير ابن عباس للقرآن
نظم وشرح في القبض
نظم في الفقه

محمد يحى الولاتي (١٣٣٠)

رسالة في منع استعمال مثلث الغزالي
شرح نظم ابن «بوكفة» في أدلة مالك
الأجوبة المفيدة (أحكام الجمعة)
الأجوبة المهمة عن الوقائع الملمة (فقه)
أحكام زكاة الأوقاف والأحباس
اختصار كتاب البزدوي (أصول)
اختصار الموافقات الشاطبي (أصول)
البحر الطامي على تكميل مياره
بلوغ السول شرح مرتقى الوصول لأبن عاصم (أصول)
حسام العدل في ابطال شهادة رؤية النار وسماع صوت المدافع وخبر تلغراف
الرحلة وفي ضمنها عدة مؤلفات له
رسالة في أحكام هبة الحيوان مع استثناء ذكوره
شرح أبيات ابن عاشر في الأصول
شرح اختصار ابن أبي جمرة للبخاري
شرح الجرومية
شرح الحصن الحصين للجزري
شرح منظومة عبد الله القلاوي في البيان
شرح نظم حمى الله (انباله) لباب الفرائض خليل
شرح نظم الشيخ سيد محمد الكنتي لورقات النيسابوري
صلاح المؤمن في الأنكار

فتح الودود شرح مراقي السعود
قصيدة في مكفرات الذنوب وشرحها
كتاب الأطعمة والأشربة
منظومة المجاز الواضح الى معرفة قواعد المذهب وشرحها
مجلد من الفتاوي الفقهية منها أحكام الأوراق البنكية
نصيحة أولاد الزوايا والطلبة في الرد على المتصوفة
نظم الجرومية وشرحه
نظم مباحث الحروف من مغنى اللبيب لأبن هشام
مرتع الجنان على عقود الجمان للسيوطي
مكتوب في حكم قصر الهائم يخاطب فيه محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني
منبع العلم والتقى وشرحه في فروع الفقه وأدلتها من الكتاب والسنة
منظومة في التصريف
منظومة وشرحها في الناسخ والمنسوخ من القرآن
مهيع الصواب (فقه)
المواهب التليدة على الفريدة للسيوطي
نور الحق شرح البخاري

محمد اليدالي الديماني (١١٦٦)

تأليف في الفقه على نحو خليل
الحلة السيراء في الأنساب
فرائد الفوائد ـ توحيد ـ
خاتمة التصوف
منظومة دعوات على أسماء الله الحسنى وشرحها
الذهب الابريز، تفسير القرآن
رسالة في الفرق بين النكرة واسم الجنس
رسالة في النحو على نحو الجرومية

	المربي على صلاة ربي منظومة مورد الظمآن في محذوف القرآن
محمد يوسف بن عبد الحي الرقيبي دارا (١٣٢٨)	أجوبة فقهية شرح الاضاءة شرح خليل شرح مراقي السعود نظم في التوحيد
محمذ بن أحمد بن اجيه الجكني	أسنى المطالب في نجاة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم لباب علم السير في نصر الأنصار لخير مضر.
محمذ بن أحميد الديماني (١٣٥٨)	أنظام في أدب الأخلاق والنصائح رسالة في حكم خروج النساء رسالة في ضبط أسماء العلماء وتواريخهم طريقة الصلاح في مصطلح الحديث
محمذ بن بابانا العلوي (١٣٠٠)	رسالة في الحبس
محمذ بن سيد أحمد التندغي	اختصار كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني شرح قصيدة حميد الهلالي الميمية كاشف الغمة من معظم شعر ذي الرمة نظم في أنساب العرب، استدراك على نظم البدوي نظم في بعض أيام العرب.
محمذ فال بن أحمد فال التندغي (١٣٤٥)	أجوبة فقهية منظومة كيمياء السعادة في التوحيد منظومة المرشد في العروض منظومة في تراجع الحملاء منظومة في الفقه منظومة في فقه المعاملات منظومة في ما تجوز به الفتوى منظومة في التصريف والنحو
محمذ فال بن امباركي الشمشوي (١٢٩٦)	الرعيل في المنطق

محمذ فال بن متالي التندغي (١٢٨٣)	شافية الأبدان في الطب شرح ٤٠ حديثا النووية أجوبة شتى الجميل بسعادة المحيا والممات صلاح الاخرة والأولى ـ تفسير ـ صلة الرضوان في الأذكار فتح الحق في الفقه قرة عين النسوان في الفقه نظم النصيحة في التصوف نظم أخلاق النبي (ص) نظم أسماء الله الحسنى نظم الأصول وشرحه نظم شهداء المعارك نظم قواعد الفقه نظم معجزات النبي (ص) وخصائصه نظم أصحاب النبي وآبائهم
محمذ فال بن محمد خيرات التندغي	نظم في أمور الآخرة
محمذ بن محمد الامين بن أحمد بن ابييه الجكني	منظومة لباب علم السير في نصر الأنصار لخير مضر
محمذ بن محنض بابه الديماني (١٣١٩)	أنظام في شوارد الفقه رسالة في تسهيل الهمزة رسالة في حرف الجيم
محمذ بن الهاشمي اليدمسي (١٢٨٥)	منظومة نور الأديان (توحيد، فقه، تصوف، طب) وشرحها.
محمود بن محنض بابه (١٣١٦)	حاشية على ميسر والده
محنض بابه الديماني (١٢٨٧)	الأجوبة الصغرى الاجوبة الكبرى عن أسئلة العتيق الجكني (٦٠ مسألة) الأجوبة الوسطى تسديد النظر شرح مختصر السنوسي رسالة في بعث الأجساد ضد البخاري بن

الفلالي الشمشوي
رسالة في الحلف بالحرام ضد حبيب الله بن الأمين الجكني
رسالة في ربوية الصمغ
رسالة في مرجع الحبس المعقب ضد حرمه بن عبد الجليل
طرة الجواهر لابن طيب (منطق)
الميسر الصغير
الميسر الكبير
نظم في أصول الفقه
نظم في اعراب الجمل
نظم في البيان وتعليق
نظم في قواعد الفقه
نظم المغنى لأبن هشام
نظم محفوظات الجموع
نظم مفوتات البيع الفاسد

محنض بابه بن محمد بن حامد الديماني
قطف الزهور في التربية الدينية

محنض بن فتى الحسنى
تأليف في الحبس
رسالة في حرف الجيم

المختار بن آلما اليدالي (١٣٠٨)
سيول الأنهار في عمل الليل والنهار
المعرب عن وقت المغرب
مكتوب في النهي عن تفريق الزكاة
نظم أهل الصفة

المختار بن بابه الحاجي
نظم في أصول الأدب العربي
نظم في أنساب قبائل العرب والعجم
نظم في الجغرافيا
نظم السير وشح به غزوات البدوي

المختار بن بونة الجكني (١٢٢٠)
احمرار الالفية
تبصرة الأذهان في نكت علم البيان
تحفة المحقق في حل مشكلات المنطق
سلم الطالبين في قواعد النحويين
قصيدة محاجاة مولود في علم الكلام

المقدمة في النحو
نظم في الأصول
نظم وسيلة السعادة (علم الكلام)

المختار بن بيدح الديماني (١٣٠٩)
عطية الوهاب فيما تجانس من الكتاب
محصل الوصول الى علم المحمول
منظومة موضح الغامض في الفرائض
منظومة في وزن الفعل المزيد

المختار السالم بن علي التندغي
أنظام متفرقة في البيان والمنطق
تأليف في الأصول
تأليف في البيان
تأليف في الجهاد
تأليف في حقيقة التعويذ ومعرفة الله والوصول وبعض ما قيل في ذلك
تأليف في حكم ادعاء الدين على من مات وبيع تركته
تأليف في قسم العبد بين الشركاء في الاستغلال
تأليف في حلية الشاي
تأليف في الرضاع
تأليف في رفع الصوت بالذكر في المساجد
تأليف في الفقه والمسائل المفيدة
تأليف فيما يحل من أمر النكاح(الولولة، الوليمة..)
تأليف فيما يليق من الكلام في المتشابه وآيات الصفات والكلام في المعرفة
تأليف في مبيعات الفطر
تأليف في المنطق وتفصيله وحكم قراءته..
تأليف في نازلة أبناء يونس وآل علي في شأن العبيد
تأليف في الطب
تأليف في نفي الزوج لحمل الزوجة
تأليف فيما يحصل به الالحاق بالنسب
تأليف في هذه الدار اليوم والهجرة عنها

توفيق بين أهل الظاهر والباطن
الدرة المنيرة
ديوان شعر
رسالة في الآبار المجمعة المطوية والمحفورة
رسالة في اثبات طعامية الصمغ
رسالة في احياء الارض
رسالة في الاحياء وجملة ما أحياه أحد بعد الموت
رسالة في ادعاء أحد على أحد أنه لزمه له شيء أنكره
رسالة في ادعاء ملك المنيحة أو تحبيسها
رسالة في الأدلة وحقيقتها وتفصيلها
رسالة في الالتزامات
رسالة في الايمان اللازمة واللازم فيها
رسالة فيما يعامل به الشخص بنقيض مقصودة
رسالة في أوقات الصلاة
رسالة في تحقيق الخبر المشهود
رسالة في تحية المسجد ولزومها
رسالة في التصرف في مال الزوجة
رسالة في تعليق الطلاب والاقتداء وتأديب الأولاد
رسالة في تنازع أهل الحضانة فيما بينهم
رسالة في التيمم ورفعه للحدث من غيره
رسالة في الحبس المعقب
رسالة في حجة المبرز والقادح فيه
رسالة في حكم بيع دين الميت
رسالة في حكم التجارة والقراءة : أيهما يقدم
رسالة في حكم الحمل على البقر
رسالة في حكم لمس الأجنبية والنظر اليها ومواكلتها وما يجوز من ذلك
رسالة في الحلف بالحرام
رسالة في الدعاء بعد البيع
رسالة في الدية وأنواعها

رسالة في ذم الخصومة
رسالة في رضاع الكبير
رسالة في الزكاة
رسالة في شروط القاضي
رسالة في الطلاق وطلاق المعتدة
رسالة في طلب أحد الخصمين الصلح
رسالة في طلب المخطوبة للزواج
رسالة في العادة
رسالة في العرف والاهانة والابتلاء والاستدراج
رسالة في العقود التي يجوز اجتماعها مع البيع
رسالة في الفرق بين بيع الغبن والمعاطاة
رسالة في الفرق بين النيابة والاستنابة
رسالة في قسم غلة العبد المشترك
رسالة في الكتب المعتمدة وغيرها
رسالة في كيفية القراءة الصحيحة
رسالة في لزوم اليمين للمدعى
رسالة في ما يمضي به الاسترعاء
رسالة فيما يلزم لأهل الذمة
رسالة فيما يلزم من الايمان
رسالة فيما يلزم القاضي وسيرته
رسالة في المراقبة والمداهنة والمخالسة والمكاتمة والمحادثة
رسالة في المعتدة في الوفاة
رسالة في ملك اليد وحرمها
رسالة في موانع الشهادات
رسالة في النزاع في المجهول واللازم فيه
رسالة في النكاح
رسالة في الهبة وقبولها
رسالة في الوقف
رسالة في الوكالة
شرح احمرار ابن بونة

شرح مشكلات الشيخ خليل
الشمائل النبوية
اللؤلؤ اللماع في ايضاح شهادة السماع
المدائح النبوية (٢٩ قصيدة)
مسألة وصل المرأة لشعرها بغيره
مفيد العلماء الاعلام في تدبير احياء الاسلام
مورد الظمآن في الشعر والشعراء الأعيان
طبقات الشعراء
نثر في النحو للمبتدئين
نثر في النحو للمنتهين
النصح والارشاد لمن عن طريق النبي قد حاد
نظم في الحج
نظم في غرائب القرآن
نظم في الفرائض
نظم مشروح في تتمة الكفاف بالاعتكاف
نظم في مفردات الكفاف (٦٠٠ بيت)
نفقة الزوجة وكسوتها
نوازل في الفقه وأجوبة

المختار السالم بن محمد بن عباس التندغي
دليل العبيد على كيفية التعبد للمجيد
شرح على جزء العبادات من المختصر
شرح على العاصمية
شرح نظم حيمد بن انجبنان لصغرى السنوسي
فتح القيوم في آداب طلب العلوم
مزيل الجهل والاشكال فيما يفعل بمحتضر وميت النساء والرجال
مفتاح النجاح في الخشوع
نظم تصقيل الألباب
نظم المباحث (تصوف)

المختار بن القليب السباعي
الارشاد في حرف الضاد
درر المجيد الغائص في بحر التجويد

المختار بن محمد امبارك الديماني (١٣٦٩)
تحقيقات في شتى الفنون
قصيدة الغاز فقهية

المختار بن محمد بن أغلميت الديماني
نظم في الحساب
نظم في العروض
نظم في الفرائض

المختار بن محمذ بن بابانه العلوي
تأليف في الفقه
رسالة في طعامية وربوية الصمغ العربي

المرابط أحمد بن محمد عينينا بن أحمد بن الهادي التمدكي
مغنى قراء المختصر عن التعب في تصحيح الطرر

المرواني بن أحماد الداودي الجعفري الولاتي (١٣٦٨)
تعليق على عقود الجمان في البيان للسيوطي
شرح أسماء الله الحسنى
شرح لامية ابن مالك
نظم قرة العين

المرواني بن الطالب عبد الله النفاع الداودي الولاتي (١٢٢٩)
أجوبة فقهية
المنح، شرح الفية بن مالك
منظومة في الفقه (٤٠٠ بيت)

المصطفى بن أحماد بن عثمان بن مولود الغلاوي
العمل المشكور في جمع نوازل التكرور

المصطفى بن أحمد فال العلوي (١٢٩٥)
شرح أنكحة خليل
شرح المفيد في النحو لمحمد بن الخراش التندغي
مقتنص الشوارد وشرحه

المصطفى بن بونه التندغي
رسالة في رفع الصوت ومنعه على المرأة
نظم في الأداء وشرحه
نظم في علماء مذهب مالك

منير بن حبيب الله الشمشوي
الدلاصة على الخلاصة لأبن مالك

المهابة بن الطالب الجملي (١٣٨٢)
تعليق على نظم عبد الرحمن بن البلال في التوحيد
طرة على السلم
عقيدة مختصرة
فتاوي مدونة
كتاب في المتشابه

	نظم أسماء الله الحسنى نظم اضاءة الادموس في اصطلاح القاموس وشرحه
مولاي ابراهيم الشريف	كنز الأسرار على قرة الأبصار
مولاي ابراهيم بن مولاي عمار من شرفاء أغريجيت (ق ١٣)	شرح على قرة الأبصار
مولاي المهدي بن مولاي عمار الشريف (١٣١٠)	أجوبة فقهية تقريرات على شرح محمد يحي الولاتي لنظم عبد الله الغلاوي في البيان
مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي (١٢٤٣)	ديوان شعر سقاية المغتل من عين ثلاثي الفعل شرح الكوكب الساطع في الأصول للسيوطي نظم التنقيح في الأصول للقرافي وشرحه
النابغة الغلاوي (١٢٤٥)	الأزهري، شرح عبادات الأخضري «بوطليحية» منظومة في الكتب والأقوال المعتمدة عند المالكية السند العالي في مناقب اليدالي شرح الاضاءة شرح قصيدة «ان همي» لمحمد اليدالي شرح «غرام سقى قلبي» قصيدة سيدي عبد الله (ابن رازكة) شرح نظم عبد الله بن الحاج حماه الله الغلاوي للأخضري منظومة العدة في أحكام الردة فتح المربي، شرح صلاة ربي لليدالي المباشر، شرح ابن عاشر نظم أم اطريد نظم ذات الوليين
النجاشي بن محمد احيد المسومي	منظومة في رسم القرآن (اختصار منظومة والده) نظم وقف الهبطي

الهاشمي بن محمد الأمين اليدمسي (ق ١٣)	منظومة في التوحيد منظومة في التصوف
هبة الله بن حبيب الله الحسني	نظم في أنساب بني هاشم
يحي بن عبد الله الشقروي	تأليف في الأصول
يحى بن محمد بن المصطفى التندغي	تأليف في بيان الذكر المشروع رسالة في التوحيد شرح أم البراهين
مجهول	رسالة في حكم الجمعة

مصنفات أخرى مستدركة

(نورد في هذه القائمة أساسا بعض المخطوطات. ولكننا سنذكر بعض مصنفات المعاصرين المطبوعة حديثا تنويها بها ولسنا نعني هنا بالرسائل والاطروحات الجامعية الكثيرة التي ظهرت في السنوات الاخيرة).

أباه (محمد فال) بن عبد الله بن اباه :
- تفسير للقرآن الكريم
- شرح على احمرار ابن بونه
- رشق السهام في التصوف
- استدراك على نظم حوادث السنين لمحمد فال بن العاقل

اباه (محمذ) بن النحوي (ت ١٣٥٣ هـ) :
- منظومات، منها نظم توسلي بأسماء الله الحسنى

احمد بن حميد :
- تطور الأدب في موريتانيا

أحمد بن زياد الابهمي (١٣٢٢)
- حاشية على جامع ابن بونه

أحمد سالم بن سيدي محمد الابهمي :
- تعليق على أجزاء من جامع ابن بونة

احمد بن عبد القادر :
- أصداء الرمال (ديوان شعر)
- الأسماع المتغيرة (رواية)
- القبر المجهول (رواية)

أحمد بن مبيريك :
- صورة البخيل عند الجاحظ (طبع في تونس)

أحمد بن محمد بن البخاري اللمتوني (ت ١٢٧٥ هـ) :
- الفية في النحو وشرحها

اديبجه الكمليلي :
- سقاية الظمآن في أبنية الفعل

أم الخير بنت أحمد المختار الجكنية :
- نظم في المعجزات (١٧٠٠ بيت)

الامام بن سيدي المتقى بن امام الهدي :
- شرح على الفية ابن مالك

بابا بن أحمد بييه العلوي :
- نظم في وفيات الأعيان

بابا حسن بن مولاي عبد الله الشريف (صدر ق ١٤) :
- الفية في النحو

البراء بن بكي الديماني :
- طرة على الالفية

التجاني بن بابا بن أحمد بييه :
- نظم منية المريد في التصوف
- نظم أمهات المؤمنين، وشرحه
- نظم ورقات الجويني
- رحلة دوّن فيها مشاهداته حاجا

الحاج عبد الله بن محمد المشري ابن الحاج :
- انذار وافادة الى بائع دينه بشهادة

الحاج محمود با :
- شرح الجرومية

الحارث بن محنض الشقروي :
- اختصار المواهب النحوية لسيدي محمد بن حبت

حمد ابن التاه :
- محاضرات وقصائد ومنظومات في النقد الاجتماعي والتوجيه منها : «مؤتمر الأبالسة»

خديجة بنت العاقل :
- شرح سلم الأخضري في المنطق/شرح أم البراهين للسنوسي

الداه بن الطلبه :
- دليل المعلم في الاملاء
- جمع ونشر ديوان الشيخان بن محمد الطلبه

زياد بن حامدت الابهمي (١٢٤٨ هـ) :
- نظم ما ترك ابن بونه من التسهيل

زين بن الامين اليدالي (١٢٨٠)
- الطرة الحمراء على جامع ابن بونه

السالك بن البشير الغلاوي :
- شرح الاحمرار

سيدي بن انجبنان الالفغي (ق ١٢ هـ) :
- شافي الغليل في شرح التسهيل لأبن مالك

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم :
- الروض في أنساب الحوض
- مطرب العباد

سيدي محمد بن داداه (١٣٣٠ هـ) :
- شرح على الالفية

سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي :
- شرح الاحمرار لأبن بونه

سيدي محمد بن عبد الرزاق الابهمي :
- شرح جزء من الجامع (الاحمرار)

شغالي بن أحمد محمود :
- معجم النباتات الموريتانية

الشفيع بن المحبوبي :
- نظم مغنى اللبيب لأبن هشام

الشيخ بن أحمد محمود الابييري (١٣٦١ هـ) :
- شرح الفية ابن مالك

الشيخ باي بن الشيخ سيدي اعمر بن الشيخ سيدي محمد الكنتي :
- شرح الأخضري
- شرح الأجرومية
- نظم مبطلات الصلاة
- شرح أحادي المصري
- شرح الجامع لأبن بونة
- كتاب الفتاوي
- رسالة في الأنساب

الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي :
- نظم الورقات لامام الحرمين الجويني
- الطرائف والتلائد في مناقب الوالدة والوالد
- علم اليقين وسنن المتقين
- وصية
- اقليد الكنوز على ما في الياقوت من الرموز
- الخاتمة على الأبيات والالقاب بالاجزاء والاعاريض والأسباب
- الوسيلة الكبرى في اصلاح الدين والدنيا والاخرى
- الفتوحات اللدنية (شرح الصلاة الناصرية الدرعية)
- بهجة النفوس (في العقيدة)
- كتاب الاسرار (تصوف)
- الدراري السارية بالأجوبة الخيرة
- السلم الاسني الى أسماء الله الحسنى
- الاشارة الادرارية (تصوف)
- السراج النفيس (تصوف)
- الصوارم الهندية في جسم الدعوى المهدية

- أوثق عرى الاعتصام للامراء والوزراء والحكام
- شرح المثلث خالي الوسط

الشيخ سيدي المختار الكنتي :
- فقه الأعيان
- الرشاد على الفقه
- الأجوبة الاباتية
- جذوة نورانية (تصوف)
- التنبيل الجليل العادم المثيل
- كتاب التعارف في أخبار أهل الزمان
- كشف الغمة
- لطائف القدسي في فضائل آية الكرسي
- الألباب في الأنساب
- الأجوبة الشافية للمحتار في حقيقة التقوى والايمان بالله القهار

الشيخ محمد سيدنا بن أحمد محمود الابييري :
- شرح الالفية

الشيخ محمد العربي بن زين الجماني :
- شرح الجامع لابن بونة

الشيخ محمد المامي الشمشوي :
- الجاش الربيط في الكلام على شنقيط

الشيخ النعمة بن الشيخ ماء العينين
- تعليق على الالفية لأبن مالك

الطالب محمد بن الشيخ العابد (١٢١٩ هـ)
- شرح الأجرومية

عبد الله بن الطالب أبي بكر بن الشيخ الولاتي (١١٢٢ هـ) :
- فتح الرؤوف (قصيدة) في معاني حروف الجر وشرحها

عبد الرحمن بن حدامه المالكي (١٣٧٧) :
- شرح الالفية

عبد الرزاق بن سيدي محمد الابهمي (١٣٩٣) :
ـ شرح الجامع

عبد القادر الكمليلي :
ـ المواهب العندية في المناقب الحمدية

عبد القادر ابن محمد سالم المجلسي :
ـ شرح الالفية

عبد الودود بن عبد الله الالفغي :
ـ روض الحرون من طرة ابن بونه
ـ تأليف في تصريف الأفعال

عبيدة بن أحمد الصغير بن مبوجه التشيتي :
ـ ميزاب الرحمة الربانية (تصوف)

عثمان بن الطالب الأمين البوفائدي (ق ١٣ هـ) :
ـ شرح الالفية

الغلام بن حبت الغلاوي (آخر ق ١٣ هـ) :
ـ منظومة في تصريف الأفعال

محمد بن أبي بكر الكيهيدي :
ـ نظم الجرومية

محمد بن آب الغلاوي التواتي :
ـ نظم الجرومية (عبيد ربه)

محمد بن أبي مدين الديماني :
ـ نظم في أحكام شعر الانسان

محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني :
ـ منهاج العابدين لمن أراد اللحوق بالمتقين

محمد الأمين ابن بدي :
ـ نزهة الغياب والجلاس في مناقب الشيخ أحمد بن بدي

محمد الأمين بن الشيخ أحمد الجكني (١٤٠٠ هـ) :
ـ النظم الزاهي في النحو
ـ ياقوتة الاعراب

محمد الحافظ بن فتى بن الحاج :
ـ كناش شعر ومعارف

محمد الحسن بن أحمد الخديم :
ـ نظم في المعية
ـ منظومات فقهية

محمد سالم بن عدود (عبد الودود) :
ـ نظم في القانون الدولي
ـ منظومة ترتيب وتبيان أبواب تبصرة ابن فرحون
ـ رسالة في الاجتهاد
ـ رسالة في شأن المرأة في الاسلام

محمد بن الشيخ عبد الله :
ـ الردود السنية في التصوف
ـ الرد بالحديث والقرآن (تصوف)
ـ قبسات، تعليق على ديوان والده

محمد المختار ابن اباه :
ـ الشعر والشعراء في موريتانيا
ـ دراسات في تاريخ التشريع الاسلامي في موريتانيا
ـ موكب السيرة
ـ مدخل إلى علم الأصول

محمد عالي (باباه) ابن فتى :
ـ منظومات فقهية منها منظومة في الفقه المعاصر (المستجدات)
ـ رحلة مدونة
ـ ديوان شعر

محمد بن الصفي التندغي :
ـ شرح على الجامع لأبن بونه

محمد بن الطلبة اليعقوبي :
- تسهيل التسهيل لأبن مالك

محمد عالي بن سيدي بن سعيد الديماني :
- المنبه على عبيد ربه
- شرح على الجامع لابن بونه

محمد (بدنا) بن سيدي بن أحمدناه :
- جمع وتحقيق ديوان محمد بن أحمد يوره
- جمع وتحقيق ديوان الشيخ التراد بن العباس

محمد بن عبد الله الجكني (١٣٦٩) :
- حاشية على الجامع لأبن بونه

محمد عبد الله بن عبد القادر المجلسي :
- تعليق على الجامع

محمد عبد الرحمن بن الحاج العلوي :
- تأليف في حكم التغليس بصلاة الصبح

محمد عبد الرحمن بن السالك العلوي :
- عون المحتسب بشرح ما يعتمد في المذهب
- ترصيع النائل في مناقب الشيخ محمد فال
- فتاوي فقهية ومنظومات

محمد بن عبد الصمد المالكي :
- شرح أول الالفية

محمد فال بن عبد اللطيف :
- شرح الجرادة الصفراء للشيخ محمد المامي
- رسالة الفيش بين كسكس والعيش
- فتاوي الشياطين
- بلوغ الأمل من زيارة باريس وبروكسل

محمد بن محمد الأمين بن حبيب الله :
- المنح الحميدة شرح الفريدة للسيوطي

محمد (القاضي) بن محمذ فال بن أحمد فال التندغي :
- شرح الجامع لأبن بونه
- نظم الكتب المعتمدة
- نظم في الأنساب وشرحه

محمد محمود بن عبد الفتاح الأبيري :
- شرح لجامع ابن بونه

محمد المختار بن أحمد بن أنباله :
- شرح عبيد ربه

محمد مختار بن محمد الأمين اليعقوبي
- شرح عبيد ربه

محمد المشري بن عبد الله بن الحاج (١٣٩٥ هـ)
- ردع أسنة الأوغاد (تصوف)
- القنابل اليدوية (تصوف)

محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي :
- البشائر في تفسير القرآن العظيم
- تأليف في القراءات
- القول السديد في وجوب التجويد
- تأليف في الحديث الشريف
- انارة الافكار بشواهد النحو من الاخبار والآثار
- رسالتان في السن المقبولة في زكاة النعم
- رسالة في آداب طلب العلم
- رسالة في حكم ونكالة
- رسالة في مهايأة الأرقا
- رسالة في حكم الحج من بلاد شنقيط وشرحها
- رسالة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
- شرح على سلم القضاة
- العين الثرة فيما يخفى من معاني الطرة
- ازالة اللبس عن التنفل بالنجس

محمد يحي بن محمد مختار الداودي (١٣٣٥) :
ـ شرح الجرومية
ـ نظم مباحث الحروف من المغنى
ـ المواهب التليدة في حل الفاظ الفريدة

محمد اليدالي الديماني :
ـ أمر الولي ناصر الدين
ـ شيم الزوايا
ـ محمد آغربط بن المختار الحاجي (ق ١٤ هـ)
ـ نظم في اعراب الجمل
ـ تعليق على المفيد في النحو

محمد بن باباه :
ـ آثار اليدالي (تحت الطبع)

محمذ بن محمودا :
ـ كتب في تفسير القرآن والعقيدة

محنض بن مينين الديماني (١٢٨٠) :
ـ شرح نظم محفوظات الجموع لمحنض بابه

المختار بن جنكي الديماني :
ـ نظم مغازي ناصر الدين

المختار السالم بن علي التندغي :
ـ رسالة في مسائل الفعل

المرابط بن عبد العزيز :
ـ الشيخ محمد المامي

مريم بينت الامين بن الماحي الحسنية (١٢٧٦) :
ـ شرح على الكافية لأبن مالك

والد بن خالنا :
ـ كرامات أولياء تشمشه
ـ تأليف في شأن ناصر الدين
ـ منظومة بحوادث السنين.

ثبت المراجع

كتب مطبوعة

ابراهيم حركات : ـ المغرب عبر التاريخ/دار المسلمين ـ الدار البيضاء طبعة أولى ـ ١٩٦٥.

ابن بطوطة : ـ الرحلة (تحفة النظار في عجائب الأسفار) المطبعة الأزهرية بمصر، ط ١ ـ ١٣٤٦/١٩٢٨.

ابن خلدون : ـ المقدمة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت
ـ التاريخ ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٥٩ م

ابن عبد البر : ـ جامع بيان العلم وفضله

ابن عبد الحكم : ـ فتوح افريقية والاندلس/دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٤

ابن عذارى المراكشي : ـ البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٠.

ابن منظور : ـ لسان العرب

أبو بكر خالد با : ـ الشيخ عمر الفوتي

أبو محمد مكي بن أبي طالب : ـ التبصرة في القراءات السبع ـ الدار السلفية ـ بومباي ـ ط ٢ ـ ١٤٠٢/١٩٨٢.

أحمد أمين : ـ ضحى الاسلام ـ ط ١٠/دار الكتاب العربي ـ بيروت.
ـ ظهر الاسلام/دار الكتاب العربي، بيروت ـ ط ٥ ـ ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م

أحمد بن الامين الشنقيطي : ـ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط/ط ٣ ـ القاهرة ١٩٦١.

أحمد ابن الحسن (تحقيق) : ـ كتاب التكملة في تاريخ الترارزة والبراكنة لمحمد فال بن باب العلوي/بيت الحكمة ـ تونس ١٩٨٦.

أحمد محمود بن ودادي (تعريب وتعليق) ::
- كنته الشرقيون لبول مارتي/مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق ١٩٨٥.
- البرابيش/مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق ١٩٨٦.

أحمد بن المختار الشنقيطي :
- اعداد المهج للاستفادة من المنهج (ترتيب شرح المرابط محمد الأمين بن أحمد زيدان لمنظومة المنهج للزقاق في قواعد الفقه)/ادارة احياء التراث بقطر الدوحة ١٤٠٣ هـ.

د. أكرم ضياء العمري :
- موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد/دار القلم دمشق بيروت ١٩٧٥/١٣٩٥ م.

د. بدوي (عبده) :
- مع حركة الاسلام في افريقيا/الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ١٩٧٠.

البدوي (حماد) :
- تحفة الألباب، شرح الأنساب لأحمد البدوي ـ الدوحة ١٤٠٥ هـ.

البرتلي (الطالب محمد بن أبي بكر الولاتي) :
- **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (تحقيق ابراهيم الكتاني ومحمد حجي)/دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ١٩٨١.**

د. بشار عواد معروف :
- التربية والتعليم / حضارة العراق ـ نشر وزارة الاعلام العراقية.

البكري (أبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز) :
- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ باريس ١٩٦٥

د. التازي (عبد الهادي) :
- جامع القرويين : المسجد والجامعة بمدينة فاس/ط ١ ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٣.

د. الجراري (عباس) :
- ثقافة الصحراء/دار الثقافة ـ الدار البيضاء ١٩٧٨.

د. الجنابي (أحمد نصيف) :
- علوم القرآن الكريم/حضارة العراق.

د. الجنحاني (الحبيب) :
- المغرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرنين ٣ و ٤ هـ/أو ١٠ م ـ الدار التونسية للنشر ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.

د. الجندي (أنور) :
- العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي/دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري ١٩٧٩.

د. الجندي (علي) ومحمد صالح سمك ومحمد أبو الفضل ابراهيم الجيلاني لعبدا :
- أطوار الثقافة والفكر في ظل العروبة والاسلام/ ط ١ ـ مكتب الانجلو ـ المصرية/القاهرة ١٩٥٩.
- بحث عن المالكية في الصحراء ـ منشور في كتاب أعمال ندوة الامام مالك بن أنس/نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية المغربية ـ ١٤٠٠ هـ.

د. حسن ابراهيم حسن :
- انتشار الاسلام في القارة الافريقية ـ ط ٢/مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣.

الحطاب (محمد بن محمد عبد الرحمن)
- مواهب الجليل، شرح مختصر خليل. بحاشية الرهوني، دار الفكر ١٩٧٨.

الحميري (محمد بن عبد المنعم) :
- الروض المعطار، معجم جغرافي (تحقيق احسان عباس)
- مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥.

الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) :
- تاريخ بغداد/دار الكتاب العربي، بيروت.

خليل بن اسحاق المصري :
- المختصر في الفقه/دار الفكر - بيروت ١٤٠١ هـ.

الخليل النحوي :
- نماذج من الشعر الموريتاني المعاصر/اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٩.

الرازي :
- مختار الصحاح/دار الفكر - بيروت ١٩٧٣/١٣٩٣.

الرافعي (مصطفى صادق) :
- تاريخ آداب اللغة العربية/دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٤.

د. رشيد محمد عليان :
- الفقه الاسلامي/حضارة العراق.

الزركلي (خير الدين) :
- الاعلام/دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩.

د. زيعور (علي) :
- في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف/دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٩.

د. سامي النشار (تحقيق) : – كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة لأبي بكر بن الحسن الحضرمي المرادي/دار الثقافة – الدار البيضاء ١٩٨١.

سفارة موريتانيا بتونس : – أضواء على موريتانيا.

سكيرج (سيدي الحاج أحمد – العياشي) – كشف الحجاب/المكتبة الشعبية – بيروت.

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم : – يسر الناظرين شرح روضة النسرين/الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٥.

سيدي العربي السائح : – بغية المستفيد شرح منية المريد للتجاني بن بابا الشنقيطي/دار الفكر – بيروت ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م.

السيوطي :(جلال الدين عبد الرحمن) – الحاوي للفتاوي/دار الفكر – بيروت.

الشعراني (عبد الوهاب) : – كشف الغمة/دار الفكر – بيروت.

الشيخ ابراهيم بن الحاج عبد الله الكولخي – كاشف الألباس، ط ٢ / شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٣٩١ هـ/١٩٧١.

الشيخان بن محمد الطلبة : – ديوان شعر، جمع ونشر محمد سعيد (الداه) بن محمد عبد الرحيم/مؤسسة منير – الدار البيضاء ١٩٨٥.

الشيخ سيدي المختار الكنتي : – فتح الودود، شرح المقصور والممدود لابن مالك، بتحقيق مأمون محمد أحمد/مطبعة زيد بن ثابت – دمشق ١٤٠٦ هـ.

الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل
– نعت البدايات
– رائق الفتق على فاتق الرتق/دار الفكر.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : – أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن/ عالم الكتب – بيروت.

الطاهر الحداد : – التعليم الاسلامي وحركة الاصلاح في جامع الزيتونة/الدار التونسية للنشر – ١٩٨١.

طه حسين : – الأيام (الأعمال الكاملة) دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٠.

د. عبد العزيز سليمان نوار : – الشعوب الاسلامية/دار النهضة العربية – بيروت ١٩٧٣.

د. عبد العزيز بن عبد الله : – الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية/مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب – ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.

عبد القادر محمد سيلا : – المسلمون في السنغال/كتابة الامة – الدوحة ١٤٠٦ هـ.

د. عبد اللطيف الدليشي الخالدي : – الشيخ محمد أمين الشنقيطي/منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية – العراق – ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.

د. عبد الله عبد الدائم : – التربية عبر التاريخ/دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣.

عبد المجيد عابدين : – تاريخ الثقافة العربية في السودان/دار الثقافة – بيرو ١٩٧٦.

عمر فروخ : – تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ط ٢ دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٩.

الفيروز ابادي (مجد الدين) : – القاموس المحيط

القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن) – الرسالة القشيرية/دار الكتاب العربي بيروت

الكلاباذي (أبو بكر محمد) : – التعرف لمذهب أصل التصوف، تحقيق محمود أمين النواوي – ط ١/نشر مكتبة الكليات الازهرية – ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م.

محمد حبيب الله بن ما يابي : – زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم/مؤسسة الحلبي وشركاؤه – القاهرة.

محمد سعيد ابن دهاه : (تحقيق) : – ديوان سيدي عبد الله بن محم (ابن رازكه)// مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء – ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

محمد صالح البنداق : – التقويم الهادي/دار الآفاق الجديدة بيروت – ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

د. محمد:عبد الهادي أبو ريدة (تعريب) – الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز – ط ٤/دار الكتاب العربي بيروت – ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.

محمد فؤاد عبد الباقي : – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/دار احياء التراث العربي – بيروت ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م.

محمد بن محمد مخلوف : – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية

محمد المختار : – الشعر والشعراء في موريتانيا – تونس ١٩٨٧.

محمود فهمي حجازي (تعريب) : – تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، الرياض ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.

محمد مولود بن أحمد فال : – الكفاف وشرحه/طبعة سان لويس/السنغال.
– مجموعة تآليف (منظومات) مطبعة النصر نواكشوط – ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.

محمد يوسف مقلد : – شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون – ط ١ مكتبة الوحدة العربية / الدار البيضاء بيروت – ١٩٦٢.

د. محي الدين صابر : – المواجهة الشاملة، جذورها الفكرية وتطورها التاريخي/مطبوعات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس.

المقري : – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب/دار صادر – بيروت ١٩٦٨.

المنظمة:العربية للتربية والثقافة والعلوم – (معهد البحوث والدراسات العربية) : الجمهورية الاسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة – القاهرة – ١٩٧٨.

منير بعلبكي (تعريب) : – الاسلام والعرب لروم لاندرو/دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٢.

د. مهدي الصحاف ومصطفى الطاهر – هذه موريتانيا/منشورات وزارة الثقافة والاعلام بالعراق – ١٩٨١.

د. مهدي المخزومي : – اعلام في النحو العربي/منشورات دار الجاحظ – بغداد – ١٩٨٠.

النابغة الغلاوي : – منظومة «بوطليحية»/طبعة مصر ١٩٢٩.

الناصري السلاوي (أحمد بن خالد) – الاستقصاء لتاريخ دول المغرب الاقصى / الدار البيضاء – ١٩٥٦.

وزارة الاعلام الموريتانية : – من أجل اعادة الاعتبار لتراثنا الثقافي العريق.
– أضواء على التعليم في موريتانيا/نواكشوط ١٩٧٥.

الونشريسي : – الجامع المعرب عن فتاوي افريقية والأندلس والمغرب / طبع وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالمغرب – ١٤٠١ هـ.

يونس بحري : – هذه جمهورية موريتانيا الاسلامية/مؤسسة الحياة – لبنان ١٩٦١.

الرسائل الجامعية غير المنشورة

ابن بن الهلال (جمع وتحقيق) : – ديوان يقوى الفاضلي/نواكشوط ١٩٨٥

أحمد بدي بن أحمد فال (جمع وتحقيق) – ديوان القاضي محمد بن محمذ فال بن أحمد فال

أحمد ابن الحسن : – أسلوب محمد بن الطلبة اليعقوبي/تونس ١٩٨٠.
– الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب (أطروحة دكتوراه) تونس – ١٩٨٦.

أحمد سالم بن مولاي علي : – المختار بن بلول، شخصيته وحياته

أحمد بن سيدي (تحقيق) : – وفيات الأعيان لمحمد بن البراء/نواكشوط ١٩٨٤.

أحمد بن سيدي ابن حننا : – ظاهرة الدولة في المجتمع الموريتاني/ ٨٠٠ هـ/١٣٨٠ هـ – تونس ١٩٧٨.

أحمد بن محفوظ (تحقيق) : – الحسوة البيسانية في علم الانساب الحسانية لصالح بن عبد الوهاب الناصري/نواكشوط ١٩٨٤.

أحمد بن محمدن : – مدخل لدراسة العمود الغربي للتجارة الصحراوية من القرن ١١ الى القرن ١٦/نواكشوط ١٩٨٥.

أحمد ابن المفيد : – شنقيط، دورها الثقافي والاقتصادي/نواكشوط – ١٩٨٣.

احمدناه بن خطري (تحقيق) : – نظم المختار بن المحبوبي في التاريخ – نواكشوط ١٩٨٤.

الب بن محمد بن زين : – الشيخ محمذ فال بن متالي – نواكشوط ١٩٨٤.

حامد بن محفوظ بن بوبكر سيره : – القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه – ١٩٠٠ – ١٩٢٤ / نواكشوط ١٩٨٥ م.

حتوت بنت عبد الله : – امارة أولاد يحيى بن عثمان من ١٧٤٥ الى ١٩٠٠ م – نواكشوط ١٩٨٥.

خدجة بنت الحسن (تحقيق وتعليق) – منظومة بابكر بن حجاب الديماني – نواكشوط ١٩٨٤.

خديجة بنت لوداعه (تحقيق) : – المفيد للتمييز لأحمد بن محمد العبدلي الحاجي – نواكشوط ١٩٨٥.

سيداتي بن الشيخ (تحقيق) : – باب الاخلاق من كتاب الطرائف والتلائد للشيخ سيدي محمد الكنتي/نواكشوط ١٩٨٤.

السيد بن احمدو بنعمر ابن فتي (تحقيق وتعليق) – منظومة «الصداق» للشيخ محمد المامي/نواكشوط ١٩٨٤.

سيدي محمد بن بناهي : – نماذج من تاريخ أسرة آل حبت ١٨٥٠ – ١٩٥٠ م نواكشوط – ١٩٨٥.

سيدي محمد بن حيلاجي : – الشعر السياسي الاسلامي في موريتانيا – نواكشوط – ١٩٨٤.

سيدي محمد بن سيدي لحبيب : – نماذج من النشاط الثقافي في ولاتة في القرن التاسع عشر الميلادي – نواكشوط ١٩٨٥.

سيدي محمد بن محمد الأمين : – المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية من حياة المرابطين في موريتانيا – نواكشوط ١٩٨٤

الشريف بن محمد محمود : – حياة المختار بن بونه وآثاره وشعره – نواكشوط ١٩٨١.

شغالي بن المصطفى : – المرابط محمد الأمين بن أحمد زيدان، حياته وآثاره العلمية – نواكشوط ١٩٨٦.

عبد العزيز سي : – القاضي أبو بكر سي بن الامام ابراهيم سي – نواكشوط ١٩٨٤.

عبد الله السالم بن الشيخ أحمد : – دراسة شخصية الشيخ محمد حامد بن عبد الله بن آلا – نواكشوط ١٩٨٤.

عبد الله بن محمد الأمين : – مساهمة في ابراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين – نواكشوط ١٩٨٥.

عبد الله بن محمد عبد الرحمن (تحقيق) – ديوان محمدي بن القاضي . نواكشوط ١٩٨٥.

عثمان بن محمد فال : – جدلية السيف والقلم، دراسة في الشعر الحربي الموريتاني خلال القرن ١٣ هـ/نواكشوط ١٩٨٥.

عيشة بنت أحمد سالم : – تجارة العلك في الترارزة – نواكشوط ١٩٨٤

غيثي بن امم : – امارة أولاد يحيى بن عثمان ١٩٠٠ – ١٩٣٢ م – نواكشوط ١٩٨٤.

فاطمة بنت محمد محمود : – الوعي النقدي في الأدب الموريتاني من خلال الوسيط والمربي / نواكشوط ١٩٨٥.

محمد بن ابراهيم الخليل : – نظرة تاريخية على المحاضر الموريتانية في فترة ازدهارها/نواكشوط ١٩٨٤.

محمد الأغظف بن الداه : – الأوضاع البشرية في الحوض من سنة ١٦٩١ - ١٧١٢ م – نواكشوط ١٩٨٤.

محمد الأمجد بن ابات ومحمد الامين بن محمد محمود (تحقيق) : – روض الحرون من طرة ابن بون لعبد الودود بن عبد الله / نواكشوط ١٩٨٣.

محمد الامين ابن بدي (تحقيق) : – ديوان محمدي بن سيدي عبد الله الملقب بدي بن سيدينا/نواكشوط ١٩٨٤.

محمد الأمين بن داداه : – محمد بن محمد سالم – نواكشوط ١٩٨٤.

محمد حامد بن محمد أحمد تحقيق – ديوان الشيباني بن محمد أحمد نواكشوط ١٩٨٥.

محمد الصوفي بن محمد الامين : – المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية/الرياض ١٤٠٦.

محمد بن الطلبة : – مدخل لدراسة تاريخ موريتانيا تحت ظل الاستعمار/نواكشوط ١٩٨٤.

محمد عبد الله بن محمد محمود (جمع تحقيق) : – ديوان الشيخ محمد عبد الله بن أحمذية – نواكشوط ١٩٨٥.

محمد عيسى ابن باباه (تحقيق) : – شرح نعت العروض وتبيين الغموض لمحمد بن باباه/نواكشوط ١٩٨٥.

محمد فاضل بن محمد سالم (تحقيق) : – شرح مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال نواكشوط ١٩٨٤.

محمد مبارك بن الطالب عبد الرحمن (تحقيق) – رحلة البشير ابن امباريكي الى الحج/نواكشوط ١٩٨٢.

محمد بن محمد يحيى بن الدوه : – محضرة يحظيه بن عبد الودود – نواكشوط ١٩٨٥

محمد بن محمذن : – مدخل الى دراسة أزمة الترازة في القرن التاسع عشر – نواكشوط ١٩٨٥.

محمد محمود بن محمد سالم (جمع وتحقيق) – غرض المديح من ديوان محمد محمود بن أحمذية – نواكشوط ١٩٨٥.

محمد المختار بن السعد : – نظرة تاريخية على «شربيه» – نواكشوط ١٩٨٢

محمد المصطفى الندى : – دور المحاضر في موريتانيا – نواكشوط ١٩٨٦

محمد يحيى بن سيدي (تحقيق) : – سلم البيان للشيخ محمد المامي – نواكشوط ١٩٨٥

محمدي بن خيري : – بابا بن أحمد بيبيه، حياته وديوانه، نواكشوط ١٩٨٥

محمذ بابا بن عبد الله : – القضاء في موريتانيا قبل دخول الاستعمار.

محنض بابا بن المختار : – مدخل الى تاريخ الطرق الصوفية في موريتانيا خلال القرن ١٩ م/نواكشوط ١٩٨٤.

المختار بن أحمد : – الشعر السياسي الاصلاحي الموريتاني في القرن ١٣ هـ – نواكشوط ١٩٨٤.

المصطفى بن احمدان : – مساهمة في كتابة تاريخ ودان – نواكشوط ١٩٨٥.

المصطفى علمبيطالب : – الارستقراطية الدينية والأوضاع السياسية في موريتانيا خلال القرن ١٣ هـ (١٧٨٧ – ١٨٨٤ م) – نواكشوط ١٩٨٥.

المصطفى بن محمد (تحقيق) : – سواطع الجمان في ذكر المعاني والأوزان لسيدي **محمد** بن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم – **نواكشوط** ١٩٨٥.

النعمة بن عبد الله : : – الشيخ ابراهيم انياس الكولخي

يحيى بن البراء : – ألفية ابن مالك وتأثيرها في الثقافة الموريتانية – نواكشوط ١٩٨٢.

مصنفات مرقونة لم تطبع

بدنا (محمد) بن احمدناه (جمع وتقديم) – ديوان محمد بن أحمد يوره

سيدي الأمين نياس : – دراسات عن الأدب في السنغال (تحت الطبع)

شغالي بن أحمد محمود : – لمحات من تاريخ شنقيط (سحب بالرونيو في شركة الكتب الاسلامية – نواكشوط)

محمد بن أحمد يورة : – إخبار الأحبار بأخبار الآبار (طبعت منه نسخة في العهد الاستعماري، لم نطلع عليها)

محمد المصطفى الندي : – أساليب وطرق التدريس المحضري في الكحلاء والصفراء.

المختار بن حامد : – حياة موريتانيا (أهم وأضخم مرجع عربي عن تاريخ البلاد)، منه جزءان تحت الطبع في تونس.

دراسات وأبحاث ومحاضرات ومقالات غير منشورة

أحمد ابن الحسن : ـ حركة الامام ناصر الدين ومنزلتها من الاسلام في غرب افريقيا.

أحمد بن الطلبه : ـ مساهمة الموريتانيين في نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا (بحث قدم في ندوة سبل دعم التضامن والتعاون العربي ـ الافريقي في الاطار الاسلامي بجامعة تونس ٢٦ ـ ١٩٨٥/١٢/٢٨).

أحمد بن عبد الله : ـ مقال عن المحاضر

أحمد فال بن أحمد الخديم : ـ مقال عن أدب المحاضر.

الخليل النحوي : ـ محاضرة عن التعليم العربي الاسلامي في موريتانيا، قدمت في قطر ـ ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ (نشر منها ملخص في مجلة الامة القطرية).

محمد سالم بن عبد الودود : ـ محاضرة عن التعليم المحضري في ملتقى عبد الله بن ياسين للفقه الاسلامي / نواكشوط ـ فبراير ١٩٨٢.

محمد يحظيه بن البار : ـ محاضرة في ملتقى أئمة المساجد في القوارب (موريتانيا)

المختار الشاعر : ـ محاضرة عن المحاضر المعاصرة في موريتانيا.

مخطوطات

آب (الشيخ أحمد بن بدي) : ـ الدرع والمغفر في الذب عن الشيخ عمر

أحمد الصغير التيشيتي : ـ متن العلى الكبير (كناش له جمعه ابنه محمد)

بابا بن أحمد بييه : ـ منظومة في وفيات الأعيان

بابا ابن الشيخ سيديا : ـ تاريخ أدوعيش ومشظوف

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم : ـ صحيحة النقل في علوية أدو على وبكرية محمد غلي

الشيخ أحمد بن سليمان : ـ كتاب الأنساب

الشيخ سيدي محمد الكنتي : ـ الطرائف والتلائد في مناقب الوالدة والوالد
ـ الرسالة الغلاوية.

عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن الامين الكمليلي ـ المواهب العندية في المناقب الحمدية

محمد بن أحميد : ـ رسالة في أنساب الشقرويين (اداشغره) وتاريخهم.

محمد الأمين ابن النحوي : ـ كناش (مجموعة نصوص وتقييدات مختلفة)

محمد عبد الرحمن (النح) بن السالك بن بابا ـ عون المحتسب بشرح ما يعتمد في المذهب من الكتب (منظومة للقاضي محمد بن محمذ فال بن أحمد فال)

محمد عبد الله بن البخاري : ـ كتاب الآبار

محمد محمود بن سيدي عبد الله : ـ الدر الخالد في الترجمة لوالده سيدي عبد الله ابن الحاج ابراهيم

محمد اليدالي : ـ شيم الزوايا
ـ أمر الولي ناصر الدين (لهما طبعة في العهد الاستعماري بفرنسا)
ـ الذهب الابريز في التفسير
ـ المربي على صلاة ربي

ميلود بن المختار خي : ـ عيون الاصابة في مناقب محنض بابه

والد بن خالنا : ـ منظومة في حوادث السنين ووفيات أعيان البلاد.
ـ كرامات أولياء تشمشه

مجهول : ـ تأليف في تاريخ عرب الترارزة وعلاقتهم بالعلويين.

مقالات وأبحاث في الصحف والدوريات

الامة (قطر) : ـ مقابلتان مع الأستاذ محمد هيبتنا بن سيدي هيبة والشيخ محمد الحافظ النحوي،

- عرض لمحاضرة الخليل النحوي.

تعليم الجماهير : - (مجلة الجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار) عدد ١٤ يناير ١٩٧٩

حوليات الجامعة التونسية : - (عدد ٢٣) ـ أحمد بن الحسن : خواطر حول عينية ابن الشيخ سيديا.

الشعاع : - (مجلة المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية) نواكشوط : الأعداد الثلاثة الأولى : مقالات أحمد سالم بن مولاي علي وبوميه بن بياه ومحمد المصطفى بن الندي حول المحاضر وإعلامها.

الشعب (نواكشوط) : - اعداد مختلفة أحيل عليها في هوامش الكتاب، تتضمن :
- حديثا للدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
- نداء للدكتور أحمد مختار امبو المدير العام لليونسكو
- مقالات لمحمد الحافظ بن أحمد ومحمد بن سيدي عن محاضر الترارزة.
- مقالات لمحمد المصطفى الندى عن المحاضر.

العرب (لندن) : - عدد ١٩٨٦/٥/١٦

العربي (الكويت) : أعداد مختلفة تتضمن مقالات :
- د. طه الحاجري : شنقيط أو موريتانيا، حلقة مجهولة من تاريخ الأدب العربي.
- ألواح تحت الشجر (استطلاع عن موريتانيا)
- د. مليكة أبيض : التعليم في المسجد الجامع بدمشق
- استطلاع عن السنغال

الفكر (تونس) : عدد نوفمبر ١٩٧٧، وفيه ملف خاص عن الأدب والثقافة في موريتانيا رجعنا منه الى مقالات :
- محمد الحنشي بن محمد صالح
- محمد الحافظ بن أحمد
- الخليل النحوي

المستقبل العربي (بيروت) عدد فبراير ١٩٨٥ :
- أحمد بن الحسن : مظاهر الوعي القومي عند مثقفي بلاد شنقيط.

تقارير رسمية ووثائق

- **ادارة الاحصاءات** : نتائج الاحصاء الوطني لسنة ١٩٧٧
- **ادارة التعليم الثانوي** : تقرير عن حالة التعليم لسنة ١٩٨٥/١٩٨٦
- **الشيخ سعد بوه** : رسالة الى حاكم الترارزة بشأن احتجاز بعثة فرنسية في آدرار.
- **الشيخ سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان** : رسالة الى حاكم الترارزة يعرض فيها لبعض الانساب
- ملفات من الوثائق الوطنية الموريتانية، أحيل على أرقامها في هوامش الكتاب.
- حوليات تيشيت
- ملفات من الوثائق السنغالية، أحيل على أرقامها في هوامش الكتاب.

مراجع غير عربية

Abdallah Mouloud DADDAH : Sidi Mohamed Al-Kunti

Arnaud : La Mauritanie

Edouard Barthelemy : Notice Historique sur les établissements Français

J. Berque : Alyoussi, Problème de la Culture Marocaine aux XVII^{e} siècle

J. Beyries : — Evolution Sociale et Culturelle des Collectivités Nomades de la Mauritanie, Bulletin Comité d'Etudes Historiques et Scientifiques de l'A.O.F 1937.
— Enseignement et mœurs, revue Etudes Islamiques 1935.
— Questions Mauritaniennes, cahier 1, 1935.

René Caillé : Voyage à Tombouctou

Cheikh Moussa Camara : La Vie d'El Hadj Omar traduit par Amar Samb Ed. Hilal 1975

Francis Dechassey : — La Mauritanie 1900-1975.
— L'etrier, la Houe et le Livre Ed. Anthropos : Paris 1977.

Amadou Dia : Islam, Société Africaine et Culture Industrielle.
Nouvelles éditions Africaines 1975

Camille Douls : Cinq mois chez les Maures Nomades du Sahara Occidental : 1887, le tour du monde, volume 55, 24 Mars 1888

Christine Garnier : Désert Fertile, un nouveau Etat, la Mauritanie.
Vachette 1960

Gillier : La Pénétration en Mauritanie, Paul Geuthner 1926

Jules Gros : Les Voyages et Découvertes de Paul Soleiller dans le sahara et le soudan raconté par lui même.

A. Leriche : — Notes pour servire à l'histoire Maure.
— Notes sur les classes sociales sur quelques tribus de la Mauritanie, Bulletin IFAN, Série B, T. XVII, Avril 1955.

Cheikh Hamidou Kane : L'aventure Ambiguïe, Ed. Du Burin 1973

P. Lafogue : Une Secte Héresiarque : «Les Ghoudhf»

André le Courtois : Etude Expérimentale sur l'Enseignement Islamique traditionnel, septembre 1978 SEMA.

Paul Marty : Etudes sur l'Islam et les Tribus Maures :
— Les Trarza
— Les Brakna
Ed. Ernest Leroux, Paris 1921.

— Etudes sur l'Islam au Sénégal
Tome 1 : Les Personnalités
— Tome 2 : Les Doctrines
Ed. Ernest Lerous, Paris 1917.

Ahmed Baba Miksé : Alwasit, Tableau de la Mauritanie au début du XX^e^ siècle
Paris 1970.

Mohamed Mahmoud O. Jiddou : Chinguetti (La Mauritanie), Bilan critique des recherches historiques.
La Sorbonne, Paris 1977.

Mohamed El Moktar O. Bah : La Littérature Juridique et l'Evolution du Malikisme en Mauritanie, Publications de l'Université de Tunis 1980

Vincent Monteil : L'Islam Noir, Ed. du Seuil 1971.

Robert Randeau : Xavier Coppolani, le Pacificateur, Imp., A. Imbert Alger 1939

Jean Robert Pitte : Nouakchott : Capitale de la Mauritanie, Paris 1977.

E. K. Stewart : Islam and Social Order in Mauritania. Clarendon. Press 1973

Jean Louis Triaud : Islam et Sociétés Soudanaises au moyen âge, 1973

Archives nationales : Nouakchott
Archives de Dakar

فهرس المحتويات

شهادات ٣
تقديم ٥
مقدمة ٩
مفردات تتكرر في الكتاب ١٥

مدخل تاريخي

من صحراء الملثمين إلى موريتانيا ١٨
- غانة ومالي ١٨
- صحراء الملثمين ١٨
- بلاد التكرور ١٩
- بلاد شنقيط ٢٠
- بلاد المغافرة ٢١
- المغرب - الغرب ٢٢
- تراب البيضان - موريتانيا ٢٤
المجتمع الشنقيطي ٢٨
- الاسلام في الصحراء ٣٠
- العرب أهل الشوكة ٣٢
- الزوايا أهل العلم ٣٤
- تقسيم وظيفي لاسلالي ٣٦
- من الاسلام إلى التعرب ٤٠
هوامش وتعليقات المدخل ٤٣

الباب الأول : المحاضر، نشأتها وعوامل انتشارها

الفصل الأول : نشأة المحاضر وتطورها ٤٨
١ - أصول التعليم العربي - الاسلامي ٤٨
٢ - سمات المحضرة وخصائصها ٥٣
٣ - محضرة... أو محظرة ٦١
٤ - المعلم الأول... المحضرة الأولى ٦٣
٥ - الحواضر... مهد المحاضر ٦٦
- أوداغست ٦٦
- غانه ٦٧
- ولاته ٦٨
- تيشيت ٦٩
- وادان ٧١
- شنقيط ٧٢
- تنبكى ٧٤
- أطار ٧٤
٦ - تقاليد محضرية حضرية ٧٥
من الحاضرة إلى البادية ٧٦

الفصل الثاني : عوامل انتشار التعليم المحضري ٧٩
١ - الاسلام دين العلم ٨١
٢ - عناية الشناقطة بالعلم ٨٣
- العلم والمال ٨٦
- حب ورهبانية علم ٨٩
٣ - تجارة الصحراء والبحار ٩٤
٤ - الهجرة إلى البلاد ٩٨
٥ - الحروب القبلية ١٠١
٦ - البداوة ١٠٦
٧ - الرحلات الدينية والعلمية ١١٠
٨ - المراسلات ١١٣
٩ - الطرق الصوفية ١٢٠
- القادرية ١٢١
- الشاذلية ١٢٢
- التيجانية ١٢٣
- طرق أخرى ١٢٤
هوامش وتعليقات الباب الأول ١٢٧

الباب الثاني : المحضرة مدرسة جامعة

الفصل الأول : ظروف الدراسة المحضرية ووسائلها ١٣٦
١ - مدرسة للحياة ١٣٦
٢ - موارد المحضرة ١٤٢
- الرسالة المفتوحة ١٤٤
٣ - أدوات المعرفة والكتابة ١٤٧

- اللوح والقلم ١٤٧
- الحبــــر ١٤٨
- الــورق ١٤٩
- الكتاب والمكتبة ١٥٠
- المكتبات القديمة ١٥٤

٤ ـ الزمن في المحضرة ١٦٥
- عمر المحضرة ١٦٥
- مدة الدراسة ١٦٥
- مواقيت الدراسة ١٦٧
- العطل المحضرية ١٦٨

الفصل الثاني : العملية التربوية في المحضرة ١٦٩

١ ـ الطريق إلى المحضرة ١٦٩
٢ ـ مبادىء تربوية ١٧١
٣ ـ طريقة إلقاء الدروس ١٧٣
٤ ـ طريقة التحصيل الدراسي ١٧٤
٥ ـ التـأديـب ١٧٥
٦ ـ تقويم المستويات الدراسية ١٧٦
٧ ـ التخرج والاجازة ١٧٨

الفصل الثالث : الدرس المحضري ١٨٢

١ ـ روافد الثقافة الشنقيطية ١٨٢
- الرافد المغربي ـ الأندلسي ١٨٥
- الرافد المصري ١٨٧

٢ ـ معارف المحضرة ١٩٠
٣ ـ ترتيب المعارف ١٩٤
٤ ـ المعارف السائدة ١٩٥
- العقيــدة ١٩٦
- الفقــه ١٩٧
- علوم اللغة ٢٠٣
- النحــو ٢٠٥

٥ ـ محاضر متخصصة ٢١٠
٦ ـ محاضر موسوعية ٢١١
٧ ـ منهاج المحضرة ٢١٢

هوامش وتعليقات الباب الثاني ٢١٨

الباب الثالث : إشعـاع المحضـرة

الفصل الأول : الحصاد الثقافي ٢٢٩

١ ـ نوادر الحفظ والنبوغ ٢٢٩
٢ ـ التأليف والمؤلفون ٢٣٤
٣ ـ الشعر والشعراء ٢٥١

الفصل الثاني : سفراء المحضرة ٢٥٩

١ ـ في افريقيا ٢٥٩
- ذرية بعضها من بعض ٢٦٣
- مدرسون ومربون شناقطه ٢٦٥

٢ ـ في البلاد العربية ٢٦٩

الفصل الثالث : النتائج العامة ٢٨٣

١ ـ الاســلام ٢٨٣
٢ ـ التعــرب ٢٨٤
٣ ـ العلــم ٢٨٧
- نساء متعلمات معلمات ٢٨٨

هوامش وتعليقات الباب الثالث ٢٩١

الباب الرابع : المحضرة رباطا للجهاد

الفصل الأول : مشروع الدولة الراشدة ٣٠٣

١ ـ دولة التوبة أو حركة ناصر الدين ٣٠٣
- الدعوة إلى نصب الامام ٣١١

٢ ـ سلطة العلماء ٣١٣
- إقامـة الحــدود ٣١٧

الفصل الثاني : مواجهة الأطماع الخارجية ٣٢٠

١ ـ التجارة الغربية ٣٢٠

الاستكشـاف ٣٢٥

الفصل الثالث : مقاومة الاحتلال ٣٢٩

النَّصارى والسلم.. أم الفوضى والظلم ٣٢٩
٢ ـ الجهاد المسلــح ٣٣٤
٣ ـ المقاومة الثقافية ٣٣٩
- الاسلام والنصرانية ٣٤٠

- المحضرة والمدرسة ٣٤٤
- الحرب على المحاضر ٣٤٤
- المدارس الأولى ٣٤٦
- المدرسة الفرنسية من وراء حجاب ٣٤٨
- بطء وتعثر ٣٥٢
- المدرسة الفرنسية سافرة ٣٥٥
٤ - المقاومة السياسية ٣٦٧
هوامش وتعليقات الباب الرابع ٣٧١

الباب الخامس : موثبات في الأدب الشنقيطي

هذه الموثبات ٣٨٠
ألا يا أنصار الاله / محمد بن الطلبة ٣٨٨
أجزية بعد إسلام / بابا بن أحمد بيبه ٣٩٠
لا حر يرضى ما رضيتم / سيدي محمد بن الشيخ سيديا ٣٩٢
أثيروا الغرب / الشيخ محمد المامي بن البخاري ٣٩٤
حرض على نصب الامام / محنض بابا بن عبيد ٣٩٨
من لي بهم / الفغ سيدى أحمد العلوي ٣٩٩
حماة الدين / سيدي محمد بن الشيخ سيديا ٤٠٠
أيها المسلمون شدوا عليهم / جدود بن أكتوشني ٤٠٣
خطب جليل / بابا بن أحمد بيبه ٤٠٦
يا معشر الاسلام لا تسالموا / محمد العاقب بن مايابي ٤٠٧
دعوة مشفق / ماء العينين بن العتيق ٤٠٩
هوامش وتعليقات الباب الخامس ٤١٢

الباب السادس : حاضر المحاضر وآفاق مستقبلها

الفصل الأول : حاضر المحاضر ٤١٤
١ - المحاضر حيـة ٤١٤
٢ - المحاضر تحتضـر ٤٢٣
- الاستعمـار ٤٢٤
- الاستقـلال ٤٣٦
- الجفاف والتصحر ٤٣٧
- استقرار البدو ٤٤٠
الفصل الثاني : آفاق المستقبل ٤٤٣
١ - الأزمة والحل بين المدرسة والمحضرة ٤٤٣
٢ - المحضرة في لبوس العصر ٤٥٠
هل من سبيل لحماية المحضرة ٤٦٨
هوامش وتعليقات الباب السادس ٤٧٥

المـــلاحـــق

الملحق الأول : قائمة بأسماء بعض مشاييخ المحاضر الحية ٤٨٠
الملحق الثاني : بعض شيوخ المحاضر وخريجيها ٤٨٨
الملحق الثالث : تراجم بعض الأعيان ٥٠٠
الملحق الرابع : فهرس المؤلفين الشناقطة ٥٣٥
ثبت المراجع ٦٢٥

مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس